العندليب

كرِسْتِن هانا

مكتبة 1623

ترجمة :
أحمد حسن المعيني

رواية





لن ننسى غزة والشهداء

العندليب



العندليب - رواية
The Nightingale

تأليف: كِرِسْتِن هانا
Kristin Hannah

ترجمها عن الإنكليزية: أحمد حسن المعيني

تصميم الغلاف: فهوة غر



ISBN: 6 - 98 - 641 - 3

الطبعة الأولى: 2023

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

كرِسْتِن هانا



العندليب

رواية

ترجمها عن الإنكليزية:

أحمد حسن المعيني



تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق.



منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund


MOHAMED KHATAB

عزيزي القارئ:

يحدثُ أن تنسلّ إلى أعماقك قصّةٌ، فتهزّك بعنفٍ وتتحدّاك أن تُعرض عنها. هذا بالضبط ما حدث لي مع قصّة العندليب. والحقيقةُ أنّي فعلتُ كلّ ما في وسعي كي لا أكتب هذه الرواية، غير أنّ بحثي في موضوع الحرب العالميّة الثانية قادني إلى حكاية الشابّة التي صنعتْ طريق الهروب من فرنسا المحتلّة، فلم أستطع الفكاك منها. هكذا أصبحتْ قصّتها نقطةَ البداية، وهي في حقيقتها قصّةُ بطولةٍ، ومخاطرةٍ، وشجاعةٍ جامحة. لم أستطع صرفَ نفسي عنها؛ فظللتُ أنقّب، وأستكشف، وأقرأ، حتّى هَدَتْني هذه القصّة إلى قصصٍ أُخرى لا تقلّ عنها إدهاشاً؛ هي قصص عن النساء اللائي أنقذنَ أطفالاً يهوداً، وأنقذنَ طيّارين أُسقطت طيّاراتهم، وألقينَ بأنفسهنّ في دروب الخطر نجدةً للآخرين. لقد كلّفَتْهن تلك البطولة أثماناً رهيبةً لا تخطر على بال.

كان من المستحيل أنْ أتجاهل تلك القصص. هكذا ألفيتُ نفسي تحت وطأة سؤال واحدٍ يسكنني، سؤال يظلُّ اليومَ قائماً كما كان قبل سبعين عاماً: تحتَ أيِّ ظرف يمكن أنْ أخاطر بحياتي زوجةً وأمّاً؟ والأهمّ من ذلك، تحت أيِّ ظرف يمكن أن أخاطر بحياة طفلي لأنقذ شخصاً غريباً؟

يحتلُّ هذا السؤال موضعاً رئيساً في رواية العندليب. ففي الحبّ نكتشف من نريد أن نكون؛ أمّا في الحرب، فنكتشف من نكون. ولعلّنا في بعض الأحيان لا نريد أن نعرف ما يمكن أنْ نفعله كي ننجو بحياتنا.

في الحرب، كانت قصص النساء دوماً عرضةً للتجاهل والنسيان. فعادةً ما تعود النساء من ساحات المعارك إلى بيوتهنّ ولا يقلنَ شيئاً، ثمّ يمضينَ في حياتهنّ. العندليبُ إذن روايةٌ عن أولئك النساء، والخيارات الجريئة التي اتخذْنَها كي ينقذنَ أطفالهنّ، ويحافظنَ على نمط الحياة الذي اعتدْنه.

فشكراً لك أيّها القارئ على دعمك إيّاي طوال مشواري في الكتابة، وعلى استقطاع جزءٍ من وقتك كي تقرأ هذه الرواية التي تعني لي الكثير جدّاً.

خالص تحياتي،

كرِسْتِن هانا

الفصل الأوّل

9 نيسان / إبريل 1995م

ساحل أورِغن



لئن كان ثمّةَ شيءٌ تعلّمته في حياتي الطويلة، فهو أنّنا في الحبّ نكتشفُ مَن نريد أنْ نكون؛ أمّا في الحرب، فنكتشفُ مَن نكون. أبناءُ هذه الأيّام يريدون أنْ يعرفوا كلَّ شيء، عن كلِّ أحد. يظنّون أنّ مجرّد الحديث عن مشكلةٍ ما كفيلٌ بحلِّها؛ أمّا أنا، فأنتمي إلى جيلٍ أكثرَ هدوءاً. نحن نُدرك قيمةَ النسيان، وغوايةَ اختراع الأشياء مرّةً أُخرى.

لكنّني مؤخّراً ألفيتُ نفسي أفكّر في الحرب وفي سنواتي الماضية، والناسِ الذين فقدتُهم.

فقدتُهم.

يا لها من كلمةٍ تجعل الأمر يبدو كما لو أنّني أضعتُهم! لعلّي تركتُهم في مكانٍ غريبٍ، ثمّ ولّيتُ وجهيَ عنهم، ولِفرطِ اضطرابي لم أستطع أن أعود.

كلّا، ليسوا مفقودين، وليسوا في مكانٍ أفضل. لقد رحلوا. أعرفُ الآن،

وأنا أقتربُ من نهاية أعوامي، أنّ الأسى، شأنُه شأنُ الندم؛ يستقرُّ في حمضنا النوويّ، ويبقى إلى الأبد جزءاً منّا.

لقد هرِمتُ في تلك الشهور التي أعقبتْ وفاة زوجي، وتشخيصي بالمرض. وأصبحَ لبشرتي منظرٌ متجعّدٌ يشبه ورقةً شمعيّةً حاول شخصٌ ما أنْ يسوّيَها ويعيدَ استخدامها. تخذلُني عيناي كثيراً في الظلام، وحين تومضُ مصابيحُ السيّارات، وحين يسّاقط المطر. كم يُتلفُ الأعصابَ ألّا تستطيعَ الاعتماد على بَصَرك! ولعلّ هذا هو السبب في أنّني أصبحتُ أنظر إلى الوراء؛ فللماضي وضوحٌ لم أعدْ أتبيّنه في الحاضر.

يغريني التفكيرُ بالراحة والسلام بعد موتي، وبأنّي سأرى كلَّ الذين أحببتُهم وفقدتُهم. سيُغفَر لي على الأقلّ. ولكنْ، أوَلستُ أغالط نفسي؟

*

بيتي معروضٌ للبيع، بيتي الذي أطلقَ عليه تاجرُ الأخشاب الذي شيّده قبل أكثر من مئة عامٍ اسم «القِمم Peaks». أستعدّ الآن للانتقال إلى مكانٍ آخر، لأنّ ابني يرى ذلك.

يحاولُ أن يعتني بي، ويُظهِر مقدار حبّه لي في هذه الأوقات العصيبة؛ لذلك أحتملُ تحكّمه بأموري. وما عساه يهمّني أين أموت؟ هذه هي المسألة؛ فلم يعد مهمّاً أين أعيش. إنّني أودّعُ حياتي في شاطئ أورِغِن، تلك الحياة التي اعتدتُها منذ ما يقرب من خمسين سنة، ولا يوجد الكثير ممّا أريد أنْ أحمله معي، بيد أنّ هنالك شيئاً واحداً.

أمدُّ يدي إلى المقبض المعلّق الذي يتحكّم بسلالم العلّية، فتتدلّى من السقفِ مثل رَجُلٍ يمدّ يده.

تهتزُّ السلالم المهلهلة تحت قدميّ فيما أصعد إلى العلّية التي تنبعث

منها رائحةُ العفن. ليس في الغرفة سوى مصباحٍ واحدٍ معلّق يتأرجح من السقف، فأسحب السِلك لأشغّله.

لكأنّ هذا المكانَ عنبرُ سفينةٍ بخاريّةٍ قديمة؛ فثمّة ألواحٌ خشبيّةٌ عريضةٌ تؤطّر الجدران، وشِباكُ عناكب لوّنتْ خطوط الألواح بالفضّي، تتدلّى في خصلاتٍ من فُرجاتها. السقفُ مائلٌ جدّاً حتّى إنّني لا أستطيع الوقوف مستقيمةً إلّا في منتصف الغرفة.

أرى الكرسيَّ الهزّاز الذي كنتُ أستخدمه حين كان أحفادي صغاراً، وسريرَ أطفالٍ قديماً، وحصاناً هزّازاً مهترئاً على زنبركاتٍ صدئة، والكرسيَّ الذي مَرضتْ ابنتي قبل أن تنتهي من تجديده. ثمّة صناديق على طول الجدار مكتوبٌ عليها «أعياد الميلاد»، و«عيد الشكر»، و«عيد الفصح»، و«هالوِين»، و«أواني الضيافة»، و«أدوات الرياضة». تلك أشياء لم أعد أستخدمها كثيراً، لكنّني لا أحتمل فكرة التخلّص منها. فالاعترافُ بأنّي لن أزخرف شجرةً لعيد الميلاد محضُ استسلامٍ بالنسبة إليّ، ولم يكن تركُ الأشياء أمراً أجيدُ فعلَه على أيّ حال. هناك في الزاوية ما أبحث عنه. صندوقُ بضائع قديمٌ مغطّى بملصقات السفر.

أسحبُ الصندوق الثقيل بجهدٍ كبير إلى منتصف العلّية، تحت المصباح المعلّق. أجثو إلى جانبه، لكنّ الألم في ركبتيّ شديد، فأجلسُ على عجيزتي.

هذه أوّل مرّةٍ أرفع فيها غطاء الصندوق منذ ثلاثين سنة. الدُرجُ العلويّ منه مملوءٌ بتذكارات الأطفال. أحذيةٌ صغيرةٌ، ومجسّماتٌ خزفيّةٌ، ورسوماتٌ ملوّنةٌ فيها أشكال عِصيٍّ، وشموسٌ باسمةٌ، وتقاريرُ مدرسيّةٌ، وصور تدريبات الرقص.

أسحبُ الدُرج من الصندوق وأضعه جانباً.

التذكارات الموجودة في قاع الصندوق مبعثرة. ثمّة دفاتر جلديّة باهتة، وحزمة بطاقاتٍ بريديّة مربوطة بشريطة ساتان زرقاء، وعلبةٌ كرتونيّة ملتوية في إحدى زواياها، ومجموعةٌ من دواوين شعريّة صغيرة من تأليف جُولَيَن روسينيول، وعلبة حذاء بها مئات الصور الفوتوغرافيّة بالأبيض والأسود.

في أعلى الكومة ورقةٌ مصفرّةٌ باهتة.

ترتعش يداي، وأنا ألتقطها. كارت ديتانتيته، بطاقة هُويّة، من زمن الحرب. أنظر إلى صورةٍ صغيرةٍ لامرأةٍ شابّة؛ جُوليت جير فيز.

– ماما؟

يتناهى إليّ صوتُ ابني على السلالم الخشبيّة بصريرها العالي. خطواته منسجمةٌ مع دقّات قلبي. أتراه ناداني قبل الآن؟

– «ماما! لا يجدر بكِ أن تكوني هنا. اللّعنة! هذه السلالم ليست ثابتة».
يأتي ليقف إلى جواري: «سقطةٌ واحدة و—».

ألمس ساقه، وأهزّ رأسي برفق. لا أقوى على رفع عينيّ. كلّ ما أقوله: «لا تكمل».

يجثو، ثمّ يجلس. تتهادى إليّ رائحة كولونيا الحلاقة، هادئةً عطريّةً، مع نفحةٍ من دُخان. لا بدّ من أنّه اختلس سيجارةً في الخارج، فقد عاد إلى هذه العادة إثر تشخيص مرضي مؤخّراً، بعد أن تركها منذ عقود. لا يوجد ما يدفعني إلى استنكار ذلك، فهو طبيب، ويعرف مصلحته.

غريزتي تلحّ عليّ أن أدسّ البطاقة في الصندوق وأغلقه بقوّة، فأخبّئها ثانية. هذا ما ظللتُ أفعله طيلة حياتي.

أنا الآن أموت، ربما ليس موتاً سريعاً، لكنّه ليس بطيئاً كذلك، وأشعر بأنّي مضطرةٌ إلى النظر في حياتي السابقة.

- ماما، كنتِ تبكين.

- صحيح؟

أودّ لو أخبره بالحقيقة، لكنّي لا أستطيع. أشعر بالحَرَج والعار من هذا العجز؛ ففي سنّي هذه لا ينبغي لي أن أخشى شيئاً، ليس ماضيَّ على الأقلّ.

- أريد أن آخذ هذا الصندوق معي.

- إنّه كبيرٌ جدّاً. سأضع الأغراض التي تريدينها في صندوقٍ أصغر.

أبتسمُ، وأنا أدرك أنّه يحاول التحكّم بي. «أنا أحبّك، وقد عاد إليّ المرض. لهذين السببَين تركتك تتأمّر عليّ، لكنّي لم أمتْ بعد. أريد هذا الصندوق معي».

- وما الذي قد تحتاجين إليه منه؟ ما هي إلّا رسوماتنا وخردوات أُخرى.

لو أنّني أخبرتُه بالحقيقة قبل زمنٍ طويلٍ، أو رقصتُ، وشربتُ، وغنّيتُ أكثر، لربّما رآني أنا، ولم ير محض أمٍّ عاديّةٍ يعتمد عليها. إنّه يحبّ نسخةً منقوصةً منّي. لطالما ظننتُ أنّ هذا ما أردتُه؛ أن أحصل على الحبّ والإعجاب؛ أمّا الآن، فأشعر بأنّي ربّما أريد أن أُعرَف.

- عُدَّ هذا طلبي الأخير.

يريد أنْ يقول لي: لا تتحدّثي هكذا، لكنّه يخشى أن تخنقه دمعتُه. يتنحنح. «لقد تغلّبتِ عليه مرّتَين من قبل، وسوف تتغلّبين عليه مرّةً أُخرى».

كلانا يعرف أنّ هذا ليس صحيحاً؛ فحالتي غير مستقرّة، وأشعر بوهنٍ

شديد. لا أقوى على النوم، أو تناول الطعام بدون مساعدةٍ طبّية. «نعم، أكيد».

- كلّ ما أريده هو أن تكوني في أمان.

أبتسِم. يا لسذاجة الأميركان!

ذات مرّةٍ كنتُ أملك هذا التفاؤل. كنت أعتقد أنّ العالم مكانٌ آمن، لكنّ هذا كان في زمنٍ بعيد.

يقول جُولْيَن: «من هي جوليت جيرڤيز؟». فتسري بي رعشةٌ لسماع الاسم منه.

أغمضُ عينيّ، وفي الظلام الذي تنبعثُ منه رائحةُ العفن والحيوات الذاهبة، يعود عقلي يبحث في الماضي، كصنّارةٍ تُلقى على مدى السنوات والقارّات. هكذا أتذكّر، دون إرادةٍ منّي، أو ربّما في اتّفاقٍ معها، فمن عاد يدري؟

الفصل الثاني

«الأضواء تنطفئ في أوروبا كلّها. ولن نراها ثانيةً في حياتنا».

-السير إدورد غري، عن الحرب العالميّة الأولى

آب/ أغسطس 1939م

فرنسا

خرجتْ ڤيان مورياك من المطبخ البارد بجدرانه المجصّصة، إلى فناء بيتها الأماميّ. كان كلُّ شيءٍ نَضِراً في هذا الصباح الصيفيّ الجميل في «وادي لوا». الشراشفُ البِيض ترفرف في النسيم، والورودُ تتأرجح كالضَّحِكات على طول الجدار الحجريّ الذي يحجب بيتها عن الشارع. نحلتان صانعتان تئزّان بين الأزهار، ثمّ يتناهى إليها من بعيدٍ أزيزٌ مكتومٌ لقطارٍ عابرٍ، وبعده صوتٌ جميلٌ لضحكةِ صبيّةٍ صغيرة.

صوفي.

تبسّمتْ ڤيان. ربّما كانت ابنتُها ذات الثمانية أعوام تجري في البيت، تتدلّلُ على أبيها فيطيعها في كلّ ما تريد، وهما يستعدّان للذهاب في نُزهة السبت.

قال أنطوان حين ظهر عند الباب: «ابنتكِ مستبدّة».

مشى نحوها، وشَعرُه المدهّن يلتمع سواداً في ضوء الشمس. كان يعمل على أثاثه في ذلك الصباح (يُصنفرُ كرسيّاً كان قد أصبح ناعماً أصلاً كالساتان) وقد تبقّع وجهُه وكتفاه بطبقةٍ رقيقةٍ من نثار الخشب. كان ضخم الجثّة، طويل القامة، عريض المنكبين، وذا وجهٍ خَشنٍ، وشعرٍ خفيفٍ على الذقن لا بدّ من تشذيبه باستمرارٍ كي لا ينمو إلى لحية.

ألقى بيدٍ حول خصرها وجذبها إليه. «أحبّكِ يا ڤي».

- وأنا أيضاً أحبّك.

كانت تلك أصدقَ حقيقةٍ في عالمها. تحبُّ كلَّ شيءٍ في هذا الرجُل: ابتسامتَه، والطريقةَ التي يهمهمُ بها في نومه، وضحكتَه بعد أن يعطس، وغناءه الأوبرا حين يستحمّ.

كانت قد أُغرمت به قبل خمسة عشر عاماً في ساحة الألعاب بالمدرسة، من قبل حتّى أن تعرف ما هو الحبّ. كان أوّل تجربةٍ لها في كلّ شيء؛ قُبلتَها الأولى، وحبَّها الأوّل، وحبيبَها الأوّل. كانت من قَبله مجرّد صبيّةٍ نحيفةٍ مرتبكةٍ لا تفتأ تتلعثم حين تشعر بالخوف، وكثيراً ما كان الخوفُ يتملّكها.

كانت فتاةً يتيمة الأمّ.

قال لها والدُها حين جاءا إلى هذا البيت نفسه أوّل مرّة: «ستكونين الكبيرةَ الآن». كانت آنذاك في الرابعة عشرة من عمرها، متورّمة العينَين

من فرط البكاء، تفيضُ حُزناً لا يُطاق. وهكذا في لحظةٍ واحدةٍ، تحوّل هذا المنزل من منزلٍ صيفيّ للعائلة إلى شكلٍ من أشكال السِجن.

لم يكن قد مضى على وفاة مامُن(*) أسبوعان حتّى تخلّى بابّا عن دوره كأب؛ فحين وصلا إلى هذا البيت لم يمسك يدها، ولم يربّت على كتفَيها، أو يقدّم لها منديلاً كي تمسح أدمعها.

قالت: «لكنّي مجرّد فتاة».

- ليس بعد الآن.

نظرتْ إلى أختها الصغيرة إيزابيل، التي كانت ما تزال تمصّ إبهامها، وهي في الرابعة من العمر، ولا تعرف شيئاً عمّا يحدث. كانت لا تنفكّ تسأل متى تعود مامُن إلى البيت.

وحين فُتح الباب، ظهرتْ امرأةٌ رفيعةٌ طويلة القامة، لها أنفٌ أشبه بالصنبور، وعينان صغيرتان داكنتان كحبّات الزبيب.

قالت المرأة: «هاتان هما البنتان؟».

أومأ بابا إليها.

- أمرهما هيّن.

حدثَ الأمرُ بسرعة، ولم تستوعب ڤيان ما حدث فعلاً. فقد سلّم بابا ابنتَيه كما يسلّم المرءُ ملابسه للغسيل، فتركهما مع امرأةٍ غريبة. كان ثمّة فرق كبير في العمر بين البنتَين، كما لو أنّهما من أسرتَين مختلفتَين. وكانت ڤيان تودّ بصدقٍ أنْ تواسي إيزابيل، لكنّها لفرط ألمها كانت عاجزةً عن

(*) بالطريقة الفرنسيّة في نُطق كلمة (maman) أي «أمّاه» بصيغة عامّية غير رسمية. وسوف تُستخدم هذه الكلمة طوال الرواية كما شاءت لها المؤلّفة. (المترجم)

التفكير في أيّ شخصٍ آخر، لا سيّما في طفلةٍ عنيدةٍ ضَجِرةٍ وصاخبةٍ مثل إيزابيل. ما تزال ڤيان تذكر تلك الأيّام الأولى لها في هذا البيت، حين كانت إيزابيل تصرخ والمدام تضربها على عجيزتها. توسّلت ڤيان لأختها مرّةً بعد مرّة: «مونْ دْيو(*) إيزابيل، كفّي عن الصراخ، وافعلي ما تريدُه». لكنّ إيزابيل كانت عصيّةً، حتّى وهي في الرابعة من عمرها.

أمّا ڤيان، فكانت منهارةً من كلّ ما حدث. من حزنها على وفاة أمّها، والألم الذي اجتاحها من هجر أبيها، والتغيير المفاجئ في حياتهم، والوحدة التي كانت تعاني منها إيزابيل، وحاجتها إلى الرعاية المستمرّة.

أنطوان هو الذي أنقذ ڤيان؛ ففي ذلك الصيف الأوّل بعد وفاة مامُن، أصبحا لا يفترقان. لقد وجدتْ ڤيان مهرباً لنفسها معه. فلمّا بلغتْ السادسة عشرة حَبلَتْ، وفي السابعة عشرة أصبحت زوجةً وربّة بيت، بيت «لو جاردان». بعد شهرَين أجهضتْ، وتاهتْ فترةً من الزمن. لا توجد طريقةٌ أخرى لوصف الأمر. فقد شقّت طريقها إلى حزنها، وطوّقت نفسها به، فلم تعد قادرةً على الاهتمام بأيّ شخصٍ، وأيّ شيء. وبالطبع لم تكن قادرةً على الاهتمام بشقيقةٍ متطلّبةٍ نوّاحةٍ تبلغ من العمر سبع سنوات.

لكنّ هذه الأحداث صارت من الماضي البعيد، وليست من الذكريات التي تحتاج إليها في يومٍ جميل كهذا اليوم.

اتّكأتْ على زوجها بينما كانت ابنتهما تقترب منهما وتقول: «أنا جاهزة. فلنذهب».

– فقال أنطوان مبتسماً: «الأميرة جاهزة إذن، ولا بدّ من أن نتحرّك».

تبسّمتْ ڤيان، وهي تدخل البيت لتأخذ قبّعتها من المشجب عند الباب.

(*) تعبيرٌ فرنسيّ يعني «يا إلهي»، أو «بالله عليك»، حسب السياق. (م)

كانت دائماً تحمي شعرها الأشقر المحمرّ، وعينَيها الزرقاوَين كالبحر، وجلدها الرقيق من أشعّة الشمس. فلمّا وضعتْ قبّعةَ القشّ العريضة فوق رأسها، وأخذتْ القفّازَين المزركشَين وسلّة النزهة، كانت صوفي وأنطوان قد خرجا من البوّابة.

لحقتْ بهما ڤيان عند الطريق الترابيّ أمام المنزل. طريقٌ ضيّق يكاد لا يتّسع لمرور سيّارة. أمّا ما وراء ذلك فقد امتدّت فدادين كثيرة من حقول القشّ، ترصّعها هنا وهناك شجيراتٌ من شقائق النعمان ووَردِ الذرة الأزرق. كانت الغابات تنمو في بُقعٍ متفرّقة من الأرض. في هذه الزاوية من وادي لوا كان الأغلب أن تُزرع الحقولُ تِبناً لا عِنَباً، وعلى الرغم من أنّها لا تبعد عن باريس بالقطار سوى ساعتين، أو أدنى، إلّا أنّها كانت تبدو كما لو أنّها من عالمٍ آخر تماماً. لا يزور السيّاح هذا المكان إلّا ما ندر، حتّى في فصل الصيف.

تمرّ سيّارةٌ بين الحين والآخر، أو درّاجةٌ هوائيّةٌ، أو عربةٌ يقودها ثور، لكنّهم في أغلب الأحيان كانوا وحدَهم على الطريق. يقطنون على بُعد كيلومتر ونصفٍ تقريباً من «كاريفو»، وهي بلدةٌ لا يزيد عدد سكّانها عن ألف شخص، لكنّها كانت تُعرف غالباً بأنّها محطّةٌ في رحلة حجّ القدّيسة جان دارك. لم تكن ثمّة صناعة في البلدة، وفرص العمل شحيحة، باستثناء المطار الصغير الذي كانت البلدة تفاخرُ به. كان الوحيد من نوعه على امتداد مسافةٍ طويلة.

شوارع البلدة ضيّقةٌ مرصوفةٌ بالحصى، تتعرّج بين المباني القديمة المبنيّة بالحجر الجيري، والتي كانت تتكئ على بعضها على نحوٍ فوضويّ. كان الملاطُ قد تقشّر من الجدران الحجريّة، فيما راحت أغصانُ اللبلاب

تُخفي العفَن تحتها، ذلك العفن المخبوء، لكنّه محسوسٌ دائماً. كانت القريةُ قد نشأتْ على أجزاءٍ متفرّقةٍ عبر مئات السنين، بشوارعها الملتوية، ودرَجاتها غير المستوية، وأزقّتها المسدودة. تُضفي الألوانُ حياةً على المباني الحجريّة، ما بين مظلّاتٍ حُمْرٍ بأضلاعٍ معدنيّةٍ سُود، وشُرفاتٍ من الحديد مُزخرفةٍ بنبات الغرنوقيّ الموضوع في أحواضٍ من الطين النضيج. كان في كلّ مكانٍ شيءٌ يغري العينَين؛ فإمّا علبةٌ من حلوى الپاستيل، وإمّا سِلال صفصافٍ ممتلئةٌ بالجبن، واللّحم، والسجق، أو صناديق من الطماطم، والباذنجان، والخيار في أبهى ألوانها. المقاهي مزدحمةٌ في هذا اليوم المشمس. يجلس الرجالُ حول طاولاتٍ معدنيّةٍ، يشربون القهوة، ويدخّنون السجائر البنّية الملفوفة، ويتجادلون بأعلى أصواتهم.

كان يوماً عاديّاً من أيّام كاريڤو. المسيو لاشُوا يكنسُ الطريق أمام محلّه لبيع السَلَطة، في حين كانت مدام كلونيت تنظّف نافذة متجرها لبيع القبّعات، فيما يتجوّل مجموعةٌ من المراهقين في البلدة، كتفاً بكتف، يركلون ما يجدونه أمامهم من مخلّفات، ويمرّرون سيجارةً بينهم.

عند أطراف البلدة انعطفوا صوب النهر. وهناك فوق عشبٍ مسطّحٍ على طول الضفّة وضعتْ ڤيان سلّتها وبَسَطت لحافاً تحت ظلّ شجرة كستناء. أخرجتْ من السلّة خبزاً فرنسيّاً مقرمشاً، وقطعة جبنٍ بالقشدة المزدوجة، وتفّاحتَين، وشرائحَ لحمٍ رقيقةً، وزجاجةً من شمبانيا «بولينغر 1936». صبّت لزوجها كأس شمبانيا، وجلستْ إلى جانبه، بينما كانت صوفي تجري نحو ضفّة النهر.

مرَّ الوقتُ جميلاً، تغشاه غِبطةٌ موشّاةٌ بدفء الشمس. تحدّثوا، وضحكوا، واستمتعوا بنزهتهم، وفي وقتٍ متأخّرٍ من ذلك النهار كانت

صوفي تحمل صنّارتها، فيما كان أنطوان منشغلاً بصنع تاجٍ من الأقحوانات لابنته، فقال: «عمّا قريبٍ سوف يجرّنا هتلر جميعاً إلى الحرب».

الحرب.

هذا هو الموضوع الذي يتحدّث فيه الجميع هذه الأيّام، لكنّ ڤيان لم ترغب في سماعه، لا سيّما في هذا اليوم الصيفيّ الجميل.

وضعتْ يداً فوق عينَيها، وراحت تحدّق في ابنتها. خلف ذلك النهر كان وادي لوا الأخضر مزروعاً بعنايةٍ ودقّة. لا أسوار، ولا حدود، مجرّد كيلومتراتٍ من الحقول الخضراء المتدحرجة، ومساحاتٍ متفرّقة من الأشجار، مع بيتٍ حجريٍّ هنا، وحظيرةٍ هناك. الأزهار البِيضُ الصغيرة تطفو كالقطن في الهواء.

وقفتْ على قدمَيها وصفّقت بيدَيها. «هيّا يا صوفي. حان وقت العودة».

– لا ينبغي أن تتجاهلي الموضوع يا ڤيان.

– وهل ينبغي لي أن أبحث عن المتاعب؟ لماذا؟ نحن بخيرٍ ما دمتَ معنا.

حَزَمتْ أغراض النزهة، وهي تبتسم (ربّما أكثر من المعتاد)، ثمّ جَمَعتْ أُسْرتَها وقادتْها عَوداً إلى الطريق الترابيّ.

وفي أقلّ من ثلاثين دقيقةً كانوا قد وصلوا عند البوّابة الخشبيّة القويّة في لو جاردان، ذلك المنزل الحجريّ الريفيّ الذي ظلّ ملكاً لعائلتها منذ ثلاثمئة عام. يبلغ المنزل من العمر اثنتي عشرة درجةً من الرماديّ(*)، مؤلّف من طابقَين بنوافذ زُرق تطلّ على البستان. كانت شجرةُ اللبلاب تتسلّق

(*) كناية عن الأحداث غير المعروفة، خيراً أم شرّاً، فهي ليست بِيضاً أو سُوداً. (م)

فوق المدختتَين، وتغطّي قوالب الطوب تحتهما. لم يبق من قطعة الأرض الأصليّة سوى سبعة أفدنة؛ أمّا المتنا فدّان الأُخَر فقد بيعت خلال القرنَين الماضيَين؛ إذْ تضاءلت ثروةُ عائلتها. كانت السبعة أفدنة كافية بالنسبة إلى ڤيان، ولم تكن تتخيّل حتّى إنّها في حاجةٍ إلى المزيد.

أغلقت ڤيان الباب خلفهم. هناك في المطبخ كانت الأواني والمقالي النحاسيّة والحديديّة تتدلّى من رفٍّ حديديّ فوق الفرن، فيما أعشاب الخزامى وإكليل الجبل والزعتر معلّقة من عوارض خشبيّة في السقف في حُزمٍ للتجفيف؛ أمّا المغسلةُ التي اخضرّت مع الزمن، فقد كانت كبيرةً بما يكفي لاستحمام كلبٍ صغيرٍ فيها.

كان الجصُّ قد تقشّر هنا وهناك في الجدران الداخليّة، فكشف عن الطلاء المستخدم منذ سنوات مضت. الصّالةُ عبارة عن مزيجٍ من الأثاث والأقمشة، ما بين أريكةٍ منجّدةٍ، وسجاجيد أوبيسون(*)، وخزفٍ صينيّ عتيق، وقماشٍ مُصوّر، وقماش رسمٍ شفّاف. بعض اللوحات المعلّقة على الحائط كانت ممتازةً (بل ربّما مهمّة)، وبعضها كان من أعمال الهُواة. للبيتِ مظهرٌ مختلطٌ يوحي بمالٍ ذاهبٍ وذوقٍ قديم. كان رثّاً، لكنّه مريح.

توقّفتْ في الصالون، وهي تنظر عبر الأبواب الزجاجيّة التي تفضي إلى الفناء الخلفي، حيث كان أنطوان يهزّ صوفي على الأرجوحة التي صنعها لها.

علّقت ڤيان قبّعتها برفقٍ على المشجب عند الباب، وارتدت مئزرها، وراحت تطبخ العشاء، فيما أنطوان وصوفي يلعبان في الخارج. لفّت قطعةَ

(*) سجاجيد معروفة على طرازٍ خاص اكتسبت اسمها من معامل النسيج العريقة في قرى أوبيسون في فرنسا. (م)

من لحم الخنزير الورديّ بلحمٍ مقدّد سميك، ثمّ لفّتها في جدائل وحمّرتْها في الزيت الساخن، بعد ذلك تركتْ اللحم ليستوي في الفرن، وجهّزتْ بقيّة الطعام، وعند الساعة الثامنة (في الوقت المناسب تماماً) نادتْ زوجها وابنتها لتناول العشاء، ولم تستطع أن تمنع نفسها من التبسّم لخبط الأقدام، والثرثرة، وصرير الكراسي حين جلسا إلى الطاولة.

جلستْ صوفي إلى رأس الطاولة، وهي تضع تاج الأقحوان الذي صنعه لها أنطوان عند ضفّة النهر.

وضعتْ ڤيان طبق العشاء، فانتشرتْ رائحتُه الزكيّة، رائحة اللحم المشويّ واللحم المقدّد المقرمش، والتفّاح المتبّل بصلصة النبيذ الغنيّة، مفروشاً على بطاطس محمّرة. إلى جانب هذا وعاءٌ من البازلّاء الطازجة، وهي تسبح في الزبدة، مع نبات الطرخون المزروع في الحديقة، ومع هذا كلّه طبعاً الخبزُ الفرنسيّ الذي خبزتْه ڤيان صباح أمس.

كالعادة، لم تتوقّف صوفي عن الحديث طوال العشاء. كانت تشبه خالتها «طَنط إيزابيل» في هذه الخصلة؛ لا تستطيع أن تمسك لسانها.

فلمّا وصلوا أخيراً إلى طبق الحلوى (إيل فلوتانت: جزيرة من الكعك المحمّص الطافية فوق مهلبيّة البيض) كان قد حلّ شيءٌ من الصمت المبهج في المائدة.

قالت ڤيان أخيراً، وهي تنحّي صحنها: «طيّب، حان وقت غسل الصحون».

فتأفّفتْ صوفي: «أوه، مامُن!».

فقال أنطوان: «من دون تأفّف. لم تعودي صغيرة».

ذهبت ڤيان وصوفي إلى المطبخ كعادتهما كلّ ليلة، وكلّ واحدةٍ في

مكانها تغسل الصحون وتجفّفها، ڤيان عند الحوض النحاسيّ العميق، وصوفي عند المنضدة الحجريّة. تهادت إلى ڤيان تلك الرائحة الحُلوة الحادّة؛ سيجارة أنطوان التي يدخّنها بعد العشاء.

قالت صوفي، حين كانت ڤيان تضع الصحون على الرف الخشبيّ المعلّق: «لمْ يضحك بابا على أيٍّ من القصص التي حكيتُها اليوم. هناك شيءٌ ليس على ما يرام».

- لم يضحك؟ الأمر إذن يدعو إلى القلق بالتأكيد.

- إنّه قلقٌ من الحرب.

الحرب مرّةً أخرى.

هشّتْ ڤيان ابنتها كي تخرج من المطبخ، وهناك في غرفة صوفي في الطابق العلوي جلستْ على السرير تستمع إلى حديث ابنتها، وهي ترتدي منامَتها، وتنظّف أسنانها، وتستعدّ للنوم.

انحنتْ ڤيان لتقبّل ابنتها قبلة النوم.

فقالت صوفي: «أنا خائفة. هل الحرب قادمة؟».

- «لا تخافي. بابا سيحمينا». لكنّها على الرغم ممّا قالتْه تذكّرتْ مرّةً أُخرى عندما قالت لها والدتها: لا تخافي.

كان ذلك حين ذهب والدُها إلى الحرب.

لم تبدُ صوفي مقتنعةً بما سمعتْ: «ولكن—».

- من دون لكنْ. لا شيء يدعو إلى القلق. نامي الآن.

قبّلتْ ابنتها مرّةً أُخرى، فتركتْ شفتَيها مدّةً فوق خدّ الفتاة الصغيرة.

هبطتْ ڤيان على الدرج، واتّجهت إلى الفناء الخلفي. كان الجوّ خانقاً.

تفوحُ من الهواء رائحة الياسمين. وجدتْ أنطوان جالساً على مقعدٍ حديديٍّ فوق العشب، ورجلاه ممدودتان، وجسمه متهدّلٌ إلى جانبٍ واحد.

جلستْ إلى جانبه، ووضعتْ يدها على كتفه. نفث دخاناً ومجّ نفَساً طويلاً آخر من السيجارة، ثمّ نظر إليها. كان وجهه تحت ضوء القمر يبدو شاحباً باهتاً، يكاد يكون غير مألوف. مدّ يده إلى جيب سترته، وأخرج ورقةً صغيرة. «لقد استُدعيتُ للتعبئة العامّة يا ڤيان. أنا ومعظم الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين».

- تعبئة؟ ولكنْ...نحن لسنا في حالة حرب. كيف—؟

- المطلوب أن أحضر يوم الثلاثاء.

- ولكنْ...ولكنْ..أنت ساعي بريد.

نظر في عينَيها، وفجأةً لم تستطع أن تتنفّس. «أنا جنديّ الآن. هكذا يبدو».

الفصل الثالث

كانت ڤيان تعرف شيئاً عن الحرب. قد لا تعرف اشتباكاتها وجلجلتَها، ولا الدخان والدماء، لكنّها كانت تعرف أعقابها. وعلى الرغم من أنّها وُلدت في زمن السلام، إلّا أنّ أولى ذكرياتها كانت عن الحرب: كانت تذكر بكاء أمّها في وداع أبيها، وتذكر ما أصابها من جوعٍ وبردٍ لا ينقطع، لكنّ الأدهى من ذلك كلّه كان تغيّر أبيها حين عاد: عَزْجَتُه، وتنهيدتُه، وصمتُه. في ذلك الوقت أسلَمَ نفسه للشراب، وانطوى عليها، وأهمل أسرتَه. بعد ذلك تذكّرتْ ڤيان صفقَ الأبواب، والشجارات التي تندلع، ثمّ تختفي في صمتٍ مربكٍ، ونومَ والدَيها في غرفتَين منفصلتَين.

ذلك الأب الذي ذهب إلى الحرب ليس نفسه الذي عاد منها. كم حاولتْ أن يحبَّها! بل حاولتْ أن تستمرّ هي في حبّه، وفي نهاية المطاف بدا كلٌّ من الأمرَين مستحيلاً. لقد اتّخذت ڤيان حياةً مستقلّةً منذ أن أرسلها إلى كاريڤو. أجلْ، كانت ترسل لوالدها بطاقات تهنئةٍ في أعياد الميلاد، لكنّها لم تستلم بطاقةً منه قطّ، ونادراً ما كانا يتحدّثان؛ إذْ ما الذي يمكن أن يُقال بعد؟ لقد استوعبتْ ڤيان (وقَبِلَت) حقيقة أنّ الأسرة بعد وفاة مامْن قد

انكسرتْ ولم يعد بالإمكان إصلاحها. بعكسِ إيزابيل التي بدت عاجزةً عن التخلّي، كان أبوها رجُلاً يرفض أن يكون أباً لطفلتَيه.

قال أنطوان: «أعرف أنّ الحرب تُفزعك».

فقالت، وهي تحاول أن تبدو مُقنِعَة: «سيصمد خطّ ماغينو. وستعود إلينا في أعياد الميلاد». كان خطّ ماغينو عبارة عن أميالٍ وأميالٍ من الأسوار، والعوائق الإسمنتية، والأسلحة التي وُضعت على الحدود الألمانيّة بعد الحرب الكبرى لحماية فرنسا، ولم يكن بإمكان الألمان أن يخترقوه.

أخذها أنطوان بين ذراعَيه. كانت رائحة الياسمين مُسكرةً، فأدركتْ فجأةً (وبكلّ تأكيد) أنّها من الآن فصاعداً سوف تتذكّر هذا الوداع كلّما شمّت رائحة الياسمين.

- أحبّك يا أنطوان، وأنتظر أن تعود إليّ.

لم تستطع لاحقاً أن تتذكّر دخولهما البيت والصعود على السلالم، ثمّ السرير، وخلع الملابس. لم تتذكّر سوى أنّها كانت عاريةً بين ذراعَيه، وتحته، وهو يطارحها الغرام على نحوٍ لم يسبق له من قبل، بقُبلاتٍ ولمساتٍ مسعورة، كما لو أنّه يودّ أن يمزّقها حتّى وهو يثبّتها في مكانها.

قال لها بعد ذلك، وهي في حضنه: «أنتِ أقوى ممّا تظنّين يا ڤي».

- فهمستْ له بصوتٍ أضعف من أن يسمعه: «أبداً».

*

حين استيقظتْ ڤيان في اليوم التالي كانت تودّ لو تُبقي أنطوان معها في السرير طوال النهار، بل ربّما ودّت لو تقنعه أن يحزموا حقائبهم ويفرّوا كاللصوص في جنح الظلام.

ولكنْ إلى أين يا تُرى يذهبون؟ كان شبح الحرب يجتاح أوروبا بأكملها.

حين انتهتْ من إعداد الفطور وغسل الصحون، كان الصداعُ يدقّ في أسفل رأسها.

قالت صوفي: «تبدين حزينةً مامْ».

فابتسمتْ ڤيان وبالغتْ في ابتسامتها: «وكيف أحزن في يومٍ صيفيّ رائع كهذا، ونحن ذاهبتان لزيارة أعزّ أصدقائنا؟».

ولم تُدرك ڤيان أنّها حافية القدمَين إلّا بعد أن خرجتْ من الباب الأمامي، ووقفتْ تحت شجرة تفّاحٍ في الفناء.

قالت صوفي بنفاد صبر: «مامْ!».

- «ها أنا قادمة». قالتها، وهي تتبع صوفي في الفناء، تمرّ من الحظيرة الفارغة وبرج الحَمام القديم (الذي أصبح الآن سقيفةً للزراعة). فتحتْ صوفي البوّابة الخلفيّة وركضت إلى الفناء المرتّب في بيت الجيران، نحو كوخٍ حجريٍّ صغيرٍ ذي مصراعين أزرقَين.

دقّتْ صوفي الباب مرّةً، ولم يجبْها أحد، فدخلتْ.

صاحتْ ڤيان بحدّة: «صوفي!». غير أنّ الصبيّة لم تجبها. لم يكنْ الالتزام بالآداب ضروريّاً في منازل أعزّ الأصدقاء، وراشيل دو شامپلان كانت أعزّ صديقةٍ لڤيان منذ خمسة عشر عاماً. كانتا قد التقتا في لو جاردان بعد أن تخلى پاپا عن طفلتَيه بشهرٍ واحد فقط.

رفيقتان منذ ذلك الوقت. ڤيان الضئيلةُ الشاحبة المتوتّرة، وراشيل الطويلة كالأولاد، بحاجبَيها اللّذَين ينموان أسرع من الأكاذيب، وصوتها

الذي يشبه صافرة الضباب. كانتا غريبتَين على المكان، إلى أن التقتا، فأصبحتا لا تفترقان في المدرسة، ثمّ ظلّتا صديقتَين، والتحقتا بالجامعة معاً وأصبحتا معلّمتَين، بل إنّهما حبلتا في الوقت نفسه، وها هما الآن تدرّسان في صفَّين متجاورَين في المدرسة المحليّة.

ظهرتْ راشيل عند الباب المفتوح تحملُ رضيعَها آرييل.

تبادلتْ المرأتان نظرةً، كانت تحمل كلّ ما تشعران به وتخشيانه.

دخلتْ ڤيان خلف صديقتها إلى غرفة طعامٍ صغيرةٍ مضيئةٍ ونظيفةٍ للغاية. ثمّة مزهرية ممتلئة بالزهور البرّية تزيّن الطاولة الخشبيّة التي يحاذيها كرسيّان غير متناسقَين. في زاوية الغرفة حقيبةُ سفرٍ جلديّة، فوقها قبّعة اللباد البنّية التي يفضّلها مارك زوج راشيل. دخلتْ راشيل المطبخ لتحضر صحناً فخّارياً ممتلئاً بحلوى الكايل، ثمّ خرجتْ المرأتان.

في الفناء الخلفيّ الصغير ورودٌ تنمو فوق السياج، وثمّة طاولةٌ وأربعة كراسٍ موضوعة على مساحةٍ حجريّة مرصوفة. تتدلّى من أغصان شجرة الكستناء مصابيحُ عتيقة.

التقطتْ ڤيان قطعة كايل وقضمتْها، تستطعمُ باطنها الكريميّ المقرمش الغنيّ بالفانيلا، وقشرتها الخارجيّة المحروقة شيئاً قليلاً، ثمّ جلستْ.

جلستْ راشيل قبالتها، ورضيعُها نائمٌ فوق ذراعَيها. بدا كأنّ الصمت يتمدّد بينهما، يمتلئ بما يحملانه من خوفٍ وهواجس.

قالت راشيل، وهي تنظر إلى طفلها: «لا أدري إنْ كان سيعرف أباه».

فقالت ڤيان، وهي تتذكّر: «سيتغيّران». كان والدها في معركة «سوم» التي قُتل فيها أكثر من ثلاثة أرباع مليون شخص. وقد انتقلتْ إلى البلاد حكاياتٌ عن فظائع الألمان مع القلّة الذين نجوا.

رفعتْ راشيل الرضيع إلى كتفها، وأخذتْ تربّت على ظهره. «لا يعرف مارك كيف يغيّر الحفّاضات. وآري يحبّ أن ينام في سريرنا. يبدو أنّ هذا ما سيحدث الآن لا غير».

شعرتْ ڤيان بابتسامةٍ ترتسم على وجهها. كانت تلك المزحة شيئاً بسيطاً، لكنّها ساعدتها. «وشخيرُ أنطوان لا يُحتمل. يبدو أنّني سأحظى بنومٍ هانئ».

– «ويمكننا أن نطبخ بيضاً مسلوقاً للعشاء. والغسيلُ سيقلّ إلى النصف». قالتها ڤيان ثمّ انكسر صوتُها: «لستُ قويّةً بما يكفي لاحتمال هذا يا راشيل».

– بلى يا ڤيان. سنتجاوز هذا الأمر معاً.

– قبل أن ألتقي أنطوان...

فلوّحت راشيل بيدها: «أعرف. أعرف. كنتِ ضئيلةً كالغصن، وكنتِ تتلعثمين حين تتوتّرين، وكانت لديكِ حساسيّة من كلّ شيء. أعرف. كنتُ معك. لكنّ هذا كلّه انتهى. ستكونين قويّة. أتعرفين لماذا؟».

– لماذا؟

فاختفت ابتسامةُ راشيل. «أعرف أنّي ضخمة (أشبه بالتمثال كما يقولون لي حين يبيعون لي الصدريّات والجوارب الطويلة)، لكنّني أشعر...أنّ هذا الأمر هزّني يا ڤي. سوف أحتاج أنا أيضاً إلى مَن أستند إليه. ليس بكامل وزني طبعاً».

– كي لا نتهاوى معاً في الوقت نفسه.

– ڤوالا. بالضبط. هل نفتح الآن زجاجة كونياك أم جِن؟

– الساعةُ الآن العاشرة صباحاً.

– معك حق. صحيح. إذن كوكتيل فرنتش 75(*).

*

حين استيقظتْ ڤيان صباح يوم الثلاثاء، كانت أشعّة الشمس تنسكب عبر النافذة، فينعكس التماعُها في العوارض الخشبيّة.

جلس أنطوان على الكرسيّ عند النافذة. كان كرسيّاً هزّازاً صَنَعه من خشب الجوز حين حملتْ ڤيان للمرّة الثانية، فظلّ الكرسيّ أعواماً يغيظهما. سنوات الإجهاض كما تتذكّرها الآن. القَفْرُ في أرضِ الوفرة. ثلاثة أجنّةٍ فُقدت في أربع سنوات. نبضاتُ قلبٍ ضعيفة، ويدان زرقاوان. ثمّ جاء المولود الذي نجا بمعجزة. صوفي. ثمّة أشباحٌ صغيرةٌ حزينةٌ تسكن ذلك الكرسيّ، لكنّه يحوي كذلك ذكريات جميلة.

قال لها، وهو ينهض: «ربّما يجدرُ بك أن تأخذي صوفي إلى باريس. سوف يعتني جُوليَن بكما».

– «لقد حسم والدي أمرَه بشأن العيش مع ابنتَيه. فلا يمكنني أن أتوقّع أيّ ترحيب منه». نحّت ڤيان اللحاف عنها ونهضتْ، وهي تضع قدمَيها الحافيتَين على السجّادة القديمة.

– هل ستكونان على ما يرام؟

– أنا وصوفي سنكون بخير. وأنت ستعود بسرعةٍ في كلّ الأحوال. سيصمد خطّ ماغينو. والألمان بالتأكيد لا يضاهوننا.

– المصيبةُ أنّ أسلحتهم تضاهينا. لقد سحبتُ أموالنا كلّها من البنك.

(*) مشروب كحولي مكوّن من الجِن والشامبانيا وعصير الليمون والسكر. (م).

ستجدين خمسةً وستين ألف فرانك في الفراش. احرصي عليها يا ڤيان. سيكفيكما هذا المبلغ مع راتبك من التدريس فترةً طويلة.

أحسّت ڤيان باختلاجٍ من الربكة. لم تكن تعرف إلّا القليل جدّاً عن ميزانيّة البيت. أنطوان كان المسؤول عنها.

نهض ببطءٍ واحتواها بذراعَيه. كانت تودّ لو تعبّئ ذلك الشعور بالأمان في زجاجةٍ كي تشرب منها لاحقاً، حين تُلقي بها الوَحشةُ والخوف في درب الظمأ.

قالت في نفسها: تذكّري هذا! التماعَ الضوءِ في شعره الجامح، والحبَّ المتوقّد في عينَيه البنّيتَين، والشفتَين المتشقّقتَين اللتَين قبّلتاها قبل ساعةٍ في الظلام.

سمعتْ ڤيان من النافذة المفتوحة وقْعَ الخطوات البطيئة لحصانٍ يصعد الطريق، وجَلجَلة العربة التي يجرّها وراءه.

كان ذلك مسيو كيليان في طريقه إلى السوق يحمل أزهارَه. لو كانت في الفناء الآن لتوقّف وأعطاها زهرةً، وقال: إنّها لا تضاهي جمالها، فتبتسمُ قائلةً: ميرسي، وتعرض عليه شيئاً يشربه.

ابتعدتْ ڤيان عن زوجها على مضض، ثمّ خطتْ نحو التسريحة الخشبيّة وصبّت ماءً فاتراً من إبريقٍ خزفيٍّ أزرق في طاسة، وغسلت وجهها، ثمّ دلفت إلى تجويفٍ كان بمنزلة خزانة ملابسهما خلف ستارةٍ ملوّنةٍ بالذهبيّ والأبيض، فارتدتْ صدريّتها، وسروالها الداخليّ، وحمّالة الجوربَين، بعد ذلك لبست جوربَين حريريَّين ربطتهما بالحمّالة، ثم انسلّت في رداءٍ قطنيٍّ محزّمٍ ذي رباطٍ عند الخصر. فلمّا أغلقتْ الستارة واستدارتْ، لم تجد أنطوان.

التقطتْ حقيبة يدها وذهبتْ إلى غرفة صوفي. كانت غرفتها صغيرةً كغرفتهما، بسقفها الخشبيّ المائل، وأرضيّتها المصنوعة من ألواح الخشب العريضة، ونافذتها المطلّة على البستان. ثمة سريرٌ حديديٌّ، وطاولةٌ جانبيةٌ، ومصباحٌ قديمٌ مهترئٌ، وخزانةٌ مطليّةٌ بالأزرق تملأ المكان؛ أمّا الجدران، فكانت مزخرفةً برسومات صوفي.

فتحتْ ڤيان مصراعَي النافذة، فسمحتْ للضوء أن يغمر الغرفة.

وكعادة صوفي في أشهر الصيف الحارّة، فقد ألقتْ بلحافها في وقتٍ ما من اللّيل، وعند وجنتها ينام الدبُّ الورديّ «بيبي»، دُميتها.

أخذتْ ڤيان الدبّ، وهي تحملق في وجهه الملبَّد، ومن الواضح أنّه أخذ حظَّه من الدلال. في العام الماضي وُضع بيبي على رفٍّ عند النافذة حين انتقلتْ صوفي إلى دمى جديدة.

وقد عاد بيبي الآن.

انحنتْ ڤيان لتقبّل خدّ ابنتها.

فانقلبتْ صوفي على جَنْبها وفتحتْ عينَيها.

- همستْ لأمّها: «مامُن، لا أريد أن يذهب بابا». ثمّ مدّت يدها لتأخذ بيبي، بل انتزعتْ الدبّ انتزاعاً من يدَي ڤيان.

فتنهّدتْ ڤيان: «أعرف. أعرف».

ذهبتْ ڤيان إلى الخزانة فاختارت فستان صوفي المفضّل، فستان البحّارة.

- هل يمكنني أن ألبس تاج الأقحوان الذي صنعه بابّا؟

كان «تاج» الأقحوان مُلقىً على الطاولة الجانبيّة، وقد ذبلت أزهاره. أخذتْه ڤيان برقّةٍ ووضعتْه على رأس صوفي.

كانت ڤيان تظنّ أنّها متماسكة حتّى الآن، إلى أن دخلتْ الصالة ورأتْ أنطوان.

لمستْ صوفي تاجها المائل حائرةً، وهي تقول: «بابا؟ لا تذهب».

جثا أنطوان وأخذ صوفي في حضنه. «لا بدّ من أن أصبح جنديّاً لأحميكِ أنتِ ومامْ. لكنّني سأعود في غمضة عين».

غير أنّ ڤيان سمعتْ الحشرجة في صوته.

ابتعدتْ صوفي عن حضن أبيها، وتدلّى تاج الأقحوان على جانب رأسها. «تعدُني أنّك ستعود؟».

ألقى أنطوان نظرةً مرّتْ من وجه ابنته المهموم إلى تحديقة ڤيان القلقة.

ثمّ قال أخيراً: «وِي».

فهزّت صوفي رأسها.

خرج الثلاثةُ في صمت. مشَوا يداً بيد صاعدِين التلّة إلى الحظيرة الخشبيّة الرماديّة. كان العشب طويلاً يغطّي الرابية، وشجيرات الليلك كبيرةً مثل عربات القشّ تنتشر في محيط المكان. لم يبق في هذا العالم ما يذكّر ڤيان بأطفالها الثلاثة الذين فقدتْهم سوى ثلاثة صلبان بِيضٍ صغيرة. لكنّها اليوم لم تركّز نظرتها هناك، فقد كان يكفيها اليوم ما يجيش في داخلها. لم تكن تحتمل أن تضيف إليه تلك الذكريات.

وهناك في الحظيرة كانت سيّارتهم الـ«رينو» الخضراء القديمة. ركبوا السيّارة فشغّلها أنطوان، وخرجوا من الحظيرة، يقودون السيّارة على شرائط من العشب الميّت إلى أن وصلوا إلى الشارع. كانت ڤيان تنظر من النافذة الصغيرة المغبّرة، تشاهد الأودية الخُضر، وهي تمرّ في صورٍ مألوفةٍ

ضبابيّة. أسقفٌ حُمر، وأكواخٌ حجريّةٌ، وحقول قشٍّ وعنب، وغاباتٌ ممتلئةٌ بالأشجار الطويلة.

وما لبثوا أن وصلوا إلى محطّة القطار قرب مدينة «تُور».

كان الرصيف ممتلئاً بشبابٍ يحملون حقائبهم، ونساءٍ يودّعنهم بالقبلات، وأطفالٍ يبكون.

جيلٌ من الرجال يتوجّه إلى الحرب.

مرّةً أُخرى.

قالت ڤيان لنفسها: لا تفكّري في الأمر. لا تتذكّري كيف كان الأمر آخر مرّة، حين عاد الرجال، وهُم يعرجون، بأوجهٍ محروقة، وأذرعٍ وسيقانٍ مفقودة...

تعلّقتْ ڤيان بيد زوجها، وهو يشتري التذاكر، ثمّ يقودها وابنتها إلى القطار. في عربة الدرجة الثالثة كان الجوّ حارقاً، والناس متراصّين كأعواد القصب في نهرٍ موحل. جلستْ في مقعدها بتوتّر، وهي ما تزال تمسك بيد زوجها، وحقيبة يدها على حِجرها.

فلمّا وصلوا إلى وجهتهم، ترجّلتْ مجموعةٌ من الرجال، فتبعتْهم ڤيان، وأنطوان، وصوفي إلى شارعٍ مرصوفٍ بالحجر يفضي إلى قريةٍ بديعةٍ، تشبه معظم التجمّعات الصغيرة في «تورين». تُرى كيف تكون الحرب قادمة، وهذه البلدة العجيبة بأزهارها المتساقطة وجدرانها المتداعية تحشد الجنود لكي تقاتل؟

جذبها أنطوان من يدها، كي تتحرّك مرّةً أُخرى. متى تُراها توقّفت؟

أمامهم بوّابات حديديّة طويلة، نُصبت حديثاً وأُدخلت في جدران حجريّة. من خلفها صفوفٌ من المساكن المؤقّتة.

انفتحت البوّابات، فظهرَ جنديٌّ على ظهر حصان كي يحيّي القادمين الجدد، وسراجُه الجلديّ يصرُّ مع خطوات الحصان، فيما وجهه مغبرٌّ ومحمرٌّ من أثر الحرارة. سحبَ اللّجام فتوقّف الحصان ملقياً برأسه، ناخراً، ثمّ تهادى صوت طائرةٍ تحوم في الأعلى.

قال الجنديّ: «أنتم، يا شباب. خذوا أوراقكم إلى الملازم الجالس هناك عند البوّابة. تحرّكوا، الآن!».

قبّلَ أنطوان زوجته برقّةٍ جعلتها تودّ أن تبكي.

قال لها في شفتيها: «أحبّك».

فقالت: «وأنا أحبّك». غير أنّ الكلمات التي كانت دوماً كبيرةً تصاغرتْ الآن. فما الحبُّ في حضرة الحرب؟

- «وأنا أيضاً بابا، أنا أيضاً!». صاحت صوفي، وهي تندفع بين أحضانه. اجتمعوا كلّهم في عناقٍ أسريٍّ واحدٍ، للمرّة الأخيرة.

قال: «وداعاً».

لم تستطع ڤيان أن تقولها. وظلّت تراقبه، وهو يمشي بعيداً، ثمّ يندمج في زمرة الشباب وهُم يضحكون ويتحدّثون، إلى أن اختفى وسطهم. أُغلقت البوّابات الحديديّة، فاهتزّ صوتُ المعدن في ذلك الهواء الحار المغبرّ، ووقفتْ ڤيان وصوفي وحدهما وسط الطريق.

الفصل الرابع

حزيران/يونيو 1940م

فرنسا

كانت عبارة عن فيلا عتيقة الطراز تحتلّ جانباً كبيراً من التلّة المعشوشبة بخضرتها الكثيفة. تبدو مثل شيءٍ تراه من نافذة محلّ الحلوانيّ. كقلعةٍ منحوتةٍ من الكراميل، بنوافذ مغزولةٍ من السكّر، ومصاريع بلون التفّاح المحلّى. وهناك في الأسفل بحيرةٌ شديدة الزرقة، يغيب فيها انعكاس السحاب. ثمّة حدائق مشذّبة يمكن لساكنات الفيلا (والأهمّ منهنّ ضيوفهنّ) أن يتنزّهن فيها، ويتحدّثن (في المواضيع المقبولة فقط).

جلستْ إيزابيل روسينيول في غرفة الطعام الرسميّة، مستقيمة الظهر على طاولةٍ ذات شرشف أبيض تكفي لأربعةٍ وعشرين شخصاً. كان كلُّ شيءٍ في هذه الغرفة شاحباً. فالسقف والجدران والأرضيّات كلُّها مصنوعة من حجرٍ بلون المحّار. كان السقف مقوّساً في ارتفاعٍ يصل إلى عشرين قدماً تقريباً؛ أمّا الأصواتُ في هذه الغرفة الباردة، فكانت تأتي مضخَّمةً، حبيسةً شأنها شأن الساكنات فيها.

وقفتْ مدام دوفور عند رأس الطاولة، ترتدي ثوباً شديد السواد يكشف عن تجويفٍ بحجم ملعقة الحساء أسفل رقبتها الطويلة. لم تكن تلبس من الزينة سوى بروش الألماس (قطعةٌ واحدة تكفي يا سيّدات، اخترنها بعناية. فكلّ شيءٍ ينطق، ولا صوت أعلى من صوت الرُّخْص)؛ أمّا وجهها الضيّق، فكان ينتهي في ذقنٍ غير حادّ، تؤطّره تجاعيد قد تخطّت بكلّ وضوحِ الانطباع المرغوب لشبابٍ لم ينته بعد. كانت تقول بصوت مصقولٍ، ومشذّبٍ، ومقطوع: «المهمّ أن تكوني هادئةً تماماً لا تلفتين الأنظار إلى ما تفعلين».

كانت كلُّ فتاةٍ من الجالسات إلى الطاولة ترتدي زيّ المدرسة؛ سترةً صوفيّةً زرقاء وتنّورة. لم يكن هذا الزيُّ سيّئاً في الشتاء، لكنّه لم يكن يُطاق في ظهيرة حزيران/ يونيو الحارّة. شعرتْ إيزابيل بالعرق يتفصّد منها، ولا يمكن لأيّ قدرٍ من الخزامى في صابونها أن يخفي رائحة عرقها النفّاذة.

حدّقتْ في البرتقالة غير المقشّرة في صحنها اللاموجيّ(*). كانت أدوات المائدة توضع في تشكيلٍ دقيقٍ على كلّ جانبٍ من الصحن: شوكة السَلَطة، والسكّين، والملعقة، وسكّين الزبدة، وسكّين السمك، وهكذا إلى ما لا نهاية.

قالت مدام دوفور: «والآن، التقطنَ الأداة الصحيحة. بهدوء، سيل فو پليه، بهدوء، وقشّرن البرتقال».

التقطتْ إيزابيل شوكتها، وحاولت أنْ تغرس أسنان الشوكة الحادّة في ذلك القشر الثقيل، لكنّ البرتقالة انسلّت من يدها واصطدمت بحافّة الصحن المذهّبة، فقَعْقَع الصحن الخزفيّ.

(*) نسبةً إلى مدينة لاموج الفرنسيّة التي كانت تشتهر بصناعة البورسلين. (م)

تَمتَمت إيزابيل، وهي تلتقط البرتقالة قبل أن تسقط على الأرض: «ميردا!»(*).

كانت مدام دوفور إلى جانبها الآن: «ميرد؟».

قفزتْ إيزابيل في مقعدها. مون ديو! كيف تنسلّ هذه المرأة كالأفعى. ثمّ قالتْ، وهي تعيد البرتقالة إلى مكانها: «پاردون مدام». فقالت المدام: «مدموازيل روسينيول. كيف مكثتِ عندنا سنتَين ولم تتعلّمي شيئاً؟».

مرّةً أُخرى طعنتْ إيزابيل البرتقالة بشوكتها. كانت حركةً ثقيلةً، لكنّها ناجعة. فابتسمتْ للمدام وقالت: «عموماً مدام، الطالبُ الفاشلُ نتاجٌ للمعلّم الفاشل».

انحبستْ كلُّ الأنفاس من أوّل الطاولة إلى آخرها.

قالت المدام: «آه، إذن نحن السبب في أنّكِ حتّى الآن لا تعرفين كيف تأكلين برتقالةً بطريقةٍ صحيحة».

حاولتْ إيزابيل أن تقطّع البرتقالة عبر القشر، بقوّةٍ وسرعةٍ شديدتَين. فانزلق النصلُ الفضّي من القشر المتجعّد وقرْقعَ فوق الصحن.

تحرّكتْ يد المدام كالأفعى، فقبضتْ بأصابعها على معصم إيزابيل.

كانت الفتيات يتفرّجنَ على ما يحصل، من أوّل الطاولة حتى آخرها.

قالت لهنّ المدام، وهي تفتعل ابتسامة: «لباقةُ الحديث يا فتيات. لا أحد يريد أن يجالس تمثالاً».

وبإشارةٍ منها، بدأتْ الفتيات يتحدّثن بهدوءٍ إلى بعضهنّ عن أشياء

(*) تعني حرفياً بالفرنسيّة: «خراء». وهو تعبير يطابق التعبير الإنجليزي «Shit»، يقال في حالات الغضب أو الاستياء. (م)

لم تكن تهمّ إيزابيل: العناية بالحدائق، والجوّ، والموضة. كانت تلك هي المواضيع المقبولة للنساء. سمعتْ إيزابيل الفتاة التي بجانبها تقول بهدوء: «يا إلهي كم أحبّ دانتيل أليسون، ألا تحبّينه أيضاً؟». وبالكاد استطاعت أن تمنع نفسها من الصراخ.

قالت المدام: «مدموازيل روسينيول. اذهبي لرؤية مدام ألارد وأخبريها أنّ تجربتنا انتهت».

– ما معنى ذلك؟

– هي ستفهم. اذهبي.

انطلقتْ إيزابيل من الطاولة بسرعة، خشية أن تغيّر المدام رأيها.

تغضّن وجه المدام في انزعاجٍ من صرير الكرسيّ على الأرضيّة الحجريّة.

فتبسّمت إيزابيل وقالت: «بالمناسبة، أنا فعلاً لا أحبّ البرتقال».

فقالت المدام بسخرية: «حقاً؟».

كانت إيزابيل تريد أن تخرج جرياً من تلك الغرفة الخانقة، لكنّ المأزق الذي كانت فيه يكفيها الآن، فأجبرتْ نفسها على المشيء ببطءٍ، وقامةٍ منتصبةٍ، ووجهٍ مرفوع. فلمّا وصلت عند الدرَج (الذي كانت تحفظه وتستطيع النزول منه بثلاثة كتبٍ فوق رأسها إن لزم الأمر) ألقتْ نظرةً إلى جانبها وأدركتْ أنّها أصبحت وحدها، فانطلقتْ.

حين وصلتْ إلى الردهة تباطأتْ واستقامتْ. وهكذا التقطت أنفاسها حين وصلتْ إلى مكتب الناظرة.

قرعتْ الباب.

ثمّ فتحتْ الباب حين سمعت صوت مدام ألارد الفاتر: «ادخلي».

كانت مدام ألارد تجلس إلى طاولة كتابةٍ من خشب الماهاغوني مطليّة بالذهب. ثمّة زرابيّ عتيقة معلّقة على الجدران الحجريّة، فيما تطلّ نافذةٌ مقوّسةٌ من الزجاج المرصّص على حدائق منحوتةٍ نحتاً، فتكاد تكون من عالم الفنّ لا الطبيعة. حتّى الطيور لم تكن تحطّ هنا إلا ما ندر. لا شكّ أنّها أحسّت بالجوّ الخانق، فأكملتْ طيرانها.

جلستْ إيزابيل، ثمّ تذكّرتْ فجأةً أنّها لم تُدع للجلوس، فقفزتْ واقفة. «پاردون مدام».

- اجلسي يا إيزابيل.

فجلستْ، وهي تعقدُ كاحلَيها بعنايةٍ كما ينبغي للسيّدات، ثمّ تشبك يدَيها. «طلبتْ منّي مدام دوفور أن أبلغكِ بأنّ التجربة قد انتهت».

مدّت المدام يدها إلى واحدٍ من أقلام الموراتو السائلة، ثمّ أخذت تطرق به سطح الطاولة. «ما سبب وجودكِ هنا إيزابيل؟».

- لأنّني أكره البرتقال.

- پاردون؟

- ولو كنتُ سآكل برتقالة (لن يحدث هذا طبعاً، لأنّي بصراحة أكرهها) فسوف أستخدم يديّ كما يفعل الأميركان. في الواقع، كما يفعل أيّ أحد. هل يستخدم أحدٌ شوكةً وسكّيناً ليأكل برتقالة؟

- أقصد ما سبب وجودكِ في المدرسة؟

- آه. لأنّ دَير القلب المقدّس في آڤنيون طردوني. بلا سبب، إن أردتِ الصراحة.

- وراهبات القدّيس فرانسيس؟

- آه. كان لديهم سببٌ لطردي.

- والمدرسة التي سبقتْها؟

لم تعرف إيزابيل بمَ تردّ.

وضعتْ المدام القلم. «بلغتِ التاسعة عشرة تقريباً».

- وِي مدام.

- أعتقد أنّ الوقت قد حان لكي تغادري.

نهضتْ إيزابيل. «هل أعود إلى حصّة البرتقال؟».

- لم تفهمي كلامي. أقصد أنّه يجدر بكِ أن تغادري المدرسة يا إيزابيل. من الواضح أنّكِ غير مهتمّة بالتعليم الذي نقدّمه هنا.

- كيف تأكلين برتقالةً، ومتى يمكنكِ دهن الجبن على الخبز، ومَن الأهمّ: الابن الثاني للدوق أم ابنته التي لن ترث شيئاً أم السفير في بلد غير مهم؟ مدام، ألا تعرفين ما يجري في العالم؟

صحيحٌ أنّ إيزابيل كانت مدفونةً في أعماق الريف، لكنّها كانت تعرف. كانت تعلم ما يحدث في فرنسا حتّى وهي هنا، أسيرةً خلف الأسيجة، بين مطرقة الكياسة وسندان التهذيب. ففي الليل حين تأوي زميلاتها إلى الفراش، تقضي سحابة ليلها في صومعتها تستمع إلى إذاعة بي بي سي من مذياعها المحظور. لقد انضمّت فرنسا إلى بريطانيا في إعلان الحرب على ألمانيا، وهتلر يتقدّم. راكمَ الناسُ مخزونهم من الطعام في أرجاء فرنسا كافّةً، وأسدلوا الستائر القاتمة، وتعلّموا العيش مثل حيوان الخُلْد، في الظلام.

لقد استعدّوا، وقلِقوا، ثمّ... لا شيء.

شهرٌ يمرُّ تلو الآخر، ولا شيء يحدث. في بادئ الأمر كان كلُّ ما يتحدّث عنه المرء هو الحرب الكبرى والخسائر التي تكبّدتْها عائلاتٌ كثيرة. ثمّ بمرور الأشهر ولا شيء على الألسن سوى الحرب، سمعتْ إيزابيل معلمَاتها يطلقون عليها اسم درول دو غير؛ أي: الحرب الزائفة. فالرعبُ الحقيقيّ كان يقع في أطرافٍ أُخرى من أوروبا: في بلجيكا، وهولندا، وبولندا.

- أوليس لآداب السلوك قيمة في الحرب يا إيزابيل؟

فقالت إيزابيل بعفويّة: «هي الآن أصلاً ليس لها قيمة». ثم تمنّت لو أنّها لم تقل شيئاً.

نهضت المدام. «منذ البداية لم يكن هذا المكان مناسباً لكِ، ولكنْ...».

قالت: «أبي مستعدّ لأن يتركني في أيّ مكان كي يتخلّص منّي». كانت إيزابيل من النوع الذي يفضّل قول الحقيقة بدون تردّدٍ على أن يسمع مزيداً من الأكاذيب. لقد تعلّمت دروساً كثيرة في موكب المدارس والأديرة التي مرّت بها لأكثر من عشر سنوات، والأهمّ من ذلك أنّها تعلّمت وجوب الاعتماد على نفسها. فالأكيدُ أنّه لا يمكن الاعتماد على والدها وشقيقتها.

نظرتْ المدام إلى إيزابيل. اتّقد أنفُها قليلاً، في إشارةٍ إلى امتعاضٍ متأدّب لكنّه حارق. «فقدانُ الزوجة صعبٌ على الزوج».

فابتسمتْ بتحدٍّ وقالت: «وفقدان الأمّ صعبٌ على البنت. وقد فقدتُ أمّي وأبي، أليس كذلك؟ الأولى ماتت، والثاني تخلّى عني. ولا أدري أيّهما أكثر إيلاماً».

- مون ديو! لماذا تصرّين دائماً يا إيزابيل على قول ما في رأسك؟

كانت إيزابيل تسمع هذه الملحوظة دائماً، ولكنْ لماذا ينبغي عليها أن تمسك لسانها؟ لم يكن أحدٌ ينصت إليها على أيّ حال.

- سترحلين اليوم إذن. سوف أُبرقُ لأبيكِ. توماس سيأخذكِ إلى القطار.

رَمَشَت إيزابيل بعينَيها. «الليلة؟ ولكن... بابا لا يريدني».

- آه. ربّما ستتعلّمين الآن أنّه ينبغي التفكير في العواقب.

*

ها هي تركب قطاراً وحدها مرّةً أخرى، ولا تدري ماذا ينتظرها.

أخذتْ تحدّق من النافذة المتّسخة المرقّشة إلى المناظر الخضر، وهي تمرّ سريعاً: حقول القشّ، والأسقف الحُمر، والأكواخ الحجريّة، والجسور الرماديّة، والخيول.

بدا كلُّ شيءٍ كما كان دائماً بدون تغيير، فاستغربتْ ذلك. كانت الحرب وشيكةً، فخُيِّل إليها أنّها ستترك بصمتها على الريف بشكلٍ، أو بآخر، فتُغيّر لون العشب، أو تقتل الأشجار، أو تُفزع الطيور. لكنّها، وهي في هذا القطار في طريقها إلى باريس، وجدتْ كلَّ شيء عاديّاً تماماً.

توقّف القطار مصفّراً في محطّة غار دي ليون الشاسعة. مدّت إيزابيل يدها لتلتقط حقيبتها الصغيرة فوضعتْها على حِجرها. كانت تراقبُ الركّاب، وهُم يمرّون من جانبها ويترجّلون من القطار، فعاد إليها السؤالُ الذي كانت تتجنّبه.

- بابّا.

كانت تريد أن تصدّق بأنه سيرحّب بها في منزله، وسيمدّ يدَيه أخيراً

ويناديي باسمها بحبٍّ كما كان يفعل من قبل، حين كانت مامْن بمنزلة الصمغ الذي يبقيهم معاً.

حدّقتْ في حقيبتها البالية.

صغيرةٌ جدّاً.

كانت معظم الفتيات في المدارس التي التحقت بها يُحضرن معهنّ أمتعةً مربوطةً بأحزمةٍ جلديّة، مرصّعةً بمسامير نحاسيّة. كانت لديهنّ صُورٌ يضعنها على المكتب، وتذكارات على طاولة السرير، وألبومات صُوَر في الأدراج.

أمّا إيزابيل، فلم يكن معها سوى صورةٍ مؤطّرةٍ لامرأةٍ كانت تريد أن تتذكّرها، لكنّها لم تستطع. وحين حاولت، لم تصل إلى شيء غير صُور ضبابيّة لأشخاصٍ يبكون، وطبيبٍ يهزّ رأسه، وأمّها تقول لها شيئاً وتوصيها بأن تمسك يد أختها.

وكأنّ في تلك النصيحة فائدة؛ فما لبثت ڤيان أن تخلّتْ عنها كما تخلّى عنها أبوها.

أدركتْ أنّها الوحيدة الباقية في عربة القطار. فقبضتْ على حقيبتها بيدها المقفّزة، وانسلّت من المقعد، ثمّ خرجتْ من العربة.

كانت أرصفة المحطّة تضجّ بالناس. القطارات في صفوفٍ متقلقلة، والدّخان يملأ الهواء، تنفثه القطارات نحو السقف المقوّس في الأعلى. وانطلقتْ صافرةٌ من مكانٍ ما، فبدأتْ العجلاتُ الحديديّة تدقّ على السكك. وارتعشَ الرصيفُ تحت قدمَيها.

لاحَ والدُها واضحاً، حتّى في الزحام.

فلمّا رآها، أبصرتْ ذلك الضيق الذي غيّر ملامحه، وأعاد تشكيل تعبيره إلى عزيمةٍ راسخة.

كان رجُلاً طويل القامة، يبلغ طوله ستّ أقدام على أقلّ تقدير، غير أنّ الحرب الكبرى هي التي أحنتْ قامته. هذا على الأقلّ ما سمعتْه إيزابيل ذات مرّة. انحنى كتفاه العريضان إلى الأسفل، كما لو أنّ انتصاب القامة كان آخر ما يشغل باله آنذاك. كان شعرُه الخفيف رماديّاً، أشعث. أنفه عريضٌ مسطّحٌ كالملعقة، وشفتاه رفيعتان كخاطرٍ متأخّر. في ذلك اليوم الصيفيّ الحارّ كان يرتدي قميصاً أبيض اللون مجعّداً، وقد طوى كُمَّيه؛ أمّا ربطةُ العنق، فكانت مهلهلة حول ياقته المهترئة، وسروالُه القطنيّ في حاجةٍ إلى غسيل.

حاولتْ أن تبدو...ناضجة. لعلّ هذا ما كان يريده لها.

- إيزابيل.

أمسكتْ بمقبض الحقيبة بيديها. «بابا».

- طُردتِ من مدرسةٍ أُخرى.

فأومأتْ، وهي تزدرد لعابها.

- كيف سنجد مدرسةً أُخرى في هذه الظروف؟

هذه فرصتها. «أريد أن أعيش معك بابا».

- «معي؟». بدا منزعجاً ومتفاجئاً. ولكن ألم يكن من الطبيعي لفتاةٍ أن تريد العيش مع والدها؟

تقدّمتْ منه خطوة. «يمكنني أن أعمل في المكتبة. لن أزعجك».

وسحبتْ نفَساً، وهي تنتظر. فجأةً تضخّمت الأصواتُ من حولها.

سمعتْ أشخاصاً يمشون، وأرصفةً تئنّ من تحتهم، ورضيعاً يبكي، وحَمامَات تصفّق بأجنحتها.

طبعاً يا إيزابيل.

هيّا تعالَي إلى البيت.

تنهّد والدها في قرفٍ، ومشى بعيداً.

ثمّ قال، وهو ينظر خلفه: «هيّا، ألن تأتي؟».

*

استلقتْ إيزابيل على لحافٍ فوق عشبٍ زكيّ الرائحة، وأمامها كتابٌ مفتوح. كانت نحلةٌ تطنّ في مكانٍ قريب عند زهرة، فبدا صوتُها مثل درّاجةٍ ناريةٍ وسط هذا الهدوء. كان يوماً شديد الحرارة، وقد مضى أسبوعٌ على عودتها إلى بيتها. ليس بيتها حقاً؛ فقد كانت تعلم أنّ والدها ما يزال يخطّط للتخلّص منها، لكنّها لم تكن تريد التفكير في ذلك في يومٍ بديعٍ كهذا، في الهواء الذي تفوحُ منه رائحةُ الكرز والعشب الأخضر الجميل.

قال كرِستوف، وهو يمضغ عوداً من القشّ: «تقرأين كثيراً جدّاً. ما هذه، رواية عاطفية؟».

انقلبت على جنبها ناحيته، وهي تغلق الكتاب. كان كتاباً عن ممرّضةٍ في الحرب الكبرى تُدعى إدِث كافل. بَطَلة. «قد أُصبحُ بطلة حربٍ يا كرستوف». فَضَحك: «فتاة؟ وبطلة؟ لا يمكن».

قفزتْ إيزابيل واقفةً، وهي تخلع قبّعتها وقفّازَي الأطفال الأبيضَين.

فقال لها، وهو يبتسم: «لا تغضبي. الأمرُ وما فيه أنّني سئمتُ الكلام عن الحرب. والحقيقةُ أنّ النساء لا فائدة منهنّ في الحرب. وظيفتكنّ هي انتظار عودتنا».

وضع كفّاً على خدّه، ثمّ نظر إليها من وراء شعره الأشقر الذي سقط فوق عينَيه. كانت هيئته كما ينبغي لمثله تماماً، بسترته وبنطاله الأبيض الواسع عند القدمَين، كأيّ طالبٍ جامعيّ مرفّهٍ غير معتادٍ على أيّ عملٍ من أيّ نوع. هناك طلّاب كثيرون في مثل سنّه تطوّعوا للانضمام إلى الجيش وتركوا الجامعة، إلّا كرستوف.

صعدتْ إيزابيل التلّة وعبرتْ البستان، ثمّ خرجتْ إلى الرابية العشبيّة التي أوقف سيّارته الـ«بانار» فيها.

جلستْ خلف المقود وشغّلت السيّارة، فظهر كرستوف بمسحةٍ من عرقٍ على وجهه الوسيم، وسلّة النزهة معلّقة في ذراعه.

قالت له بابتسامة: «ارمِ الأغراض في الخلف».

– لا يمكن أن تقودي!

– من الواضح أنّني سأقود. هيّا اركب.

– هذه سيّارتي يا إيزابيل.

– لتحرّي الدقّة، وأعرف أنّك تهتمّ بالحقائق يا كرستوف، فهي سيّارة أمّك. وأعتقد أنّ سيّارة المرأة ينبغي أن تقودها امرأة.

حاولتْ إيزابيل ألّا تبتسم حين أحنى رأسه وتمتم: «حسناً». ثمّ مال لكي يضع السلّة خلف مقعد إيزابيل. وبعدها تحرّك ببطءٍ يكفي لكي يوضّح مقصده، فمشى من أمام السيّارة واتّخذ مقعده إلى جانبها.

وما إن أغلق بابه حتّى حرّكتْ إيزابيل الغيار وسارت فوق العشب. تردّدتْ السيّارة لحظةً، ثمّ قفزتْ إلى الأمام، وأخذتْ تنفث الغبار والدخان، وهي تزداد سرعة.

- مون ديو إيزابيل، خفّفي السرعة!

تمسّكت إيزابيل بقبّعتها المصنوعة من القشّ بيدٍ واحدةٍ، وقبضتْ على المقود باليد الأُخرى، وبالكاد أبطأتْ قليلاً، وهي تمرّ بالسيّارات الأُخرى.

فصاحَ مرّةً أُخرى: «مون ديو، خفّفي السرعة!».

كان يعرف بالتأكيد أنّ إيزابيل لن تمتثل لكلامه. وفي النهاية حين اضطُرّت إلى تخفيف سرعتها بسبب الازدحام في باريس، قالت: «يمكن للمرأة أن تنضمّ إلى الحرب هذه الأيّام. يمكنني مثلاً أن أكون سائقة سيّارة إسعاف، أو أفكّ الشيفرات السرّية، أو أستدرج العدوّ لكي يفشي لي موقعاً، أو خطّة سرّية. هل تذكر تلك اللعبة—؟».

- الحربُ ليست لعبةً يا إيزابيل.

- أعرف ذلك طبعاً يا كرستوف. أقصد أنّه يمكنني تقديم المساعدة إن جاءت الحرب.

حين وصلت إلى شارع «دو لاميرال دو كولوني» اضطُرّت إلى استخدام الفرامل كي تتجنّب الاصطدام بشاحنة. كان هناك موكب من مسرح «لا كوميدي فرونسيز» يخرج من متحف اللُوفر. في الواقع كان المكان ممتلئاً بالشاحنات ورجال الدرك الذين يسيّرون حركة المرور. وُضعت أكياس الرمل حول العديد من المباني والمعالم الأثريّة لحمايتها من الهجمات العسكريّة، والتي لم تتعرّض لها فرنسا منذ انضمامها إلى الحرب.

- لماذا كلّ هؤلاء الشرطة هناك؟

قطّبتْ إيزابيل جبينها وتمتمتْ: «غريب!».

مدّ كرستوف عنقه كي يرى ما يحدث. «إنّهم ينقلون كنوز اللوفر».

رأتْ إيزابيل انفراجةً في الطريق فأسرعتْ، وما لبثتْ أن أوقفتْ السيّارة أمام مكتبة أبيها.

لوّحتْ لكرستوف مودّعةً، ودلفتْ إلى داخل المكتبة. كانت مكتبةً طويلةً ضيّقةً، ممتلئةً بالكتب المصفوفة من الأرض حتّى السقف. ظلّ والدها على مرّ السنين يزيد الكتب بوضع أرففٍ جديدة، فأصبحتْ المكتبة متاهةً حقيقيّة. فقد كانت أكوام الكتب تقود المرء يميناً ويساراً، إلى أعماق المكان. في الخلف كانت كتب السيّاح. بعض الأرفف كانت تحظى بإضاءةٍ جيّدة، وبعضها الآخر تكسوه الظِلال. ولم تكن هناك منافذ كافية لإضاءة جميع الزوايا والأركان، لكنّ والدها كان يعرف كلّ كتابٍ على كلّ رف.

قال لها، وهو يرفع عينَيه من مكتبه في الخلف: «لقد تأخّرتِ». كان يفعل شيئاً في آلة الطباعة. لعلّه كان يطبع واحداً من دواوينه الشعريّة التي لم يكن يشتريها أحد. أصابعهُ حادّةُ الأطراف ملطّخةٌ بالأزرق: «يبدو أنّ الأولاد أهمّ عندكِ من الوظيفة». انسلّت سريعاً فجلستْ على كرسيّ المحاسبة. لقد حرصتْ طوال الأسبوع الذي قضتْه مع والدها أن تتجنّب الجِدال معه، على الرغم من أنّ ذلك الإذعان كان يأكلها من الداخل. أخذتْ تنقر بقدمها في توتّر. ثمّة كلمات وعبارات (أعذار) تصطخبُ في داخلها. كان يصعب عليها ألّا تخبره بما تشعر به، لكنّها كانت تعرف كم يرغب في رحيلها، فأمسكتْ لسانها.

بعد برهةٍ قال: «هل تسمعين هذا الصوت؟».

أتُراها غَفَت؟

نهضتْ إيزابيل. لم تسمع صوت والدها وهو يقترب منها، لكنّه الآن أصبح إلى جانبها عابساً.

كان هناك بالتأكيد صوتٌ غريب في المكتبة. كان التراب يتساقط من السقف، وأرفف الكتب تقعقع قليلاً، فتُصدر صوتاً أشبه بصوت الأسنان المصطكّة. مرّتْ أطيافٌ من أمام زجاج الواجهة. مئات الأطياف.

أُناس؟ بهذا العدد الكبير؟

هرع بابا إلى الباب، ونزلت إيزابيل عن الكرسيّ فتبعتْه. فلمّا فتح الباب رأتْ حشداً يجري في الشارع يملأ الأرصفة.

تمتم بابا: «ما الذي يحدث؟».

حشرتْ إيزابيل نفسها بين والدها والباب، وشقّت طريقها نحو الزحام. اصطدم بها رجُلٌ بقوّةٍ فتعثّرتْ، لكنّه لم يعتذر. وتزايدت أعداد الناس الذين يهرعون من أمامهما.

سألتْ إيزابيل رجُلاً محمرّ الوجه يتنفّس بسرعة، وهو يحاول أن يخرج من الزحام: «ما الأمر؟ ما الذي حدث؟».

- الألمان قادمون إلى باريس. علينا أن نغادر. كنتُ في الحرب الكبرى. أعرف....

فسخرتْ منه إيزابيل: «الألمان في باريس؟ مستحيل!».

سار مبتعداً، وهو يتنقّل من جانبٍ إلى آخر ينسج طريقه، وقبضتاه ترتخيان وتشتدّان إلى جانبيه.

قال بابا وهو يقفل باب المكتبة: «لا بدّ من أن نعود إلى البيت».

فقالت: «لا يمكن أن يكون الأمر صحيحاً!».

قال پاپّا متجهّماً: «يمكن لأسوأ الأشياء أن تحدث». ثمّ أضاف، وهو يتحرّك نحو الحشود: «ابقي قريبةً منّي».

لم يسبق لإيزابيل أن رأتْ حالةً من الذعر كهذه. كانت الأضواء تأتي من كلّ مكانٍ في الشارع، إذْ تُشغَّل السيّارات، وتُغلق الأبواب. الناس يصرخون لبعضهم ويحاولون أن يظلّوا متقاربين في تلك المعمعة.

ظلّتْ إيزابيل قريبةً من والدها. كانت حركتهما بطيئةً بسبب الزحام. أنفاق المترو لا يمكن التحرّك فيها لفرط الزحام، فاضطُرّا إلى المشي طوال الطريق. فلمّا وصلا إلى البيت كان الليل قد أقبل، وتطلّب الأمر محاولتَين من والدها لفتح باب العمارة. كانت يداه ترتعشان بشدّة. وحين دخلا تجاهلا المصعد القفصيّ المتهالك، وهرعا يصعدان السلالم إلى الشقّة.

قال لها والدها بحدّةٍ حين فتح الباب: «لا تشعلي الأضواء».

دخلتْ إيزابيل وراءه إلى الصالة، ثمّ تجاوزتْه ماشيةً إلى النافذة حيث أزالتْ الستارة وبدأتْ تنظر إلى الخارج.

صوتُ أزيزٍ يأتي من بعيد. فلمّا ازدادت قوّة الصوت كانت النوافذ ترتجّ، كقِطع الثلج في كأس.

سمعتْ صوتَ صفيرٍ عالٍ قبل ثوانٍ من رؤية السِرب الأسْود في السماء، مثل الطيور التي تطير في سربٍ واحد.

طائرات.

هَمس والدها قائلاً: «البوش»(*).

الألمان.

(*) «بوش Boche»: لفظةٌ فرنسيّة تحقيريّة كانت تُستخدم للألمان. (م)

الطائرات الألمانيّة، تحلّق فوق باريس. ازداد الصفير قوّةً، فأصبح أشبه بصرخة امرأة، ثم انفجرتْ قنبلةٌ في مكانٍ ما (ربما في الدائرة الثانية كما خُيّل لها) وانطلق ضوءٌ قويٌّ، ثمّ بدأ شيءٌ يشتعل.

انطلقتْ صافرةُ الإنذار. أغلق والدها الستائر وأخرجها من الشقّة باتّجاه السلالم. كان الجيران كلّهم يفعلون الشيء نفسه، وهُم يحملون المعاطف، والرضّع، والحيوانات الأليفة، فلمّا وصلوا إلى الطابق الأرضيّ نزلوا من السلالم الحجريّة الملتوية إلى القبو. وهناك في الظلام جلسوا متزاحمين، تفوحُ في الهواء رائحةُ العفن، والعَرَق، والخوف؛ أمّا رائحةُ الخوف، فكانت هي الأقوى. استمرّ القصف مرّةً بعد مرّة، بين الصرير والأزيز، فيما تهتزّ جدران القبو حولهم، ثمّ بدأ التراب يتساقط من السقف، وبدأ طفلٌ يبكي بدون توقّف.

صرخ أحدهم بحدّة: «أخرسوا ذلك الطفل، أرجوكم!».

– أحاول يا مسيو. إنّه خائف.

– كلّنا خائفون.

ثمّ هبط الصمتُ بعد فترةٍ بدتْ أشبه بالأبد. كاد الصمتُ أن يكون أسوأ من الضجيج. ما الذي بقي من باريس؟

حين أُعلن عن انتهاء الغارة، شعرتْ إيزابيل بالخَدَر.

– إيزابيل؟

كانت تريد أن يمدّ والدُها يده إليها، أن يمسك بيدها ويحاول طمأنتها، ولو للحظةٍ لا أكثر، لكنّه التفت بعيداً وتوجّه إلى السلالم المظلمة. فلمّا وصلا إلى الشقّة هرعتْ إيزابيل إلى النافذة، تبحث من خلف الستارة عن برج إيفل. كان ما يزال هناك، قائماً فوق جدارٍ من الدخان الأسود الكثيف.

- لا تقفي عند النوافذ.

استدارت ببطء. كان الضوءُ الوحيد في الصالة من مصباحه اليدوي، مجرّد خيطٍ أصفر باهت في الظلام. قالت: «باريس لن تسقط».

لم يقل شيئاً. عَبَس فحسب. تساءلت ما إذا كان يفكّر في الحرب الكبرى وما رآه في الخنادق. لعلّ جروحه نُكئت، تتوجّع في تعاطفٍ مع صوت القنابل والحرائق.

- نامي الآن يا إيزابيل.

- وكيف يمكن أن أنام في وقتٍ كهذا؟

تنهّد: «سوف تتعلّمين أنّ هنالك أشياء كثيرة ممكنة».

الفصل الخامس

كذبتْ عليهم حكومتُهم؛ قيل لهم مرّةً بعد مرّةٍ: إنّ خطّ «ماغينو» كفيلٌ بإبقاء الألمان خارج الحدود الفرنسيّة.

أكاذيب.

فلا الإسمنت والصُلْب ولا الجنود الفرنسيّون استطاعوا أن يوقفوا هتلر؛ أمّا الحكومةُ الفرنسيّة، فقد فرّ رجالها ليلاً كاللصوص. قيل: إنّهم في «تُور» يتداولون الخطط الحربيّة، ولكنْ ما نفعُ التخطيط وباريس قد سقطتْ؟

- هل جهزتِ؟

- «بابّا، أخبرتك أنّي لن أذهب». كانت قد أطاعتْه وارتدتْ ملابس السفر؛ ثوباً صيفيّاً أحمر منقّطاً، وكعبَين خفيضَين.

- لن نكرّر هذا النقاش يا إيزابيل. أسرة همبرت على وشك الوصول، وسيأخذونك بعيداً عن هنا، إلى تُور. بعد ذلك، الأمرُ متروكٌ لعبقريّتك في الوصول إلى منزل أختك. لطالما كنتِ بارعةً في الهرب.

- أنت تطردني إذن. مرّةً أُخرى.

- كفى يا إيزابيل. زوج أختكِ في الجبهة. وهي وحدها مع ابنتها. اسمعي الكلام. ستغادرين باريس.

هل كان يدري كم يؤلمها هذا الأمر؟ هل كان يهتمّ؟

- كأنّكَ تعبأ بي، أو بأختي. هي مثلك لا تريدني.

- ستذهبين.

- بابّا، أريد أن أبقى هنا وأقاتل. أريد أن أصبح مثل إدِث كافل.

قلّب عينَيه في ضيقٍ وقال: «ألا تعلمين كيف ماتت؟ لقد أعدمها الألمان».

- بابّا، أرجوك!

- كفى! لقد رأيتُ بنفسي ما يفعلونه. أنتِ لم ترَي شيئاً.

- إذن تأتي أنت معي.

- «وأترك شقّتي ومكتبتي لهم؟». جرّها من يدها خارج الشقة إلى السلالم، فيما تصطدمُ قبّعتها وحقيبتها بالجدار، وهي تلهث.

فلمّا وصلا إلى الأسفل فتح باب العمارة وقادها إلى شارع «دو لا بوردونيه».

فوضى. غبار. حشود. كان الشارع أشبه بتنّينٍ بشريّ يتقدّم ببطءٍ، يزفرُ التراب، ويُطلق الأبواق. أناسٌ تصرخُ، تطلب النجدة، وأطفالٌ يبكون، والهواءُ معبّأ برائحة العَرَق.

الطريق مختنقٌ بالسيّارات، وكلّ سيّارةٍ ترزح تحت صناديق كثيرةٍ وحقائب. حملَ الناسُ معهم كلّ ما وجدوه أمامهم، بما في ذلك العربات، والدرّاجات الهوائيّة، وعربات الأطفال.

أمّا أولئك الذين لم يجدوا سيّارةً، أو بنزيناً، أو حتّى درّاجة هوائيّة، فقد أسلموا أنفسهم للمسير. كانوا مئات، بل آلافاً من النساء والأطفال يمشون يداً بيد، يشقّون طريقهم، يحملون كلّ ما أمكن حملُه، من حقائب، وسِلال، وحيوانات أليفة.

في غمرة ذلك كان كبار السنّ والصغار هُم الذين يتخلّفون عن الركب.

لم تكن إيزابيل ترغب في أن تنضمّ إلى هذا الحشد اليائس العاجز من نساءٍ، وأطفالٍ، وعَجَزة. كان الشبابُ قد ذهبوا، يذرفون أرواحهم من أجل هؤلاء، فيما عائلاتُهم تنزح غرباً، أو جنوباً. تُرى ما الذي أوقر في نفوسهم أنّهم سيكونون في مأمنٍ هناك؟ كانت قوّات هتلر قد اجتاحت بولندا، وبلجيكا، وتشيكوسلوفاكيا.

أحاطتْ الجموعُ بإيزابيل ووالدها.

اصطدمتْ امرأةٌ بإيزابيل، وتمتمتْ باعتذارٍ، ثمّ تابعتْ سيرها.

مشتْ إيزابيل خلف والدها. «بابا أرجوك، أستطيع أن أساعد. أعملُ ممرّضةً، أو أقود سيّارة إسعاف. يمكنني أن أضمّد الجرحى، أو أخيط جروحهم».

ثمّ علا بوقُ سيّارةٍ إلى جانبهما.

نظر والدُها وراءها، فرأتْ الارتياح يملأ وجهه. تعرفُ إيزابيل تلك النظرة. سوف يتخلّص منها، مرّةً أُخرى. قال: «وصلوا».

– بابا، أرجوك!

مرّرَها بين الحشدِ إلى السيّارة السوداء التي وصلتْ. على سقفها فِراشٌ مهلهلٌ ملطّخٌ، ومجموعةُ صنّارات، وقفصُ أرانب ما يزال الأرنب

في داخله. لم يكن صندوقُ السيّارة مغلقاً، لكنّه كان مربوطاً، فرأتْ في داخله سِلالاً، وحقائب، ومصابيح.

في الداخل، كان المسيو همبرت يقبض على المقود بأصابعه المكتنزة، كما لو أنّ السيّارة حصانٌ قد ينطلق في أيّ لحظة. كان رجُلاً قصير القامة، يقضي أيّامه في محلّ جزارته بالقرب من مكتبة پاپّا؛ أمّا زوجته پاتريسيا، فكانت امرأةً قويّة الشكيمة، لها ملامح أهل الريف المنتشرين في أرجاء البلاد. كانت آنذاك تدخّن سيجارةً، وتحدّق من النافذة كأنّها لا تصدّق ما تراه.

أنزل المسيو همبرت نافذته وأخرج رأسه: «مرحباً جولِيَن. هل هي جاهزة؟».

فأومأ پاپا. «جاهزة. ميرسي، إدوار».

ومالتْ پاتريسيا كي تتحدّث إلى پاپا من النافذة المفتوحة. «لن نذهب أبعد من أورليون. ولا بدّ من أن تدفع حصّتها من البنزين».

– طبعاً.

لم تستطعْ إيزابيل أن تهضم فكرة الرحيل. كانت ترى في ذلك جُبناً وخطأً.

– پاپّا—.

– «أو روڤوار». قالها بحزمٍ كي يذكّرها بأنّه لا يوجد خيار أمامها، ثمّ أومأ باتّجاه السيّارة، فمشتْ إليها في تثاقل.

فلمّا فتحتْ الباب الخلفيّ رأتْ ثلاث فتياتٍ صغيراتٍ متّسخاتٍ مستلقياتٍ، يأكلن البسكويت، ويشربنَ من زجاجاتٍ، ويلعبن بالدمى. كان هذا آخر ما تريده إيزابيل، لكنّها انحشرتْ معهنّ فأفسحتْ لنفسها

مكاناً، بين هؤلاء الغرباء الذين تفوح رائحتهم بالجُبن والسجق، ثمّ أغلقتْ الباب.

استدارتْ إيزابيل في مقعدها، وهي تحدّق في والدها من النافذة الخلفيّة. كان ينظر إليها، ورأتْ فمه يميل قليلاً إلى الأسفل. كانت تلك هي الإشارة الوحيدة إلى أنّه رآها. لحظات فقط، وتدفّق الناس من حوله كالماء الذي يتجمّع حول صخرة، فلم تعد ترى شيئاً سوى زرافاتِ الناس المتمرّغين بالتراب خلف السيّارة.

اعتدلتْ إيزابيل في جلستها، ورأتْ من نافذتها امرأةً شابّةً تحدّق فيها، بعينَين طائشتَين، وشعرٍ أشبه بعشّ طائر، وصغيرُها يرضع من صدرها. كانت السيّارة تتحرّك ببطءٍ، تتقدّم شبراً فشبراً في بعض الأحيان، ثمّ تتوقّف أحياناً أُخرى مدّةً طويلة. أخذتْ إيزابيل تنظر إلى أهل بلادها، إلى نساء بلادها. ها هنّ يمضين من أمامها، سادرات، خائفات، مرتبكات. كانت إحداهنّ بين الفينة والأُخرى تدقّ على السيّارة، تتوسّل شيئاً ما. وكانت نوافذ السيّارة مغلقةً طوال الوقت، على الرغم من أنّ الحرارة كانت خانقةً داخل السيّارة.

كان الحزنُ أوّل ما شعرتْ به في أثناء مغادرتها، ثمّ استحال غضباً مستعراً، أكثر سخونةً من الهواء في خلفيّة تلك السيّارة النتنة. لقد سئِمَت إيزابيل تصرّفَ الآخرين معها على أنّها من سقْط المتاع. في أوّل الأمر تخلّى عنها والدُها، ثمّ قرّرتْ ڤيان إبعادها. أغمضتْ عينَيها كي تخفي العَبَرات التي لم تستطع أنْ تحبسها. هناك، في ذلك الظلام المعبّأ برائحة السجق، والعَرَق، والدخان، وصخبِ الطفلات إلى جانبها، تذكّرت أوّل مرّةٍ طُرِدت فيها.

رحلةُ القطار الطويلة...وإيزابيل محشورةٌ إلى جانب ڤيان التي لم تكن تفعل شيئاً سوى التنشّق، والبكاء، والتظاهر بالنوم.

تذكّرتْ بعد ذلك المدام، وهي تنظر من فوق أنفها الذي يشبه الأنبوب النحاسيّ، ثم تقول: أمرهما هيّن.

وعلى الرغم من أنّ إيزابيل كانت صغيرةً آنذاك (في الرابعة من عمرها لا أكثر)، إلّا أنّها تعلّمت معنى أن يكون الإنسان وحيداً. هكذا ظنّت، لكنّها كانت مخطئة؛ ففي السنوات الثلاث التي عاشتها في لو جاردان كانت لديها شقيقةٌ على الأقل، حتّى إن لم تكن ڤيان موجودةً إلى جانبها. تذكّرتْ إيزابيل حين كانت تنظر من نافذة الطابق العلويّ، فترى ڤيان مع أصدقائها من بعيد. كانت تتضرّع كي يتذكّرها أحد، كي يدعوها أحد إلى الانضمام إليهم. وحين تزوّجت ڤيان من أنطوان واستغنتْ عن المدام دَمار (لم يكن اسمها الحقيقيّ بالطبع، على الرغم من حقيقته)، ظنّت إيزابيل أنّها جزءٌ من الأسرة. لم يدم ذلك طويلاً؛ فحين أجهضتْ ڤيان، كان لا بدّ من قول: وداعاً إيزابيل. بعد ثلاثة أسابيع (حين كانت في السابعة) دخلت إيزابيل أوّل مدرسةٍ داخليّة. في ذلك الوقت تعلّمتْ فعلاً معنى أن تكون وحيدة.

- «أنتِ، إيزابيل! هل أحضرتِ طعاماً معك؟». سألتْها پاتريسيا، وقد استدارتْ للنظر إليها.

- لا.

- نبيذاً؟

- أحضرتُ نقوداً، وملابسَ، وكتباً.

- فقالتْ پاتريسيا بازدراء: «كتباً!». ثمّ اعتدلت في مقعدها: «نعم، ستفيدنا الكتب».

نظرتْ إيزابيل من النافذة مرّةً أُخرى. أيُّ أخطاءٍ أُخرى ارتكبتْها حتّى الآن؟

*

مرّت الساعات، والسيّارة تشقُّ طريقها البطيء المؤلم نحو الجنوب. كانت إيزابيل تشعر بالامتنان للغبار الذي يغطّي النافذة، كي يحجب عنها المشهد الرهيب.

الناس. في كلّ مكان. من أمامهم، ومن خلفهم، وإلى جانبهم. كانت الحشود كثيفة للغاية، حتّى إنّ السيّارة لم تكن تستطيع التقدّم إلّا فتراتٍ متقطّعة. كان الأمر أشبه بالقيادة وسط سربٍ من النحل، ما إنْ يتفرّق عن بعضه لحظاتٍ حتّى يعود؛ أمّا الشمسُ، فكانت حارقةً، تحوّلُ داخل السيّارة النتنة إلى فرنٍ حقيقيٍّ، وتسفعُ نسوةً في الخارج يمشين نحو...نحو ماذا؟ لم يكن أحد يعلم بالضبط ما يحدث من خلفهم، ولا يعرف أيّ مكانٍ سيكون أسلم.

تمايلتْ السيّارة، ثمّ توقّفت بقوّة. ارتطمتْ إيزابيل بالمقعد الذي أمامها، وبدأت الطفلات في البكاء.

تمتم المسيو همبرت: «ميرد».

فأنّبتْه باتريسيا: «مسيو همبرت. الأطفال!».

دقّت امرأة عجوز على مقدّمة السيّارة، وهي تمرّ.

– الأمرُ يا مدام همبرت أنّ البنزين نفد.

جحظت عينا باتريسيا مثل سمكةٍ أُخرجتْ من الماء: «ماذا؟».

– لقد توقّفتُ عند كلّ محطّةٍ في الطريق. تعرفين هذا. لم يعد لدينا مزيد من البنزين، ولا يوجد بنزين أصلاً.

– ولكن...حسناً...ماذا سنفعل؟

– «سنبحث عن مكانٍ نقيم فيه. ربّما أستطيع أن أقنع أخي كي يأتي ويأخذنا». فتحَ المسيو همبرت بابه، حذِراً كي لا يضرب به أحد المارّة، ومشى إلى الطريق الترابيّ: «انظري. هناك. إيتانْب ليست بعيدةً عن هنا. سنجد غرفةً مع الطعام، وفي الصباح يكون كلّ شيء على ما يرام».

اعتدلتْ إيزابيل في مقعدها. بالتأكيد غَفَت، وفاتَها شيءٌ ما. هل سيتركون السيّارة هنا؟ «هل تعتقدون أنّه بإمكاننا المشي إلى تُور؟».

التفتتْ باتريسيا إليها. من الواضح أنّها كانت مستنزفةً وتفيضُ حرارةً. «ربّما ينفعكِ الآن واحد من كتبك. لا شكّ أنّه كان خياراً أذكى من إحضار خبزٍ، أو ماء. هيّا يا بنات. اخرجن من السيّارة».

مدّت إيزابيل يدها بحثاً عن الحقيبة عند قدمَيها. كانت محشورةً تماماً، فتطلّبت شيئاً من الجهد لإخراجها. استطاعت مع شيءٍ من العزيمة أن تخرجها، ثمّ فتحتْ باب السيّارة وخرجتْ. وما هي إلّا لحظة حتى أحاط بها الناس، ما بين أحدٍ يدفعها، وآخر يشتمها.

حاول شخصٌ أن ينتزع حقيبتها من قبضتها، فقاتلتْ كي تتمسّك بها. وفيما كانت تمسك بها بجسدها كلّه، مرّت امرأةٌ من أمامها، تدفع درّاجة هوائيّة محمّلة بالأغراض. حدّقتْ المرأةُ في إيزابيل بنظرةٍ خاليةٍ من الأمل، وعيناها الداكنتان تفيضان بالتعب.

ثمّ اصطدم بها شخصٌ آخر، فتعثّرت وكادت أن تسقط. لم يجنّبها من الوقوع في التراب إلّا تلك الغابة الكثيفة من الأجساد أمامها. سمعتْ إيزابيل الشخص الذي بجانبها يعتذر، وهمّت بالردّ عليه، ثمّ تذكّرت أسرة همبرت.

شقّت طريقها إلى الجانب الآخر من السيّارة وصاحت: «مسيو همبرت!».

لا جواب. لا شيء سوى وقع الأقدام المتواصل على الطريق.

صاحت باسم پاتريسيا، لكنّ صيحتها تاهت بين وقع الأقدام الكثيرة، والإطارات التي تدكّ الطريق. كان الناس يصدمونها، ويدفعونها. فلو وقعتْ على ركبتيها سيدوسون عليها وتموت في مكانها، وحيدةً وسط الحشود من أهل بلادها.

تمسّكت بمقبض حقيبتها الجلديّ الناعم، وانضمّت إلى تلك المسيرة نحو إيتانب.

حلّ الظلامُ بعد ساعات، وهي ما تزال تمشي. قدماها تؤلمانها، فثمّة بثرة تحرقُها مع كلّ خطوة. كان الجوعُ يسير إلى جانبها، يلكزها بحدّةٍ، ولكنْ لا حول لها ولا قوّة. كانت قد جهّزت أغراضاً تكفي لزيارة أختها، لا لهذا النزوح الذي لا ينتهي. كانت تحمل معها نسختها المفضّلة من مدام بوفاري، وذلك الكتاب الذي كان الجميع يقرأه: ذهب مع الريح، وبعض الملابس. لا طعام، ولا ماء. كانت تتوقّع أن تستغرق الرحلة بأكملها بضع ساعات لا أكثر. ولم تكن تتوقّع طبعاً أن تمشي إلى كاريفو.

توقّفتْ على قمّة مرتفعٍ صغير. كان ضوء القمر يكشف عن آلاف الأشخاص الذين يسيرون إلى جانبها، وأمامها، وخلفها، يصطدمون بها، ويدفعونها قُدُماً حتّى لم يبق أمامها سوى أن تتهادى معهم. كان المئات من الناس قد توقّفوا هنا للراحة. خيّم النساءُ والأطفال على طول الطريق، في الحقول وفوق المزاريب والمجاري المائيّة.

أمّا الطريق الترابيّ، فكان ممتلئاً بالسيّارات المعطّلة والأغراض

المنسيّة، أو المرميّة، أو غير القابلة للحمل. ثمّة نساء وأطفال مستلقون بجوار بعضهم فوق العشب، أو تحت الأشجار، أو إلى جانب الخنادق. نائمون، وأذرعهم تلتفّ حول بعضهم.

هدَّ إيزابيل التعبُ فتوقّفت في ضاحيةٍ من ضواحي إيتانب. انطلقتْ الحشود أمامها، تتهادى في الطريق إلى البلدة.

كانت تعرف ما سيحدث.

لن يكون في إيتانب مكان للسكن، ولا طعام. ولا بدّ من أنّ اللاجئين الذين وصلوا قبلها صاروا يمسحون البلدة كالجراد، يشترون كلّ ما يجدونه من غذاء. ولن تكون هناك غرفة شاغرة. لن ينفعها مالُها.

كيف تتصرّف إذن؟

تتجّه جنوب الغرب، نحو تور وكاريفو. هل في وسعها غير ذلك؟ كانت قد درستْ خرائط هذه المنطقة في أثناء سعيها للعودة إلى باريس. كانت تعرف هذه المنطقة، لكنها كانت بحاجة إلى التفكير.

ابتعدتْ عن الجموع، واتّجهت نحو مجموعةٍ من الأبنية الحجريّة الرماديّة التي يضيئها نور القمر، ثمّ شقّت طريقها في حرصٍ عبر الوادي. كان كلّ من حولها جالساً على العشب، أو نائماً تحت الألحفة. كانت تسمعهم يتحرّكون، يتهامسون. مئات منهم، آلاف. وعلى الجانب الآخر من الحقل وجدتْ مساراً يمتدّ جنوباً بمحاذاة جدارٍ حجريّ خفيض. فلمّا تبعتْ المسار وجدتْ نفسها وحيدة. توقّفتْ لحظةً، كي تهدّئ نفسها بذلك الشعور، ثمّ بدأتْ تمشي مرّةً أُخرى. وبعد قرابة كيلومترٍ ونصف قادها المسارُ إلى مجموعة أشجارٍ طويلة.

وصلتْ إلى أعماق الغابة. كانت تحاول ألّا تفكّر في الألم في إصبع

قدمها، والألم في معدتها، والجفاف في حلقها، إلى أنْ تناهت إليها رائحة الدخان.

واللحم المشويّ. نزعَ عنها الجوعُ إصرارَها، وبثّ فيها لا مبالاة. رأتْ وهج النار فتوجّهتْ نحوه. في اللحظة الأخيرة أدركتْ الخطر، فتوقّفت. انكسر غُصينٌ تحت قدمها، ثمّ جاءها صوت ذَكَر: «تعالَي. تمشين مثل فيلٍ في الغابة».

تجمدّتْ إيزابيل في مكانها. كانت تدركُ حماقة تصرّفها. فقد تتعرّض الفتاةُ هنا للخطر إن كانت بمفردها.

- لو كنتُ أريد قتلكِ، لقتلتُك.

كان ذلك صحيحاً بالتأكيد. فقد كان بإمكانه أن يقترب منها في الظلام ويجزّ عنقها، فلم تكن تركّز في شيءٍ سوى صوت بطنها الفارغ، ورائحة الشواء.

- لا تقلقي. يمكنكِ الوثوق بي.

ظلّت تحدّق في الظلام، تحاول أن تستبينَ ملامحه. لم تستطع. «ستقول ذلك حتى لو كان العكس هو الصحيح».

ضحكة. «وِي. والآن تعالَي. لديّ أرنبٌ على النار».

تَبِعَت إيزابيل وهج الضوء، وهي تمشي فوق وَهدٍ صخريٍّ للأعلى. كانت جذوع الأشجار من حولها تبدو فضّيةً في نور القمر. كانت تتحرّك على مهلٍ، مستعدّةً للجري في أيّ لحظة، ثمّ توقفتْ عند الشجرة الأخيرة بينها وبين النار.

كان هناك شابٌّ جالسٌ عند النار، يتكئ على جذعٍ خشن، يمدّ ساقاً ويطوي الأُخرى. ربّما كان يكبر إيزابيل ببضع سنوات لا أكثر.

لم يكن من السهل رؤيته جيّداً عند ذلك الوهج البرتقالي. شعرهُ أسْود طويلٌ ليفيٌّ لا يبدو على علاقةٍ جيّدة بالمشط، أو الصابون، وملابسه ممزّقةٌ مرقّعةٌ ذكّرتْها بلاجئي الحرب الذين كانوا يتجوّلون مؤخّراً في باريس، يخزّنونَ السجائر، وقِطع الورق، والزجاجات الفارغة، ويتسوّلون فكّةً، أو مساعدة. كانت له هيئة شاحبة سقيمة كهيئة من لا يعرف أبداً من أين ستأتي وجبته التالية.

ومع ذلك كان يعرض عليها الطعام.

قالت من مكانها في الظلام: «أرجو أن تكون رجُلاً محترماً».

فضحك. «بالتأكيد ترجين ذلك».

ثمّ خطتْ إلى الضوء قرب النار.

قال لها: «اجلسي».

جلستْ قبالته على العشب، فمال ناحيتها وناولها زجاجة نبيذ. شربتْ جرعةً طويلة، حتّى ضحك، وهي تعيد إليه الزجاجة وتمسح النبيذ عن ذقنها.

- يا لكِ من سكّيرةٍ جميلة!

لم تعرف كيف تردّ على هذا الكلام.

فابتسم.

- اسمي غيتون دُوبوا. أصدقائي يسمّونني غيت.

- وأنا إيزابيل روسينيول.

- أها، روسينيول. العندليب!

هزّت كتفَيها. بالطبع لم تكن ملحوظةً جديدة. فاسمها الأخير يعني

العندليب. وكانت مامُن تنادي ڤيان وإيزابيل: «عندليبتَيّ» حين تقبّلهما قبلة النوم. كانت هذه واحدة من الذكريات القليلة التي تحملها إيزابيل عن والدتها.

- لماذا تترك باريس؟ ينبغي لرجُلٍ مثلك أن يبقى ويحارب.

- لقد فتحوا السجن. من الواضح أنّه من الأفضل أن نقاتل من أجل فرنسا بدلاً من المكوث خلف القضبان حين يجتاحنا الألمان.

- أنتَ كنتَ في السجن؟

- هل يفزعكِ ذلك؟

- لا. لكنّه...غير متوقّع.

فقال، وهو يُبعد شعره الليفيّ عن عينيه: «يجدر بكِ أن تفزعي. على أيّ حال، أنتِ الآن في أمانٍ معي. لديّ أشياء أخرى تشغل بالي. سوف أذهب للاطمئنان على مامُن وأختي، ثمّ أبحث عن كتيبةٍ أنضمّ إليها. سأقتل من أولاد الحرام هؤلاء أكبر عددٍ ممكن».

فقالت وهي تتنهّد: «يا لحظّك!». لماذا كان من السهل للرجال في العالم أن يفعلوا ما يحلو لهم بينما الأمر صعب للغاية للنساء؟

- تعالَي معي.

كانت إيزابيل أذكى من أن تصدّقه. «تقول هذا لأنّني جميلة، وتظنّ أنّي لو بقيتُ معك قد ينتهي بي الأمر في فراشك».

أخذ يحدّق فيها من وراء النار، وهي تضطرم وتهسهس حين يسقط الشحم عليها. أخذ جرعةً كبيرة من النبيذ، ثمّ ناولها إيّاها. هناك قرب النار تلامست يداهما، مسّاً رقيقاً لبشرةٍ على بشرة. «لو كان هذا ما أريد لكنتِ في فراشي الآن».

فقالت، وهي تزدرد النبيذ بقوّة، غير قادرةٍ على تحويل نظرتها عنه: «ولكن ليس برغبتي».

– «بل برغبتكِ». قالها بطريقةٍ وَخَزتْ جسدها وأثقلتْ تنفّسها: «ولكنْ ليس هذا ما قصدتُه، ولا ما قلتُه. طلبتُ منكِ أن تأتي معي لتحاربي».

شعرتْ إيزابيل بشيءٍ جديدٍ لم تستطع أن تستوعبه. كانت تعرف أنّها جميلة. تلك محضُ حقيقة بالنسبة إليها. كان الناس يقولون لها هذا دائماً. كانت ترى كيف يحملق فيها الرجال برغبةٍ صريحةٍ، وهُم يعلّقون على شعرها، أو عينيها الخضراوَين، أو شفتَيها المكتنزتَين. كانت ترى كيف ينظرون إلى نهدَيها. كانت ترى جَمالها منعكساً في أعين النساء أيضاً، في الفتيات اللائي لا يردنَ أن تقف إلى جوار من يعجبهنّ من الأولاد، أو يحكمنَ عليها بالغرور قبل حتّى أن تنطق بكلمة.

كان الجمالُ مجرّد سبيلٍ آخر إلى الانتقاص منها، إلى إهمالها. لقد اعتادت أن تحصل على الاهتمام بطرائق أُخرى. كما أنّها لم تكن بريئةً تماماً. أولم تطردها راهبات القدّيس فرانسيس لأنّها كانت تقبّل ولداً في أثناء القدّاس؟

لكنّ هذا الأمر بدا مختلفاً.

كانت واثقةً من أنّه رأى جمالها، وإنْ في نصف ضوء، لكنّه تجاوزه. إمّا هذا، وإمّا أنّه كان ذكيّاً جدّاً بحيث أدرك أنّها تريد تقديم شيءٍ أكبر للعالم من مجرّد وجهٍ جميل.

قالت بصوتٍ خفيض: «يمكنني أن أقدّم شيئاً مهمّاً».

– بالطبع. يمكنني أن أعلّمكِ كيف تستخدمين المسدّس والسكّين.

– عليّ أوّلاً أن أذهب إلى كاريفو للاطمئنان على أختي. زوجها في الجبهة.

نظر إليها بتركيزٍ من وراء النار. «سنذهب إلى أختكِ في كاريفو ووالدتي في بواتييه، ثم ننطلق إلى الحرب».

قالها كما لو أنّه يتحدّث عن مغامرة، لا تختلف عن الهروب للانضمام إلى سيرك، وكأنّهما سيرَيان رجالاً يبلعون السيوف، ونساءً بدينات بلِحى.

كان هذا ما تبحث عنه طوال حياتها. فقالت بدون أن تستطيع إخفاء ابتسامتها: «اتّفقنا إذن».

الفصل السادس

فتحتْ إيزابيل عينَيها في صباح اليوم التالي، فرأت ضوء الشمس ذَهَباً فوق أوراق الشجر التي تحفحفُ من فوقها.

جلستْ، وأسدلتْ تنّورتها التي ارتفعت في أثناء نومها، كاشفةً عن حمّالة الجوارب البيضاء المخرّمة، وجوربَين طويلَين حريريَّين تالفَين.

- لا تفعلي ذلك من أجلي.

نظرتْ إيزابيل إلى يسارها فرأتْ غيتون يقترب منها. كانت أوّل مرةٍ تراه فيها بوضوح. كان نحيفاً، هزيلاً كعلامة الفاصلة العليا، يرتدي ملابس تبدو كما لو أنّها مأخوذة من مهملاتِ متسوّل. كان وجهه تحت القبّعة المهترئة قذراً، حادّاً، غير حليق، وله جبهةٌ عريضةٌ، وذقنٌ بارزٌ، وعينان رماديّتان برموشٍ كثيفة؛ أمّا نظرتُه، فكانت حادّةً مثل ذقنه، تبوحُ بنوعٍ من الجوع الواضح. كانت في اللّيلة الماضية تعتقد أنّ الأمر متعلّق بنظرته إليها؛ أمّا الآن، فقد أدركتْ أنه متعلّق بنظرته إلى العالم.

لم تخفْ منه، على الإطلاق. لم تكن إيزابيل تشبه أختها التي يسكنها

الخوف والقلق. لكنّ إيزابيل لم تكن حمقاء أيضاً؛ فإنْ كانت ستسافر معه، من الأفضل أن تستوضح بعض الأمور.

- كنتَ في السجن إذن، هاه؟

حدّق فيها ورفع حاجبه الأسْود كأنّما يقول لها: ألم تشعري بالخوف بعد؟ «الفتيات مثلك لا يعرفون شيئاً عنه. يمكنني أن أقول لكِ: إنّه كان شيئاً أشبه بتجربة جان فالجان(*)، وسوف تعتقدين أنّها كانت تجربةً رومنسيّة».

لم يكن هذا النوع من التعليقات جديداً عليها، فكانت دائماً تدور حول شكلها. كان من المسلّم به أنّ الفتاة الشقراء الجميلة لا بدّ من أن تكون سطحيّةً قليلة الذكاء. «وهل كنتَ تسرق الطعام من أجل أسرتك؟».

فابتسم ابتسامةً ساخرةً أضفتْ عليه مظهراً غير متسّقٍ، فكان جانبٌ من ابتسامته مرتفعاً عن الآخر. «لا».

- هل أنت خَطِر؟

- يعتمد. ما رأيكِ بالشّيوعيّين؟

- آه، إذن كنتَ سجيناً سياسيّاً.

- شيئاً كهذا. ولكنْ كما قلتُ لك، الفتيات الراقيات مثلك لا يعرفن شيئاً عن صراع البقاء.

- ستدهشك الأشياء التي أعرفها يا غيتون. هناك أكثر من نوعٍ من السجون.

- صحيح أيتها الجميلة؟ وما الذي تعرفينه عنها؟

(*) البطل في رواية البؤساء لفكتور هوغو، إذْ تحكي الرواية عمّا حدث له بعد إطلاق سراحه من السجن لأنه سرق خبزاً لأخته وأطفالها. (م)

- ماذا كانت جريمتك؟

- أخذتُ أشياء لا تخصّني. هل تكفي هذه الإجابة؟

لصّ.

- وقُبض عليك.

- واضح.

- بالطبع لم يكن أمراً مبهجاً يا غيتون. هل كنتَ متهوّراً؟

قال، وهو يقترب منها: «غيت».

- لم أقرّر إن كنّا سنصبح صديقَين.

لمس شعرها، وترك بضع خصلات تدور حول أصابعه المتّسخة. «نحن صديقان. لا تشكّي في هذا. والآن هيّا بنا».

حين مدّ يده إليها خطر لها أن تردّه، لكنّها لم تفعل. هكذا سارا حتى خرجا من الغابة وعادا إلى الشارع، فاندمجا مرّةً أُخرى في الحشود التي منحتهما مساحةً كافيةً للدخول، ثمّ انغلقت الدائرة من حولهما. تمسّكت إيزابيل بغيتون بيدٍ واحدةٍ، وحملتْ حقيبتها باليد الأُخرى.

مشَيَا عدّة كيلومترات.

كانت السيّارات تموت من حولهما. عجلاتُ العربات تتحطّم، والخيول تتوقّف فلا يمكن إجبارها على التحرّك من جديد. شعرتْ إيزابيل بفتور همّة وتثاقل بعد أن أنهكتها الحرارةُ، والغبار، والعطش. ترنّحتْ امرأةٌ إلى جانبها، وهي تبكي، وقد تلوّنت أدمعها بالأسود من أثر التراب وحُبيبات الرمل، ثمّ حلّت محلّها امرأةٌ عجوز ترتدي معطفاً من الفرو. كانت تتعرّق بغزارةٍ، وهي ترتدي كما يبدو كلّ ما تملك من مجوهرات.

اشتدّت حرارةُ الشمس، فأصبحت خانقة. أطفالٌ يتذمّرون، ونساءٌ تئنّ. تعبّأ الهواء بروائح الأجساد والعرق، غير أنّ إيزابيل اعتادت ذلك حتّى إنّها ما عادت تنتبه إلى روائح الآخرين، أو رائحتها.

كانت الساعة قرابة الثالثة تقريباً، في أشدّ فترات النهار حرارةً، حين رأوا كتيبةً من الجنود الفرنسيّين يسيرون إلى جانبهم، وهُم يجرّون بنادقهم. كان الجنود يتحرّكون على نحوٍ غير منظّم، بدون تشكيلٍ، بدون عنفوان. دَمْدَمت دبّابةٌ إلى جانبهم، تدكّ الأمتعة الملقاة على الطريق. يجلس فوقها عدّة جنودٍ فرنسيّين بسحنةٍ مذعورةٍ، ورأسٍ مطأطئ.

تركتْ إيزابيل يد غيتون، وشقّت طريقها إلى الكتيبة، ثمّ صاحت فيهم وقد فوجئت بخشونة صوتها: «أنتم تسيرون في الاتّجاه الخاطئ!».

وانقضّ غيتون على أحد الجنود، فدفعه إلى الخلف دفعةً قويّةً جعلتْه يتعثّر ويصطدم بدبّابةٍ كانت تتحرّك ببطء. «من الذي يقاتل من أجل فرنسا؟».

فهزّ الجنديّ ذو العينَين العمشاوَين رأسه وقال: «لا أحد». وفي لحظةٍ من بريق الفضّة رأتْ إيزابيل السكّين التي وضعها غيتون على رقبة الجنديّ. ضيّق الجنديّ عينَيه وقال: «هيّا. اقتلني».

سَحَبتْ إيزابيل غيتون بعيداً عن الجنديّ، ورأتْ في عينيه غضباً عميقاً لدرجة أنّها فزعتْ منه. كان يمكنه أن يفعل ذلك، أن يقتل الجنديّ بحزّ رقبته. ثمّ تذكّرت العبارة: لقد فتحوا السجون. فهل كان أسوأ من مجرّد لصّ؟

قالت: «غيت؟».

وصلَ صوتُها إلى أعماقه. فهزّ رأسه كما لو أنّه يفرغه من فكرته، ثمّ أنزل سكّينه وقال بمرارةٍ، وهو يسعل: «من يحارب من أجلنا؟».

- فقالت: «نحن. قريباً».

من خلفها جاء زامور سيّارة، فتجاهلتْه إيزابيل؛ إذْ لم تعد السيّارات أفضل من المشي الآن، والقلّة الذين كانوا يركضون أصبحوا يتحرّكون وفقاً لرغبة الناس من حولهم، كالحطام الطافي من القصب في نهرٍ موحل. جرّتْه إيزابيل بعيداً عن هذه الكتيبة المُحبطة. «هيّا!».

تابعا سيرهما، يدها في يده، لكنّها بمرور الساعات لحظت تغيّراً فيه. كان نادراً ما يتحدّث، ولم يبتسم.

كانت الحشود تقلّ مع وصولهم إلى أيّ بلدة. يمضي الناس إلى «آرتونيه»، و«سارون»، و«أورليون»، تضطرمُ أعينهم باليأس حين يمدّون أيديهم إلى حقائبهم، ومحافظهم، وجيوبهم بحثاً عن المال الذي يرجون أن يستطيعوا إنفاقه.

مع ذلك استمرّ إيزابيل وغيتون في طريقهما، يسيران طوال النهار، إلى أن هدّهما التعب بحلول الظلام فناما، واستيقظا في اليوم التالي ليتابعا المسير. وفي اليوم الثالث أخذ التعب من إيزابيل كلّ مأخذ، وظهرت بثورٌ حُمرٌ نازّةٌ بين معظم أصابع قدميها، وأعلى مشط القدم، فأصبحتْ تتألّم مع كلّ خطوةٍ تمشيها. وقد أصابها الجفاف بصداعٍ رهيبٍ، فيما أخذ الجوعُ يقضم معدتها الفارغة؛ أمّا الغبارُ، فقد سدّ حلقها وعينَيها، فكانت تسعل باستمرار.

تعثّرت أمام قبرٍ جديدٍ على جانب الطريق وُضع فوقه صليبٌ خشبيٌّ

غير متقن. اصطدم حذاؤها بشيء (قطّةٍ ميّتة)، فكادت تسقط. أمسك بها غيتون.

تشبّثت بيده، وظلّت منتصبة القامة.

تُرى كمْ مرّ من الوقت إلى أن سمعتْ شيئاً؟

ساعة؟ يوم؟

النحل. كان النحلُ يطنّ فوق رأسها. فهشّته عنها. بلّلتْ شفتَيها بلسانها، وتذكّرت أياماً جميلة في الحديقة حين كان النحل يطنّ هنا وهناك.

لا.

لم يكن نَحلاً.

تعرف ذلك الصوت.

توقّفتْ، وقطّبت جبينها. تشوّشتْ أفكارُها. ما الذي كانت تحاول أن تتذكّره؟

اشتدّ صوتُ الأزيز، يملأ الهواء، ثمّ ظهرتْ الطائرات. ستّ طائرات، أو سبع، كأنّها صلبانٌ صغيرةٌ في السماء الصافية.

وضعتْ إيزابيل يداً فوق عينَيها، وهي تنظر إلى الطائرات التي تقترب، وتنخفض...

صرخ أحدهم: «إنّهم البوش!».

وفي مكانٍ بعيد انفجر جسرٌ حجريٌّ في رشّةٍ من النيران، والحجر، والدخان.

وانخفضتْ الطائرات أكثر فوق الحشود.

ألقى غيتون بإيزابيل فوق الأرض، وغطّى جسدها بجسده. وأصبح

العالمُ محضَ صوت. هدير محركّات الطائرات، ونيران الرشّاشات، ونبض قلبها، وصراخ الناس. التهمتْ الطَلَقات العشبَ في صفوف، وأخذ الناس يصرخون. رأتْ إيزابيل امرأةً تطير في الهواء مثل دميةٍ قماشيّةٍ، ثمّ ترتطمُ بالأرض.

انفلقتْ الأشجار وسقطتْ، وصاح الناس، ثمّ ظهرت النيران هنا وهناك، وملأ الدخان الهواء.

ثمّ...هدوء.

نزل غيتون من فوقها.

- هل أنتِ بخير؟

رفعتْ شَعرها من فوق عينَيها وجلستْ.

كانت هناك جثثٌ مشوّهةٌ في كلّ مكان، وحرائقُ ودخانٌ أسْودُ يتصاعد منها. الناس بين صراخٍ، وبكاءٍ، واحتضار.

وجاء صوتُ شيخٍ يئنّ: «ساعدوني!».

زحفتْ إيزابيل إليه، ثمّ أدركتْ، وهي تقتربْ، أنّ الأرض قد تضرّجت بالدماء. كانت هناك فتحةٌ في بطنه باديةٌ من قميصه المقطوع، والأحشاءُ قد خرجت من لحمه الممزّق.

لم يخطر ببالها شيءٌ تقوله غير: «ربّما يوجد طبيب هنا». ثمّ سمعتْ الصوتَ مرّةً أخرى. الأزيز.

سحبها غيتون قائلاً: «عادوا». كادتْ قدماها تزلّان فوق الأرض المنقوعة بالدماء. انفجرتْ قنبلةٌ في مكانٍ غير بعيد. ورأتْ إيزابيل طفلاً صغيراً بحفّاضٍ متّسخٍ، يقف باكياً أمام امرأةٍ ميّتة.

همّت إلى الطفل، فشدّها غيتون.

- لا بدّ من أن أساعد—.

فزمجر قائلاً: «موتُك لن يساعد الطفل». وجرّها بقوّةٍ آلمتْها. سقطتْ إلى جانبه دائخة. سلكا طريقاً بين السيّارات المهملة والجثث، معظمها ممزّقة، نازفة، والعظام نافرةٌ من ملابسها.

عند حافّة المدينة، سحب غيتون إيزابيل إلى كنيسةٍ حجريّةٍ صغيرة. كان هناك آخرون سبقوهما، رابضين في الزوايا، مختبئين بين المقاعد يحتضنون أحبّاءهم.

كانت الطائرات تحلّق فوقهم، مصحوبةً بدويّ الرشّاشات. تحطّمتْ نافذة الزجاج الملوّن، وتناثرت قِطعُها فوق الأرض بعد أن شقّت طريقها فوق الأجساد. الأخشابُ تشقّقت، وسقط الترابُ والحجر، ثمّ انطلق الرصاص في الكنيسة، فتسمّرت الأذرعُ والسيقان على الأرض، وبعدها انفجر مذبح الكنيسة.

قال لها غيتون شيئاً، فأجابته، أو هكذا ظنّت، لكنّها لم تكن واثقة. وقبل أن تتأكّد من الأمر علا صفير قنبلةٍ أخرى، وسقطتْ، فانهار السقف من فوق رأسها.

الفصل السابع

لم تكن المدرسة الابتدائيّة كبيرةً وفقاً لمعايير المدينة، لكنّها فسيحةٌ، كبيرةٌ بما يكفي لأطفال كاريڤو. كان هذا المبنى في السابق عبارةً عن إسطبلات لأحد الأثرياء، ولذلك صُمّم على شكل حرف U، فالباحةُ الرئيسةُ كانت مكاناً لتجمّع العربات والتجّار، بأسوارها الحجريّة الرماديّة، ومصاريعها الزرق، والأرضيّات الخشبيّة؛ أمّا القصر الذي كان محاذياً لها، فقد قُصف في الحرب الكبرى ولم يُعيدوا بناءه. كانت المدرسةُ في حافّة البلدة، شأنها شأن بقيّة المدارس في البلدات الفرنسيّة الصغيرة.

كانت ڤيان في صفِّها، خلف طاولتها، تحدّق في وجوه الأطفال اللامعة أمامها، وهي تمسح شفتها العليا بمنديلها المجعّد. كان هناك قناعُ غازٍ إلزاميّ بجانب كلّ طاولة، يحمله الأطفال معهم أينما ذهبوا.

كانت النوافذ المفتوحة والجدران الحجريّة السميكة مفيدةً في التخفيف من شدّة الشمس، غير أنّ الحرارة كانت خانقة. يعلم الله كم كان التركيزُ صعباً في تلك الظروف أصلاً، بدون الحاجة إلى عبء الحرارة. الأخبار التي تأتي من باريس مروّعة، مرعبة. وكلُّ ما يمكن الحديث عنه

هو المستقبل القاتم، وهذا الحاضر الصادم: كان الألمان في باريس. لقد انهار خطّ ماغينو. الجنودُ الفرنسيّون ما بين قتلى في الخنادق، وفارّين من الجبهة. لم تنم ڤيان منذ ثلاث ليال، منذ الاتصال الذي وصل إليها من والدها. إيزابيل في مكانٍ لا يعلمه إلّا الله، بين باريس وكاريڤو، ولم تصل أيٌّ أخبار من أنطوان.

ثمّ سألتْ بتَعب: «مَن يا أطفال يريد أن يصرّف الفعل «كورير»؟».

- ألا يجدر بنا أن نتعلّم اللّغة الألمانيّة؟

أدركتْ ڤيان معنى السؤال الذي طُرح عليها. كان التلاميذ متنبهين، يجلسون منتصبين بأعينٍ مشرقة.

قالت، وهي تبلّل ريقها، كي تكسب بعض الوقت: «پاردون؟».

- يجب علينا أن نتعلّم الألمانيّة، لا الفرنسيّة.

كان ذلك جِيل فورنييه، ابن الجزّار. ذهب أبوه وإخوته الثلاثة إلى الجبهة، فلم يبقَ غيره هو ووالدته في محلّ الجزارة.

وأيّدَهُ فرانسوا قائلاً: «وإطلاق النار أيضاً. تقول مامُن: ينبغي لنا أن نعرف كيف نطلق النار على الألمان أيضاً».

فقالت كلير: «تقول جدّتي: ينبغي لنا أن نرحل جميعاً. فهي تتذكّر الحرب الأخيرة وتقول: إنّ من الحماقة أن نبقى».

- الألمان لن يعبروا نهر لوار، أليس كذلك مدام موررياك؟

في منتصف الصفّ الأول كانت صوفي تجلس في مقعدها، تشبك يدَيها فوق الطاولة، تنظر إلى اللا شيء بعينَين واسعتَين. كانت مستاءةً من الشائعات، مثل والدتها. ظلّتْ ليلتَين تبكي إلى أن تنام، لفرطِ قلقها على

والدها. والآن جاء بيبي معها إلى المدرسة. إلى جانبها جلستْ صديقتها المقرّبة سارة، لا تقلّ عنها خوفاً.

قالت ڤيان، وهي تقترب منهما: «لا بأس في أن نخاف». هذا ما قالتْه في الليلة الماضية لصوفي، ولنفسها أيضاً، غير أنّ الكلمات بدت فارغة.

فقال جِيل: «أنا لستُ خائفاً. لديّ سكّين. وسأقتل أيّ بوش قذر يأتي إلى كاريڤو».

اتّسعت عينا سارة: «وهُم قادمون إلى هنا؟».

فقالت ڤيان: «لا». غير أنّ هذا الإنكار لم يكن سهلاً؛ إذْ تعلّق خوفُها في الكلمة ومدِّها: «الجنود الفرنسيّون (آباؤكم، وأعمامكم، وإخوانكم) أشجع الرجال في العالم. وأنا واثقةٌ من أنّهم يقاتلون من أجل باريس، وتور، وأورليان في هذه اللحظة التي نتحدّث فيها».

فقال جِيل: «لكنّهم استولوا على باريس. ماذا حدث للجنود الفرنسيّين في الجبهة؟».

- «الحروب عبارة عن معارك، ومناوشات، وخسائر مستمرّة. لكنّ رجالنا لن يدعوا الألمان ينتصرون أبداً. لن نستسلم أبداً». ثمّ اقتربتْ من التلاميذ وتابعت: «ولكنْ نحن أيضاً لنا دور نؤدّيه. نحن الذين بقينا هنا. ينبغي أن نتحلّى بالشجاعة والقوّة، وألّا نصدّق أسوأ ما يُقال. علينا أن نمضي في حياتنا، لأنّ آباءنا، وإخوتنا، و...أزواجنا لديهم حياة يعودون إليها، أليس كذلك؟».

سألتْها صوفي: «ولكنْ ماذا عن طنط إيزابيل؟ قال جدّي: لا بدّ من أن تكون قد وصلت إلى هنا».

فقال فرانسوا: «ابن عمّي هرب من باريس أيضاً. ولم يصل بعد».

يقول عمّي: «إنّ الوضع سيّئ في الطرق».

رنّ الجرسُ، فانبجس التلاميذ من مقاعدهم كالينابيع. هكذا في لحظةٍ واحدةٍ نُسيت الحرب، والطائرات، والخوف. كان هؤلاء أطفالاً في الثامنة والتاسعة، وقد انتهى يومهم الدراسيّ في هذا الصيف، فتصرّفوا على سجيّتهم. يصرخون ويضحكون، ويتحدّثون كلّهم دفعةً واحدةً، ويدفع بعضهم بعضاً، راكضين نحو الباب.

شعرتْ ڤيان بامتنانٍ للجرس؛ فهي ليست سوى معلّمة. ما الذي كانت تستطيع قوله عن مخاطر مثل هذه؟ كيف لها أن تخفّف من خوف طفلٍ، في الوقت الذي كان خوفها يتحرّق للظهور؟ راحت تشغل نفسها بالمهامّ المعتادة. تجمع ما خلّفه ستّة عشر طفلاً وراءهم، وتنفض مسّاحات السبّورة، وتعيد الكتب إلى أماكنها. ولمّا عاد كلّ شيء إلى مكانه، وضعتْ أوراقها وأقلامها في حقيبتها الجلديّة، ثمّ التقطتْ حقيبة يدها من درج الطاولة، وارتدتْ قبّعتها، ثمّ غادرت الصفّ.

سارت في الممرّات الهادئة، وهي تلوّح لزميلاتها اللائي ما يزلن في صفوفهنّ. ثمّة صفوف كثيرة أُغلقت، بعد أن استُدعي المعلّمون الذكور للخدمة العسكريّة.

توقّفتْ عند صفّ راشيل، وأخذت تراقبها، وهي تضع طفلها في عربته وتدفعها نحو الباب. كانت راشيل تنوي أخذ إجازةٍ في هذا الفصل كي تبقى في البيت ترعى آري، لكنّ الحرب غيّرت كلّ شيء. والآن لم يكن لديها خيار سوى أن تحضر طفلها معها للعمل.

قالت ڤيان حين اقتربتْ صديقتُها: «منظرك يبدو مثل حالتي النفسيّة».
كان شعر راشيل قد تضاعف حجمه بسبب الرطوبة.

- لا يمكن أن يكون هذا إطراءً، لكنّني لشدّة يأسي سأعدّه كذلك. بالمناسبة، هناك علامة طباشير على خدّك.

مسحتْ ڤيان خدّها بذهنٍ شارد، وانحنت تنظر إلى الطفل في العربة. كان نائماً. «كيف حاله؟».

- «بخير، بالنسبة إلى رضيعٍ عمره عشرة أشهر يُفترض أن يكون في البيت مع أمّه، لكنّه يتسكّع في كلّ مكانٍ في البلدة تحت طائرات العدوّ، ويستمع إلى صراخ تلاميذ في العاشرة من العمر طوال اليوم». ابتسمتْ، ثمّ رفعتْ خصلةً رطبةً عن وجهها، وهي تمشي في الممر: «هل يبدو كلامي لاذعاً؟».

- ليس أكثر من البقيّة.

- ها! هذه السخرية اللاذعة هي التي تنفع؛ أمّا تبسّمك وكلّ هذا التظاهر، فإنّه يصيبني بالشرى.

دفعتْ راشيل العربةَ فوق الدرجات الحجريّة الثلاث نحو الممرّ الذي يفضي إلى منطقة اللعب العشبيّة، تلك التي كانت ذات يومٍ ساحة تمرينٍ للخيول، ومحطّة توصيلٍ للتجّار. وسط الفناء نافورة حجريّة عمرها أربعمئة سنة، كانت تغرغر وتقطر المياه هناك.

كانت صوفي وسارة جالستَين على أحد المقاعد، فنادتهما ڤيان: «هيّا يا بنات». استجابت الصبيّتان على الفور، ومضتا تتقدّمان المرأتين في دردشةٍ مستمرّةٍ، ورأسَين متلاصقَين، ويدَين متشابكتَين. إنّه الجيلُ الثاني من الصديقتَين المقرّبتَين.

انعطفوا إلى زقاقٍ، ثمّ إلى شارع «فكتور هوغو» أمام حانةٍ صغيرةٍ كان يجلس فيها كبار السنّ على كراسٍ من حديدٍ يشربون القهوة، ويدخّنون

السجائر، ويتحدّثون في السياسة. رأتْ ڤيان أمامهم ثلاث نساء مهزولات يعرجنَ بملابس ممزّقة وأوجه اصفرّت من التراب.

قالت راشيل بحسرة: «يا للمسكينات! أخبرتني هيلين رويل صباح اليوم أنّ ما لا يقلّ عن اثنتي عشرة لاجئة جئن البارحة إلى البلدة في وقتٍ متأخّر. القصص التي يحكينها غير سارّة. ولكن لا يوجد أحدٌ يضيف البهارات إلى القصص مثل هيلين».

في الوضع العاديّ كانت ڤيان ستعلّق على هيلين ونميمتها، لكنّها ليست ساذجة. فوفقاً لما قاله پاپا، كانت إيزابيل قد غادرت باريس منذ أيّام، لكنّها لم تصل بعد إلى لو جاردان. قالت: «أنا قلقةٌ على إيزابيل».

عقَدتْ راشيل ذراعها في ذراع صديقتها. «هل تذكرين أوّل مرةٍ هربتْ فيها أختُك من تلك المدرسة الداخليّة في ليون؟».

– كانت في السابعة من عمرها.

– واستطاعت أن تصل إلى أمبواز، وحدها. بدون مال. قضت ليلتَين في الغابة، وتصرفّت بطريقتها إلى أن ركبت القطار.

لم تكن ڤيان تتذكّر شيئاً من تلك المرّة تقريباً، إلّا حزنها. فحين فقدتْ طفلها الأول استسلمتْ لليأس. كانت تلك هي السنة الضائعة كما يسمّيها أنطوان. وهكذا بدأتْ تراها هي أيضاً. فلمّا قال لها أنطوان: إنّه سيأخذ إيزابيل إلى والدها في باريس، شعرتْ ڤيان المسكينة بارتياحٍ كبير.

فهل كان هروبُ إيزابيل من المدرسة الداخليّة مفاجئاً؟ ما تزال ڤيان تشعر بالخزي الدائم من الطريقة التي عاملتْ بها أختها الصغيرة.

قالت ڤيان، وهي تحاول أن تجد عزاءً لها في تلك القصّة المعروفة:

«كانت في التاسعة من عمرها حين وصلتْ إلى باريس أوّل مرة». كانت إيزابيل قويّةً، وحازمةً، وذات عزم. لطالما كانت كذلك.

فتبسّمت راشيل وقالت: «إن لم تخنّي الذاكرة، فقد طُردت بعد عامَين بسبب هروبها من المدرسة لحضور سيرك متنقّل. أم كان ذلك حين قفزتْ من نافذة السكن في الطابق الثاني باستخدام شرشف السرير؟ المهمّ أنّ إيزابيل سوف تصل إلى هنا إن كان هذا ما تريده».

– كان الله في عون من يحاول أن يمنعها.

– اطمئنّي، ستصل قريباً. إلّا إذا التقت أميراً منفيّاً ووقعت في غرامه.

– هذه هي الأشياء التي قد تحدث لإيزابيل فعلاً.

فداعبتْها راشيل: «أرأيتِ؟ ها أنتِ تشعرين بتحسّن. هيّا تعالي معي إلى البيت نشرب عصير ليمون. هذا أحلى ما يمكن تناوله في يومٍ حارّ كهذا».

*

بعد العشاء، جهزّت ڤيان ابنتها للنوم، ثمّ نزلت إلى الطابق الأرضي. كان قلقُها يحرمها من الراحة. ذلك الصمتُ في بيتها كان يذكّرها بأنّه لا أحد وصل. لم يكن بمقدورها أن تهدأ. وعلى الرغم من حوارها مع راشيل إلّا أنّها لم تستطع أن تتخلّص من قلقها (ووسواسٍ رهيب) على إيزابيل.

وقفتْ، وجلستْ، ثمّ وقفتْ مرّةً أُخرى ومشت إلى باب البيت تفتحه.

هناك في الخارج كانت الحقول قابعةً تحت السمء الأرجوانيّة والورديّة. فناؤها عبارة عن سلسلةٍ من الأشكال المألوفة؛ فهناك أشجار التفّاح الحارسة بين الباب والجدار الحجريّ المغطّى بالورد والكروم، ثمّ الطريق الذي يفضي إلى البلدة والفدادين الكثيرة التي تتزيّن هنا وهناك

بأحراشٍ من الأشجار ذات الجذوع الرفيعة، وإلى اليمين من ذلك تقع الغابةُ الكثيفة التي كانت تتسلّل إليها في شبابها مع أنطوان.

أنطوان.

إيزابيل.

أين هما؟ هل كان في الجبهة؟ هل كانت تمشي من باريس؟

لا تفكّري في الأمر.

كانت في حاجةٍ إلى شغل نفسها بشيء. الاعتناء بالحديقة. لا بدّ من أن تركّز تفكيرها في شيءٍ آخر.

ارتدت قفّازَيها الباليَين وحذاءها الطويل الذي كان قرب الباب، ثمّ شقّت طريقها إلى الحديقة القائمة فوق قطعة أرضٍ مستوية بين السقيفة والحظيرة. هناك ينمو البطاطس، والبصل، والجزر، والبروكلي، والبازلاء، والفاصولياء، والخيار، والطماطم، والفجل في أحواضها المرتّبة. وعلى سفح التلّة بين الحديقة والحظيرة ينمو توت العلّيق والتوت الأسود في صفوفٍ منظّمة. جثتْ فوق التراب الأسْود الخصب، وبدأت تقلع الحشائش الضارّة.

كانت بداية الصيف في العادة موسماً واعداً. صحيحٌ أنّ الأمور قد تسوء في هذا الفصل الحارّ، إلّا أنّ الالتزام بإزالة الحشائش وترقيق المزروعات بدون تكاسلٍ كفيلٌ بالسيطرة على نموّها. كانت ڤيان تحرص دائماً على تنظيم الأحواض والاعتناء بها بيدٍ حازمةٍ ولطيفةٍ في الوقت نفسه. في الحقيقة، كان ما تعطيها إيّاه الحديقة أهمّ بكثيرٍ ممّا تعطيه هي للحديقة؛ فقد كانت تجد فيها حسّ السكينة.

بدأتْ تدركُ شيئاً فشيئاً أنّ ثمّة خطباً ما. في البدء كان هناك صوت

غريب، صوت اهتزاز، وقَرْع، ثمّ همهمة، وبعد ذلك جاءت الرائحة، رائحةٌ مختلفةٌ تماماً عن رائحة حديقتها الحُلوة. كانت رائحةً لاذعةً، حادّةً، توحي بالتعفّن.

مسحتْ ڤيان جبينها، وهي تدرك أنّها بذلك تلطّخ نفسها بالتراب الأسود، ثمّ وقفتْ. دسّتْ قفّازَيها المتّسخَين في جيبَي بنطالها، ثمّ مشتْ إلى البوّابة، وقبل أن تصل إليها ظهرتْ ثلاث نساء كما لو أنهنّ منحوتات من الظلّ. كنّ واقفاتٍ معاً على الطريق خلف بوّابتها. امرأةٌ عجوز ترتدي خِرَقاً، وتضمّ المرأتَين إليها. إحداهما امرأةٌ شابّةٌ تحمل طفلاً على ذراعها، مع فتاةٍ مراهقةٍ تحمل قفص طيورٍ فارغاً بيد، ومجرفةً في اليد الأُخرى. كانت كلّ واحدةٍ منهنّ تبدو جامدة النظرة، محمومة. ومن الواضح أنّ الأمّ الشابّة كانت ترتعش. وجوههنّ تتصبّبُ عرقاً، وأعينهنّ تنضح بالهزيمة. مدّت العجوزُ يديها الفارغتَين المتّسختَين. «هلّا أعطيتِنا قليلاً من الماء؟». كانت تبدو وهي تسأل السؤال غيرَ مقتنعة. مسحوقة.

فتحت ڤيان البوّابة. «بالطبع. هل تردن الدخول؟ تجلسنَ في الداخل؟».

هزّت العجوز رأسها. «نحن سبقناهم. لا يوجد شيءٌ لأولئك الذين في الخلف».

لم تفهم ڤيان ما تقصده العجوز، لكنّ هذا لا يهمّ. من الواضح أنّ الإرهاق والجوع قد هدّهنّ. «لحظة». دخلتْ بيتَها وأعدّت لهنّ بعض الخبز، والجزر، وقطعة جبن. كلّ ما كانت تستطيع الاستغناء عنه، ثمّ صبّت ماءً في زجاجة نبيذ وعادت إليهنّ. «شيءٌ بسيط».

قالت الشابّة بصوتٍ لا نبرة فيه: «هذا أكثر ممّا تناولناه منذ أن كنّا في تور».

- كنتنّ في نُور؟

قالت العجوز، وهي تمسك الزجاجة عند فم الفتاة: «اشربي يا سابين».

همّت ڤيان بالسؤال عن إيزابيل، لكنّ العجوز قالت بحدّة: «إنّهم هنا».

أصدرتْ الأم صوتَ أنينٍ، وهي تشدّ قبضتها على الطفل الذي كان ساكناً للغاية (وقبضته الصغيرة زرقاء جدّاً)، فشهقتْ ڤيان.

كان الطفل ميّتاً.

كانت ڤيان تعرف ذلك الحزن الذي ينشب أظفاره فلا يتركك. كانت قد سقطتْ في لجّةٍ رماديّةٍ لا قعر لها، تُزيغ العقل وتدفع الأمّ إلى التمسّك بالأمل طويلاً بعد أن يزول.

فقالت العجوز لڤيان: «ادخلي، وغلّقي الأبواب».

- ولكن...

تراجعت النساء الثلاث (وهنّ يترنّحن حقّاً) كما لو أنّ أنفاس ڤيان أصبحت خبيثة.

ثمّ رأتْ جمعاً من الأشكال السُود تتحرّك في الحقل وتصعد الطريق.

سبقتْهم الرائحة، رائحةُ الجسم، والأوساخ، والعرق، فلمّا اقتربوا تفرّقت تلك السحابة السوداء، وانتشرت في أشكال مختلفة. رأتْ ڤيان أشخاصاً على الطريق وفي الحقول، يمشون، يعرجون، ويقتربون منها. كان بعضهم يدفع درّاجاتٍ هوائيّة، أو عربات أطفالٍ، أو يجرّون عربات. كان هناك كلابٌ تنبح، وأطفال يبكون. سُعالٌ، ونحنحةٌ، وأنين. كانوا يتقدّمون عبر الحقل، ويصعدون، يقتربون بلا هوادة، بعضهم يدفع بعضاً، وأصواتهم تعلو.

لم يكن بمقدور ڤيان أن تساعد عدداً كبيراً منهم، فهرعتْ إلى منزلها وأغلقتْ الباب. فلمّا دخلتْ صارت تنتقل من غرفةٍ إلى أُخرى، تغلق الأبواب والستائر، وحين انتهت، وقفتْ في الصالة حائرةً، وقلبُها يخفق بقوّة.

بدأ المنزل يهتزّ، شيئاً قليلاً. كانت النوافذ ترتجّ، والستائر ترتطم بالجدار الحجريّ، ثمّ بدأ الغبارُ يهطلُ من أخشاب السقف المكشوفة.

كان أحدهم يقرعُ باب المنزل. واستمرّ القرعُ بلا هوادة، تنزلُ القَبَضاتُ على الباب كالمطرقة، فجَفَلت ڤيان.

ثمّ نزلتْ صوفي تجري على الدَرَج، وهي تضمّ بيبي إلى صدرها. «مامُن!».

فتحتْ ڤيان ذراعَيها، فأسرعتْ صوفي إلى حضنها. أبقتْ ڤيان ابنتها قربها بينما كان الهجومُ يشتدّ. قرعَ أحدهم الباب الجانبيّ، فقرقعتْ القدورُ والمقالي النحاسيّة المعلّقة في المطبخ حتى أصدرت صوتاً كأجراس الكنائس، ثمّ سمعتْ صوتَ صرير المضخّة الخارجيّة؛ كانوا يستخرجون الماء.

قالت ڤيان لصوفي: «انتظري هنا لحظة. اجلسي فوق الأريكة».

- لا تتركيني!

أبعدتْ ڤيان ابنتَها عنها، وأجبرتْها على الجلوس، ثمّ أخذتْ مِحراك الفحم الحديديّ من جانب المدفأة، وصعدتْ الدرَج بحذرٍ شديد. دخلتْ غرفةَ نومها، وأخذتْ تنظر من النافذة بحرصٍ كي لا يراها أحد.

كان هناك عشرات الناس في فنائها، أغلبهم نساء وأطفال، يتحرّكون

كزمرةٍ من الذئاب الجائعة؛ أمّا أصواتهم، فقد توحّدت في صوت دمدمةٍ مستميتة.

تراجعت ڤيان. ماذا لو لم تحتمل الأبواب؟ يمكن لهذا العدد من الناس أن يحطّموا الأبواب والنوافذ، بل حتّى الجدران.

شعرتْ بالفزع، فعادتْ إلى الطابق السفليّ وقد انقطعت أنفاسُها إلى أن رأتْ صوفي أمامها في أمانٍ فوق الأريكة. جلستْ ڤيان إلى جانب ابنتها وأخذتْها بين ذراعَيها، حتّى تكوّرت في حضنها كما لو أنّها طفلة صغيرة. أخذتْ تمسّد شعر ابنتها المموّج. لو كانت ڤيان أمّاً أفضل، أمّاً أقوى، لقصّتْ لابنتها حكايةً في هذه اللّحظة، غير أنّ صوتها قد اختفى تماماً من فرط خوفها. لم يطرأ في بالها شيءٌ في ذلك الوقت إلّا دعاءٌ لا بدايةَ له ولا نهاية. يا ربّ!

قرّبتْ ابنتها منها وقالت: «نامي يا صوفي. أنا هنا معك».

فقالت صوفي، وكاد صوتها يضيع وسط قرع الباب: «مامْن، ماذا لو كانت طنط إيزابيل في الخارج؟».

حدّقتْ ڤيان في وجه صوفي الصغير بملامحه الجادّة، وهو مغطّى الآن بمسحةٍ من غبار وعرق، فلم تستطع أن تقول شيئاً سوى: «كان الله في عونها».

*

حين لمحتْ إيزابيل البيت الحجريّ الرماديّ، هدّها التعبُ. تراخى كتفاها، ولم تعد تحتمل البثور في قدمَيها. فتحَ غيتون البوّابة أمامها، فسمعتْها تهتزّ وتميل إلى الجانبَين.

كانت تستند إليه، فخطتْ نحو الباب. طرقتْ الباب مرّتَين، وكانت تجفلُ كلّما ارتطمت مفاصلها المدماة بالخشب.

لم يجبها أحد.

أخذتْ تدقّ بقبضتَيها، تحاول أن تنادي باسم اختها، لكنّ صوتها المبحوح لم تعد فيه قوّة.

ثمّ تراجعتْ، وكادتْ أن تسقط على ركبتَيها مهزومة.

قال غيتون، وهو يمسك بها من خصرها كي لا تقع: «هل من مكانٍ تنامين فيه؟».

- في الخلف. السقيفة.

قادها إلى الفناء الخلفي. وهناك في ظلال السقيفة المضمّخة بعطر الياسمين انهارتْ على ركبتَيها. لم تنتبه لاختفاء غيتون الذي عاد ومعه شيءٌ من الماء الفاتر الذي أخذتْ تعبُّ منه من يدَيه. لم يكفها الماء. كانت تتضوّر جوعاً نخر في معدتها ألماً عميقاً. لكنّه حين همّ بالذهاب مرّةً أُخرى، مدّت يدها إليه، وتمتمتْ بشيء، تناشده ألّا يتركها وحْدها، فجلس إلى جوارها باسطاً ذراعه كي تتوسّدها. استلقيا هناك فوق التراب الدافئ، يحدّقان في الكروم السُود التي تلتفّ حول الأخشاب، ثمّ تهبط إلى الأرض. كان عطر الياسمين، والورود المتفتّحة، والتربة الخصبة، مزيجاً يجعل من تلك السقيفة مكاناً رائعاً. مع ذلك، وعلى الرغم من كونهما هنا في تلك السكينة، إلّا أنّه من المستحيل أن ينسيا ما حدث لهما... والتغيّرات التي تعاقبتْ عليهما.

لقد لحظتْ تغيّراً في غيتون، رأت بنفسها الغيظ والغضب المكتوم يمسح الرحمةَ من عينَيه، والابتسامة من شفتَيه. لم يكد ينطق بكلمةٍ منذ

وقوع الانفجار، وحين تكلّم كان كلامه موجزاً، مقطّعاً. لقد عرف كلّ منهما الآن شيئاً أكثر عن الحرب، وعمّا سوف يأتي.

قال: «قد تكونين في أمانٍ هنا مع أختك».

- لا أريد أن أكون في أمان. وأختي لا تريدني.

التفتتْ كي تنظر إليه. كان نور القمر يأتي مخرَّماً، ينيرُ عينَيه وفمه، ويتركُ أنفه وذقنه في الظلام. بدا مختلفاً مرّةً أخرى، بل كبُر في هذه الأيّام القليلة. كان مرهقاً، غاضباً، تنبعثُ منه رائحة العرق، والدم، والوحل، والموت؛ أمّا هي، فكانت تعرف أنّ رائحتها لم تتغيّر.

- هل سمعتَ عن إدث كافِل؟

- وهل أبدو لكِ رجُلاً مثقّفاً؟

فكّرتْ في ذلك لحظةً، ثمّ قالتْ: «نعم».

أدركتْ من طول صمتِه أنّها فاجأته. «أعرفُ من تكون. أنقذتْ مئات الطيّارين من قوّات الحلفاء في الحرب الكبرى. وقد عُرفت بقولها: إنّ «الوطنيّة لا تكفي». وهذه قُدوتك. امرأةٌ يعدمُها العدوّ».

فقالت إيزابيل، وهي تتفرّس فيه: «امرأةٌ صنعت فارقاً. إنّني أعتمدُ عليك، أنت المجرم والشيوعيّ، لتساعدني كي أصنع فارقاً. قد أكون طائشةً ومجنونةً كما يقولون».

- من يقول ذلك؟

- «الجميع». توقفتْ برهةً، وشعرتْ أنّ آمالها تقترب. كانت قد عزمتْ على ألّا تثق بأحدٍ على الإطلاق، لكنّها كانت تصدّق غيتون. كان ينظر إليها على أنّ لها قيمة: «ستأخذني. كما وعدتني».

- هل تعرفين كيف تُختَم هذه الاتّفاقات؟

- كيف؟

- بقُبلة.

- كفّ عن المزاح. الأمر جِدّي.

- «وهل هناك شيء أكثر جدّيةً من قُبلةٍ على شفا الحرب؟». قالها، وهو يبتسم، إلى حدٍّ ما. فقد عاد الغضب الكامن إلى عينَيه مرّةً أُخرى، وأخافَها؛ إذْ ذكّرها بأنّها لم تكن تعرفه حقّ المعرفة.

- أقبّل رجُلاً إذا تحلّى بالشجاعة الكافية كي يأخذني معه إلى المعركة.

فقال بتنهيدة: «يبدو أنّكِ لا تعرفين شيئاً عن التقبيل».

- «أنت لا تعرفني». ابتعدتْ عنه، وشعرتْ على الفور بالشوق إلى لمسته. حاولتْ أن تتظاهر بالبرود، فعادتْ إلى مواجهته وأحسّت بأنفسه على أجفانها: «يمكنك أن تقبّلني إذنْ، لكي نختم اتّفاقنا».

اقترب منها ببطء، ووضع يده حول رقبتها، ثمّ قرّبها منه.

سألها، وقد كادت شفتاه تلمس شفتَيها: «متأكّدة؟». لم تكن تعرف ما إذا كان يسألها عن الذهاب إلى الحرب أم يطلب الإذن لكي يقبّلها، لكنّ الأمر لا يهمّ في تلك اللّحظة. في السابق كانت قبلات إيزابيل مع الأولاد أشبه بالعملات المعدنيّة التي قد يتركها المرء على مقعد الحديقة، أو ينساها تحت وسادة الأريكة؛ قبلات لا معنى لها. ولم يسبق لها قطّ أن تحرّقتْ هكذا إلى قبلة.

همستْ له، وهي تميل نحوه: «وِي».

فلمّا جاءت القبلة، انفتح شيءٌ في دواخل قلبها الخالي وانبسط.

لأوّل مرّةٍ أصبح هناك معنى للروايات العاطفيّة التي تقرأها. هنا أدركتْ أنّ تضاريس روح المرأة يمكن أن تتغيّر بسرعةٍ، كما يتغيّر العالمُ في أثناء الحرب.

فهمستْ له: «أحبّك». لم تقل هذه الكلمة لأحدٍ منذ أن كانت في الرابعة من عمرها. قالتها آنذاك لوالدتها. فلمّا صرّحت بها تغيّرت تعابير غيتون وازدادت حدّة. فابتسامتُه كانت مزمومةً زائفة لم تفهم منها شيئاً. «ماذا حدث؟ هل أخطأت؟».

فقال: «لا. بالطبع لا».

- نحن محظوظان لأنّنا وجدنا بعضنا.

- «لسنا محظوظَين يا إيزابيل. صدّقيني». وحين قالها جذبها نحوه ليقبّلها مرّةً أُخرى.

أسلمتْ إيزابيل نفسها لإحساس القبلة، فتركتْها تصبح كلّ عالمها، وعرفتْ أخيراً شعورَ أن يكون المرءُ كلَّ ما يريدُه شخصٌ آخر.

*

حين استيقظتْ ڤيان، كان أوّل ما لحظتْه الهدوء. سمعتْ تغريد طائرٍ في مكانٍ ما. ظلّت في سريرها مستلقيةً تُنصت. وإلى جانبها كانت صوفي تشخر وتدمدم في نومها.

مشتْ ڤيان إلى النافذة، ورفعتْ ستارة التعتيم.

هناك في الفناء كانت أغصان التفاح معلّقةً في الأشجار كأذرعٍ مكسورةٍ، والبوّابة مفتوحةً من الجانبين، وقد اقتُلع اثنان من مفاصلها الثلاثة. على الجانب الآخر من الطريق كان حقل القشّ قد سُوّي بالأرض، وسُحقت أزهاره. كان اللاجئون الذين عبروا من الحقل قد تركوا مخلّفاتهم

وأغراضهم هناك. حقائب، وعربات أطفال، ومعاطف ثقيلة لا يقوون على حملها، أو ارتدائها، وأغطية وسائد، وعربات.

نزلتْ ڤيان إلى الطابق السفلي، ووقفت عند باب المنزل بحذر. أصاختْ سمعها لأيّ ضجيجٍ في الخارج، فلم تسمع شيئاً، فرفعتْ القفل وأدارت مقبض الباب.

لقد دمّروا حديقتها، وقطعوا كلّ شيء بدا قابلاً للأكل، مخلّفين وراءهم سيقان نبات مكسورةً، وأكوام تراب.

أفسدوا كلَّ شيء. سارت، وهي تشعر بالقهر، إلى الفناء الخلفيّ، فوجدتْه قد دُمّر أيضاً.

كانت على وشك العودة إلى الداخل، فسمعتْ صوتاً. نحيباً. لعلّه طفل يبكي.

وعاد الصوتُ مرّةً أُخرى. هل ترك أحدهم رضيعاً هناك؟

عبرتْ الفناء بحذرٍ إلى السقيفة الخشبيّة التي تغطّيها الورود والياسمين.

كانت إيزابيل ملتفّةً على نفسها، بفستانٍ ممزّقٍ، ووجهٍ مجروحٍ ومرضوضٍ، وعينها اليسرى متورّمة لا تكاد تنفتح، وثمة ورقة صغيرة مثبّتة على صدرها.

- إيزابيل!

رفعتْ شقيقتُها ذقنها قليلاً، وفتحت عيناً دامية.

قالت بصوتٍ مبحوحٍ أجشّ: «ڤي. شكراً على سدّ الباب عنّي».

ذهبتْ ڤيان إلى أختها وجثتْ إلى جانبها. «إيزابيل، كلّ ما فيكِ مغطّى بالدم والكدمات. هل...».

مرّت لحظةٌ بدون أن تفهم إيزابيل، ثمّ قالت: «آه، هذا ليس دمي. أغلبه على أيّ حال». ثمّ نظرتْ حولها: «أين غيت؟».

- نعم؟

وقفتْ إيزابيل، وهي تترنّح، حتّى كادت تسقط. «هل تركني؟». وبدأت تبكي: «لقد تركني».

فقالت لها ڤيان بلطف: «تعالَي». وقادت أختها إلى داخل المنزل بعيداً عن حرارة الشمس، وألقتْ إيزابيل بحذائها المبقّع بالدماء، فارتطم بالجدار وعاد إلى الأرض. كانت الأختان تمشيان إلى الحمّام تحت الدرَج، تتبعهما آثار أقدام دامية.

وفيما كانت ڤيان تسخّن الماء وتملأ الحوض، جلستْ إيزابيل على الأرض باسطةً ساقَيها، وقد تلوّنت قدماها بالدم، تتمتم لنفسها وتمسح دموعها التي تحوّلتْ إلى طينٍ فوق وجنتَيها.

حين امتلأ الحوض عادت ڤيان إلى أختها تخلع عنها ملابسها برفق. كانت إيزابيل كالطفلة، طيّعةً، تئنّ من الألم.

فكّت ڤيان أزرار ثوبها الذي كان في يومٍ من الأيام أحمر اللّون، وأزالتْه بلطفٍ شديد، خشية أن تسقط أختها من أقلّ حركة. ملابسها الداخليّة المخرّمة كانت ملطّخةً في بعض الأماكن بالدماء. فكّت ڤيان الجزء الأوسط من المشدّ وأرخته.

كزّت إيزابيل على أسنانها، ودخلت الحوض.

- استلقي.

فعلتْ إيزابيل ما طُلب منها، فصبّت ڤيان ماء ساخناً على رأس أختها، بدون أن تقرّب الماء من عينيها. في الوقت نفسه، وبينما كانت تغسل شعر

إيزابيل المتّسخ وكدماتها، ظلّت تردّد ترنيمةً من كلماتٍ لا معنى لها، يُقصد بها الطمأنة.

ساعدتْ إيزابيل على الخروج من الحوض، وأخذتْ تجفّف جسمها بمنشفةٍ بيضاء ناعمة. حدّقتْ إيزابيل فيها بعينَين ذاهلتَين فارغتَين.

قالت لها ڤيان: «ما رأيكِ أن تنامي قليلاً؟».

تمتمتْ إيزابيل، ورأسها يميل قليلاً: «سأنام».

أحضرتْ ڤيان لأختها لباس نومٍ يفوح برائحة الخزامى وماء الورد، ثمّ ساعدتها في ارتدائه.

لم تكن إيزابيل تستطيع أن تبقي عينيَها مفتوحتَين فيما كانت ڤيان تقودها إلى غرفة النوم في الطابق العلوي، وتغطّيها بلحافٍ خفيف. نامت إيزابيل قبل أن يلمس رأسُها الوسادة.

*

استيقظتْ إيزابيل في الظلام، فتذكّرتْ ضوء النهار.

أين كانت؟

اعتدلتْ في سريرها بسرعةٍ فأصابها دوار. أخذتْ عدّة أنفاسٍ سريعة، ثمّ نظرت حولها.

إنّها غرفة النوم العلويّة في لو جاردان. غرفتها القديمة. لم يمنحها ذلك شعوراً دافئاً. فكم من مرّةٍ حَبَسَتْها المدام دمار في غرفة النوم «لمصلحتها».

قالت بصوتٍ عالٍ: «لا تفكّري في ذلك».

تلتْ ذلك ذكرى أسوأ: غيتون. فقد تخلّى عنها في نهاية المطاف. غمرها ذلك بخيبةِ أملٍ عميقة كانت تعرفها جيّداً.

ألم تتعلّم شيئاً في هذه الحياة؟ من شِيم الناس أن يرحلوا. كانت تعرف ذلك. كانوا بالتحديد يرحلون عنها.

ارتدت ثوباً بيتيّاً أزرق اللّون لا ملامح له، كانت قد تركته ڤيان عند طرف السرير، ثمّ نزلتْ على الدرجات الضيّقة غير العميقة، وهي تُمسك بالدرابزين. كانت تشعر بكلِّ خطوةٍ مملوءةٍ بالألم على أنّها انتصار.

كان المنزل هادئاً في الطابق السفليّ، ما عدا صوت الطقطقة الخفيضة الآتية من المذياع. كانت متأكّدةً من أنّ موريس شوفالييه كان يغنّي أغنيةً عن الحب. رائع!

كانت ڤيان في المطبخ، بمريلةٍ مخطّطةٍ فوق رداءٍ بيتيٍّ أصفر باهت، ووشاحٍ زهريٍّ يغطّي شعرها، تقشّر البطاطس. وخلفها كان قدرٌ من الحديد المصبوب يصدر صوت بقبقةٍ خفيفة.

أسالتْ تلك الروائح لعاب إيزابيل.

وهرعتْ ڤيان لتسحب لها كرسيّاً عند الطاولة الصغيرة في زاوية المطبخ. «تعالَي. اجلسي».

خرّتْ إيزابيل فوق الكرسيّ، فأحضرتْ لها ڤيان طبقاً مجهّزاً من قبل: قطعة خبزٍ ما تزال دافئة، ومثلّث جبن، وقليلاً من معجون السفرجل، وبضع شرائح من اللّحم.

أخذتْ إيزابيل الخبز بين يديها الحمراوَين المقشّرتَين، فرفعتْه إلى وجهها، تستنشق رائحةَ الخميرة. كانت يداها ترتعشان، وهي تأخذ السكّين، وتملأ الخبز بالجبن والسفرجل. قرقعتْ السكّين حين وضعتْها على الطاولة، ثمّ أخذت الخبز وقضمته. كانت أفضل لقمةٍ تناولتْها في

حياتها، بقشرة الخبز المقرمشة، وباطنها الناعم، والجبن الزبديّ، والفاكهة. كلّ ذلك مجتمعاً كان يجعلها تنتشي من اللذّة. فأخذت تأكل ما تبقّى من الخبزة كالمجنونة، حتّى إنّها لم تلحظ كوب القهوة الذي وضعته ڤيان إلى جانبها.

قالت إيزابيل، ووجنتاها ممتلئتان بالطعام: «أين صوفي؟». كان يصعب عليها أن تتوقّف عن الأكل، ولو من باب التأدّب. مدّت يدها تأخذ خوخةً، فتحسّست ملمسها الناضج في يدها، ثمّ قضمتها. كانت عصارة الخوخة تقطُر على ذقنها.

- عند الجيران. تلعب مع سارة. هل تذكرين صديقتي راشيل؟

- نعم أذكرها.

صبّت ڤيان لنفسها فنجاناً صغيراً من الإسبرسّو، وأحضرته معها إلى الطاولة.

تجشّأت إيزابيل، فغطّت فمها. «پاردون».

فقالت ڤيان بابتسامة: «أعتقد أنّه يمكننا التغاضي عن هفوات آداب الطعام».

- «أنتِ لم تقابلي مدام دوفور. لو رأتني الآن لضربتني بطوبة». تنهّدت إيزابيل. كانت معدتُها تؤلمها الآن، فأحسّت بما يشبه الرغبة في التقيؤ. مسحت ذقنها بكمّها، ثمّ قالت: «هل من أخبار عن باريس؟».

- علم الصليب المعقوف يرفرفُ فوق برج إيفل.

- وپاپّا؟

- بخير، هكذا يقول.

قالت إيزابيل بمرارة: «لا بدّ من أنه قلقٌ عليّ. لم يكن يجدر به أن يطردني. ولكن هل يعرف غير ذلك؟».

مرّت نظرةٌ بينهما. كان الهَجرُ واحداً من الذكريات القليلة المشتركة بينهما، ولكنْ من الواضح أنّ ڤيان لم تكن تريد أن تتذكّره. «سمعنا أنّ أعدادكم كانت تزيد على عشرة ملايين في الشوارع».

- لم تكن تلك الحشود أسوأ ما في الأمر. كان أغلبنا نساءً وأطفالاً يا ڤي، مع شيوخٍ وأولاد صغار. لكنّهم مع ذلك...أبادونا.

- انتهى الأمر الآن، حمداً لله. من الأفضل أن نركّز على الجانب الجيّد. من هو غيتون؟ كنتِ تهذين باسمه.

قَشَرت إيزابيل واحداً من الجروح على ظاهر يدها، ثمّ أدركتْ بعد فوات الأوان أنّه ما كان يجدر بها العبث به، فقد انتُزعت قشرة الجرح، وتقاطر الدم منه.

فلمّا طال الصمتُ قالت ڤيان: «ربّما له علاقة بهذا». وأخرجتْ قصاصةً مكرمشةً من جيب مريلتها. كانت الورقة التي تُركت على صدر إيزابيل. على الورقة بصمات أصابع مدماة ومتّسخة، وعبارة: «لستِ جاهزة».

شعرتْ إيزابيل بالعالم ينهار من تحتها. كان ردّ فعلٍ سخيفاً، أنثوياً، مبالغاً فيه، وكانت تعلم ذلك، لكنّ الأمر آلمها وترك فيها جرحاً عميقاً. كان عازماً على أن يأخذها معه، إلى أن وقعتْ القُبلة. فقد ذاق منها طعم النقص، بطريقةٍ، أو بأُخرى. قالت إيزابيل، وهي تأخذ الورقة وتكرمشها: «لا أحد. مجرّد ولدٍ كذّاب بشعرٍ أسود وملامح حادّة. إنّه لا شيء». ثمّ نظرتْ إلى ڤيان: «سأذهب إلى الحرب. ولا يهمّني رأي أحد. سأقود سيّارة إسعاف، أو ألفّ الضمّادات. أيّ شيء».

- أوه! بحقّ الله يا إيزابيل. لقد اجتاحوا باريس. النازيّون يسيطرون على المدينة. فما الذي يمكن أن تفعله فتاة في الثامنة عشرة من عمرها؟

- «لن أختبئ في الريف بينما النازيّون يدمّرون فرنسا. وإن أردنا الصراحة، فأنتِ لم تشعري تجاهي بمشاعر الأخت لأختها قط». اشتدّت ملامح وجهها المتعبة: «سأرحل من هنا فور أن أستطيع المشي».

- ستكونين في أمانٍ هنا يا إيزابيل. وهذا هو المهمّ. عليكِ أن تبقي هنا.

فردّت إيزابيل بحدّة: «أمان؟ وهل تعتقدين يا ڤيان أنّ هذا هو المهمّ الآن؟ دعيني أخبركِ بما رأيتُه في الطريق: قوّات فرنسيّة تفرُّ من العدو، والنازيّون يذبحون الأبرياء. ربّما تستطيعين أنتِ أن تتجاهلي كلّ هذا؛ أمّا أنا فلا».

- ستبقين هنا وتكونين في أمان. ولن نناقش هذا الأمر.

فقالت إيزابيل، وهي ترى الألم يبزغ في عينَي أختها: «ومنذ متى كنتُ في أمانٍ معكِ يا ڤيان؟».

- كنتُ صغيرةً يا إيزابيل. حاولتُ أن أكون لكِ أمّاً.

- أرجوكِ! لا نريد أن نبدأ بالكذب.

- بعد أن فقدتُ طفلي—.

أدارت إيزابيل ظهرها لأختها، وأخذت تبتعد بعرجَتها قبل أن تقول شيئاً لا يُغتفر. شبكتْ يدَيها كي تخفّف ارتعاشهما. لهذا السبب تحديداً لم تكن تودّ العودة إلى هذا البيت ورؤية أختها، لهذا السبب ظلّت بعيدةً طوال تلك السنين. كان هناك قدرٌ كبيرٌ من الألم بينهما. رفعت صوت المذياع كي تغطّي على أفكارها.

خَشخَش صوتٌ من المذياع عبر الأثير: «...هنا المارشال بيتان يتحدّث إليكم...».

قطّبت إيزابيل جبينها. كان بيتان بطلاً في الحرب الكبرى، وقائداً فرنسيّاً محبوباً. فرفعت الصوت أكثر.

وجاءت ڤيان إلى جانبها.

«... لقد تسلّمتُ مهام إدارة الحكومة الفرنسيّة...».

ثمّ طغى تشويشٌ على صوته العميق.

فأخذتْ إيزابيل تهزّ المذياع بنفاد صبر.

«...جيشنا الرائع الذي يقاتل ببطولةٍ تليقُ بتقاليده العسكريّة الطويلة، ضدّ عدوٍ يفوقه عدداً وعدّة...».

تشويش. ضربتْ إيزابيل المذياع مرّةً أخرى، وهي تهمس: «زُوت!».

«...في هذه السّاعات الأليمة لا أملك إلّا أن أفكّر في اللاجئين المنكودين الذين يسدّون الطرق من شدّة بؤسهم. إنّني أعبّر لهم من هنا عن تعاطفي وجَزعي. وبقلبٍ مفطورٍ أقول لكم اليوم: إنّه بات من الضروريّ لنا أن نتوقّف عن القتال».

قالت ڤيان: «انتصرنا؟».

فقالت إيزابيل بحدّة: «اششش».

«...ولقد تحدّثتُ بنفسي ليلة أمس مع خصمنا لأسأله ما إذا كان مستعدّاً للحديث معي، جنديّاً لجنديّ، بعد أن ينتهي القتال الفعليّ، ونقرّر بشرفٍ آليّات إنهاء الأعمال العدائيّة».

كان الرجُلُ العجوز يطنطن، ويقول أشياء من قبيل: «أيّام المحنة»،

و«يسيطروا على آلامهم»، والأسوأ منها «مصير أرضنا وأرض آبائنا». ثمّ قال الكلمة التي لم تتوقّع إيزابيل أن تسمعها قطّ في فرنسا.

الاستسلام.

خرجتْ إيزابيل من الصّالة تعرج على قدمَيها الداميتَين، وذهبت إلى الفناء الخلفيّ، هكذا فجأةً كانت في حاجةٍ إلى الهواء؛ إذْ لم تعد تستطيع التقاط أنفاسها.

استسلام. فرنسا. لهتلر.

قالت لها أختها بهدوء: «لا بدّ من أنّه الخيار الأفضل».

متى جاءت ڤيان؟

مدّت يدها إليها وقالت: «لقد سمعتِ عن المارشال بيتان. إنّه بطل لا نظير له. وإنْ قال: إنّه ينبغي علينا التوقّف عن القتال، فلا بدّ من أن نتوقّف. أنا واثقةٌ من أنّه سيتفاهم مع هتلر».

جفلتْ إيزابيل مبتعدة. كانت تشعر بالقرف من فكرة أن تحاول ڤيان طمأنتها هكذا. استدارت بعرجتها كي تواجه أختها. «لا يوجد تفاهم مع أشخاصٍ مثل هتلر».

- أصبحتِ إذنْ تعرفين أكثر من أبطالنا الآن؟

- أعرف أنّه لا ينبغي لنا أن نستسلم.

طقّت ڤيان بلسانها في خيبة أمل. «إذا كان المارشال بيتان يرى أنّ الاستسلام أفضل خيارٍ لفرنسا، فهو محقّ. نقطة. على الأقلّ ستنتهي الحرب ويعود رجالنا إلى بيوتهم».

- أنتِ حمقاء.

فقالت ڤيان: «طيّب». وعادت إلى داخل المنزل.

وضعتْ إيزابيل يدها فوق عينَيها، وأخذتْ تنظر إلى السماء الساطعة الصافية. كم بقي من الوقت قبل أن تمتلئ هذه الزرقة بالطائرات الألمانيّة؟

لم تعرف كم لبثت في مكانها تفكّر في أسوأ ما سيحدث، وهي تستذكر كيف أطلق النازيّون النار على النساء والأطفال في تُور، فأبادتهم حتّى تلوّن العشب بلون دمائهم.

- طنط إيزابيل؟

سمعتْ إيزابيل ذلك الصوت الصغير المتردّد كما لو أنّه قادم من بعيد. فاستدارت ببطء.

كانت هناك صبيّة جميلة تقف عند باب لو جاردان الخلفي، بيضاء كالبورسلين، بعينَين معبّرتَين يبدو سوادُ الفحم فيهما حتّى من تلك المسافة البعيدة، كعينَي أبيها. لكأنّها خرجتْ من صفحات حكايةٍ خياليّة. بياضُ الثلج، أو الحسناء النائمة.

- لا يمكن أن تكوني صوفي! آخر مرّةٍ رأيتكِ فيها...كنتِ تمصّين إبهامك.

فقالت صوفي بابتسامةِ المتواطئ: «وما زلتُ أفعل ذلك أحياناً. لن تفشي سرّي؟».

- «أنا؟ أنا أفضل من يكتم الأسرار». مشتْ إيزابيل نحوها، وهي تقول في نفسها: ابنة أختي. عائلتي: «هل أخبرك سرّاً عنّي، حتى نصبح متعادلتَين؟».

فأومأتْ صوفي، وعيناها تتّسعان.

– أستطيع أن أختفي.

– لا، غير ممكن!

رأتْ إيزابيل ڤيان عند الباب الخلفيّ. «اسألي مامُن. لقد تسلّلتُ إلى قطارات، وتسلّقتُ نوافذ، وهربتُ من زنازين أديرة؛ لأنّني كنتُ أستطيع الاختفاء».

قالت ڤيان بصرامة: «إيزابيل!».

فحدّقتْ صوفي في إيزابيل مبتهجة. «حقاً؟».

رَمَقتْ إيزابيل ڤيان. «من السهل أن تختفي حين لا ينظر إليكِ أحد».

فقالت صوفي: «أنا أنظر إليكِ. فهل تختفين الآن؟».

ضحكتْ إيزابيل. «طبعاً لا. أفضلُ السحرِ حين لا يكون متوقّعاً، أليس كذلك؟ والآن ما رأيك أن نلعب الداما؟».

الفصل الثامن

كان الاستسلام في واقع الأمر دواءً مرّاً لا بدّ من اجتراعه، لكنّ المارشال بيتان كان رجُلاً عظيماً. كان بطلاً في الحرب الأخيرة مع ألمانيا. صحيحٌ أنّه كان هَرِماً، لكنّ ڤيان وغيرها كانوا يرون أنّ خبرة السنين منحتْه الحكمة لتقييم أوضاعهم. لقد توصّل إلى طريقةٍ لإعادة رجالهم سالمين، وهكذا لن يكون الأمر شبيهاً بالحرب الكبرى.

استوعبتْ ڤيان ما لم تستطع إيزابيل أن تفهمه؛ أنّ بيتان أعلن استسلام فرنسا لإنقاذ الأرواح والحفاظ على شعبه وأسلوب حياتهم. نعم، كانت شروط الاستسلام صعبة. فقد قُسِّمت فرنسا إلى منطقتَين: منطقةٍ محتلّة يحكمها النازيّون، وهي النصف الشماليّ من البلاد والأجزاء الساحليّة (بما فيها كاريڤو)، ومنطقةٍ حرّةٍ تديرها الحكومةُ الفرنسيّة الجديدة بقيادة المارشال بيتان بالاشتراك مع النازيّين، وتشمل الجزء الكبير الأوسط من البلاد، ما بين باريس والبحر.

أصبح الطعامُ شحيحاً بمجرّد استسلام فرنسا. صابون الغسيل لم يعد متوفّراً. لم يكن بالإمكان أن يُعوِّل المرء على بطاقات التموين، ولم تعد

خدمات الهاتف والبريد يُعتمد عليها. قطع النازيّون الاتصالات بين المدن والبلدات، والبريد الوحيد الذي كان مسموحاً به هو البطاقات البريديّة الألمانيّة الرسميّة. لكنّ هذه لم تكن أسوأ التغييرات بالنسبة إلى ڤيان.

أصبح من المستحيل العيشُ مع إيزابيل. فكم من مرّةٍ بعد الاستسلام كانت ڤيان تبذل جهدها في إعادة حديقتها إلى ما كانت عليه، وإصلاح ما أصاب الأشجار من تلف، فترى إيزابيل واقفةً عند البوّابة تحدّق في السماء كأنّ شيئاً مُريعاً كان يلوح في الأفق.

لم تكن إيزابيل تكفّ عن الحديث عن وحشيّة النازيّين وتصميمهم على قتل الفرنسيّين. بطبيعة الحال لم تكن لديها القدرة على إمساك لسانها، وبما أنّ ڤيان كانت ترفض الإصغاء إليها، فقد أصبحت صوفي مريدَتها وجمهورَها الذي يسمعها. وهكذا راحت تملأ رأس الطفلة المسكينة بصورٍ رهيبةٍ عمّا سيحدث، حتّى بدأتْ الكوابيسُ تنتابها. لم يكن بإمكان ڤيان أن تتركهما وحدهما، لذلك طلبتْ اليوم منهما (كما في الأيّام السابقة) أن تذهبا معها إلى البلدة لمعرفة ما قد يحصلن عليه من بطاقاتهنّ التموينيّة.

كانت قد مضت ساعتان، وهنّ واقفات في طابور الطعام عند محلّ الجزارة. ولم تكن إيزابيل تكفّ عن التذمّر طوال الوقت. لقد بدا أنّها لم تكن تستوعب اضطرارها إلى التسوّق من أجل الطعام.

قالت إيزابيل: « ڤيان، انظري».

واحدةٌ من ألاعيبها.

– ڤيان، انظري!

استدارتْ ڤيان، لا لشيءٍ إلّا لكي تُسكت أختَها، فرأتْهم.

الألمان.

غُلِّقت الأبواب والنوافذ في كلّ مكان في الشارع، واختفى الناس بسرعةٍ حتى وجدتْ ڤيان نفسها فجأةً تقف وحيدةً على الرصيف مع أختها وابنتها. فسحبتْ صوفي وأسندتها على باب الجزّار المغلق.

أمّا إيزابيل فخطتْ إلى داخل الشارع بتحدٍّ.

هَسهَست ڤيان لأختها: «إيزابيل!». لكنّ هذه لم تبرح مكانها، بعينَيها الخضراوَين اللتَين تشعّان كراهيةً، ووجهها الأبيض المرسوم الذي شوّهتْه الخدوش والكدمات.

توقّفت الشاحنةُ الخضراء التي كانت في المقدّمة أمام إيزابيل. في الخلف كان الجنود جالسين على المقاعد متقابلين، وكلّ واحد يضع بندقيّته فوق حِجره. كانوا يبدون شباباً صغاراً، حليقين متحمّسين يرتدون خوذات جديدة، ويتزيّنون بأوسمةٍ تلمع على ملابسهم الرماديّة–الخضراء. كانوا في نهاية المطاف صِغاراً. لم يكونوا وحوشاً. مجرّد أولاد، في الواقع. مدّوا أعناقهم كي يروا سبب توقّف الشاحنة. فلمّا رأوا إيزابيل واقفةً هناك، بدؤوا يبتسمون ويلوّحون.

أمسكتْ ڤيان بيد إيزابيل وأبعدتْها عن الطريق.

هَدَر الموكبُ العسكريّ من أمامهنّ، في سلسلةٍ من المركبات، والدرّاجات الناريّة، والشاحنات المغطّاة بشباكٍ مموّهة. بعدها جاءت الدبّابات المصفّحة، وهي تدكّ الشارع الحجريّ المرصوف، وبعد ذلك جاء الجنود.

صفّان طويلان يسيران نحو البلدة.

مشتْ إيزابيل بشجاعةٍ في موازاتهم إلى شارع فكتور هوغو. لوّح الألمان لها، كما لو أنّهم سيّاح لا غزاة.

قالت صوفي: «مامُن، لا يمكن أن تدعيها تمشي وحدها».

- «ميرد». قبضتْ ڤيان على يد ابنتها وركضتْ خلف إيزابيل، فلحقتْ بها في القطعة السكنيّة التالية.

خلتْ ساحة البلدة من الناس، وهي التي كانت في أغلب الأوقات مزدحمة. لم يجرؤ على البقاء هناك إلا بضعة أشخاص حين توقّف الألمان أمام مبنى البلديّة.

ثمّ ظهر ضابط، أو هكذا افترضتْ ڤيان من الطريقة التي كان يلقي بها الأوامر.

سار الجنودُ في مشيةٍ عسكريّةٍ حول الساحة الكبيرة، فاحتلّوها بحضورهم الطاغي. أنزلوا علم فرنسا ورفعوا مكانه العلم النازيّ: صليبٌ أسودُ كبيرٌ معقوفٌ على خلفيّةٍ باللّونَين: الأحمر والأسود. فلمّا ارتفع العلم فوق السارية توقّفت القوّات كلّها في مكانها، ومدّوا أذرعهم اليمنى وصاحوا: «هايل هتلر».

قالت إيزابيل: «لو كان لديّ مسدّس لأريتهم أنّنا لسنا جميعاً نريد الاستسلام».

فقالت ڤيان: «اشش. لسانك هذا سيؤدّي إلى قتلنا. هيّا بنا».

- لا. أريد أن—.

فقفزتْ ڤيان أمام أختها. «كفى. لا تجعليهم ينتبهون لنا. مفهوم؟».

ألقتْ إيزابيل على الجنود نظرةً أخيرةً مملوءةً بالكراهية، ثمّ انقادت لڤيان.

هكذا انسللنَ من الشارع الرئيس ودخلنَ في فجوةٍ مظلمةٍ بين الجدران

تفضي إلى زقاقٍ خلفيّ وراء محلّ القبّعات. تناهت إلى مسامعهنّ أصوات الجنود، وهُم ينشدون، ثمّ سمعنَ طلقة رصاص، فأُخرى. صوت صرخة.

توقّفتْ إيزابيل.

قالت ڤيان: «حذارِ! هيّا تحرّكي».

ظللنَ يمشين في الأزقّة المعتمة يحاذين الأبواب، حتّى سمعنَ أصواتاً تقترب. بدا الطريق للخروج من البلدة أطول من المعتاد، لكنهنّ وصلنَ في نهاية المطاف إلى الطريق الترابي. فمشينَ بهدوءٍ من أمام المقبرة حتى وصلنَ إلى البيت. وبمجرّد أن دخلنَ البيت أغلقتْ ڤيان الباب وراءها وأقفلته.

قالتْ إيزابيل على الفور: «أرأيتِ؟». من الواضح أنّها كانت تتحيّن الفرصةَ لقول ذلك.

فقالت ڤيان لصوفي: «اذهبي إلى غرفتك». لم تكن تريد لصوفي أن تسمع ما تريد إيزابيل قوله، أياً ما كان. خلعت ڤيان القبّعة، ووضعتْ سلّتها الفارغة. كانت يداها ترتعشان.

قالت إيزابيل: «لقد وصلوا إلى هنا بسبب المطار». وبدأت تذرع الغرفة: «لم أكن أتوقّع أن يحدث الأمر بهذه السرعة، حتّى مع الاستسلام. لم أكن أظنّ... كنتُ أعتقد أنّ جنودنا سوف يقاتلون على أيّ حال. كنتُ أعتقد...».

– كفّي عن قضم أظافركِ! ستَنزف.

كانت إيزابيل تبدو كالمجنونة، بشعرها الأشقر المنسدل إلى خصرها، ووجهها المكدوم الذي شوّهه الغضب. «النازيّون هنا يا ڤيان. في كاريڤو.

علمهم يرفرف في قصر بلديّة باريس كما يرفرف في قوس النصر وبرج إيفل. لم يلبثوا إلّا خمس دقائق في البلدة حتى أطلقوا الرصاص».

- لقد انتهتْ الحرب يا إيزابيل. هكذا قال المارشال بيتان.

- الحرب انتهت؟ الحرب انتهت؟ ألم تريهم هناك ببنادقهم، وأعلامهم، وغطرستهم؟ علينا الخروج من هنا يا ڤي. سنأخذ صوفي ونغادر كاريڤو.

- وإلى أين نذهب؟

- إلى أيّ مكان. ربّما ليون، أو بروفنس. ما اسم تلك البلدة في إقليم دوردوني التي وُلدت فيها مامُن؟ برانتوم. قد نجد صديقتها، تلك المرأة الباسكيّة. ما اسمها؟ قد تساعدنا.

- صدَّعتِني يا إيزابيل.

فقالت إيزابيل، وهي تذرع الغرفة مرّةً أُخرى: «الصداع أهون مصائبنا الآن».

اقتربت ڤيان منها: «حذارِ أن تُقدمي على أيّ حماقةٍ، أو جنون. مفهوم؟».

زمجرتْ إيزابيل محبطةً، وسارت إلى غرفتها في الأعلى، وصفقتْ الباب بقوّةٍ خلفها.

*

الاستسلام.

علقتْ تلك الكلمة في أفكار إيزابيل. في تلك الليلة، بينما كانت مستلقيةً في غرفة الضيوف في الأسفل تحدّق في السقف، شعرتْ بالإحباط يتغلغلُ في أعماقها لدرجةٍ تمنعها من التفكير السليم.

فهل يُفترض بها أن تقضي فترة الحرب في هذا المنزل كأيّ فتاةٍ عاجزة؛ تغسلُ، وتكنسُ، وتنتظر في طوابير الطعام؟ هل تقف مكتوفة اليدَين تتفرّج على العدوّ، وهو يسلب فرنسا كلَّ شيء؟

لطالما شعرتْ بالوحدة والإحباط، أو على الأقلّ لا تذكر وقتاً لم يتنبّها فيه هذا الشعور، لكنّها لم تشعر به بهذه الحدّة قطّ. كانت عالقةً في الريف بدون أصدقاء، وبدون شيء يمكنها القيام به.

لا.

لا بدّ من وجود شيءٍ يمكنها القيام به، حتّى وهي هنا، والآن.

خبّئي المقتنيات الثمينة.

هذا كلّ ما خطر في بالها. سوف يبدأ الألمان بنهب البيوت. لم يكن لديها أدنى شكّ في ذلك. وحين ينهبون البيوت لا يتركون شيئاً ذا قيمة. كان رجال الحكومة الجبناء يعرفون هذا؛ ولهذا السبب فرّغوا متحف اللوفر من كثيرٍ من مقتنياته، ووضعوا مكانها لوحاتٍ مزيّفة.

تمتمتْ تقول: «ليست خطةً عظيمة». لكنّها أفضل من لا شيء.

وهكذا شرعتْ في خطّتها في اليوم التالي، فور أن ذهبتْ ڤيان وصوفي إلى المدرسة. تجاهلتْ طلب ڤيان أن تذهب إلى البلدة لإحضار الطعام. لم تكن تحتمل رؤية النازيّين هناك، ولن يضيرهنّ لو مرّ يومٌ من دون لحم. أخذتْ تفتّش البيت، تفتح الخزائن، وتقلّب الأدراج، وتنظر تحت الأسرّة. أخرجتْ كلّ شيء ثمين ووضعتْه على الطاولة الخفيضة في غرفة الطعام. كانت هناك مقتنيات موروثة كثيرة: قماش دانتيلّا من صنع جدّتها الكبرى، ومرشّان فضّيان للملح والفلفل، وصحنٌ لاموجيٌّ مذهّب الأطراف ورِثنَه عن عمّتهن، ومجموعة لوحاتٍ صغيرةٍ من الفنّ الانطباعيّ، وشرشف

طاولةٍ مصنوعٌ من دانتيل ألوسون الرفيع، وعدّة ألبومات صور، وصورةٌ لڤيان، وأنطوان، وصوفي في إطارٍ فضّي، ولآلئ أمّها، وفستان زفاف ڤيان، وغير ذلك. حزَمَتْ إيزابيل كلّ شيء يمكن وضعه في حقيبةٍ جلديّةٍ جرّتْها فوق العشب، وهي تجفل في كلّ مرة تسحبها فوق حجرٍ، أو تخبط بها شيئاً. فلم تصل إلى الحظيرة إلّا وهي تلهث وتتصبّب عرقاً.

كانت الحظيرة أصغر حجماً ممّا هي في ذاكرتها. فلم يكن مخزن التّبن (الذي كان ذات يومٍ المكان الوحيد الذي تشعر فيه بالسعادة) إلّا صفّاً صغيراً في الطابق الثاني، مجرّد أرضيّة على سلّمٍ متهالكٍ أسفل السقف الذي يمكن من خلاله رؤية شقوق السماء. كمّ من ساعةٍ أمضتها وحْدها هنا مع كتبها المصوّرة تتظاهر بأنّ أحداً سوف يهتمّ ويأتي للبحث عنها؟ تنتظر أختها التي كانت دائماً في الخارج مع راشيل، أو أنطوان.

نحَّتْ تلك الذكرى جانباً.

وسط الحظيرة لا يزيد عرضُه على ثلاثين قدماً، وقد بناه جدّهنّ الأكبر ليكون مكاناً للعربات. حين كانت العائلة تملك المال؛ أمّا الآن، فلا توجد فيه إلّا سيّارة «رينو» قديمة؛ وأمّا الإسطبلات، فقد مُلئت بقطعٍ من الجرّارات والسلالم الخشبيّة التي تتدلّى منها شباك العنكبوت، وأدواتٍ زراعيّة صدئة.

أغلقتْ باب الحظيرة ومضتْ نحو السيّارة. أصدر باب السائق صريراً وقعقعةً حين فتحتْه. ركبتْ السيّارة وشغّلتها، وتقدّمت قرابة ثماني أقدام، ثمّ توقّفت.

ظهرَ الآن البابُ السرّي. كان من شبه المستحيل رؤية باب القبو هذا لا سيّما الآن وهو مغطّى بالتراب والقشّ القديم. يبلغ طوله خمس أقدام،

وعرضه أربع، مصنوعٌ من ألواح الخشب المربوطة بأحزمةٍ جلديّة. فتحتْ الباب، وأسندته إلى السيّارة، وأخذتْ تنظر إلى العتمة الحالكة.

أشعلتْ مصباحها اليدويّ، وهي ممسكةٌ بالحقيبة الجلديّة، ثمّ وضعته تحت إبطها الآخر، ونزلتْ السلالم ببطء، تخبط الحقيبة في كل دَرَجة، إلى أن وصلت إلى الأسفل فضربتْ الحقيبةُ الأرضيّة الترابيّة.

القبوُ أيضاً بدا لها أكبر حجماً في ذاكرتها. كان عرضه قرابة ثماني أقدام، وطوله عشر أقدام، وبه أرففٌ على جانبٍ واحد، وفِراشٌ على الأرض؛ أمّا الأرفف، فكانت توضع فيها سابقاً براميل صنع النبيذ، لكنّها الآن خاليةٌ إلّا من مصباحٍ وحيد.

وضعتْ الحقيبةَ في الزاوية الخلفيّة، ثمّ عادت إلى المنزل مرّةً أُخرى، فجمعتْ بعض الأطعمة المحفوظة، والبطّانيّات، والمستلزمات الطبّية، وبندقية صيد كانت لوالدها، وزجاجة نبيذ، ثمّ وضعتْ هذه الأشياء كلّها على الأرفف.

فلمّا صعدتْ سلّم القبو وجدتْ ڤيان في الحظيرة.

- ما الذي تفعلينه هنا بحقّ السماء؟

مسحتْ إيزابيل يدَيها في تنّورتها القطنيّة البالية. «أخبّئ أغراضكِ الثمينة وبعض المؤن، في حال اضطررنا إلى الاختباء من النازيّين. تعالَي وانظري. رتّبتُ الأمور جيّداً، أعتقد». عادتْ مرّةً أُخرى إلى القبو، وتبعتْها ڤيان في الظلام. أشعلتْ إيزابيل مصباحاً، ثمّ راحتْ تفاخر ببندقيّة الصيد، والأطعمة، والمستلزمات التي خزّنتْها.

مضتْ ڤيان من فورها إلى علبة مجوهرات والدتها، وفتحتْها.

في داخلها بروشات، وأقراط، وقلادات، ومعظمها مصمّمة بالطلب.

وفي قاع العلبة، فوق المخمل الأزرق، كانت اللآلئ التي ارتدتها جدّتها في يوم زفافها، ثمّ أعطتها لـماݣن كي ترتديها في يوم زفافها.

قالت إيزابيل: «قد تُضطرّين إلى بيعها يوماً ما».

أغلقت ڤيان العلبة. «هذه مقتنيات عائليّة يا إيزابيل. من أجل زفاف صوفي—وزفافك. لن أبيعها أبداً». ثمّ تنهّدت في ضيقٍ والتفتتْ إلى إيزابيل: «ما الذي استطعتِ الحصول عليه من طعامٍ في البلدة؟».

- كنتُ أنجز هذا الأمر.

- «طبعاً. إخفاء لآلئ ماݣن أهمّ من توفير طعامٍ لعشاء ابنة أختك. لماذا يا إيزابيل!». ثمّ صعدتْ السلّم، وهي تنفخُ في استياءٍ وقرف.

خرجتْ إيزابيل من القبو، وأعادتْ الرينو إلى مكانها فوق باب القبو، ثمّ خبّأتْ المفاتيح خلف لوحٍ مكسور في واحدٍ من الإسطبلات. وفي اللحظة الأخيرة، أزالتْ غطاء الموزّع في السيّارة كي تعطّلها فلا يمكن تشغيلها، ووضعتْه مع المفاتيح.

حين عادت إلى البيت وجدت ڤيان في المطبخ تقلي البطاطس في مقلاةٍ من الحديد المصبوب. «أرجو ألّا تكوني جائعة».

فقالت إيزابيل: «لا». ومشتْ من أمام ڤيان بدون أن تنظر في عينَيها: «بالمناسبة، خبّأتُ المفاتيح وغطاء الموزّع في الإسطبل الأول، خلف اللوح المكسور». ثمّ أدارت المذياع في الصالة وأسرعتْ تجلس قربه، رجاةَ أن تسمع أخباراً من بي بي سي.

مضتْ لحظاتٌ من التشويش، جاء بعدها صوتٌ يقول: «هنا بي بي سي. الجنرال ديغول يتحدّث إليكم».

صاحت إيزابيل باتجاه المطبخ: « ڤيان! مَن الجنرال ديغول؟».

جاءت ڤيان إلى الصالة، وهي تجفّف يدَيها في مريلتها. «ما الذي—».

– اشش.

«...وتشكّلت الحكومةُ من أولئك القادة الذين كانوا على رأس الجيش الفرنسيّ سنواتٍ عديدة. وقد تقدّمتْ هذه الحكومة إلى العدوّ بتصوّرٍ لإيقاف الأعمال العدائيّة، بحجّة أنّ الجيش الفرنسيّ تعرّض للهزيمة».

حملقتْ إيزابيل في المذياع الخشبيّ الصغير بدون أن تحوّل عينَيها عنه. لم يكن هذا الرجُل يلقي كلمةً على الشعب الفرنسي كما فعل بيتان، بل كان يتحدّث إليه مباشرةً، في صوتٍ متّقدٍ جيّاش. «بحجّة الهزيمة. كنتُ أعلم!».

«... كنّا، وما نزال حتى الآن نرزح تحت القوّة الآليّة التي يمتلكها العدوّ برّاً وبحراً. لقد صُعق جنرالاتنا من هول دبّاباتِ الألمان، وطائراتهم، وتكتيكاتهم الحربيّة، إلى الحدّ الذي تسبّب في وصولهم إلى ما هم عليه الآن من ألم. ولكن هل انتهى الأمر؟ هل اختفى الأمل؟ هل الهزيمة نهائيّة؟».

قالت إيزابيل: «مون ديو!». هذا ما كانت تنتظر أن تسمعه. يوجد شيء يمكن فعله، ومعركةٌ ينخرطون فيها. الاستسلامُ لم يكن نهائيّاً.

واستمرّ صوتُ ديغول يقول: «مهما حدث، لا ينبغي أن تموت شعلةُ المقاومة الفرنسيّة».

لم تلحظ إيزابيل أنّها تبكي. لم يرضخ الفرنسيّون إذن. كلُّ ما على إيزابيل أن تفعله الآن هو أن تجد طريقةً تلبّي بها ذلك النداء.

*

بعد يومين من احتلال النازيّين لكاريڤو، دعَوا إلى اجتماعٍ في وقت العصر ينبغي للجميع أن يحضروه، بدون استثناء. ومع ذلك، اضطُرّت ڤيان إلى الشجار مع إيزابيل لإجبارها على الذهاب. كالعادة لم تكن إيزابيل ترى أنّ القواعد العاديّة تنطبق عليها، فأرادتْ أن تتحدّاها لكي تُبدي استياءها، وكأنّ الألمان سيعبَؤون برأي فتاةٍ طائشة في احتلالهم لبلدها.

قالت ڤيان بنفاد صبرٍ حين استطاعت أخيراً أن تُخرج إيزابيل وصوفي من البيت: «انتظرا هنا». وأغلقتْ البوّابة المكسورة بلطفٍ خلفهنّ.

وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى ظهرتْ راشيل تقترب منهنّ برفقة ابنتها سارة، وهي تحمل رضيعها على ذراعها.

قالت صوفي، وهي تنظر إلى إيزابيل: «هذه صديقتي سارة».

فقالت راشيل مبتسمة: «إيزابيل. سعيدة برؤيتك مرّةً أُخرى».

قالت إيزابيل: «حقّاً؟».

فاقتربت راشيل منها وقالت برقّة: «مضى زمن طويل يا إيزابيل. كنّا صغيراتٍ، حمقاوات، أنانيّات. أعتذر لأنّنا أسأنا معاملتك وأهملناك. لا بدّ من أنّكِ شعرتِ بألمٍ عميق».

انفتح فمُ إيزابيل، ثمّ انغلق. لأوّل مرّةٍ لا تجد ما تقوله.

فقالت ڤيان، وقد انزعجت لأنّ راشيل قالت لإيزابيل ما لم تستطع هي أن تقوله: «هيّا بنا. لا ينبغي أن نتأخّر».

كان الطقس دافئاً أكثر من المعتاد، حتّى في هذا الوقت المتأخّر من النهار، ولم تلبث ڤيان أن بدأتْ تتعرّق. فلمّا وصلنَ إلى البلدة انضممنَ إلى الحشد المتبرّم الذي ملأ الشارع الضيّق من المحلّ إلى المحلّ المقابل له.

كانت المحالّ والنوافذ مغلقة، على الرغم من أنّ الحرارة ستكون شديدةً لا تُطاق حين يعودون إلى بيوتهم. كانت معظم الأرفف في واجهات المحالّ خاليةً، ولم يكن هذا مستغرباً. كان الألمان يسرفون في الأكل، بل يتركون بقايا من طعامهم في المقاهي. كان تصرّفاً قاسياً مستهتراً، في الوقت الذي كانت فيه الأمّهات تحصي عدد الجِرار في أقبيتهنّ حتى يستطعن توزيع اللّقمات على أطفالهنّ. كانت الدعاياتُ النازيّة في كلّ مكان، على النوافذ وجدران المحالّ. ملصقاتٌ عليها جنودٌ ألمانٌ مبتسمون حولهم أطفال فرنسيّون، مع عباراتٍ تحثّ الفرنسيّين على أن يتقبّلوا غزاتهم، وأن يصبحوا مواطنين صالحين في دولة الرايخ.

فلمّا اقترب الحشد من قاعة البلديّة، توقّفتْ همهماتهم. هناك كان الشعور أسوأ، أن تتّبع التعليمات، وتسير منقاداً كالأعمى إلى مكانٍ ذي أبوابٍ محروسةٍ، ونوافذ مغلقة.

كانت راشيل واقفةً بين الأختَين، وهي أطول منهما، فطقّت بلسانها، وعدّلت وضع طفلها على ذراعها، ثمّ أخذتْ تربّت على ظهره تهدّئه. «لقد استُدعينا».

فقالت إيزابيل: «وهذا سببٌ أدعى للاختباء».

قالت ڤيان: «أنا وصوفي سندخل». على الرغم من أنّها شعرت بتوجّسٍ وخّاز.

تمتمتْ إيزابيل: «لستُ مطمئنّة لهذا الأمر».

تقدّم الحشدُ إلى قاعة البلديّة مثل أمّ أربع وأربعين، ولكنْ بألف قدم. كانت الجدران فيما سبق مزيّنةً بسجاجيد من زمن الملوك، حين كان وادي لوا ساحة صيدٍ ملكيّة، لكنّ هذا كلّه قد ذهب الآن. فلا توجد على الجدران

إلّا الصلبان المعقوفة، وملصقات الدعاية التي تقول: ثقوا بالرايخ، مع لوحةٍ ضخمة لهتلر.

تحت اللوحة وقف رجُلٌ يرتدي سترةً سوداء مزيّنةً بالأوسمة والصلبان الحديديّة، وبنطالاً قصيراً إلى الركبة، وحذاءً طويلاً لامعاً. ذراعه اليمنى موشّاةٌ بِشَارة الصليب المعقوف.

وعندما امتلأتْ القاعةُ أغلق الجنودُ الأبواب، فصرّتْ كأنّما تقاوم. وقف الضابط الذي كان واقفاً في مقدّمة القاعة، وأطلق ذراعه اليمنى عالياً: هايل هتلر!

تمتم الناسُ فيما بينهم بهدوء. ماذا يفعلون؟ قلّةٌ منهم قالوا على مضضٍ: هايل هتلر. وبدأت تنتشر في القاعة رائحةُ العرق وورنيش الجلود والسجائر.

قال الرجُل صاحب الزيّ الأسود بلكنةٍ ألمانيّةٍ ثقيلة: «أنا القائد فِلت من الغيهايم شتاتسپوليتزاي، الغستابو. جئتُ هنا كي أنفّذ بنود الهدنة نيابةً عن وطني والفوهرر. ولن يكون الأمر صعباً على أولئك الذين يمتثلون للقوانين منكم». ثمّ تنحنح.

- «القوانين كالتالي: تُسلّم جميع المذاييع لنا في قاعة البلديّة على الفور، وكذلك البنادق، والمتفجّرات، والذخيرة. تُصادر جميع المركبات. تُزوّد جميع النوافذ بمواد تعتيم، وينبغي لكم استخدامها. يُفرض حظر تجوال من الساعة التاسعة مساء. لا يُسمح بإشعال أيّ أضواء بعد حلول الظلام. جميع الأغذية تكون تحت إشرافنا، سواء أكانت مزروعةً أم مستوردة». توقّف قليلاً وأخذ ينظر إلى الجمعِ الواقف أمامه: «أرأيتم؟ الأمر ليس سيّئاً. سوف نعيش في وئام، أليس كذلك؟ ولكنْ، أيّ عملٍ

من أعمال التخريب، أو التجسّس، أو المقاومة سوف نتعامل معه بسرعةٍ وبدون رحمة. وجزاءُ هذه الأعمال هو الإعدام». أخرج علبة سجائر من جيب صدره، وسحب منها سيجارة. أشعلها، وهو يحدّق في الناس بحدّةٍ كأنّه يحاول أن يسجّل في ذاكرته كلَّ وجه: «وعلى الرغم من أنّ الكثير من جنودكم الجبناء المهلهلين سوف يعودون، إلّا أنّ من قبضنا عليه أسيراً سيبقى في ألمانيا».

شعرتْ ڤيان باضطرابٍ ينتشر بين الحضور. نظرتْ إلى راشيل الذي كان وجهها المربّع مبقّعاً في بعض أجزائه، دلالةً على القلق، ثمّ قالت مُكابِرةً: «سيعود مارك وأنطوان».

وأكمل القائد كلامَه: «يمكنكم الانصراف الآن؛ إذْ يبدو واضحاً أنكم فهمتم ما قلته. سيبقى بعض الضبّاط هنا حتى الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة، لاستلام الممنوعات منكم. فلا تتأخّروا». ثمّ ابتسم بدماثةٍ وأضاف: «ولا تعرّضوا حياتكم للخطر بالاحتفاظ بمذياع. سنعثر على أيّ شيءٍ تحتفظون به، أو تخفونه. وإذا وجدناه...إعدام». قالها هكذا وهو يبتسم كما لو كانت كلمةً عاديّةً، حتى إنّ الناس لم يستوعبوا للحظةٍ ما سمعوا.

ظلّ الجمعُ في مكانه لحظةً، وهم غير متأكّدين ممّا إذا كان يجدر بهم أن يتحرّكوا. لم يكن أحد يريد أن يكون صاحب الخطوة الأولى في نظر الألمان. وفجأةً بدؤوا يتحرّكون متراصّين نحو الأبواب المفتوحة، خارجين.

قالت إيزابيل، وهُم يدخلون زقاقاً: «أولاد الحرام».

فقالت راشيل، وهي تشعل سيجارةً، وتمجّ منها نفساً عميقاً وتزفر سريعاً: «وأنا كنتُ واثقةً من أنّهم سيسمحون لنا بالاحتفاظ ببنادقنا».

قالت إيزابيل بصوتٍ عال: «سأحتفظ ببندقيّتنا ومذياعنا».

فقالت ڤيان: «اششش».

– الجنرال ديغول يرى أنّ—

– لا أريد أن أسمع شيئاً من هذه الحماقة. علينا الانصياع إلى أن يعود رجالنا.

فردّت إيزابيل بحدّة: «مون ديو! وهل تعتقدين أنّ الحلّ بيد زوجك؟».

– لا. أعتقد أنّ الحل بيدكِ أنتِ والجنرال ديغول، هذا الذي لم يسمع به أحد. هيّا الآن. في الوقت الذي تضعين فيه خطّةً لإنقاذ فرنسا، ينبغي لي أن أعتني بحديقتي. هيّا يا راشيل، دعينا نحن الأغبياء نبتعد.

قبضت ڤيان على يد صوفي ومشتْ بسرعة، ولم تعبأ حتّى بالنظر خلفها لترى ما إذا كانت إيزابيل تتبعها. كانت تعرف أنّ أختها هناك تعرج على قدمَيها المعطوبتَين. في الظروف العاديّة كانت ستنتظر وتمشي إلى جانب أختها من باب اللباقة، لكنّها الآن كانت غاضبة.

قالت لها راشيل، وهما تعبران من أمام الكنيسة النورمانية في طرف البلدة: «قد لا تكون أختكِ مخطئةً تماماً».

– اسمعي يا راشيل. لو أيّدتِها في موقفها هذا فقد أكون مجبرةً على إيذائك.

– مع ذلك، فقد لا تكون أختك مخطئةً تماماً.

تنهّدتْ ڤيان. «لا تقولي لها ذلك. فهي لا تُحتمل أساساً».

– سوف تتعلّم اللباقة.

– علّميها أنتِ. لقد أثبتتْ أنّها غير قابلةٍ لتطوير ذاتها، أو الإنصات إلى

صوت العقل. لقد دخلتْ مدرستَين لتربية الفتيات وتعليمهنّ الكياسة، ومع ذلك لا تستطيع أن تمسك لسانها، أو تتحدّث بأدب. قبل يومين لم تذهب إلى البلدة لإحضار اللّحم، وجلستْ في البيت تخبّئ الأشياء الثمينة وتجهّز مكاناً لنا للاختباء لو حدث شيء.

- لعلّه يجدر بي أن أخبّئ أشيائي أيضاً. على الرغم من أنّها ليست كثيرة.

قلبتْ ڤيان شفتَيها. لم تعد هناك فائدة من الحديث في هذا الموضوع أكثر. عمّا قريبٍ سيعود أنطوان ويساعدها في السيطرة على تصرّفات إيزابيل.

حين وصلنَ إلى بوّابة لو جاردان، ودّعتْ ڤيان راشيل وطفلَيها.

سألتْها صوفي: «مامُن، لماذا ينبغي لنا أن نعطيهم مذياعنا؟ إنّه مذياع بابا».

فقالت إيزابيل: «لن نعطيهم إيّاه. سوف نخبّئه».

فردّت ڤيان بحدّة: «لن نخبّئه. سنفعل ما يُقال لنا ونلزم الهدوء، وقريباً يعود أنطوان فنعرف كيف نتصرّف».

قالت إيزابيل: «أهلاً بكِ في العصور الوسطى يا صوفي».

سحبتْ ڤيان البوّابة بقوّة، وقد نسيتْ أنّ اللاجئين كسروها، فأخذتْ البوّابة تجلجلُ على مفصلها الوحيد. بذلتْ ڤيان كلّ طاقتها للتظاهر بأنّ ذلك لم يحدث. سارتْ إلى البيت، وفتحتْ الباب، ثمّ أشعلتْ ضوء المطبخ على الفور، ثمّ قالت، وهي تخلع قبّعتها: «صوفي، من فضلك جهّزي الطاولة».

تجاهلتْ ڤيان تذمّر ابنتها، فقد كان متوقّعاً. في بضعة أيّام لا أكثر استطاعت إيزابيل أن تعلّم صوفي رفضَ الأوامر.

أشعلتْ ڤيان الفرن، وبدأتْ تطبخ. فلمّا بدأت البطاطس المهروسة وحساء اللحم يغليان، راحت تنظّف المكان. بطبيعة الحال لم تكن إيزابيل هناك كي تساعد. تنهّدت، وهي تملأُ المغسلة بالماء كي تغسل الصحون. كانت مستغرقةً في ما تفعله تماماً حتّى إنّها لم تنتبه لطرق الباب إلّا بعد دقيقة. مرّرتْ يدها على شعرها، وهي تدخل الصالة، فوجدتْ إيزابيل تنهض عن الأريكة وفي يدها كتاب. كالعادة، كانت تقرأ بينما ڤيان تمسح وتطبخ.

سألتها إيزابيل: «هل تنتظرين زيارة؟». فهزّت ڤيان رأسها.

فقالت: «إذن ربّما لا يجدر بنا أن نفتح. لنتظاهر بأنّنا غير موجودين».

- على الأرجح ستكون راشيل.

وجاءت طرقةٌ أخرى على الباب.

وببطءٍ أُدير مقبض الباب وانفتح.

- نعم، بالتأكيد راشيل. من غيرها—.

ودخلَ جنديٌّ ألمانيٌّ بيتَها.

قال الجنديّ بفرنسيّةٍ مكسّرة: «أوه، اعتذاراتي». خَلَع قبّعته العسكريّة، ووضعها تحت إبطه وابتسم. كان رجُلاً وسيماً، طويل القامة، عريض المنكبَين، رشيقاً، ببشرةٍ بيضاء، وعينَين رماديّتين فاتحتَين. من مظهره بدا لڤيان أنّه في مثل سنّها تقريباً. كان زيُّه مكويّاً ويبدو جديداً. وعلى ياقة سترته صليبٌ حديديّ. كان لديه منظارٌ معلّقٌ بشريطٍ حول رقبته، ومحزمٌ

جلديٌّ على خصره. رأتْ ڤيان من خلفه عبر أغصان البستان درّاجته الناريّة على جانب الطريق، وقد أُلحقتْ بها سيّارةٌ جانبيّةٌ عليها بنادق رشّاشة.

قال لڤيان بإيماءةِ تحيّةٍ على الطريقة العسكريّة: «مدموازيل».

فصحّحتْ له قائلةً: «مدام». راجيةً أن يبدو صوتُها واثقاً هادئاً، على الرغم من أنّها كانت مرتعبةً حتى النخاع. «مدام مورياك».

- «أنا الهوبتمَن؛ أي: النقيب، ولفغانغ بيك». ثمّ ناولها ورقةً صغيرة: «لُغتي الفرنسيّة ليست ممتازة. أرجو أن تعذريني». فلمّا ابتسم، تشكّلت غمّازتان عميقتان في وجنتَيه.

أخذتْ منه الورقة وقطّبتْ جبينها. «أنا لا أقرأ الألمانيّة».

فقالت إيزابيل، وهي تقف إلى جانب ڤيان: «ماذا تريد؟».

- بيتكم جميلٌ وقريبٌ جدّاً من المطار. لحظتُه عند وصولنا. كم غرفة نومٍ لديكم؟

- «لماذا؟». قالتها إيزابيل في الوقت نفسه الذي قالت فيه ڤيان: «ثلاث».

قال النقيب بفرنسيّته الركيكة: «سوف أقيم هنا».

قالت ڤيان: «تُقيم؟ تقصد أنك..ستسكن؟».

- وِي مدام.

هزّت إيزابيل رأسها: «تُقيم؟ أنتَ؟ رجُل..نازيّ يقيم هنا؟ لا، لا. لا».

ظلّتْ ابتسامةُ النقيب كما هي، ثمّ نظر إلى إيزابيل وقال: «كنتِ في البلدة. رأيتكِ حين وصلنا».

- لحظتَني؟

فابتسم. «أنا واثقٌ من أنّ كلّ رجُلٍ لديه دمٌ في كتيبتي لحظك».

– غريبٌ أن تتحدّث أنتَ عن الدم!

لكزتْ ڤيان أختَها وقالت: «المعذرة أيّها النقيب. أختي الصغيرة تصبح صعبة المراس أحياناً. لكنّني امرأةٌ متزوّجة، وزوجي في الجبهة، ومعي أختي وابنتي هنا، لذلك بالتأكيد تتفهّمون أن وجودك معنا غير ملائم».

– آه، إذنْ تفضّلون أن تتركوا البيت لي. لا بّد من أنّ في ذلك مشقّة عليكم.

قالت ڤيان: «نترك البيت؟».

فقالت إيزابيل بدون أن تبعد عينَيها عنه: «أعتقدُ أنّكِ لم تفهمي النقيب. سوف ينتقل إلى بيتك، يستولي عليه في الواقع، وتلك الورقةُ عبارة عن أمر مصادرةٍ يسمح له بذلك. إضافةً إلى هدنة بيتان طبعاً. فإمّا أن نخصّص له مكاناً في البيت، وإمّا أن نتخلّى عن البيت الذي ورثناه عن أجدادنا».

بدا أنّه غير مرتاح. «عذراً، نعم هذا هو الوضع. وكثيرٌ من أهل قريتك يواجهون المعضلة نفسها».

سألته إيزابيل: «إنْ تركنا البيت، فهل سنستعيده لاحقاً؟».

– لا أظنّ ذلك يا مدام.

تجرّأت ڤيان فتقدّمت خطوةً نحوه. ربّما تستطيع أن تصل معه إلى تفاهم. «سيعود زوجي إلى البيت قريباً، كما أتصوّر. فهلّا انتظرتَ حتى يعود؟».

– مع الأسف لستُ أنا الجنرال. أنا مجرّد نقيبٍ في الفيرماخت. أنفّذ الأوامر يا مدام ولا أصدرها. وقد أُمرتُ أن أقيم هنا. لكنّني أؤكّد لكما أنّني رجُلٌ محترم.

قالت إيزابيل: «سوف نرحل».

فقالت ڤيان في ذهول: «نرحل؟ هذا بيتي». ثمّ قالت للنقيب: «هل أستطيع الوثوق بأنّك ستكون مُحترماً؟».

- بالطبع.

نظرت ڤيان إلى إيزابيل التي كانت تهزّ رأسها ببطء.

أدركتْ ڤيان أنّه لا يوجد خيار أمامها. كان عليها أن تُبقي صوفي في أمانٍ إلى أن يعود أنطوان فيتصرّف. لا شكّ أنّه سيعود قريباً، بعد أن جرى توقيع الهدنة. «توجد غرفة نومٍ صغيرة في الطابق السفلي. ستكون مريحةً لك».

أومأ النقيب قائلاً: «ميرسي مدام. سأحضر أغراضي».

*

وما إن أُغلق البابُ خلف النقيب حتى قالت إيزابيل: «هل جننتِ؟ لا يمكن أن نسكن مع نازيّ».

- قال إنّه من الفيرماخت. هل هما الشيء نفسه؟

- لا تهمّني سلسلة قيادتهم. يا ڤيان، أنتِ لم ترَي ما يمكن أن يفعلوه بنا. أنا رأيت. سنرحل. يمكننا أن نذهب إلى الجيران، عند راشيل. يمكننا أن نسكن معها.

- منزل راشيل صغيرٌ جدّاً لن يسعنا كلّنا، ولستُ مستعدّةً لترك بيتي للألمان.

لم تجد إيزابيل ردّاً على ذلك.

شعرتْ ڤيان بحكّةٍ في حلقِها من فرطِ القلق. هي عادةٌ عصبيّةٌ قديمةٌ

عادت إليها. «اذهبي أنتِ إن أردتِ؛ أمّا أنا، فسأنتظر أنطوان. بما أنّنا استسلمنا، فسوف يعود قريباً».

- ڤيان، أرجوكِ—.

اهتزّ بابُ البيت بقوّة. طرقةٌ أخرى.

مشتْ ڤيان بتردّدٍ نحو الباب. مدّت يدها، وهي ترتجف، فأدارت المقبض وفتحتْ الباب.

كان النقيب بيك واقفاً هناك، ممسكاً بقبّعته العسكريّة في يدٍ واحدةٍ، وحقيبةٍ جلديّةٍ صغيرةٍ في اليد الأُخرى. قال وكأنّه غاب طويلاً: «مرحباً مرّةً أُخرى مدام».

حكّتْ ڤيان رقبتَها، وهي تشعر بأنّها ضعيفةٌ تماماً تحت تحديقة هذا الرجُل. تراجعتْ سريعاً وقالت: «مِن هنا أيّها النقيب».

فلمّا استدارت، رأت صالةَ البيت التي زيّنتها ثلاثة أجيالٍ من نساء العائلة. جدران الجصّ الذهبيّة بلون البريوش(*) الطازج، والأرضيّات الحجريّة الرماديّة المغطّاة بسجّاد أوبيسون العتيق، والأثاث الخشبيّ المنحوت، المنجّد بقماش الموهير والنُجود، والمصابيح المصنوعة من الخزف، والستائر المخيطة من قماشٍ ذهبيّ وأحمر، والتحف القديمة التي بقيَت من ذلك الزمن الذي كان فيه آل روسينيول تجّاراً أثرياء. كانت هناك أعمال فنّية رفيعة على الجدران إلى وقتٍ قريب؛ أمّا الآن، فلم تبق سوى اللوحات المتواضعة. لقد أخفتْ إيزابيل اللوحات المهمّة.

مرّت ڤيان بذلك كلّه، وهي تمضي إلى غرفة نومٍ صغيرةٍ للضيوف

(*) البريوش (brioche): نوعٌ من المخبوزات المحلّاة. (م).

تحت الدَرَج. توقّفتْ عند الباب المغلق، إلى يسار الحمّام الذي أضيف في أوائل العشرينيّات. كانت تسمع أنفاسه من خلفها.

فتحتْ الباب، فكشفتْ عن غرفةٍ ضيّقةٍ ذات نافذةٍ كبيرةٍ، تعلوها ستائر زُرق رماديّة انسدلتْ على الأرضيّة الخشبيّة. ثمّة خزانة ذات أدراج، فوقها إبريق أزرق. وفي الزّاوية خزانةٌ كبيرةٌ من خشب البلّوط بأبواب ذات مرايا. وإلى جانب السرير الكبير طاولةٌ جانبيّةٌ فوقها ساعةٌ عتيقةٌ من الذهب الزائف. كانت ملابس إيزابيل ملقاةً في كلّ مكان، كما لو كانت تحزم حقائبها لقضاء عطلةٍ طويلة. أخذتْ ڤيان تلتقطها بسرعة، مع الحقيبة. فلمّا انتهتْ استدارت.

سقطتْ حقيبتُه فجأةً على الأرض. نظرتْ ڤيان إليه، وقد اضطرت من باب التهذيب أن تبتسم له ابتسامةً مرتبكة.

قال: «لا داعي للقلق يا مدام. لقد نُبِّهنا على التصرّف باحترام. ولو كانت أمّي موجودةً لطلبت منّي الشيء نفسه. وإنْ أردتِ الصراحة، فإنّي أخاف أمّي أكثر من الجنرال». كان تعليقاً عاديّاً جدّاً إلى الحدّ الذي أربكَ ڤيان.

لم تعرف كيف تردّ على هذا الغريب الذي يرتدي ملابس العدوّ ويبدو مثل أيّ شابٍ قد تقابله في كنيسةٍ مثلاً. وتُرى ما الثمن الذي قد تدفعه إن قالت شيئاً خطأً؟

بقي في مكانه، على مسافةٍ محترمة منها. «أعتذرُ من أيّ إزعاج يا مدام».

- سيعود زوجي قريباً.

- كلّنا نرجو أن نعود قريباً.

تعليقٌ آخر مُربك. أومأتْ ڤيان بأدبٍ وتركتْه وحده في الغرفة، وأغلقتْ الباب خلفها.

قالت إيزابيل، وهي تهرع إليها: «أرجوكِ قولي لي إنّه لن يبقى».

فقالت ڤيان بتعبٍ، وهي ترفع الشعر عن عينَيها: «يقول: إنّه سيبقى». أدركتْ للتوّ فقط أنّها كانت ترتعد: «أعرف شعوركِ تجاه هؤلاء النازيّين. احرصي فقط على ألّا يعرف هو ذلك. لن أسمح لكِ بتعريض حياة صوفي للخطر بسبب تمرّدكِ الطفوليّ هذا».

- تمرّد طفوليّ! هل—.

انفتح باب غرفة الضيوف، فسكتت إيزابيل.

مشى النقيب بيك واثقاً تجاههما، بابتسامةٍ عريضة، ثمّ رأى المذياع في الغرفة وتوقّف قليلاً. «لا تقلقا. يسعدني أن أوصل مذياعكم بالنيابة عنكما إلى الكومندانت».

فقالت إيزابيل: «حقا؟ وتعدّ هذا لطفاً منك؟».

شعرتْ ڤيان بانقباضٍ في صدرها. فقد كانت هناك عاصفةٌ تختمر داخل إيزابيل. شحبت وجنتاها، وارتسمت شفتاها في خطٍ رفيعٍ عديم اللّون، وضاقت عيناها. كانت تحدّق في الألمانيّ كما لو أنّها تستطيع أن ترديه قتيلاً بنظرتها.

قال: «بالطبع». ثمّ ابتسم في حَيرة. بدا أنّ الصمت المفاجئ يربكه، فقال فجأةً: «لديكِ شعرٌ جميل مدموازيل». فلمّا قطبت جبينها قال: «هذه مجاملة مقبولة، أليس كذلك؟».

فقالت إيزابيل بصوتٍ خفيض: «هل ترى ذلك؟».

فابتسم بيك: «نعم، جميلٌ جداً».

مشتْ إيزابيل إلى المطبخ وعادتْ تحمل مقصّاً.

اختفتْ ابتسامتُه، وقال: «هل أساءت فهمي؟».

جمعتْ إيزابيل شعرها الأشقر الكثيف في قبضة يدها، فقالتْ ڤيان: «لا تفعلي يا إيزابيل». حدّقتْ إيزابيل في وجه النقيب الوسيم وقصّت شعرها، ثمّ ناولته عقصتها الشقراء الطويلة: «من الڤيربوتن علينا بالتأكيد أن نمتلك أيّ شيءٍ جميل، أليس كذلك أيها النقيب بيك؟».

شهقتْ ڤيان: «أرجوك سيّدي، تجاهلها. إيزابيل فتاةٌ سخيفةٌ مزهوّةٌ بنفسها».

فقال بيك: «لا، إنّها غاضبة. والغاضبون يرتكبون أخطاءً في الحرب ويموتون».

فقالت إيزابيل بحدّة: «وكذلك الجنود المحتلّون».

ضحك بيك من كلامها.

أصدرتْ إيزابيل صوتاً أقرب إلى الزمجرة، ودارت على كعبها، ثمّ صعدت الدرج، وأغلقت الباب خلفها بقوّة، حتّى اهتزّ البيت.

*

قال بيك: «من الأفضل أن تتحدّثي إليها الآن. اسمعي كلامي». ونظر إلى ڤيان نظرةً بدت كما لو أنّهما متفاهمان: «هذا النوع من...الحركات المسرحيّة قد يكون خطراً جدّاً إن حدث في مكانٍ غير مناسب».

تركتْه ڤيان واقفاً في الصالة، وصعدتْ إلى الطابق العلويّ. وجدتْ إيزابيل جالسةً على فراش صوفي، غاضبةً جدّاً إلى حدّ الارتعاش.

كانت الخدوش تشوّه وجنتَيها وحلقها، في تذكيرٍ بما رأته ونجت منه. والآن جُزّ شعرُها حتّى بدت نهاياته غير متساوية.

ألقتْ ڤيان بأغراض إيزابيل على السرير غير المرتّب، وأغلقتْ الباب خلفها. «بحقّ كلّ شيءٍ مقدّس، ما الذي فعلتِه؟».

- يمكنني أن أقتله وهو نائم. أحزّ عنقه فقط.

- وتظنّين أنّهم لن يأتوا بحثاً عن نقيبٍ لديه أوامر بالإقامة هنا؟ مون ديو إيزابيل! سحبتْ نفساً عميقاً كي تهدّئ أعصابها: «أعلم أنّ هناك مشكلاتٍ بيننا يا إيزابيل. أعلم أنّي أسأتُ معاملتك في طفولتك. كنتُ صغيرةً وخائفةً فلم أستطع أن أساعدك. وپاپا كان أسوأ منّي. لكنّ الأمر لا يتعلّق بنا الآن، ولا يمكنكِ أن تتصرّفي بطيش. الأمر يتعلّق بابنتي الآن. ابنة أختك. لا بدّ من أن نحميها».

- ولكن —.

- فرنسا استسلمت يا إيزابيل، ولا بدّ من أنّكِ تدركين هذه الحقيقة.

- أولم تسمعي الجنرال ديغول؟ لقد قال—.

- ومن يكون هذا الجنرال ديغول؟ لماذا ينبغي أن نسمع كلامه؟ المارشال بيتان بطلُ حربٍ وقائدنا. علينا أن نثق في حكومتنا.

- هل تمزحين يا ڤيان؟ حكومةُ ڤيشي تتعاون مع هتلر. فكيف لا تستوعبين هذا الخطر؟ بيتان مخطئ. هل يتبع المرءُ قائده كالأعمى؟

اقتربتْ ڤيان نحو إيزابيل ببطء، تكاد تخاف منها. قالت، وهي تشبك يدَيها لتوقف ارتجافهما: «أنتِ لا تذكرين الحرب الأخيرة. أنا أذكر. أذكر الآباء، والإخوة، والأعمام، والأخوال الذين لم يعودوا. أذكر أصوات

الأطفال في صفّي، وهُم يبكون بهدوءٍ حين وصلت إلينا الأنباء الحزينة بالتلغراف. أذكرُ الرجال الذين عادوا على عكّازات، وسيقان بناطيلهم فارغة، أو مرتخية، بذراعٍ مفقودةٍ، أو وجهٍ مدمّر. أذكر كيف كان پاپا قبل الحرب، وكيف تغيّر حين عاد. كيف كان يشرب، ويصفق الأبواب، ويصرخ فينا، وأذكر حين توقّف عن ذلك. أذكرُ القصص التي قيلت عمّا وقع في فردان وسوم، والمليون فرنسيّ الذين ماتوا في خنادق كانت تسيل حُمْراً بدمائهم. ولا تنسَي فظائع الألمان. كانوا قساةً يا إيزابيل».

- وهذا بالضبط ما أريد قوله. علينا أن—.

- كانوا قساةً لأنّنا كنّا في حربٍ معهم يا إيزابيل. وقد أنقذنا بيتان من تكرار هذه التجربة. لقد أبقانا في أمان. أوقف الحرب. سيعود أنطوان ورجالنا كلّهم.

فقالت إيزابيل في تهكّم: «إلى عالمِ هايل هتلر؟ ينبغي ألّا تموت شعلة المقاومة في فرنسا. هذا ما قاله ديغول. علينا أن نقاتل بأيّ طريقة. من أجل فرنسا يا ڤي. كي تبقى فرنسا».

- « كفى!». واقتربتْ ڤيان من إيزابيل مسافةً تستطيع منها أن تهمس لها، أو تقبّلها، لكنّها لم تفعل. قالت بصوتٍ ثابت: «ستأخذين غرفة صوفي، وتنتقل هي إلى غرفتي. تذكّري يا إيزابيل أنّه قد يطلق النار علينا. يطلق النار علينا، ولن يعبأ بنا أحد. لن أسمح لكِ باستفزاز هذا الجنديّ في بيتي».

رأتْ كلامها يضرب على الوتر المطلوب. تخشّبتْ إيزابيل في مكانها. «سأحاول أن أمسك لساني».

- ما أريده منكِ أكثر من المحاولة.

الفصل التاسع

أغلقت ڤيان باب الغرفة واتّكأت عليه، تحاول أن تهدّئ أعصابها. كانت تسمع إيزابيل تذرع الغرفة في غضبٍ يهزّ ألواح الأرضيّة في الغرفة. كم من الوقت مضى على ڤيان، وهي واقفة هناك وحْدها ترتجف، تحاول أن تسيطر على أعصابها؟ شعرتْ كأنّما مرّت ساعات، وهي تصارع خوفها.

في الأوقات العاديّة كانت ستجد في نفسها القوّة لتتحدّث بعقلانيّةٍ إلى أختها، وتقول أشياء لم تصرّح بها من قبل. كانت ڤيان ستخبر إيزابيل عن أسفها على ما بدر منها، وهي صغيرة، علّها تفهم.

فقد كانت ڤيان عاجزةً تماماً بعد وفاة مامُن. وحين أرسلهما پاپا إلى هذه البلدة الصغيرة لتعيشا على عينَين باردتَين قاسيتَين لامرأةٍ لم تُبدِ لهما أيّ شكلٍ من الحبّ، كانت ڤيان قد...ذبلت.

لو كانتا في زمنٍ آخر، لربّما أخبرتْ إيزابيل بما بينهما من عاملٍ مشترك؛ إذْ هدّها موت مامُن، وانكسر قلبُها بهَجر پاپّا. لربّما أخبرتْها كيف عاملها حين جاءته، وهي ابنة ستّ عشرة سنة، حبلى تعيش قصّة حب...فصَفَعها وقال: إنّها عارٌ عليه. وكيف دَفَعه أنطوان بعيداً، وقال له: سوف أتزوّجها.

وجواب بابا: حسنٌ هي لَك. ويمكنكما أن تحتفظا بالبيت. شريطة أن تأخذا أختها البكّاءة أيضاً.

أغمضتْ ڤيان عينَيها. كانت تكره التفكير في هذا الأمر، بل إنّها نسيتْه سنوات. كيف تستطيع الآن أن تبعده من تفكيرها؟ لقد فعلتْ بإيزابيل ما فعله والدها بهما تماماً. كان هذا أكبر ندَمٍ في حياة ڤيان.

لكنّه لم يكن الوقت المناسب لإصلاح ما حدث.

كان عليها الآن أن تفعل كلّ ما في وسعها للحفاظ على سلامة صوفي، إلى أن يعود أنطوان. لا بدّ من إجبار إيزابيل على استيعاب ذلك.

أطلقتْ تنهيدةً، ثمّ نزلتْ لكي تطمئنّ على العشاء.

وجدتْ حساء البطاطس يغلي أكثر ممّا يلزم، فأزالت غطاء القدر، وأخفضتْ الحرارة.

- مدام، هل أنتِ دمويّة(*)؟

جفلتْ من صوته. متى دخل المطبخ؟ سحبتْ نفساً عميقاً ومسحتْ على شعرها. لم تكن تلك الكلمة التي يقصدها. كانت لغته الفرنسيّة ضعيفة فعلاً.

قال، وهو يقترب خلفها: «رائحةُ الأكل لذيذة».

وضعتْ الملعقةَ الخشبيّة على لوح الملاعق بجانب الفرن.

(*) استخدمت الكاتبة في الأصل كلمة (*sanguine*)، والتي لها معانٍ عدة من بينها: الدمويّة، والمتفائلة، والواثقة، وآثرتُ أن أستخدم المعنى الأوّل إمعانًا في تأثير المفارقة اللغويّة؛ إذْ إنّ الضابط يستخدم كلمةً (فرنسيّة) في غير محلّها، وهو يقصد شيئًا آخر. وسوف يكرّر الضابط استخدام هذه الكلمة في الفصل الحادي عشر فتصحّح له ڤيان الكلمة. (م).

- هل لي أن أرى ماذا تطبخين؟

فقالت، وهي تتظاهر مثله بأنّ موافقتها مهمّة: «بالطبع. إنّه مجرّد حساء بطاطس».

- مع الأسف زوجتي ليست طبّاخة ماهرة.

كان يقف إلى جانبها، في مكان أنطوان، رجُلاً جائعاً يحدّق في عشاءٍ يُطبخ.

قالتْ، وقد اطمأنّت بدون أن تعرف السبب: «أنت متزوّج».

- وعمّا قريبٍ سيولد لنا طفل. نفكّر في أن نسمّيه فِلهلم، على الرغم من أنّي لن أحضر ولادته، وبطبيعة الحال لا بدّ من أن يعود القرار في نهاية المطاف إلى والدته.

كان ما قاله...شيئاً إنسانياً. وجدتْ نفسها تستدير قليلاً لتنظر إليه. كان في طولها، بالضبط تقريباً، فأربكها ذلك. كان النظر في عينيه مباشرةً يُشعرها بالضعف.

قال: «سنعود كلّنا إلى بيوتنا قريباً بمشيئة الله».

قالت في نفسها بارتياح: هو أيضاً يريد أن ينتهي كلّ هذا!

- إنّه وقت العشاء، هير نقيب. هل ستنضم إلينا؟

- يشرّفني ذلك مدام. على الرغم من أنّه سيسُرّكم بالطبع أن تعرفوا أنّني في أغلب الأيّام سأعمل حتّى وقتٍ متأخّر، وأتناول عشائي مع الضبّاط. كما أنّني في كثيرٍ من الأحيان سأخرج في حملات. في بعض الأحيان لن تلحظوا وجودي أصلاً.

تركتْه ڤيان في المطبخ، وحملت أدوات المائدة إلى غرفة الطعام، حيث كادت تصطدم بإيزابيل.

هَسهَست إيزابيل قائلةً: «لا ينبغي أن تبقي وحدك معه».

دخل النقيب الغرفة. «لا تتوقّعنَ أن أقبل ضيافتكنّ، ثمّ أؤذيكنّ. فالليلةُ مثلاً أحضرتُ لكنّ هذا النبيذ. نبيذ سونسير الرائع».

قالت إيزابيل: «أحضرتَ لنا نبيذاً؟».

فأجاب: «كما يفعل أيّ ضيفٍ مُحترم».

قالت ڤيان في نفسها: أوه، يا إلهي! ولكنْ لم يكن بالإمكان فعل شيء لمنع إيزابيل من الكلام.

- هل تعرف شيئاً عن تُور، هير نقيب؟ وكيف أطلقتْ طائرات الإستوكا النار على النساء والأطفال الأبرياء الذين كانوا يفرّون للحفاظ على حياتهم، وكيف ألقتْ القنابل علينا؟

فقال وقد بدأ يفكّر: «علينا؟».

- كنتُ هناك. بالتأكيد ترى العلامات على وجهي.

فقال: «آه. لا بدّ من أنها كانت تجربةً مزعجةً للغاية».

لم تحرّك إيزابيل ساكناً. وبدا أنّ خُضرة عينَيها تشعّ من فوق العلامات الحُمر والكدمات على بشرتها البيضاء. «مزعجة».

قالت لها ڤيان تذكّرها: «فكّري في صوفي».

فصكّت إيزابيل أسنانها، وافتعلتْ ابتسامة. «تفضّل أيّها النقيب بيك. سأرشدك إلى مقعدك».

لأوّل مرّةٍ تنفّستْ ڤيان جيّداً منذ ساعةٍ على الأقل. وببطءٍ، ذهبتْ إلى المطبخ لإحضار العشاء.

*

قدّمتْ ڤيان العشاء في صمت. كان الجوّ ثقيلاً في الطاولة، كثيفاً كما لو أنّ سُخَام الفحم قد استقرّ فوقهم. أعصابُ ڤيان مشدودةٌ إلى شفا الانهيار، والشمس قد بدأت بالغروب، وامتلأت النوافذ بالضوء الورديّ.

قال بيك لإيزابيل، وهو يسكب لنفسه كأساً كبيرةً من نبيذ السونسير: «هل ترغبين في بعض النبيذ مدموازيل؟».

- كيف لي أن أستمتع به بينما الأسر الفرنسيّة العاديّة لا تستطيع توفيره يا هير نقيب؟

- ربّما مجرّد رشفةٍ لن—.

أنهتْ إيزابيل حساءها، ونهضت. «المعذرة. أشعر بغثيانٍ شديد».

قالت صوفي: «وأنا كذلك». وقفتْ وتبعتْ خالتها إلى خارج الغرفة مطأطئةً رأسها كجروٍ يتبع الكلب القائد.

أمّا ڤيان فلم تحرّك ساكناً، فظلّت ملعقتُها معلّقةً في الهواء فوق حسائها. لقد تركتاها وحدها معه.

كانت أنفاسها تختلجُ في صدرها. فوضعتْ ملعقتها بحرصٍ على الصحن، ومسحتْ فمها بمنديلها. «أرجو أن تعذر أختي، هير نقيب. إنّها طائشةٌ وعنيدة».

- ابنتي الكبيرة مثلها. ولا نتوقّع منها حين تكبر إلّا المتاعب.

دُهشت ڤيان أيّما دهشة، إلى الحدّ الذي جعلها تلتفت إليه. «الديك ابنة؟».

فقال، وابتسامةٌ ترتسم على شفتَيه: «غِيزِلا. ما تزال في السادسة من عمرها لكنّ أمّها لا تستطيع أن تجعلها تقوم بأبسط واجباتها، كتنظيف

أسنانها مثلاً. تفضّل غيزِلا أن تبني حصناً على أن تقرأ كتاباً». تنهّد وهو يبتسم.

ارتبكتْ ڤيان ممّا عرفتْه عنه، وحاولتْ أن تفكّر في ردٍّ، لكنّ أعصابها كانت مُجهدةً تماماً، فالتقطتْ ملعقتها، وبدأتْ بتناول حسائها مرّةً أُخرى.

بدت لها تلك الوجبة كأنّها لا تريد أن تنتهي، في صمتٍ كان هو السبب. وفي اللّحظة التي انتهى فيها من الطعام وقال: «وجبةٌ رائعة! شكراً لك». نهضتْ من فورها وبدأتْ تنظّف الطاولة.

لحسن الحظّ لم يتبعها إلى المطبخ، بل ظلّ في غرفة الطعام وحده على الطاولة، يشرب النبيذ الذي أحضره، والذي كانت تعرف أنّه سيكون خريفيّ المذاق: من الكمّثرى والتفّاح.

حين انتهتْ من غسل الصحون وتجفيفها كان الظلام قد حلّ. خرجتْ إلى الفناء الأمامي تحت أضواء النجوم، تسعى إلى لحظاتٍ من الهدوء. تحرّك ظلٌّ على جدار الحديقة. لعلّها قطّة.

سمعتْ من خلفها وقع أقدام، ثمّ عود ثقابٍ ورائحة الكبريت. خطتْ خطوةً هادئةً إلى الوراء، علّها تذوب في الظِلال. فإنْ تحرّكت بهدوءٍ ربّما تستطيع العودة من الباب الجانبيّ بدون أن ينتبه إلى وجودها، لكنّها داست على غُصينٍ انكسر تحت كعبها، فتجمّدتْ في مكانها.

ظهر هناك من البستان. «مدام، إذن فأنتِ تحبّين أضواء النجوم أيضاً. أعتذر عن تطفّلي عليك».

كانت تخاف أن تتحرّك.

أزال المسافةَ بينهما، فاتخذ مكاناً إلى جانبها كأنّه من أهل المكان، يتأمّل في البستان.

- لا يمكن أن يتخيّل المرءُ أنّ حرباً تدور هنا.

خطر لڤيان من صوته أنّه حزين، فذكّرها ذلك بأنّهما يتشابهان على نحوٍ ما، فكلاهما بعيدٌ عن أحبّائه. «قائدكم... قال: إنّ جميع الأسرى سيبقون في ألمانيا. ما معنى ذلك؟ ماذا سيحدث لجنودنا؟ بالتأكيد لم تأسروهم كلّهم».

- لا أدري يا مدام. بعضهم سيعود. وكثيرٌ منهم لن يعودوا.

- «يا سلام. ما أجملها من لحظة صفاءٍ بين صديقَين جديدَين». كان هذا صوت إيزابيل.

جفلتْ ڤيان، وقد ارتعبتْ لأنّ أحداً رآها واقفةً مع ألمانيّ، عدوّ، رجُل.

وقفتْ إيزابيل تحت نور القمر، ترتدي بذلةً بلون الكراميل، تحملُ حقيبتها في يدٍ، وفي اليد الأخرى قبّعة «دوفيل» المفضّلة لدى ڤيان.

قالت ڤيان: «تحملين قبّعتي».

- «قد يتعيّن عليّ أن أنتظر قطاراً. ووجهي ما يزال حسّاساً من القصف الألمانيّ». كانت تبتسم لبيك، وهي تقول ذلك. لم تكن في واقع الأمر ابتسامة.

أمال بيك رأسه في إيماءةٍ سريعة. «من الواضح أنّ لديكما مواضيع خاصّة. سأنصرف». وعاد إلى المنزل بإيماءةٍ خاطفةٍ مهذّبة، ثمّ أغلق الباب وراءه.

قالت إيزابيل: «لا أستطيع البقاء هنا».

- بل تستطيعين.

- لستُ مستعدّةً لأنْ أصادق العدوّ يا ڤي.

- اللعنة يا إيزابيل! لا تعرّضي—

فاقتربتْ إيزابيل منها. «عاجلاً أم آجلاً، سأعرّضكِ أنتِ وصوفي للخطر. تعرفين هذا جيّداً. قلتِ لي: لا بدّ من أن أحمي صوفي. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها حمايتها؛ فلو بقيتُ هنا سأنفجر يا ڤي».

تلاشى غضب ڤيان. فلمّا اختفى شعرتْ بإرهاقٍ لا يوصف. كان هذا هو الفارق الجوهريّ دائماً بينهما. ڤيان تمتثل للقوانين، وإيزابيل تتمرّد عليها. حتّى في صباهما، في غمرة الحُزن، كانت كلّ واحدةٍ منهما تعبّر عن مشاعرها بطريقةٍ مختلفة. لاذتْ ڤيان بالصمت بعد وفاة مامُن، وحاولتْ التظاهر بأنّ تخلّي بابا عنهما لم يجرحها، في حين كانت إيزابيل تنفجر في سورات غضبٍ، وتهرب، وتطالب بالاهتمام. أقسمتْ مامُن أنّهما ستصبحان صديقتَين مقرّبتَين في يومٍ من الأيام؛ أمّا الآن، فقد كان هذا التوقّع في أضعف حالاته.

كانت إيزابيل محقّةً في هذا الأمر؛ فسوف تظلّ ڤيان خائفةً مما قد تقوله أختها، أو تفعله في حضور النقيب. وبأمانةٍ، لم تكن ڤيان تحتمل أن يحدث ذلك.

- كيف سترحلين؟ وإلى أين؟

- بالقطار إلى باريس. سأرسل لكِ برقيّةً حين أصل بالسلامة.

- انتبهي إلى نفسك. لا تقدمي على أيّ حماقة.

- أنا؟ تعرفينني جيّداً.

سحبتْ ڤيان أختها فعانقتها عناقاً قويّاً، ثمّ تركتْها تذهب.

*

كان الطريق إلى المدينة مظلماً للغاية، حتّى إنّ إيزابيل لم تستطع

أن ترى قدمَيها. كان هناك هدوءٌ خارقٌ للعادة، غامرٌ بالترقّب مثل نَفَسٍ مكتوم، إلى أن وصلت عند المطار. وهناك سمعتْ أحذيةً تسير على التراب المرصوص، ودرّاجات ناريّة، وشاحنات تسير إلى جانب الأسلاك الشائكة التي كانت الآن تحمي مستودع الذخائر.

ثمّ ظهرتْ شاحنةٌ من العدم مطفأة الأضواء تشقّ الطريق. ابتعدتْ عن طريقها حتى تعثّرت في خندق.

لم يكن التنقّل سهلاً في البلدة بعد أن أُغلقت المحالّ التجاريّة، وأطفئت أعمدة الإنارة، وأُعتمت النوافذ. كان الصمت مخيفاً مربكاً. في ذلك الصمت بدا صوتُ خطوتها عالياً جدّاً. كانت وهي تخطو كلّ خطوةٍ تعرف أنّها تخرق حظر التجوال المفروض.

ثمّ اتجهتْ صوب أحد الأزقّة، تتلمّس طريقها على طول الرصيف، وأصابعها تمرّ على واجهات المتاجر تسترشد بها. وكلّما سمعت صوتاً، كانت تتجمّد في مكانها، تنكمش في الظلال إلى أن يعود الهدوء. بدا أنَّ الوصول إلى محطّة القطار في طرف البلدة سوف يستغرق دهراً كاملاً.

- توقّفي!

سمعتْ إيزابيل الكلمة في الوقت نفسه الذي غمرها فيه ضوءٌ أبيض. كانت مثل ظلٍّ محدودبٍ تحت ذلك الضوء.

اقترب منها حارسٌ ألمانيّ، يحمل معه بندقيّة. ثمّ قال، وهو يقترب أكثر: «آه، مجرّد فتاة. تعرفين قانون حظر التجوال، يا؟».

نهضتْ ببطء، فواجهتْه بشجاعةٍ لم تشعر بها. «أعلم أنّه من غير المسموح لنا أن نخرج في هذا الوقت المتأخّر، لكنّها حالةٌ طارئة. لا بدّ من أن أذهب إلى باريس. والدي مريض».

- أين الأوسفايس؟

- ليس لديّ هوية.

أنزل بندقيّته عن كتفه وقال: «لا سفر بدون أوسفايس».

- ولكن—

- عودي إلى بيتك يا فتاة قبل أن تتعرّضي للأذى.

- ولكن—

- الآن. قبل أن أقرّر ألّا أغضّ النظر عن وجودك.

كانت إيزابيل تصرخ في داخلها من شدّة الإحباط. وقد تطلّب الأمرُ منها جهداً كبيراً كي تبتعد عن الحارس بدون أن تقول شيئاً.

في طريقها إلى المنزل لم تكن حتّى تحاول التخفّي، فقد كانت تتباهى باستخفافها بحظر التجوال، تتحدّى أن يوقفوها مرّةً أخرى. كان هناك شيءٌ في داخلها يتمنّى أن يقبضوا عليها حتى تُطلق سيل الشتائم الذي يعتمل في رأسها.

لا يمكن أن تكون هذه حياتها، عالقةً في منزلٍ مع نازيٍّ في بلدةٍ خضعتْ بدون أدنى مقاومة. لم تكن ڤيان وحدها التي تريد التظاهر بأنّ ما حدث ليس استسلاماً ولا احتلالاً. ففي البلدة كان أصحاب المقاهي والمحالّ يتسمون للألمان، ويسكبون لهم الشامبانيا، ويبيعون لهم من قطع اللّحم أفضلها؛ أمّا أهل القرية، وأغلبهم من الفلّاحين، فكانوا يهزّون أكتافهم ويمضون في حياتهم. أجل كانوا يتمتمون باستيائهم، ويهزّون رؤوسهم، ويقدّمون إرشادات خاطئة حين يُسألون عن مكان، ولكنْ لم يكن هناك أيّ شيء أكثر من تلك التمرّدات الصغيرة. لا عجب إذنْ أن

ينتفخ الألمان غروراً وعجرفة. لقد استولوا على هذه البلدة بدون قتال. والأنكى أنّهم فعلوا الشيء نفسه في فرنسا بأكملها.

لكنّ إيزابيل لم تستطع نسيان ما رأتْه في الساحة قرب تُور.

حين عادت إلى الغرفة التي كانت غرفتها وهي طفلة، صفقتْ الباب خلفها. وما هي إلّا لحظات حتى شمّت رائحة السجائر، فاشتعل غضبها إلى حدّ الرغبة في الصراخ.

كان موجوداً في الطابق السفليّ، يدخّن سيجارة. كان النقيب بيك، بوجهه المنحوت وابتسامته الزائفة، يستطيع أن يطردهنّ من هذا المنزل متى شاء. بسببٍ، أو من دون سبب. لقد استحال إحباطها غضباً لم تعرف له مثيلاً من قبل. شعرتْ كما لو أنّ في داخلها قنبلةً لا بدّ من أن تنفجر. مجرّد حركةٍ خاطئةٍ، أو كلمةٍ خاطئةٍ، وقد تنفجر.

سارتْ إلى غرفة ڤيان، وفتحت الباب، ثمّ قالت، وهي تزداد حنقاً: «أحتاجُ إلى تصريحٍ لمغادرة البلدة. أولاد الحرام لا يسمحون لنا بركوب قطارٍ لزيارة أهلنا».

قالت ڤيان في ظلمة الغرفة: «هذا هو الحال إذن».

لم تعرف إيزابيل ما إذا كان في صوت أختها نبرة ارتياح أم خيبة أمل.

- اذهبي صباح الغد إلى البلدة، وقفي في الطابور بدلاً منّي وأحضري ما تستطيعين إحضاره.

- ولكن—.

- من دون لكنْ يا إيزابيل. أنتِ هنا الآن وسوف تبقين. حان الوقتُ لكي تتحمّلي جزءاً من المسؤولية. لا بدّ من أنْ تساعديني.

*

حاولتْ إيزابيل طوال الأسبوع التالي أن تكون في قمّة تأدّبها ولباقتها، لكنّ ذلك كان مستحيلاً بوجود ذلك الرجُل معهنّ تحت سقفٍ واحد. كان النوم يجافيها ليلةً بعد ليلة. تستلقي في سريرها، وحيدةً في الظلام، وهي تتخيّل أسوأ ما قد يحدث.

في هذا الصباح، وقبل الفجر بوقتٍ طويل، كفّت عن التظاهر ونهضت من فراشها. غسلتْ وجهها، وارتدتْ ثوباً قطنيّاً، ووضعتْ وشاحاً على شعرها الذبيح، وهي تنزل الدرج إلى الطابق السفليّ.

كانت ڤيان فوق الأريكة تحيكُ شيئاً، وإلى جانبها مصباحٌ زيتي. كانت تبدو شاحبةً سقيمةً في حلقة الضوء التي تفصلها عن الظلام. من الواضح أنّها هي الأخرى لم تحظَ بنومٍ كافٍ هذا الأسبوع. رفعتْ عينَيها تنظر إلى إيزابيل في دهشة. «استيقظتِ باكراً».

– أمامي يومٌ طويل من الوقوف في الطوابير. لمَ لا أبدأ مبكّراً. فالأوّل في الطابور يحصل على أفضل الطعام.

وضعتْ ڤيان عدّة الحياكة جانباً، ونهضتْ. عدّلت ثوبها (في تذكيرٍ آخر على وجود الرجُل في المنزل. فلم تكن هي ولا أختها تنزلان بملابس النوم)، وذهبت إلى المطبخ، ثمّ عادت ببطاقات التموين. «إنّه يوم اللّحم».

أخذتْ إيزابيل البطاقات من ڤيان، وخرجتْ من البيت، تخطو إلى ظلمةِ عالمٍ مُعتم.

بزغ الفجرُ، وهي تمشي، يضيء عالماً داخل عالم، عالماً يبدو للناظر مثل كاريڤو لكنّه غريبٌ تماماً. فلمّا مشتْ من أمام المطار مرّت بها سيّارة خضراء صغيرة كُتب عليها «*POL*».

الغستابو.

كان العمل الدؤوب قد بدأ فعلاً في المطار. رأتْ أربعة حرّاسٍ في الخارج، اثنَين عند المدخل المسوّر الذي شُيّد حديثاً، واثنَين عند أبواب المبنى. كانت الرايات النازيّة ترفرف في نسيم الصباح الباكر، وعدّة طائرات تستعدّ للإقلاع، كي تلقي القنابل على إنجلترا ومناطق أُخرى في أوروبا. كان الحرّاس يسيرون أمام لافتاتٍ حُمرٍ كُتب عليها: **ڤيربوتِن. يُمنع الدخول. العقوبةُ الموت.**

واصلتْ المشي.

حين وصلتْ كانت هناك أربع نساء أمامها في الطابور أمام محلّ الجزارة.

عندها رأتْ قطعة طبشورٍ ملقاة في الطريق، مدسوسةً عند الرصيف. أدركتْ على الفور كيف يمكنها استخدامها.

نظرتْ حولها، لم يكن أحدٌ ينظر إليها. فلماذا ينظرون إليها في وجود جنودِ ألمان في كلّ مكان؟ كان هؤلاء الرجّال يسيرون في البلدة ببزّاتهم العسكريّة كالطواويس، يشترون كلّ ما يلفت أنظارهم. كانوا صاخبين لا يفتؤون يضحكون، مهذّبين يفتحون الأبواب للنساء، يحيّون بلمس قبّعاتهم، لكنّ إيزابيل لم تخدعها تلك المظاهر.

انحنتْ والتقطتْ قطعة الطبشور، فخبّأتها في جيبها. هكذا دبّ فيها شعورٌ رائعٌ مُخاطِرٌ لمجرّد احتفاظها بالطبشور. بعدها ظلّت تدقّ قدمَيها على الأرض في نفاد صبرٍ، وهي تنتظر دورها.

قالت، وهي تعطي بطاقة التموين لزوجة الجزّار: «صباح الخير». كانت هذه تبدو متعبةً بشعرها المتساقط وشفتَيها المزمومتَين.

– عراقيب خنزير. رطلان اثنان. هذا ما تبقّى.

– عظام؟

– الألمان يأخذون كلّ اللحم الجيّد يا مدموازيل. أنتِ محظوظة في الواقع. ألا تعرفين أنّ لحم الخنزير ڤيربوتن على الفرنسيّين؟ لكنّهم لا يريدون العراقيب. تريدينها أم لا؟

قالت امرأةٌ خلفها: «أنا أريدها».

وصاحت امرأةٌ أخرى: «وأنا أيضاً أريدها».

فقالت إيزابيل: «سآخذها». أخذتْ الحزمة الصغيرة الملفوفة في ورقٍ مجعّد مربوطٍ بخيط.

ثمّ سمعتْ في الشارع صوتَ أحذيةٍ عسكريّةٍ تسير على الشارع الحجريّ، وصليل سيوفٍ في أغمادها، وضحكات رجال، ورنين أصواتٍ نسائيّة لفرنسيّات كُنّ دِفء الفِراش. جلس ثلاثة جنودٍ ألمان على طاولةٍ صغيرة في مقهى قريب. قال أحدهم، وهو يلوّح لها: «يا مدموازيل. تفضّلي اشربي القهوة معنا».

تمسّكت بسلّة الصفصاف بما فيها من كنزٍ ملفوفٍ بالورق، على الرغم من أنّه قليل غير كاف، وتجاهلت الجنود. انسلّت إيزابيل إلى زقاقٍ ضيّقٍ متعرّج، مثل كلّ الممرّات في البلدة. كانت المداخل ضيّقة، تبدو من الشارع كأنّها طرقٌ مسدودة. كان أهل البلدة يعرفون كيف يتعاملون معها، كما يعرف صاحبُ القارب نهراً مُوحلاً. تقدّمت بدون أن يلحظها أحد، فكلّ المحالّ في ذلك الزقاق كانت مغلقة.

ثمّة ملصق على نافذة محلّ القبّعات المهجور، فيه رجُلٌ هَرِمٌ، محنيّ الظهر، ذو أنفٍ كبيرٍ أعقف، يبدو من نظرته طمّاعاً وشرّيراً، يحمل كيساً من

المال مخلّفاً وراءه آثار الدماء والجثث. ثمّ رأتْ كلمةً وتوقّفت: جُويف. يهوديّ.

كانت تدرك أنّ عليها الاستمرار في طريقها. كانت مجرّد دِعاية على أيّ حال. محاولةٌ خرقاء من العدوّ لتحميل اليهود أوزار المصائب في العالم، وفي هذه الحرب.

ومع ذلك.

نظرت إلى يسارها. لا يفصلها أكثر من خمسين قدماً عن شارع «لا غرانده»: وهو شارعٌ رئيس يمرّ عبر البلدة. وإلى يمينها منعطفٌ في الزقاق.

مدّت يدها إلى جيبها وأخرجتْ الطبشور. فلمّا تأكّدت من خلوّ المكان، كتبتْ حرف «V» (أوّل حرفٍ من كلمة النصر بالفرنسيّة) بخطٍّ كبير على الملصق، فطمستْ أكبر قدرٍ ممكن من الصورة.

فجأةً أمسك أحدهم معصمها بقوّةٍ، فشهقتْ. سقطتْ قطعةُ الطبشور على الرصيف الحجريّ، ثمّ تدحرجتْ في أحد الشقوق.

دفعها رجُلٌ إلى الملصق الذي شوّهتْه لتوّها، وضغط خدّها على الملصق حتّى لا ترى وجهه. «مدموازيل. هل تعرفين أن ما فعلتِه ڤيربوتن؟ وعقوبته الإعدام؟».

الفصل العاشر

أغمضت ڤيان عينَيها، وقالت في نفسها: عُد سريعاً يا أنطوان.

هذا كلّ ما سمحتْ به لنفسها، هذا الطلب البسيط. فكيف لها أن تتعامل وحدها مع كلّ هذا: الحرب، والنقيب بيك، وإيزابيل؟

كانت تريد أن تحلم في يقظتها، تتظاهر بأنّ عالمها كان مستقيماً لا منقلباً رأساً على عقب. تتظاهر بأنّ باب غرفة الضيوف المغلق لا يعني شيئاً، وأنّ صوفي نامت معها البارحة لا لشيءٍ إلا لأنّ النوم غلبهما في أثناء القراءة، وأنّ أنطوان في الخارج يحتطب لشتاءٍ ما يزال على بعد أشهر. عمّا قريبٍ سيدخل ويقول: أنا ذاهب الآن. لديّ رسائل كثيرة أوصلها. لعلّه يخبرها عن آخر ختمٍ بريديّ رآه، على رسالةٍ من إفريقيا، أو أميركا، ثمّ ينسج حكايةً رومنسيّةً تتماشى معها.

لكنّها أعادت عدّة الحياكة إلى السلّة عند الأريكة، وارتدت حذاءها الطويل، وخرجتْ لقطع الخشب. سيحلُّ الخريف قريباً، ثمّ الشتاء، وقد ذكّرها ما فعله اللاجئون بحديقتها بأنّ حياتها على المحكّ. رفعتْ الفأس، ونزلتْ به على الخشب. بقوّة.

نمسك الفأس، نرفعه، جاهزة، نقطع.

كانت كلّ ضربةٍ تهزّ ذراعَيها وتستقرّ بألمٍ في عضلات كتفَيها. العَرَقُ يتفصّد من مسامّها، يبلّل شعرَها.

- اسمحي لي أن أفعل هذا بدلاً منكِ.

تجمّدتْ ڤيان في مكانها، والفأس معلّقٌ في الهواء.

كان بيك واقفاً على مقربة، يرتدي سرواله القصير وحذاءه الطويل، مع قميصٍ أبيض قصير الكمَّين. كان خدّاه الأبيضان محمرّين من أثر الحِلاقة الصباحيّة، وشعرُه الأشقر مبلّلاً. سقطتْ قطراتٌ على قميصه، فأصبحت حلقاتٍ رماديّةً صغيرة.

شعرتْ ڤيان بعدم ارتياحٍ، وهي ترتدي ذلك الرداء والحذاء الطويل، وقد ثبّتت شعرها في لفافات. أنزلتْ الفأس.

- ثمّة أشياء في البيت يفعلها الرجُل. أنتِ أرقّ من أن تقطعي الخشب.

- أستطيع أن أفعل ذلك.

- طبعاً تستطيعين، ولكن ما الداعي إلى ذلك؟ تفضّلي مدام، اذهبي لابنتك. يمكنني أن أكفيكِ هذا العمل البسيط، وإلّا ضربتْني أمّي بخيزرانة.

كانت تريد أن تتحرّك، لكنّها لم تستطع، فجاء وسحب الفأس برفقٍ من يدها. تمسّكتْ به لحظةً، عفوَ الغريزة.

التقتْ نظرتهما برهةً.

أرختْ ڤيان قبضتها، وتراجعت بسرعةٍ حتّى تعثّرت، فأمسك بها من معصمها وثبّتها. همهمت تشكره، واستدارت تمشي مبتعدة، تحاول أن تبقي قامتها منتصبة قدر الإمكان. وتطلّب الأمر منها كلّ شجاعتها

القليلة كي تمنع نفسها من الإسراع. مع ذلك، فما إنْ وصلت إلى بابها، حتّى شعرت كما لو أنّها جاءت جَرياً من باريس. خلعتْ حذاء الزراعة بركلةٍ منها، فرأته يرتطم بالجدار ويسقط. آخرُ ما كانت تريده لطفٌ من هذا الرجُل الذي غزا بيتها.

صفقتْ الباب خلفها بقوّةٍ، وذهبت إلى المطبخ، فأشعلت الفرن ووضعت قدراً من الماء كي يغلي، ثمّ ذهبت إلى أسفل الدرج ونادت ابنتها كي تنزل لتناول الفطور.

لكنّها اضطُرّت إلى مناداتها مرّتين، ثمّ إلى تهديدها، قبل أن تنزل متثاقلةً، بشَعرٍ أشعث ونظرةٍ واجمة. كانت ترتدي ثوب البحّارة، مرّةً أُخرى. وعلى الرغم من أنّها كبُرت على ذلك الثوب في تلك الأشهر العشرة التي غاب فيها أنطوان، إلّا أنّها لم تتوقّف عن ارتدائه. قالت، وهي تتّخذ مقعدها إلى الطاولة: «أنا مستيقظة».

وضعتْ ڤيان لابنتها وعاءً من عصيدة الذرة. كما أنّها أسرفتْ في هذا الصباح ووضعتْ على العصيدة ملعقةً من الخوخ المحفوظ.

- مامُن؟ هل تسمعين الصوت؟ أحدهم يقرع الباب.

هزّت ڤيان رأسها (فكلّ ما سمعتْه كان طقطقة الفأس)، وذهبتْ تفتح الباب.

كانت راشيل عند الباب تحمل طفلها، وابنتها سارة إلى جانبها. «هل ستدرّسين التلاميذ اليوم بلفائف شعرك هكذا؟».

- «أوه!». شعرتْ ڤيان بأنّها حمقاء. ماذا دهاها؟ كان هذا آخرَ يومٍ دراسيّ قبل ابتداء عطلة الصيف: «هيّا صوفي. تأخّرنا». ثمّ هرعتْ إلى الداخل ونظّفتْ الطاولة. كانت صوفي قد أتت على كلّ ما في صحنها،

فوضعتْه ڤيان في الحوض، وغطّت ما تبقّى من العصيدة، وأخفت الخوخ المحفوظ. بعد ذلك ركضتْ إلى غرفتها في الأعلى كي تستعدّ للمدرسة.

وما هي إلا لحظات حتى أزالت دبابيس شعرها ومشّطته في أمواجٍ ناعمة، ثمّ التقطتْ قبّعتها، وقفّازَيها، وحقيبتها، وخرجتْ من البيت، فوجدتْ راشيل والأطفال في انتظارها في البستان.

كان النقيب بيك هناك أيضاً، واقفاً إلى جانب السقيفة. كان قميصه مبلّلاً في بعض الأجزاء، ملتصقاً بصدره، كاشفاً عن لفافات الشعر من وراء القميص؛ أمّا الفأس، فكان على كتفه.

قال: «مرحباً».

شعرتْ ڤيان بنظرة راشيل المتسائلة.

أخفض بيك الفأس وقال: «هذه صديقتك، مدام؟».

فقالت ڤيان بتوتّر: «راشيل. جارتي. هذا النقيب هير بيك. إنه...الذي يقيم معنا».

فقال بيك مرّةً أخرى، وهو يومئ برأسه في أدب: «مرحباً».

وضعتْ ڤيان يدها على ظهر صوفي ودفعتْها قليلاً، فانطلقنَ فوق العشب الطويل وخرجن إلى الطريق الترابي.

قالت راشيل حين وصلن عند المطار الذي كان ممتلئاً بالحركة خلف الأسلاك الشائكة: «إنّه وسيم. لم تخبريني بذلك».

– هل هو وسيم؟

– أنا واثقةٌ من أنّكِ تعرفين هذا، لذلك سؤالك لافت للانتباه.ما رأيك فيه؟

- ألمانيّ.

- الجنود الذين يقيمون عند كلير مورو يبدون مثل النقانق ذات الأرجل. سمعتُ أنّهم يشربون ما يكفي من الخمر لقتل قاضٍ، ويشخرون مثل خنازير الحرث. يبدو أنّكِ محظوظة.

- أنتِ المحظوظة يا راشيل. لم ينتقل أحد إلى بيتك.

شبكتْ ذراعها بذراع ڤيان وقالت: «أخيراً للفقر فائدة».

- هدّئي من روعك يا ڤيان. سمعتُ أنّ لديهم أوامر بأن يحسنوا التصرّف.

نظرتْ ڤيان إلى صديقتها المقرّبة وقالت: «في الأسبوع الماضي، قصّت إيزابيل شعرها أمام النقيب وقالت له: لا بدّ من أنّ الجَمال ڤيربوتن».

لم تستطع راشيل أن تكتم ابتسامتها تماماً: «أوه!».

- الأمرُ ليس مضحكاً. عصبيّتها هذه قد تعرّضنا للقتل.

هنا تلاشت ابتسامةُ راشيل. «هلّا تحدّثتِ إليها؟».

- يمكنني طبعاً. ولكن متى كانت تستمع إلى كلام أحد؟

*

قالت إيزابيل: «أنت تؤلمني».

أبعدها الرجُل عن الجدار وجرّها إلى الشارع، وكان يتحرّك بسرعةٍ كبيرةٍ حتّى إنّها اضطُرت إلى الركض بجانبه. كانت ترتطم بجدار الزقاق مع كلّ خطوةٍ، وحين تعثّرت بحصاةٍ وكادت تسقط، شدّد قبضته كي تبقى واقفة.

فكّري يا إيزابيل. لا يرتدي زيّا عسكريّاً، فلا بدّ من أن يكون من

الغستابو. وهذا سيّئ. وقد رآها تشوّه الملصق. هل يُعدّ هذا من أعمال التخريب، أو التجسّس، أو مقاومة الاحتلال الألماني؟

لم يكن تفجير جسرٍ، أو بيع أسرارٍ إلى بريطانيا مثلاً.

كنتُ أرسم لوحةً فنيّةً...مزهريّةً ممتلئةً بالورود. لم يكن حرف «V» إشارةً للنصر، وإنّما مزهريّة. لا مقاومة هنا، مجرّد فتاةٍ سخيفةٍ ترسم على الورقة الوحيدة التي وجدتْها، بل إنّني حتى لم أسمع بالجنرال ديغول.

ماذا لو لم يصدّقوها؟

توقّف الرجُل أمام بابٍ من خشب البلّوط به مقرعةٌ على شكل رأس أسد.

قرع الباب أربع مرّات.

- «إ-إلى أين ستأخذني؟». هل كان هذا باباً سرّياً لمركز قيادة الغستابو؟ كانت هناك شائعات تُثار حول محقّقي الغستابو. يُقال: إنّهم قساةٌ ساديّون، ولكن لا أحد لديه الخبر اليقين.

انفتح الباب ببطءٍ، فظهر رجُلٌ هَرِمٌ يرتدي قبّعة «بيريه». ثمّة سيجارةٌ ملفوفةٌ تتدلّى من شفتَيه المكتنزتَين المسودّتَين، فلمّا رأى إيزابيل قطّب جبينه.

قال الرجُل الذي بجانب إيزابيل: «أفسح الطريق». فتنحّى.

جُرّت إيزابيل إلى غرفةٍ ممتلئةٍ بالدخان، حتّى شعرت بحرقةٍ في عينَيها، وهي تنظر حولها. كان محلّ أزياء مهجوراً يبيع قلنسوات وأدوات خياطة. رأت من الضوء الدخانيّ أرفف عرضٍ فارغة دُفع بها نحو الجدران، ومشاجب معدنيّة فارغة مكوّمة في الزاوية. سُدّت واجهةُ المحلّ بالطوب، وأُقفل الباب الخلفيّ الذي يطلّ على شارع «لا غرانده» من الداخل.

كان هناك أربعة رجالٍ في الغرفة: رجُلٌ طويلٌ أشيب الشعر يرتدي أسمالاً ويقف في الزاوية، وولدٌ يجلس إلى جانب الرجُل الهَرِم الذي فتح الباب، وشابٌّ وسيمٌ يرتدي سترةً باليةً، وبنطالاً مهلهلاً، وحذاءً مهترئاً، يجلس إلى طاولة مقهى.

قال الرجُل الذي فتح الباب: «من هذه يا ديدييه؟».

ولأوّل مرةٍ تنظر إيزابيل إلى الذي اختطفها نظرةً واضحة. كان قويّاً ضخماً يبدو مثل رجال السيرك الأقوياء، بوجهٍ كبيرٍ عريض الفكّين.

وقفت منتصبةً قدر الإمكان، ترفع هامتها. كانت تُدرك أنّها تبدو صغيرةً جداً في تنّورتها المنقوشة وبلوزتها الضيّقة، لكنّها أصرّت على ألّا تبدو خائفةً أمامهم.

قال ديدييه، الرجُل الذي أمسك بها: «وجدتُها تكتب حرف V على الملصقات الألمانيّة».

فكوّرتْ إيزابيل قبضتها اليمنى، في محاولةٍ لمحو آثار الطبشور البرتقالي بدون أن يلحظها أحد.

قال الرجُل الهَرِم الواقف في الزاوية: «ما ردّك على هذا؟». من الواضح أنّه رئيسهم.

– ليس عندي طباشير.

– رأيتها بعيني.

قرّرتْ إيزابيل أن تجازف وتجرّب حظّها. قالت للرجُل القوي: «أنتَ لستَ ألمانياً. أراهن بالمال على أنّك فرنسيّ». وقالت للرجُل الهَرِم الذي كان جالساً إلى جانب الولد: «وأنت. أنتَ جزّار الخنازير». لم تعبأ بالولد،

لكنّها قالت للشاب الوسيم في الملابس المهلهلة: «تبدو جائعاً، وأظنّك ترتدي ملابس أخيك، أو ملابس وجدتَها على حبل غسيل. شيوعيّ».

عبسَ في وجهها، وتغيّر موقفُه منها تماماً.

لكنّ اهتمامها كان منصبّاً على الرجُل الواقف في الزاوية. الرجُل المسؤول. خطتْ خطوةً نحوه. «قد تكون آريّاً. ربّما أجبرتَ هؤلاء على أن يكونوا هنا».

فقال جزّار الخنازير: «عرفتُه طوال حياتي يا مدموازيل. وقد حاربتُ مع والده، ووالدك، في سوم. أنتِ إيزابيل روسينيول، وِي؟».

لم تجب. أتُراه فخّاً؟

قال البلشفيّ: «لا جواب». نهض من مقعده، واقترب منها: «أحسنتِ. لماذا كنتِ تكتبين حرف V على الملصق؟».

مرّةً أخرى لَزمت إيزابيل الصمت.

فقال، وقد اقترب منها حتى كاد يلامسها: «اسمي هنري نافار. لسنا ألمان، ولا نعمل معهم يا مدموازيل». وصوّب إليها نظرةً ذات مغزى ثمّ قال: «ليس الكلّ سلبيّاً. والآن، لماذا كنتِ تكتبين على الملصقات؟».

– هذا ما استطعت أن أفعله.

– بمعنى؟

زفرتْ إيزابيل بهدوء. «سمعتُ خطاب ديغول في الإذاعة».

التفتَ هنري إلى مؤخّرة الغرفة، وألقى نظرةً على الرجُل المسنّ. شاهدتْ الرجُلَين يتحدّثان بدون أن ينطقا بكلمة. في النهاية أدركتْ من هو الرئيس. ذلك الشيوعيّ الوسيم. هنري.

في النّهاية قال هنري، وهو يلتفت إليها مرّةً أخرى: «لو كان في وسعك أن تفعلي أكثر من ذلك، فهل تفعلين؟».

- ماذا تقصد؟

- يوجد رجُلٌ في باريس—.

فقاطعه الرجُلُ القويّ مصحّحاً: «مجموعةٌ في واقع الأمر، من موسي دو لوم(*)».

رفع هنري يده. «لا نقول أكثر ممّا ينبغي قوله يا ديدييه. على أيّ حال، يوجد رجُل، طَبّاع، يخاطر بحياته كي يطبع منشوراتٍ نوزّعها. لعلّنا نستطيع فعل شيءٍ إذا ما أيقظنا وعي الفرنسيّين كي يدركوا ما يحدث». تناول هنري حقيبةً جلديّةً معلّقةً على مقعده، وأخرج منها حزمة أوراق، فقفز إليها على الفور عنوانٌ عريضٌ: «يعيش ديغول».

كان النصُّ عبارةً عن رسالةٍ مفتوحة إلى المارشال بيتان تعبّر عن انتقادٍ للاستسلام، جاء في ختامها: نو سوم پو لي جينيرال ديغول. نحن ندعم الجنرال ديغول.

- «طيّب؟». قالها هنري بهدوء، فسمعتْ إيزابيل في تلك الكلمة نداءَ القتال الذي كانت تنتظره. «هل توزّعينها؟».

- أنا؟

- نحنُ شيوعيّون وثوريّون. وهُم يراقبوننا؛ أمّا أنتِ ففتاة. وفتاة جميلة. لا أحد سيشكّ فيكِ.

لم تتردّد إيزابيل لحظة. «سأفعل».

(*) متحف البشر، وهو متحف شهير في باريس يُعنى بالأنثروبولوجيا. (م)

بدأ الرجال يشكرونها، فأسكتْهم هنري. «المطبعيّ يخاطرُ بحياته حين يكتب هذه المنشورات. وهناك شخصٌ يخاطر بحياته حين يطبعها. ونحن نخاطر بحياتنا حين نحضرها إلى هنا؛ أمّا أنتِ يا إيزابيل فستكونين الشخص الذي يمسكون به، وهو يوزّعها..إن أمسكوا بك. واعلمي جيّداً أنّ الأمر ليس مثل كتابة حرف V على ملصق. عقوبة هذا الإعدام».

– لن يمسكوا بي.

فابتسم هنري. «كم عمرك؟».

– تسع عشرة سنة تقريباً.

– أها. وكيف يمكن لشخصٍ صغير السنّ أن يخفي هذه المنشورات عن أسرته؟

– المشكلةُ ليست في أسرتي؛ فهم لا يهتمّون بأمري. ولكن...يوجد جنديٌّ ألمانيٌّ يقيم في بيتنا، وعليّ أن أخرق حظر التجوال.

بدأ هنري يشيح بوجهه. «لن يكون الأمر سهلاً. وأتفهّم إنْ كنتِ خائفة».

خطفتْ إيزابيل الأوراق من يده. «قلتُ سأفعل».

*

طارت إيزابيل فرَحاً. فلأوّل مرّةٍ منذ إعلان الهدنة لا تجد نفسها وحيدةً تماماً في رغبتها بأن تفعل شيئاً من أجل فرنسا. وقد أخبرها الرجال عن عشرات الجماعات المشابهة لجماعتهم في مختلف أنحاء البلاد، يشكّلون مقاومةً تتبع خطى ديغول. وكلّما تحدّثوا، ازداد حماسها للانضمام إليهم. كانت تدرك أنّها ستخاف. (قالوا لها ذلك مراراً).

ولكنْ من السخف أن يهدّد الألمان بإعدام شخصٍ لمجرّد أن يوزّع بضع أوراق. إن أمسكوا بها ستستطيع أن تتصرّف معهم. كانت واثقةً من ذلك. ليس معنى هذا أنّهم سيمسكون بها. فكم من مرّةٍ استطاعت أن تتسلّل من مدرسةٍ مقفلة الأبواب، أو تركب قطاراً من دون تذكرة، أو تخلّص نفسها من مشكلة؟ كان جمالُها دائماً خير معينٍ لها لخرق القوانين بدون عقاب.

سألها هنري، وهو يفتح الباب لها كي تخرج: «كيف نتواصل معك حين تصل إلينا منشورات جديدة؟».

ألقت نظرةً في الشارع، ثمّ قالت: «الشقّة فوق محلّ مدام لا فوي للقبّعات. هل ما تزال شاغرة؟».

أومأ هنري برأسه.

- «حين تكون لديكم منشورات، افتحوا الستائر. سآتي في أقرب وقتٍ ممكن». فقال لها: «اطرقي الباب أربع مرّات، فإن لم نفتح الباب انصرفي». وتوقّف قليلاً ثم قال: «انتبهي إلى نفسك يا إيزابيل».

وأغلق الباب.

حين أصبحتْ وحدها نظرتْ إلى سلّتها. كانت المنشورات موضوعةً تحت قماشٍ من الكتّان مخطّط بالأحمر والأبيض. وفوق ذلك عراقيب الخنزير الملفوفة. لم يكن تمويهاً قويّاً، فلا بدّ من أن تجد طريقةً أفضل.

مشتْ في الزقاق، ثمّ انعطفتْ إلى شارعٍ مزدحم. كانت السماء تعتم شيئاً فشيئاً، فقد قضت النهار كلّه مع الرجال. في ذلك الوقت كانت المحالّ تغلق، ولا يوجد في الشارع إلا الجنود الألمان وبعض النساء اللائي قرّرن

أن يرافقنهم. كانت طاولات المقاهي في الشارع ممتلئةً برجال يرتدون الزيّ العسكريّ، يتناولون ما لذّ وطاب من طعامٍ ونبيذ.

كان على إيزابيل أن تبذل قصارى أعصابها كي تمشي ببطء. وما إن خرجتْ من البلدة حتّى بدأت تركض. فلمّا اقتربت من المطار، وجدتْ نفسها متعرّقةً تلهث، لكنّها لم تتباطأ. فاستمرّت في الركض حتّى وصلت إلى فنائها. أغلقتْ البوّابة خلفها، وانحنت تشهق وتمسك بخاصرتها التي تؤلمها، في محاولةٍ لالتقاط أنفاسها.

- «مدموازيل روسينيول، هل أنتِ بخير؟». فقفزتْ إيزابيل منتصبة.

كان النقيب بيك إلى جانبها. هل كان هناك قبلها؟

قالت، وهي تجاهد كي تبطئ نبضات قلبها: «أيّها النقيب. كان هناك موكب مرّ...و...ركضتُ كي أبتعد عن طريقه».

- موكب؟ لم أر ذلك.

- «مرّ قبل مدّة، لكنّني...لسخافتي نسيتُ الوقت، وأنا أتحدّث إلى صديقتي، و...». ثمّ رسمتْ على وجهها أجمل ابتسامة، ومسحتْ على شعرها المقصوص، كأنّما يهمّها أن تبدو جميلةً أمامه.

- كيف كانت الطوابير اليوم؟

- لا نهاية لها.

- اسمحي لي أن أحمل عنكِ السلّة إلى الداخل.

نظرتْ إلى سلّتها، ورأتْ طرفاً ورقيّاً صغيراً ظاهراً من تحت القماش. «لا، أنا—».

- أرجوكِ! نحن نعرف أصول اللباقة.

التفّت أصابعه الطويلة النظيفة على مقبض السلّة. فلمّا استدار نحو البيت ظلّت إلى جانبه. «رأيتُ مجموعةً كبيرةً عند قاعة البلديّة عصر اليوم. ما الذي تفعله شرطة فيشي هنا؟».

- «آه، لا شيء يستدعي قلقك». وانتظر أمام الباب حتّى تفتحه. تخبّطتْ في توتّر وهي تدير مقبض الباب، إلى أن فتحتْه. وعلى الرغم من أنّه كان يملك كلّ الحق في الدخول متى شاء، إلّا أنه كان ينتظر الدعوة للدخول كما لو أنّه ضيف.

- «إيزابيل، هذه أنتِ؟ أين كنتِ؟». نهضتْ ڤيان عن الأريكة.

- كانت الطوابير فظيعة.

ظهرتْ صوفي من على الأرض بجوار المدفأة، حيث كانت تلعب مع بيبي. «ماذا أحضرتِ اليوم؟».

فأجابت إيزابيل، وهي ترمق السلّة بقلقٍ في يد بيك: «عراقيب خنزير».

قالت ڤيان: «فقط؟ ماذا عن زيت الطبخ؟».

عادتْ صوفي إلى السجّادة المبسوطة على الأرض بعد أن شعرتْ بخيبة أمل.

قالت إيزابيل، وهي تمدّ يدها لأخذ السلّة: «سأضع العراقيب في مخزن اللّحوم».

قال بيك: «لا، أرجوكِ. سأضعها أنا». كان يحدّق في إيزابيل، يراقبها عن كثب، أو ربّما كان هذا شعورها فقط.

أشعلت ڤيان شمعةً وناولتْها إيزابيل. «أسرعي. لا تبدّديها».

كان بيك في غاية اللطف والشهامة، وهو يمضي في المطبخ المعتم، ثمّ يفتح باب القبو.

نزلتْ إيزابيل أوّلاً وهي تضيء الطريق. كانت الدَرَجات الخشبيّة تصرّ تحت قدمَيها، إلى أن وصلتْ إلى الأرضيّة الترابيّة المرصوصة، وبرودة القبو. وبدتْ الرفوفُ الخشبية قريبةً من حولهما حين جاء بيك إلى جانبها. كان الضوء الصادر عن الشمعة يتقافز من أمامهما.

حاولتْ أن تهدّئ الرجفة في يدها، وهي تمدّ يدها لأخذ العراقيب الملفوفة. وضعتْها على الرفّ إلى جانب مؤونتهم المتضائلة.

- «هاتي معكِ ثلاث حبّات بطاطس وحبّة لِفت». فجفلتْ إيزابيل حين سمعتْ صوت ڤيان.

قال بيك: «تبدين مرتبكة. لا أدري، هل هي الكلمة الصحيحة، مدموازيل؟».

الشمعةُ تغمغم بينهما. «كانت هناك كلابٌ كثيرة في البلدة اليوم».

- الغستابو. إنّها تحبّ أصحابها. لا يوجد سبب يدعوك للقلق.

- أنا أخاف...من الكلاب الكبيرة. عضّني كلب ذات مرّة. حين كنتُ طفلة.

ارتسمتْ على وجه بيك ابتسامةٌ مدّدها الضوء لحجمٍ أكبر من حقيقتها. لا تنظر في السلّة. ولكن فات الأوان. رأتْ جانباً أكبر من الأوراق ظاهراً في السلّة.

تكلّفتْ ابتسامةً وقالت: «نحن الفتيات، كما تعرف، نرتعب من كلّ شيء».

- برأيي لا ينطبق هذا الوصف عليكِ يا مدموازيل.

مدّت يدها بحرصٍ إلى السلّة فأخذتْها من قبضته، ثمّ وضعتْها على

الرفّ بعيداً عن ضوء الشمعة، بدون أن تحوّل عينَيها عنه. فلمّا وضعتْها هناك تنفّست الصعداء.

ظلّا يحدّقان في بعضهما في صمتٍ مُربك.

أومأ بيك وقال: «والآن عليّ أن أذهب. جئتُ فقط كي آخذ بعض الأوراق لاجتماعِ هذه الليلة». واستدار ناحية السلّم، وبدأ الصعود.

صعدتْ إيزابيل السلّم الضيّق خلف النقيب. وحين وصلت إلى المطبخ رأتْ ڤيان واقفةً هناك شابكةً ذراعَيها: «أين البطاطس واللفت؟».

- نَسِيت.

تنهّدتْ ڤيان. «اذهبي. أحضريها».

استدارتْ إيزابيل وعادت إلى القبو. وبعد أنْ أخذت البطاطس واللفت، ذهبت إلى السلّة فرفعت الشمعة كي يسقط ضوؤها على السلّة. رأته هناك، طرف الورقة الأبيض الظاهر في الكيس. وبسرعةٍ أخذتْ الأوراق ودسّتها في مشدّها الداخليّ. وهكذا صعدتْ إلى الأعلى مبتسمةً، وهي تحسّ بملمس الأوراق على جلدها.

*

جلستْ إيزابيل مع أختها وابنة أختها على العشاء، تتناول حساءً مشبّعاً بالماء، وخبزاً بائتاً، وهي تحاول التفكير في شيءٍ تقوله، لكنّها لم تجد شيئاً؛ أمّا صوفي (التي بدا أنّها لم تلحظ شيئاً) فقد راحت تحكي قصّةً بعد الأُخرى. كانت إيزابيل تدقّ قدمَيها في توتّر، وهي تصيخ السمع إلى صوتِ درّاجةٍ ناريّةٍ تقترب من البيت، أو طقطقة أحذيةٍ عسكريّةٍ ألمانيّةٍ في الخارج، أو قرعٍ حادٍّ على الباب. وظلّت نظرتُها تُراوح ما بين المطبخ وباب القبو.

قالت ڤيان: «لستِ على طبيعتك هذه الليلة».

تجاهلتْ إيزابيل ملحوظة أختها. وحين انتهَين أخيراً من العشاء، نهضتْ إيزابيل من مقعدها وقالت: «سأغسل الصحون يا ڤي. بإمكانكِ أن تكملي جولة الداما مع صوفي».

فقالت ڤيان بنظرةٍ متشكّكة: «أنتِ تغسلين الصحون؟».

- لا تظلميني، عرضتُ هذا عليكِ من قبل.

- لا أذكر شيئاً كهذا.

جمعتْ إيزابيل طاسات الحساء الفارغة وأدوات المائدة. في الحقيقة كان تريد أن تبقى منشغلة، أن تفعل شيئاً بيدَيها.

بعد ذلك، لم تجدْ إيزابيل شيئاً تفعله. ومرّ الوقتُ بطيئاً في تلك الليلة. لعبتْ ڤيان وصوفي وإيزابيل لعبة «البِلوت»، غير أنّ إيزابيل لم تستطع أن تركّز. كانت مرتبكةً ومستثارة. فتحجّجتْ بعذرٍ سخيفٍ وانسحبتْ من اللعبة باكراً، وهي تتظاهر بأنّها متعبة. صعدتْ إلى غرفتها واستلقتْ على سريرها بكامل ملابسها، تنتظر.

كان الوقتُ قد جاوز منتصف اللّيل حين سمعت صوت بيك عائداً من الخارج. سمعتْه يدخل الفناء، ثمّ شمّت دخان سيجارته. بعد ذلك دخل المنزل، يمشي متثاقلاً بحذائه الطويل، لكنّ الهدوء خيّم على البيت عند الساعة الواحدة. مع ذلك قرّرتْ أن تنتظر. في الرابعة فجراً، نهضتْ من فراشها وارتدتْ سترةً صوفيّةً سوداء ثقيلةً، وتنّورةً صوفيّة. أحدثتْ شقّاً في معطفها الصيفيّ ودسّت الأوراق فيه، ثمّ ارتدتْ المعطف وربطت حزامه عند الخصر. وأخيراً وضعتْ بطاقات التموين في جيبها الأمامي.

في طريقها إلى الأسفل، كانت تجفل من أيّ صوت، وبدا أنّ دهراً

كاملاً ينقضي قبل أن تصل إلى الباب، لكنّها وصلتْ أخيراً، وفتحتْه بهدوء، ثمّ أغلقتْه وراءها.

كان الجوّ في الصباح الباكر بارداً مظلماً. صاح طائرٌ في مكانٍ ما، لعلّها أقلقتْ منامه حين فتحتْ الباب. تنشّقت إيزابيل رائحةَ الورود، وتعجّبتْ كيف كانت تبدو الرائحةُ اعتياديّةً في تلك اللّحظة.

من الآن إذن لم يعد هناك مجال للتراجع.

مشتْ إلى البوابّة المكسورة، لا تفتأ تنظر خلفها إلى البيت المعتم، تتوقّع أن ترى بيك واقفاً شابكاً ذراعيه، مرتدياً حذاءه العسكريّ في وقفةِ محارب، يراقبها.

لكنّها كانتْ وحدها هناك.

محطّتُها الأولى كانت منزل راشيل. لم تكد توجد أيّة رسائل بريديّة في تلك الأيام، لكنّ النساء من أمثال راشيل الذين غاب رجالهنّ، كُنّ يتفقّدن صناديق البريد يوميّاً على أمل أن يصلهنّ خبر.

مدّت إيزابيل يدها إلى معطفها، وشعرتْ بالشقّ في بطانة الحرير، فأخرجتْ ورقةً واحدة. وبحركةٍ واحدةٍ فتحتْ صندوق البريد ودسّت الورقة، ثمّ أغلقتْه بهدوء.

عادتْ إلى الطريق، ونظرتْ حولها فلم تر أحداً.

لقد فَعَلتْها!

محطّتُها الثانية كانت مزرعة الرجُل المسنّ ريڤيت. كان هذا شيوعيّاً خالصاً، من رجال الثورة، وقد فقد ابناً له على الجبهة.

حين وزّعتْ إيزابيل آخر منشورٍ عندها، شعرتْ بأنّها قويّة لا تُقهر. كان

الوقت قد تجاوز الفجر بقليل، فصبّتْ الشمسُ ضوءها الشاحب على أبنية الحجر الجيريّ في البلدة.

كانت أوّل امرأةٍ تصطفّ في الطابور، ولهذا السبب حصلتْ على حصّةٍ كاملةٍ من الزبدة. مئةٍ وخمسين غراماً لذلك الشهر. ثلثَيْ كأس.

ثروة.

الفصل الحادي عشر

ظلّتْ ڤيان طوال ذلك الصيف الطويل الحارّ تستيقظ على قائمةٍ من الأعمال المنزليّة. فاستطاعتْ (مع صوفي وإيزابيل) أنْ تعيد زرع الحديقة، وتحوّل رفّين قديمَين من أرفف الكتب إلى قفصَين للأرانب. استخدمتْ شبكاً صغير الفتحات لإغلاق السقيفة. هكذا أصبح المكان الأكثرَ رومنسيّة في البيت يفوحُ برائحة السّماد الذي جمعْنَه من أجل الحديقة. وأخذتْ بعض الطمي من مُزارعٍ (الرجُل المسنّ ريڤيت) مقابل العلف. لم تكن ڤيان تشعر بالراحة والاسترخاء إلّا في صباحات الأحد حين تصطحب صوفي إلى الكنيسة (فقد رفضتْ إيزابيل حضور القدّاس)، ثمّ تشرب القهوة مع راشيل، تتفيّآن ظلال فنائها الخلفيّ. صديقتان تتحدّثان وتضحكان وتمزحان. كانت إيزابيل تنضمّ إليهما أحياناً، لكنّها في الغالب كانت تلعب مع الأطفال أكثر ممّا تتحدّث إلى المرأتين. ولم تجد ڤيان غضاضةً في ذلك.

كانت الأعمال التي تقوم بها ضروريّةً بالطبع؛ إذْ كانت سبيلاً جديداً للاستعداد لشتاءٍ قد يبدو بعيداً، لكنّه سيحلّ كضيفٍ ثقيلٍ في أسوأ وقتٍ ممكن. والأهمُّ من ذلك أنّ تلك الأعمال كانت تشغل عقل ڤيان. فحين

تعمل في حديقتها، أو تغلي الفراولة، أو تخلّل الخيار، لا تفكّر في أنطوان وطول غيابه. كانت الحَيرة هي التي تنخر فيها. فهل كان أسير حرب؟ هل أُصيب؟ قُتل؟ أم إنّها ستراه ذات يومٍ يمشي في هذا الطريق مبتسماً؟

كانت تقضي سحابة ليلها في الشوق إليه، والقلق.

في ذلك العالم المتخم بالأنباء السيّئة والصمت، كان الشيء الوحيد المفرح هو أنّ النقيب بيك يقضي معظم أيّام الصيف بعيداً في حملةٍ من حملاتهم. استقرّ المنزلُ في غيابه وكان له نظامٌ معيّن، حتّى إيزابيل كانت تفعل ما يُطلب منها بدون تذمّر.

كان ذلك في تشرين الأول/ أكتوبر، والجوّ بارد. وجدتْ ڤيان نفسها شاردة الذهن، وهي تمشي عائدةً إلى البيت مع صوفي. كانت تشعر أنّ فردةً من كعب حذائها بدأتْ تتفكّك، فلم تكن ثابتةً تماماً في مشيتها. بدا أنّ حذاءها الأسود المصنوع من جلد الماعز لا يصلح للاستخدام اليوميّ كما كانت تفعل به في الأشهر القليلة الماضية، فقد بدأ نَعلُ الحذاء يتراخى عند الإصبع، ما يجعلها تتعثّر أحياناً. كان همُّ ابتياع أغراضٍ جديدةٍ يلوح في الأفق؛ فبطاقات التموين لا تعني وجود أحذيةٍ يُمكن أن تُشترى، ولا حتّى طعام.

وضعتْ ڤيان يدها على كتف صوفي، كي تثبّت مشيتها، وكي تظلّ ابنتُها قريبةً منها أيضاً. جنودٌ نازيّون منتشرون في كلّ مكان، في الشاحنات، وعلى الدرّاجات المزوّدة بالرشّاشات على جوانبها. كانوا يسيرون في الساحة، وأصواتهم تعلو بنشيد انتصار.

زمّرتْ لهما شاحنةٌ عسكريّة، فتحرّكتا إلى الرصيف كي يمرّ الموكبُ العسكريّ. مزيدٌ من النازيّين.

قالت صوفي: «هل هذه طنط إيزابيل؟».

فنظرتْ ڤيان في الاتّجاه الذي أشارت إليه صوفي. بكلّ تأكيد، كانت إيزابيل خارجةً من زقاقٍ، وهي تمسك بسلّتها. لقد بدتْ... «متخفّية». كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي تخطر بالبال.

«متخفّية». وعندها تجمّعتْ عدّة قطعٍ صغيرةٍ في مكانها. ثمّة أشياء غريبة متناقضة أصبحتْ تشكّل نسقاً واضحاً. كانت إيزابيل كثيراً ما تغادر البيت في الساعات الأولى من الصباح، أبكر بكثيرٍ مما يلزم. وكانت تقدّم عشراتٍ من الأعذار الطويلة على غيابها الذي لم تكن ڤيان تعبأ به: كعوبٌ تنكسر، وقبّعاتٌ تطيّرها الرياح لا بدّ من اللحاق بها، وكلبٌ أفزعها وسدّ طريقها.

أتُراها كانت تتسلّل لكي تقابل شاباً؟

صاحت صوفي: «طنط إيزابيل!».

وبدون أن تنتظر صوفي ردّاً، أو إذناً، اندفعت في الشارع، فمرّت من أمام ثلاثة جنودٍ ألمان يتقاذفون الكرة.

همهمتْ ڤيان: «ميرد». ثمّ قالت: «پاردون». وهي تمرّ من خلف الجنود وتمضي فوق الشارع.

سمعتْ صوفي تسأل خالتها، وهي تمدّ يدها إلى السلّة: «ماذا أحضرتِ لنا اليوم؟».

فضربتْ إيزابيل يدَ صوفي. بقوّة.

صرختْ صوفي وسحبتْ يدها.

فنهرتْها ڤيان: «إيزابيل! ما بك؟».

كان من حسن حظّ إيزابيل أنّها تتورّد خجلاً، فقالت: «آسفة. أنا متعبةٌ لا أكثر. وقفتُ في الطوابير طوال اليوم. والنتيجة؟ قطعةُ عظمٍ لا تكاد تحتوي على أيّ لحم، وعلبة حليب. الأمر محبط. مع ذلك لا ينبغي أن أكون فظّة. آسفة يا صوفي».

قالت ڤيان: «ربّما لن تشعري بالتعب إن لم تتسلّلي من البيت في الصباح الباكر».

– أنا لا أتسلّل، بل أذهب إلى المحالّ لإحضار الطعام. أنتِ طلبتِ منّي ذلك. وبالمناسبة، نحتاج إلى درّاجةٍ هوائية. المشي إلى البلدة بحذاءٍ تالفٍ يقتلني.

تمنّتْ ڤيان لو كانت تعرف أختها بما يكفي لتفهمها من نظرتها. أتراها كانت نظرة إحساسٍ بالذنب؟ أم قلقٍ أم تحدٍ؟ شيءٌ في داخلها يقول: إنّها نظرة اعتزاز.

شبكتْ صوفي ذراعها بذراع إيزابيل، وهنّ يمشين إلى المنزل.

كانت ڤيان تجاهد كي تتجاهل التغيّرات التي حلّت بكاريڤو، من احتلال النازيّين لمساحاتٍ كبيرة من الأرض، وانتشار الملصقات على الجدران (كانت المنشورات الجديدة المعادية لليهود مقزّزة)، وأعلام الصليب المعقوف المعلّقة على الأبواب والشرفات. وقد بدأ الناس يرحلون عن كاريڤو، تاركين منازلهم للألمان. يُقال: إنّهم ذاهبون إلى المنطقة الحرّة، ولكن لا أحد يعرف على وجه الدقّة. كانت المحالُّ تُغلق ولا تفتح من جديد.

سمعتْ ڤيان خطواتٍ تقترب من خلفها، فقالت بهدوء: «لنسرع».

– مدام مورياك. تسمحين لي بلحظة؟

فتمتمتْ إيزابيل: «ربّاه، أيُلاحقك؟».

استدارت ڤيان ببطء. «هير نقيب». كان الناس في الشارع يراقبون ڤيان عن كثب، يضيّقون أعينهم في استنكار.

قال بيك: «أردت فقط أن أخبركِ بأنّني سأتأخّر الليلة، ومع الأسف لن أكون موجوداً للعشاء».

فقالت إيزابيل بنبرةٍ ساخرةٍ خفيّة: «مؤسف جدّاً».

حاولتْ ڤيان أن تبتسم، لكنّها في الحقيقة لم تعرف لماذا أوقفها في الطريق. «سأبقي لكَ شيئاً من—».

- «ناين، ناين. هذا من لطفك». ثمّ سكتْ.

سكتتْ ڤيان أيضاً.

وأخيراً تنهّدتْ إيزابيل بقوّة. «نحن في طريقنا إلى البيت هير نقيب».

فقالت ڤيان: «هل من خدمةٍ أقدّمها لك، هير نقيب؟».

اقترب بيك منها. «أعرف أنّكِ قلقةٌ جدّاً على زوجك؛ لذلك تحرّيتُ عن الأمر».

- أوه!

- «ليس خبراً جيّداً. يحزنني أن أبلغكِ بأنّ زوجكِ أنطوان مورياك قد أُسر مع كثيرين من أهل البلدة. وهو الآن في معتقلٍ للأسرى». ثمّ ناولها قائمة أسماءٍ، ومجموعةً من البطاقات البريديّة الرسميّة: «لن يعود».

*

لم تذكر ڤيان كيف غادرت البلدة. كانت تعرف أنّ إيزابيل إلى جانبها تسندها، وتحثّها على أن تحرّك قدميها ببطءٍ لكي تمشي، وأنّ صوفي كانت

إلى جانبها أيضاً تكيل عليها بأسئلةٍ تقطّع جسدها. ما معنى أسير حرب؟ ماذا كان هير نقيب يقصد حين قال: إنّ بابّا لن يعود؟ أبداً؟

أدركت ڤيان أنهنّ وصلنَ إلى المنزل؛ لأنّ روائح الحديقة حيّتْها ورحّبتْ بها. طرفتْ بعينها، فشعرتْ كما لو أنّها استيقظتْ للتوّ من غيبوبةٍ فوجدتْ العالم قد تغيّر. قالت إيزابيل بحزم: «صوفي، اذهبي وأعدّي لأمّك فنجان قهوة. افتحي علبة حليب».

- ولكن—.

- اذهبي!

فلمّا ذهبتْ صوفي، التفتت إيزابيل إلى ڤيان، ووضعتْ يدَيها الباردتَين على وجه أختها. - سيكون بخير.

كانت ڤيان تشعر كما لو أنّها تتمزّق قطعةً قطعة، دماؤها تسيل وعظامها تتكسّر، وهي تفكّر في شيءٍ كانت تحرص على أن تتجنّب التفكير فيه؛ الحياة من دونه. بدأتْ ترتعش، واصطكّت أسنانها.

- تعالَي كي تشربي القهوة.

تدخل البيت؟ بيتهما؟ طيفُه سيكون حاضراً في كلّ مَكان. في انبعاجة الأريكة حيث كان يجلس ليقرأ، في المشجب الذي كان يعلّق معطفه عليه. في السرير.

هزّتْ رأسها، رجاةَ أن تستطيع البكاء، ولكنْ لا دموع في عينَيها. لقد أفرغَها ذلك الخبر تماماً. لم تكن تستطيع حتّى أن تتنفّس.

وفجأةً لم تعد تفكّر في شيءٍ إلّا سِتْرته التي ترتديها. بدأتْ تخلع ملابسها، تمزّق المعطف والصديريّ (متجاهلةً صرخة إيزابيل: لا!)، ثمّ

تضع السترة فوق رأسها وتدفن وجهها في صوفها الناعم، تحاول أن تشمّ رائحته. رائحة صابونه المفضّل. رائحته.

فلم تجد شيئاً سوى رائحتها هي. أبعدتْ السترة عن وجهها، وأخذتْ تحدّق فيها، تحاول أن تتذكّر آخر مرّةٍ ارتداها فيها. التقطتْ خيطاً فانحلّ في يدها، فصار لفافةً من غزلٍ خمريّ اللّون. عضّت الخيط وعقدت عقدةً كي تحافظ على ما تبقّى من الكمّ. كانت الخيوطُ شيئاً ثميناً في تلك الأيّام. تلك الأيّام.

حين كان العالم في حالة حربٍ، وكلّ شيءٍ شحيحاً، والزوج غائباً. «لا أعرف كيف أبقى وحدي».

- لقد كنّا وحدنا سنواتٍ طويلة. منذ أن ماتت مامُن.

طرفتْ ڤيان بعينها. بدتْ لها كلمات أختها مختلطة، كما لو أنّها تُقال بسرعةٍ خاطئة. قالت: «أنتِ كنتِ وحدك؛ أمّا أنا، فلم أكن وحدي قطّ. التقيتُ أنطوان حين كنتُ في الرابعة عشرة، وحملتُ منه في السادسة عشرة، وتزوّجته بمجرّد أن أكملتُ السابعة عشرة. أعطاني پاپا هذا البيت كي يتخلّص منّي. كما ترين إذن، لم أكن وحدي قطّ؛ ولهذا السبب أنتِ قويّة، وأنا لا».

فقالت إيزابيل: «يجب أن تكوني قويّة. من أجل صوفي».

أخذتْ ڤيان نفساً عميقاً. هذا هو السبب. السبب في أنّها لا تستطيع أن تتناول شيئاً من الزرنيخ، أو تلقي بنفسها تحت قطار. فأخذتْ اللفافة الصغيرة وربَطَتها بغصن شجرة تفّاح. كان اللون الخمريّ بارزاً بين الأخضر والبنّي. والآن، في كلّ يومٍ حين تمشي إلى البوّابة، أو تقطف

التفّاح في حديقتها، ستمرّ بهذا الغصن وترى ذلك الخيط وتذكر أنطوان. وفي كلّ مرّةٍ ستناجيه وتناجي ربّها: عُد إلينا.

- «تعالَي». لفّت إيزابيل أختها بذراعها واحتضنتْها. في الداخل، كان البيتُ يردّد صدى رجُلٍ لم يكن حاضراً.

*

وقفتْ ڤيان عند كوخ راشيل الحجري، ومن فوقها كانت السماء بلون الدخان في ذلك العصر البارد. كانت أوراق الشجر (الأقحوانيّة، والبرتقاليّة، والقرمزيّة) قد بدأتْ تتلوّن بلونٍ قاتمٍ عند أطرافها. عمّا قريبٍ ستسقط على الأرض.

حدّقتْ ڤيان في الباب، وهي تتمنّى لو لم تُضطرّ إلى المجيء، لكنّها قرأتْ الأسماء التي أعطاها إيّاها النقيب. كان مارك دو شامپلان في القائمة أيضاً. فلمّا استجمعتْ شجاعتها أخيراً وقرعت الباب، أجابتها راشيل على الفور تقريباً. كانت ترتدي ثوباً بيتيّاً قديماً، وجوربَين صوفيّين مهلهلَين، وقد علّقت على كتفيها سترةً لم تغلق أزرارها كما ينبغي. بدا منظرها ماثلاً، غريباً.

- ڤيان! تعالي. أنا وسارة نطبخ عصيدة رزّ. أغلبها ماء وجيلاتين طبعاً، لكنّني استخدمتُ قليلاً من الحليب أيضاً.

أجبرتْ ڤيان نفسها على الابتسام، وسمحتْ لصديقتها بأن تسحبها معها إلى المطبخ وتصبّ لها فنجاناً من قهوةٍ مرّةٍ صناعيّة، فهذا كلّ ما كان يمكن الحصول عليه.

كانت ڤيان تعلّق على عصيدة الرزّ (ولم تكن تدري ماذا تقول)، فالتفتتْ إليها راشيل: «ما الأمر؟».

حدّقتْ ڤيان في وجه صديقتها. كانت تودّ أن تكون قويّة، ولو لمرّةٍ واحدةٍ، لكنّها لم تستطع أن تمنع الدموع التي ملأتْ عينَيها.

فقالت راشيل لسارة: «اجلسي في المطبخ. وإنْ استيقظ أخوكِ أحضريه». ثمّ قالت لڤيان: «وأنتِ، تعالي معي». أخذتها من ذراعها عبر الصالة الصغيرة، ودخلتا غرفة راشيل.

جلستْ ڤيان على السرير ونظرتْ إلى صديقتها. وبصمتٍ أخرجتْ قائمة الأسماء التي أخذتْها من بيك. «هؤلاء أسرى الحرب يا راشيل. أنطوان ومارك والبقيّة. لن يعودوا».

*

بعد ثلاثة أيام، في صباح سَبتٍ قارس، كانت ڤيان تقف في صفّها تحدّق في مجموعةٍ من النساء الجالسات على مقاعد صغيرةٍ جداً عليهنّ. بدا عليهنّ التعب والحذر. فلم يكن هناك أحد يرتاح لفكرة التجمّعات في هذه الأيّام. لم يكن واضحاً مدى انطباق ڤيربوتن على الكلام عن الحرب. علاوةً على ذلك فقد كانت نساء كاريڤو منهكات. كُنّ يقضين النهار في الطوابير كي يحصلن على طعامٍ غير كافٍ، أو يطفنَ في الريف يجمعن الكلأ، أو يحاولن بيع حذاء رقصٍ، أو وشاحٍ حريريٍّ بمبلغٍ يكفي لشراء رغيفٍ من الخبز الجيّد. في آخر الصفّ كانت صوفي وسارة جالستَين تقرآن، تسند كلٌّ منهما الأُخرى بظهرها.

نقلتْ راشيل ابنها النائم من كتفها إلى الآخر، وأغلقتْ باب الصف. «شكراً لكنّ على الحضور. أعلم كم هو صعب في هذه الأيّام أن نفعل أيّ شيء آخر أكثر من الضروريّات الحتميّة». فهمهمت النساء موافقات.

سألتْ مدام فورنييه بتعب: «ما سبب اجتماعنا؟».

فتقدّمتْ ڤيان. لم تكن تشعر بارتياحٍ تجاه بعض النساء؛ إذ كَرِهَها كثيرٌ منهنّ منذ أن جاءت إلى كاريڤو وهي في الرابعة عشرة. وعندما «اصطادت» أنطوان (أكثر الشباب وسامةً في البلدة) ازددن نفوراً منها. تلك أيّامٌ خلتْ بطبيعة الحال، وقد أصبحت تربطها علاقاتٌ ودّية بهؤلاء النساء، كما أنّها تعلّم أولادهنّ، وترتاد محالّهن. مع ذلك، فقد ظلّت في النفس بقايا غير مريحةٍ من ذكريات المراهقة. «لقد وصلت إليّ قائمةٌ بأسرى الحرب الفرنسيّين من كاريڤو. ويحزنني جدّاً، جدّاً، إبلاغكنّ بأنّ أزواجكنّ، وزوجي، وزوج راشيل، في هذه القائمة. وقد قيل لي: إنّهم لن يعودوا».

سكتتْ قليلاً، لتعطي النساء فرصةً للتعبير عن مشاعرهنّ؛ إذْ تغيّرت الوجوه من أثر الحزن والفقد. كانت ڤيان تدرك أنّ ذلك الألم إنّما يماثل ألمها، لكنّها لم تستطع أن تشاهدهنّ، فبدأت تذرف الدموع. اقتربتْ منها راشيل، وأمسكتْ يدها.

قالت ڤيان: «حصلتُ على بطاقاتٍ بريديّة. رسميّة. كي نستطيع أن نرسل رسائل إلى أزواجنا».

فسألتْها مدام فورنييه وهي تمسح عينَيها: «وكيف حصلتِ على كلّ هذه البطاقات؟».

قالت هيلين رويل، زوجة الخبّاز: «طلبتْ من ألمانيّها هذه الخدمة».

فقالت ڤيان: «لم أطلب! وليس ألمانيَّ. إنّه جنديٌّ جاء يستولي على بيتي. فهل أترك للألمان بيتي؟ أرحل هكذا فقط؟ لقد أخذوا كلّ بيتٍ وكلّ فندق فيه غرفةٌ فارغة. لستُ الوحيدة».

تزايدت الهمهمات. أومأت بعض النساء، فيما راحت أخريات يهززن رؤوسهنّ.

قالت هيلين: «لو كنتُ مكانك لقتلتُ نفسي قبل أن أسمح لأحدٍ منهم بالسكن في بيتي».

– صحيح يا هيلين؟ حقاً؟ وهل ستقتلين أطفالك أوّلاً أم تلقين بهم في الشارع كي يتدبّروا أمرهم بأنفسهم؟

فأشاحتْ هيلين بوجهها.

قالت امرأة: «لقد استولوا على فندقي. هم محترمون في الغالب. بهم شيءٌ من الجلافة ربّما. ومبذّرون».

فقالت هيلين بقرف: «محترمون! نحن لسنا سوى خنازير للذبح. سترين. خنازير استسلمت بدون قتال».

قالت مدام فورنييه لڤيان بنبرةٍ ذات مغزى: «لم أركِ قريباً في محلّ جزارتي».

فأجابتها ڤيان: «أختي تذهب بدلاً منّي». كانت تعرف أنّ هذا مبعث استنكارهن. كنّ يخشين من أنّ ڤيان ستحصل على امتيازاتٍ خاصّة لن يحصلنَ عليها: «أرفضُ أن آخذ طعاماً، أو أيّ شيءٍ من العدوّ». وشعرتْ فجأةً كما لو أنّها عادتْ إلى أيّام المدرسة، تتنمّر عليها الطالباتُ المعروفات.

قالت راشيل بحزمٍ كافٍ لإخراسهنّ: «ڤيان تحاول أن تساعدنا». وأخذتْ البطاقات البريديّة من ڤيان وبدأتْ توزّعها.

اتّخذت ڤيان مقعداً وحدّقتْ في بطاقتها الفارغة.

كانت تسمع صرير أقلام الرصاص الأخرى على البطاقات، فبدأتْ تكتب شيئاً فشيئاً.

حبيبي أنطوان:

نحن بخير. صوفي تكبر، وعلى الرغم من الكثير من أعمال البيت، إلّا أنّنا وجدنا وقتاً هذا الصيف كي نذهب إلى عند النهر.

نحن، أنا أفكّر فيكَ مع كلّ نَفَس وأدعو أن تكون بخير. لا تقلق علينا، وعد إلينا سالماً.

جو تيم يا أنطوان.

كان خطّ الرسالة صغيراً للغاية، حتّى إنّها تساءلت ما إذا كان سيستطيع أن يقرأها.

أو سيحصل عليها.

أو إذا كان حيّاً.

ربّاه.. كانت تبكي.

جاءتْ راشيل إلى جانبها، ووضعتْ كفّها على كتفها. قالت لها بهدوء: «كلّنا لدينا هذا الشعور».

بعد لحظات، نهضت النساء واحدةً بعد الأخرى. وبدون أيّ كلمة، تقدّمنَ وسلّمن البطاقات لڤيان.

قالت راشيل: «لا يجرحنّك كلامهنّ. فهنّ خائفات لا أكثر».

– أنا خائفةٌ أيضاً.

ضغطتْ راشيل بطاقتها البريديّة على صدرها، وأصابعها تتحسّس الورقة الصغيرة كما لو أنّها تريد أن تلمس كل جزءٍ فيها. «كيف لنا ألّا نخاف؟».

*

بعد ذلك، حين عدنَ إلى لو جاردان، وجدنَ درّاجة بيك برشّاشها المثبّت إلى جانبها مركونةً عند البوّابة.

التفتت راشيل إلى ڤيان. «هل تريدين أن ندخل معك؟».

قدّرت ڤيان شعور راشيل بالقلق عليها، وكانت تعرف أنّها لو طلبت المساعدة من راشيل فلن تتردّد. ولكن أيُّ شيءٍ يساعدها الآن؟

- لا، ميرسي. الأمر هيّن. لعلّه نسي شيئاً، وسوف يخرج مرّةً أخرى. لا يبقى في البيت إلّا نادراً هذه الأيّام.

- أين إيزابيل؟

- «سؤالٌ جيّد. تتسلّل كل صباح جمعةٍ قبل شروق الشمس». ثمّ مالتْ على راشيل وهمستْ لها: «أظنّها تقابل شاباً».

- خيرٌ لها.

فلم تجد ڤيان ردّاً على ذلك.

سألتْها راشيل: «هل سيرسل البطاقات لنا؟».

- «أرجو ذلك». حدّقت ڤيان في صديقتها لحظةً أُخرى، ثمّ قالت: «عموماً، سنعرف قريباً». وقادت صوفي إلى داخل البيت. فلمّا دخلتْ قالت لصوفي أنْ تصعد إلى الغرفة لتقرأ. كانت ابنتُها معتادةً على هذه التوجيهات، فلم تمانع. في الواقع كانت ڤيان تحاول أن تبعد صوفي عن بيك قدر الإمكان.

كان جالساً إلى طاولة الطعام ينظر في أوراقٍ أمامه. فلمّا دخلتْ رفع عينَيه، وسقطتْ قطرةُ حبرٍ من قلمه فانفجرتْ على الورقة البيضاء. «مدام. رائع جداً. سعيدٌ بعودتك».

تقدّمت منه بحذرٍ، وهي ممسكةٌ بالبطاقات البريدية. كانت مربوطةً بخيط. «لديّ...بعض البطاقات البريديّة...كتبتْها صديقاتي في البلدة... إلى أزواجنا...لكنّنا لا نعرف أين نرسلها. كنتُ أرجو...ربما تستطيع مساعدتنا».

انتقلتْ من قدمٍ إلى الأخرى في ارتباك، وهي تشعر بأنّها ضعيفةٌ للغاية.

– «بالتأكيد مدام. يسعدني أن أقدّم لكِ هذه الخدمة. على الرغم من أنّ الأمر سيتطلّب كثيراً من الوقت والبحث». نهض تأدّباً: «يصادف أنّني الآن أعدّ قائمةً لرؤسائي في القيادة. يريدون أن يعرفوا أسماء بعض المعلّمين في مدرستك».

– «أوه». لم تكن تدري لماذا يخبرها بذلك. فلم يكن يتحدّث عن عمله قطّ. طبعاً لم يكونا يتحدّثان كثيراً عن أيّ شيء.

– يهود. شيوعيّون. مثليّون. ماسونيّون. شهود يَهْوَه. هل تعرفين هؤلاء؟

– أنا كاثوليكيّة كما تعلم يا هير نقيب. ونحن لا نتحدّث عن هذه الأشياء في المدرسة. وعلى أيّ حال لا أكاد أعرف من هُم المثليّون والماسونيّون.

– آه. إذن تعرفين الآخرين.

– لم أفهم.

– غير واضح؟ المعذرة. سأكون ممتنّاً لكِ لو أخبرتني بأسماء المعلّمين في مدرستك من اليهود والشيوعيّين.

– ولماذا تريد أسماءهم؟

– «مجرّد عملٍ مكتبيّ. تعرفيننا نحن الألمان، نحبّ إعداد القوائم». ابتسم وسحب لها كرسيّاً.

حدّقتْ ڤيان في الورقة الفارغة على الطاولة، ثمّ في البطاقات البريديّة في يدها. لو أنّ أنطوان تلقّى بطاقةً واحدةً، فربّما يرسل ردّاً عليها. وقد تعرف أخيراً ما إذا كان حيّاً. «هذه ليست معلومات سرّية، هير نقيب. أيّ شخصٍ يستطيع أن يزوّدكم بهذه الأسماء».

اقترب منها. «ببعض الجهد فقط يا مدام، أظنّني أستطيع العثور على عنوان زوجك وإرسال طردٍ له أيضاً. هل هذا سونغين؟».

– «سونغين ليست الكلمة الصحيحة، هير نقيب. أنت تقصد أن تسألني ما إذا كان الأمر حسناً». كانت تُدرك أنّها تماطله. والأسوأ أنّها كانت واثقةً من أنه يُدرك ذلك أيضاً.

– «آه. شكراً لكِ على تعليمي لغتكِ الجميلة. اعتذاري». قدّم لها قلماً: «لا تقلقي، مدام. الأمر مكتبيٌّ صرف».

كانت ڤيان تريد أن تقول له: إنّها لن تكتب أيّ أسماء، ولكن ما الفائدة؟ كان من السهل عليه أن يحصل على تلك المعلومات في البلدة. الجميع يعرفون تلك الأسماء. ولو تحدّته ڤيان فقد يطردها من بيتها، فكيف تتصرّف عندئذ؟

جلست والتقطتْ القلم وبدأت في كتابة الأسماء. ولم تتوقّف إلا حين وصلت إلى نهاية القائمة ورفعت القلم. قالت بصوتٍ رقيق: «لقد انتهيت».

– لقد نسيتِ صديقتك.

– حقاً؟

– أنا واثقٌ من أنّكِ كنتِ تتحرّين الدقّة.

عضّتْ شفتها بعصبيّةٍ ونظرتْ إلى قائمة الأسماء. فجأةً اقتنعتْ بأنّها

ما كان ينبغي لها أن تفعل ذلك. ولكنْ هل لديها خيار آخر؟ بيتها في يده. فماذا سيحدث لو عارضتْه؟ وفي النهاية، شعرتْ باشمئزازٍ شديدٍ، وهي تكتب الاسم الأخير في القائمة.

راشيل دو شامبلان.

الفصل الثاني عشر

في صباحٍ باردٍ من أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر، استيقظتْ ڤيان، والدّموع تسيل على خدّيها. كانت تحلم بأنطوان مرّةً أُخرى.

نهضتْ عن سريرها، وهي تتنهّد، حريصةً على ألّا توقظ صوفي. كانت ڤيان قد نامت بثيابها، مرتديةً صديريّاً صوفيّاً، وسترةً طويلة الكمَّين، وجوربَين صوفيَّين، وسروالاً مقلّماً (كان سروال أنطوان، فقصّته على مقاسها)، وقبّعةً مغزولةً وقفّازَين. أصبح ارتداء طبقاتٍ من الملابس هو السائد الآن، على الرغم من أنّ أعياد الميلاد لم تأتِ بعد. وارتدتْ فوق ذلك سترةً، لكنّها ما تزال تشعر بالبرد.

حفرتْ يدَيها المقفَّزتَين في شِقّ الفراش، واستخرجتْ الحقيبةَ التي تركها لها أنطوان. لم يبقَ فيها مالٌ كثير. عمّا قريب سيُضطرّون إلى الاعتماد على راتبها من التدريس وحدَه. أعادت المال إلى مكانه (فقد أصبح عدّ النقود هوَساً لديها منذ أن أصبح الطقس بارداً)، ونزلتْ.

لم يعد هناك ما يكفي من أيّ شيء. كانت أنابيب الماء تتجمّد ليلاً، فلا يصل الماءُ إلّا في منتصف النهار. وقد أخذتْ ڤيان على عاتقها أن

تترك دلاءً مملوءةً بالماء عند الفرن والموقد من أجل الغسيل. حتّى الغاز والكهرباء كانا شحيحَين، كشحّ المال المطلوب لتوفيرهما، لذلك كانت تقتّر فيهما. كانت تخفض حدّة اللهب في الفرن قدر الإمكان، حتّى كان بالكاد يكفي لغلي الماء؛ أمّا الأضواء، فكانوا نادراً ما يشعلونها.

أشعلتْ ڤيان ناراً، ثمّ لفّت نفسها بلحافٍ ثقيلٍ، وجلست فوق الأريكة، وإلى جانبها كيسُ خيوطٍ سَحَبَتْها من سترةٍ قديمة. كانت تحيك لصوفي وشاحاً لأعياد الميلاد، وهذه الساعات المبكّرة من الصباح فرصتها الوحيدة.

لا رفيق معها سوى صرير البيت، فركّزت على الخيوط الزرق الباهتة والطريقة التي تدخل بها إبر الحياكة وتخرج، فتشكّل في كلّ حركةٍ شيئاً لم يكن موجوداً. كان هذا الأمر يهدّئ أعصابها، بعد أن كان طقساً صباحيّاً عاديّاً. فهي حين تُرخي حبل أفكارها، قد تتذكّر أمّها جالسةً إلى جانبها، تعلّمها: «تعقدين واحداً، ثمّ تدوّرين اثنين..نعم هكذا..ممتاز..».

أو ربّما تذكر أنطوان، وهو ينزل الدَرَج بجوربَيه، يبتسم، وهو يسألها ما الذي تحيكه له.

أنطوان.

فُتح الباب ببطء، فجاءت نفحةٌ من هواءٍ باردٍ، ووابلٌ من أوراق الشجر. دخلتْ إيزابيل، وهي ترتدي معطف أنطوان الصوفيّ القديم، وحذاءً طويلاً، ووشاحاً على رأسها ورقبتها، يغطّي كلّ شيءٍ ما عدا عينَيها.

توقّفتْ فجأةً حين رأتْ ڤيان. «أوه، أنتِ مستيقظة». حلّتْ وشاحها وعلّقتْ المعطف. من يرى وجهها لا يمكن إلّا أن يعرف أنّها تخفي شيئاً.

«كنتُ في الخارج أتفقّد الدجاج».

توقّفتْ يدا ڤيان عن الغَزْل. «لم لا تخبريني من بكون، هذا الشابّ الذي تتسلّلين كي تلتقيه؟».

- «ومن تقابل شابّاً في هذا البرد؟». خطتْ إيزابيل نحو ڤيان وأوقفتْها على قدمَيها، ثم أخذتْها نحو النار. فارتعشتْ ڤيان من ذلك الدفء المفاجئ. لم تكن تدرك كم كان جسمها بارداً. قالت: «أنتِ». وفوجئتْ بالكلمة تجبرها على الابتسام: «لا أخالكِ تتردّدين في التسلّل في هذا البرد كي تقابلي شابّاً».

- في هذه الحالة لا بدّ من أن يكون شاباً ليس كباقي الشبّان. كلارك غيبل مثلاً(*).

اندفعتْ صوفي إلى الغرفة، وقفزتْ في حضن أمّها. قالتْ، وهي تمدّ يدها أمام النار: «ما أجمل هذا الإحساس!».

نسيتْ ڤيان مخاوفها في تلك اللحظة الرقيقة الجميلة، وقالت إيزابيل: «حسنٌ. عليّ الذهاب الآن. أريد أن أكون الأولى في طابور الجزارة».

فقالتْ ڤيان: «يجب أن تأكلي شيئاً قبل الذهاب».

فردّت إيزابيل، وهي ترتدي معطفها وتلفّ والوشاح: «أعطي حصّتي لصوفي».

مشتْ ڤيان مع أختها إلى الباب، وراقبتْها، وهي تخرج إلى الظلام، ثمّ عادت إلى المطبخ وأشعلت مصباحاً زيتيّاً، ونزلتْ إلى مخزن القبو. كان ذلك المخزن قبل عامَين ممتلئاً إلى آخره باللحوم المدخّنة، وجِرار دهن البطّ، ولفائف السجق. مع زجاجاتٍ من خلّ الشامبانيا، وعلب السردين، وجِرار المربّى.

(*) ممثّل أميركي شهير في ثلاثينيّات القرن العشرين. (م)

كانت قهوة الهندباء حينها على وشك أن تنفد. وآخر ما تبقّى من السكّر بقايا بيضاء لامعة في وعاءٍ زجاجي؛ أمّا الدقيق، فكان أثمن من الذهب. حمداً لله أنّ الحديقة أنتجتْ محصولاً جيّداً من الخضروات على الرغم ممّا فعله اللاجئون. فقد علّبت وحفظتْ كلّ ثمرةٍ من الفواكه والخضروات مهما كانت صغيرة.

أخذتْ قطعةً من الخبز الأسمر كانت على وشك أن تتعفّن. لم تكن البيضة المسلوقة وقطعة الخبز المحمّص فطوراً كافياً لصبيّةٍ تحتاج إلى تغذية، لكنّ الحال كان يمكن أن يصبح أسوأ من ذلك بكثير.

قالتْ صوفي حين انتهت: «أريد المزيد».

فقالت ڤيان: «لا أستطيع».

فقالت صوفي في اللحظة التي خرج فيها بيك من غرفته بزيّة العسكري: «الألمان يأكلون طعامنا كلّه».

نهرتْها ڤيان: «صوفي!».

– صحيحٌ يا صغيرة آنّا، نحن الجنود الألمان، نأخذ كثيراً من الطعام الذي تنتجه فرنسا، لكنّ الرجال الذين يحاربون يحتاجون إلى الطعام، أليس كذلك؟

قطبتْ صوفي جبينها. «أولا يحتاج الجميع إلى الطعام؟».

– «وي مدموازيل. ونحن الألمان لا نأخذ فقط، بل نردّ الجميل لأصدقائنا». ثمّ أخرج من جيبه قطعة شوكولاته.

– شوكولاته!

قالت ڤيان: «صوفي، لا». لكنّ بيك كان يلاعب ابنتها، فيخفي

الشوكولاته ويُظهرها بخفّة يده. وأخيراً أعطاها صوفي التي تلقّفتْها بصريرٍ وقطّعتْ غلافها الورقي.

اقترب بيك من ڤيان وقال في هدوء: «تبدين...حزينةً هذا الصباح».

لم تعرف كيف تردّ.

فابتسم، وخرج. ثمّ سمعتْ ڤيان صوت درّاجته في الخارج تبتعد.

قالت صوفي وهي تتلمّظ: «شوكولاته لذيذة».

- أتعلمين، كان من الأفضل أن تأخذي قطعةً صغيرةً كلّ ليلة، بدلاً من أن تلتهميها كلّها مرّةً واحدة. ولا أحتاج إلى تذكيركِ بفضيلة اقتسام الأشياء مع الآخرين.

تقول طنط إيزابيل: إنّ الجسارة أفضل من المهادنة. فإن قَفَزنا عن الجرف سنطير قليلاً على الأقل قبل أن نسقط.

- آه، نعم. هذا الكلام يليق بإيزابيل فعلاً. لعلّكِ تسألينها عن تلك المرّة التي كسرت فيها معصمها، وهي تقفز من شجرةٍ لم يكن ينبغي لها أن تتسلّقها أصلاً. هيّا، لنذهب إلى المدرسة.

في الخارج كانتا تنتظران راشيل وطفلَيها في جانب الطريق الثلجي الموحل، ثمّ انطلقن جميعاً في ذلك المشوار الطويل القارس إلى المدرسة.

قالت راشيل: «نفدتْ القهوة منذ أربعة أيّام. في حال استغربتِ لماذا أبدو معكّرة المزاج هكذا.

فقالت ڤيان: «في الحقيقة أنا التي أصبحتُ عصبيّة المزاج مؤخّراً». ثمّ انتظرتْ أن تنفي راشيل ذلك، لكنّ راشيل كانت تعرفها بما يكفي لتُدرك أنّ وراء ذلك الكلام شيئاً: «الأمر وما فيه...أنّ هناك أشياء تشغل بالي».

القائمة. صحيحٌ أنّها كتبت تلك القائمة قبل أسابيع، ولم يحدث أيّ شيء، إلّا أنّ القلق لم يبارحها.

ابتسمتْ راشيل وقالت: «أنطوان؟ الجوع؟ التجمّد في هذا البرد؟ أي قلقٍ منها استحوذ عليكِ هذا الأسبوع؟».

رنّ جرس المدرسة.

فقالت صوفي، وهي تسحب أمّها من ذراعها: «هيّا مامُن، لقد تأخّرنا».

تركتْ ڤيان نفسها تنقاد على الدرجات الحجريّة، إلى أن وصلتْ إلى صفّها مع صوفي وسارة، فوجدت التلاميذ قد وصلوا قبلها.

قال جيل مبتسماً: «تأخّرتِ مدام موريياك. ستحصلين على علامةٍ سيّئةٍ إذن». فضحك الأطفال.

خلعتْ ڤيان معطفها وعلّقته. «كالعادة تضحك وتمزح يا جيل. لنرى ما إذا كنتَ ستظلّ مبتسماً بعد اختبار الهجاء».

فتذمّر الأطفال، ولم تستطع ڤيان أن تمنع نفسها من الابتسام لمنظر وجوههم المكفهّرة. من الواضح أنّهم شعروا بالإحباط. والحقُّ أنّه من الصعب ألّا يشعر المرء بذلك في تلك الغرفة الباردة المعتمة، بدون ما يكفي من ضوءٍ يبدّد الظِلال.

- أوه، لا بأس! هذا الصباح بارد. فما رأيكم بلعبة المطاردة كي نتنشّط؟

وامتلأ الصفُّ بجلبة الأطفال، وقد راقتْهم الفكرة. ولم تكد ڤيان تتناول معطفها حتى دفعها الأطفال الضاحكون معهم إلى الخارج.

لم يمض على خروجهم من الصفّ أكثر من لحظاتٍ قليلة حتّى سمعتْ ڤيان هدير سيّاراتٍ تقترب من المدرسة.

لم يلحظ الأطفال ذلك وأكملوا لعبتهم، ففي هذه الأيّام لا يلحظون سوى الطائرات.

سارتْ ڤيان إلى نهاية المبنى، وأخذتْ تسترق النظر. كانت سيّارة مرسيدس بنز سوداء اللون تسير في الطريق الترابي، ترفرف فوقَها أعلامُ الصليب المعقوف. ومن خلفها سيّارة شرطةٍ فرنسيّة.

صاحت ڤيان، وهي تعود إلى ساحة اللعب: «أطفال. تعالوا هنا. قفوا إلى جانبي».

ثمّ ظهر رجُلان: أحدهما لم تره من قبل. كان طويل القامة، أشقر الشعر، يكاد يكون ناعماً متأنّثاً، يرتدي معطفاً جلديّاً طويلاً أسود، وحذاءً طويلاً لامعاً، وعلى ياقته صليبٌ حديديّ صغير؛ أمّا الرجُل الآخر، فقد كانت تعرفه. فردٌ من أفراد شرطة كاريڤو منذ سنوات، واسمه پول جولير. كان أنطوان كثيراً ما يشير إلى أنّه رجُلٌ خسيسٌ وجبان.

قال الضابط الفرنسيّ بإيماءةٍ رسميّة: «مدام موررياك».

لم تطمئنّ للنظرة في عينَيه. كانت تذكّرها بالصّبية حين ينظر واحدهم إلى الآخر قبل أن يبدؤوا بالتنمّر على ولدٍ ضعيف. «بونجور، پول».

- جئنا من أجل بعض زميلاتك. الأمر لا يتعلّق بكِ مدام. فأنتِ لستِ في القائمة.

القائمة.

- «ماذا تريد من زميلاتي؟». سمعتْ ڤيان نفسها تسأل السؤال، لكنّ صوتها لم يكد يُسمع، على الرغم من صمت الأطفال.

- ستُفصل بعض المعلّمات اليوم.

- يُفصَلن؟ لماذا؟

لوّح الرجُل النازيّ بكفّه في الهواء كأنّه يضرب ذباباً. «اليهود، والشيوعيّون، والماسونيّون. وغيرهم ممّن لم يعد يُسمح لهم بالتعليم في المدارس، أو العمل في المؤسّسات الحكوميّة، أو القضائيّة».

- ولكن—.

أومأ النازيّ إلى الشرطيّ الفرنسيّ، فانضمّ إليه وسارا في مشيةٍ واحدةٍ داخل المدرسة.

قال أحدهم وهو يمسك كمّ ڤيان: «مدام موررياك؟».

ثمّ قالت صوفي بأنين: «مامُن، لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك، صحيح؟».

فقال جيل: «بل يمكنهم. اللعنة على النازيّين أولاد الحرام».

كان ينبغي لڤيان أن تؤدّبه لاستخدامه تلك الألفاظ، لكنّها لم تستطع أن تفكّر في أيّ شيءٍ سوى قائمة الأسماء التي سلّمتْها لبيك.

*

ظلّت ڤيان تصارع ضميرها ساعاتٍ طويلة، ولا تتذكّر كيف استطاعت أن تستمرّ في التدريس في ذلك اليوم. كلّ ما علق في ذهنها تلك النظرةُ من راشيل، وهي تمشي خارج المدرسة مع المعلمّات الأُخريات المفصولات. وبحلول الظهيرة طلبت ڤيان من معلّمةٍ أُخرى أن تأخذ مكانها، على الرغم من النقص في عدد المعلّمات.

كانت الآن واقفةً في طرف ساحة البلديّة.

كانت طوال الطريق تخطّط لما ستقوله، لكنّ عزيمتها خارتْ فور أن رأت العلم النازيّ يرفرف فوق أوتيل دو ڤيل. كان هناك جنودٌ ألمان أينما

نظرتْ، يمشون أزواجاً، أو يركبون خيولاً جميلةً قويّةً، أو يذرعون الشوارع في سيّارات «سيتروين» سُودٍ لامعة. في الجهة الأُخرى من الساحة رأتْ نازيّاً يطلق صافرته ويوجّه بندقيّته إلى رجُلٍ مسنٍّ لإجباره على الركوع.

هيّا يا ڤيان.

مشت على الدرجات الحجريّة إلى أبواب السنديان المغلقة، حيث أوقفها حارسٌ شاب حليق الوجه وسألها ماذا تريد.

– أريد أن أقابل النقيب بيك.

قال: «آه». فتح لها الحارسُ الباب، وأشار إلى السلّم الحجريّ الواسع، مشيراً لها بأصابعه إلى رقم اثنين.

دخلتْ ڤيان إلى القاعة الرئيسة في دار البلدية. كانت ممتلئةً برجالٍ يرتدون الزيّ الرسميّ. حاولت أن تتجنّب النظر في أعينهم، وهي تسرع عبر البهو نحو السلالم، حتّى صعدتها تحت أنظار الفوهرر في لوحته الكبيرة التي كانت تحتلّ جزءاً كبيراً من الجدار.

في الطابق الثاني، وجدتْ رجُلاً يرتدي زيّاً رسميّاً فقالت له: «أبحث عن النقيب بيك، سيل ڤو پليه».

– «وِي، مدام». وقادها إلى بابٍ في نهاية القاعة وطرقه طرقاً خفيفاً. فلمّا جاءه الردّ من الداخل فتح الباب لها.

كان بيك جالساً خلف مكتبٍ مزخرفٍ باللونَين: الأسود، والذهبي (من الواضح أنّه مأخوذ من أحد المنازل الكبيرة في المنطقة). من خلفه صورةٌ لهتلر ومجموعة خرائط معلّقة على الجدار، وعلى المكتب آلةٌ طابعة وجهاز نَسْخ. في زاوية الغرفة كومةٌ من أجهزة المذياع المصادرة.

غير أنّ الأسوأ من ذلك كلّه كانت صناديق الطعام الكثيرة. أكوام من اللحوم والأجبان المكدّسة.

قال، وهو ينهض بسرعة: «مدام موريناك. مفاجأة جميلة». سار نحوها وأضاف: «تفضّلي مدام كيف أساعدك؟».

- الأمر يخصّ المعلّمات اللائي فصلْتَهنّ من المدرسة.

- لستُ أنا من فَصَلهنّ يا مدام.

ألقتْ ڤيان نظرةً إلى الباب المفتوح خلفهما، ثمّ اقتربتْ من بيك خطوةً، وأخفضت صوتها. «قلتَ لي: إنّ قائمة الأسماء كانت لمجرّد أعمالٍ مكتبيّة».

- أنا آسف. فعلاً آسف. هذا ما قيل لي.

- نحتاج إليهنّ في المدرسة.

- «وجودُك هنا... قد يكون خطراً عليكِ». اقترب منها أكثر وأضاف: «ليس من مصلحتكِ أن تلفتي الأنظار إليكِ مدام موريناك. خصوصاً هنا. يوجد رجُلٌ...». ونظر إلى الباب وتوقّف عن الكلام: «اذهبي، مدام».

- تمنّيتُ لو أنّك لم تطلب ذلك منّي.

- «وأنا كذلك، مدام». نظر إليها نظرة المتفهّم: «والآن اذهبي. أرجوكِ. لا يجدر بكِ أن تكوني هنا».

أعطت ڤيان ظهرها لبيك (وكلّ ذاك الطعام، وصورة الفوهرر)، وغادرت مكتبه. فلمّا نزلتْ السلالم رأتْ كيف كان الجنود يراقبونها ويبتسمون لبعضهم. لا بدّ من أنّهم يتندّرون على هذه المرأة الفرنسيّة الجديدة التي تتودّد إلى جنديٍّ ألمانيٍّ أنيقٍ حطّم قلبها. لكنّها لم تدرك فداحة ما فعلتْ إلّا بعد أن خرجتْ من المبنى إلى ضوء الشمس.

كانت هناك عدّة نساء في الساحة، أو بالقرب منها، وقد رأينَها، وهي تخرج من عرين النازيّين.

من بين تلك النساء إيزابيل.

هرعتْ ڤيان تنزل الدرجات الحجريّة، فيما كانت هيلين رويل زوجة الخبّاز، تصعدها كي توصل الخبز إلى مقرّ القيادة.

قالت هيلين بخبثٍ حين مرّت ڤيان بجانبها: «أوه، تزورين أصدقاء لكِ هنا مدام مورياك؟».

كانت إيزابيل تركض في الساحة نحوها. توقّفتْ ڤيان بتنهيدة قهرٍ، في انتظار أختها.

سألتها إيزابيل بصوتٍ عالٍ للغاية، أو ربّما هكذا خُيِّل لڤيان: «ماذا كنتِ تفعلين هناك؟».

- «لقد فصلوا المعلّمات اليوم. لا، ليس كلّهنّ. اليهوديّات، والماسونيّات، والشيوعيّات فقط». ثمّ تفجّرت ذكرياتُها، فشعرتْ بالرغبة في التقيّؤ. تذكّرتْ الهدوء في مدخل المدرسة، والاضطراب الذي حلّ بالمعلّمات اللائي بَقِين. لم يعرف أحدٌ كيف يتصرّف، وكيف يقف في وجه النازيّين.

قالت إيزابيل بضيق: «فقط؟!».

- «لم أقصد ذلك. كنتُ أودّ التوضيح. أنّهم لم يفصلوا جميع المعلّمات». لكنّ تسويغها كان واهياً حتّى بالنسبة إليها، فخرستْ.

- لكنّ هذا لا يفسّر سبب وجودكِ في مقرّ قيادتهم.

- قلت..قلتُ في نفسي ربّما يستطيع النقيب بيك أن يساعدنا. يساعد راشيل.

- ذهبتِ تطلبين من بيك معروفاً؟

- كنتُ مضطرّة.

- الفرنسيّات لا يطلبن مساعدةً من النازيّين يا ڤيان. مون ديو! تعرفين هذا بالتأكيد.

- أعرف. ولكن—.

- ولكن ماذا؟

لم تستطع أن تكتم الأمر أكثر. «لقد أعطيتُه قائمة أسماء».

جمُدتْ إيزابيل في مكانها، وبدتْ لحظةً غير قادرةٍ على التنفّس. كانت النظرة التي حدجت بها ڤيان أقوى من أيّ صفعة. «كيف فعلتِ ذلك؟ هل أعطيتِه اسم راشيل؟».

- «لـ..لم أكن أعرف. وكيف لي أن أعرف؟ قال: إنّ القائمة لعملٍ مكتبيّ». ثمّ أمسكتْ بيد إيزابيل: «سامحيني يا إيزابيل. حقّاً، لم أكن أعرف».

- لستُ أنا من ينبغي أن تطلبي منه السماح يا ڤيان.

شعرتْ ڤيان بخزيٍ هائل. كيف بلغتْ بها الحماقة هذا الحدّ، وكيف يمكنها أن تعالج الأمر؟ نظرتْ في ساعة يدها. سينتهي اليوم الدراسيّ عمّا قريب. قالت ڤيان: «اذهبي إلى المدرسة. خذي صوفي وسارة إلى البيت. ثمّة شيء لا بدّ من أن أفعله».

- أرجو أن تكوني قد فكّرتِ جيّداً في ما تنوين فعله.

فقالت ڤيان بتعب: «اذهبي».

*

كانت كنيسة القدّيس جان كنيسةً نورمنديّةً حجريّةً صغيرةً في طرف البلدة. خلفها (ولكنْ داخل أسوارها القديمة) يقع دَير راهبات القدّيس يوسف، الراهبات اللائي يدرنَ مدرسةً وداراً للأيتام.

دخلت ڤيان الكنيسة، يتردّد صدى خطواتها على الأرضيّة الحجريّة الباردة، وسحابةُ أنفاسها تتقدّمها. خلعتْ قفّازَيها قليلاً كي تلمس بأطراف أصابعها الماء المقدّس المتجمّد. رسمتْ إشارة الصليب، ثمّ مضتْ إلى مقعدٍ فارغ. جثتْ هناك على ركبتَيها، تطأطئ رأسها، وهي تصلّي.

كانت تنشدُ الهُدى والمغفرة، لكنّها لأوّل مرّةٍ في حياتها لم تجد كلماتٍ تقولها في صلاتها. فكيف يُمكن أن يُغفر لها ذلك الفعل الأحمق الطائش؟

سوف ينظر الله إلى ذنبها وخوفها، وهو وحده الكفيل بحسابها. أخفضتْ يدَيها المشبوكتَين، وعادت لتجلس على المقعد الخشبيّ.

- ڤيان مورياك؟

جاءت كبيرة الراهبات، الأمّ ماري تيريز، فجلستْ إلى جانبها، وانتظرتْ ڤيان كي تتحدّث. هكذا كان الأمر يجري بينهما. حين جاءت إليها أوّل مرّةٍ تطلب نصيحتها كانت حبلى، وهي في السادسة عشرة من عمرها. الأمّ ماري تيريز هي التي واستْ ڤيان بعد أن اتّهمها والدها بجلب العار عليه. هي التي رتّبت زفافاً سريعاً وأقنعتْ پاپا بالسماح لڤيان وأنطوان أن يحتفظا بالمنزل، وهي التي طمأنتْ ڤيان، وقالتْ لها: إنّ الأطفال معجزةٌ إلهيّةٌ، وإنّ هذا الحبّ المبكّر بينها وبين أنطوان يمكن أن يدوم.

قالت ڤيان أخيراً: «تعلمين أنّ ألمانيّاً يقيم في بيتي».

- يقيمون في كلّ بيتٍ كبير وكلّ فندق.

- سألني أيّ المعلّمات في المدرسة يهوديّة، أو شيوعيّة، أو ماسونيّة.

- آه. وأجبتِه.

- لذلك أنا حمقاء كما قالت إيزابيل، أليس كذلك؟

حدّقت في ڤيان وقالت: «لستِ حمقاء يا ڤيان. وأختكِ متسرّعة في أحكامها. هذا ما أذكره عنها».

- لا أنفكّ أسأل نفسي ما إذا كانوا سيجدون تلك الأسماء لو لم أقدّمها لهم.

قالت الأمّ ماري تيريز بصوتٍ لطيفٍ وحازمٍ في الوقت نفسه: «لقد فصلوا اليهود في كلّ أنحاء البلدة. أولا تدرين؟ لم يعد المسيو پنوار مدير البريد، وجاؤوا بشخصٍ آخر مكان القاضي برایاس. وقد وصلت إليّ أخبارٌ من باريس بأنّ مديرة مدرسة سيڤيني أُجبرت على الاستقالة، وكذلك فعلوا بكلّ المغنّين اليهود في أوبرا باريس. ربّما كانوا في حاجةٍ إلى مساعدتك، وربما لا. لكنّ الأكيد أنّهم كانوا سيجدون الأسماء من دون مساعدتك. ليس هذا هو المهم».

- ماذا تقصدين؟

- أعتقد أنّه مع استمرار هذه الحرب، سوف يتعيّن علينا جميعاً أن نتفكّر بعمقٍ أكبر. والأمر هنا لا يتعلّق بهم، بل بنا نحن.

شعرتْ ڤيان بالدموع تحرق عينَيها. «لم أعد أعرف ماذا أفعل. كان أنطوان يتدبّر كلّ الأمور. الفيرماخت والغستابو أكثر بكثيرٍ من قدرتي على الاحتمال».

- لا تفكّري في مَن يكونون. فكّري في مَن تكونين، وما التضحيات التي يمكن أن تتعايشي معها وتلك التي سوف تكسرك.

- الأمر كلّه يكسرني. يجب أن أكون مثل إيزابيل؛ واثقة من كلّ شيء. فهذه الحرب بالنسبة إليها إمّا سوداء وإمّا بيضاء، ولا يبدو أنّ شيئاً يخيفها.

- سوف تعاني إيزابيل أيضاً من أزمة إيمانٍ في هذا الأمر. وسيجري ذلك علينا كلّنا. لقد مررتُ بهذا من قبل، في الحرب الكبرى، وأعلم جيّداً أنّ المشقّات ستبدأ الآن. لا بدّ من أن تظلّي قويّة.

- بالإيمان بالله.

- «نعم، طبعاً، ولكن ليس فقط بالإيمان بالله. الإيمان والصلوات لن تكفي، مع الأسف. وغالباً ما يكون سبيل الرّشادِ خطراً يا ڤيان، فاستعدّي. فما هذا إلّا امتحانك الأوّل. تعلّمي منه». ثمّ انحنتْ الأم ماري تيريز، واحتضنتْ ڤيان مرّةً أُخرى. تمسّكتْ ڤيان بحضنها، ووجهها مدفونٌ في رداء الراهبةِ.

فلم تترك حضن الراهبة إلا وقد شعرت بتحسّن.

نهضت الراهبةُ، وأمسكت بيد ڤيان حتّى وقفتْ. «العلّكِ تجدين وقتاً لزيارة الأطفال هذا الأسبوع وتدريسهم؟ لقد استمتعوا جدّاً حين علّمتِهم الرسم. تعرفين أنّ هناك تذمّراً كبيراً هذه الأيام بسبب البطون الجائعة. حمداً لله على أنّ لدى الأخوات حديقةً ممتازةً، كما أنّ جبن الماعز وحليبها نعمةٌ تستحقّ الشكر. ومع ذلك...».

- «نعم». كان الجميع يعرف إحساس الجوع وشدّ الحزام، لا سيّما الأطفال.

قالت الأمّ في لطف: «لستِ وحدك يا ڤيان، ولستِ المسؤولة. اطلبي العون حين تحتاجين إليه، وقدّمي العون حين تستطيعين. أعتقد أنّ هذه

هي الطريقة التي نخدم بها الله ونخدم أنفسنا والآخرين في أوقاتٍ عصيبةٍ كهذه».

*

لستِ المسؤولة.

ظلّت ڤيان تتأمّل تلك الكلمات طوال طريقها إلى المنزل.

لطالما كانت تشعر بالراحة والطمأنينة في إيمانها. فحين بدأ السُعال عند مامُن أوّل مرة، ثمّ ساء إلى درجة الرجفة التي تخلّف الدم في المنديل، كانت ڤيان تدعو ربّها بكلّ ما تحتاج إليه، سواءً أكان عَوناً، أم هدايةً، أم طريقةً لخداع الموت الذي جاء يقرع الباب. حين كانت في الرابعة عشرة نذرت لربّها أيّ شيء، وكلّ شيء، إن أنقذ حياة أمّها. وحين لم يستجب الربّ لدعائها، عادت إليه ودعتْ أن يعينها على ما بعد الوفاة. على الوحدة، وصمتِ أبيها، وغضباته، وانفعالاته حين يثمل، ونواح إيزابيل، واحتياجها الدائم.

كانت تعود إلى ربّها مرّةً بعد أُخرى، تستنجد به، وتؤكّد إيمانها. كانت تريد أن تصدّق أنّها ليست وحدها ولا مسؤولة، وإنّما كانت أحداث حياتها تتوالى وفقاً لمشيئة الله وحكمته، حتّى إن لم تكن تعرفها.

أمّا الآن، فقد كان رجاؤها ذاك في أضعف حالاته.

كانت وحدها فعلاً، ولا يوجد مسؤولٌ غيرها، إلّا النازيّون.

لقد ارتكبتْ خطأً فادحاً، ولم تكن تستطيع أن تمحوه على الرغم من أمانيّها الكثيرة في فرصةٍ كهذه. لم تكن تستطيع أن تزيل ذلك الخطأ، لكنّ المرأة الصالحة تقبلُ المسؤولية، واللوم، فتعتذر عمّا فعلتْ. كانت مصمّمةً

على أن تكون امرأةً صالحةً، بصرف النظر عن عيوبها، أو أيّ صفاتٍ أُخرى فيها.

وهكذا عرفتْ ڤيان ما ينبغي لها أن تفعله.

كانت تعرف، على الرغم من أنّها حين وصلتْ إلى بوّابة بيت راشيل لم تستطع أن تتحرّك. ثقُلتْ قدماها، وأُثقِل قلبُها أكثر.

أخذتْ نفساً عميقاً وطرقتْ الباب. سمعتْ جرجرة أقدامٍ في الداخل، ثمّ فُتح الباب. كانت راشيل تحمل ابنها النائم على ذراعها، وتعلّق بذلتَين على الذراع الأُخرى. قالت، وهي تبتسم: «ڤيان، تعالَي».

كادت ڤيان أن تستسلم لجُبنها. أوه راشيل، أتيتُ فقط لأطمئنّ عليكِ. لكنّها أخذتْ نفساً عميقاً وتبعتْ صديقتها إلى الداخل. جلستْ في مكانها المعتاد على المقعد المريح قرب نار المدفأة.

- خذي آري. سأعدّ لنا فنجان قهوة.

مدّت ڤيان يدها، وأخذتْ الرضيع النائم، فاستكان الطفلُ بين ذراعيها. أخذتْ تربّت على ظهره وتقبّل رأسه.

بعد لحظةٍ جاءت راشيل تحمل القهوة: «سمعنا أنّ الصليب الأحمر يوصل بعض الطرود العلاجيّة لمعسكرات أسرى الحرب». وضعتْ فنجاناً إلى جانب ڤيان ثمّ قالت: «أين البنتَين؟».

- «في بيتي، مع إيزابيل. ربّما يتعلّمن إطلاق النار». فضحكتْ راشيل وقالت: «بسيطة. هناك مهارات أسوأ يمكن تعلّمها». أخذتْ البذلتَين من كتفها، وألقت بهما في سلّة قشٍ مع بقيّة الملابس التي تخيطها، ثمّ جلستْ قبالة ڤيان.

تنشّقتْ ڤيان بعمقٍ تلك الرائحة الحُلوة، رائحة الطفل الرضيع، فلمّا رفعت عينَيها، وجدتْ راشيل تحدّق فيها.

سألتْها في هدوء: «هل عادت إليك تلك الأيام؟».

تبسّمتْ ڤيان ابتسامةً باضطراب. كانت راشيل تعرف كيف تبكي ڤيان أحياناً على أطفالها الذين فقدتهم، وكيف كانت تدعو ربّها أن يرزقها مزيداً من الأطفال. حين حبلت راشيل بآري، توتّرت علاقتها بڤيان قليلاً. أجل، كانت سعيدةً من أجل راشيل...مع شيءٍ من الحسد.

قالت: «لا». رفعتْ ذقنها ببطءٍ، ونظرت في عينَي صديقتها المقرّبة: «لديّ شيء أريد أن أخبركِ به».

- ماذا؟

أخذتْ ڤيان نفساً عميقاً. «هل تذكرين اليوم الذي كتبنا فيه البطاقات البريديّة؟ وكان النقيب في البيت حين وصلنا؟».

- ڤي. وعرضتُ عليكِ أن أدخل معك.

- ليتكِ دخلتِ معي. على الرغم من أنّي لا أظنّ أنّ ذلك سيُحدث فرقاً. كان سينتظر حتّى تغادري.

فهمّت راشيل بالنهوض: «هل—».

فردّت ڤيان بسرعة: «لا، لا. ليس هذا. حين دخلتُ كان جالساً إلى طاولة الطعام يكتب شيئاً. و...طلب منّي قائمة أسماء. كان يريد أن يعرف مَن مِن المعلّمين يهوديّ، أو شيوعيّ». وسكتتْ قليلاً: «وسأل عن المثليّين والماسونيّين أيضاً، وكأنّ الناس يتحدّثون عن هذه الأمور».

- وقلتِ له: إنّكِ لا تعرفين.

لفرطِ إحساسها بالخزي نظرتْ بعيداً، ولكنْ لثانيةٍ واحدةٍ فقط، ثمّ أجبرتْ نفسها على القول: «أعطيته اسمكِ يا راشيل. مع أسماء الآخرين».

لم تحرّك راشيل ساكناً، وبدأ اللونُ يختفي من وجهها، فتبرزُ عيناها الداكنتان. «وفصلونا».

بلعتْ ڤيان ريقها، وأومأت.

نهضتْ راشيل ومشت من أمام ڤيان بدون توقّف، غير مباليةٍ بنداء ڤيان: «راشيل أرجوكِ!». فكانتْ تجرّ نفسها كي لا تلمسها ڤيان، وذهبتْ إلى غرفتها وصفقت الباب.

مرّ الوقتُ بطيئاً، بين شهيقٍ، ودعاءٍ، وصرير كرسيّ. ظلّت ڤيان تراقب عقارب الساعة السوداوَين، فيما كانت تربّت على ظهر الطفل دقيقةً إثر أخرى.

أخيراً، فُتح الباب. عادت راشيل إلى الغرفة، شعثاء كأنّها كانت تنكش شعرها بيدَيها. أمّا وجنتاها، فكانتا ملطّختَين، إمّا من قلقٍ، وإمّا من غضب، وربّما من كليهما؛ أمّا عيناها، فقد احمرّتا من أثر البكاء.

قالت ڤيان، وهي تقف: «أنا آسفة جداً. سامحيني».

وقفتْ راشيل أمامها تنظر إليها من علٍ. توقّد الغضبُ في عينَيها، ثمّ تلاشى وحلّت محلّه مسحةُ استسلام. «كلّ شخصٍ في البلدة يعرف أنّني يهوديّة يا ڤيان. ولطالما كنتُ فخورةً بذلك».

– أعرف. هذا ما قلتُه لنفسي. مع ذلك، ما كان ينبغي لي أن أساعده. وما كنتُ لأؤذيكِ ولو وضعوا العالم بين يديّ. أرجو أن تكوني متأكّدةً من ذلك.

قالت راشيل بهدوء: «أعرف ذلك طبعاً، ولكن عليكِ أن تكوني أكثر

حذراً يا ڤي. أعلمُ أنّ بيك شابٌ وسيمٌ، وودودٌ، ومهذّبٌ، لكنّه نازيٌّ، وهؤلاء خطرون».

*

كان شتاء عام 1940م أبرد شهرٍ مرّ على الذاكرة؛ إذْ كان الثلج يتساقط يوماً بعد يوم، يغطّي الأشجار والحقول؛ فيما تتلألأ الكتل الجليديّة على أغصان الشجر المتدلّية.

مع ذلك كانت إيزابيل تستيقظ صباح كلّ جمعةٍ قبل الفجر بساعات، توزّع «منشوراتها الإرهابيّة» كما بات يسمّيها النازيّون. فقد تناول منشور الأسبوع الماضي العمليّات العسكريّة في شمال إفريقيا، ونبّه الشعب الفرنسيّ على أنّ نقص المواد الغذائيّة في الشتاء لم يكن نتيجةً للحصار البريطاني (كما تقول الدعاية النازيّة)، بل بسبب نهب الألمان لكلّ ما تنتجه فرنسا.

ظلّت إيزابيل توزّع تلك المنشورات عدّة أشهر، لكنّها في الحقيقة لم تكن ترى أثراً كبيراً لها على أهل كاريڤو. فما يزال كثيرٌ من القرويّين يناصرون المارشال بيتان. وأكثر من هؤلاء كانوا لا يهتّمون بالأمر أصلاً. كان عددٌ غير قليلٍ من جيرانها لا ينظر إلى الألمان إلا على أنّهم مجرّد أولادٍ، شبابٍ صغار، ثمّ يمضون في حياتهم مطأطئي رؤوسهم، ينشدون السلامة.

كان النازيّون قد لحظوا المنشورات طبعاً، فبعض الفرنسيّين والفرنسيّات كانوا يتحيّنون أيّ فرصةٍ للتزلّف إلى النازيّين، فوجدوا في تقديم تلك المنشورات التي عثروا عليها في صناديق بريدهم بدايةً جيّدة.

وكانت إيزابيل تُدرك أنّ الألمان يبحثون عن الأشخاص الذين يطبعون

المنشورات ويوزّعونها، لكنّهم لم يكونوا يبذلون قصارى جهدهم في البحث، خاصّةً في تلك الأيّام الثلجيّة التي لم يكن أحد يتكلّم فيها إلّا عن القصف الألمانيّ على لندن. لعلّ الألمان كانوا يدركون أنّ مجرّد كلماتٍ مكتوبةٍ على ورقٍ ليست كافيةً لتغيير دفّة الحرب.

في هذا اليوم كانت إيزابيل مستلقيةً في السرير، وإلى جانبها صوفي تتكوّر على نفسها مثل ورقة سرخسٍ صغيرة، في حين تنام ڤيان على جانب صوفي الآخر. أصبحنَ ينمنَ معاً في فراش ڤيان. وقد دأبنَ خلال الشهر الماضي على إضافة كلّ لحافٍ، أو بطّانيّةٍ يجدنَها إلى السرير اتّقاء البرد. كانت إيزابيل تستلقي، وهي تشاهد أنفاسها تتجمّع، ثمّ تختفي في سُحبٍ بيضٍ رقيقة.

كانت تعرف كيف ستكون الأرضيّة باردةً، على الرغم من الجوربَين الصوفيّين اللذَين ترتديهما حين تنام. وتعرفُ أنّ هذه ستكون المرّة الأخيرة التي تشعر بالدفء فيها طوال اليوم. سحبتْ نفسها من تحت كومة الألحفة، فأصدرتْ صوفي أنيناً خافتاً وانقلبتْ صوب أمّها طلباً للدفء.

وما إنْ وضعتْ إيزابيل قدمَيها على الأرض حتى انتشر الألمُ في ساقَيها، فجفلتْ وأخذتْ تعرجُ خارجةً من الغرفة.

استغرق النزول من الدَرَج دهراً، والألمُ لا يبرح قدمَيها. كان الجميع يعاني من التهاب الأصابع في هذا الشتاء. يُقال: إنّ ذلك ينتج عن قلّة الدهون والزبدة، لكنّ إيزابيل كانت تعرف أنّ السبب برودة الطقس، والجوارب المثقوبة، والأحذية المتفكّكة.

كانت تودّ أن تشعل ناراً، تتوقُ إلى لحظةِ دفءٍ لا أكثر، غير أنّه لم يبق لديهم ما يكفي من خشب. كانوا قد بدؤوا في أواخر كانون الثاني/ يناير

في نزع خشب الحظيرة وحرقه، إضافةً إلى صناديق الأدوات والكراسي القديمة، وأيّ شيءٍ آخر يجدونه. أعدّت لنفسها كوباً من الماء المغلي، وشربته حتّى تنخدع معدتها بالحرارة والوزن، فلا تنتبه إلى فراغها. أكلتْ قطعة خبزٍ بائت، ولفّت جسمها بطبقةٍ من أوراق الصحف، ثمّ ارتدتْ معطف أنطوان، وقفّازَيها، وحذاءها. وعلى الرغم من أنّها لفّت رأسها ورقبتها بوشاحٍ صوفيٍّ، إلّا أنّها بمجرّد أن خرجتْ من البيت لم تستطع أن تتنفّس من شدّة البرد. أغلقتْ الباب خلفها، ومشتْ في الثلج، فكانت أصابع قدمها الملتهبة تنبضُ مع كلّ خطوة، وأصابع يدها تبردُ على الفور حتى من وراء القفّاز.

كان الهدوء مخيفاً في المكان. خاضت في الثلج الذي يصل إلى ركبتَيها، وفتحتْ البوّابة المكسورة وخرجتْ إلى الطريق الذي رصَفَتْه الثلوج.

استغرقها الأمر لتوزيع المنشورات ثلاث ساعات بسبب البرد والثلج، (وكانت منشورات هذا الأسبوع تتحدّث عن قصف لندن. فقد ألقى البوش اثنين وثلاثين ألف قنبلةٍ على لندن في ليلةٍ واحدة). كان الفجرُ يأتي ضعيفاً، كالمرَقِ الخالي من اللّحم. وصلتْ قبل الجميع في طابور الجزّار، وسرعان ما تبعتْها الأخريات. وعند السابعة صباحاً فتحتْ زوجة الجزّار النافذة والباب.

قالت: «أخطبوط».

فصاحت بها إيزابيل في خيبة أمل: «لا يوجد لحم؟».

– ليس للفرنسيّين، مدموازيل.

وتناهى إلى سمعها تذمّر النسوة اللائي كنّ يردنَ اللّحم، والأُخريات في آخر الطابور اللائي أدركنَ أنهنّ لن يحصلن حتّى على الأخطبوط.

أخذتْ إيزابيل الأخطبوط الملفوف بالورق وغادرتْ. حصلتْ على شيءٍ على الأقل. لم يعد يوجد حليبٌ معلّبٌ، لا عبر البطاقات التموينيّة، ولا حتّى في السوق السوداء. وقد حالفها الحظّ في الحصول على قليلٍ من الجبن الفرنسيّ بعد انتظار ساعتَين في الطابور. غطّتْ أغراضها الثمينة بالمنشفة الثقيلة في سلّتها، ثمّ عرّجت على شارع فكتور هوغو.

فلمّا مرّت بمقهى ممتلئ بالجنود الألمان ورجال الشرطة الفرنسيّة، شمّت رائحة القهوة المحمّصة والكرواسون الطازج، فقرقرَ بطنُها من الجوع.

– مدموازيل.

أومأ لها شرطيّ فرنسيّ برأسه وأشار إلى أنّه يريد العبور. تنحّت جانباً ورأته يعلّق ملصقاً على نافذة محلٍّ مهجور. كُتب على الملصق الأوّل ما يلي:

إعلان

أُعدم رمياً بالرصاص بتهمة التجسّس كلٌّ من اليهوديّ جاكوب مونسور، والشيوعيّ فكتور يابلونسكي، واليهوديّ لوي ديفري.

أمّا الملصق الثاني فجاء فيه:

تحذير

من الآن، جميع المعتقلين الفرنسيّين بسبب جريمةٍ، أو مخالفةٍ سيُعدّون رهائنَ. فإنْ حدث اعتداءٌ على ألمانيا في فرنسا، تُطلق النار على الرهائن.

قالت إيزابيل: «يطلقون النار على الفرنسيّين بدون سبب؟».

- لا تخافي مدموازيل. هذه التحذيرات ليست للنساء الجميلات مثلك.

حملقتْ إيزابيل في الرجُل. كان أسوأ من الألمان. فرنسيّ يفعل هذا بأبناء شعبه. لهذا السبب كانت تكره حكومة فيشي. ما الفائدة من الحكم الذاتي لنصف فرنسا إن أصبحت الحكومة دميةً في يد النازيّين؟

- أنتِ بخير، مدموازيل؟

يالطيبته، واهتمامه! كيف سيتصرّف إن قالت له: إنّه خائنٌ، وبصقتْ في وجهه؟ «أنا بخير، ميرسي».

شاهدتْه يعبر الشارع بثقة، منتصب القامة، وقد ثبّت قبّعته على شعره البنّي القصير. رحّب به الجنود الألمان في المقهى بحرارة، وربّتوا على ظهره ثم أفسحوا له مكاناً بينهم.

فأشاحت إيزابيل بوجهها في قرف.

في تلك اللحظة رأتْها. درّاجةٌ هوائيّةٌ فضيّةٌ مركونةٌ إلى جدار المقهى. وبمجرّد أنْ رأتْها تخيّلتْ كم ستغيّر في حياتها، وتخفّف آلامها حين تروح وتغدو إلى البلدة كلّ يوم.

في العادة لم تكن الدرّاجات تُترك بدون أن يحرسها الجنود بأعينهم؛ أمّا في هذا الصباح البارد، فلم يكن أحد جالساً في الخارج.

لا تفعلي ذلك!

بدأتْ نبضات قلبها تتسارع، وتعرّقتْ راحتاها من وراء القفّازَين. نظرتْ حولها. كانت النسوة اللائي ينتظرن في طابور الجزارة يحرصن

على ألّا ينظرن إلى شيءٍ، أو أحد. نوافذ المقهى يغطّيها الضباب. وفي الداخل كان الجنود مجرّد أطيافٍ زيتيّة اللّون.

واثقون جداً من أنفسهم.

ثمّ قالت لنفسها في مرارة: «بل واثقون منّا».

عندها، اختفى كلّ ما لديها من تحفّظ، فأمسكتْ بسلّتها ومضتْ تعرجُ في الشارع المغطّى بالثلج. ومنذ تلك اللحظة التي خطتْ فيها إلى الأمام، بدا كما لو أنّ العالم يتشوّش من حولها، والزمن يتباطأ. كانت تسمع أنفاسها، وترى سُحب الأنفاس أمام وجهها. تضبّبتْ المباني فأصبحتْ هياكل بِيضاً، والتمع الثلجُ، حتّى لم تعد ترى إلّا لمعان المقبضَين الفضّيين والعجلتَين السوداوَين.

كانت تعلم أنّ هناك طريقةً واحدةً فقط لفعل ذلك. بسرعة. بدون أيّ نظرةٍ إلى جانبَيها، أو وقفةٍ في خطواتها.

نبحَ كلبٌ من مكانٍ ما، وعلا صوتُ بابٍ يُغلق.

استمرّت إيزابيل في تقدّمها. خمس خطوات تفصلها عن الدرّاجة.

أربع.

ثلاث.

خطوتان.

خطتْ فوق الرصيف وأمسكتْ بالدرّاجة، وقفزتْ فوقها. هكذا قادتْها على الشارع الحجريّ، فيصدر الهيكل صليلاً مع كل حفرةٍ في الطريق. انعطفتْ عند زاوية الشارع، وكادتْ تسقط، فأعادتْ توازنها، ثمّ انطلقت بقوّةٍ نحو شارع لا غرانده.

وهناك انعطفت إلى الزقاق، وقفزتْ عن الدرّاجة كي تقرع الباب. أربع دقّات قويّة.

فُتح الباب ببطء. رآها هنري فقطب جبينه.

انطلقتْ إلى الداخل.

لم تكن هناك إضاءة كافية في قاعة الاجتماعات الصغيرة. مصباحٌ زيتيّ واحدٌ على طاولةٍ خشبيةٍ ممتلئةٍ بالخدوش، ولا أحد غير هنري في المكان. كان مستغرقاً في صنع السجق من صينيّة لحمٍ ودهنٍ، يعلّقها في خطاطيف على الحائط. رائحةُ الغرفة تفوح باللّحم، والدم، والسجائر. أدخلتْ إيزابيل الدرّاجة معها، وصفقت الباب.

قال، وهو يمسح يديه بمنشفة: «مرحباً. هل أعلنّا عن اجتماع وأنا لا أعرف عنه؟

- لا.

نظر إلى جانبها. «هذه ليست درّاجتك».

- سرقتُها. أمام أعينهم.

تقدّم هنري نحوها: «هذه درّاجة ألان ديشا، أو كانت درّاجته. ترك كلَّ شيءٍ وفرّ إلى ليون مع عائلته حين بدأ الاحتلال. وفي الآونة الأخيرة كنتُ أرى جنديّاً من الشُوتزشتافل يتنقّل بها في البلدة».

تلاشت بَهجةُ إيزابيل: «الشوتزستافل؟». كانت هناك شائعاتٌ فظيعة عن قوّات الأمن الخاص هذه وقسوتها. ربما كان عليها أن تفكّر جيّداً في الأمر...

اقترب منها أكثر، لدرجة أنّها شعرت بدفء جسده.

لم يسبق لها أن بقيت بمفردها معه، ولا قريبةً منه هكذا. لأوّل مرةٍ تلحظ أنّ عينيه ليستا بنّيتين، أو خضراوَين، بل رماديّتان كالضباب في غابةٍ كثيفة. رأتْ ندبةً صغيرةً على جبينه، ربما كانت في الأصل جرحاً عميقاً، أو جرحاً عاديّاً لم تجرِ خياطته جيّداً، فتساءلتْ عن طبيعة حياته التي قادته إلى هذا المكان، وإلى الشيوعيّة. كان يكبرها بعشر سنوات على الأقل، لكنّه في الحقيقة كان يبدو في بعض الأحيان أكبر من ذلك، وكأنّه تعرّض إلى فقْدٍ عظيم.

- عليكِ أن تصبغيها.

- لا يوجد لديّ صبغ.

- عندي صبغ.

- هل تتكرّم—.

- قُبلة.

فكرّرت الكلمة كي تكسب بعض الوقت. «قُبلة؟». هذا واحدٌ من الأشياء التي كانت تعتبرها من المسلّمات. الرجال يرغبون فيها، دائماً كانوا يرغبون فيها. كانت هي نفسها تريد أن تغازل هنري وأن يغازلها، وعلى الرغم من ذلك بدتْ فكرةُ القبلة نفسها حزينةً، ولا مكان لها، كما لو أنّ القبلات لم تعد تعني الكثير، ولا الغزَل أيضاً.

- قُبلةٌ واحدةٌ، وسأصبغ درّاجتك اللّيلة، وتأخذينها غداً.

تقدّمتْ نحوه، وقرّبت وجهها من وجهه.

اندمج الجسدان بسهولة، على الرغم من المعاطف، وأوراق الجرائد، والصوف. أخذها بين ذراعَيه وقبّلها. لقد عادت إيزابيل روسينيول مرّةً

أُخرى إلى ما كانت عليه، وإنْ للحظةٍ واحدةٍ جميلة، الفتاة الفاتنة التي يرغب فيها الرجال.

فلمّا انتهتْ القُبلة وتراجعَ إلى الخلف، شعرتْ إيزابيل...بالفراغ. بالحزُن.

يجدر بها أن تقول شيئاً، أو تمزح، أو ربما تتظاهر بأنّ تأثير القبلة كان أكبر مما شعرتْ به فعلاً. هذا ما كانت ستفعله سابقاً، حين كان هناك معنى أكبر للقبلات، أو ربّما أقل.

قال هنري، وهو يتأمّلها: «في حياتك شخصٌ آخر».

- لا، لا يوجد شخصٌ آخر.

فلمس خدّها برقّة. «تكذبين».

فكّرتْ إيزابيل في كلّ ما قدّمه لها هنري، فهو الذي أدخلها في شبكة «فرنسا الحرّة» ومنحها هذه الفرصة، وهو الذي آمن بها، لكنّه حين قبّلها، تذكّرتْ غيتون، فقالت: «لم يردني». كانت أوّل مرّةٍ تقول فيها الحقيقة لأحد. وأدهشها هذا الاعتراف.

- لو كانت الظروف مختلفة، لجعلتكِ تنسينه.

- ولتركتُك تحاول.

لحظت إيزابيل كيف ابتسم لها، فرأتْ الحزن في ابتسامته، ثم قال بعد سكتة: «أزرق؟».

- أزرق؟

- هذا لون الصبغ الذي عندي.

فابتسمتْ. «اللون المناسب».

بعد ذلك، حين كانت تقف في طابورٍ إثر آخر للحصول على طعامٍ شحيح، وفيما كانت تجمع الحطب من الغابة وتحمله إلى البيت، كانت تفكّر في تلك القُبلة.

كان الذي يخطر في بالها مرّةً تلو الأُخرى هو: يا لَيْتَ!

الفصل الثالث عشر

ذات يومٍ جميل من أواخر نيسان/ إبريل 1941م، تمدّدتْ إيزابيل فوق بطّانيةٍ صوفيّةٍ في الحقل، قبالة منزلها. رائحة القشّ الناضج تملأ منخرَيها. فلمّا أغمضتْ عينَيها كادت تنسى أنّ أصوات المحرّكات التي تتناهى إليها إنّما هي شاحنات ألمانيّة تنقل الجنود (والمنتجات الفرنسيّة) إلى محطّة القطار في تُور. فبعد ذلك الشتاء الكارثيّ، كانت تثمّن أشعّة الشمس التي تسقطُ على وجهها فتخدّرها.

- أنتِ هنا.

تنهّدتْ إيزابيل واعتدلتْ في جلستها.

كانت ڤيان ترتدي ثوباً قطنيّاً أزرق، تحوّل من أثر الصابون المنزليّ إلى لونٍ رماديّ. كان الجوعُ قد اقتصّ من جسمها في الشتاء، فبرزتْ عظام وجهها، وكبرت تلك الفجوة في أسفل حلقها. كانت تربط رأسها بوشاح، تُخفي شعرها الذي فقد لمعانه وتموّجه.

تحمل في يدها ورقة. «هذه لك. أوصلوها إلى البيت. أوصلها رجُل. لكِ». هكذا قالتْها وكأنّ الأمر يستحقّ التكرار.

نهضتْ إيزابيل فوقفت على قدمَيها، واختطفتْ الورقة من يد ڤيان. كُتب عليها بخطٍ رديء: الستائر مفتوحة. فرفعتْ بطّانيتها وبدأت تطويها. ما معنى ذلك؟ لم يستدعوها من قبل قطّ. لا بدّ من أنّ أمراً مهمّاً قد حدث.

- إيزابيل، هل لكِ أن تشرحي لي الأمر؟

- لا.

- الذي أوصلها هنري ناڤار، ابن صاحب النزُل. لم أكن أعلم أنّكِ تعرفينه.

قطّعتْ إيزابيل الرسالة إلى قطعٍ صغيرة، وتركتْها تسقط على الأرض.

فقالت ڤيان هامسةً: «إنّه شيوعيّ، لعلمك».

- عليّ الذهاب.

قبضتْ ڤيان على معصمها. «لا يمكن أن يكون تسلّلكِ طوال الشتاء لمقابلة شيوعيّ. تعرفين رأي النازيّين فيهم. من الخطر حتّى أن يروكِ مع هذا الرجُل».

فقالت إيزابيل، وهي تتخلّص من قبضة أختها: «أوتظنّين أنّي أعبأ برأي النازيّين؟». ركضتْ حافيةً تعبر الحقل. فلمّا وصلت إلى البيت التقطت حذاءً واستقلّتْ درّاجتها، ثمّ خرجت تقودها في الطريق الترابيّ، وهي تقول: أوروڤوار لأختها المذهولة.

وصلتْ إلى البلدة، ومرّت بمحاذاة محلّ القبّعات المهجور. كانت الستائر مفتوحة بالفعل، فانحرفت إلى الزقاق الحجريّ إلى أن وقفت.

أسندت درّاجتها على الجدار الجيري بجانبها ودقّت الباب أربع دقّات. لم يخطر في بالها إلّا عند الدقّة الأخيرة أنّ هذا قد يكون فخّاً منصوباً لها.

فلمّا خطرت لها الفكرةُ سحبتْ نفساً حادّاً ونظرتْ إلى يمينها وشمالها، لكنّ الوقت قد فات على أي تصرّف.

فتح هنري الباب.

هرعتْ إيزابيل إلى الداخل. كانت الغرفة ضبابيةً من دخان السجائر، وبها رائحةُ قهوة هندباء محروقة. ثمّة رائحة دمٍ في المكان. يصنعون السجق. كان الرجُل القويّ الذي أمسك بها أوّل مرّة (ديدييه) جالساً على مقعدٍ قديم، يعود بظهره إلى الوراء حتّى إنّ قائمَي المقعد الأماميّين ارتفعا عن الأرض، فكان يحكّ الجدار بظهره.

- ما كان ينبغي لك أن ترسل رسالةً إلى بيتي يا هنري. أثرتَ شكوك أختي.

- كان من المهمّ أن نتحدّث إليكِ على الفور.

شعرتْ إيزابيل بهزّة حماسٍ صغيرة. أتراهم سيطلبون منها أخيراً أن تفعل شيئاً غير وضع الأوراق في صناديق البريد؟ «تفضّل».

أشعل هنري سيجارة. أحسّت به ينظر إليها، وهو ينفث الدخان الرماديّ ويضع علبة الكبريت. «هل سمعتِ عن حاكم شارتر الذي اعتُقل وعُذِّب لأنّه شيوعيّ؟».

قطبت إيزابيل جبينها. «لا».

- «لقد آثر أن يشقّ حلقه بزجاجةٍ على أن يعترف، أو يذكر أسماء». أطفأ سيجارته بقاع حذائه، واحتفظ ببقيّتها في جيب معطفه: «إنّه يشكّل مجموعةً من أشخاصٍ مثلنا يريدون أن يلبّوا نداء ديغول. وهو؛ أي: الرجُل الذي شقّ حلقه، يحاول الوصول إلى لندن كي يتحدّث إلى ديغول بنفسه. يريد أن ينظّم حركة فرنسا الحرّة».

- لم يمت إذن؟ أو يقطع حباله الصوتيّة؟

فقالَ ديدييه. «لا. يعدّونها معجزة».

تفحّص هنري إيزابيل. «لديّ رسالة، مهمّة جدّاً، لا بدّ من إيصالها إلى رجُلنا في باريس. ومع الأسف فأنا مراقبٌ بشدّة هذه الأيام. وديدييه أيضاً».

- أوه!

فقال ديدييه: «لذلك فكّرتُ فيكِ».

- أنا؟

أدخل هنري يده في جيبه، وأخرج مظروفاً مكرمشاً. «هل لكِ أن توصلي هذا إلى رجُلنا في باريس؟ إنّه ينتظر استلام الرسالة خلال أسبوعٍ من الآن».

- ولكن...ليس لديّ أوسفايس.

قال هنري بهدوء: «وِي. وإن قبضوا عليكِ...». لم يكمل وترك تحذيره معلّقاً. «بالتأكيد لن ينظر إليكِ أحدٌ نظرة سوءٍ لو رفضتِ، فالأمر خطر».

كانت «خطر» كلمةً بسيطة. فإعلانات الإعدامات كانت تملأ كاريڤو، إعدامات تحدث في كلّ مكانٍ في المنطقة المحتلة. كان النازيّون يقتلون المواطنين الفرنسيّين لأقلّ مخالفةٍ يرتكبونها. وإن قُبض عليها بتهمة مساعدة حركة فرنسا الحرّة، فسوف تُسجن على أقلّ تقدير. مع ذلك فقد كانت تؤمن بحريّة فرنسا كما تؤمن أختها بالله. «إذن تريدون منّي أن أحصل على تصريح، وأذهب إلى باريس، وأوصل الرسالة، وأعود». لم يبدُ الأمر خطِراً حين قالته بتلك الطريقة.

قال هنري: «لا. نريد منكِ البقاء في باريس لتصبحي...صندوق بريدنا

إن صحّ التعبير. في الشهور القادمة سنرسل رسائل كثيرةً مثل هذه. والدك يمتلك شقةً هناك، ﭬي؟».

باريس.

هذا ما كانت تتوقُ إليه منذ أن نفاها أبوها. الرحيل عن كاريڤو والعودة إلى باريس، والانضمام إلى شبكةٍ تقاوم هذه الحرب. «لن يسمح لي أبي بالبقاء معه».

فقال ديدييه بهدوء، وهو يراقبها، ويقيّم ردّ فعلها: «أقنعيه إذن».

- ليس من النوع الذي يسهل إقناعُه.

- إذن لن تستطيعي. طيّب، حصلنا على الإجابة.

- مهلاً.

اقترب منها هنري، فرأتْ تردّداً في عينَيه، وأدركتْ أنه يريد منها رفض المهمّة. لا شكّ أنّه كان قلقاً عليها. رفعت رأسها ونظرتْ في عينَيه. «سأنفّذ المهمة».

- ستضطرّين إلى الكذب على كلّ أحبّائك، وتكونين خائفةً دائماً. هل تستطيعين العيش هكذا؟ لن تشعري بأمانٍ في أيّ مكان.

ضحكتْ إيزابيل ضحكةً صفراء. لم يكن هذا شيئاً غريباً على الحياة التي عاشتها منذ أن كانت صغيرة. ثمّ سألتْ هنري: «هل ستعتنون بأختي؟ أقصد تتأكدون أنّها في أمان؟».

فقال هنري: «هناك ثمنٌ لما نفعله». نظر إليها نظرةً حزينةً، تحمل الحقيقة التي تعلّموها جميعاً. لا يوجد أمان: «أرجو أن تفهمي ذلك».

لكنّ إيزابيل لم ترَ غير فرصتها في أن تفعل شيئاً يُحدث فرقاً. «ومتى أغادر؟».

- بمجرّد حصولك على الأوسفايس، وهذا لن يكون سهلاً.

*

بحقّ السماء كيف تفكّر هذه الفتاة؟

رسالةٌ من رجُل على طريقة صبيان المدرسة؟ وشيوعي؟

أخرجتْ ڤيان قطعة اللّحم الصلبة المخصّصة لهذا الأسبوع، ووضعتْها على منضدة المطبخ.

لطالما كانت إيزابيل رعناء، لا يمكن السيطرة عليها، تهوى كسر القواعد. عشرات الراهبات والمعلّمات أدركن أنّ إيزابيل لا يمكن احتواؤها، أو السيطرة عليها.

لكنّ هذا الأمر يختلف عن تقبيل ولدٍ في حلبة الرقص، أو الهروب لمشاهدة سيرك، أو رفض ارتداء حزامٍ وجوربَين طويلَين.

إنّه زمن حربٍ في دولةٍ محتلّة. أما زالت تعتقد أنّه لا عواقب لما تفعله؟

بدأتْ ڤيان تقطع اللّحم، وأضافت بيضةً ثمينةً إلى المزيج، وخبزةً بائتة، ثمّ أضافت الملح والفلفل. كانت تصنع فطائر اللّحم وسمعتْ صوت درّاجةٍ ناريّة عند البيت. ذهبت إلى باب البيت وفتحتْه قليلاً، بما يكفي لاستراق النظر.

كان يمكن رؤية رأس النقيب بيك وكتفيه فوق الجدار الحجري، وهو يترجّل من درّاجته. بعد لحظات، توقّفت شاحنةٌ عسكريةٌ خضراء خلفه، وظهر ثلاثة جنود ألمان آخرون في فنائها. تحدّث الرجال فيما بينهم، ثمّ تجمّعوا عند الجدار الحجري المغطّى بالورد، ذاك الذي بناه جدّها الأكبر. رفع أحد الجنود مطرقةً ثقيلةً وهوى بها على الجدار، فتحطّم. تكسّرت

الأحجار إلى قطعٍ صغيرة، وسقطت لَفيفةٌ من الورود فتناثرت بتلاتها الورديّة على العشب.

هرعت ڤيان إلى الفناء. «هير نقيب!».

وهوتْ المطرقةُ مرّةً أُخرى.

– «مدام». كان بيك يبدو مستاءً، وقد أزعجها أنّها أصبحت تعرفه جيّداً من تعابير وجهه: «لدينا أوامر بهدم جميع الجدران في هذا الشارع».

وبينما كان أحد الجنود يدمّر الجدار، اقترب الآخران من الباب الأمامي، وهما يضحكان على نكتةٍ ما، ثمّ مشيا من جانبها ودخلا بيتها بدون استئذان.

قال بيك، وهو يخطو فوق الحطام ليقترب منها: «تقبّلي مواساتي. أعرف أنكِ تحبّين الورود. ومع الأسف الشديد، فإنّ رجالي سينفّذون أمر مصادرةٍ من بيتك».

– مصادرة؟

عاد الجنديّان من البيت، يحمل أحدهما اللوحة الزيتيّة التي كانت فوق الموقد، فيما يحمل الآخر المقعد المحشوّ من الصالون.

قالت ڤيان بهدوء: «كان هذا المقعد المفضّل عند جدّتي».

– أنا آسف. لم أستطع أن أمنع هذا.

– «ما الذي يحدث...؟». لم تدر ڤيان ما إذا كان هذا من حسن الحظ أم سوئه حين قادت إيزابيل درّاجتها على كومة الأحجار وأسندتْها إلى الشجرة. لم يعد هناك حاجز بين بيتها والشارع.

كانت إيزابيل تبدو جميلةً، حتى بوجهها المتورّد من فرط التعب،

الملتمع من أثر العرق. ثمّة موجات شُقر تؤطّر وجهها. وفستانها الأحمر الباهت ملتصقٌ بجسمها حيث ينبغي له أن يلتصق.

توقّف الجنديّان للتحديق فيها، وهما يحملان سجّادة الأويبسون المطويّة التي كانت في صالة البيت.

خلع بيك قبّعته العسكريّة، وقال شيئاً للجنديّين اللّذَين كانا يحملان السجّادة، فهرعا إلى الشاحنة.

قالت إيزابيل: «هل حطّمتم جدارنا؟».

- يريد الشتومبانفوهرر(*) أن يكون بمقدوره رؤية جميع البيوت من الشارع. ثمّة شخص يوزّع دعايات معادية لألمانيا. وسوف نجده ونعتقله.

- أوتعتقدون أنّ مجرّد أوراقٍ بسيطة تستحقّ كلّ هذا؟

- ليست بسيطةً أبداً مدموازيل. فهي تحثّ على الإرهاب.

- فقالت إيزابيل، وهي تشبك ذراعَيها: «طبعاً، إلّا الإرهاب».

لم تستطع ڤيان تحويل عينَيها عن إيزابيل. كان هناك شيءٌ غير عادي. لقد بدا أنّ إيزابيل تتحكّم في مشاعرها، وتبقى ساكنة، مثل قطّة تستعدّ للانقضاض. قالت إيزابيل بعد قليل: «هير نقيب».

- وِي مدموازيل؟

مرّ الجنود من جانبهما، وهُم يحملون طاولة الإفطار.

تركتهم إيزابيل يمرّون، ومشت نحو النقيب. «بابا مريض».

قالت ڤيان: «مريض؟ ولماذا لم أعرف؟ ما به؟».

(*) شتومبانفوهرر (Sturmbannführer): رتبةٌ في ميليشيات الحزب النازي تساوي رتبة الرائد في الجيش. (م).

تجاهلتها إيزابيل. «طلب منّي أن أذهب إليه في باريس وأرعاه. ولكن...».

فقالت ڤيان بريبة: «يريدكِ أن ترعيه؟».

قال بيك: «تحتاجين إلى تصريح سفرٍ كي تذهبي يا مدموازيل. تعرفين هذا».

كانت إيزابيل بالكاد تتنفّس. «أعرف هذا. قلتُ...ربما يمكنك أن تجلب لي تصريحاً. أنت لديك أسرة، وبالتأكيد تعرف أهميّة العناية بالوالدَين».

لكنّ بيك استدار نحو ڤيان قليلاً بينما كانت إيزابيل تتحدّث، وكأنّها هي المعنيّة بالأمر.

- وِي، يمكنني أن أجلب لك تصريحاً من أجل حالة أسريّة طارئة كهذه.

- ممتنّة لك.

ذُهلت ڤيان. ألم يرَ بيك كيف كانت أختها تتلاعب به؟ ولماذا نظر إلى ڤيان، وهو يتّخذ قراره؟

وبمجرّد أن حصلتْ إيزابيل على ما تريده، عادت إلى درّاجتها. أخذتْها من مقبضها، وجرّتها ناحية الحظيرة. كانت العجلتان المطّاطيّتان تخبطان هنا وهناك على الأرض غير المستوية.

أسرعتْ ڤيان إليها، وما إن وصلتْ إلى أختها حتّى سألتْها: «پاپّا مريض؟».

- پاپّا بخير.

- كنتِ تكذبين؟ لماذا؟

كانت سكتةُ إيزابيل قصيرةً لكنّها ملحوظة. «لا أظنّ أنّ هناك سبباً للكذب. لقد انكشف الأمر الآن. كنتُ أتسلّل من البيت في صباحات الجمعة لألتقي هنري، والآن طلب منّي أن أذهب إلى باريس معه. لديه كما يبدو مسكن مؤقّت جميل في مونمارتر».

- هل جننتِ؟

- أنا أحبّ، أعتقد ذلك. قليلاً ربّما.

- تعبرين إلى فرنسا المحتلّة كي تقضي بضع ليالٍ في باريس في الفراش مع رجُلٍ ربّما تحبّينه؟ قليلاً؟

- أعرف. الأمر رومنسيٌّ جدّاً.

- «لا بدّ من أنّكِ محمومة. ربّما لديكِ مرضٌ في دماغك». ووضعتْ يدَيها على فخذَيها وأومأتْ باستنكار.

- إنْ كان الحبّ مرضاً، فأظنّني قد أُصبت.

شبكت ڤيان ذراعَيها. «يا إلهي! ما الذي ينبغي لي قوله كي أمنعك من هذه الحماقة؟».

نظرتْ إليها إيزابيل. «هل تصدّقينني؟ تصدّقين أنّني سأعبر إلى فرنسا المحتلّة لمجرّد اللّهو؟».

- يا إيزابيل، الأمر ليس مثل الهروب لمشاهدة السيرك.

- ولكن...هل تصدّقين أنّي أفعل هذا؟

هزّتْ ڤيان كتفَيها. «طبعاً. حماقةٌ كبرى».

الغريبُ أنّ إيزابيل بدت خائبة الأمل. «ابقي بعيدةً عن بيك في غيابي. لا تثقي به».

- كعادتك! تحذّرينني وكأنّكِ قلقةٌ عليّ، لكنّك لا تبقين معي. المهمّ ما تريدينه أنتِ؛ أمّا أنا وصوفي ففي ستيّن داهية.

- ليس صحيحاً.

- «بلى. اذهبي إلى باريس. استمتعي كما تشائين، ولكن لا تنسَي أبداً أنّك تتركينني أنا وابنة أختك وحدنا». شبكتْ ڤيان ذراعَيها، ونظرت إلى الرجُل الواقف في فنائها يشرف على نهب بيتها: «معه».

الفصل الرابع عشر

27 نيسان / ابريل 1995م

ساحل أورِغن

مربوطةٌ أنا مثل دجاجةٍ للشواء. أعرف أنّ أحزمة المقاعد الحديثة هذه مفيدة، لكنّها تصيبني برهاب الأماكن المغلقة. فأنا أنتمي إلى جيلٍ لا يتوقّع حمايته من كلّ خطر.

أتذكّر كيف كان الأمر في تلك الأيّام الخوالي حين يُضطرّ المرء إلى اتّخاذ خياراتٍ ذكيّة. كنّا نعرف المخاطر، ونُقبل عليها. أذكر أنّني قدتُ سيّارتي الشيفروليه القديمة بسرعةٍ شديدة، أضغط بقدمي على دوّاسة البنزين بقوّة، وأنا أدخّن سيجارةً، وأستمع إلى لويد پرايس يغنّي «لودي، مِس كلودي» عبر سمّاعاتٍ سود صغيرة، بينما الأطفال يترنّحون في المقعد الخلفي مثل قوارير البولنغ.

أعتقد أنّ ابني يخشى أن أهرب، وهو خوفٌ منطقيّ. ففي الشهر الماضي انقلبت حياتي كلّها رأساً على عقب. توجد لوحة في فنائي كُتب عليها «مباع»، وها أنا أترك بيتي.

يقول ابني: «ممرٌّ جميل للسيّارات، أليس كذلك؟». هذا ما يجيد فعله، أن يملأ الفراغ بالكلمات، يختارها بعناية. هذا ما يجعل منه جرّاحاً جيّداً. الدقّة.

- بلى.

ينعطف إلى موقف السيّارات الذي تصطفّ الأشجار المزهرة على جانبَيه، مثل ممرّ السيّارات. أزهار بِيض صغيرة تسقط على الأرض مثل قطعٍ من الدانتيلا على أرضيّة خيّاط، في تعارضٍ تامّ مع الأسفلت الأسْود.

أتخبّط، وأنا أعالج حزامي. يداي لا تنصاعان لإرادتي هذه الأيّام. يُحبطني ذلك حدّ الشتيمة.

يقول ابني، وهو يمدّ يده لفكّ حزامي: «سأفكّه لك».

خرج من السيّارة ووقف عند بابي قبل حتّى أن ألتقط حقيبتي.

ينفتح الباب. يمسك بيدي ويساعدني في الخروج. في تلك المسافة القصيرة بين الموقف والمدخل أقف مرّتَين لالتقاط أنفاسي.

يقول، ونحن نعبر موقف السيّارات: «الأشجار جميلةٌ في هذا الوقت».

- «نعم». أشجار برقوق مزهرة، رائعة ورديّة اللّون، لكنّني فجأةً أفكّر في أشجار الكستناء المزهرة في الشانزيليزيه.

يُحكم ابني قبضته على يدي، في تذكيرٍ لي بأنّه يفهم الألم الذي يعتريني لأنّني أغادر بيتاً ظلّ ملاذي قرابة خمسين عاماً. ولكنْ ينبغي النظر إلى الأمام الآن، لا إلى الخلف.

إلى «جمعيّة أوشن كرست للمتقاعدين وبيت الرعاية».

إن شئنا الإنصاف، لا يبدو مكاناً سيّئاً. قد يكون صناعياً بعض الشيء، بنوافذه العموديّة، والمساحة المعشّبة على نحوٍ مرتّب في الأمام، والعلم الأميركي الذي يرفرف فوق الباب. مبنى طويل، خفيض. أخمّنُ أنّه بُني في السبعينيّات، حين كان كلُّ شيءٍ قبيحاً. يوجد جناحان يمتدّان من الفناء المركزيّ، حيث يجلس المسنّون على كراسيهم المتحرّكة كما أتخيّل، يديرون وجوههم حيث الشمس، ينتظرون. حمداً لله أنّني لن أسكن في الجانب الشرقيّ من المبنى؛ أي: جناح بيت الرعاية. ليس بعد على أيّ حال. شكراً لكم، ما زلتُ قادرةً على تدبير حياتي وشقّتي.

يفتح جوليَن الباب، فأدخل. أوّل ما أراه صالةٌ فسيحةٌ مؤثّثةٌ على نحوٍ يجعلها أشبه بمكتب الضيافة في فندقٍ شاطئيّ، مع شبكة صيدٍ ممتلئةٍ بالأصداف معلّقةٍ على الجدار. أتخيّل أنّهم في الكرسمس يعلّقون الزينة على تلك الشباك، والجوارب على طرف الطاولة(*). ولعلّهم يلصقون لافتات الهو هو هو اللامعة على الجدران بعد عيد الشكر(**).

- هيّا يا ماما.

- حسنٌ. لا ينبغي أن أتلكّأ.

- ما رائحةُ المكان؟ عصيدة تبيوكا وحساء معكرونة الدجاج. أطعمةٌ ليّنة.

(*) من طقوس أعياد الميلاد في الثقافة المسيحيّة الغربيّة، حيث يُعلّق الأطفالُ جوارب قماشيّةً كبيرةً على الجدران أو غير ذلك لكي يملأها بابا نويل بالهدايا والألعاب. (م).

(**) هو هو هو: عبارةٌ ترمز إلى ضحكة بابا نويل، وعادةً ما توضع لافتات مزخرفة بهذه العبارة قبل الكرسمس ترقّباً لمجيء بابا نويل. وعيد الشكر يسبق الكرسمس بقرابة شهر (م).

بشكلٍ أو بآخر أمضي قدماً. لئن كان هناك شيءٌ واحدٌ لا أفعله أبداً، فهو التوقّف.

يقول ابني، وهو يفتح باب الشقّة رقم أ-317: «ها هي الشقّة».

الحقيقةُ أنّها جميلة. شقّة من غرفةٍ واحدةٍ، تحتوي على مطبخٍ في الزاوية عند الباب، وطاولة طعام بها أربعة كراسٍ، وصالةٍ بها طاولةٌ صغيرةٌ، وأريكةٌ، ومقعدان حول موقدٍ يعمل بالغاز.

التلفاز في الزاوية جديد، مزوّد بمشغّلٍ للفيديو. يبدو أنّ أحداً (ابني ربّما) وضع مجموعةً من أفلامي المفضّلة في الأرفف. جان دو فلوريت، لاهث، ذهب مع الريح.

ألحظُ أغراضي هنا. اللحاف الذي حِكتُه ملقى على الأريكة، وكتبي على الأرفف. في غرفة النوم (معقولة الحجم) أرى حاويات أدويتي عند الطاولة الجانبيّة، مثل غابةٍ صغيرةٍ من العلب البرتقاليّة البلاستيكيّة. عند جانبي المفضّل من السرير. من الغريب أنّ بعض الأشياء لا تتغيّر بعد موت الزوج، أو الزوجة، ومنها مكان النوم على السرير. الجانب الأيسر جانبي، على الرغم من أنّه لا أحد يشاركني السرير. على طرف السرير صندوقي، كما طلبتُ بالضبط.

قال بهدوء: «ما زال هناك وقتٌ لتغيير رأيك. تعالي معي إلى بيتي».

- انتهينا من هذا الأمر يا جولِيَن. أنت مشغولٌ جدّاً. ولا داعي لأن تشغل نفسك بي طوال الوقت.

- وهل تظنّين أنّ قلقي سيقلّ وأنتِ هنا؟

أنظر إليه. أحبّ طفلي هذا، وأعرف أنّ موتي سيحطّمه. لا أريده أن

براني أموت شيئاً فشيئاً. ولا أريد هذا لبناته أيضاً. أعرف هذا الأمر، أعرف أنّ بعض المناظر لا يُمكن أن تُنسى. أريدهم أن يتذكّروني كما أنا الآن، لا كما سأصبح حين ينتصر السرطان.

يقودني إلى الصالة الصغيرة، ويُجلسني على الأريكة. أنتظرُ، فيصبّ لنا بعض النبيذ ويجلس إلى جانبي.

أفكّر في شعوري بعد أن يغادر، وأنا واثقةٌ من أنّ الفكرة نفسها تشغل باله. يمدّ يده، وهو يتنهّد، إلى حقيبته، ويُخرج منها حزمة مظاريف. التنهيدةُ بدلٌ من الكلمات، نقلةٌ لا أكثر. في تلك التنهيدة أسمع اللحظةَ التي أذهب فيها من حياةٍ إلى أخرى. في هذه النسخة المخفّفة من حياتي يعتني ابني بي، بدلاً من أن أعتني به. الأمرُ ليس مريحاً لي، ولا له. «لقد دفعتُ فواتير الشهر. وهذه أشياءُ لا أعرف ما أفعل بها. أظنّها رسائل عشوائيّة».

آخذ الرسائل منه وأقلّب فيها. ثمّة رسالة «مخصّصة» من اللجنة الأولمبيّة الخاصّة...تقديرٌ مجّانيٌّ لتركيب مظلّة...رسالة تذكير من طبيب أسناني بأنّ آخر زيارةٍ لي كانت منذ ستّة شهور.

رسالةٌ من باريس.

ثمّة علامات حُمر عليها، كما لو أنّ مكتب البريد نقّلها من مكانٍ إلى آخر، أو أوصلها بالخطأ.

ابني دقيق الملاحظة، ولا يفوته شيء. «ماما. ما هذا؟».

يمدّ يده لأخذ المظروف، أريد أن أتمسّك به، أبعده عنه، لكنّ أصابعي لا تنصاع لإرادتي. دقّاتُ قلبي خبط عشواء.

يفتح جوليَن المظروف، ويُخرج منه بطاقةً بلون البيج. دعوة. يقول:

«الرسالة بالفرنسيّة. شيءٌ عن كوا ديغير. عن الحرب العالميّة الثانية إذن؟ هل هي لأبي؟».

طبعاً. يظنّ الرجالُ دوماً أنّ الحرب تخصّهم وحدهم.

- وهناك شيءٌ مكتوبٌ بخطّ اليد في الطرف. ما هذا؟

غير. تتضخّم الكلمةُ حولي، تكشف عن جناحَي الغراب الأسود، وتكبر أكثر حتّى لا أستطيع أن أشيح بوجهي عنها. دون إرادةٍ منّي، آخذ الدعوة. هي دعوةٌ إلى لمّ شملٍ للـ«پاسير» في باريس.

يريدون منّي الحضور.

كيف لي أن أذهب بدون أن أتذكّر كلّ ما جرى؟ الفظاعات التي ارتكبتُها، والسرّ الذي حفظته، والرجُل الذي قتلته...والذي كان ينبغي لي أن أقتله.

- ماما. ما معنى پاسير؟

بالكاد أجد في داخلي صوتاً كافياً كي أقول: «الشخص الذي ساعد الناس في الحرب».

الفصل الخامس عشر

أن تسأل نفسك سؤالاً، هكذا تبدأ المقاومة.

ثم تطرح السؤال نفسه على شخصٍ آخر.

-ريمكو كامبرت-

أيار / مايو 1941م

فرنسا

في يوم السبت الذي سافرتْ فيه إيزابيل إلى باريس، حرصتْ ڤيان على شغل وقتها. غسلت الملابس ونشرتْها في الخارج كي تجفّ، ثمّ جزّت عشب الحديقة، وقطفتْ قليلاً من الخضروات التي نضجت قبل موعدها. وفي نهاية ذلك النهار الطويل كافأت نفسها بحمّامٍ وغسلتْ شعرها. جلستْ تجفّف شعرها بمنشفةٍ، فسمعتْ طرقاً على الباب. جفلتْ من هذه الزيارة غير المتوقّعة، فزرّرت صديريّتها، وهي تمشي لفتح الباب. كان الماء يتقطّر على كتفَيها.

فلمّا فتحتْ الباب وجدت النقيب بيك واقفاً، يرتدي زيّة العسكري، مغبرّ الوجه.

قالت له، وهي تُبعد شعرها المبتلّ عن وجهها: «هير نقيب».

- مدام. ذهبتُ لصيد السمك مع زميلي اليوم، وقد أحضرتُ لكِ ما اصطدناه.

- سمك طازج؟ جميل. سأقليه لك.

- لنا يا مدام. أنتِ، وأنا، وصوفي.

لم تستطع ڤيان أن تحوّل عينَيها، لا عن بيك، ولا عن السمك الذي في يدَيه. كانت تعلم دون شكّ أنّ إيزابيل لم تكن لتقبل هذه الهديّة، مثلما تعلم أنّ صديقاتها وجاراتها سيزعمنَ رفضها أيضاً. طعام. من العدوّ. كان رفضه مسألة كرامة. الكلّ يعرف هذا.

- لم أسرق السمك، أو آخذه من أحد. وليس لفرنسيٍّ حقٌّ في هذا السمك أكثر من حقّي. ليس في قبوله أيّ عار.

كان محقّاً. فالسمكُ من البحر. لم يصادره. لكنّها وهي تمدّ يدها لأخذ السمك كانت تشعر بهذا التسويغ يحلُّ ثقيلاً عليها.

- نادراً ما تُشرّفنا بالأكل معنا.

- اختلف الوضعُ الآن. أختك ليست هنا.

تراجعت ڤيان كي تسمح له بالدخول. وكالعادة، خلع قبّعته بمجرّد دخوله، ومشى متثاقلاً على الأرضيّة الخشبيّة نحو غرفته. وما إنْ سمعتْ صوت بابه يُغلق حتّى أدركتْ أنّها ما تزال واقفةً في مكانها، تمسك بالسمك الملفوف في عددٍ جديدٍ من باريزر زايتُنغ، الجريدة الألمانيّة التي تصدر في باريس.

عادت إلى المطبخ. وحين وضعت السمك الملفوف بالورق على خشب التقطيع أدركت أنّه كان قد نظّف السمك، بل وأزال حراشفه كذلك. أشعلت الموقد ووضعت مقلاةً حديديّةً فوق النار، ثمّ أضافت ملعقةً ثمينةً من الزيت. وفيما كانت مكعّبات البطاطس والبصل تتحمّر، تبّلتْ السمك بالملح والفلفل ووضعتْه جانباً. وما هي إلّا دقائق حتّى امتلأ البيت بالرائحة اللذيذة، فجاءت صوفي تركض إلى المطبخ حتّى توقّفت عند المكان الفارغ الذي كانت فيه طاولة الإفطار سابقاً.

قالت بشيءٍ من التبجيل: «سمك».

استخدمتْ ڤيان ملعقتها لتقوير الخضروات وحَشَتْها بالسمك، ثمّ تركتْها على المقلاة. طقطقتْ قطراتٌ من الدهن، وسخُن الجلدُ حتّى صار مقرمشاً. في النهاية أضافتْ بضع ليمونات محفوظةٍ في المقلاة، وراقبتْها حتّى ذابتْ على بقيّة الأكل.

– أخبري النقيب بيك أنّ العشاء جاهز.

– سيأكل معنا؟ لا بدّ من أنّ طنط إيزابيل كانت ستقول شيئاً في هذه الحالة. فقبل أن تغادر قالت لي ألّا أنظر في عينَيه أبداً، وألّا أبقى معه في غرفةٍ واحدة.

تنهّدت ڤيان. ما يزال شبح إيزابيل يحوم في المكان. «هو الذي أحضر لنا السمك يا صوفي، وهو يسكن هنا».

– ذِي مامُن. أعرف. لكنّها قالت—.

– اذهبي ونادي النقيب لتناول العشاء. إيزابيل ذهبت، وذهب معها قلقها المفرط. هيّا، اذهبي.

عادت ڤيان إلى الموقد. وبعد لحظات حملت صينيّة خزفيّة ثقيلة وُضع عليها السمك المقليّ، محاطاً بالخضروات المشويّة وحبّات الليمون المحفوظة، وفوق ذلك كلّه البقدونس المنثور. كان يمكن إضافة شيءٍ من الزبدة للصلصة الليمونيّة اللاذعة في قعر المقلاة، التي كانت تسبح مع قطعٍ بنّية مقرمشة، لكنّ رائحة الطعام كانت رائعة على أيّ حال. حملتْ الصينيّة إلى غرفة الطعام فوجدتْ صوفي جالسة، والنقيب بيك إلى جانبها.

في كرسيّ أنطوان.

كادت ڤيان أن تتعثّر.

نهض بيك بأدبٍ وأسرع في سحب كرسيّها. توقّفتْ لحظةً، وهو يأخذ الصينيّة منها.

قال في حماس: «يبدو جديراً للغاية». مرّةً أُخرى، لم تكن لغته الفرنسيّة سليمة.

جلست ڤيان في مكانها إلى الطاولة. وقبل أن يخطر لها ما يمكن أن تقوله، وجدتْ بيك يصبّ لها النبيذ.

قال: «نبيذ مونتراشيت 1937 رائع».

أدركتْ ڤيان ما كانت ستقوله إيزابيل في هذا الموقف.

كان بيك جالساً قبالتها، وصوفي إلى يسارها. كانت تتحدّث عن شيءٍ حدث في المدرسة ذلك اليوم. فلمّا سكتتْ، قال بيك شيئاً عن صيد السمك، فضحكتْ صوفي، وشعرتْ ڤيان بغياب إيزابيل حادّاً كما كان وجودها.

ابقي بعيدةً عن بيك.

سمعتْ ڤيان التحذير بوضوحٍ كما لو أنّه صدر بصوتٍ عالٍ إلى جانبها. كانت تعلم أنّ أختها كانت على حقّ في هذا الأمر. لا يمكن لڤيان أن تنسى القائمة، والإعدامات، أو منظر بيك، وهو جالس إلى مكتبه، بصورة الفوهرر خلفه، وصناديق الطعام إلى جانبه.

كان يقول مبتسماً: «...بعد ذلك يَئست زوجتي من مهارتي مع الشباك...».

فضحكتْ صوفي. «بابّا سقط ذات مرّةٍ في النهر حين كنّا نصطاد. أتذكرين، مامْ؟ قال: إنّ السمكة كانت كبيرةً وسحبتْه بقوّة، صحيح مامْ؟».

طَرَفت ڤيان ببطء، واستغرقها الأمر لحظةً كي تلحظ أنّ الحوار قد عاد ليشملها. لقد بدا الوضع...غريباً على الأقل. فالحديثُ كان نادراً في جميع الوجبات السابقة مع بيك؛ إذْ مَن يجرؤ على الحديث في حضرة غضب إيزابيل؟ أمّا الآن فالأمر قد اختلف حين رحلتْ. كانت ڤيان تدرك ما يقصده، أنّ التوتّر الذي كان حاضراً في البيت، وعلى هذه الطاولة تحديداً، قد ذهب. تُرى أيّ تغييراتٍ أُخرى قد يأتي بها غياب إيزابيل؟ قالت: ابقي بعيدةً عن بيك. ولكنْ كيف لها أن تفعل ذلك؟ ومتى كانت آخر مرّةٍ تناولت فيها وجبةً شهيّةً كهذه...أو سمعتْ صوفي تضحك؟

*

كانت محطّة «غير دو ليون» مليئةً بالجنود الألمان حين ترجّلت إيزابيل من القطار. جرجرتْ درّاجتها معها، ولم يكن الأمر سهلاً، وحقيبتُها تخبط في فخذَيها طوال الوقت، وأهل باريس الهَلِعين يدفعونها هنا وهناك. منذ أشهر وهي تحلم بالعودة.

كانت باريس في أحلامها باريس، قبل أن تمسّها الحرب.

لكنّها رأت الحقيقة في عصر يومِ الاثنين هذا، بعد سفرٍ طويل. ربّما ترك الاحتلالُ المباني في أماكنها، ولم يكن ثمّة دليلٌ على القصف خارج المحطّة، غير أنّ ظلاماً يحوم في المكان حتّى في وضح النهار، وصمتاً يشي بالفقد واليأس، وهي تقود درّاجتها في الشارع.

كانت مدينتها الحبيبةُ مثل محظيّةٍ كانت جميلةً ذات يوم، لكنّها شاخت، وضمرت، وتعبت، وهجرها عشّاقها. ففي أقلّ من سنةٍ واحدةٍ فقدتْ هذه المدينةُ الساحرة روحها على وقع أحذية الجنود الألمان، وتشوّهت بالصلبان المعقوفة على كلّ مبنى.

لم ترَ إيزابيل سيّارات سوى المرسيدس بنز السُود بأعلام الصليب المعقوف ترفرف على مصدّاتها، وشاحنات الفير ماخت، مع دبّابات البانزر الرماديّة التي تظهر بين وقتٍ وآخر. كانت النوافذ معتّمةً طوال الطريق، وثمّة حاجز أمنيّ عند كلّ زاويتَين تقريباً. هناك لافتاتٌ بأحرف سُودٍ بارزةٍ تعرض إرشادات الطريق بالألمانيّة، كما قُدِّمت الساعات ساعتَين، وفق التوقيت الألماني.

أخفضتْ إيزابيل رأسها، وهي تقود درّاجتها من أمام أسراب الجنود الألمان، ومقاهي الأرصفة التي يجلس فيها رجالٌ بزيٍّ موحّد. فلمّا انعطفتْ إلى شارع «دي لا باستيل» رأت عجوزاً تقود درّاجةً وتحاول العبور من أحد الحواجز. وقف نازيٌّ في طريقها، يعنّفها بالألمانيّة التي من الواضح أنّها لم تكن تفهمها، فعادتْ المرأةُ أدراجها وابتعدت.

استغرق الطريق وقتاً أطول من المعتاد كي تصل إيزابيل إلى المكتبة، فلمّا أوقفتْ درّاجتها عند مدخلها شعرتْ بتوتّر أعصابها. أمالتْ الدرّاجة

على شجرةٍ وأقفلتْها، ثمّ قبضتْ على حقيبتها بيدَين مقفَزتَين متعرّقتَين، واقتربتْ من المكتبة. رأتْ نفسها في نافذة حانةٍ صغيرة، بشعرها الأشقر غير المتساوي في أسفله، ووجهها الشاحب، وشفتَيها الحمراوَين (فذلك كلّ ما تبقّى لديها من المكياج). كانت ترتدي أنسب ما يمكن للسفر؛ سترةً باللونَين: القشديّ، والأزرق الفاتح، مع تنوّرةٍ وقبّعةٍ باللّون الأزرق نفسه. لعلّ قفّازَيها كانا أسوأ ما في ملابسها، لكنّ أحداً لم يكن يلحظ شيئاً كهذا في تلك الأوقات.

كانت تريد أن تبدو في أبهى صورةٍ حين يراها والدها؛ فتاةً ناضجة.

كم مرّةً في حياتها عانت لترتيب شعرها وملابسها قبل أن تعود إلى شقّة باريس، فتكتشف أنّ أباها غير موجود، وأنّ ڤيان «مشغولة جداً» ولا تستطيع القدوم من الريف، وأنّ صديقةً لوالدها سوف تعتني بها في عطلتها؟ لقد مرّت بتلك التجربة بما يكفي لكي تتوقّف عن العودة إلى البيت في عطلاتها حين بلغت الثالثة عشرة. كانت تفضّل البقاء في غرفتها الفارغة وحيدةً على أن تتناقلها أيادٍ لا تعرف ما تفعل بها.

لكنّ هذه المرة كانت مختلفة. كان هنري وديدييه (وأصدقاؤهما في فرنسا الحرّة) في حاجةٍ إلى أن تسكن إيزابيل في باريس. ولن تخذلهم.

ستائر الواجهة كانت مسدلةً في المكتبة، والشبك الحديديّ غير مرفوع. جرّبت أن تفتح الباب فوجدتْه موصداً.

مغلقةٌ في الرابعة عصراً من يوم الاثنين؟ خطتْ إيزابيل نحو فجوةٍ في واجهة المحلّ اعتاد والدها أن يخبّئ المفتاح فيها، فوجدتْ المفتاح الصدئ ودخلتْ.

بدا المحلّ الضيّق كما لو أنّه يحبس أنفاسه في الظلام. لم تسمع أيّ

صوت. ولا حتّى صوت أبيها، وهو يقلّب الصفحات في روايةٍ يحبّها، أو صوت قلمه يخربش على الورق، وهو يصارع في كتابة الشعر الذي شَغَفه حين كانت مامُن على قيد الحياة. أغلقت الباب خلفها وضغطت زرّ الإضاءة عند الباب.

لا شيء.

تحسّستْ طريقها إلى الطاولة، فوجدتْ شمعةً في حاملٍ نحاسيٍ قديم. وحين بحثت في الأدراج وجدتْ أعواد ثقاب، فأشعلتْ الشمعة.

كشف الضوءُ، على ضآلته، حجم الدمار في كلّ زاويةٍ من المحلّ. فنصف الأرفف كانت فارغة، وكثير منها مكسورة معلّقة، والكتب مكوّمة كهرمٍ محطّم على الأرض. ثمّة يدٌ عملت على تمزيق الصور المعلّقة وتشويهها، وبدا الأمر كما لو أنّ لصوصاً كانوا يبحثون عن شيءٍ مخبوءٍ فأتلفوا كلّ ما وجدوه في طريقهم.

بابا.

غادرت إيزابيل المكتبة بسرعة، غير آبهةٍ حتّى بإرجاع المفتاح إلى مكانه، فقد وضعتْه في جيب سترتها وفكّت سلسلة درّاجتها وانطلقت. لزِمتْ الشوارع الصغيرة (التي لم تكن فيها حواجز) إلى أن وصلت إلى شارع «دي غرينيل». وهناك انعطفتْ وتقدّمت نحو البيت.

لقد ظلّت تلك الشقّة في شارع «دي لا بوردونيه» ملكاً لعائلة أبيها لأكثر من مئة عام. تصطفّ على جانبي الشارع بناياتٌ مصنوعةٌ من حجرٍ رمليّ، شرفاتها من حديد أسود وأسطحها من حجر؛ أمّا أفاريزها، فكانت مزخرفةً بمنحوتات الأطفال الملائكيّة. على بعد ستة مجمّعات سكنيّة ينتصب برج إيفل عالياً في السماء، يتسيّد المشهد. وفي الشارع نفسه عشرات

من واجهات المحالّ والمقاهي بمظلّاتٍ جميلة وطاولات؛ أمّا الطوابق العلويّة، فكانت جميعها سكنيّة. كانت إيزابيل في العادة تمشي ببطءٍ على الرصيف، تطالع الواجهات، تتأمّل الزحام والضجيج من حولها. لكنّ اليوم كان مختلفاً. المقاهي والحانات فارغة، والنساء بملابسهنّ البالية، ووجوههن المتعبة، واقفاتٌ في طوابير من أجل الطعام.

حملقتْ في النوافذ المعتمة، وهي تبحث عن المفتاح في حقيبتها. فتحت الباب، ثمّ دخلت إلى بهو البناية تجرّ درّاجتها. ربطتْ الدرّاجة في أنبوبٍ هناك، وتجاهلت المصعد الذي يبدو في حجم التابوت، ولا بدّ من أنّ أحداً لم يكن يستخدمه في تلك الأيّام مع شحّ الكهرباء، فصعدتْ على السلالم الضيّقة التي كانت تلتفّ حول مهوى المصعد، إلى أن وصلتْ إلى الطابق الخامس حيث يوجد بابان: واحدٌ على الجانب الأيسر، والآخرُ على اليمين؛ بابُهم. فتحتْ الباب بالمفتاح ودخلتْ، وخُيّل إليها أنّها سمعتْ من خلفها باب الجيران يُفتح. فلمّا استدارت لتحيّة مدام لوكلير، أُغلق الباب بهدوء. من الواضح أنّ العجوز الفضوليّة كانت تراقب القادمين والمغادرين من الشقة.

دخلتْ الشقّة وأغلقتْ الباب خلفها. «بابا؟».

وعلى الرغم من أنّ الوقت كان في منتصف النهار، إلّا أنّ تعتيم النوافذ أفشى الظلمة في المكان. «بابا؟».

لا جواب.

والحقُّ إنّ هذا أراحها. حملتْ حقيبتها إلى الصالون، فذكّرها الظلامُ بزمنٍ آخر، قبل وقتٍ طويل. كانت الشقّة مظلمةً عفنةً، وثمّة أنفاس، ووقعُ أقدام على الأرضيّة الخشبيّة.

اشش إيزابيل. من دون كلام. مامُن مع الملائكة الآن.

ضغطتْ على زرّ الإضاءة في الصالة، فاشتعل الضوء في ثريّا من الزجاج البنّي المزخرف، والتمعت أفرعها الزجاجية المنحوتة كما لو أنّها من عالمٍ آخر. في ذلك الضوء الضئيل أخذت تنظر حولها في الشقة، فلحظتْ غياب عدّة لوحاتٍ من الجدران. كانت الغرفة تعكس ذوقَ أمّها الرفيع ومجموعة الأنتيكات التي ورثوها عن أجيالٍ أخرى. وكان من المفترض أن يرى الناظر من النافذتّين (المغطّاتين الآن) مشهداً رائعاً لبرج إيفل.

أطفأتْ إيزابيل الضوء. لم يكن هناك من داعٍ لتبديد الكهرباء. جلستْ إلى الطاولة الخشبيّة الدائريّة التي فقدت نصوعها بعد آلاف الوجبات على مرّ الأعوام. مرّرت يدها بحبٌ على الخشب القديم.

اسمح لي بالبقاء هنا يا بابا. أرجوك. لن أسبّب لك أيّ مشكلة.

كم كان عمرها آنذاك؟ أحد عشر عاماً؟ اثني عشر؟ لم تعد تذكر. لكنّها كانت ترتدي زيّ المدرسة الأزرق على طراز البحّارة. وكأنّ دهراً مضى. ولكنْ ها هي قد عادتْ مرّةً أخرى، لتستجديه أن (يحبّها) يسمح لها بالبقاء.

لاحقاً (كم من الوقت مضى؟ لم تكن تدري كم جلست هناك في الظلام تستذكر أحداث والدتها، ذلك أنّها نسيت كيف يبدو وجهها في الواقع) سمعتْ وقع خطوات، ثم صلصلة مفتاحٍ في القفل.

سمعت صوت الباب يُفتح، فنهضتْ. أُغلق الباب. وسمعتْ أباها يدخل ويمرّ عبر المطبخ الصغير.

كانت في حاجةٍ إلى القوّة والعزم الآن، لكنّ شجاعتها التي كانت جزءاً لا يتجزّأ منها كعينَيها الخضراوين لا تنفكّ تضمحلّ في حضرة أبيها. قالت في الظلام: «بابا؟». كانت تعرف أنّه يكره المفاجآت.

سمعتُه يقف ساكناً.

بعدها صوتُ زرّ، فاشتعل ضوء الثريّا. قال بتنهيدةٍ: «إيزابيل. ماذا تفعلين هنا؟».

كانت تدرك تماماً أنّه لا ينبغي لها إظهار حَيرتها لهذا الرجُل الذي يكاد لا يهتمّ بمشاعرها. كانت لديها مهمّةٌ ينبغي أن تؤدّيها. «جئتُ كي أسكن معك في باريس. مرّةً أخرى».

- تركتِ ڤيان وصوفي وحدهما مع النازيّ؟

- صدّقني إنّهما في أمانٍ أكثر من دوني. فعاجلاً أم آجلاً كنتُ سأفقد أعصابي.

- «تفقدين أعصابك؟ كيف تفكّرين؟ سوف تعودين إلى كاريڤو صباح الغد». ومشى من أمامها إلى المنضدة الجانبيّة التي كانت مسندةً إلى الجدار المورَّق. صبّ لنفسه كأساً من البراندي، وازدرده في ثلاث جرعات، ثمّ صبّ كأساً أخرى. فلمّا انتهى من الكأس الثانية التفت إليها.

قالت: «لا». كَهربتْها تلك الكلمة. هل قالتها له من قبل؟ كرّرتها مرّةً أخرى: «لا».

- باردون؟

«قلت: لا، بابا. لن أخضع لأوامرك هذه المرّة. لن أرحل. هذا بيتي. بيتي». ضعُف صوتُها حين قالت ذلك: «تلك هي الستائر التي رأيتُ مامُن تخيطها. وهذه هي الطاولة التي ورثتْها عن أحد أجدادها. وعلى جدران غرفتي ستجد الأحرف الأولى من اسمي مرسومةً بأحمر شفاه مامُن حين كانت تغفل عنّي. وفي غرفتي السرّية، قلعتي، أراهنك أنّ دُماي ما تزال مصفوفةً على طول الجدار».

- إيزابيل—.

- «لا، بابا، لن أدعكَ تطردني. فعلتَ ذلك كثيراً. أنت أبي. وهذا بيتي. ونحن في حالة حرب. سأبقى هنا». وانحنتْ تلتقط حقيبتها.

في ضوء الثريّا الشاحب رأتْ الهزيمة تعمّق التجاعيد في وجنتَي أبيها. سقط كتفاه. وصبّ لنفسه كأساً أُخرى، وازدرده بنهم. من الواضح أنّه بالكاد يستطيع النظر إليها بدون مساعدة الكحول.

قال: «لا توجد حفلاتٌ تحضرينها هنا، وكلّ شباب الجامعة الذين تعرفينهم رحلوا».

- «هذا رأيك فيّ حقاً». ثم غيّرتْ الموضوع: «مررتُ بالمكتبة».

- فقال: «النازيّون. اقتحموا المكتبة ذات يومٍ، وصادروا كلّ كتب فرويد، وتوماس مان، وتروتسكي، وتولستوي، وأندرو موروا. أحرقوها كلّها، والموسيقى أيضاً. أفضّل أن أغلق المكتبة على أن أبيع ما يُسمح لي ببيعه فقط».

- وكيف تعيش إذن؟ من شِعرك؟

فضَحِك. كانت ضحكةً مرّةً مشوّشة. «ليس هذا وقت الهوايات اللطيفة».

- كيف إذن تشتري الطعام وتدفع للكهرباء؟

تغيّر شيءٌ في سِحنته. «حصلتُ على وظيفةٍ جيّدةٍ في أوتيل دي كريون».

- «في خدمة النزلاء؟». كان يصعب عليها تصديق أنّه يقدّم البيرة للألمان المتوحّشين.

أشاح ببصره.

فأحسّتْ إيزابيل بغثيان. «عند مَن تعمل بابا؟».

- القيادة الألمانيّة العليا في باريس.

عرفتْ الآن ذلك الشعور. كان شعوراً بالخزي. «بعد الذي فعلوه بكَ في الحرب الكبرى—».

- إيزابيل—.

- ما زلتُ أذكر القصص التي حكتْها لنا مامْن عنكَ وكيف كنتَ قبل الحرب، وكيف كسرتْكَ. كنتُ أحلم أنّك ذات يوم قد تتذكّر أنّك كنتَ أباً، ولكن يبدو أنّ هذا كلّه كان كذبة، أليس كذلك؟ لست سوى جبان. فما إن عاد النازيّون حتى ركضتَ لمساعدتهم.

- كيف تجرئين على محاكمتي والحكم على ما عانيته؟ عُمركِ ثمانية عشر عاماً.

قالت: «تسعة عشر. قل لي، بابا: هل تجلب القهوة لغزاتنا، أو تطلب لهم سيّارات الأجرة، وهم ذاهبون إلى مطعم مكسيم؟ هل تأكل بقايا غدائهم؟».

فبدا لها أنّ كبرياءه تنكمش أمام عينَيها. ولسببٍ ما شعرتْ بالندم على تلك الكلمات القاسية، على الرغم من أنّها كانت صادقةً ومستحقّة، لكنّها لم تستطع التراجع الآن. «إذن اتفقنا؟ سوف أعود إلى غرفتي القديمة وأقيم هنا. يمكننا حتّى ألّا نتحدّث إن كان هذا هو شرطك».

- لا يوجد طعامٌ هنا في المدينة يا إيزابيل. ليس لأهل باريس على أيّ حال. ثمّة لافتات في كلّ مكانٍ تحذّرنا من أكل الجرذان، وليست لافتاتٍ

اعتباطيّة. أصبح الناس يربّون الخنازير كي يأكلوها. ستكونين في راحةٍ أكبر في الريف، حيث الحدائق.

- أنا لا أبحث عن الراحة. ولا الأمان.

- عمّ تبحثين في باريس إذن؟

فأدركتْ خطأها. لقد نصبتْ بكلامها الأحمق فخّاً ووقعتْ فيه. صحيحٌ أنّ أباها يُمكن وصفه بأشياء كثيرة، لكنّه لم يكن أحمق. «جئتُ إلى هنا كي ألتقي بأحد أصدقائي».

- أرجوكِ لا تقولي إنّه واحد من الشبّان. قولي لي إنّكِ أذكى من ذلك.

- الريف كان مُضجراً يا بابا. وأنتَ تعرفني.

تنهّد، وصبّ لنفسه كأساً أُخرى من الزجاجة. ثمّ رأتْ العلامةَ الكاشفةَ تلتمع في عينَيه. كانت تعرف أنّه عمّا قريبٍ سيبتعد كي يكون وحيداً مع ما يشغل باله. «إنْ بقيتِ هنا فسوف تكون هناك قوانين».

- قوانين؟

- «تكونين في البيت في وقت حظر التجوال. دائماً، بدون استثناء. وتتركين لي خصوصيّتي. لا أطيق أن يحوم حولي أحد. وتذهبين إلى المحالّ كلّ صباحٍ لتأتي بما تسمح به بطاقات التموين. وتبحثين عن وظيفة». ثمّ توقّف، ونظر إليها بتضييق عينَيه: «وإنْ أوقعتِ نفسكِ في مصيبةٍ مثلما فعلتْ أختك، فسوف أطردك من هنا. انتهى».

- لستُ—.

- لا يهمّني. الوظيفةُ يا إيزابيل. ابحثي عن وظيفة.

كان ما يزال يتكلّم حين استدارت وابتعدت. ذهبتْ إلى غرفتها القديمة وأغلقت الباب. بقوّة.

لقد نجحتْ! لأوّل مرّةٍ تفرض رغبتها. لا يهمّ أسلوبه المستفزّ، أو انتقاده. المهمّ أنّها هنا. في غرفتها، في باريس، وسوف تبقى.

كانت الغرفة أصغر من حجمها المخزون في ذاكرتها، مصبوغةً بالأبيض البهيج، وبها سريرٌ مزدوجٌ بظلّةٍ من حديد، وسجّادةٌ قديمةٌ شاحبةٌ على الأرضيّة الخشبيّة، ومقعدٌ ذو ذراعَين بنمط لويس الخامس عشر، لكنّه ليس في أفضل حالاته؛ أمّا النافذة (المعتّمة) فكانت تطلّ على فناءٍ داخليّ في البناية. تذكرُ أنّها كانت تعرف دوماً متى يخرج الجيران لإلقاء القمامة؛ إذْ كانت تسمع قرقعاتهم وصوت غطاء الحاوية حين يُغلق. ألقتْ إيزابيل بحقيبتها على السرير، وبدأت تفضّها.

الملابس التي هاجرتْ بها وعادت ازدادت رثاثةً من كثرة الاستخدام، ولم تكن تستحقّ تعليقها في الدولاب مع الملابس التي ورثتْها عن أمّها، الفساتين القديمة الجميلة، والتنانير، والأردية الليليّة الحريريّة، والبذلات الصوفيّة التي قُصّت لتكون على مقاسها، وفساتين النهار المخيطة من الكريب. هذا إضافةً إلى مجموعةٍ من القبّعات والأحذية المناسبة للرقص، أو للمشي في حدائق رودين مع الشابّ المناسب الذي يتأبّط ذراعها. تلك ملابسُ لعالمٍ ولّى. لم يعد هناك شبّان «مناسبون» في باريس، بل لم يعد هناك شبّان أصلاً. كانوا كلّهم أسرى في معتقلات ألمانيا، أو مختبئين في مكانٍ ما.

حين أعادت ملابسها إلى العلّاقات في الدولاب، أغلقت الأبواب الخشبيّة، ثمّ دفعتْ الدولاب جانباً بما يكفي ليكشف عن بابٍ سرّي خلفه.

قلعتُها.

انحنتْ وفتحتْ الباب المصنوع في الجدار الأبيض بالضغط على

طرفه العلوي الأيمن. انفتح بصريرٍ، كاشفاً عن غرفة تخزين يبلغ مقاسها قرابة ستّ أقدام في ستّ، بسقفٍ مائل كانت حتّى وهي في العاشرة من عمرها تُضطرّ إلى أن تحدودب تحته. بالتأكيد ما تزال دُماها هناك، بعضها ملقاة على الأرض، وبعضها تقف منتصبة.

أغلقتْ إيزابيل الباب على ذكرياتها، وحرّكت الدولاب إلى مكانه. خلعتْ ملابسها بسرعةٍ وارتدت رداءً ورديّاً حريريّاً ذكّرها بمامُن. كان ما يزال ينضح بماء الورد، أو ربّما تظاهرت هي بذلك. فلمّا خرجتْ من الغرفة كي تنظّف أسنانها، توقّفت عند باب أبيها المغلق.

كانت تسمعه يكتب. قلمُه يخربش على ورقٍ خشن. من وقتٍ إلى آخر كان يُطلق اللعنات، ثمّ يسكت. (هكذا كان يفعل حين يشرب). ثمّ جاء صوتُ الزجاجة (أو القبضة) على الطاولة.

جهزّتْ إيزابيل نفسها للنوم، فرتّبت شعرها في بكرات، وغسلت وجهها، ونظّفت أسنانها، ثمّ وهي تعود إلى غرفتها سمعتْ أباها يلعن ثانيةً (بصوتٍ أعلى، ربّما كان يشرب)، وهرعت إلى غرفتها وأوصدت الباب خلفها.

لا أطيق أن يحوم حولي أحد.

*

من الواضح أنّ المقصود من تلك الجملة أنّه لا يطيق البقاء معها في غرفةٍ واحدة.

والغريبُ أنّها لم تلحظ ذلك العام الماضي حين أقامت معه في تلك الأسابيع بين طردها من المدرسة ونفيها إلى الريف.

صحيحٌ أنّهما لم يجتمعا في وجبةٍ واحدةٍ آنذاك، ولم يدُر بينهما حوارٌ

له معنى بما يكفي لكي يبقى في ذاكرتها، لكنّها لم تلحظ. كانا في المكتبة معاً، يعملان جنباً إلى جنب. أتراها كانت تشعر بامتنانٍ شديدٍ له بسبب وجوده، بحيث فاتها أن تلحظ صمته؟

على أيّ حال، ها هي لحظتْ الآن. انقضت ثلاثةُ أيامٍ في باريس. ثلاثة أيّامٍ صامتةٍ لا تُطاق.

دقّ على بابها بقوّة، فندّت عنها صرخة.

قال أبوها من وراء الباب: «أنا ذاهبٌ للعمل. بطاقات التموين على المنضدة. تركتُ لكِ مئة فرنك. أحضري ما يمكنكِ إحضاره».

سمعتْ صدى خطواته يتردّد في الرواق الخشبي، لفرط ثقلها تهزّ الجدران. وانغلق الباب.

تمتمتْ إيزابيل بعد أن وخزتْها نبرةُ صوته: «وأنتَ أيضاً، مع السلامة».

ثم تذكّرتْ.

اليومُ هو اليوم الموعود.

ألقتْ بغطاء السرير، ونهضت، وارتدتْ ملابسها بدون أن تأبه بإشعال الضوء. كانت قد قرّرتْ ما سترتديه: فستاناً رماديّاً باهتاً، وقبّعةً سوداء، وقفّازَين أبيضَين، وآخر صَندلٍ أسود تبقّى عندها. مع الأسف، لم تكن لديها أيّ جوارب طويلة.

تفحّصتْ نفسها في مرآة الصالون، تحاول أن تدقّق في مظهرها، لكنّ كلّ ما رأته فتاة عاديّة في فستانٍ باهت، تحمل حقيبةً سوداء.

فتحتْ حقيبتها (مرّةً أخرى)، وحدّقت في بطانتها المخطّطة التي تشبه الأرجوحة الشبكيّة. كانت قد شقّت شقاً صغيراً في البطانة، وأدخلت المظروف السميك فيه، وبذلك تبدو الحقيبة فارغةً حين تُفتح. وحتّى

لو أوقفها أحدٌ (ولن يوقفها؛ إذْ لماذا يوقف أحدٌ فتاةً في التاسعة عشرة خرجتْ لتناول الغداء؟) فلن يرى شيئاً في الحقيبة سوى أوراقها، وبطاقات التموين، وشهادة السكن، والأوسفايس. وهذا بالضبط ما ينبغي أن يكون فيها.

خرجتْ إيزابيل من الشقّة عند العاشرة صباحاً، وامتطت درّاجتها تحت الشمس الساخنة، وانطلقت باتجاه المرسى.

فلمّا وصلتْ إلى شارع «دي ريفولي» وجدتْه ممتلئاً بالسيّارات السّود، والشاحنات العسكريّة الخضر بخزّانات الوقود المربوطة على جوانبها، ورجالٍ على ظهور الأحصنة. كان هناك باريسيّون في الخارج أيضاً، يمشون على الأرصفة، أو يقودون درّاجاتهم في الشوارع القليلة التي سُمح لهم بالقيادة فيها، أو ينتظرون في طوابير الطعام الطويلة. كان من السهل معرفتهم، بنظرة الهزيمة على وجوههم، والطريقة التي يهرعون بها أمام الألمان، يتحاشون النظر إليهم. وعند مطعم مكسيم تحت المظلة الحمراء الشهيرة رأتْ مجموعةً من النازيّين ذوي الرتب العالية ينتظرون دورهم للدخول. وكانت هناك شائعةٌ رائجةٌ تقول: إنّ أفضل لحوم البلاد ومنتجاتها الزراعية تُرسل مباشرةً إلى مكسيم كي تُقدَّم للقيادة العليا.

وعندئذٍ رأتْه. المقعد الحديديّ قرب مدخل «كوميدي فرونسيز»، المسرح الوطنيّ الفرنسيّ.

سحبتْ إيزابيل فرامل درّاجتها بقوّة، فانتهتْ إلى وقفةٍ مفاجئةٍ غير مستقيمة، ثمّ رفعتْ قدماً واحدة عن دوّاستها. التوى كاحلها قليلاً حين وضعتْ ثقلها على القدم الأُخرى. وللمرّة الأولى شابَ حماسَها شيءٌ من الخوف.

فجأةً أحسّت بأنّ حقيبتها ثقيلةٌ وملحوظة. تجمّع العرقُ في راحتَيها وعلى حافّة قبّعتها.

تخلّصي من هذا الشعور.

كانت مبعوثة، لا تلميذةً مرعوبة. وأيّاً ما كان الخطر القائم فقد قبلتْ به.

وبينما كانت واقفةً هناك، اقتربتْ امرأةٌ من المقعد وجلستْ غير مواجِهةٍ لإيزابيل.

امرأة. لم تتوقّع أن يكون الطرف الآخر امرأة، لكنّ هذا بعث فيها الطمأنينة.

أخذتْ نفَساً عميقاً مهدِّئاً، وجرّتْ درّاجتها في ممرّ المشاة المزدحم، ثمّ من أمام الأكشاك التي تبيع الحليّ والأوشحة. فلمّا جلست إلى جانب المرأة، قالت ما طُلب إليها أن تقوله: «برأيك هل سأحتاجُ إلى مظلّة اليوم؟».

استدارتْ المرأة. «أتوقّع أن يظلّ الجوّ مشمساً». كان لها شعرٌ داكنٌ تلفّه بعناية، وملامح بارزة شرق أوروبية. كانت أكبر منها (ربما في الثلاثين)، لكنّ النظرة في عينَيها كانت أكبر من ذلك.

شرعتْ إيزابيل في فتح حقيبتها، فقالت المرأة بحدّة: «لا. اتبعيني». ونهضتْ بسرعة.

ظلّت خلف المرأة، وهي تشقّ طريقها عبر «كُور نابوليون» ومتحف اللوفر الشامخ حولهما، على الرغم من أنّه لم يبدُ مكاناً كان ذات يومٍ قصراً للأباطرة والملوك، لا سيّما مع أعلام الصليب المعقوف في كلّ مكان، والجنود الجالسين على المقاعد في حديقة تويلري. ثمّ دخلتْ المرأة

مقهى صغيراً في شارعٍ جانبي. فربطتْ إيزابيل درّاجتها في شجرةٍ في الخارج، وتبعتْ المرأة، واتّخذت مقعداً قبالتها.

- أحضرتِ المظروف؟

أومأت إيزابيل. فتحتْ حقيبتها في حجرها، وسحبت المظروف وناولته المرأة من تحت الطاولة.

عندها دخل ضابطان ألمانيّان واتّخذا طاولةً غير بعيدة.

مالت المرأة وعدّلت قبّعة إيزابيل. كانت حركةً حميميةً غريبةً، كما لو أنّهما أختان، أو صديقتان. ثمّ مالت أكثر وهمستْ في أذنها: «هل سمعتِ عن لي كولابو؟».

- لا.

- المتعاونون. رجالٌ ونساءٌ فرنسيّون يعملون مع الألمان. ليسوا من نظام فيشي فقط. كوني حذرة. دائماً. لا يتورّع هؤلاء المتعاونون عن الإبلاغ عنّا للغستابو. وبمجرّد أن يعرف الغستابو اسمك، يضعونك تحت المراقبة الدائمة. لا تثقي بأحد.

أومأتْ إيزابيل.

فعادت المرأة إلى الوراء ونظرتْ إليها. «ولا حتّى بأبيكِ».

- وما أدراكِ عن أبي؟

- نريد أن نلتقيكِ.

- ها نحن التقينا.

- فقالت بهدوء: «نحن نريد. ففي غداً عند الظهر في طرف شارع سان جيرمان وشارع دو سان سيمون. لا تتأخّري، ولا تحضري درّاجتك، ولا يتبعنّك أحد».

فوجئتْ إيزابيل بسرعة نهوض المرأة على قدميها. في لحظةٍ واحدةٍ ذهبت، وتركتْ إيزابيل عند طاولة المقهى وحيدةً، تحت عينَي جنديٍّ ألمانيٍّ في الطاولة الأُخرى. أجبرتْ نفسها على طلب كافيه أو ليه، على الرغم من أنّها كانت تعرف أنّه لا يوجد حليب، وأنّ القهوة ستكون من الهندباء. فرغتْ سريعاً من قهوتها، وانصرفت.

في زاوية الشارع رأت إعلاناً يحذّر من عقوبة الإعدام جزاءً على المخالفات. وإلى جانبه، في نافذة السينما، ملصقٌ أصفر كُتب عليه: أونتردي أو جويف. يُمنع دخول اليهود.

حين فكّت وثاق درّاجتها، ظهر الجنديّ الألماني فجأةً إلى جانبها. اصطدمت به.

سألها باهتمامٍ ما إذا كانت بخير؛ أمّا جوابها، فكان ابتسامةَ تمثيلٍ وإيماءة. «مي وي. ميرسي». عدّلت فستانها وتأبّطت حقيبتها، وامتطت الدرّاجة، ثمّ انطلقت بعيداً عن الجنديّ بدون أن تنظر وراءها.

لقد نجحتْ. حصلت على الأوسفايس، وجاءت إلى باريس، وأجبرت أباها على السماح لها بالبقاء، وسلّمتْ أوّل رسالةٍ سريّةٍ لها إلى «فرنسا الحرّة».

الفصل السادس عشر

أسبوعٌ مضى على غياب إيزابيل، ولم تملك ڤيان إلّا أن تعترف في قرارة نفسها بأنّ الحياة في لو جاردان كانت أسهل بكثير. فلا مزيد من فورات الغضب، ولا التعليقات المستترة التي تُقال على مسمعٍ من النقيب بيك، ولا مزيد من دفع ڤيان إلى شنّ معارك في حربٍ خاسرةٍ أصلاً. مع ذلك فقد كان البيت هادئاً جداً في غيابها، وفي ذلك الصمت وجدت ڤيان نفسها تفكّر بصوتٍ عال.

كما يحدث الآن. ها هي مستيقظة منذ ساعات، تحدّق في سقف غرفتها، في انتظار الفجر.

نهضتْ أخيراً عن سريرها ونزلت. صبّت لنفسها كوباً من قهوة البلّوط المرّة، وخرجتْ إلى الفناء الخلفي، فجلست على الكرسيّ الذي كان يفضّله أنطوان، تحت الأغصان الملتوية لشجرة الطقسوس، تستمع إلى الدجاجات، وهي تخدش التراب في كسل.

نفدَ كلّ ما لديها من مال، ولم يبق لهم إلّا أن يعتاشوا على راتب التدريس الضئيل.

كيف لها أن تنجح؟ ووخدها...

أنهت قهوتها، على الرغم من سوئها. حملتْ الكوب الفارغ إلى بيتها الموحش الذي بدأ يسخن، فرأتْ باب النقيب بيك مفتوحاً. كان قد ذهب إلى عمله، وهي في الفناء. جيّد.

أيقظتْ صوفي، واستمعت إلى آخر أحلامها، ثمّ أعدّت لها فطوراً من الخبز المحمّص ومربّى الخوخ. وبعدها انطلقتا إلى البلدة.

حثّت ڤيان ابنتها على الإسراع قدر الإمكان، لكنّ صوفي كانت في مزاجٍ سيّئ، تتبرّم طوال الوقت، وهي تجرّ قدمَيها جرّاً. فلم تصلا إلى محلّ الجزارة إلّا عند العصر. كان هناك طابورٌ طويلٌ يتلوّى بدءاً من باب المحلّ وحتّى الشارع. اتخّذتْ ڤيان مكانها في نهاية الطابور، وألقت نظرةً متوتّرةً إلى الألمان الواقفين في الميدان.

تحرّك الطابور قليلاً، ولحظتْ ڤيان ملصقاً إعلانيّاً جديداً فيه جنديٌّ ألمانيٌّ مبتسمٌ، يقدّم خبزاً لمجموعة أطفالٍ فرنسيّين. وإلى جانب الملصق إعلانٌ جديدٌ كُتب عليه: «لا يُسمح بدخول اليهود».

قالت صوفي، وهي تشير إلى الإعلان: «مامُن، ما معنى هذا؟».

فقالت ڤيان بحدّة: «اششش صوفي! تحدّثنا في هذا من قبل. بعض الأمور لم يعد يجوز الحديث عنها».

- لكنّ الأب جوزيف يقول—.

فقالت ڤيان باستياءٍ، وهي تضغط على يد صوفي: «اششش!».

تحرّك الطابور، ومشت ڤيان إلى الأمام حتّى وجدت نفسها تنظر إلى امرأةٍ ذات شعرٍ رماديّ، وجلدٍ يبدو كالشوفان في لونه وقوامه.

عبَست ڤيان وسألتها، وهي تقدّم لها بطاقة التموين الخاصّة باللّحم: «أين مدام فورنييه؟». كانت ترجو أن يكون قد تبقّى شيءٌ من اللّحم.

فقالت المرأة: «لا يُسمح بدخول اليهود. بقي لدينا حمامٌ مدخّن».

- لكنّه محلّ فورنييه.

- لم يعد محلّهم. هو محلّي الآن. تريدين الحَمام أم لا؟

أخذت ڤيان علبة الحمام المدخّن، وألقت بها في سلّتها، ثمّ قادت صوفي إلى خارج الطابور بدون أن تقول شيئاً. في الطرف المقابل كان هناك حارسٌ ألمانيٌّ يقف أمام البنك، يذكّر الفرنسيّين بأنّ الألمان استولوا عليه.

تأفّفتْ صوفي وقالت: «مامُن، لكنّه لا يجوز أن—».

- «اششش». قبضتْ على يد صوفي وانطلقت بها. كانت هذه تُبدي انزعاجها، وهما تمشيان على الطريق الترابي نحو البيت، بين تكشيرٍ، وتنهيدٍ، وتبرّم.

غير أنّ ڤيان تجاهلتها.

فلمّا وصلتا إلى البوّابة المكسورة في لو جاردان، انتزعتْ صوفي يدها ووقفت في مواجهة أمّها. «كيف يأخذون محلّ الجزّار؟ لو كانت طنط إيزابيل هنا لفعلتْ شيئاً. لكنّكِ تخافين!».

- «وماذا تريدين منّي أن أفعل؟ أهبّ في الميدان، وأطالب بإعادة المحلّ لمدام فورنييه؟ وعندها ما الذي سيفعلونه بي؟ أولم تري الملصقات في البلدة؟». ثمّ أخفضتْ صوتها وتابعت: «إنّهم يعدمون الفرنسيّين يا صوفي. يعدمونهم».

- ولكن—.

- من دون لكن. هذه ظروف خطِرة يا صوفي. لا بدّ من أن تفهمي هذا.

فالتمعتْ عينا صوفي بالدمع. «كم أتمنّى لو كان پاپا هنا».

جذبتْ ڤيان ابنتها إليها واحتضنتْها بقوّة. «وأنا أيضاً».

طال عناقُهما، ثمّ انفصلتا ببطء. «سنصنع المخلّل اليوم، ما رأيك؟».

- أوه، هذا ممتع!

ولم تملك ڤيان إلّا أن توافقها. «هيّا اذهبي واقطفي الخيار. وأنا سأجهّز الخلّ».

أخذتْ تنظر إلى ابنتها، وهي تركض، تتملّص من أشجار التفّاح المحمّلة بالثمار، في اتجاه الحديقة. وما إن اختفتْ حتّى عاد القلق إلى ڤيان. ما عساها تفعل من دون المال؟ كانت الحديقة مثمرةً، وستكون لديهم فواكه وخضروات، ولكنْ ماذا عن الشتاء القادم؟ كيف يمكن لصوفي أن تظلّ في صحّةٍ جيّدةٍ من دون لحمٍ، أو حليبٍ، أو جبن؟ كيف ستشتري لها حذاءً جديداً؟ كانت ترتجف، وهي تمشي إلى بيتها المظلم الساخن. في المطبخ أمسكت بطرف المنضدة وأرخت رأسها.

- مدام؟

التفتتْ بسرعة، حتّى كادت أن تقع.

كان في الصالة جالساً على الأريكة، يقرأ كتاباً، وإلى جانبه مصباحٌ زيتيّ.

- «نقيب بيك». نطقتْ اسمه بهدوء، ثمّ مشت باتجاهه بيدين مشبوكتَين مرتجفتَين: «درّاجتك ليست أمام البيت».

- «كان الطقسُ جميلاً، فقرّرتُ أن أمشي من البلدة». ثمّ نهض، ولحظتْ أنّه قصّ شعره، وجرح نفسَه، وهو يحلق هذا الصباح. ثمّة شقٌّ أحمرُ صغيرٌ يشوّه خدّه الأبيض: «تبدين منزعجة. ربّما لأنّك لم تنامي جيّداً منذ أن رحلتْ أختك».

فنظرتْ إليه متعجّبة.

- أسمعكِ تمشين في الظلام.

فقالت ببلاهة: «وأنت تكون مستيقظاً أيضاً».

- أنا أيضاً يصيبني الأرق كثيراً. أفكّر في زوجتي وأطفالي. ابني صغيرٌ جداً. ولا أدري ما إذا كان سيعرفني أصلاً.

قالت وقد فوجئتْ باعترافها: «أفكّر في الشيء نفسه عن أنطوان». كانت تُدرك أنّها لا ينبغي أن تفتح قلبها هكذا مع هذا الرجُل (العدو)، لكنّ تعبها وخوفها كانا أكبر من قدرتها على إبداء القوّة.

حدّق بيك فيها، فرأتْ في عينَيه الفَقد الذي يشتركان فيه. كان كلاهما بعيداً عن أحبّائه، تحت وطأة الوحدة.

- حسناً، لا أريد أن أتطفّل عليكِ طبعاً، ولكنْ لديّ أخبار لك. بعد بحثٍ طويل، اكتشفتُ أنّ زوجكِ في معتقلٍ في ألمانيا. لي صديقٌ يعمل حارساً هناك. زوجُك ضابط. أكنتِ تعرفين ذلك؟ لا شكّ أنّه كان شديد البأس في ساحة المعركة.

- وجدتَ أنطوان؟ أهو حيّ؟

أخرج من جيبه مظروفاً مكرمشاً مبقّعاً. «هذه رسالة كتَبها لك. ومن الآن يمكنكِ أن ترسلي إليه بعض الأغراض. أعتقد أنّها ستسعده كثيراً».

خارت قدماها. «أوه...يا إلهي!».

أمسك بها بيك، وثبّتها، وقادها إلى الأريكة. فلمّا جلستْ على الكرسيّ شعرتْ بدموعها تتجمّع في عينَيها. همستْ، وهي تأخذ الرسالة منه وتضمّها إلى صدرها: «ممتنّة لطيبتك».

- صديقي أوصل الرسالة لي. ولكن أرجو أن تعذريني، فمن الآن فصاعداً لا بدّ من أن تتواصلا عبر البطاقات البريديّة فقط.

تبسّم لها، فانتابها شعورٌ غريب، كما لو أنّه كان يعرف عن الرسائل الطويلة التي كانت تدبّجها في عقلها ليلاً.

قالت: «ميرسي». وتمنّت لو أنّها لم تكن كلمةً صغيرةً هكذا.

فقال وهو يستدير ويتركها: «أورفوار مدام».

كانت الرسالة المكرمشة المتّسخة تهتزّ في قبضتها، فتتراقصُ حروف اسمها وتتشوّش وهي تفتحها.

حبيبتي ڤيان

أوّلاً، لا تقلقي عليّ. أنا بخيرٍ وآكل جيّداً بما يكفي. ولستُ مصاباً. حقاً. لا توجد أيّ رصاصة في جسمي.

من حُسن حظّي أنْ حصلتُ على سرير علويّ في الثكنة، فصار لي شيءٌ من الخصوصيّة بوجود رجالٍ كثيرين. من نافذةٍ صغيرةٍ أرى القمر وأبراج نورمبرغ ليلاً. لكنّ القمر هو الذي يذكّرني بك.

الطعام هنا يقيم أودَنا. ولقد اعتدتُ أكل كرات الطحين وقِطع البطاطس الصغيرة.

أشتاقُ إلى طبخك. أحلم به، وبك، ويصوفي طوال الوقت.

أرجوكِ حبيبتي لا تقلقي. كوني قويّة وقفي إلى جانبي حين أخرج من هذا القفص. أنتِ شعاع الشمس في ظلامي، والأرض التي أقف عليها. بسببكِ أنتِ أستطيع أن أجتاز هذا الأمر. أرجو كذلك أن تجدي فيّ القوّة يا ڤي، وأن تجدي بسببي طريقةً لتبقي قويّة.

احضني ابنتي بقوّةٍ في الليل، وأخبريها أنّ أباها يفكّر فيها من مكانٍ بعيد.

وقولي لها: إنّني سأعود.

أحبّك يا ڤيان

ملحوظة: الصليب الأحمر يوصل الطرود. فإن أمكنكِ أن ترسلي قفّازات الصيد، سأكون سعيداً جداً. الشتاءاتُ باردةٌ هنا.

فرغتْ ڤيان من قراءة الرسالة، وراحت من فورها تعيد قراءتها.

*

كان من المفترض أن تلتقي إيزابيل بعد أسبوعٍ من وصولها بالآخرين الذين يشاركونها الحماس لتحرير فرنسا، فكانت متوتّرةً، وهي تمشي إلى وجهةٍ مجهولةٍ، بين أهل باريس ذوي الوجوه الشاحبة، والألمان الذين يبدو على سيمائهم الشبَع. في صباح ذلك اليوم ارتدت فستاناً أزرق من الحرير الصناعيّ، وحزاماً أسود، وصفّفتْ شَعرها في تموّجاتٍ دقيقةٍ، ثمّ ثبّتته إلى الخلف. لم تضع مكياجاً، واكتفتْ بارتداء قبّعة بيريه قديمةٍ زرقاء من مدرسة راهبات، وقفّازَين أبيضَين.

ظلّت تقول لنفسها، وهي تمشي في الشارع: «أنا ممثّلة، وهذا دور أؤدّيه. أنا تلميذةٌ عاشقة، تسلّلتُ كي ألتقي حبيبي...».

تلك هي القصّة التي قرّرت الالتزام بها واختارت ملابسها على أساسها. كانت واثقةً من أنّها تستطيع إقناع الألمان بها لو أوقفوها.

استغرقها المشوار وقتاً أطول من المعتاد بسبب الحواجز الأمنيّة على الشوارع، لكنّها التفّت أخيراً حول حاجزٍ ومضتْ إلى شارع سان جيرمان.

وقفت تحت عمود إنارةٍ، وكانت حركة السير من خلفها بطيئة. أبواق سيّاراتٍ تزمّر، ومحرّكات تهدر، وحوافر تدقّ الأرض بتثاقل، وأجراس درّاجات ترنّ. غير أنّ الشارع كان منزوع الحياة والألوان، بعد أن كان ذات يومٍ يفيض بهما.

توقّفتْ عربة شرطةٍ إلى جانبها، وخرج منها رجُل الدرَك، بعباءته المطويّة على كتفَيه. كان يحمل في يده عصاً بيضاء.

- برأيكِ هل سأحتاج إلى مظلّةٍ اليوم؟

جفلتْ إيزابيل وندّت عنها صرخةٌ خفيفة. كانت تنظر بتركيزٍ شديدٍ إلى الشرطيّ الذي كان يعبر الشارع نحو امرأةٍ خارجةٍ من مقهى، حتّى إنّها نسيت ما جاء بها. قالت: «أ-أتوقّع أن يظلّ الجوّ مشمساً».

كَلْبَشَ الرجُلُ ذراعها (فلا توجد كلمةٌ أُخرى تصف ما فَعَله. كانت قبضتُه قويّةً جداً)، وقادها إلى الشارع الذي أصبح فجأةً فارغاً. كم غريب أن تستطيع عربة شرطةٍ واحدة تشتيت أهل باريس في غمضة عين. لم يبق شخصٌ واحدٌ يُعتقل، أو يشهد اعتقالاً، أو يقدّم المساعدة.

حاولتْ إيزابيل أن ترى الرجُل الماشي إلى جانبها، لكنّهما كانا

يتحرّكان بسرعةٍ شديدة. ألقتْ نظرةً إلى حذائه الذي يخبّ بسرعةٍ فوق الرصيف. جلدٌ قديم، وخيوطٌ ممزّقة، وثقبٌ يظهر بين علامات اهتراء على إبهام القدم اليسرى.

قال، وهما يعبران الطريق: «أغمضي عينيكِ».

- لماذا؟

- اسمعي الكلام.

لم تكن إيزابيل من الذين يطيعون الأوامر «عميانيّاً» (وهذه نكتةٌ كان يمكن أن تقولها في ظروفٍ أُخرى)، لكنّها كانت تتحرّق إلى أن تكون جزءاً من هذا الأمر. أغمضتْ عينَيها ومشت إلى جانبه، فكادت تتعثّر بقدمَيها أكثر من مرّة.

توقّفا أخيراً، وسمعتْه يطرق باباً أربع طرقات، ثمّ وقع أقدامٍ، وسمعتْ أزيز بابٍ يُفتح، فهبّت في وجهها رائحة سجائر لاذعة.

خطر ببالها (في تلك اللحظة نفسها) أنّها قد تكون في خطر. جرّها الرجُل إلى الداخل، وأُغلق الباب خلفهما. فتحتْ إيزابيل عينَيها، على الرغم من أنّها لم تؤمر بذلك. من الأفضل أن تُبدي شجاعتها الآن.

كانت الرؤية مغبّشةً حين دخلتْها، فالغرفة مظلمةٌ مثقلةٌ بدخان السجائر. جميع النوافذ معتّمة، ولا ضوء إلّا من مصباحَين زيتيَّين يقبقان بقوّةٍ على الأطياف والدخان.

ثلاثةُ رجالٍ يجلسون إلى طاولةٍ خشبيّةٍ عليها منفضةٌ طافحةٌ، اثنان منهم ما يزالان شابّين، يرتدي كلّ منهما معطفاً مرقّعاً وبنطالاً بالياً؛ أمّا الذي توسّطهما فكان رجُلاً كبير السنّ نحيلاً كالقلم، بشاربٍ رماديٍّ مبروم

الطرفَين، عرفتْه إيزابيل؛ أمّا الواقفة عند الجدار الخلفيّ، فلم تكن سوى المرأة المكلّفة بالاتّصال معها. كانت ترتدي الأسود في كلّ ملابسها، كالأرملة، وتدخّن سيجارة.

سألتْ الرجُل المسنّ: «مسيو ليڤي؟ أهذا أنت؟».

فسحبَ قبّعة البيريه الرثّة عن صلعته اللامعة، وأمسك بها بين يدَيه المشبوكتين. «إيزابيل روسينيول».

سأله أحدُهم: «تعرفها؟».

- كنتُ من مرتادي مكتبة أبيها. وآخرُ ما سمعته عنها أنّها متهوّرة، غير منضبطة، وجذّابة. كم مدرسةً طردَتْكِ يا إيزابيل؟

- أكثرُ من كثير، كما يقول أبي. ولكنْ ما الفائدة من تعلّم أين نُجلِس ابن السفير الثاني في حفل عشاءٍ هذه الأيّام؟ كما أنّني ما أزال جذّابة.

- وما يزال ما في رأسك على لسانك. العقل الطائش والكلمات الملقاة على عواهنها قد تودي بنا جميعاً إلى الموت.

أدركتْ إيزابيل على الفور خطأها، فهزّت رأسها.

قالت المرأة، وهي تنفث الدخان: «أنتِ صغيرةٌ جداً».

- لم أعد صغيرة. ارتديتُ اليوم ملابسي كي أبدو أصغر، وأعتقد أنّ هذا في صالحنا. فمن سيشكّ في أنّ فتاةً في التاسعة عشرة قد تفعل شيئاً ممنوعاً؟ وأنتِ تحديداً ينبغي أن تعرفي أنّ المرأة يمكنها أن تفعل أيّ شيءٍ يستطيعه الرجُل.

استند ليڤي إلى ظهر كرسيّه وأخذ يتفحّصها.

- أحد أصدقائنا أشاد بك كثيراً.

هنري.

- يقول: إنّكِ كنتِ توزّعين منشوراتنا منذ أشهر. وأنوك تقول: إنّكِ كنتِ رابطة الجأش أمس.

ألقتْ إيزابيل نظرةً إلى المرأة (أنوك)، التي هزّت رأسها موافقة. «أنا مستعدّة لأيّ شيءٍ في صالح قضيّتنا». ثم شعرتْ بصدرها يضيقُ من الترقّب. لم يخطر ببالها قطّ أنّها يمكن أن تقطع كلّ تلك المسافة، ثمّ لا يُسمح لها بالانضمام إلى هؤلاء الذين قضيّتُهم قضيّتها.

وأخيراً قال المسيو ليفي: «ستحتاجين إلى أوراقٍ مزوّرة. هُويّة جديدة. نحن سنتكفّل بذلك، لكنّ الأمر سيستغرق بعض الوقت».

فسحبتْ إيزابيل نَفَساً حادّاً. لقد قُبِلت! شعرتْ بحسٍّ من القَدَر يملأ الغرفة. من الآن سوف تفعل شيئاً مهمّاً. كانت موقنةً بأنّ هذا سيحدث.

قال ليفي: «حتّى الآن ما يزال النازيّون مغرورين، لا يصدّقون بأنّ أيّ شكلٍ من أشكال المقاومة قد ينجح ضدّهم، لكنّهم سيرون خلاف ذلك، وعندها يزداد الخطر علينا. ينبغي ألّا تخبري أحداً بعملك معنا. لا أحد. ولا حتّى أسرتك. وهذا من أجل سلامتهم وسلامتك».

لن يكون صعباً على إيزابيل إخفاء ما تفعله. فلا أحد يهتمّ بما تفعل، أو أين تذهب. قالت: «وي. طيّب، ما المطلوب منّي؟».

تحرّكت أنوك بعيداً عن الجدار، وداست على حزمة الأوراق الإرهابيّة. لم تستطع إيزابيل أن ترى العنوان بوضوح. كان شيئاً منشوراً عن تفجيرات سلاح الطيران الملكي البريطاني في هامبورغ وبرلين. أدخلتْ يدها في جيبها وأخرجت صُرّة صغيرة، بحجم شدّة أوراق اللّعب، ملفوفةً بورقٍ

أسمر مجعّد، ومربوطةً بحبلٍ ملفوف. «عليكِ أن توصلي هذه إلى التاباك في الحيّ القديم بأمبواز، الذي يقع تحت القصر مباشرة. ولا بدّ من أن تصل غداً عند الرابعة عصراً بحدّ أقصى». ناولتْ إيزابيل الصرّة مع نصف ورقةٍ من فئة الخمسة فرنكات: «ناوليه هذه الورقة، فإنْ أخرج لكِ النصف الآخر، أعطِه الصرّة. وعندها تغادرين. لا تنظري خلفك، ولا تتحدّثي إليه».

فلمّا أخذت الصرّة والورقة سمعتْ طرقاً قصيراً حادّاً على الباب من خلفها. فجأةً حلّ التوتّر في المكان، وتبادل الحاضرون النظرات. كان هذا تذكيراً لإيزابيل بأنّها بصدد عملٍ خطر. قد يكون شرطيّاً من يقرع الباب، أو نازيّاً.

تَبعتها ثلاث طرقات.

هزّ المسيو ليفي رأسه في هدوء.

وفُتح الباب، فدخل رجُلٌ سمينٌ ذو رأسٍ يشبه البيضة، وعلى وجهه بُقع الشيخوخة. قال الشيخ، وهو يدخل: «وجدتُه يحوم في الأرجاء». مشيراً إلى طيّار من سلاح الطيران الملكي ما يزال ببذلة الطيران.

همست إيزابيل: «مون ديو !». في حين هزّت أنوك رأسها بتجهّم.

قالت أنوك بصوتٍ هامس: «إنّهم في كلّ مكان، يسقطون من السماء». وابتسمتْ قليلاً على النكتة: «فارّون، هاربون من السجون الألمانيّة، طيّارون أُسقطوا».

حدّقت إيزابيل في الطيّار. كان الجميع يعرف جزاء تقديم العون للطيّارين البريطانيّين، فقد كُتب ذلك في اللافتات الإعلانيّة في كلّ مكان: السَجن، أو الموت.

قال ليڤي: «أحضروا له ملابس».

واستدار الشيخ إلى الطيّار وبدأ يتحدّث إليه.

من الواضح أنّ الطيّار لم يكن يتحدّث الفرنسيّة.

قالت إيزابيل بالإنجليزيّة: «سوف يحضرون لك ملابس».

حطّ الصمتُ على المكان، وشعرتْ بالجميع ينظرون إليها.

قالت أنوك بهدوء: «تتحدّثين الإنجليزيّة؟».

– بدرجة مقبولة. أمضيتُ عامين في مدرسة سويسريّة.

فحطّ صمتٌ آخر. ثمّ قال ليڤي: «أخبري الطيّار أنّنا سنخفيه إلى أن نجد طريقةً لتهريبه خارج فرنسا».

قالت إيزابيل: «أويمكنكم فعل ذلك؟».

فقالت أنوك: «ليس في الوقت الحالي. لا تقولي له هذا طبعاً. أخبريه فقط أنّنا في صفّه، وأنّه في مأمنٍ (نسبيّاً)، وعليه أن يلتزم بالتعليمات».

مشت إيزابيل إلى الطيّار. فلمّا اقتربت منه رأت الخدوش على وجهه، ولحظت أنّ شيئاً مزّق كُمّ بذلته. كانت متأكّدةً من أنّ السواد في مفرق رأسه من أثر الدم الجاف. قالت في نفسها: «لقد أسقط قنابل على ألمانيا».

قالت للشابّ: «لا تعتقد أنّنا جميعاً مستسلمون».

قال: «الحمد لله أنّكِ تتحدّثين الإنجليزيّة. سقطت طيّارتي قبل أربعة أيّام. وظللتُ رابضاً في أماكن خفيّة مظلمة. لم أعرف إلى أين أذهب، حتّى أمسك بي هذا الرجُل وجرّني إلى هنا. هل ستساعدونني؟».

أومأت له.

– كيف؟ هل يمكنكم إعادتي إلى بلادي؟

- ليست لديّ أجوبة لأسئلتك. التزم بالتعليمات. وهناك شيء آخر يا مسيو.

- نعم، سيّدتي.

- إنّهم يخاطرون بحياتهم لمساعدتك. هل هذا واضح؟

فأومأ لها.

ثمّ استدارت إيزابيل لتواجه زملاءها. «لقد فهم الأمر وسوف يلتزم بالتعليمات».

قال ليڤي: «ميرسي، إيزابيل. أين نجدك بعد أن تعودي من أمبواز؟».

ومنذ أن سمعتْ السؤال قفز في ذهنها جوابٌ فاجأها. قالت جازمة: «المكتبة. سوف أفتحها من جديد».

حدجها ليڤي وقال: «ماذا عن أبيك؟ ما أعرفه هو أنّه أغلق المكتبة حين أملى عليه النازيّون ما ينبغي أن يبيعه».

قالت بمرارة: «أبي يعمل مع النازيّين. ولا يهمّني رأيه. طلب منّي أن أجد وظيفة، وسوف تكون هذه وظيفتي. بذلك تستطيعون الوصول إليّ في أيّ وقت. هذا هو الحلّ الأمثل».

فقال ليڤي: «نعم». على الرغم من أنّ في صوته نبرةً من عدم اقتناع: «حسنٌ إذن. سوف تحضر لكِ أنوك أوراقك الجديدة بمجرّد أن نحصل على الكارت ديتانتيته. سنحتاج إلى صورة لك». ضيّق عينَيه ثمّ أضاف: «إيزابيل، اسمحي لي أن أتصرّف كشيخٍ وأذكّر فتاةً شابّةً بأنّه ما عاد بالإمكان لها أن تتصرّف بتهوّر. تعلمين أنّي صديق لوالدك (أو على الأقل كنتُ صديقه إلى أن أظهر جلده الحقيقي)، وقد سمعتُ منه حكايات كثيرة

عنكِ. لقد حان الوقتُ لكي تكبري وتلتزمي بما تؤمرين به. بالحرف، وبدون استثناء. هذا من أجل سلامتك، وسلامتنا».

شعرتْ إيزابيل بالحرج من اضطراره إلى قوله ذلك، وأمام الجميع. «أكيد».

قالت أنوك: «وإن قُبض عليك، فإنّهم يقبضون على امرأة. مفهوم؟ لديهم بعض الـ...الإساءات الخاصّة بنا».

ابتلعتْ إيزابيل ريقها. كان قد خطر ببالها السَجنُ والإعدام؛ أمّا هذا فلم تفكّر فيه قطّ. بالطبع كان لا بدّ أن تضعه في الحسبان.

- كلّ ما نطلبه من بعضنا، أو نرجوه على أيّ حال، يومان.

- يومان؟

- إن قُبض عليكِ...واستجوبوك. حاولي ألّا تقولي شيئاً لمدّة يومين. بذلك نجد فرصةً للاختفاء.

- يومان. ليس وقتاً طويلاً.

قالت أنوك بوجهٍ عابس: «أنتِ صغيرةٌ جداً».

*

في الأيّام الستّة الماضية، غادرت إيزابيل باريس أربع مرّات. فقد أوصلت طروداً إلى أمبواز، وبلوا، وليون. قضتْ في محطّات القطارات وقتاً أطول مما قضتْه في شقّة أبيها، وكان هذا مريحاً لها وله. فهو لا يأبه بما تفعله ما دامت تقف في طوابير الطعام نهاراً وتعود إلى البيت قبل حظر التجوال؛ أمّا الآن فقد عادت إلى باريس، تجهّز نفسها للمرحلة الثانية من الخطّة.

– لن أسمح لكِ بفتح المكتبة.

حدّقت إيزابيل في والدها. كان واقفاً قرب النافذة المعتّمة، وفي ذلك الضوء الشاحب بدت الشقّة كبيرة على نحوٍ رثّ، فقد كانت مجهّزة بأنتيكات مزخرفة جمعوها جيلاً بعد جيل. على الجدران لوحات جميلة في أُطُرٍ مذهّبة ثقيلة (بعضها ليست في أماكنها، فتعلّقت أطيافٌ سودٌ على الجدار. لعلّ والدها باعها). ولو رُفع التعتيم عن النوافذ لانكشف منظرٌ يحبس الأنفاس لبرج إيفل.

قالت بعناد: «طلبتَ منّي أن أجد وظيفة». كانت الصرّة الملفوفة بالورق في حقيبتها قد منحتها قوّةً جديدةً للتعامل مع أبيها. وإلى جانب ذلك، فقد كان نصف مخمور. لن يلبث أن يتمدّد على الكرسيّ في الصالون، وهو يئنّ في نومه. حين كانت صبيّةً، كانت تلك الأصوات الحزينة تحثّها على الرغبة في مواساته، لكنّ الأمر لم يعد كذلك.

قال بجفاف: «كنتُ أقصد وظيفةً بأجر مدفوع». وصبّ لنفسه جرعةً أُخرى من البراندي.

– ما رأيك أن تستخدم طاسة الحساء؟

تجاهل تعليقها. «لا نقاش. انتهى. لن أسمح لكِ بفتح المكتبة».

– لقد فتحتها. اليوم. قضيتُ ما بعد الظهر كلّه في تنظيفها.

بدا وكأنّه تجمّد في مكانه. ارتفع حاجباه الرماديّان الكثيفان. «أنتِ نظّفتِ؟».

– «نعم نظّفت. أعرف أنّ هذا سيفاجئك، بابا، لكنّي لستُ في الثانية عشرة من عمري». مشت إليه وقالت: «سأفتحها يا بابا. لقد قرّرت. وهذا

سيمنحني الوقت لكي أقف في طابور الطعام، والفرصة كي أكسب شيئاً من المال. سيشتري الألمان كتباً منّي. صدّقني».

- وتتودّدين إليهم؟

شعرتْ بطعنة تعليقه. «لا تنسَ أنّكَ تعمل عندهم».

حدّق فيها.

وحدّقت فيه.

قال أخيراً: «طيّب. افعلي ما تريدين. لكنّ المخزن الخلفي يخصّني. يخصّني وحدي يا إيزابيل. سأقفله وآخذ المفتاح، وعليكِ احترام رغبتي بأن لا تقربي من ذلك المخزن أبداً».

- لماذا؟

- لا يهمّ.

- هل تقابل نساء هناك؟ على الأريكة؟

هزّ رأسه. «أنتِ حمقاء. أحمدُ الله أنّ أمّك لم تعش إلى هذا اليوم فترى حالك».

كرهتْ إيزابيل ذلك الشعور بالجرح العميق. قالت: «أو حالك يا بابا. أو حالك».

الفصل السابع عشر

في منتصف حزيران/ يونيو 1941م، في اليوم ما قبل الأخير من الفصل الدراسي، كانت ڤيان عند السبّورة، تصرّف أحد الأفعال الفرنسيّة، وإذا بها تسمع طقطقةً أضحت مألوفةً لديها. صوت درّاجةٍ ألمانيّة.

قال جِيل فورنييه بمرارة: «الجنود مرّةً أُخرى». لقد بات الصبيُّ دائم الغضب مؤخّراً، ولا يُلام على ذلك. فقد استولى النازيّون على محلّ أسرته (محلّ الجزارة) وسلّموه لأحد المتعاونين.

قالت لتلاميذها: «ابقوا هنا». وخرجت إلى الرواق. وجدت رجلَين، أحدهما ضابطٌ من الغستابو في معطفٍ أسود طويل، والآخر فردٌ من الدرَك يُدعى پول، وقد زاد وزنه منذ أن بدأ تعاونه مع النازيّين. كانت بطنه تعاني تحت حزامه. كم مرّةً رأته يطوف في شارع فكتور هوغو، يحمل من الطعام ما يزيد عن قدرة أهله على الأكل، بينما هي تقف في طابور طويل، تتشبّث ببطاقة تموينٍ لا تأتي إلّا بأقلّ القليل؟

مشت نحوهما، ويداها على خصرها. شعرتْ بأنّها مكشوفةٌ للأعين في فستانها المهلهل، بكمّيه وياقته المهترئة، وعلى الرغم من أنّها رسمت

خطّاً بنّياً على ظهر ساقيها العاريَين، إلّا أنّها كانت حيلةً مفضوحة. فلم تكن ترتدي جوربَين طويلَين، ما جعلها تشعر بأنّها مكشوفةٌ للرجُلَين. انفتحت أبوابُ الفصول على يمين الرواق ويساره، وخرج المعلّمون ليرَوا ما يريده الزائران. كانوا ينظرون إلى بعضهم، ولكنْ بدون كلمة.

مشى ضابط الغستابو بتصميمٍ واضح نحو فصل المسيو پارِتسكي في نهاية المبنى؛ أمّا البدين پول، فقد كان يجاهد ليلحق به، وهو يلهث خلفه.

وما هي إلّا لحظات حتّى جرّ الشرطيُّ الفرنسيُّ مسيو پارِتسكي إلى خارج الفصل.

تجهّمت ڤيان حين عبروا من جانبها. كان مسيو پارِتسكي قد درّسها الحساب قبل زمن، وزوجته هي التي تعتني بأزهار المدرسة. نظر إليها نظرةً مرتعبة، فقالت بحدّة: «پول، ما الأمر؟».

توقّف الشرطيّ. «إنّه متّهم».

فصاح پارتسكي، وهو يحاول الفكاك من قبضة پول: «لم أقترف شيئاً!».

تنبّه رجُل الغستابو على الأصوات فاشرأبّ ينظر، ثمّ مشى بسرعةٍ نحو ڤيان، وكعب حذائه يخبط على الأرض. شعرتْ برعشة خوفٍ من لمعة عينَيه. «مدام. لماذا توقفيننا؟».

- إنّه.. إنّه صديقي.

فقال، وهو يُطيل الكلمة كي تبدو سؤالاً: «حقاً؟ إذن فأنتِ تعرفين أنّه يوزّع دعايةً مناوئة لألمانيا».

قال پارتسكي: «إنّها صحيفة. وكلُّ ما أفعله هو قول الحقيقة للشعب الفرنسيّ. أخبريهم يا ڤيان!».

فشعرت ڤيان بالتركيز ينصبّ عليها.

سألها الضابط، وهو يفتح دفتراً ويُخرج من جيبه قلماً: «اسمك؟».

بلّلتْ شفتَيها بتوتّر. «ڤيان موريياك».

دوّن اسمها. «وتعملين مع مسيو پارتسكي، في توزيع المطويات؟».

صاحت: «لا! إنّه معلّمٌ زميلٌ يا سيّدي. وليس لي علمٌ بأيّ شيءٍ آخر».

أقفل الدفتر. «ألم يخبركِ أحدٌ أنّ من الأفضل لكِ أن لا تسألي؟».

فقالت وقد جفّ حلقُها: «لم أقصد».

رسم ابتسامةً بطيئة. أرعبتْها ابتسامته، وعطّلتْ حواسّها بما يكفي لكي يستغرقها الأمرُ دقيقةً كي تستوعب جملته التالية.

- أنتِ مفصولةٌ يا مدام.

بدا أنّ قلبها توقّف. «ع-عفواً؟».

- أتحدّث عن وظيفتكِ كمعلّمة. أنتِ مفصولة. اذهبي إلى بيتك يا مدام، ولا تعودي. أنتِ لا تصلحين قدوةً لهؤلاء التلاميذ.

*

في نهاية اليوم مشت ڤيان إلى البيت مع ابنتها، ولم يفتْها أن تجيب بين الفينة والأخرى عن سؤالٍ من أسئلة صوفي التي لا تنتهي، لكنّها طوال الوقت كانت تفكّر في سؤالٍ واحد: ما العمل الآن؟

ما العمل الآن؟

كانت المحالّ والأكشاك مغلقةً في هذا الوقت، والسّلال والصناديق فارغة. كانت هناك لافتات في كلّ مكانٍ تقول: لا يوجد بيض، لا توجد

زبدة، لا يوجد زيت، لا يوجد ليمون، لا توجد أحذية، لا توجد خيوط، لا توجد أكياس ورقيّة.

ظلّت تقتّر بالمال الذي تركه أنطوان، بل بلغت حدّ البخل، على الرغم من أنّ المبلغ كان يبدو كبيراً في البداية. كانت قد استخدمته من أجل الضروريّات فقط، كالخشب، والكهرباء، والغاز، والطعام. مع ذلك، فقد نفد. كيف إذنْ ستعيش هي وصوفي من دون راتب التدريس؟

في البيت كانت تتحرّك في خَدَر. جهّزتْ قدراً من حساء الملفوف، وأضافت إليه الجزر المبشور الذي أصبح ناعماً كالمعكرونة. فلمّا انتهت، غسلتْ الملابس، ونشرتْها على حبل الغسيل، ثمّ أخذت ترتق الجوارب إلى أن حلّ الظلام. وفي وقتٍ مبكّرٍ جدّاً، حملت صوفي إلى السرير، على الرغم من تذمّرها وشكواها.

جلست وحيدةً (تشعر كما لو أنّ سكّيناً تطعنها في حلقها) إلى طاولة الطعام، ومعها بطاقةٌ بريديّةٌ وقلم.

الأعزّ أنطوان:

لم يعد لدينا مال، وقد فقدتُ وظيفتي.

ما عساي أفعل؟ الشتاء قادم بعد أشهر.

ثمّ رفعت القلم، وبدت الكلمات الزُرق كما لو أنّها تتضخّم على الورق الأبيض.

لم يعد لدينا مال.

أيّ امرأةٍ ترسل رسالةً كهذه إلى زوجها الأسير؟

كوّرت البطاقة وألقت بها في الموقد البارد الذي كساه السخام. هناك ظلّت وحيدةً، كرةً بيضاء على سريرٍ من رمادٍ.

لا.

لا يجوز أن تبقى في البيت. ماذا لو وجدتْها صوفي، وقرأتْها؟ استعادتها من الرماد وحملتْها إلى الفناء، فقذفت بها إلى السقيفة. هناك ستدوسها الدجاجات وتنقرها إلى أن تموت.

جلستْ في الخارج على الكرسيّ الذي يحبّه أنطوان، تشعر بالدوار ممّا حدث في حياتها فجأة، وهذا الخوف المريع الذي حلّ بها. لو عاد الزمان بها، لأمسكتْ يدها أكثر... ولتخلّت عن أشياء... ولتركتهم يأخذون مسيو پارتسكي بدون أن تقول شيئاً.

صرَّ البابُ من خلفها، ثمّ أُغلق.

صوتُ أقدامٍ وأنفاس.

عليها أن تنهض وتغادر، لكنّ التعب كان أقوى منها.

ظهر بيك من خلفها.

– هل ترغبين في كأس نبيذ؟ نبيذ شاتو مارغو من عام 1928م. صنفٌ ممتاز كما يبدو.

نبيذ. كانت تريد أن تقول: نعم، من فضلك (لعلّها لم تكن في حاجةٍ إلى كأس نبيذ أكثر من الآن)، لكنّها لم تستطع. ولا استطاعت أن تقول: لا، فلم تقل شيئاً.

سمعتْ صوت السدّادة، ثمّ بقبقة النبيذ إذْ يُصبّ في الكأس. وضع كأساً مملوءةً على الطاولة إلى جانبها. كانت للنبيذ رائحةٌ حلوةٌ، غنيّةٌ، مُسكِرة.

صبّ لنفسه كأساً، وجلس في الكرسيّ إلى جانبها، ثمّ قال بعد صمتٍ طويل: «سوف أغادر».

فالتفتتْ إليه.

- «لا تتحمّسي كثيراً. لمدّةٍ فقط. بضعة أسابيع. لم أعد إلى بلدي منذ عامَين». رشف من كأسه ثمّ قال: «ربّما تكون زوجتي جالسةً في حديقتنا الآن، تتساءل عمّن سيعود إليها. مع الأسف لم أعد ذلك الرجُل الذي رحل عنها. لقد رأيتُ أشياء...». توقّف قليلاً: «هذه الحرب، ليست كما توقّعت. والأشياء لا تبقى على حالها حين يطول الغياب، أليس كذلك؟».

- «وِي». كان كثيراً ما يخطر لها هذا الخاطر.

وفي ذلك الصمت بينهما سمعتْ نقيق ضفدع، وحفيف أوراقٍ في النسيم الذي يحمل رائحة الياسمين فوق رأسَيهما. ثمّة عندليبٌ يغنّي للوحدة والحزن.

- أرجو المعذرة، مدام، لكنّك تبدين على غير طبيعتك.

- «طُردتُ من وظيفتي اليوم». كانت هذه المرّة الأولى التي تقول فيها هذه الكلمات بصوتٍ عالٍ، فالتمعتْ عيناها بأدمعٍ ساخنة: «أنا...أنا التي لفتُّ الانتباه إلى نفسي».

- من الخطر أن تفعلي ذلك.

- «المال الذي تركه لي زوجي نفد. ولم تعد عندي وظيفة. وعمّا قريب يحلّ الشتاء. كيف لي أن أعيش؟ أن أوفّر لصوفي الطعام والدفء؟». والتفتتْ إليه.

التقت نظرتاهما، وأرادتْ أن تشيح ببصرها، لكنّها لم تستطع.

وضع كأس النبيذ في يدها، ولفّ أصابعها كي تمسك بالكأس. فشعرتْ بلمسته الساخنة على يدَيها الباردتَين، وارتجفت. فجأةً تذكّرت

مكتبه، وأكوام الطعام. قال مرّةً أُخرى: «مجرّد نبيذ». فتهادت إليها رائحتُه، رائحة الكرز الأسود، والتربة الغنيّة، ونفحة الخزامى، ما ذكّرها بالحياة التي كانت تعيشها، والليالي التي جلستْ فيها مع أنطوان في هذا المكان، يشربان النبيذ.

ارتشفت رشفةً وشهَقت. كانت قد نسِيَت هذه المتعة البسيطة.

قال، وقد أصبح صوته حُلواً غنيّاً كالنبيذ: «أنتِ جميلة، مدام. ربمّا مرّ وقتٌ طويل جداً منذ أن سمعتِ هذه الجملة».

فنهضت ڤيان بسرعةٍ على قدميها، حتّى إنّها اصطدمت بالطاولة وانسكب النبيذ. «لا ينبغي أن تقول أشياء كهذه، هير نقيب».

قال، وهو ينهض: «نعم». وقف أمامها، وأنفاسه قد تعطّرت بالنبيذ الأحمر وعلكة النعناع: «لا ينبغي لي».

قالت، وهي عاجزةٌ حتّى عن إنهاء جملتها: «من فضلك».

فقال: «لن تجوع ابنتك في هذا الشتاء يا مدام». قالها بهدوءٍ كما لو أنّه اتفاقٌ سرّي بينهما: «أريدكِ أن تكوني واثقةً من ذلك».

فليكن الله في عون ڤيان. كم أراحتْها تلك الجملة. تمتمتْ بشيء (على الرغم من أنّها لم تكن متأكّدة مما قالت)، ثمّ عادت إلى البيت، وانضمّت إلى صوفي في سريرها، لكنّ وقتاً طويلاً مضى قبل أن تغفو.

*

كانت المكتبة فيما مضى ملتقًى للشعراء، والكتّاب، والروائيّين، والأكاديميّين. ولعلّ أحلى ذكريات إيزابيل كانت في غرف المكتبة العتيقة. فحين كان والدها يعمل في الغرفة الخلفيّة في مطبعته، كانت

أمّها تقرأ لها القصص والحكايات وتؤلّف المسرحيّات كي تمثّلاها. كانوا سعداء في هذا المكان، حيناً من الدهر، قبل أن تمرض أمّها، ويبدأ أبوها في الشرب.

حبيبتي إذْ، تعالَي اجلسي على حجر بابا وأنا أكتب قصيدةً لمامُن.

أو لعلّها تخيّلت تلك الذكرى، نسجتْها من خيوط حاجتها، ثمّ لفّتها بإحكامٍ حول كتفَيها. لم تعد متأكّدة.

الآن أصبح الألمان هُم من يحتشدون عند الزوايا والكوى المعتمة.

يبدو أنّ كلاماً قد انتشر بين الجنود خلال الأسابيع الستّة بعد افتتاح المكتبة بأنّ فتاةً فرنسيّةً جميلةً تعمل هناك.

كانوا يأتون متدفّقين، يرتدون زيّهم الناصع، وأصواتهم تعلو، وهُم يزاحمون بعضهم بعضاً. كانت إيزابيل تغازلهم بدون هوادةٍ، لكنّها تحرص على ألّا تغادر المكتبة إلّا بعد أن يخرج الجميع. كانت دائماً ما تغادر عبر الباب الخلفيّ، ترتدي عباءةً سوداء ذات قبّعة، حتّى في حرارة الصيف. قد يكون الجنود مرحين بسّامين (فقد كانوا في الحقيقة صبيةً يتحدّثون عن فْخويلاينات(*) جميلات في بلادهم، ويشترون لأهلهم الكلاسيكيّات الفرنسيّة لمؤلّفين «مقبولين»)، لكنّها لم تنسَ أنّ أولئك الجنود أعداء.

قال لها ضابطٌ ألمانيٌّ شابٌّ مادّاً يده: «مدِموازيل، أنتِ جميلةٌ جداً، وتتجاهلينا. كيف لنا أن نعيش؟».

فضحكتْ على نحوٍ جميل، ودارت بجسمها بعيداً عن يده. «تعلم يا سيّدي أنّني لا يمكن أن أفضّل شخصاً على آخر». وانسلّت خلف طاولة

(*) فْخويلاين بالألمانية تعني «آنسة» أو «مدموازيل» بالفرنسيّة. (م)

المحاسبة: «أراك تمسك بديوان شعر. لا شكّ أنّ لديك فتاةً في بلادك تقدّر هذه اللفتة إن أهديتها إيّاه».

دفعه أصدقاؤه إلى الأمام، وكلّهم يتحدّثون في وقتٍ واحد.

كانت إيزابيل تستلم منه النقود حين رنّ الجرس فوق باب المكتبة.

نظرتْ إيزابيل للأعلى، تتوقّع أن ترى مزيداً من الجنود الألمان، لكنّها رأت أنوك. كانت كعادتها ترتدي ملابسها وفقاً لمزاجها لا لمقتضيات الموسم، بالأسود الكامل. سترة سوداء، وتنّورة، مع قبّعة بيريه وقفّازين. على شفتيها الحمراوَين سيجارة غولواز غير مُشعَلة.

توقّفت عند الباب المفتوح، ومن خلفها يظهر مستطيلُ الزقاق الفارغ، ومضةً من نبات الغرنوقيّ ومساحةً خضراء.

حين رنّ الجرس استدار الألمان.

تركتْ أنوك الباب ينغلق من ورائها، وأشعلتْ سيجارتها على نحوٍ عفويّ، ومجّت منها نفَساً عميقاً.

التقت نظرتا إيزابيل وأنوك، يفصلهما نصف طول المكتبة، وثلاثة جنود ألمان. في الأسابيع التي عملتْ فيها إيزابيل في إيصال الطرود (إذْ ذهبتْ إلى بلوا، وليون، ومرسيليا، وأمبواز، ونيس، ناهيكم عن عشرات التوصيلات في باريس مؤخّراً، وكلّها باسمها الجديد جوليت جيرفيز، باستخدام أوراقٍ مزوّرة سلّمتْها إيّاها أنوك ذات يومٍ في حانةٍ صغيرة تحت أعين الألمان)، كانت أنوك أكثر شخصٍ يستلم منها، وعلى الرغم من فارق السنّ بينهما (عشرة أعوام على الأقل) إلّا أنّهما أصبحتا صديقتَين، على طريقة النساء اللائي يعشن حياتَين متوازيتَين. كانت حياةً صامتة، نعم،

غير أنّها ليست أقلّ واقعيّة. لقد تعلّمتْ إيزابيل أن ترى ما وراء تعابير أنوك الصارمة وشفتَيها المزمومتَين كيما تستطيع أن تتجاهل صمتها المطبق. كانت إيزابيل تؤمن بأنّ وراء ذلك كلّه حُزناً، كثيراً من الحزن والغضب.

خطتْ أنوك إلى الأمام بهالةٍ من جلالٍ وأنَفةٍ تضع المرء في حجمه الحقيقيّ من قبل حتّى أن ينطق بكلمة. حطّ الصمتُ على الألمان، وهُم ينظرون إليها، ويفسحون لها كي تمرّ. وسمعتْ إيزابيل أحدهم يقول: «مسترجلة». وآخر يقول: «أرملة».

أمّا أنوك، فلم تبدُ أنّها لحظتهم أصلاً. توقّفتْ عند طاولة المحاسبة، وسحبتْ نفساً طويلاً من سيجارتها. تغبّش وجهُها من أثر الدخان، وللحظةٍ لم يعد يُرى منها غير شفتَيها الحمراوَين. مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت منها كتيّباً بنّي اللّون. كان اسم المؤلّف (بودلير) محفوراً في جلد الغلاف، وعلى الرغم من أنّ الغلاف كان ممتلئاً بالخدوش بالياً حتى لم يعد بالإمكان قراءة اسم الكتاب، إلّا أنّ إيزابيل عرفته. لي فلوغ دُو مال (أزهار الشرّ). كان هذا الكتاب كلمة السرّ التي تعني الرغبة في عقد اجتماع.

قالت آنوك، وهي تنفث الدخان: «أبحث عن شيءٍ آخر من تأليف هذا الكاتب».

– المعذرة، مدام. لم يعد لدينا شيء لبودلير. هل ترغبين في كتابٍ لفيرلِن؟ أو رامبو؟

– «لا، شكراً». واستدارت أنوك، وغادرت المكتبة. لم يُفكَّ سحرُها إلّا بعد أن رنّ جرس الباب، فعاد الجنود إلى حديثهم مرّةً أُخرى. في غفلةٍ من الجميع، أدخلت إيزابيل يدها في الكتاب الصغير، وأخذت منه رسالةً ينبغي توصيلها، مع وقت التسليم. المكان المعتاد، المقعد أمام المسرح

الفرنسيّ. كانت الرسالة مخفيّةً تحت الورقة الأخيرة في الكتاب؛ إذْ نُزعت وأعيد إلصاقها عشرات المرّات.

نظرت إيزابيل في الساعة، رجاةَ أن يتحرّك الوقت؛ فقد كانت لديها مهمّة تؤدّيها.

عند تمام السادسة مساء، أخرجتْ الجنود من المكتبة وأغلقتْها. فلمّا خرجتْ وجدتْ صاحب المطعم المجاور وطاهيه في الوقت نفسه (مسيو دياردي) يدخّن سيجارة. كان المسكين يبدو مُنهكاً، مثلها. كانت في بعض الأحيان حين تراه متعرّقاً أمام المقلاة، أو يكسر المحار تتساءل عن شعوره حيال تقديم الطعام للألمان.

- بونسوار مسيو.

- بونسوار مدموازيل.

قالت تواسيه: «كان يوماً طويلاً؟».

- وِي.

ناولتْه نسخةً مستعملةً من حكايات أطفالٍ لأولاده، وقالت مبتسمة: «هذا لجاك وجيجي».

قال: «مهلاً». وهرع إلى المطعم، ثمّ عاد بكيسٍ صغيرٍ ملطّخ بالزيت: «بطاطس مقليّة».

شعرتْ إيزابيل بامتنانٍ عبثيّ. ففي هذه الأيّام لم تعد تأكل بقايا طعام العدوّ فحسب، بل تشعر بالامتنان لهم. «ميرسي».

تركتْ درّاجتها في المكتبة، وقرّرت أن تعود مشياً إلى منزلها، وهي تتلذّذ بالبطاطس المملّحة الزيتيّة، بدلاً من ركوب المترو بازدحامه

وصمته المحبط. وأينما ولّت وجهها رأت الألمان يتدفّقون على المقاهي والمطاعم، في حين يسارع الباريسيّون بوجوههم الكالحة إلى العودة إلى منازلهم قبل حظر التجوال. في الطريق اجتاحها مرّتين شعورٌ يأكل روحها بأنّ أحداً يلاحقها، لكنّها حين استدارت لم ترَ أحداً خلفها.

ولم تدرِ ما الذي جعلها تتوقّف عند الزاوية قرب الحديقة، لكنّها فجأةً أدركتْ أنّ هنالك شيئاً غير طبيعيّ. شيئاً في غير محلّه. كان الشارع من أمامها ممتلئاً بالعربات النازيّة تُطلق أبواقها. ثمّ سمعتْ صوت أحدٍ يصرخ.

قفّ الشعرُ في قفاها، ونظرتْ خلفها بسرعةٍ، لكنّ أحداً لم يكن هناك. كانت كثيراً ما تشعر بأنّ أحداً يلاحقها في الآونة الأخيرة. بدا وكأنّ أعصابها تعمل لفتراتٍ أطول من المعتاد. تألّقت القبّة الذهبيّة على مجمّع «ليزانفاليد» في ضوء أشعّة الشمس الذاهبة. وبدأ قلبها يقرع. تصبّب العرق منها لفرط خوفها، واختلطت رائحته الحامضة برائحة البطاطس، ثمّ أحسّت لوهلةٍ بالتواء بطنها على نحوٍ غير مريح.

كلُّ شيءٍ كان على ما يرام. لا أحد يتبعها. يا لحماقتها!

فانعطفتْ نحو شارع «دي غرينيل».

ثمّة شيءٌ لفت انتباهها، وجعلها تتوقّف.

رأتْ أمامها ظلّاً حيث لا ينبغي أن يكون ظلّ، وحركةً حيث ينبغي أن يكون السكون. عبرت الشارع وهي عابسة، تشقّ طريقها عبر السيّارات البطيئة. فلمّا وصلتْ إلى الجانب الآخر مشتْ سريعاً من أمام مجموعة الألمان الذين يحتسون النبيذ في الحانة، باتجاه بنايةٍ على الزاوية المجاورة.

وهناك رأتْ رجُلاً يجلس خلف شجرةٍ في جرّةٍ نحاسيةٍ كبيرةٍ، مختبئاً وراء أجمةٍ بجانب مجموعةٍ من الأبواب السود اللامعة المزخرفة.

فتحتْ البوّابة ودخلت إلى الفناء، ثمّ سمعتْ الرجُل يمشي إلى الخلف، وحذاؤه يقرقشُ على الحجارة تحته.

ثمّ وقف ساكناً.

سمعتْ إيزابيل ضحكات الألمان من المقهى في آخر الشارع، وهُم يصيحون بالنادلة المسكينة المتعبة: «سِكت، سيل ڤو پليه». كانت ساعة العشاء، الساعة التي لا يأبه الأعداء فيها إلّا بالترفيه وحشو بطونهم بطعام الفرنسيّين ونبيذهم. تسلّلتْ إلى شجرة الليمون المأصّصة.

كان الرجُل مقرفصاً، يحاول أن يصغّر حجمه قدر المستطاع. وجهُه معفّر، وإحدى عينَيه متورّمة مغمضة، بيد أنّه لا يُمكن للمرء أن يظنّه فرنسيّاً؛ فقد كان يرتدي زيّ طيّار بريطانيّ.

تمتمت: «مون ديو. أنغليه؟».

لم يقل شيئاً.

سألتْه بالإنجليزيّة: «من سلاح الجو الملكي؟».

اتّسعتْ عيناه، ولحظتْ أنّه يفكّر ما إذا كان يجدر به الوثوق بها. ثمّ هزّ رأسه ببطءٍ شديد.

– منذ متى تختبئ هنا؟

فقال بعد لحظةٍ طويلة: «طوال النهار».

– «سيقبضون عليك، عاجلاً أم آجلاً». كانت إيزابيل تعرف أنّه يجدر بها استجوابه أكثر، ولكنْ لا وقت لذلك؛ فكلّ ثانيةٍ تقضيها معه هناك يزداد الخطر عليهما. كان مدهشاً أصلاً أنّهم لم يقبضوا عليه حتّى الآن.

إمّا أن تساعده، وإمّا أن تبتعد عنه قبل أن يتنبّه أحد. ومن الواضح أنّ

الابتعاد كان الخيار الأذكى. قالت له بصوتٍ خفيض بالإنجليزية: «57، شارع دي لا بوردونيه. أنا ذاهبةٌ إلى هناك. بعد ساعة، سأخرج لأدخّن سيجارة. تعال عند الباب. فإن جئتَ بدون أن يراك أحد، سأساعدك. مفهوم؟».

- وكيف أثق بك؟

ضحكتْ إيزابيل. «ما أفعله الآن حماقة، وقد وعدتُ ألّا أكون مندفعةً هكذا. لا يهمّ». عدّلتْ من وقفتها وخرجتْ من الحديقة، فأغلقت البوابة خلفها، وأسرعت في المشي. ظلّ قلبُها يدقّ بقوّةٍ طوال الطريق إلى البيت، وبدأتْ تتشكّك في صحّة ما فعلتْه. غير أنّ الوقت فات ولم يعد بالإمكان فعل شيء. لم تنظر خلفها، ولا حتّى حين وصلت إلى بنايتها. هناك وقفتْ، أمام المقبض النحاسي في باب الشقّة الخشبي، وشعرتْ بدُوار وصداع. كانت مرتعبة.

تحسّستْ فتحةَ القفل بمفتاحها وأدارت المقبض، ثمّ اندفعتْ إلى ظُلمة المدخل، حيث يعجّ الرواق الضيّق بالدرّاجات الهوائيّة والعربات اليدويّة. شقّت طريقها إلى أسفل السلّم، فاقتعدتْ أوّل دَرَجةٍ، تنتظر.

نظرتْ في ساعة يدها ألف مرّة، وفي كلّ مرّة تحاول أن تقنع نفسها بالعدول عن الأمر، لكنّها في الوقت المتّفق عليه خرجتْ. حلّ الظلام، وكانت النوافذ معتّمة وأضواء الشوارع مطفأة، فغدا الشارع أقرب إلى الكهف المظلم. السيّارات تهدر هنا وهناك، غير أنّها لا تُرى بانطفاء أضوائها. تسمعها، وتشمّها، لكنك لا تراها إلّا إذا سقط عليها شعاعٌ تائهٌ من نور القمر. أشعلتْ سيجارتها البنّية، وسحبتْ نفَساً عميقاً، ثمّ زفرتْ ببطءٍ تحاول أن تهدّئ نفسها.

- أنا هنا يا آنسة.

عادت بارتباكٍ إلى الوراء وفتحت الباب. «ابق خلفي، واخفض عينَيك. لا تقترب كثيراً».

قادتْه في الرواق، ما بين جلجلة الدرّاجات وقعقعة العربات كلّما خبط فيها واحدٌ منها. لم يسبق لها أن صعدت السلالم بتلك السرعة. جرّتْه إلى داخل شقّتها وأغلقت الباب بقوّة.

- انزع ثيابك.

- عفواً؟

ضغطتْ على زرّ الإضاءة.

أدركتْ الآن أنّه طويلٌ ينظر إليها من علٍ. كان عريض المنكبين لكنّه نحيل، بوجهٍ ناحلٍ، وأنفٍ يبدو أنّه كُسر مرّةً، أو مرّتَين؛ أمّا شعرُه، فكان قصيراً جدّاً حتّى بدا كالزغب. «بذلة الطيران. انزعها. بسرعة».

أين كان عقلُها حين أقدمتْ على ذلك؟ سيعود أبوها إلى البيت ويجد الطيّار، ثمّ يسلّمهما معاً إلى الألمان.

- أين تخبّئ بذلة الطيران؟ وذلك الحذاء في حدّ ذاته سيفضح الأمر.

لم يسبق لها أن رأتْ رجُلاً بملابسه الداخليّة، فشعرتْ بتورّد وجنتَيها.

قال لها مبتسماً كأنّ الأمر اعتياديّ: «لا داعي للخجل يا آنسة».

سحبتْ منه البذلة، ومدّت يدها في انتظار أن يسلّمها بطاقات هويّته. ناولها إياها. قرصان صغيران يُلفّان على الرقبة. المعلومات نفسها على القرصَين: الملازم تورِنس مَكليش، وفئة دمه، وديانته، ورقمه.

- اتبعني. بهدوء. على حوافّ أصابعك كما تقولون.

همس لها: «أطراف أصابعك».

قادتْه إلى غرفتها. وهناك، دفعتْ الخزانة على مهلٍ وبطءٍ إلى أن انكشفت الغرفة السرّية.

كان صفٌّ من أعين الدمى الزجاجيّة يُحدّق فيها.

قال: «هذا مُفزع يا آنسة! والمكان صغيرٌ جدّاً على رجُلٍ كبير».

– ادخل. والزم الهدوء. فأيّ صوتٍ غريب قد يعرّضنا للتفتيش. مدام لوكلير التي تسكن في الشقة المجاورة فضوليّة، وقد تكون متعاونة، هل تفهمني؟ كما أنّ والدي سيعود قريباً. وهو يعمل مع القيادة العليا للألمان.

– بلايمي(*).

لم تفهم الكلمة، وكان العرق يتفصّد منها بغزارة حتّى بدأت ملابسها تلتصق بصدرها. أين كان عقلها حين قرّرت أن تساعد هذا الرجُل؟

سألها: «وماذا أفعل إن أردت...؟».

– «احبسها». ثمّ دفعتْه إلى الغرفة، وأعطته وسادةً وبطّانيةً من سريرها: «سأعود إليك حين أستطيع. بلا صوت، وِي؟».

أومأ لها. «شكراً».

لم تملك إلّا أن تهزّ رأسها. «أنا حمقاء. حمقاء». أغلقت الباب عليه وأعادت الخزانة إلى مكانها، ليس في المكان الصحيح تماماً، لكنّه يفي بالغرض. كان عليها الآن أن تتخلّص من بذلته وبطاقتَيه قبل أن يعود والدها.

(*) كلمة عاميّة بريطانية تُستخدم للتعبير عن الذهول، أو الاستغراب. وقد استُخدمت هنا قصداً للإشارة إلى أنّ الرجل بريطاني. (م)

مشت في الشقّة حافية القدمَين، بأقصى ما يمكن من هدوء. لم تكن تدري ما إذا كان السكّان في الطابق الأدنى سيسمعون تحرّك الخزانة من مكانها، أو يسمعون خطواتٍ كثيرةً في شقّتها. توخّي الحرص أفضل من الندم. وضعتْ البذلة في كيسٍ قديمٍ من محلّ «ساماريتين»، وضمّته إلى صدرها.

شعرتْ فجأةً بالخطر من ترك الشقّة. لكنّ البقاء خطرٌ أيضاً.

تسلّلتْ من أمام شقّة «لوكلير»، ثمّ أسرعت تهبط السلالم.

فلمّا وصلت إلى الخارج ازدردتْ نَفَساً قويّاً.

ماذا تفعل الآن؟ لم يكن بمقدروها أن ترمي البذلة هكذا في أيّ مكان؛ فلم تكن تريد أن تتسبّب في مشكلةٍ لأحد...

ولأوّل مرةٍ شعرت بامتنانٍ لظُلمة المدينة. هكذا انسلّتْ على الرصيف وكادت تختفي. كان هناك بضعةٌ من أهل باريس ما يزالون في الخارج على الرغم من اقتراب حظر التجوال؛ أمّا الألمان فقد شغلهم النبيذ الفرنسيّ عن النظر إلى الخارج.

سحبتْ نفَساً عميقاً، تحاول أن تهدّئ نفسها. أن تفكّر. ربّما لم يبق على حظر التجوال إلّا لحظات، لكنّ هذه لم تكن أكبر مشكلاتها الآن. سوف يعود بابا قريباً.

النهر.

كانت على بعد بضعة مجمّعات سكنيّة منه، وهناك أشجار على طول المرسى.

وجدت شارعاً جانبيّاً صغيراً عليه حواجز، فشقّت طريقها نحو النهر، من أمام صفّ الشاحنات العسكرية المركونة على طول الشارع.

لم يسبق لها أن مشت بطيئةً هكذا قطّ. خطوةٌ واحدةٌ، ونَفَسٌ، في كلّ مرّة. فبدا لها أنّ الخمسين قدماً الأخيرة بينها وبين ضفّة «السين» تكبُر وتتمدّد مع كلّ خطوةٍ تخطوها، حتّى وهي تنزل السلالم إلى الماء، لكنّها وصلتْ أخيراً، ووقفت إلى جانب النهر. تناهت إلى سمعها حبالُ المراكب، وهي تصرّ في الظلام، والأمواج إذْ تصفع أبدان المراكب. ومرّةً أُخرى خُيّل إليها أنّها تسمع وقع خطواتٍ خلفها، فكلّما توقّفت هي، توقّفت الخطوات أيضاً. انتظرتْ أن يخرج شخصٌ من خلفها، أو صوتٌ يطلب منها أوراق هويّتها.

لا شيء. كانت تتخيّل.

مرّت دقيقة، ثمّ أخرى.

ألقت بالكيس في الماء الأسود، ثمّ قذفت بالبطاقتَين خلفه، فابتلعت دوّامةُ الماء الأسود تلك الأدلّة على الفور.

مع ذلك، كانت ما تزال ترتعد، وهي تتسلّق الدرجات، وتعبر الشارعَ في طريقها إلى البيت.

عند باب الشقّة توقّفت، تمشّط شعرها المتعرّق بإصبعها، وتسحب قميصها القطني المبتلّ من نهدَيها.

ضوءٌ واحد مشتعل. الثريّا. كان والدها ماثلاً على طاولة غرفة الطعام، ينظر إلى أوراقٍ فَرَشها أمامه. كان يبدو مُنهكاً، شديد النحول. فتساءلت في نفسها فجأةً عن قدر ما يأكله في الفترة الأخيرة. ففي الأسابيع التي قضتْها في الشقّة، لم تره مرّةً يتناول وجبة. لم يكونا يجتمعان على الأكل، ولا على أيّ شيءٍ آخر. وكانت قد افترضت أنّه يأكل فضلة الألمان في القيادة العليا. لكنّها بدأت تشكّ في ذلك.

قال بحدّة: «تأخّرتِ عن موعدك».

لحظتْ زجاجة البراندي على الطاولة. كانت نصف فارغة، بعد أن كانت ممتلئة أمس. تُرى كيف يحصل على البراندي دائماً؟ «لم يخرج الألمان إلّا بصعوبة». ومشت إلى الطاولة، ووضعت عدّة فرنكات: «كان يوماً جيّداً. وألحظ أنّ أصدقاءك في القيادة العليا قد أعطوك مزيداً من البراندي».

- النازيّون يكادون لا يُهدون أحداً شيئاً.

- بالتأكيد. إذن فقد حصلتَ عليه بتعبك.

علا صوتٌ في المكان. قد يكون شيئاً خبط على الأرضيّة الخشبية. قال والدها، وهو ينظر للأعلى: «ما ذاك الصوت؟».

ثمّ جاء صوتٌ آخر، مثل كشط الخشب على الخشب.

قال: «يوجد شخصٌ في الشقّة».

- هذا هراء، بابا.

لكنّه نهض بسرعةٍ وخرج من الغرفة. فهرعت إيزابيل خلفه. «بابا—».

- اششش!

مشى نحو مدخلِ الشقة، حيث الظلام. وعند الخزانة الخشبيّة قرب باب الشقّة، التقط شمعةً على حاملٍ فضّي وأشعلها.

قالت: «بالتأكيد أنت لا تعتقد أنّ شخصاً اقتحم الشقة».

حدجها بنظرةٍ قاسية. «لن أكرّر كلامي. أغلقي فمك». كانت أنفاسه تفوح بالبراندي والسجائر.

- ولكن لماذا—.

- «اخرسي». أدار ظهره لها، ثمّ مشى في الرواق الضيّق نحو الغرف.

مرّ من خزانة المعاطف الصغيرة (لا شيء فيها غير المعاطف)، وتقفّى أثر الشمعة إلى غرفة ڤيان القديمة. كانت فارغةً إلّا من السرير وطاولته، وطاولة للكتابة. لا شيء في غير موضعه، ثمّ جثا على ركبتَيه ببطءٍ، وأخذ ينظر تحت السرير.

فلمّا اقتنع أخيراً بعدم وجود أحدٍ في الغرفة، توجّه إلى غرفة إيزابيل.

هل كان يسمع قرع قلبها؟

تفحّص الغرفة، تحت السرير، وخلف الباب، وخلف ستائر الدمقس التي تؤطّر النافذة من الأرضيّة حتّى السقف.

أجبرتْ إيزابيل نفسها على ألّا تنظر إلى الخزانة، ثمّ قالت بصوتٍ عالٍ رجاةَ أن يسمعها الطيّار، فلا يصدر أيّ صوت: «أرأيت؟ لا يوجد أحد هنا. بابا، هذا العمل مع العدوّ يصيبك بالذعر».

استدار إليها. بدا وجهه في هالة الشمعة مهزولاً، بالياً. «لن يضرّك أن تشعري بالخوف».

هل كان ذلك تهديداً؟ «منك بابا؟ أم من النازيّين؟».

- أوَلا تركّزين أبداً يا إيزابيل؟ عليكِ الخوف من كلّ أحد. ابتعدي عن طريقي الآن. أحتاج إلى شراب.

الفصل الثامن عشر

استلقت إيزابيل على سريرها، تُنصت. فلمّا استوثقت من نوم أبيها (نومِ الثّمالة، لا شكّ) تركت سريرها، وذهبت تبحث عن مبْوَلة جدّتها. أمسكتْ بها، وهي تقف أمام الخزانة.

ببطءٍ أخذت تحرّك الخزانة بعيداً عن الجدار، نصف بوصةٍ في كلّ مرّة، بما يكفي لفتح الباب السرّي.

كان المكان في الداخل هادئاً، مظلماً، فلم تسمع أنفاسه إلّا حين أصاخت سمعها. همستْ له: «مسيو؟».

فجاءها الردّ في الظلام: «مرحباً، آنسة».

أشعلتْ المصباح الزيتيّ الذي عند سريرها وحملتْه إلى الغرفة السرّية.

كان يجلس مسنداً ظهره إلى الجدار، يمدّ رجلَيه. بدا تحت ضوء الشمعة أكثر نعومة على نحوٍ ما، وأصغر.

ناولتْه المبولة، فرأتْ تورّد خدّيه، وهو يأخذها منها.

- شكراً.

جلست قبالته. «تخلّصتُ من بطاقتَيك وبذلتك. وينبغي أن نقطع

حذاءك الطويل كي تستطيع ارتداءه. هاك سكّيناً. سوف أحضر لك غداً شيئاً من ملابس أبي. لكنّي لا أظنّ أنّها ستكون على مقاسك تماماً».

أومأ وهو يقول: «وبعد ذلك ماذا نفعل؟».

ابتسمت بارتباك. «لا أدري. هل أنت طيّار؟».

- ملازم تورنس مكليش. وقَعتُ طيّارتي في «ريمز».

- وظللتَ وحدك منذ أن وقعَت؟ ببذلة الطيران؟

- لحسن الحظّ أنّي لعبتُ لعبة الاستغمّاية كثيراً مع أخي في صبانا.

- لستَ في مأمن هنا.

- «أدركتُ ذلك». فلمّا تبسّم تغيّر وجهه، وذكّرها بأنّه فعلاً مجرّد شابٍ صغيرٍ بعيدٍ عن بلاده. «لا تبتئسي لحالي، فقد أوقعتُ معي ثلاث طيّارات ألمانيّة».

- ينبغي لك الرجوع إلى بريطانيا كي تستأنف مهمّتك.

- صدقتِ، ولكن كيف؟ الساحل كلّه مطوّق بالأسلاك الشائكة، ومحروس بالكلاب. لا أستطيع أن أغادر فرنسا بحراً، أو جوّاً.

- لديّ... أصدقاء يعملون في هذا الأمر. سنزورهم غداً.

قال برقّة: «أنتِ شجاعةٌ جدّاً».

- «أو حمقاء». لم تكن تدري أيّهما أصدق: «كثيراً ما قيل لي: إنّني متهوّرة وعنيدة. وأخالُ أنّي سأسمع ذلك من أصدقائي غداً».

- لن تسمعي منّي سوى أنّكِ شجاعة.

*

في صباح اليوم التالي سمعتْ إيزابيل أباها يمشي من أمام الغرفة. وبعد لحظات تهادت إليها رائحة القهوة، ثمّ بعد ذلك صوت باب الشقّة ينغلق.

خرجتْ من غرفتها وذهبت إلى غرفة أبيها، فوجدت الملابس مبعثرة على الأرض، والسرير غير مرتّب، وقنينة براندي فارغة فوق طاولة الكتابة. رفعت الستائر ونظرت من الشرفة الفارغة إلى الشارع، فرأت والدها على الرصيف. كان يحمل حقيبته السوداء إلى صدره (وكأنّ قصائده تهمّ أحداً)، ويعتمر قبّعةً سوداء تصل إلى حاجبَيه. سار نحو «المترو» محنيّ الظهر، مثل سكرتير مكدود. فلمّا ابتعد عن نظرها، توجّهتْ إلى خزانة ملابسه، وبحثت عن ملابس قديمة. وجدتْ سترةً شنيعةً ذات ياقةٍ عالية وكمَّين باليَين، وبنطالاً مضلّعاً قديماً، مرقّعاً جِهة الرِدف، وقد سقطتْ منه بضعة أزرار، وقبّعةَ بيريه رماديّة.

حرّكت إيزابيل الخزانة بحذر، وفتحت الباب. كانت الغرفة السرّية تفوح بالعرق والبول، حتّى إنّها اضطُرّت إلى كتم فمها وأنفاسها بيدها كي لا تتقيّأ.

قال مكليش بخجل: «آسف يا آنسة».

– البس هذه. اغتسل هناك عند الإبريق وقابلني في الصالة. وأعد الخزانة إلى مكانها. حرّكها بهدوء. هناك أناس تحتنا. قد يعرفون أنّ أبي ليس هنا، ويتوقّعون أن يكون شخصٌ واحد فقط في الشقة.

وما هي إلّا لحظات حتّى دخل المطبخ، وارتدى ملابس أبيها المهملة. كان يبدو مثل صبيّ في إحدى الحكايات الخياليّة، خرج من بطن الأرض بين ليلةٍ وضحاها. ضاقتْ السترة على صدره العريض، ولم يستطع أن يزرّر

البنطال لفرط ما كان صغيراً عليه؛ أمّا قبّعة البيريه، فكان يرتديها مسطّحةً على قمّة رأسه، كطاقيّة اليهود.

لن ينفع هذا أبداً. كيف ستمرّ به في المدينة في وضح النهار؟

قال: «لا تقلقي. سأتبعك. ثقي بي يا آنسة. كنتُ أمشي ببذلة الطيران. الأمر هنا أسهل».

لكنّ الأوان قد فات على التراجع. لقد آوتْه وأخفتْه. وعليها الآن أن توصله إلى مكانٍ آمن. «اترك مئة متر على الأقل بيني وبينك. وإنْ توقّفتُ، توقّف».

- إنْ قَبصوني، أكملي سيرك. لا تفكّري حتى في الالتفات وراءك.

لا بدّ أن قبصوني تعني اعتقلوني. اقتربت منه، وعدّلت قبّعته، فوضعتْها بطريقةٍ أنيقة. والتقت عيناه عينيها. «من أين أنتَ، ملازم مكليش؟».

- إيسوِتش يا آنسة. هل ستبلغين أبويّ...إن اقتضى الأمر؟

- «لن نُضطرّ إلى ذلك أيّها الملازم». ثمّ سحبتْ نفساً عميقاً. لقد ذكّرها مرّةً أخرى بالمخاطرة التي اتّخذتْها كي تساعده. الأوراق المزوّرة في حقيبتها (باسم جولييت جيرفيز، المولودة في «نِيس»، ثمّ تعمّدت في «مرسيليا»، ودرست في السوربون) هي الشيء الوحيد الذي يحميها إن حدث حادثٌ ما. توجّهت إلى باب الشقّة، وفتحته، وأخذت تنظر. كان المكان فارغاً. دفعتْه بقوّةٍ، وهي تقول: «هيّا. قِف في الخارج عند محلّ القبّعات الفارغ. وبعدها اتبعني».

خرج من الشقّة، فأغلقتْ الباب خلفه.

واحد. اثنان. ثلاثة...

عدّت بصمت، وهي تتخيّل المصائب مع كلّ خطوة. فلمّا طفح كيلها ولم تعد تحتمل، خرجتْ من الشقة ونزلت.

كلّ شيء كان ساكناً.

وجدتْه في الخارج، واقفاً حيث قالت. رفعتْ رأسها ومشت أمامه بدون أن تنظر إليه.

مشت طوال الطريق إلى سان جيرمان بخفّةٍ، بدون أن تستدير، أو تنظر خلفها. سمعتْ عدّة مرّاتٍ جنوداً ألمان يصيحون «توقّف!»، ويطلقون الصافرات. وسمعتْ طلقتَين ناريّتَين، لكنّها لم تخفّف من سرعتها، أو تنظر وراءها.

فلمّا وصلتْ إلى الباب الأحمر في الشقة على شارع دي سان سيمون، كانت تتفصّد عرقاً وتشعر بدوار خفيف.

قرعت الباب بدقّاتٍ متسارعة.

فُتح الباب.

ظهرت أنوك من فتحة الباب. اتسعتْ عيناها من أثر المفاجأة، ثمّ فتحتْ الباب وعادت إلى الوراء. «ما الذي جاء بك؟».

من خلفها كان عدّة رجال ممّن رأتهم إيزابيل سابقاً يجلسون إلى طاولات، ينظرون في خرائط أمامهم تلتمع خطوطها الزرق الشاحبة تحت أضواء الشموع.

وهمّت أنوك بإغلاق الباب، فقالت إيزابيل: «اتركيه مفتوحاً».

فحلّ توتّرٌ من أثر جملتها. أحسّت به إيزابيل يذرع المكان، ويغيّر تعابير الوجه من حولها. وبدأ المسيو ليفي يلملم الخرائط.

ألقت إيزابيل نظرةً إلى الخارج فرأت مكليش يقترب. دخل الشقّة فأغلقت الباب خلفه بقوّة. ولم ينبس أحد بشيء.

استحوذت إيزابيل على كلّ انتباههم. «هذا الملازم تورنس مكليش من سلاح الجوّ الملكي. وجدته مختبئاً بين الأشجار قرب شقّتي البارحة».

فقالت أنوك، وهي تشعل سيجارة: «وأحضرتِه إلى هنا».

- لا بدّ من أن يعود إلى بريطانيا. وخطر لي—.

قالت أنوك: «لا. أرجوكِ».

عاد ليڤي بظهره إلى الكرسيّ، والتقط سيجارةَ غولواز من جيب صدره وأشعلها، وأخذ يتفحّص الطيّار. «هناك آخرون نعرف أنّهم موجودون في المدينة، وآخرون أكثر منهم هربوا من السجون الألمانية. نريد أن نخرجهم، لكنّ السواحل والمطارات مغلقة بإحكام». مجّ من سيجارته بقوّة، فاشتعل طرفها، وطقطق، واسودّ: «هي مشكلةٌ ما نزال نعمل عليها».

قالت إيزابيل: «أعرف». كانت تشعر بثقل مسؤوليّتها. أتراها تصرّفت برعونةٍ مرّةً أخرى؟ هل خذَلتهم؟ لم تكن تدري. أكان ينبغي لها أن تتجاهل مكليش؟ كانت تهمّ بطرح سؤالٍ، فسمعتْ شخصاً يتحدّث في غرفةٍ أُخرى.

قالت عابسة: «من هنا غيرنا؟».

قال ليڤي: «آخرون. دائماً يوجد آخرون هنا. ليس منهم من يهمّك».

قالت أنوك: «فعلاً نحتاج إلى خطّةٍ للطيّار».

فقال ليڤي: «نعتقد أنّه بإمكاننا إخراجهم من إسبانيا. ولكن إن استطعنا إيصالهم إلى إسبانيا».

قالت أنوك: «جبال البيرينيه».

كانت إيزابيل قد رأت جبال البيرينيه، ففهمت ردّ أنوك. فتلك القمم المتعرّجة عاليةٌ جداً تصل إلى عنان السحاب، وغالباً ما يغطّيها الثلج، أو يطوّقها الضباب. وقد أحبّتْ أمّها بلدة «بياريتز» الساحليّة القريبة منها، لدرجة أنّهم ذهبوا مرّتين لقضاء العطلة فيها في الأيّام الخوالي.

قالت أنوك: «هناك دوريّات ألمانيّة وإسبانيّة تحرس الحدود مع إسبانيا».

فسألتها إيزابيل: «كلّ الحدود؟».

قال ليفي: «في الواقع، لا. بالطبع لا. ولكن من يدري أين يوجدون وأين لا يوجدون؟».

فقالت إيزابيل: «الجبال أصغر قرب سان جان دو لوز».

قالت أنوك: «وِي، ولكن ما الفرق؟ ما تزال منيعة، والطرق القليلة هناك تخضع للحراسة».

– صديقة أمّي المقرّبة باسكيّة، وكان والدها راعي أغنام. كان يعبر الجبال مشياً على الأقدام.

– فردّ ليفي: «خطرتْ لنا هذه الفكرة، بل إنّنا جرّبناها مرّة. ولم نسمع خبراً عن أيٍّ من الذين ذهبوا. يصعب على الشخص الواحد أن يمرّ من الحراسة الألمانيّة في سان جان دو لوز، فما بالك بالمجموعة. ثمّ هناك عبور الجبال مشياً. الأمر شبه مستحيل».

– «هناك فرق بين شبه المستحيل والمستحيل. لئن كان رعاة الأغنام يستطيعون عبور الجبال، فبالتأكيد يستطيع الطيّارون عبورها». وبمجرّد

أن قالت إيزابيل ذلك خطرت لها فكرة: «ويمكن لامرأةٍ أن تعبر من نقاط التفتيش بسهولة. لا سيّما إن كانت شابّة. لن يشكّ أحدٌ أبداً في فتاةٍ جميلة».

تبادل ليڤي وأنوك نظرة.

قالت إيزابيل: «سأفعلها، أو أحاول على الأقل. سآخذ هذا الطيّار. هل هناك آخرون؟».

قطب المسيو ليڤي جبينه. من الواضح أنّه تفاجأ بهذه الأحداث. كانت سحب الدخان تتجمّع بينهما. «وهل تسلّقتِ جبالاً من قبل؟».

كان جوابها: «لياقتي ممتازة».

قال بهدوء: «إن قبضوا عليكِ، سيحبسونكِ...أو يعدمونكِ. اتركي الطيش لحظة، وفكّري في الأمر يا إيزابيل. لا نتحدّث عن توصيل أوراق. هل رأيتِ الإعلانات المعلّقة في كلّ مكان؟ العقوبات المقرّرة على من يساعد العدو؟».

أومأتْ بجدّية.

تنهّدت أنوك، وهي تطفئ سيجارتها في المنفضة الممتلئة عن آخرها. حدّقتْ في إيزابيل طويلاً، وعيناها تضيقان، ثمّ مشت إلى الباب المفتوح خلف الطاولة. فتحت الباب قليلاً، وصفّرت كتغريد طير.

قطبتْ إيزابيل جبينها. سمعتْ شيئاً في الغرفة الأُخرى، كرسيّاً يتحرّك عن طاولة، وخطوات.

ثمّ دخل غيتون الغرفة.

كان يرتدي ثياباً مهلهلة، بنطالاً مضلّعاً برقعتَين عند الركبتَين، رثّاً عند حافّتيه، قصيراً، وسترةً تتعلّق على جسده النحيف، بياقةٍ لم تعد في شكلها

الصحيح؛ أمّا شعرُه الأسود (الذي طال أكثر) فقد كان مسحوباً إلى الخلف عن وجهه الذي غدا أكثر حدّةً، وأقرب إلى سحنة الذئاب. نظر إليها كما لو أنهما وحيدان في الغرفة.

وفي لحظةٍ، تفجّر كلّ شيء. تلك المشاعر التي أهملتْها، وحاولت أن تدفنها، أن تتجاهلها، اندفعت كلّها مرّةً أخرى. ليس سوى نظرة واحدة منه، ولم تكد تستطيع التنفّس.

قالت أنوك: «تعرفين غيت».

تنحنحت إيزابيل. أدركتْ أنّه كان يعلم بوجودها، وقرّر أن يبقى بعيداً عنها. شعرت للمرّة الأولى منذ أن انضمّت إلى هذه المجموعة السرّية أنّها صغيرة جداً. معزولة. هل كانوا كلّهم يعرفون عن الأمر؟ هل كانوا يضحكون على سذاجتها من ورائها؟ «أعرفه».

فقال ليڤي بعد صمتٍ مرتبك: «إيزابيل لديها خطّة».

لم يبتسم غيتون. «صحيح؟».

– تريد أن تقود هذا الطيّار وغيره عبر جبال البيرينيه مشياً على الأقدام، وصولاً إلى إسبانيا. إلى القنصليّة البريطانية كما أتصوّر.

أطلق غيتون شتيمةً هامسة.

فقال ليڤي: «علينا أن نجرّب شيئاً».

قالت أنوك وهي تقترب: «إيزابيل، هل تستوعبين فعلاً حجم المخاطرة؟ إن نجحتِ فسوف يسمع النازيّون بالأمر، ويتعقّبونك. وهناك مكافأة من عشرة آلاف فرنك لأي شخصٍ يدلّ على من يساعد الطيّارين».

لطالما كانت ردود فعل إيزابيل بسيطة. يتخلّى عنها شخص، فتتبعه.

يقول لها شخص: إنّها لا تستطيع فعل أمرٍ ما، فتفعله. كانت تحوّل كل حاجزٍ إلى معبر.

لكنّ هذا...

سمحتْ للخوف بأن يهزّها شيئاً قليلاً، بل كادت تستلم له. ثمّ خطرت لها أعلام الصليب المعقوف التي ترفرف على برج إيفل، وڤيان التي تعيش مع العدوّ، وأنطوان المفقود في معتقل للأسرى. وإدِث كاڤل. بالتأكيد شعرت هي أيضاً بالخوف أحياناً. لكنّ إيزابيل لن تسمح للخوف بأن يمنعها. كانت هناك حاجة لعودة الطيّارين إلى بريطانيا كي يلقوا بمزيدٍ من القنابل على ألمانيا.

استدارت إيزابيل إلى الطيّار وسألته بالإنجليزيّة: «هل لياقتك عالية أيّها الملازم؟ يمكنك أن تجاري فتاةً في عبور الجبال؟».

– نعم أستطيع. لا سيّما إن كانت فتاةً جميلةً مثلك يا آنسة. لن أتركك تغيبين عن ناظري.

فعادت تواجه رفاقها. «سآخذه إلى القنصليّة في سان سباستيان. ومن هناك ستكون إعادته إلى بلاده مسؤوليّة البريطانيّين».

رأتْ إيزابيل الحوار الذي دار في صمتٍ حولها، بين مخاوف وأسئلة لم ينطق بها أحد. واتُّخذ القرار في صمت. ببساطةٍ، بعض المخاطرات لا بدّ من اتّخاذها. والجميع هناك كان يعلم ذلك.

قال ليڤي: «سيستغرق الأمر أسابيع للتخطيط، وربّما أكثر». ثمّ التفت إلى غيتون: «سنحتاج إلى مالٍ على الفور. هلّا تحدّثتَ إلى الشخص الذي تتواصل معه؟».

أومأ غيتون.

التقط قبّعة بيريه سوداء من منضدةٍ جانبيّة، واعتمرها. لم تستطع إيزابيل أن تشيح بنظرها عنه. كانت غاضبةً منه (وكانت تعرف ذلك، وتشعر به)، لكنّه ما إن اقترب منها حتى جفّ غضبها، وطار مثل غبارٍ تحت الشوق الذي كان أهمّ بكثير. التقت عيناهما، ثمّ عبر من أمامها، ووصل إلى مقبض الباب، خارجاً. وانغلق الباب خلفه.

قالت أنوك: «إذن. التخطيط. علينا أن نبدأ».

*

جلستْ إيزابيل ستّ ساعاتٍ إلى طاولةٍ في تلك الشقة، وقد أتوا بآخرين لتولّي بعض المهام، كجمع الملابس والمؤن الأُخرى للرحلة. درسوا الخرائط، وشكّلوا مساراتٍ، وشرعوا في عمليةٍ طويلةٍ معضلةٍ من تحديد البيوت الآمنة على طول الطريق. وفي مرحلةٍ ما من هذا التخطيط، بدؤوا يرون الأمر واقعاً، بعد أن كان مجرّد فكرةٍ جريئة.

ظلّت إيزابيل هناك إلى أن ذكر المسيو ليفي حظر التجوال، فتراجعتْ عن الطاولة. حاولوا إقناعها بقضاء الليلة معهم، لكنّ هذا الخيار سوف يثير شكوك والدها. هكذا، استعارت معطفاً ثقيلاً أسود من أنوك وارتدتْه، فارتاحت للتمويه الذي منحها إيّاه.

كان شارع سان جيرمان هادئاً على نحو يبعث الخوف؛ إذْ أُسدلت ستائر النوافذ، وأُغلقت المصاريع، وأطفئت أنوار الشوارع.

ظلّت قريبةً من المباني، سعيدةً بأنّ الكعبَين المهترئَين في حذائها الأبيض لم يصدرا صوتاً، وهي تمشي على الرصيف. أخذتْ تنسلّ من بين الحواجز الأمنيّة وحول مجموعات الجنود الألمان الذين يطوفون الشوارع.

فلمّا كادت تصل إلى بنايتها سمعتْ هدير محرّك. شاحنةٌ ألمانية تسير بتؤدةٍ في الشارع خلفها، وقد أطفأتْ أضواءها الأماميّة.

انبطحت ملتصقةً بجدارٍ حجريٍّ خشن خلفها، إلى أن مرّت الشاحنة الشبح من أمامها، وهي تهدر في الظلام. وعاد كلّ شيءٍ إلى الصمت.

صوت طائرٍ، تغريد. مألوف.

أدركتْ إيزابيل حينها أنها كانت تنتظره، على أمل...

نهضتْ ببطءٍ على قدمَيها، وتهادت إليها رائحة أزهار من نبتةٍ في أصيص قربها.

قال غيتون: «إيزابيل».

بالكاد استطاعت أن تتبيّن ملامحه في الظلام، لكنّها شمّت زيتَ شَعره، وصابون غسيله، والسيجارة التي دخّنها قبل مدّة. «كيف عرفتَ أنّني أعمل مع پول؟».

- ومن برأيكِ رشحّك؟

قطبت جبينها. «هنري—».

- ومن قال لهنري عنك؟ لقد طلبت من ديديه أن يتبعك منذ البداية، أن يراقبك. كنتُ أعرف أنكِ ستجدين طريقك إلينا.

مدّ يده، وأعاد شعرها خلف أذنيها، فظلّت عطشى بالأمل من أثر هذه اللمسة الحميمة. تذكّرتْ أنّها قالت: «أحبّك»، فاختلط الخزي بالفقد في داخلها. لم تكن تريد أن تتذكّر الشعور الذي تركه فيها، وكيف أطعمها الأرنب المشويّ بيده، وحملها حين خارت قواها...وأراها كيف أنّ قبلةً واحدةً قد تحدث فرقاً.

قال: «آسفٌ لأنّي جرحتك».

- ولماذا جرحتني؟

تنهّد. «لا يهمّ الآن. كان ينبغي أن أبقى في الغرفة الخلفيّة اليوم. من الأفضل لي ألّا أراكِ».

- أمّا أنا، فلا.

ابتسم: «من عادتك أن تقولي ما يخطر في بالك على الفور، أليس كذلك يا إيزابيل؟».

- دائماً. لماذا تركتني؟

لمس وجهها برقّةٍ جعلتْها تودّ البكاء. كانت اللمسةُ أقرب إلى الوداع، وكانت تعرف الوداع. «كنتُ أريد أن أنساك».

أرادتْ أن تقول شيئاً أكثر، ربّما «قبّلني»، أو «لا تذهب»، أو «قل: إنّني أعني لك شيئاً»، لكنّ الأوان قد فات. مرّت تلك اللحظة، أيّاً ما كان وصفُها. كان قد بدأ يمشي مبتعداً، يختفي في الظلال. قال بلطف: «انتبهي لنفسك يا إز». لكنّها قبل أن تردّ عليه أدركتْ أنه ذهب. شعرتْ بغيابه ينخر عظامها.

انتظرت لحظةً أُخرى، كيما تتباطأ دقّات قلبها، وتستقرّ انفعالاتها، ثمّ توجّهت إلى البيت. وما كادت تفتح القفل في باب الشقّة حتّى أحسّت بيدٍ تنتزعها، وانغلق الباب خلفها.

- اللعنة! أين كنتِ؟

غمرتْها أنفاسُ الخمر من فم أبيها، فأحسّت بحلاوة الخمر كما لو أنّها غطاءٌ على شيء غامض، مرّ. كما لو أنّه كان يعلك الإسبرين. حاولت أن تتخلّص من قبضته، لكنّه أمسك بها بقوّةٍ تكفي لترك كدمةٍ على رسغها.

ثمّ ما لبث أن أطلق سراحها. تخبّطت، وهي تعود إلى الوراء، تتلمّس مفتاح الأنوار. فلمّا ضغطت عليه، لم يتغيّر شيء.

قال والدها: «لم يعد لدينا مال للكهرباء». أشعل مصباحاً زيتيّاً، وأمسك به بينهما. بدا في ذلك الضوء المتذبذب كما لو أنّه منحوتٌ من شمعٍ يذوب. كان وجهه متدلّياً، وجفناه منتفخَين مزرقَّين شيئاً يسيراً؛ أمّا أنفه الطويل، فقد ظهرت عليه مسامات سُود كأنّها رؤوس دبابيس. مع ذلك كلّه، وعلى الرغم... على الرغم ممّا بدا عليه فجأةً من تعبٍ وشيخوخة، إلّا أنّ النظرة في عينَيه هي التي جعلتْها تتجهّم.

ثمّة شيءٌ حدث.

قال بصوتٍ خشنٍ حادٍّ يكاد لا يُعرف في هذا الوقت من اللّيل من دون تداخلٍ في الكلام: «تعالَي». قادها من أمام الخزانة، ثمّ إلى غرفتها. فلمّا دخلا، استدار لينظر إليها.

من خلفه، وتحت ضوء المصباح رأتْ الخزانة في غير مكانها، وباب الغرفة السرّية موارباً. كانت رائحة البول قويّة. حمداً لله أنّ الطيّار لم يعد هنا.

هزّت إيزابيل رأسها، عاجزةً عن الكلام.

انهار ليجلس على طرف السرير، محنيّ الرأس. «بحقّ المسيح يا إيزابيل. يا لمشكلاتك!».

لم تستطع أن تتحرّك، أو تفكّر. ألقتْ نظرةً على باب الغرفة، تفكّر فيما إذا كان بإمكانها الخروج من الشقّة. «الأمر لا يستحقّ يا بابا. مجرّد شاب». رِوي: «موعد. كنّا نتبادل القبل».

- «وهل كلّ من تواعدينهم يتبوّلون في المخزن؟ لا بدّ من أنّك محبوبة جداً إذن!». تنهّد: «كفّي عن هذه المسرحيّة».

- مسرحيّة؟

- وجدتِ البارحةَ طيّاراً وخبّأتِه في المخزن، وأخذتِه اليوم إلى المسيو ليفي.

لا بدّ أنّها لم تسمعه جيّداً. «نعم؟».

- طيّاركِ الذي سقط. الذي تبوّل في المخزن وخلّف وراءه بقع طينٍ من حذائه في الممرّ. أخذتِه إلى المسيو ليفي.

- لا أعرف شيئاً عمّا تقوله.

- عظيم يا إيزابيل!

فلمّا لزم الصمت، لم تستطع أن تحتمل. «بابا؟».

- أعرف أنّكِ جئتِ هنا مرسالاً للشبكة السرّية، وأنّكِ تعملين مع شبكة بول ليفي.

- ك-كيف—؟

- المسيو ليفي صديقٌ قديم. في الواقع، حين غزانا الألمان، جاءني وأخرجني من زجاجة البراندي التي كانت كلّ ما يهمّني. لقد جعلني أعمل.

شعرتْ إيزابيل بدوار، ولم تستطع الوقوف. كان الجلوس إلى أبيها أمراً حميماً للغاية، فنزلت ببطءٍ إلى السجّاد.

- لم أكن أريدكِ أن تدخلي في هذا الأمر يا إيزابيل؛ لهذا أبعدتكِ أصلاً عن باريس. لم أكن أريد أن أعرّضكِ للخطر بسبب عملي. كان ينبغي أن أعرف أنّكِ ستجدين طريقكِ إلى الخطر.

- «وماذا عن المرّات الأُخرى التي أبعدتَني فيها؟». وفور أن قالت ذلك تمنّتْ لو أنّها لم تقله، لكنّ الفكرة ما إن خطرت في بالها حتى صرّحت عن نفسها.

- أنا لا أنفع أباً. كلانا يعرف ذلك. على الأقل منذ وفاة أمّك.

- وكيف نعرف ذلك؟ أنتَ لم تجرّب قط.

- بل جرّبت، لكنّكِ لا تذكرين. على أيّ حال، كل هذا حديث من الماضي. لدينا شؤون أكبر الآن.

قالت: «وي». لقد انقلب ماضيها على نحوٍ ما، واختلّ التوازن. لم تعد تعرف ما ينبغي أن تفكّر فيه، أو تشعر به. من الأفضل تغيير الموضوع: «أنا...أخطّط لشيء. وسوف أغيب مدّة».

نظر إليها من علٍ. «أعرف. تحدّثتُ إلى پول». وصمتَ لحظةً طويلة: «تُدركين أنّ حياتك تتغيّر الآن. ستُضطرّين إلى العيش متخفّية. ليس معي، ولا مع أيّ أحد. لن تستطيعي أن تقضي أكثر من بضع ليالٍ في المكان الواحد. لن يعود بإمكانك الوثوق في أيّ شخص على الإطلاق. ولن تعودي إيزابيل روسينيول بعد الآن. ستصبحين جولييت جيرفيز. وسوف يظلّ النازيّون والمتعاونون معهم يبحثون عنك، فإن وجدوكِ...».

أومأتْ.

مرّتْ نظرةٌ بينهما. شعرتْ إيزابيل فيها بارتباطٍ بينهما لم تعرفه قطّ.

- تعرفين أنّ أسرى الحرب يحظون بشيءٍ من الرحمة؛ أمّا أنتِ، فلا تتوقعي أدنى رحمة.

أومأتْ.

- هل تستطيعين فعل ذلك يا إيزابيل؟

- أستطيع يا بابا.

أومأ. «الاسم الذي تحتاجين إليه هو ميشلين بابينو. صديقةُ أمّكِ في أورونيا. لقد مات زوجها في الحرب العظمى. أعتقد أنّها سترحّب بك. أخبري پول أنّني سأحتاج إلى صورٍ على الفور».

- صور؟

- «للطيّارين». استمرّ صمتُها، فابتسم أخيراً: «ألم تربطي الخيوط بعضها ببعض حتى الآن يا إيزابيل؟».

- ولكن—.

- أنا أزوّر الأوراق يا إيزابيل. لهذا السبب أعمل في القيادة العليا. بدأتُ عملي بكتابة تلك المنشورات التي كنتِ توزّعينها في كاريڤو، ولكنْ... يبدو أنّ للشاعر يدَ مزوّر. برأيكِ من أعطاكِ اسم جوليت جيرفيز؟

- ل-لكن—.

- كنتِ تظنّين أنّي أتعاون مع العدو. لا ألومك.

فجأةً، رأت فيه شخصاً غريباً، رجُلاً منكسراً حلّ محلّ رجُلٍ قاسٍ مستهتر. تجرّأت على النهوض، كي تقترب منه، وتجثو عنده. حدّقت فيه، وهي تحسّ بأدمعٍ ساخنة تلتمع في عينَيها: «لمَ أبعدتني أنا وڤيان؟».

- أرجو ألّا تعرفي أبداً كم أنتِ هشّة يا إيزابيل.

- لستُ هشّة.

بالكاد يمكن أن يوصف ما ارتسم على وجهه بأنّه ابتسامة. «كلّنا هشٌّ يا إيزابيل. هذا ما تعلّمنا إيّاه الحرب».


محمد خطاب

الفصل التاسع عشر

تحذير

يُعدم بالرصاص على الفور أيُّ رجُلٍ يقدّم المساعدة (بطريقةٍ مباشرة، أو غير مباشرة) لطاقم طيران العدو ممّن سقطوا بالمظلّات، أو أُجبروا على إنزال طيّاراتهم، سواء أكان ذلك بالمساعدة في هروبهم، أو إخفائهم، أو تقديم العون لهم بأيّ طريقة كانت.

وأمّا النساء اللائي يقدّمن هذه الأشكال من المساعدة فسوف يُرسلن إلى معسكرات الاعتقال في ألمانيا.

تمتمتْ إيزابيل لنفسها: «أظنّ أنّي محظوظة بكوني امرأة». كيف للألمان ألّا يلحظوا حتى الآن (بحلول تشرين الأول/ أكتوبر 1941م) أنّ فرنسا غدت بلاد النساء؟

لكنّها بمجرّد أن نطقت بتلك الجملة أدركت ما يعتريها من استعراض زائف. لقد أرادت أن تشعر بالشجاعة الآن (وكأنّها إدث كافل تخاطر

بحياتها)، لكنّها كانت مرتعبة الآن، وهي في محطّة القطار التي يحرسها الجنود الألمان.

لم يعد هناك مجال للتراجع، أو العدول عن الأمر. فبعد شهور من التخطيط والتحضير أصبحت هي وأربعة طيّارين جاهزين لتجربة خطّة الهروب.

سوف تتغيّر حياتها في هذا الصباح البارد من تشرين الأول/ أكتوبر. فمنذ أن استقلّت هذا القطار المتّجه إلى سان جان دو لوز، لم تعد إيزابيل روسينيول، الفتاة التي تعمل في المكتبة وتسكن في شارع دي لا بوردونيه.

من الآن أصبحت جولييت جيرفيز، واسمها الحركيّ العندليب.

«تعالَي». شبكَتْ أنوك ذراعها بذراع إيزابيل وقادتْها بعيداً عن إعلان التحذير، باتجاه شبّاك التذاكر.

كانت قد راجعت هذه التجهيزات مع أنوك مرّاتٍ كثيرة جدّاً، حتّى حفظتْ إيزابيل الخطّة. لا يشوب الخطّة سوى ثغرة واحدة: فجميع محاولاتهم للوصول إلى مدام بابينو باءت بالإخفاق؛ لذلك توجّب على إيزابيل الآن أن تجد مرشداً للطريق بنفسها. إلى يسارها الملازم مكليش في حلّة فلّاح، ينتظر إشارتها. لم يأخذ معه من عدّة هروبه سوى قرصين من دواء «بينزندرين» وبوصلةٍ صغيرةٍ جداً تبدو مثل زرّ، ثبّتها على ياقته. وقد أُعطي وثائق مزوّرة، فأصبح مزارعاً فلمنكيّاً. بحوزته بطاقة هويّة، وتصريح عمل، لكنّ والدها لم يستطع أن يضمن نجاحهم في المرور بهذه الوثائق إنْ خضعت لفحصٍ دقيق. قطع مكليش الجزء الأعلى من حذاء الطيران وحلق شاربه.

أنفقت إيزابيل وأنوك ساعاتٍ لا حصر لها لتدريبه على التصرّف كما

ينبغي. ألبساه معطفاً فضفاضاً، وبنطالاً بالياً مبقّعاً. كما أزالتا بقع النيكوتين عن سبّابته ووسْطاه، وعلّمتاه كيف يدخّن مثل الفرنسيّين؛ أي: باستخدام الإبهام والسبّابة. كان يعلم أنّ عليه النظر يساراً حين يعبر الشارع (وليس يميناً كما في بريطانيا)، وألّا يقترب أبداً من إيزابيل إلّا إذا اقتربتْ هي منه أوّلاً. وقد علّمتْه أن يتظاهر بالصمم والبكم، وأن يقرأ في صحيفةٍ في القطار طوال الطريق. كان عليه أيضاً أن يشتري تذكرةً بنفسه ويجلس بعيداً عن إيزابيل. كلّهم هكذا جلسوا متباعدين. وكان عليهم أن يتركوا مسافةً وراءها حين ينزلون في سان جان دو لوز.

التفتتْ أنوك إلى إيزابيل. سألتْها بعَينِها: مستعدّة؟

أومأت ببطء.

– سيركب ابن العمّ إيتين القطار في بواتيه، والعمّ إميل في روفِك، وجان كلود في بوردو.

الطيّارون الآخرون. «وِي».

هكذا كان على إيزابيل أن تترجّل في سان جان دو لوز مع الطيّارين الأربعة (بريطانيَّين وكنديَّين)، ثمّ يعبرون الجبال إلى إسبانيا. وبمجرّد وصولهم إلى هناك تُبرق الرسالة التالية: «العندليبُ غرّدتْ». إشارةً إلى نجاح العمليّة.

قبّلَتْ أنوك في خدَّيها، وتمتمتْ لها: «أوروفوار». ثمّ مشت سريعاً إلى شبّاك التذاكر. قالت: «سان جان دو لوز». ودفعت المبلغ. استلمتْ تذكرتها وتوجّهت إلى الرصيف «ج». لم تلتفتْ مرّةً، على الرغم من أنّها كانت تريد ذلك.

وانطلقت صفّارة القطار.

صعدتْ إيزابيل إلى القطار، واتّخذت مقعدها على الجانب الأيسر. تتابع الركّاب واتّخذوا مقاعدهم، ثمّ صعد عدّة جنود ألمان، وجلسوا قبالتها.

كان مكليش آخر من صعد، فدخل القطار ومرّ من أمامها بدون أدنى نظرة، وقد أحنى كتفَيه كي يبدو أصغر حجماً. ولمّا أُغلقت أبواب القطار، جلس على مقعد في الطرف الآخر من المقصورة، وشرع على الفور في قراءة الصحيفة.

وانطلقت صفّارة القطار مرّةً أُخرى، فبدأت العجلات الضخمة تدور، تزدادُ سرعتها شيئاً فشيئاً. جاشتْ العربة قليلاً، يميناً وشمالاً، ثمّ استقرّت في طنطنةٍ ثابتةٍ، والعجلات تقرقع على سكك الحديد.

ألقى الجنديّ الألماني الجالس قبالة إيزابيل نظرة في العربة، ثمّ استقرّت عيناه على مكليش. نقر على كتف زميله، ثمّ همّ كلاهما بالنهوض.

مالت إيزابيل إلى الأمام وقالت بابتسامة: «بونجور».

فعاد الجنديّان على الفور للجلوس، وقالا بصوتٍ واحد: «بونجور مدموازيل».

قالت كاذبة: «لغتكما الفرنسيّة ممتازة». إلى جانبها كانت امرأة بدينة ترتدي ملابس الفلّاحين، فقالت لها بالفرنسيّة في نبرة ازدراءٍ هامسة: «أولا تخجلين من نفسك؟».

ضحكتْ إيزابيل بتغنّج، وسألت الجنديَّين: «إلى أين تذهبان؟». سيبقيان في هذه العربة عدة ساعات، ومن الأفضل أن يظلّ انتباههما عليها هي.

قال أحدهما: «تور». وقال الآخر: «أونزان».

- آه. وهل تجيدان أيّاً من ألعاب الورق لتزجية الوقت؟ لديّ كوتشينة.

قال أصغرهما: «نعم، نعم!».

مدّت إيزابيل يدها إلى حقيبتها وأخرجت الكوتشينة. كانت توزّع الأوراق وتضحك حين صعد الطيّار الثاني القطار، ومرّ من أمام الجنديّين.

لاحقاً حين جاء المحصّل، قدّمت له تذكرتها، فأخذها ومضى.

فلمّا وصل إلى مكليش فعل هذا ما قيل له بالضبط؛ فناوله تذكرته، وعيناه على الصحيفة، وهكذا فعل الطيّار الآخر أيضاً.

أطلقتْ إيزابيل تنهيدة ارتياح واستراحت في مقعدها.

*

وصلت إيزابيل والطيّارون الأربعة إلى سان جان دو لوز بسلام. مرّوا مرّتَين (منفصلين طبعاً) من نقاط تفتيش ألمانية؛ إذْ بالكاد ألقى الجنود نظرةً على الوثائق المزوّرة وقالوا: «دانكه شن». بدون حتّى أن ينظروا في الوجوه. لم يكونوا يترقّبون طيّارين هنا، وبطبيعة الحال لم يتوقّعوا خطّةً بهذه الجرأة.

لكنّ إيزابيل ومن معها اقتربوا من الجبال. هناك على السفح ذهبت إلى حديقةٍ صغيرةٍ أمام النهر، وجلست على مقعدٍ مطلٍّ على الماء. وصل الطيّارون وفق الخطّة، واحداً تلو الآخر، أوّلهم مكليش. جلس إلى جانبها.

وجلس الآخرون على مقربة.

سألتهم: «معكم شاراتكم؟».

أخرج مكليش ورقة من جيب قميصه. كُتب عليها: «أصمّ، أبكم. أنتظر وصول ماما كي تأخذني». وأخرج الآخرون شاراتهم.

- إنْ تشاجر أحد الجنود مع واحدٍ منكم، أظهروا هُويّاتكم وشاراتكم. لاتتحدّثوا.

تبسّم مكليش قائلاً: «وأنا أتصرّف كأنّني معتوه، وهذا سهل عليّ».

غير أنّ إيزابيل لم تستطع أن تبتسم لفرط توتّرها.

خلعتْ حقيبة ظهرها القماشيّة وأعطتها لمكليش. كان بها بضعة أغراض أساسيّة: زجاجة نبيذ، وثلاثة نقانق من لحم الخنزير، وجوربان صوفيّان ثقيلان، وعدّة تفّاحات.

- اجلسوا حيث استطعتم في أورونيا. ليس معاً، بالطبع. اخفضوا رؤوسكم وتظاهروا بقراءة الكتب. ولا ترفعوا رؤوسكم حتّى تسمعوني أقول: «أنت هنا يا ابن العم، بحثنا عنك في كلّ مكان». مفهوم؟

فأومأوا جميعاً.

- إنْ لم أعدْ بحلول الفجر، فليسافر كلّ منكم بمفرده إلى «پو» ويذهب إلى الفندق الذي أخبرتكم عنه. وهناك ستساعدكم امرأةٌ اسمها إليان.

قال مكليش: «انتبهي لنفسك».

سحبتْ إيزابيل نفَساً عميقاً، ومشتْ نحو الشارع الرئيس. وبعد أن قطعت مِيلاً، أو نحو ذلك، حين بدأ اللّيل يسدل ستاره، عبرت جسراً متداعياً. انعطف الشارع إلى مسارٍ ترابيّ، ثمّ ضاق إلى مسار عربةٍ يرتفع عالياً إلى تلالٍ خضراء. ساعدها نور القمر، فأضاء لها مئاتٍ من البقع البِيض الصغيرة: الماعز. لم تكن هناك أكواخ على ذلك الارتفاع، بل مجرّد حظائر للحيوانات.

وأخيراً رأته. منزل من طابقين، نصفه مبنيّ من خشب، وبه سطح

أحمر يطابق وصف والدها. ليس غريباً أنّهم لم يستطيعوا الوصول إلى مدام بابينو؛ فالكوخ مصمّم بحيث يعزل أصحابه عن الآخرين، كما يفعل المسار المؤدّي إليه. علا ثغاء الماعز حين ظهرت، وأخذ بعضها يخبط في بعض. والتمع ضوءٌ من النوافذ التي أُسدلت ستائرها كيفما اتّفق، وارتفع الدخان من المدخنة، فعبّق الأجواء برائحته.

وبعد أن قرعت الباب، فُتح قليلاً، بما يكشف عن عينٍ واحدةٍ وفمٍ يكاد لا يُرى من كثافة اللحية الرماديّة.

قالت إيزابيل: «بونسوار». وانتظرت لحظةً كي يردّ الرجُل تحيّتها، لكنّه لم يقل شيئاً. «جئتُ لرؤية مدام بابينو».

- لماذا؟

- جوليَن روسينيول بعثني.

طقّ الرجُل بلسانه، ثمّ فتح الباب.

أوّل ما لحظتْه إيزابيل كان الحساء الذي يغلي في قِدرٍ أسْود كبير معلّق في الموقد الحجريّ.

كانت هناك امرأةٌ تجلس إلى طاولةٍ كبيرةٍ مُجرَّحةٍ في آخر الغرفة الواسعة ذات العوارض الخشبيّة. كانت تبدو لإيزابيل كأنّها ترتدي خِرقاً بلون الفحم، ولكنْ حين أشعل الشيخُ مصباحاً زيتيّاً، أدركتْ أنّ المرأة كانت ترتدي ثياب الرجال، ببنطالٍ خشنٍ، وقميصٍ من الكتّان ذي خيطَين عند الياقة. لونُ شعرِها كنشارة الحديد، وكانت تدخّن سيجارة.

مع ذلك فقد عرفتْها إيزابيل، على الرغم من مرور خمس عشرة سنة. تذكّرتْ جلوسها عند شاطئ سا جان دو لوز. تذكّرت ضحكتها. تذكّرت

قولها: هذه الجميلة الصغيرة سوف تأتيكِ بمشكلات لا تنتهي يا مادلين. ذات يوم سيتزاحم الصبية حولها. وتذكّرت قول أمّها: هي أذكى بكثير من تضييع حياتها على الصبية، أليس كذلك يا إيزابيلتي؟

- حذاؤك ملطّخ بالتراب.

- مشيتُ إلى هنا من محطّة سان جان دو لوز.

- «أها». واستخدمت قدمها التي ما تزال بالحذاء فدفعت الكرسيّ الذي يقابلها: «اسمي مِيشلين بابينو. اجلسي».

قالت إيزابيل: «أعرفك». ولم تضف شيئاً. فالمعلومات مصدر خطر في تلك الأيام. لا بدّ من تقديمها بحذر.

- حقاً؟

- اسمي جولييت جيرفيز.

- «لا يهمّني». ألقتْ إيزابيل نظرةً على الشيخ الذي كان يراقبها بحذر. لم تشأ أن تعطيه ظهرها، ولكن لم يعد لها خيار آخر. جلستْ قبالة المرأة.

- «تريدين سيجارة؟ من نوع غولواز الزرقاء. اشتريتها بثلاثة فرنكات ومعزاة، لكنّها تستحقّ». سحبتْ المرأة نفساً طويلاً باستمتاعٍ شديد، وزفرت الدخان الأزرق ذا الرائحة المميّزة: «لماذا تعرّفينني بنفسك؟».

- يقول جولِيَن روسينيول: إنّني أستطيع الوثوق بك.

سحبتْ مدام بابينو نفساً آخر من سيجارتها، ثمّ أطفأتْها في كعب حذائها، وألقت بما تبقّى منها في جيب صدرها.

- يقول: إنّ زوجته كانت صديقةً مقرّبةً لك، وإنّك عرّابة حفيدته الكبرى. كما أنّه عرّاب ابنك الأصغر.

- كان. قتل الألمان ابنيّ الاثنين في الجبهة. وقتلوا زوجي في الحرب السابقة.

- كتب إليكِ بضع رسائل مؤخّراً...

- البريد خراءٌ في هذه الأيّام. ماذا يريد؟

هنا كانت الثغرة الأكبر في الخطّة. إن كانت مدام بابينو متعاونة مع الألمان، فقد قُضي عليهم. تخيّلت إيزابيل هذه اللحظة ألف مرّة، وخطّطت لها تخطيطاً دقيقاً، بتفاصيل الكلمات والسكتات. وقد فكّرت في الصياغة التي سوف تستخدمها لحماية نفسها.

لكنّها الآن اكتشفت عُقم ذلك كلّه. كان عليها أن تُلقي بنفسها في الأمر مباشرة.

- تركتُ أربعة طيّارين مُسقَطين في أورونيا، ينتظرونني. أريد أن آخذهم إلى القنصليّة البريطانيّة في إسبانيا. على أمل أن يعيدهم البريطانيّون إلى إنجلترا فينفّذون مزيداً من الغارات ويلقون مزيداً من القنابل على الألمان.

تلا ذلك صمتٌ كانت إيزابيل تسمع فيه قرعَ قلبها، ودقّات الساعة، وثغاء معزاةٍ من بعيد.

أخيراً قالت مدام بابينو، بصوتٍ يكاد لا يُسمع: «وبعد؟».

- و ــــــ وأحتاج إلى مرشدٍ باسكيّ يساعدنا في عبور البيرينيه. جولِيَن قال: إنّك تستطيعين مساعدتي.

ولأوّل مرةٍ أدركت إيزابيل أنّها استحوذت على انتباه المرأة كاملاً. قالت للرجُل: «أحضر إدواردو». فتحرّك من فوره. أُغلق الباب بقوّةٍ رجّت السقف.

أخرجتْ المرأةُ نصف السيجارة من جيبها وأشعلتْها، ثمّ أخذت تسحب الأنفاس وتزفر عدّة مرّاتٍ في صمتٍ، وهي تتأمّل إيزابيل.

همّت إيزابيل بسؤالها: «ماذا-». لكنّ المرأة وضعتْ إصبعها المبقّع بالتبغ على شفتَيها.

فُتح الباب بقوّةٍ واندفع منه رجُل. لم تتبيّن إيزابيل منه سوى كتفَين عريضَين، وخَيش، ورائحة خمر.

أمسكها من ذراعها وأنهضها من مقعدها، ثمّ ألقى بها على الجدار الخشن. شهقتْ في ألمٍ وحاولت التخلّص منه، لكنّه ثبّتها في مكانها، وحشَر ركبتَه بين ساقَيها. همس لها: «أتعرفين ما يفعله الألمان بأمثالك؟». ولفرط ما كان وجهه قريباً من وجهها لم تستطع أن تركّز فيه، فلم تر إلّا عينَين سوداوَين وأجفاناً كثيفةً سُوداً. تنبعث منه رائحة السجائر والبراندي: «أتعرفين كم سيدفعون لنا مقابل تسليمك أنتِ وطيّاريك؟».

أشاحت إيزابيل بوجهها بعيداً عن أنفاسه الفاسدة.

- أين الطيّارين؟

وانغرست أصابعه في ذراعَيها.

- أين؟

قالت وهي تلهث: «أيّ طيّارين؟».

- الطيّارين الذين تساعدينهم على الهرب.

- أ-أيّ طيّارين؟ لا أفهم شيئاً مما تقوله.

زمجر مجدّداً ودقّ رأسها في الجدار. «لقد طلبتِ مساعدتنا كي توصلي الطيّارين عبر جبال البيرينيه».

– أنا؟ امرأةٌ تتسلّق البيرينيه وتعبرها؟ لا بدّ من أنّك تمزح. لا أعرف شيئاً ممّا تقوله.

– إذن مدام بابينو تكذب؟

– لا أعرف مدام بابينو. لقد جئتُ إلى هنا لأسألكم عن الطريق. أنا تائهة.

ابتسم، فكشف عن أسنان اصفرّت من أثر الدخان والخمر. «فتاةٌ ذكيّة». وأطلق سراحها: «وقويّة لا يهزّها شيء».

نهضتْ مدام بابينو. «أحسنتِ».

تراجع الرجُل مفسحاً لإيزابيل المجال. «اسمي إدواردو». ثمّ التفت إلى المرأة وقال: «الطقس جيّد. وعزيمتها قويّة. بإمكان الرجال أن يبيتوا هنا اللّيلة. سآخذهم غداً، إلّا إن كانوا مهزولين».

فقالت إيزابيل: «أنتَ ستأخذنا؟ إلى إسبانيا؟».

نظر إدواردو إلى مدام بابينو، فنظرتْ هذه إلى إيزابيل. «سيكون من دواعي سرورنا أن نساعدكِ يا جولييت. والآن، أين الطيّارين؟».

*

في منتصف الليل أيقظتْ مدام بابينو إيزابيل وقادتْها إلى المطبخ، حيث كانت هناك نار تشتعل في الموقد. «تريدين قهوة؟».

سرّحت إيزابيل شعرها بأصابعها، ثمّ ربطتْ لحافاً قطنيّاً على رأسها. «لا، ميرسي. القهوة ثمينة جداً».

تبسّمت المرأة. «لا أحد يشكّ بامرأةٍ في مثل سنّي. وهذا يساعدني في المقايضة. تفضّلي». ناولتْ إيزابيل كوباً خزفيّاً متصدّعاً، ممتلئاً بقهوةٍ ساخنة. قهوة حقيقيّة.

لفّت إيزابيل يدَيها على الكوب، واستنشقت بعمقٍ تلك الرائحة المألوفة التي لم تعد سهلة المنال.

جلست مدام بابينو إلى جانبها.

نظرتْ إلى عينَي المرأة السوداوَين، فآنستْ منها حناناً ذكّرها بأمّها. قالت: «أنا خائفة». كانت أوّل مرةٍ تقول فيها ذلك لأحد.

- ينبغي أن تخافي. وكلّنا لا بدّ من أن نخاف.

- إن حدثتْ مشكلة، هل يمكنكِ أن ترسلي رسالةً إلى جولیَن؟ ما يزال في باريس. في حال... لم ننجح، قولي له: إنّ العندليب لم تحلّق.

فهزّت مدام بابينو رأسها.

وبينما هما تجلسان هناك، أتى الطيّارون، واحداً بعد الآخر. كان الوقت في منتصف الليل، ولا يبدو أنّ أحداً منهم قد نام جيّداً. مع ذلك، فقد كان موعد رحيلهم قريباً.

قدّمت لهم مدام بابينو وجبةً من الخبز، وعسل اللافندر، وجبن الماعز. غرس الرجال أنفسهم على الكراسي غير المتطابقة، وتحلّقوا قرب الطاولة، يتحدّثون جميعاً بصوتٍ واحد، فأتوا على الطعام كلّه في لحظات.

فُتح الباب، وأدخل معه دفعةً من الهواء البارد. اندفعت أوراق شجرٍ جافّة، تتراقص فوق الأرض، وتلتصق على أحجار المدفأة مثل أيادٍ سُود ضئيلة. اهتزّت النار وتضاءلت، ثمّ أُغلق الباب.

كان إدواردو واقفاً هنالك، يبدو مثل عملاقٍ مسكين في غرفةٍ ذات سقفٍ خفيض. كان باسكيّاً نموذجيّاً، بكتفَين عريضَين، ووجهٍ يبدو كأنّما نُحت من حجرٍ بنصلٍ ضعيف؛ أمّا معطفه، فكان رفيعاً لا يناسب الطقس، بُرَقعٍ أكثر من أجزائه السليمة.

ناول إيزابيل حذاءً باسكيّاً يسمّونه «إسپادريل»، بنَعْلٍ مصنوعٍ من الحبال يناسب التضاريس الوعرة.

سألته مدام بابينو: «كيف هو الطقس يا إدواردو؟».

- «البرد قادم. علينا ألّا نتأخّر». ثمّ ألقى بحقيبةٍ عن كتفه، وقال للرجال: «هذه إسپادريلات. سوف تساعدكم. اختاروا المقاس الذي يناسبكم». كانت إيزابيل إلى جانبه تترجم كلامه لهم.

تقدّم الرجال وجثَوا حول الحقيبة، فأخرجوا الأحذية ومرّروها بينهم.

قال مكليش: «ولا واحداً منها على مقاسي».

فقالت مدام بابينو: «حاول أن تتصرّف. مع الأسف لسنا محلّ أحذية».

وبعد أن خلع الرجال أحذية الطيران، وارتدوا أحذية المشي، طلب منهم إدواردو أن يقفوا في طابور. تفحّص كلّ رجُلٍ منهم على حِدة، فنظر في ملبسه وصرّته التي يحملها. «أخرجوا كلّ شيءٍ من جيوبكم وضَعوه هنا. سوف يقبض الإسبان عليكم لأتفه شيءٍ تحملونه. وبالتأكيد لا تريدون أن تهربوا من الألمان كي تذهبوا إلى سجنٍ إسباني. ناول كلّاً منهم قِربةً مصنوعةً من جلد الماعز مملوؤةً بالنبيذ، وعصاً للمشي صنعها من أغصانٍ مجعّدةٍ مكسوّة بالطحالب. فلمّا انتهى ضرب كلّ واحدٍ على ظهره بقوّةٍ كادوا يتعثّرون معها.

قال إدواردو: «الصمت. دائماً».

غادروا البيت، وانطلقوا يعبرون مراعي الماعز. لا ضوء في المكان سوى شيء يسير من نور القمر الأزرق. قال إدواردو: «الليل حارسنا. الليل، والسرعة، والصمت». ثمّ استدار، وأوقفها بإشارةٍ من يده: «جوليت ستبقى في نهاية الصفّ. وأنا في المقدّمة. حين أمشي تمشون. وتكونون

في خطٍّ واحد. لا كلام. أبداً. ستشعرون بالبرد، حدّ التجمّد في هذه الليلة، وتشعرون بالجوع، وعمّا قريب سيصيبكم التعب. تابعوا السير».

ولّاهم إدواردو ظهره وبدأ يصعد التلّة؛ أمّا إيزابيل، فشعرتْ على الفور بالبرد؛ إذْ قرَسها في وجنتَيها المكشوفتَين، وانسلّ عبر خيوط الصوف في معطفها. ضمّت جانبَي ياقتها بيدها المقفّزة، وبدأت الصعود الطويل على جانب التلة المعشوشبة.

وعند قرابة الثالثة صباحاً، أصبح الأمر ضرباً من التمشية في مناطق وعرة، فقد أصبحت التضاريس شديدة الانحدار، وانسلّ القمر خلف سُحبٍ غير مرئيّة وانطفأ، تاركاً إيّاهم في ظلامٍ شبه تام. وتناهى إلى سَمع إيزابيل صوت أنفاس الرجال إذْ تغدو مُتعبةً. أدركتْ شعورهم بالبرد، فمعظمهم لم يكن يرتدي ملابس مناسبة لهذا الهواء المتجمّد، كما أنّ قلّة منهم فقط كانوا يرتدون أحذية تناسبهم. كانت الغصينات تتكسّر تحت أقدامهم، والصخور تقرقع، فتُصدر صوتاً أشبه بحبّات المطر على سطح صفيحٍ، بينما هم ينزلون في الجبال المنحدرة. تلوّت معدة إيزابيل الفارغة مع أوّل نوبات الجوع.

بدأت السماء تمطر، واندفعت ريحٌ صرصر من الوادي في الأسفل، فضربتْ ذلك الفريق الذي يمشي في خطٍ واحد. كانت الريح تحوّل المطر إلى كِسَرٍ متجمّدةٍ تضرب جلودهم المكشوفة. هكذا بدأتْ إيزابيل ترتعش، وتخرجُ أنفاسها في لهاثٍ هائجٍ، لكنّها لم تتوقّف عن التسلّق. أعلى، فأعلى، فأعلى، من جانب خطّ الأشجار.

وهناك في الأمام، أصدر أحدهم صرخةً حادّةً وسقط بقوّة. لم تستطع إيزابيل أن ترى من يكون؛ فقد طوّقتهم ظلمة اللّيل. فلمّا توقّف الرجُل

الذي أمامها اصطدمت به، فتعثّر ووقع جانباً على جلمود صخرٍ، وأطلق شتيمة.

فقالت إيزابيل، وهي تحاول الحفاظ على روح الحماس في صوتها: «لا تتوقّفوا يا رجال». هكذا ظلّوا يتسلّقون إلى أن أصبحت إيزابيل تلهث مع كلّ خطوة، غير أنّ إدواردو لم يمنحهم أيّ راحة. فلم يتوقّف إلّا بما يكفي للتأكّد من أنّهم ما يزالون خلفه، ثمّ تابع سيره، متسلّقاً جانب الجبل كأنّه معزاة.

كانت ساقا إيزابيل تشتعلان من الألم، وقد تشكّلت فيها البثور على الرغم من حذاء الإسبادريل. فكلُّ خطوةٍ كانت وجعاً وابتلاء.

مرّت ساعات وساعات. لم تعد أنفاس إيزابيل تسعفها حتّى بالكلمات كي تستجدي شربة ماء، لكنّها كانت تعرف أنّ إدواردو لن ينصت إليها على أيّ حال. سمعتْ مكليش أمامها يلهث، ويشتم في كلّ مرةٍ ينزلق فيها، يصيح من آلام البثور التي كانت تعرف أنّها تجعل من قدمَيه قروحاً مفتوحة.

لم تعد تستطيع أن تتبيّن الطريق أصلاً. كانت تدفع نفسها دفعاً إلى الأعلى، وكلّ جفنٍ من أجفانها يصارع للبقاء في مكانه.

أمالت إيزابيل نفسها في وجه الريح، وشدّت وشاحها على أنفها وفمها، وتابعت السير. كانت أنفاسها تخرج في لهاث، تدفّئ الوشاح. لكنّ القماش ترطّب، ثمّ تجمّد في طيّاتٍ ثلجيّةٍ صلبة.

- «هنا». جاءها صوت إدواردو المدوّي في الظلام. كانوا قد بلغوا مستوى عالياً في الجبل، حتّى باتوا واثقين من عدم وجود دوريّات ألمانيّة، أو إسبانيّة. الخطر على حياتهم هنا يأتي من الطقس.

انهارت إيزابيل على الأرض، وسقطت على صخرةٍ فصرختْ، لكنّها لفرط التعب لم تعد تلقي أيّ بال.

سقط مكليش إلى جانبها لاهثاً: «يا مسيح!». ورأسه يميل إلى الأمام. أمسكت إيزابيل ذراعه، وثبّتته حين رأته ينزلق إلى الأسفل.

سمعتْ أصواتاً متداخلة بعد ذلك: «حمداً لله...في الوقت المناسب». ثمّ سمعتْ صوت أجسادٍ تخرّ على الأرض. سقطوا كلّهم مرّةً واحدةً، كما لو أنّ سيقانهم لم تعد قادرةً على حملهم.

قال إدواردو: «ليس هنا. في كوخ الراعي. هناك».

وقفتْ إيزابيل على قدمَيها مترنّحة. ظلّت هناك تنتظر في آخر الصفّ، ترتعش، وقد لفّت ذراعَيها على جسدها كأنّما تحافظ على حرارته، غير أنّه لم تكن هناك أيّ حرارة. كانت تشعر بأنّها قطعة ثلجٍ، هشّةٌ متجمّدةٌ؛ أمّا عقلها، فكان يصارع الخَدَر الذي يودّ أن يسيطر عليه. كان عليها أن تظلّ تهزّ رأسها كي تصفّي ذهنها.

سمعتْ وقع أقدامٍ فعرفتْ أنّ إدواردو يقف إلى جانبها في الظلام، والمطر الجليدي يرجم وجهها ووجهه.

– أنتِ بخير؟

– أنا متجمّدة تماماً. وأخشى النظر إلى قدميّ.

– البثور؟

– لا بدّ من أنها بحجم الصحون. ولا أدري ما إذا كان البلل في حذائي مطراً أم دماً.

شعرتْ بالدموع تخزُ عينَيها وتتجمّد من فورها، فتغلق أجفانها.

أمسك إدواردو يدها وقادها إلى كوخ الراعي، فأشعل ناراً هناك.

تحوّل الثلج في شعرها إلى ماء وتقاطر على الأرض، كبركةٍ صغيرةٍ عند قدمَيها. نظرت إلى الرجال، وهُم ينهارون في أماكنهم، يدقّون ظهورهم على الجدار الخشبيّ، وهُم يُنزلون حقائبهم على أحضانهم، ثمّ يفتّشون فيها عن طعام. لوّح لها مكليش.

شقّت إيزابيل طريقها بين الرجال، وانهارت إلى جانب مكليش. هناك جلست في صمتٍ تستمع إلى الرجال، وهُم يمضغون، ويتجشّأون، ويتنهّدون، ثمّ تناولت ما أحضرته معها من جبنٍ وتفّاح.

لم تعرف متى نامت تحديداً. آخر ما تذكره أنّها كانت مستيقظةً، تتناول ما تبقّى للعشاء، ثمّ سمعتْ صوت إدواردو يوقظهم مرّةً أُخرى. كان ضوءٌ رماديٌّ يدخل من النافذة المتّسخة في الكوخ. لا بدّ من أنّهم ناموا طوال النهار، وأوقظهم إدواردو عصراً.

أشعل إدواردو ناراً، وصنع إبريقاً من القهوة الصناعيّة، وناولهم إيّاها. كان الفطور عبارة عن خبزٍ بائت، وجبنٍ صلب. جيّد، لكنّه لا يكفي أبداً لسدّ الجوع الذي كان ما يزال قوياً منذ البارحة.

انطلق إدواردو في مشيةٍ سريعةٍ، متسلّقاً الطين الأملس المغطّى بالبَرد في ذلك المسار الوعر، مثل تيسٍ جبليّ.

كانت إيزابيل آخر من غادر الكوخ. نظرتْ إلى المسار، حيث تغطّت قمم الجبال بسحبٍ رماديّة، وأخذتْ نُدف الثلج تُسكت ما حولها إلى أن لم يبق صوتٌ من هذه الدنيا إلّا صوت أنفاسهم. اختفى الرجال، فأصبحوا مجرّد نقاطٍ سُودٍ في البياض. هكذا اندفعت في البرد، تتسلّق في ثبات، تلحق بالرجُل الذي كان أمامها، فهو الوحيد الذي كانت تستطيع أن تراه في ذلك الثلج المتساقط.

أمّا إدواردو، فكان يسير بسرعةٍ أشبه بالعِقاب. فقد تسلّق الطريق الملتوية بدون توقّف، غير واعٍ كما يبدو بالبرد القارس الحارق، ذاك الذي يحوّل كلّ نفَسٍ إلى حريقٍ يشتعل في الرئتَين. لهثتْ إيزابيل واستمرّت في طريقها، تشجّع الرجال كلّما لاح لها تلكّؤهم. تداهنهم تارةً، وتمازحهم، وتحثّهم على السير.

حين حلّ الظلام مرّةً أُخرى، كرّرت محاولاتها لرفع المعنويّات. وعلى الرغم من شعورها بالسقم من شدّة التعب والعطش، إلّا أنّها لم تتوقّف. فلو أنّ واحداً منهم ابتعد أكثر من بضع خطوات عن الشخص الذي أمامه، قد يتيه إلى الأبد في تلك الظلمة المتجمّدة. التخلّف عن المسار بضع خطواتٍ لا يعني سوى الموت.

ظلّت تجرّ قدمَيها طوال اللّيل.

سقط أحدهم أمامها، وصرخ. هرعت إلى الأمام، فوجدت واحداً من الطيّارين الكنديّين جاثياً، يئزّ بقوّة، وقد تجمّد شارباه. قال، وهو يحاول أن يبتسم: «أنا مُنهكٌ يا عروسة».

نزلتْ إيزابيل عنده، فشعرتْ بعجيزتها تبرد على الفور. «أنت تِدي، صح؟».

– كشفتِني. اسمعي. لقد انقضى أمري. واصلوا السير.

– لديك زوجة يا تِدي؟ أو فتاة تنتظرك في كندا؟

لم تستطع أن ترى وجهه، لكنّها سمعت كيف بلع أنفاسه حين سألته. «هذا ليس لعباً نظيفاً يا عروسة».

– لا يوجد لعب نظيف مع الموت يا تِدي. ما اسمها؟

– ألِس.

- انهض على قدمَيك من أجل أَلِس يا تدي.

شعرتْ به يحوّل ثقله من قدمٍ إلى الأُخرى، وينهض عليهما. فوقفتْ أمامه وجعلتْه يستند إليها واقفاً. قال، وهو يرتعد بقوّة: «حسنٌ إذن».

تركتْه، وسمعتْه يمشي أمامها.

تنهّدت بقوّة، وارتعشت في آخر تنهيدتها. كان الجوع يقضم بطنها. بلعت ريقها الناشف، وهي ترجو أن يتوقّفوا دقيقةً لا أكثر. لكنّها وجّهت نفسها باتجاه الرجال وظلّت تمشي. كان عقلها يتبلبل من جديد، فتختلط أفكارها. كلّ ما كانت تستطيع التفكير فيه هو أن تخطو خطوةً، ثمّ أُخرى، وأُخرى.

قرب الفجر، تحوّل الثلج إلى مطر، فأصبحت معاطفهم الصوفيّة أثقالاً مخضلّة. لم تكد إيزابيل تلحظ متى بدؤوا في النزول. فالفرق الحقيقي الوحيد كان في سقوط الرجال؛ إذْ ينزلقون على الصخور الرطبة ويتطوّحون على جانب الجبل. لم يكن بالإمكان إيقافهم، فلم يكن في يدها سوى أن تشاهدهم، وهُم يسقطون، ثمّ تساعدهم في النهوض على أقدامهم حين يتوقّفون وقد تكسّروا وانقطعت أنفاسهم. كانت الرؤية سيّئةً للغاية حتّى إنّهم ظلّوا طوال الوقت خائفين من أن يضيّعوا الشخص الذي يمشي أمامهم، فينحرفوا عن المسار ويسقطوا.

فلمّا انبلج النهار، توقّف إدواردو وأشار إلى كهفٍ أسود واسع في جانب الجبل. تجمّع الرجال داخله، ينفخون، وهُم يحاولون الجلوس ومَدّ أرجُلهم. سمعتهم إيزابيل يفتحون حقائبهم، يحفرون فيها بحثاً عن آخر ما تبقّى من طعام. وفي مكانٍ عميقٍ بالداخل كان ثمّة حيوان يعدو هنا وهناك، يخمش الأرض الترابيّة بمخالبه.

تبعتْ إيزابيل الرجال إلى الداخل. كانت هناك جذور متدلّية في باطن الكهف المبني من الحجر والطين. انحنى إدواردو وأشعل ناراً صغيرة، باستخدام الأشنات التي جمعها في ذلك الصباح ووضعها في محزمه. فلمّا تراقص اللهب قال لهم: «كلوا وناموا. غداً رحلتنا الأخيرة». ثم التقط قربته، وعبّ منها كثيراً، ثمّ غادر الكهف.

طقطق الخشب الرطب وفرقع، فبدا مثل إطلاق نارٍ في الكهف، غير أنّ إيزابيل والرجال لم يرمش لهم جفن، لفرط ما كانوا منهَكين. جلستْ إيزابيل إلى جانب مكليش واستندت إليه في تعب.

قال بصوتٍ هامس: «أنتِ أعجوبة».

- «قيل لي: إنّني لا أتّخذ قرارات ذكيّة. قد يكون هذا هو الدليل». كانت ترتعش، لكنّها لم تعرف ما إذا كان من البرد، أم من الإرهاق.

قال مبتسماً: «قرارت غبيّة لكنّها شجاعة».

فشعرتْ إيزابيل بالامتنان لهذا الحوار. «هذه أنا».

- لا أظنّ أنّي شكرتكِ كما ينبغي...على إنقاذي.

- لم أنقذكِ بعد يا تورنس.

- ناديني توري. هكذا يناديني أصدقائي.

قال شيئاً آخر، عن فتاةٍ تنتظره في إيسوتش ربّما، لكنّها لم تسمعه من فرط التعب.

حين استيقظتْ كانت السماء تمطر.

- فقال أحد الطيّارين: «بولوكس. السماء تتبوّل في الخارج(*)».

(*) بولوكس كلمة عاميّة بريطانية تُقال تعبيراً عن الاستياء. و«السماء تتبوّل» تعبير فجٌّ بريطانيّ أيضاً يُراد به هطول المطر بغزارة. (م)

كان إدواردو واقفاً خارج الكهف، مباعداً بين ساقيه القويّتَين، يبدو كأنّه لا يلحظ أنّ المطر يرجمه في وجهه وشعره. مِن خلفه الظلام.

فتح الرجال حقائبهم. لم يكونوا في حاجةٍ لمن يذكّرهم بتناول الطعام، فقد حفظوا الإجراءات. حين يُسمح لك بالتوقّف، لا بدّ من أن تشرب، وتأكل، وتنام، بهذا الترتيب. وحين تستيقظ، تأكل، وتشرب، وتنهض على قدميك بصرف النظر عن حجم الألم.

حين وقفوا، انتقلت صرخات الألم من رجُلٍ إلى آخر، وبعضهم أطلق شتيمة. كانت ليلةً ماطرةً، بلا قمر. ظلامٌ حالك.

كانوا قد صعدوا الجبل (على ارتفاع يصل إلى ألف متر تقريباً) ثمّ عبروا ووصلوا إلى منتصف الجانب الآخر، لكنّ الطقس يزداد سوءاً.

ما إن غادرتْ إيزابيل الكهف حتى صفعتْها الأغصان الرطبة. أبعدتها بيدها المقفّزة، ومضت. كانت تخبط بعصاها مع كلّ خطوة، فالمطر جعل الصخور ملساء كالجليد، يجري في جداول بمحاذاتهم. كانت تسمع الرجال ينخرون أمامها، وظلّت تدفع نفسها للمشي على قدمَين امتلأتا بالبثور والألم؛ أمّا إدواردو، فكان يمشي بسرعةٍ مرهقة. لا شيء يوقفه، أو يبطئ من سرعته، في حين يعاني الطيّارون للّحاق به.

سمعتْ أحدهم يصيح: «انظروا!».

بعيداً، كانت هناك أضواء تلتمع، في نقاطٍ بيض متشابكة على صفحة الظلام.

قال إدواردو: «إسبانيا».

أنعشهم ذلك المنظر. واصلوا السير، وعصيّهم تخبط في الأرض، وأقدامهم تدقّ بصلابة على الأرض، وهي تنبسط شيئاً فشيئاً.

كم ساعة مرّت على هذا المنوال؟ خمس؟ ست؟ لا تدري. لكنّها كانت كثيرةً بما يكفي لأنْ يبدأ الوجع في ساقَيها، ويغدو أسفل ظهرها حفرةً من ألم. كانت لا تكفّ عن بصق المطر ومسحه عن عينَيها؛ أمّا فراغ بطنها، فكان حيواناً ضارياً. وبدأتْ تظهر في الأفق لمعةٌ شاحبةٌ من نهار، كنَصلٍ أرجوانيّ اللّون، ثمّ ورديّ، ثمّ أصفر، فيما هي تنزل في خطٍّ متعرّج. كان الوجع هائلاً في قدمَيها حتّى إنّها ظلّت تكزّ أسنانها كي لا تصرخ من شدّة الألم.

بحلول اللّيلة الرابعة كانت إيزابيل قد فقدت حسّ الزمان والمكان. لم تعد تعرف أين هم، أو كم سيستمرّ هذا العذاب. وتحوّلت جميع أفكارها إلى رجاءٍ وحيدٍ يتقلّب في عقلها، يتماشى مع خطواتها المتألّمة. القنصليّة... القنصليّة... القنصليّة.

صاح بهم إدواردو بيده المرفوعة: «توقّفوا».

ارتطمتْ إيزابيل في مكليش. كان أحمر الوجنتين من شدّة البرد، متشقّق الشفتَين، مخرّم الأنفاس.

وفي مكانٍ غير بعيد، بعد تلّةٍ خضراء مغبّشة، رأتْ دوريّة جنودٍ يرتدون زيّاً من الأخضر الفاتح.

أوّل ما جاء في عقلها: نحن في إسبانيا، فدفعهما إدواردو بقوّةٍ خلف صفٍّ من الأشجار.

هنالك اختبؤوا طويلاً، ثمّ انطلقوا مرّةً أخرى.

بعد ساعات، سمعت خرير مياه سريعة. فلمّا اقتربوا من النهر، غطّى الصوت على كلّ شيءٍ آخر.

أخيراً، توقّف إدواردو والرجال. كان يقف في بركةٍ من الطين، فاختفى

حذاؤه. من خلفه انجُرُف الصخريّة التي تنمو فوقها أشجارٌ رفيعةٌ تتحدّى قوانين الجاذبيّة. كانت الشجيرات تنبت مثل أسيجة الحيوانات حول صخورٍ رماديّةٍ ضخمة.

قال إدواردو: «سنختبئ هنا حتى حلول الظلام. هناك بعد الحافّة نهر بيداسوا. وعلى الضفّة الأُخرى إسبانيا. لقد اقتربنا. لكنّ الاقتراب وحده لا يفيد. ثمّة دوريات معها كلاب تقف بين النهر وحريّتكم. أولئك الجنود يطلقون النار على أيّ شيءٍ يتحرّك. لا تتحرّكوا».

شاهدت إيزابيل إدواردو وهو يبتعد عن المجموعة. فلمّا ذهب، جثت هي والرجال خلف الصخور الضخمة والأشجار الساقطة.

ظلّ المطر يهطل ساعات، يحوّل الطين الذي من تحتهم إلى مستنقع. كانت إيزابيل ترتعش، فألصقت ركبتَيها بصدرها وأغمضتْ عينَيها. الغريبُ أنّها ذهبتْ في نومٍ عميق ما لبث أن انتهى.

ففي منتصف اللّيل أيقظها إدواردو.

أوّل ما لحظتْه إيزابيل حين فتحت عينَيها أنّ المطر قد توقّف. كانت السماء من فوقها مرصّعة بالنجوم. نهضتْ بتعبٍ على قدمَيها وجفلتْ من فورها في ألم. كان في مقدورها أن تتخيّل حجم الألم الذي يعانيه الطيّارون، فمن حسن حظّها أنّها وجدت حذاءً على مقاسها.

هكذا انطلقوا مرّةً أُخرى تحت ستار اللّيل، وخرير النهر يبتلع وقع أقدامهم.

ثمّ وصلوا، بين أشجارٍ على حافّة أخدودٍ عظيم. هناك في الأسفل، كان الماء يصطدم، ويهتاج، ويهدر، ويرشرش فوق الصخور.

جمعهم إدواردو. «لا نستطيع العبور سباحةً. فالمطر قد جعل من النهر وحشاً سوف يبتلعنا جميعاً. اتبعوني».

مشوا بمحاذاة النهر مِيلاً، أو مِيلَين، ثمّ توقّف إدواردو مرّةً أخرى. سمعتْ إيزابيل صوت صرير، وكأنّه حبل قاربٍ يشدّه التيّار، مع خشخشةٍ بين الفينة والأُخرى.

في بادئ الأمر لم يروا شيئاً. بعد ذلك اندفعت أضواء المراقبة البِيض في الجانب الآخر، على النهر الجاري، فسقطتْ على جسرٍ معلّقٍ متهالكٍ يصل هذا الجانب من الأخدود بالضفّة المقابلة. كانت هناك نقطة تفتيش إسبانيّة قريبة، وبها حرّاس يمشّطون المكان جيئةً وذهاباً.

تمتم أحد الطيّارين: «يا أمّ المسيح!».

وقال آخر: «سُحقاً!».

انضمّت إيزابيل إلى الرجال، وهُم جاثمون خلف الشجيرات، ينتظرون، ينظرون إلى أضواء المراقبة، وهي تسقط على النهر.

عند الثانية صباحاً أومأ لهم إدواردو أخيراً. لم تكن هناك حركةٌ على الجانب الآخر. إنْ بقي الحظُّ معهم (هذا إن كان لديهم شيء منه أصلاً)، فمعنى ذلك أنّ الحرس نائمون.

همس إدواردو: «هيّا بنا». فنهض الرجال. قادهم إلى بداية الجسر، وهو عبارة عن رافعةٍ متدلّيةٍ بحبالٍ على الجانبَين، وأرضيّةٍ من ألواح الخشب، يُرى من خلاله النهر الأبيض على شكل قِطع. كانت هناك عدّة ألواح مفقودة، والجسر يميل مع الريح يميناً وشمالاً، يئنّ، ويصرّ.

نظرتْ إيزابيل إلى الرجال، فوجدتْ أغلبهم شاحبين كالأشباح.

قال إدواردو: «خطوة خطوة. تبدو الألواح ضعيفة، لكنّها تحتمل وزنكم. لديكم ستّون ثانيةً للعبور. بعد ذلك تعود أضواء المراقبة إلى الجسر. وبمجرّد أن تصلوا إلى الجانب الآخر، انبطحوا وازحفوا تحت نافذة الحراسة».

قال تِدي: «فعلتِ هذا من قبل، صح؟». وقد تعثّر صوتُه عند عبارة «من قبل».

فأجابته إيزابيل كاذبة: «مرّات كثيرة يا تِدي. وما دمتُ أنا الفتاة أستطيع العبور، فالطيّار مثلك لن يجد أيّ صعوبة. أليس كذلك؟».

أومأ لها. «أكيدٌ طبعاً».

راقبت إيزابيل إدواردو وهو يعبر. فلمّا وصل إلى الجانب الآخر، جمعتْ الرجال، وقادتهم إلى جسر الحبال واحداً بعد الآخر، تفصل بينهم ستّون ثانية، وتابعت عبورهم. كانت تحبس أنفاسها وتعصر قبضتَيها إلى أن يصل كلّ منهم إلى الضفّة الأُخرى.

وفي النهاية جاء دورها. أزاحت غطاء رأسها المبتلّ، في انتظار أن يتبعد الضوء. بدا الجسر واهياً غير ثابت، لكنّه احتمل أوزان الرجال، ولن يعجز عن حملها بالتأكيد.

تشبّثت في الحبال وقفزتْ على اللوح الأوّل، فتأرجح الجسر يميناً وشمالاً. نظرت إلى الأسفل فرأتْ قِطعاً من الماء الأبيض الهادر على بعد مئة متر. صرّت على أسنانها، وتقدّمت في ثبات، تخطو من لوحٍ إلى آخر حتّى وصلت إلى الجانب الآخر، فانبطحت أرضاً على الفور. مرّت أضواء المراقبة من فوقها، فأخذت تزحف وتصعد إلى أن وصلت إلى الشجيرات حيث كان الآخرون في انتظارها مع إدواردو.

قادهم إدواردو إلى رابيةٍ خفيّة، وسمح لهم بالنوم أخيراً.

فلمّا أشرقت الشمس، استيقظتْ إيزابيل في تعب.

همس لها توري من جانبها: «المكان ليس سيّئاً هنا».

نظرتْ حولها بعينَين عمشاوَين.

كانوا في وَهْدٍ فوق شارعٍ ترابيّ يخفيه صفّ من الأشجار.

ناولهم إدواردو شيئاً من النبيذ. كانت ابتسامته برّاقة كالشمس التي أشرقت في عينَيها. قال، وهو يشير إلى شابّةٍ تقف على درّاجتها قريباً: «ها هي». من خلفها التمعتْ بلدةٌ بلونٍ عاجيٍّ في ضوء الشمس. كانت تبدو مثل رسمةٍ في كتاب أطفال، ممتلئة بالأبراج، وأبراج الساعات، وقمم الكنائس. «سوف تأخذكم ألمادورا إلى القنصليّة في سان سباستيان. مرحباً بكم في إسبانيا».

وفي لحظةٍ نسيَت إيزابيل معاناة الوصول إلى هذا المكان، والخوف الذي صاحبها في كلّ خطوة. «شكراً لك، إدواردو».

- لن يكون الأمر سهلاً في المرّة القادمة.

- لم يكن سهلاً هذه المرّة أصلاً.

- لم يتوقّعوا قدومنا. لكنّهم عمّا قريب سيكونون مستعدّين.

كان محقاً بالطبع. فهم لم يُضطرّوا إلى الاختباء من الدوريّات الألمانيّة، أو إخفاء روائحهم عن الكلاب، كما أنّ الحرّاس الإسبان كانوا متساهلين.

- لكنّك حين تعودين مرّةً أخرى بمزيدٍ من الطيّارين، سأكون هنا.

أومأتْ له في امتنان، والتفتت إلى الرجال من حولها الذين كانوا في غاية الإنهاك مثلها. «هيّا يا رجال، لنذهب».

تحرّكت إيزابيل والطيّارون نزولاً باتّجاه شابّةٍ كانت تقف إلى جانب درّاجةٍ قديمةٍ صدئة. وبعد التعريف بالأسماء المزيّفة قادتهم ألمادورا في متاهةٍ من الشوارع الترابيّة والأزقّة. قطعوا أميالاً، إلى أن وصلوا عند مبنى كبير بلون الكراميل في «بارتي ڤيهو»، المنطقة القديمة من سان سباستيان. وهناك كانت إيزابيل تسمع الأمواج، وهي تصطدم بجدار بحريّ.

قالت للشابّة: «ميرسي».

– دي نادا.

نظرتْ إيزابيل إلى الباب الأسود اللامع في الأعلى، ثمّ قالت، وهي تصعد السلالم الحجريّة: «هيّا يا رجال». قرعتْ الباب ثلاث مرّات، ثمّ ضغطت على زرّ الجرس. فلمّا أجابها رجُلٌ يرتدي بذلةً سوداء أنيقةً، قالت: «أريد أن أقابل القنصل البريطانيّ».

– هل ينتظر زيارتك؟

– لا.

– يا مدموازيل، القنصل رجل مشغو—.

– لقد أحضرتُ معي من باريس أربعة طيّارين من سلاح الجوّ الملكي.

برزتْ عيناه قليلاً.

ثمّ تقدّم مكليش. «أنا الملازم تورنس مكليش. من سلاح الجوّ الملكي».

وحذا الآخرون حذوه، واقفين جنباً إلى جنب، وهُم يعرّفون بأنفسهم.

فُتح الباب. وفي غضون لحظات وجدتْ إيزابيل نفسها تجلس على كرسيٍّ جلديٍّ غير مريح، قبالة رجُلٍ بسحنةٍ مُتعبةٍ يجلس إلى طاولة كبيرة؛ أمّا الطيّارون، فقد وقفوا خلفها في انتباه.

قالت إيزابيل في اعتزاز: «لقد أحضرتُ لكم أربعة طيّارين مُسقَطين من باريس. أخذنا القطار جنوباً، ثمّ عبرنا البيرينيه مشياً—».

- مشياً؟

- في الواقع ربّما تكون الكلمة الأدق تَسْيَاراً(*).

تَسْياراً عبر جبال البيرينيه من فرنسا إلى إسبانيا. ارتاح في جلسته، وقد اختفت كلّ آثار التبسّم.

- ويمكنني أن أفعلها ثانية. فمع القصف المتزايد من سلاح الجو الملكي، سيسقط المزيد من الطيّارين. ولإنقاذهم نحتاج إلى دعمٍ مالي. نحتاج أموالاً للملابس، والوثائق، والطعام. وشيئاً للناس الذين نجنّدهم لمساعدتنا على طول الطريق.

قال مكليش: «من الأفضل أن تتّصل بالإم آي 9. سوف يدفعون كلّ ما تحتاج إليه جولييت ومن معها».

هزّ الرجُل رأسه وأصدر صوت استنكار. «فتاةٌ تقود طيّارين عبر البيرينيه. أيُّ أعجوبة أُخرى سنرى بعد ذلك؟».

تبسّم مكليش لإيزابيل. «أعجوبة فعلاً سيّدي. قلتُ لها ذلك بالضبط».

(*) التَسْيار بفتح التاء وتسكين السين، من الترجمات المقترحة لكلمة (hiking) الإنجليزية. (م)

الفصل العشرون

كان الخروج من فرنسا المحتلّة صعباً، خطراً؛ أمّا الرجوع إليها، فكان سهلاً، أقلّه بالنسبة إلى فتاةٍ في العشرين من عمرها، بابتسامةٍ جميلة.

لم تمضِ أكثر من بضعة أيّام من وصول إيزابيل إلى سان سباستيان (واجتماعاتٍ وتقارير لا تنتهي) حتّى كانت في القطار المتّجه إلى باريس مرّةً أُخرى، تجلس في واحدٍ من المقاعد الخشبيّة في عربة الدرجة الثالثة (فلم يكن بالإمكان الحصول على غيره بتلك السرعة)، وتنظر إلى وادي لوا، وهو يبتعد.

كانت العربة باردةً جدّاً، ممتلئةً بجنودٍ ألمان ثرثارين، وفرنسيين ذاعنين، يخفضون رؤوسهم ويضعون أياديهم على حجورهم. ما تزال لديها قطعة جبنٍ يابسة وتفّاحةٌ في حقيبة يدها، لكنّها على الرغم من جوعها (الشديد حقّاً) لم تفتح الحقيبة.

كانت تشعر بأنّها مكشوفةٌ في ذلك البنطال البنّي المهلهل الممزّق، والمعطف الصوفيّ. وجنتاها محروقتان مخدوشتان من أثر الريح، وشفتاها جافّتان متشقّقتان. لكنّ التغيّرات الحقيقيّة كانت في داخلها؛ فاعتزازها بما

أنجزته في البيرينيه غيّرها تماماً، أنضجها. ها هي للمرّة الأولى في حياتها تعرف تماماً ما تريد أن تفعله.

كانت قد التقت بعميلٍ من «إم آي 9»، ووضعتْ معه خطّة الهروب. هي الآن وسيلة الاتّصال الرئيسة بالنسبة إليهم، ويسمّونها العندليب. هناك في بطانة حقيبتها، خبّأتْ مئة وأربعين ألف فرانك. تكفي لتجهيز بيوتٍ آمنة، وشراء طعام وملابس للطيّارين والأشخاص الذين لديهم ما يكفي من الجرأة لاستضافتهم على الطريق. وعدتْ إيزابيل ضابط المخابرات إيَن (واسمه الحركيّ ثلاثاء) بأن تُحضر مزيداً من الطيّارين. لقد كانت اللحظة التي أرسلتْ فيها إلى پول رسالة «العندليب غرّدت» مثار الفخر الأكبر في حياتها.

كان الوقت يقترب من حظر التجوال حين ترجّلت عن قطارها في باريس. المدينة الخريفيّة ترتعش تحت السماء الباردة المعتمة. الريح تجري في الأشجار العارية، تقرقرع سلال الأزهار الفارغة، وتخشخش المظلّات، تقلّبها.

حادتْ إيزابيل قليلاً عن مسارها كي تمشي أمام شقّتها القديمة في شارع دي لا بوردونيه، فلمّا مرّت من هناك شعرتْ بموجةٍ من...الحنين كما يبدو. كانت قريبة من البيت، لكنّها لم تدخل (أو ترى والدها) منذ أشهر، منذ انطلاق رحلة الهروب. كان وجودهما معاً مصدر خطرٍ عليهما. هكذا اتجّهت إيزابيل إلى الشقّة الرثّة الصغيرة التي أصبحت بيتها الجديد. طاولةٌ وكراسٍ غير متناسقة، فراشٌ على الأرض، وموقدٌ معطوب. سجّادةٌ تفوح بتبغ المستأجر السابق، وجدران مبقّعة بالماء.

توقّفت عند باب الشقّة، ونظرتْ حولها. كان الشارع هادئاً، مظلماً.

أدخلتْ المفتاح في القفل، وأدارتْه قليلاً. مع طقّةِ الصوت، أحسّت بالخطر. ثمّة شيء غريب، في غير مكانه. ظلٌّ لا ينبغي أن يكون هناك، وفرقعةٌ من الحانة المجاورة التي هجرها مالكها منذ أشهر.

استدارت ببطء، ونظرت في الشارع الهادئ المعتم. كانت هناك شاحنات غير مرئيّة مركونة هنا وهناك، وبضع مقاهٍ حزينة تُسقط مثلّثات من الضوء على الأرصفة. في ذلك الوهج بدا الجنود أقرب إلى أطيافٍ رفيعة، تروح وتغدو. وثمّة جوٌّ من الهجْر خيّم على الحيّ الذي كان ذات يومٍ صاخباً.

في الجانب المقابل رأتْ مصباحاً مطفأً، يبدو كلطخةٍ أغمق بقليل على صفحة اللّيل.

كان هناك. أدركتْ ذلك، على الرغم من أنها لم تستطع رؤيته.

نزلتْ على الدرَجات، ببطءٍ، وحواسّ متيقّظة، في خطوةٍ حذرةٍ تلو الأُخرى. كانت واثقةً من أنّها تستطيع سماع أنفاسه، على مقربة. كان يراقبها. عرفتْ بغريزتها أنّه كان ينتظر عودتها، في قلق.

قالت بلطفٍ: «غيتون». وتركت صوتها يستحيل إلى فتنةٍ تنطلق، تحاول اللحاق به: «منذ أشهر وأنت تتبعني. لماذا؟».

لا شيء. هبّ الصمتُ في الريح من حولها، قارساً.

فقالت وهي تُميل وجهها: «تعال».

لا شيء أيضاً.

قالت: «والآن أَينا ليس مستعداً؟». كان مؤلماً، ذلك الصمت، لكنّها تفهّمتْه. فمن بين المخاطر كلّها التي يعيشانها، كان الحبّ ربّما الخيار الأخطر على الإطلاق.

أو لعلّها كانت مخطئة، ولم يكن هنا، ولم يكن قطّ هنا يراقبها، ينتظرها. ربّما كانت مجرّد فتاةٍ سخيفة مشتاقة إلى رجُلٍ لم يكن يريدها، تقف وحيدةً في شارعٍ خالٍ.

لا.

كان هناك.

*

كان ذلك الشتاء أسوأ من سابقه. وكأنّ إلهاً غاضباً دكّ أوروبا بسماواتٍ ثقيلةٍ وثلجٍ متساقط، يوماً بعد يومٍ بعد يوم؛ أمّا البردُ نفسه، فكان مجرّد إضافةٍ قاسيةٍ إلى عالمٍ كئيبٍ قبيح.

ومثل بلداتٍ صغيرةٍ كثيرة، صارت كاريفو جزيرةً من اليأس، معزولةً عمّا يحيط بها. لم يكن أهلها يعرفون ما يجري في العالم من حولهم إلّا ما ندر، ولا أحد يملك وقتاً للتنقيب في الصحف الدعائيّة بحثاً عن الحقيقة، في وقتٍ كان فيه مجرّد العيش يستلزم جهداً كبيراً. كلّ ما باتوا يعرفونه حقّاً هو أنّ النازيّين أصبحوا أشدّ غضباً ولؤماً منذ أن انضمّ الأميركان إلى الحرب.

استيقظتْ ڤيان قبيل الفجر في صباحٍ كئيبٍ باردٍ من أوائل شباط/ فبراير 1942م، حين كانت أطراف الأشجار تتكسّر وتبدو ألواح النوافذ كبحيرات الجليد المتكسّر. ظلّتْ تحدّق في سقف غرفتها الخفيض، والصداع يدكّها خلف عينَيها. تشعر بالعَرَق والألم، وحين تسحب نَفَساً، تحترق رئتاها وتسعل.

ليس في النهوض عن السرير ما يُغري، ولا التضوّر جوعاً كذلك. كانت بطاقات التموين تفقد قيمتها أكثر فأكثر في ذلك الشتاء. لم يكن

هناك طعام أصلاً، ولا أحذية، أو أقمشة، أو جلود. وما عادت ڤيان تملك خشباً للموقد، أو مالاً تدفعه للكهرباء. ولمّا كان الغاز شحيحاً جدّاً، فقد أصبح مجرّد الاستحمام مهمّةً لا بدّ من احتمالها. كانت تنام هي وصوفي ملتفّتَين ببعضهما كالجراء، تحت جبلٍ من البطّانيات والألحفة. وقد بدأتْ ڤيان منذ أشهر تحرق كلّ شيءٍ مصنوع من خشب، وتبيع أغراضها الثمينة.

تلبس الآن كلّ ما تملك من ثيابٍ تقريباً. بنطالاً، وملابس داخليّة حاكتها بنفسها، وسترةً صوفيّةً قديمةً، ووشاحاً، ومع ذلك ما تزال ترتعش، وهي تنهض عن سريرها. فلمّا لمست قدماها الأرض جفلتْ من آلام البرد في أصابعها. التقطتْ تنّورةً صوفيّةً وارتدتها فوق بنطالها. كانت قد فقدتْ كثيراً من وزنها هذا الشتاء، حتّى تحتّم عليها أن تثبّت بنطالها بدبّوس. سَعَلتْ وهي تنزل الدَرَج. كانت أنفاسها تسبقها في سحبٍ بِيضٍ تكاد تختفي فور انطلاقها. مَشَت وهي تعرج أمام غرفة الضيوف.

رحل النقيب، وما يزال غائباً منذ أسابيع. وعلى الرغم من أنّها تكره الاعتراف بذلك، إلّا أنّ غيابه في هذه الأيّام كان أسوأ من حضوره. فحين يكون موجوداً، تضمن على الأقل وجود طعامٍ يأكلونه، ونارٍ في الموقد. فلم يكن يسمح بأن يظلّ البيت بارداً. لم تأكل ڤيان إلّا القليل من الطعام الذي يحضره، فكانت ترى أنّ من واجبها أن تجوع، ولكنْ أيّ أمٍّ تحتمل معاناة طفلتها؟ هل كان يُفترض أن تدع صوفي تتضوّر جوعاً حتّى تثبت ولاءها لفرنسا؟

ارتدتْ جورباً آخر مثقوباً فوق الجورب الذي ترتديه، ثمّ لفّت نفسها ببطانيّةٍ وارتدت القفّازَين اللّذَين حاكتهما مؤخّراً من بطّانية أطفالٍ قديمةٍ لصوفي.

دخلتْ مطبخها المحدَّد بالصقيع، وأشعلتْ مصباحاً زيتيّاً أخذتْه معها إلى الخارج. تتحرّك ببطءٍ، تتنفّس بصعوبةٍ، وهي تتسلّق التلّة الملساء الثلجيّة إلى الحظيرة. زلّت قدماها مرّتَين، وسقطت على عشبٍ متجمّد.

كان مقبض الباب المعدنيّ في الحظيرة يلسع من فرط برودته، على الرغم من قفّازيها الثقيلَين. دفعتْ الباب بكلّ ثقلها، فلمّا دخلتْ وضعت المصباح أرضاً. فكرةُ تحريك السيّارة في حدّ ذاتها بدت أكثر ممّا يستطيع جسدها الضعيف أن يحتمل.

أخذتْ نَفَساً عميقاً مؤلماً، وشحذت قواها، واتّجهت إلى السيّارة. حرّكت الغيار إلى وضع الحياد، ثمّ انحنت على صدّام السيّارة، ودفعتْ بكلّ قوّتها. تقدّمت السيّارة ببطءٍ، كأنّما في استنكار.

فلمّا انكشف الباب الخفيّ، أخذتْ المصباح ونزلت ببطءٍ على السلّم. لقد باعت كلّ شيءٍ من كنوز عائلتها في الأشهر الماضية، واحداً بعد الآخر. باعت لوحةً كي تشتري طعاماً يكفي الأرانب والدجاج في الشتاء، وباعت طقم شاي من «اليموج» كي تشتري بثمنه كيس طحين، وباعت مرشَّين فضّيين للملح والفلفل كي تشتري ديكَين نحيلَين.

فتحتْ علبة مجوهرات أمّها، وأخذتْ تحدّق في بطانتها المخمليّة. قبل فترةٍ غير طويلة كانت هناك مجوهرات زجاجيّة كثيرة، علاوة على بعض المجوهرات القيّمة. أقراط، وسِوار فضّي مخرّم، ودبّوس من الياقوت والمعدن المطروق. لم يبق شيءٌ منها غير اللآلئ.

خلعت قفّازاً واحداً والتقطت اللآلئ، فوضعتْها في راحتها. بدتْ تحت الضوء برّاقةً، كبشرة امرأةٍ شابّة.

كانت هذه آخر ما يصلها بأمّها، وإرث عائلتها.

لن تلبسها صوفي في زفافها، أو تورّثها لبناتها.

فقالت ڤيان: «لكنّها ستجد ما تأكله في هذا الشتاء». لم تكن واثقةً ما إذا كان التفجّع هو الذي حزّز صوتها، أم الحزن، أم الارتياح. كانت محظوظةً لأنّها تملك شيئاً تبيعه.

حدّقتْ في اللآلئ، وأحسّت بثقلها على راحتها، والطريقة التي تسحب فيها الدفء من جسدها. ولجزءٍ من الثانية رأتْها تتوهّج، ثمّ ارتدت القفّاز ثانيةً في تجهّم، وصعدت السلّم.

*

انقضت ثلاثة أسابيع أُخرى في بردٍ كئيبٍ، ولا أثر لبيك. وذات صباحٍ متجمّدٍ من أواخر شباط/ فبراير، استيقظت ڤيان، وهي تشعر بالحمّى والصداع الشديد. نهضتْ عن سريرها وارتعشتْ، ببطءٍ ترفع البطّانية عن السرير. لفّتها حولها، لكنّ ذلك لم يُجْدِ شيئاً. لم تستطع منع نفسها من الارتعاش، على الرغم من أنّها كانت ترتدي بنطالاً، وسترتَين، وثلاثة جوارب. كانت الريح تعوي في الخارج، فتقرقعُ المصاريعُ، ويجلجلُ الزجاج اللامع بالجليد من خلف الستائر.

تحرّكت ببطءٍ في روتينها الصباحيّ، وهي تحاول ألّا تتنفّس خشية أن تُصدر سعلةً من صدرها. أعدّت لصوفي إفطاراً شحيحاً من عصيدة الذرة المشبّعة بالماء، وهي تمشي على قدمَين تشعّان الألم في كلّ خطوة. بعد ذلك خرجت مع ابنتها في الثلج المتساقط.

سارتا في صمتٍ نحو البلدة، والثلج يتساقط بلا هوادةٍ، يبيّض الطريق أمامهما، ويغطّي الشجر.

كانت الكنيسة قائمةً على قطعة أرضٍ صغيرةٍ ناتئةٍ في طرف البلدة،

يحدّها النهر من جانب، وجدران الكنيسة الحجريّة القديمة من الجانب الآخر.

- مامُن، أنتِ بخير؟

كانت ڤيان تمشي محدودبةً من جديد. ضغطتْ على يد ابنتها، فلم تشعر بشيء سوى القفّاز على القفّاز. أنفاسها تتأتئ في رئتَيها، وتحرق. «أنا بخير».

- كان ينبغي أن تتناولي إفطاراً.

- لم أكن جائعة.

فقالت صوفي: «ها». وهي تدفع نفسها فوق الثلج الثقيل.

قادتها ڤيان إلى الكنيسة. كانت دافئةً في الداخل، حتّى إنّ سُحُب الأنفاس اختفت. صحنُ الكنيسة مقوّسٌ إلى الأعلى برشاقةٍ، على شكل يدَين مضمومتَين في صلاة، يستند على عوارض خشبيّة أنيقة. ثمّة نوافذ تلتمع بشيءٍ من اللّون. معظم المقاعد ممتلئة، ولكنْ لا أحد يتكلّم، لا سيّما في يومٍ باردٍ كهذا، في شتاءٍ بهذه القسوة.

دوّت أجراس الكنيسة فتردّد صدى جلجلةٍ في المكان، فيما أُغلقت أبواب الكنيسة، فتسرّب آخر ما تبقّى من ضوءٍ طبيعيٍّ تمكّن من الدخول عبر الثلج.

تقدّم الأب جوزيف إلى المنبر، وكان قسّيساً مسنّاً طيّباً ترأس الكنيسة طوال حياة ڤيان. «سنصلّي اليوم لرجالنا الذين ذهبوا. سنصلّي كي لا تستمر هذه الحرب أطول من ذلك...وسوف نصلّي كي نظلّ أقوياء نقاوم عدوّنا ولا نخون أنفسنا».

لم يكن هذا ما تريد ڤيان أن تسمعه. لقد أتت إلى الكنيسة (على الرغم

من البرد) كي تجد السلوى في موعظة الأب، كي تجد الإلهام في كلماتٍ مثل: «الشرف»، و«الواجب»، و«الولاء». غير أنّ تلك المُثُل بدت في ذلك اليوم بعيدةً، بعيدةً جدّاً. كيف للمرء أن يتمسّك بالمثل في وقت المرض، والبرد، والجوع الشديد؟ كيف لها أن تنظر إلى جيرانها، وهي تأخذ الطعام من العدو، وإنْ كان قليلاً؟ كان الآخرون أشدّ جوعاً منها.

ظلّت تسبح في أفكارها، حتّى استغرقها الأمر لحظةً لتدرك أنّ الصلاة قد انتهت. وقفتْ، وهي تشعر بموجة دُوارٍ مع الحركة، فتشبّثت بالمقعد.

- مامُن؟

- أنا بخير.

على يسارها اصطفّ الأبرشيّون (وأغلبهم نساء)، وبدا كلٌّ منهم ضعيفاً، ونحيلاً، وباهتاً مثلها، ملفوفاً بطبقاتٍ من الصوف وورق الجرائد.

تناولت صوفي يد أمّها وقادتها نحو الأبواب المفتوحة. وعند العتبة، توقّفت ڤيان، ترتعش وتسعل. لم تكن تريد أن تخرج إلى العالم الأبيض البارد مرّةً أُخرى.

خَطَت فوق العتبة (في المكان الذي حملها فيه أنطوان بعد زفافهما... لا، كانت تلك عتبة لو جاردان. اختلط عليها الأمر)، وخرجت إلى العاصفة الثلجيّة. أمسكت الوشاح الثقيل حول رأسها ولفّته بقوّةٍ على حلقها. انحنت إلى الأمام وأعطتْ كتفها للريح، ثمّ سارت متثاقلةً في الثلج الثقيل.

فلمّا وصلتْ إلى البوّابة المكسورة في فنائها، كانت تتنفّس بصعوبةٍ وتسعل بقوّة. مرّت من أمام الدرّاجة الناريّة التي يغطّيها الثلج، بالعربة الجانبيّة التي ينتصب عليها المسدّس الآلي، ودخلت إلى بستانٍ من

الأغصان العارية. قالت في نفسها: لقد عاد. يمكن لصوفي الآن أن تأكل... كادت تصل إلى باب البيت، فشعرت بنفسها تبدأ في السقوط.

- مامُن!

سمعتْ صوت صوفي، وتبيّنت فيه الخوف، فقالت في نفسها: لقد أخفتُها. فندمتْ على ذلك، لكنّ الوهن كان قد نال من ساقَيها، وكانت متعبةً... متعبةً جدّاً...

من بعيد جدّاً، سمعتْ الباب يُفتح، وسمعت ابنتها تصرخ: «هير نقيب!». ثمّ تناهى إلى سمعها كعب حذاء يخبّ على الخشب.

اصطدمت بالأرض بقوّة، فشقّت رأسَها فوق دَرَجةٍ مغطّاة بالثلج، وظلّت هناك. قالت في نفسها: سأرتاح قليلاً، ثمّ أنهض وأطبخ غداءً لصوفي... ولكنْ أيُّ طعام لدينا لتأكله؟

بعد ذلك شعرت بنفسها تطفو، كلّا، بل ربّما تطير. لم تستطع أن تفتح عينَيها (لفرط التعب والصداع)، لكنّها أحسّت بنفسها تُنقل، وتُهزّ. أنطوان، أهذا أنت؟ أنت تمسكني؟

قال أحدهم: «افتحي الباب». وسمعتْ صوت خشبٍ على خشب، ثمّ: «سأنزع معطفها. أحضري مدام دو شامپلان يا صوفي».

بعدها، أحسّت ڤيان بنفسها تُوضع على شيءٍ ناعم؛ سرير.

بلّلَت شفتَيها الجافّتَين المتشقّقتَين، وحاولتْ أن تفتح عينَيها. كلّفها ذلك جهداً كبيراً، ودمعتَين، فلمّا نجحتْ أخيراً، كان بصرها زائغاً.

كان النقيب بيك جالساً إلى جانبها على السرير، في غرفتها. كان ممسكاً بيدها محنيّاً إلى الأمام، وجهه قريب من وجهها.

- مدام؟

أحسّت بأنفاسه الدافئة على وجهها.

عندها هرعت راشيل إلى الداخل. «ڤيان!».

فنهض النقيب بيك على الفور. «لقد فقدتْ الوعي في الثلج يا مدام، وشقّت رأسها على الدرجَة. فحملتُها إلى هنا».

قالت راشيل، وهي تومئ له: «ممتنّة لك. أنا سأعتني بها الآن يا هير نقيب».

لكنّ بيك وقف هنالك، وقال بتكلّف: «إنّها لا تأكل. كلّ الطعام يذهب إلى صوفي. لقد رأيت ذلك بنفسي».

- «هكذا هي الأمومة في زمن الحرب يا هير نقيب. والآن...إن سمحتَ لي...». وتخطّته فجلست على السرير إلى جانب ڤيان. ظلّ واقفاً لحظةً أخرى، حائراً، ثمّ غادر الغرفة.

قالت لها راشيل بلطفٍ، وهي تمسّد شعرها المبتلّ: «إذن، كنتِ تعطينها كلّ الطعام».

- وما عساي أفعل غير ذلك؟

- أن لا تموتي. صوفي تحتاج إليك.

تنهّدتْ ڤيان بقوّةٍ وأغمضتْ عينَيها. غطّتْ في نومٍ عميقٍ حلمت فيه أنّها تستلقي على مكانٍ ناعمٍ، عبارة عن فدادين فسيحة من الحقول السُّود تمتدّ إلى كل اتّجاه. كانت تسمع الناس تناديها من الظلام، وتسمعهم يمشون نحوها، لكنّها لم تكن تريد التحرّك. نامت، ونامت، ونامت. فلمّا استيقظتْ، وجدتْ نفسها على الأريكة في صالتها، والنار تزمجرُ في الموقد على مقربةٍ منها. نهضتْ ببطءٍ، وهي تشعر بتعبٍ واختلال. «صوفي؟».

فُتح باب غرفة الضيوف وخرج النقيب بيك. كان يرتدي منامةً وسترةً صوفيّةً خفيفةً، وحذاءه العسكري. قال، وهو يبتسم: «بونسوار مدام. يسعدني أنك تعافيتِ».

كانت ترتدي بنطالاً، وسترتَين، وجوربَين، وقبّعةً مخيطة. من ألبسها؟

«كم نمت؟».

- يوماً واحداً فقط.

مرّ من أمامها نحو المطبخ. وبعد لحظاتٍ عاد بكوبٍ من القهوة بالحليب، وشيءٍ من الجبن الأزرق، ولحم خنزير، وكسرة خبز. وضع الطعام على طاولةٍ بجانبها، بدون أن يقول شيئاً.

نظرتْ إلى الطعام، وبطنُها يقرقر من الألم، ثمّ رفعتْ عينَيها إلى النقيب.

- خبطتِ رأسكِ، وكان يمكن أن تموتي.

فلمستْ ڤيان جبينها، وتحسّست النتوء الليّن فيه.

سألَها: «ما الذي سيحدث لصوفي لو متِّ؟ هل فكّرتِ في ذلك؟». واقترب منها.

- غبتَ مدّةً طويلةً جدّاً. ولم يكن هناك طعام يكفينا.

فقال وهو يحدّق فيها: «كُلي».

لم تشأ أن تشيح ببصرها. كان ارتياحها من عودته يُشعرها بالخزي. فلمّا أبعدت عينَيها أخيراً، رأتْ الطعام.

مدّت يدها والتقطت الصحن تقرّبه إليها. أسكَرَتْها رائحة اللّحم المالحة المدخّنة، الممزوجة بشيءٍ من نتانة الجبن. انتصرت تلك الروائح على نيّاتها وأسبابها، وأغرتْها بأنّه لا يوجد خيار آخر.

*

في أوائل آذار/ مارس 1942م، كان الربيع ما يزال يبدو بعيداً. وفي اللّيلة السابقة قصف الحلفاء مصنع رينو في «بولوني-بيليانكور»، فقُتل المئات في تلك الضاحية الباريسيّة، واجتاح الاضطراب والقلق أهل باريس (بمن فيهم إيزابيل). لقد دخل الأميركان الحرب بنيّة انتقام، وأصبحتْ الغارات الجوّية حقيقةً تُعاش كلّ يوم.

في ذلك المساء البارد الماطر، قادت إيزابيل درّاجتها على شارعٍ ريفيٍّ طينيٍّ محفّرٍ، في ضبابٍ ثقيل. كان المطر يلصق شعرها بوجهها، ويغبّش بصرها؛ أمّا الأصوات، فكانت تتضخّم تحت الضباب. يغيبُ صوت طائر الدرّاج بين صوت عجلاتها في الطين، وأزيز الطائرات شبه المستمر، وخوار الماشية في حقلٍ لم تستطع أن تراه. ولا شيء يقيها المطر سوى قلنسوة صوفيّة.

كان خطّ الحدود يتّضح شيئاً فشيئاً، وكأنّ يداً مرتبكةً رسمتْه بالفحم على رقّ. رأتْ لفائف الأسلاك الشائكة تمتدّ على الجانبين في نقطة تفتيشٍ باللّونين: الأبيض، والأسود. إلى جانب البوّابة حارسٌ ألمانيٌّ يجلس على كرسيٍّ، يضع بندقيّته في حجره. فلمّا اقتربت إيزابيل نهض وصوّب بندقيّته إليها.

- توقّفي!

أبطأتْ درّاجتها، فعلقتْ العجلات بالطين وكادت أن تطير من مقعدها. ترجّلت، ومشت في الوحل. كان هناك خمسمئة فرانك مخيطة في بطانة معطفها، إلى جانب مجموعةٍ من الوثائق المزوّرة لطيّارٍ يختبئ في منزلٍ آمنٍ قريب.

تبسّمتْ للألماني، ودفعتْ درّاجتها نحوه، وهي تخبط في حفر الوحل.

قال: «أوراقك».

ناولتْه أوراق جولييت المزوّرة.

نظر فيها دونما اهتمام. من الواضح أنّه لم يكن مرتاحاً لحراسة حدودٍ هادئةٍ كهذه تحت المطر. قال بضجر: «مرّي».

أعادت الأوراق إلى جيبها وصعدت الدرّاجة، ثمّ قادتها بأسرع ما يمكن على الشارع المبتلّ.

بعد ساعةٍ ونصف، وصلتْ إلى ضواحي بلدة «برونتوم» الصغيرة. هنا في المنطقة الحرّة لم يكن للجنود الألمان وجود، غير أنّ الشرطة الفرنسيّة لم تكن أقلّ خطراً منهم، لذلك لم تتخلّ إيزابيل عن حذرها.

ظلّت برونتوم قروناً طويلة يُنظر إليها على أنّها مكانٌ مقدّسٌ يشفي الجسد ويُنير الروح. فبعد أن هلكَ الريف من تبعات الطاعون الأسْود وحرب المئة عام، بنى الرهبان البندكتيّون كنيسةً حجريّةً كبيرةً، تحدّها جُرُفٌ رماديّةٌ عاليةٌ من جانب، ونهر «درون» الفسيح من الجانب الآخر.

على الجهة المقابلة للكهوف في طرف البلدة واحدٌ من أحدث البيوت الآمنة. غرفةٌ سرّيةٌ في طاحونةٍ مهجورةٍ، بُنيت على قطعة أرضٍ بين الكهوف والنهر. كانت الطاحونة الخشبيّة العتيقة تدور بتناغمٍ، والطحالب تغطّي دلاءها وعجلتها؛ أمّا النوافذ، فقد سُدّت بالألواح، وثمّة كتابات مناوئة للألمان تغطّي الجدران الحجريّة.

توقّفت إيزابيل في الشارع، ونظرت في كلا الجانبَين للتأكّد من أنّ أحداً لا يراقبها. لا يوجد أحد. ربطت درّاجتها في شجرةٍ عند طرف البلدة، ثمّ عبرت الشارع، ونزلت نحو باب قبو، ففتحتْه بهدوء. كلُّ الأبواب كانت مغطّاةً بالألواح، مسمّرةً، عدا هذا المدخل الوحيد.

نزلتْ إلى القبو المظلم العفن، والتقطتْ مصباحاً زيتياً كانت قد تركته على رفٍ هناك. أشعلتْه، ثمّ سارت في ممرٍّ سرّيٍّ كان الرهبان البندكتيّون يستخدمونه في الماضي للهروب ممّن يسمّونهم البرابرة. سلالم ضيّقة تقود إلى المطبخ. فتحتْ الباب، وانسلّتْ إلى الغرفة المغبرّة الممتلئة بخيوط العنكبوت، ثمّ صعدتْ إلى الغرفة السرّية الصغيرة (10x10) المبنيّة خلف واحدةٍ من غرف التخزين القديمة.

– لقد وَصَلتْ! انظر يا پيركنز.

في تلك الغرفة الصغيرة المضاءة بشمعةٍ يتيمةٍ، نهض رجُلان على أقدامهما، ووقفا في انتباه. كان كلّ منهما متنكّراً في هيئة فلّاحٍ فرنسيٍّ، بثيابٍ مهلهلة.

قال الأضخم منهما: «أنا النقيب إد پيركنز يا آنسة. وهذا الأحمق هنا اسمه إيَن تروفورد، أو شيءٌ كهذا. إنّه ويلزيّ، وأنا يانكيّ. تسعدنا رؤيتك جدّاً، فقد كدنا نُجنّ في هذا المكان الضيّق».

سألتْه: «كِدتما فقط؟». تقاطر الماء من ردائها، فتجمّع في بركةٍ صغيرةٍ عند قدمَيها. لم تكن ترجو أكثر من أن تنسلّ في كيس نومٍ وتنام، ولكنْ كان عليها أن تنجز عملها أوّلاً: «قلتَ لي اسمك پيركنز».

– نعم يا آنسة.

– من أين؟

– من بِند، في أوريغون يا آنسة. والدي سبّاكٌ، وأمّي أفضل من يصنع فطيرة التفّاح في أربع مقاطعات.

– وكيف الطقس في بِند في هذا الوقت؟

- في أيّ وقتٍ نحن؟ منتصف آذار/ مارس؟ أظنّه بارداً. ربّما توقّف الثلج، لكنّ الشمس لم تسطع بعد.

أمالتْ رقبتها من جانبٍ إلى آخر، تهدّئ الألم في كتفَيها. أثّرت فيها قيادة الدرّاجة والاستلقاء والنوم على الأرض.

استجوبتْ الرجُلَين حتّى توثّقتْ من هُوّيتهما. كانا طيّارَين مُسقطَين ينتظران منذ أسابيع فرصةً للخروج من فرنسا. فلمّا اقتنعتْ أخيراً، فتحتْ حقيبتها وأخرجت عشاءً بسيطاً. جلس الثلاثة على سجّادٍ رثٍّ أكلتْ منه الفئران، ووسطهم شمعة. أخرجتْ خبزاً فرنسيّاً، وقطعةً من جبن الكممبير، وزجاجة نبيذٍ كانوا يمرّرونها بينهم.

كان اليانكيّ پيركنز يكاد لا يكفّ عن الكلام؛ أمّا الويلزي، فظلّ يمضغ طعامه في صمت، ولا يردّ أحداً يعرض عليه زجاجة النبيذ.

قال پيركنز، وهي تغلق حقيبتها: «لا بدّ من أنّ لديكِ زوجاً قلقاً عليك». تبسّمت. فقد أصبح هذا السؤال كثير التكرار، لا سيّما من الرجال في سنّها.

قالت: «وأنتَ لا بدّ من أنّ لديك زوجةً تنتظر خبراً عنك». كان هذا ما تقوله دائماً. تذكيرٌ ثاقب.

- أنا؟ لا. الحمقى مثلي لا تصطفّ الفتيات في انتظارهم. والآن...

قطبت جبينها وسألته: «والآن ماذا؟».

- أعرف أنّ ما أقوله لا يبدو بطوليّاً، لكنّي قد أمشي خارج هذا البيت في هذه البلدة التي لا أستطيع بحقّ الجحيم حتّى أن أنطق اسمها، ويُطلِقُ النارَ عليّ شخصٌ لا توجد مشكلة بيني وبينه. قد أموت، وأنا أحاول أن أقود الدرّاجة فوق التلال—.

- الجبال.

- قد يُطلق الإسبان، أو النازيّون النار عليّ، وأنا أمشي إلى إسبانيا. اللعنة! قد أتجمّد حتّى الموت في تلالكم اللّعينة.

فقالت مرّةً أُخرى بنظرةٍ ثابتة: «جبال. وهذا لن يحدث».

تنهّد إيَن. «أرأيتَ يا پيركنز. هذه الفتاة النحيلة ستنقذنا». وابتسم لها الويلزيّ ابتسامةً مُتعبة: «يسعدني وجودك هنا يا آنسة. فقد طفح كيلي من كلام هذا الرجُل».

- دعه يتكلّم يا إِيَن. غداً في مثل هذا الوقت ستحتاجان إلى كلّ طاقتكما للاستمرار في التنفّس.

سألها پيركنز بعينَين تتّسعان: «في التلال؟».

قالت مبتسمة: «وِي. التلال».

يا للأميركان! لا ينصتون.

*

في أواخر أيار/ مايو عاد الربيعُ بالحياة، والألوان، والدفء إلى وادي لوا، فوجدتْ ڤيان عزاءها في الحديقة. واليوم فيما هي تقلع الأعشاب وتزرع الخضروات، مرّت قافلة من الشاحنات، والجنود، وسيّارات المرسيدس-بنز من أمام لو جاردان. منذ أن انضمّ الأميركان إلى الحرب، تخلّى الألمان عن كلّ ما لديهم من لباقةٍ ومظاهر كاذبة. كانوا منشغلين طوال الوقت، يسيرون ويحتشدون في مخازن الذخيرة. عملاء الغستابو والقوّات الخاصة منتشرون في كلّ مكان، يبحثون عن المخرّبين والمقاومين. ولا أسهل من تهمة الإرهابيّ؛ إذْ يكفي اتّهامٌ هامس. كان أزيز الطائرات شبه مستمرّ، شأنه شأن القصف.

كم مرّةً في هذا الربيع انسلّ أحدهم إلى جانب ڤيان في طابور الطعام،

أو وهي تمشي في البلدة، أو تنتظر عند مكتب البريد ليسألها عن آخر الأخبار في البي بي سي؟

كانت تردّ دائماً: «لا أملك مذياعاً. ممنوع». وكانت هذه هي الحقيقة. مع ذلك، فكلّما سُئلت هذا السؤال شعرتْ برجفة خوف. لقد تعلّموا كلمةً جديدة: لي كولابو: المتعاونون. كان هؤلاء رجالاً ونساء فرنسيّين يؤدّون أقذر الأعمال لصالح النازيّين، يتجسّسون على أصدقائهم وجيرانهم، ثمّ يبلغون العدوّ بكلّ مخالفةٍ، حقيقيّة، أو متخيّلة. وبناء على كلامهم يُعتقل الناس بسبب أشياء صغيرة، وكثيرون يؤخذون إلى مكتب القيادة، ولا يعودون منه أبداً.

اندفعتْ سارة من البوّابة المكسورة إلى الفناء. بدت ذابلةً شديدة النحول، بشرتها شاحبة، وعروقها نافرة. «مدام مورياك! لا بدّ من أن تساعدي مامُن».

جلستْ ڤيان على كعبَيها، ودفعت قبّعة القش فوق رأسها.

- ما الأمر؟ هل وصل خبرٌ عن مارك؟

- لا أعرف ما الأمر مدام. مامُن لا تقول شيئاً. حين قلتُ لها: إنّ آري جائع ويحتاج إلى تبديل ملابسه، قالت: «وماذا يعني؟». إنّها في فناء بيتنا، تحدّق طوال الوقت في خياطتها.

نهضتْ ڤيان، وخلعتْ قفّازَي الحديقة ووضعتْهما في جيب ردائها. «سأطمئنّ عليها. نادي صوفي وسوف نمشي معاً إلى هناك».

بينما كانت سارة في المنزل، غسلت ڤيان يدَيها ووجهها عند المضخّة الخارجيّة وخلعت قبّعتها. وضعتْ مكانها عصابة رأس. وفور أن جاءت

الصبيّان وضعتْ ڤيان أدوات الحديقة في السقيفة، وتوجّه الثلاثة إلى البيت المجاور.

حين فتحتْ ڤيان الباب وجدتْ الصغير آري ذا الثلاثة أعوام نائماً على السجّادة. أخذتْه بين ذراعَيها وقبّلت خدّه، ثمّ التفتت إلى الصبيّين. «لم لا تذهبان للّعب في غرفة سارة؟». رفعتْ الستارة، ورأتْ راشيل جالسةً وحدها في الفناء.

- هل مامْن بخير؟

أومأتْ لها ڤيان في شرود. «اذهبا الآن». وفور أن دخلتا الغرفة، أخذتْ آري إلى غرفة راشيل ووضعتْه في سريره. لم تأبه بتغطيته، لا سيّما في يومٍ دافئٍ كهذا.

كانت راشيل تجلس على كرسيّها الخشبيّ المفضّل، تحت شجرة كستناء. عند قدمَيها سلّة الخياطة. ترتدي طقماً خاكيّاً مضلّعاً، ولفّة رأسٍ بيزليّة(*). كانت تدخّن سيجارةً بنّيةً ملفوفةً، وثمّة زجاجة براندي إلى جانبها، وكوب قهوةٍ فارغ.

- راش؟

- إذن فقد ذهبت سارة لتحضر تعزيزات.

مشتْ ڤيان حتّى وقفت إلى جانبها. وضعتْ يداً على كتف صديقتها، فأحسّت بها ترتعش. «هل وقع مكروهٌ لمارك؟».

هزّت رأسها نفياً.

- حمداً لله.

(*) التصميم، أو النقش البيزلي، نسبةً إلى بلدة بيزلي في اسكتلندا التي اشتُهرت بهذا النقش في منسوجاتها. (م)

مدّت راشيل يدها إلى زجاجة البراندي وصبّت لنفسها كأساً. عبّت منه بنهمٍ وأفرغت الكأس، ثمّ وضعته أرضاً. قالت أخيراً: «لقد أصدروا قانوناً جديداً». بسطتْ يدها اليسرى فكشفت عن قطعٍ من القماش الأصفر مقصوصةٍ على شكل نجمة، كُتب على كلٍ منها بالأسود «جويف». قالت: «فُرض علينا أن نلبسها. نخيطها فوق ملابسنا (القطع الثلاثة المسموح لنا ارتداؤها) ونرتديها طوال الوقت. وكان عليّ أن أشتريها ببطاقات تمويني. ربما ما كان ينبغي لي أن أسجّل بياناتي. إن لم نلبسها سنخضع لـ«عقوبات شديدة»، أيّاً ما كان يعنيه هذا».

جلستْ ڤيان على الكرسيّ إلى جانبها. «ولكن...».

- هل رأيتِ الملصقات في البلدة، وكيف تصوّرنا نحن اليهود على أنّنا حشرات لا بدّ من كنسها، وأنّنا جمّاعو أموالٍ نريد أن نملك كلّ شيء؟ أستطيع أن أتحمّل الأمر، ولكن...ماذا عن سارة؟ سوف تشعر بخزيٍ شديد...تكفيها متاعب سنّها يا ڤيان.

- لا تلبسوها إذن.

- إن أمسكوا بشخصٍ لا يلبسها يعتقلونه على الفور. وهُم يعرفونني. لقد سجّلتُ بياناتي. وهناك أيضاً...بيك. يعرف أنّي يهوديّة.

تبع ذلك صمتٌ، فأدركتْ ڤيان أنّهما تفكّران في الاعتقالات التي وقعت في كاريڤو، في الناس الذي كانوا «يختفون».

قالت ڤيان بهدوء: «يمكنكِ الذهاب إلى المنطقة الحرّة. فهي على بعد أربعة أميال فقط».

- اليهود لا يُمنحون أوسفايس. وإن أمسكوا بي...

أومأتْ ڤيان، فقد كانت محقّة. الهروب خطر، لا سيّما مع الأطفال.

فلو أمسكوا براشيل، وهي تعبر الحدود من دون أوسفايس، سيعتقلونها، أو يعدمونها.

قالت راشيل: «أنا خائفة».

مدّت ڤيان يدها وأمسكت بيد صديقتها. حدّقتا في بعضهما. وحاولت ڤيان أن تفكّر في شيءٍ تقوله، في شيءٍ من الأمل الذي يمكن أن تضفيه، ولكن لم يكن هناك شيء.

- ستسوء الأمور أكثر.

الفكرةُ نفسها خطرت في بال ڤيان.

- مامُن؟

جاءت سارة إلى الفناء، يدها في يد صوفي. بدت الصبيّتان خائفتَين مضطربتَين. كانتا تعلمان بما يجري من مصائب في تلك الأيّام، فتعلّمتا نوعاً جديداً من الخوف. كم كان يكسر قلب ڤيان أن ترى كم غيّرت هذه الحرب من هاتين الطفلتَين! قبل ثلاث سنوات لا أكثر، كانتا طفلتَين عاديّتَين، تضحكان، وتلعبان، وتشاكسان والدتَيهما؛ أمّا الآن فكانتا تتحرّكان بحذر، وكأنّ هناك قنابل مدفونة تحت أقدامهما. كلٌّ منهما نحيلة، وقد تأخّر بلوغهما لسوء التغذية. كان شعر سارة الأسود ما يزال طويلاً، لكنّها بدأت تشدّه في منامها، فتصلّعت أجزاءٌ من رأسها؛ أمّا صوفي، فلم تكن تذهب إلى أيّ مكانٍ من دون بيبي. وقد بدأتْ تلك الدمية الورديّة المسكينة تتقيّأ حشوتها هنا وهناك.

قالت راشيل: «تعالا. تعالا هنا».

تقدّمت الصبيّتان، يد الواحدة في يد الأُخرى بقوّةٍ حدّ الالتحام. كانتا فعلاً ملتحمتَين، مثل راشيل وڤيان، تجمعهما صداقةٌ قويّةٌ قد تكون آخر

ما تبقّى لهما للإيمان به. جلست سارة في الكرسيّ عند راشيل، فتركت صوفي صديقتها أخيراً، وذهبت للوقوف عند أمّها.

نظرت راشيل إلى ڤيان. في تلك النظرة الوحيدة حزنٌ تدفّق بينهما. كيف لهما أن تقولا أشياء كتلك لطفلتَيهما؟

قالت راشيل، وهي تفتح قبضتها فتكشف عن الزهرة الصفراء القبيحة وما كُتب عليها بالأسود: «هذه النجوم الصُفر. علينا أن نرتديها على ملابسنا دائماً».

فعبستْ سارة. «ولكن...لماذا؟».

– نحن يهود. ونعتزّ بذلك. عليكِ أن تتذكّري اعتزازنا بذلك، حتّى وإن بدأ الآخرون—.

فقالت ڤيان بحدّةٍ أكبر ممّا أرادته: «النازيّون».

– النازيّون...حتّى إن أرادوا أن يجعلونا نشعر...بالخجل منه.

سألتها سارة بذهول: «وهل سيضحك الناس علي؟».

فقالت صوفي: «سأرتدي واحدةً أنا أيضاً».

فبدتْ سارة متفائلةً على نحوٍ مُحزن.

أخذت راشيل يد ابنتها وأمسكتها. «لا، يا ابنتي. هذا الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن تفعليه مع صديقتكِ المقرّبة».

أبصرتْ ڤيان ما تشعر به سارة من حزنٍ، وحَرَجٍ، وارتباك. كانت تحاول قدر استطاعتها أن تُحسن التصرّف، أن تبتسم وتكون قويّة، على الرغم من الدموع التي التمعت في عينَيها. قالت أخيراً: «وِي».

كان هذا بالنسبة إلى ڤيان أكثر الأصوات حزناً ممّا سمعتْه طوال ثلاث سنوات تقريباً من الأسى.

الفصل الحادي والعشرون

جاء الصيفُ إلى وادي لوا، بحرارةٍ توازي برودة الشتاء. كانت ڤيان تودّ لو تفتح نافذة غرفتها كي يدخل الهواء، غير أنّه لا نسيم يهبّ في هذه اللّيلة الحارّة من أواخر حزيران/ يونيو. أبعدتْ شعرها الرطب عن وجهها، وارتاحت على كرسيّها عند السرير.

ندّ عن صوفي صوتُ أنين، سمعتْ فيه ڤيان كلمة «مامُن» مشوّشةً ممطوطةً، فبلّلتْ خِرقةً في طاسة ماء على الطاولة الوحيدة المتبقّية. كان الماء حارّاً مثل كلّ شيءٍ في هذه الغرفة. عصرتْ الخرقة فوق الطاسة، ورأتْ الماء يقطر في الطاسة مرّةً أُخرى، ثمّ وضعت الخرقة المبلولة على جبين ابنتها.

تمتمتْ صوفي بكلامٍ غير مفهوم، ثمّ بدأتْ تهتاج وتركل بقدمَيها.

ثبّتتها ڤيان وأخذت تهمس لها بحنانٍ في أذنها، وتشعر بحرارتها على شفتَيها. قالت: «صوفي». كأنّ الاسم في حدّ ذاته دعاء لا أوّل له ولا آخر: «أنا هنا». كرّرتْها مرّةً تلو المرّة إلى أن هدأتْ صوفي.

كانت الحمّى تزداد سوءاً؛ فقد ظلّت صوفي مريضةً عدّة أيّام، متألّمةً،

متوعّكة. في البدء ظنّت ڤيان أنّها كانت تتحجّج بالمرض كي تتملّص من أعمال البيت: الاعتناء بالحديقة، والغسيل، وتعليب الطعام، والخياطة. فقد كانت ڤيان تحاول دائماً أن تفعل المزيد، وتنجز المزيد. حتّى في منتصف الصيف كانت مهمومةً بالشتاء المقبل.

لكنّها أدركتْ الحقيقة هذا الصباح (وشعرتْ بأنّها أمّ سيّئة لأنّها لم تتنبّه منذ البداية). كانت صوفي مريضةً، مريضةً جدّاً. تجتاحها الحمّى طوال اليوم، وترتفع حرارتها. لم يكن بمقدورها أن تحتفظ بشيءٍ في جسمها، حتى الماء الذي كانت في أمسّ الحاجة إليه.

- ما رأيكِ بعصير ليمون؟

لا جواب.

مالت ڤيان وقبّلت خد ابنتها الساخن.

أعادتْ الخرقة إلى طاسة الماء، ثمّ نزلتْ السلالم. هناك على طاولة الطعام صندوق ما يزال ينتظر. الصندوق الجديد الذي ينبغي أن ترسله لأنطوان. كانت ستنتهي منه وترسله لولا أن ساء حال صوفي.

همّت بدخول المطبخ، فسمعتْ ابنتها تصرخ.

عادت تركض على السلالم.

كانت صوفي تصيح «مامُن» وهي تسعل. صوتها متحشرجٌ مُحزن. كانت تتلوّى في السرير، تركل الألحفة، تحاول أن تقذف بها بعيداً. حاولت ڤيان تهدئتها، لكنّ صوفي كانت هائجةً، تتلوّى، وتصرخ، وتسعل.

ليتها تملك شيئاً من الكلوريدين! كان مفعوله كالسحر في السعال، ولكن بالطبع لم يبق منه شيء.

قالت تحاول أن تهدّئ صوفي: «لا تقلقي يا صوف. مامْن هنا». لكنّ كلامها لم يكن له أيّ تأثير.

ظهر بيك إلى جانبها. كانت تُدرك أنّها ينبغي أن تغضب من وجوده هنا، هنا في غرفة نومها، لكنّها من شدّة التعب والخوف لم تستطع أن تخدع نفسها. «لا أعرف كيف أتصرّف. لا يوجد إسبرين، أو مضادّ حيويّ في البلدة كي أشتريه بأيّ ثمن».

– ولا حتّى مقابل لآلئ؟

نظرتْ إليه في ذهول. «تعرف أنّي بعتُ لآلئ أمّي؟».

– «أقيم معك». توقّف قليلاً، ثمّ أضاف: «لذلك أحرص على أن أعرف ما تفعلينه».

لم تعرف كيف تردّ على ما قاله.

نظر إلى صوفي. «كنتُ أسمعها طوال اللّيل تسعل».

سَكَنَتْ صوفي، على نحوٍ مقلق. «سوف تتحسّن».

مدّ يده إلى جيبه وأخرج علبةً صغيرةً من مضادٍّ حيوي. «تفضّلي».

رفعتْ عينَيها إليه. أتراها كانت تبالغ في تفكيرها بأنّه ينقذ حياة ابنتها؟ أم أراد لها أن تفكّر على هذا النحو؟ يمكنها أن تجد مسوّغاً منطقيّاً لأخذ الطعام منه؛ ففي كلّ الأحوال كان لا بدّ من أن يأكل، ولا بدّ أن تطبخ له.

أمّا هذا فكان معروفاً، بكلّ وضوحٍ وبساطةٍ، وسوف يكون له ثمن.

قال بلطف: «خذيها».

أخذتْ منه العلبة. مرّتْ ثانيةٌ وهما يمسكان بالعلبة معاً. أحسّت بأصابعه على أصابعها.

التقتْ عيناهما، ومرّ شيءٌ بينهما. سؤالٌ وجواب.

- شكراً.

- العفو.

*

- سيّدي، العندليب وصلتْ.

أومأ القنصل البريطاني. «أدخلها».

دخلتْ إيزابيل المكتب المحفوف بخشب الماهغوني في نهاية الممرّ الفسيح. وقبل أن تصل إلى طاولة المكتب نهض الرجُل لها. «سعيدٌ برؤيتك مجدّداً».

جلستْ في الكرسيّ الجلديّ غير المريح، وأخذتْ كأس البراندي الذي قدّمه لها. كان آخر عبورٍ لهم عبر البيرينيه صعباً، على الرغم من الطقس المثاليّ في شهر تموز/ يوليو. فأحدُ الطيّارين الأميركان استنكف أن يتّبع أوامر «فتاة»، فتركهم ومضى في طريقه. وقد بلغتهم الأنباء أنّ الإسبان اعتقلوه. قالت، وهي تهزّ رأسها: «هؤلاء اليانكيّون». ولم تكن هناك حاجةٌ إلى قول المزيد. لقد عملت هي وضابط الاتّصال إيَن (اسمه الحركيّ ثلاثاء) معاً منذ انطلاق مسار العندليب للهروب. وقد أنشآ بمساعدةٍ من شبكة پول سلسلةً معقّدةً من المنازل الآمنة في ربوع فرنسا، مع مجموعةٍ من الأنصار المستعدّين للتضحية بحياتهم لمساعدة الطيّارين في العودة إلى بلادهم. كان هؤلاء رجالاً ونساءً فرنسيّين يراقبون السماء ليلاً، يفتّشون عن طائراتٍ معطوبةٍ، أو مظلّيين. كانوا يمشّطون الشوارع، يفتّشون في الظلال والزرائب بحثاً عن جنودٍ مختبئين. وبمجرّد أن يصل الطيّارون إلى إنجلترا لا يعود بإمكانهم التحليق في مهامّ أُخرى (لا سيّما

وهم يعرفون عن الشبكة)، لكنّهم يجهّزون زملاءهم لأسوأ الظروف: يعلّمونهم تقنيات الفرار، ويدلّونهم على الأماكن التي يجدون فيها الدعم، ويزوّدونهم بالفرنكات، والبوصلات، والصور الجاهزة للوثائق المزوّرة.

ارتشفتْ إيزابيل البراندي. علّمتها التجربة أن تكون حذرةً مع الكحول بعد العبور؛ فعادةً ما يعاني جسدها جفافاً أكبر ممّا تدركه، لا سيّما في حرارة الصيف.

دفع إيَن مظروفاً نحوها. أخذتْه، وعدّت الفرنكات، ثمّ أدخلت المبلغ إلى جيب معطفها. قال لها، وهو يجلس: «لقد أحضرتِ لنا سبعةً وثمانين طيّاراً في الشهور الثمانية الماضية يا إيزابيل». في هذه الغرفة فقط، حين يكونان بمفردهما، يستخدم اسمها الحقيقي؛ أمّا في مراسلات الـ«إم آي 9»، فاسمها العندليب؛ وأمّا بالنسبة إلى موظّفي القنصليّة وغيرهم في بريطانيا، فكان اسمها جولييت جيرفيز. «أرى أن تتمهّلي».

- أتمهّل؟

- الألمان يبحثون عن العندليب يا إيزابيل.

- نعرف هذا يا إيَن.

- يحاولون اختراق مسار الهروب. النازيّون موجودون، يتنكّرون في هيئة طيّارين مُسقطين. فإنْ التقطتِ واحداً منهم...

- نحن حريصون يا إيَن، وأنت تعرف ذلك. أستجوبُ كلّ رجُلٍ بنفسي. والشبكة في باريس لا توفّر أيّ جهد.

- إنّهم يبحثون عن العندليب. إنْ وجدوكِ...

نهضتْ وهي تقول: «لن يجدوني».

نهض هو الآخر، وقال لها: «خذي حذرك يا إيزابيل».

- دائماً.

دار حول المكتب وأخذها من ذراعها، فقادها إلى خارج المبنى.

قضت بعض الوقت تستمتع بجمال الساحل في سان سباستيان، تمشي في الطريق فوق الأمواج البيض المندفعة، تستمتع بالمباني التي تخلو من الصلبان المعقوفة. غير أنّ تلك اللحظات من تذكّر الحياة العادية كانت ترفاً لا تستطيع التمادي فيه. أرسلتْ رسالةً إلى پول عبر مرسال قالت فيها:

مرحباً عمّي
أرجو أن تصل إليك رسالتي وأنت في أحسن حال.
أنا الآن في مكانك المفضّل عند البحر.
لقد وصل أصحابنا بسلام.
سأزور جدّتي في باريس غداً عند الساعة الثالثة.

محبّتي الدائمة
جولييت

عادت إلى باريس عبر مسارٍ ملتوٍ. توقّفتْ عند كلّ منزلٍ من المنازل الآمنة، في كاريڤو، وبرونتوم، وباو، وبواتييه، ودفعتْ لمن ساعدوها. كان إطعام الطيّارين المختبئين وكسوتهم أمراً مكلفاً، وبما أنّ أولئك الرجال، والنساء، والأطفال (والغالبية نساء) الذين التحقوا بمسار الهروب كانوا يخاطرون بحياتهم، فقد حرصت الشبكةُ على ألّا ترهقهم من الناحية الماليّة أيضاً.

لم تمشِ إيزابيل مرّةً في شوارع كاريڤو (بعباءتها وقلنسوتها) بدون أن تفكّر في أختها. زاد شوقُها مؤخّراً لڤيان وصوفي، وراودتْها ذكريات لياليهم، وهُم يلعبون البلوت، أو الدامة قرب النار، أو حين تعلّم ڤيان أختها كيف تحيك (أو تحاول أن تحيك)، أو ضحكة صوفي. خطر لها أحياناً أنّ ڤيان وفّرت لها شيئاً لم تكن تدركه في ذلك الوقت: البيت.

لكنّ الأوان قد فات. لم يعد بإمكان إيزابيل أن تعرّض ڤيان للخطر إنْ هي زارتْها في لو جاردان. فسوف يتساءل بيك بالتأكيد عمّا كانت تفعله في باريس في الفترة الماضية. وقد يقوده تساؤله هذا إلى البحث.

ترجّلتْ إيزابيل عن القطار في باريس، بين أناسٍ ذوي أعينٍ كئيبةٍ، وملابسَ قاتمةٍ، يبدون كما لو أنّهم خرجوا من لوحةٍ من لوحات إدوارد مونك. مرّت بالقبّة الذهبيّة اللامعة لقصر ليزانڤاليد، فرأتْ ضباباً خفيفاً في الشوارع ينزع اللّون عن الأشجار. معظم المقاهي مغلقة، وقد تكدّست كراسيّها وطاولاتها تحت المظلّات الرثّة. في الجهة المقابلة كانت شقّتها التي تسكنها منذ الشهر الماضي. عليّة معتمة، صغيرة بائسة فوق محلٍّ مهجورٍ لبيع لحم الخنزير. والجدران ما تزال تحمل رائحة لحم الخنزير .والبهارات

سمعت صوتاً يصيح: «توقّفوا!». وصفّارات تنطلق. صراخ أشخاص. عدّة جنود من الفيرماخت بصحبة الشرطة الفرنسيّة يتحلّقون حول مجموعة أشخاصٍ خرّوا من فورهم على ركبهم ورفعوا أياديهم. لحظت نجوماً صُفراً على صدورهم.

تباطأتْ إيزابيل.

فجأةً ظهرتْ أنوك إلى جانبها، تشبك ذراعها في ذراع إيزابيل.

«بونجور». قالتها بنبرةٍ حيويّة للغاية، فتنبّهت إيزابيل على أنّهما مراقبتان، أو على الأقل هذا ما كانت تخشاه أنوك.

- تظهرين وتختفين كما لو أنّكِ واحدةٌ من شخصيّات مجلّات الرسوم الأميركيّة. مجلّة الظلّ ربّما.

فابتسمتْ أنوك. «وكيف كانت إجازتك الأخيرة في الجبال؟».

- عاديّة.

مالت عليها. «بلَغَتْنا أنباء عن شيءٍ يُدبّر. يوظّف الألمان نساءً لأعمالٍ مكتبيّة في ليالي الأحد. بضعف الأجر. وبسرّية تامة».

أخرجت إيزابيل مظروف الأموال خلسةً من جيبها وسلّمتْه لأنوك التي وضعتْه مباشرةً في حقيبتها المفتوحة. «عملٌ ليلي؟ ومكتبي؟».

- رتّب بول وظيفةً لك. تبدأين في التاسعة. حين تنتهين، اذهبي إلى شقّة أبيك. سيكون في انتظارك.

- دِي.

- قد يكون الأمر خطراً.

هزّت إيزابيل كتفَيها. «وهل هناك شيءٌ غير خطر؟».

*

في تلك الليلة سارت إيزابيل إلى إدارة الشرطة. أحسّت بدمدمةٍ في الرصيف تحت قدمَيها. صوتُ عرباتٍ تتحرّك في مكانٍ قريب. عربات كثيرة.

- أنتِ، هناك!

توقّفتْ إيزابيل، وابتسمت.

سار نحوها ألمانيٌّ ورفع بندقيّته في وضع الاستعداد، ثمّ أخفض بصره إلى صدرها، باحثاً عن نجمة.

قالت، وهي تشير إلى مبنى إدارة الشرطة أمامها: «ذاهبة للعمل». وعلى الرغم من أنّ الستائر كانت مسدلةً على النوافذ، إلّا أنّ المكان كان يعجّ بالحركة. ضبّاطٌ ألمان من الفيرماخت، ورجال الدرك الفرنسيّ يذرعون المبنى دخولاً وخروجاً، وكان هذا أمراً غريباً في هذا الوقت المتأخّر. في الساحة صفٌّ طويلٌ من الحافلات المركونة من طرفٍ إلى آخر؛ أمّا السائقون، فقد تحلّقوا، يدخّنون ويثرثرون.

أمال الشرطيّ رأسه. «اذهبي».

شدّت إيزابيل ياقة معطفها البنّي الباهت. فعلى الرغم من أنّ الجوّ دافئ، إلّا أنّها لم تكن تريد أن تلفت الانتباه إليها هذه اللّيلة. ومن أفضل طرق التخفّي في الأماكن المفتوحة أن تكون مثل طائر النمنمة؛ أن تزيد من اللّون البنّي أكثر، فأكثر، فأكثر. غطّت شعرها الأشقر بوشاحٍ أسود، ربطته على شكل لفّة رأسٍ، بربطةٍ كبيرةٍ في المقدّمة، ولم تضع أيّ مكياج، ولا حتّى أحمر شفاه.

أخفضتْ رأسها، وهي تمشي عبر حشدٍ من رجال الشرطة الفرنسيّة. وما إن دخلتْ المبنى حتّى توقّفت.

كان مكاناً ضخماً به سلالم على الجهتَين، وأبواب مكاتب تفصل بين كلّ واحدٍ والآخر بضع خطوات، غير أنّه الليلة بدا مثل واحدٍ من المصانع التي تستغلّ العمّال؛ فهناك مئات من النساء جالسات إلى مكاتب مضغوط بعضها إلى بعض. كانت الهواتف ترنّ بلا توقّف، ورجال الشرطة الفرنسيّة يهرعون من مكانٍ إلى آخر.

سألَها فرنسيٌّ ضَجِرٌ من أفراد الدَرك عند الباب: «هل جئتِ للمساعدة في الفرز؟».

- دِي.

- «سأجد لكِ مكتباً فارغاً. تعالَي معي». وقادها عبر الغرفة.

كانت المكاتب شبه ملتصقة بعضها ببعض، حتّى اضطُرّت إيزابيل إلى السير بجانبها كي تشقّ طريقها عبر الممرّ الضيّق إلى المكتب الفارغ الذي أشار إليه. فلمّا جلستْ وبدأتْ تتحرّك، وجدتْ نفسها متراصّة مع المرأتَين الجالستَين إلى يمينها وشمالها؛ أمّا سطح مكتبها، فكان مغطّى بصناديق البطاقات.

فتحتْ أوّل صندوقٍ، ونظرت في كومة البطاقات، ثمّ سحبتْ أوّل بطاقةٍ وحدّقت فيها.

شتيرنهولز، إيزاك

12 شارع راست

الدائرة الرابعة

صانع قباقيب

وتوالت المعلومات عن زوجته وأطفاله.

قال رجُل الدرَك الذي لم تنتبه إلى أنّه جاء وراءها: «عليكِ أن تفرزي اليهود المولودين في الخارج».

قالتْ، وهي تتناول بطاقةً أُخرى: «عفواً؟». كانت البطاقة باسم سيمون بير.

- في ذلك الصندوق. الفارغ. افصلي مواليد فرنسا من اليهود عن

أولئك المولودين خارجها. لا يهمّنا سوى اليهود من مواليد الخارج. رجالاً، ونساءً، وأطفالاً.

- لماذا؟

- وما شأننا؟ إنّهم يهود. هيّا ابدئي العمل.

عادت إيزابيل إلى جلستها. كان أمامها مئات البطاقات، وتوجد مئة امرأة على الأقلّ في تلك الغرفة. حجم العمل هائل لا يمكن استيعابه. فما الهدف من ذلك كلّه؟

سألتْ المرأة التي إلى جانبها: «منذ متى وأنتِ هنا؟».

فردّت المرأة، وهي تفتح صندوقاً آخر: «منذ أيّام. البارحة أوّل مرةٍ لا يجوع فيها أطفالي منذ أشهر».

- ما الذي نفعله؟

هزّتْ المرأة كتفَيها. «سمعتُ في كلامهم شيئاً عن عمليّة رياح الربيع».

- وما معنى ذلك؟

- لا أريد أن أعرف.

قلّبتْ إيزابيل في البطاقات، فاستوقفتْها بطاقةٌ في أواخر الكومة.

ليفي، پول
61 شارع بلاندين، شقة ج
الدائرة السابعة
أستاذ جامعي في الآداب

فزّتْ من مكانها واصطدمتْ بالمرأة المجاورة، فأطلقتْ هذه شتيمة. وقعتْ البطاقات على الأرض في ترتيب متعاقب، فخرّت إيزابيل على الفور لالتقاطها، ودسّت بطاقة المسيو ليفي في كمّها.

وفور أن نهضت، أمسك بها شخصٌ ما من ذراعها وجرّها في الممرّ الضيّق، وهي تصطدم بالنساء هنا وهناك.

لفَّ أحدهم ذراعها ودفعها في الجدار بقوّة.

زمجر الشرطيّ الفرنسيّ فيها، وهو يشدّ على ذراعها بقوةٍ شديدة: «ما الذي تفعلينه؟».

أيمكنه أن يحسّ بالبطاقة تحت كمّها؟

– «آسفة. آسفة جداً. أحتاج إلى هذه الوظيفة، لكنّي مريضة كما ترى. مصابة بالبرد». ثمّ سعَلَت بأقوى ما لديها.

مشتْ من أمامه وغادرت البناية. ظلّت تسعل حتّى وصلتْ إلى زاوية الشارع، ثمّ بدأتْ تجري.

*

– ما معنى ذلك؟

ظلّتْ إيزابيل من خلف الستارة، تنظر في الشارع. كان والدها يجلس إلى طاولة الطعام، يدقّ بأصابعه الملطّخة بالحبر في توتّر. بدا جميلاً أن تعود مرّةً أخرى، لتكون معه بعد شهورٍ من الغياب، لكنّ توتّرها الشديد منعها من الاسترخاء والاستمتاع بذلك الشعور.

قال والدها، وهو يشرب كأس البراندي الثاني: «لا بدّ من أنّكِ مخطئة يا إيزابيل. قلتِ: إنّ هناك عشرات الألوف من البطاقات؛ وهذا يعني جميع اليهود في باريس. بالطبع ـــــ».

– يمكنك أن تشكّك في مغزى ذلك يا بابا، ولكن ليس في الحقائق نفسها. الألمان يجمعون أسماء كلّ اليهود المولودين في الخارج: الرجال، والنساء، والأطفال.

- ولكن لأيّ سبب؟ صحيحٌ أنّ پول ليڤي من أصلٍ بولندي، لكنّه يعيش هنا منذ عقود. وقد حارب من أجل فرنسا في الحرب العظمى، وأخوه مات من أجل فرنسا. حكومة فيشي أكّدت لنا حصانة المحاربين القدامى من النازيّين.

- طُلب من ڤيان قائمة أسماء. طُلب منها أن تكتب اسم كلّ يهوديٍّ، وشيوعيٍّ، وماسونيٍّ من المعلّمين في مدرستها. وبعد ذلك فُصلوا جميعاً.

- «لا يمكنهم فصلهم مرّتين على أيّ حال». أنهى كأسه وصبّ لنفسه كأساً أُخرى: «والشرطة الفرنسيّة هي التي تجمع الأسماء. لو كان الألمان، لاختلف الأمر».

لم تعرف إيزابيل بم تجيب. ها قد مضت ثلاث ساعات على الأقلّ، وهُما يناقشان الموضوع نفسه.

الساعةُ الآن قرب الثانية صباحاً، ولم يستطع أيّ منهما أن يتوصّل إلى سببٍ معقول يدفع حكومة فيشي والشرطة الفرنسيّة إلى جمع أسماء وعناوين الباريسيّين اليهود المولودين في الخارج.

رأتْ وميضاً فضّياً في الخارج، فرفعت الستارة شيئاً يسيراً، وحدّقتْ في الشارع المعتم.

كان هناك رتلٌ من الحافلات يسير في الشارع، بمصابيح مطفأة، فبدت مثل أمّ أربعة وأربعين تمتدّ عشرات الأمتار.

كانت قد رأتْ الحافلات في ساحة إدارة الشرطة، عشرات منها. «پاپا». وقبل أن تكمل، سمعتْ خطوات تصعد السلالم عند الشقّة.

دسّ أحدهم مطويّةً من فتحة الباب.

نهض والدها وانحنى يلتقطها. أحضرها إلى الطاولة وقرّبها من الشمعة.



وقفتْ إيزابيل خلفه.

نظر إليها.

– هذا تحذير. يقول: إنّ الشرطة سوف تعتقل جميع اليهود المولودين في الخارج، وترحّلهم إلى معسكرات في ألمانيا.

– نحن نضيّع وقتنا في الكلام. علينا أن نخبّئ أصدقاءنا في العمارة.

– «لا يكفي». كانت يداه ترتعشان، فتساءلت مرّةً أخرى (بقوّة) عمّا رآه في الحرب العظمى، وما كان يعرفه، ولا تعرفه.

– هذا ما نستطيع فعله. يمكننا أن نمنح بعضهم الأمان. اللّيلة على الأقل. وغداً نعرف المزيد.

– الأمان. أين يكون هذا يا إيزابيل؟ لو أنّ الشرطة الفرنسيّة هي التي تفعل ذلك، فقد قُضي علينا.

لم تملك جواباً على ذلك.

وبدون كلمةٍ أُخرى، خرجا من الشقة. كان التسلّل صعباً في عمارةٍ قديمةٍ كهذه، كما أنّ والدها لم يكن قطّ خفيفاً في حركته. كان يتمايل من أثر البراندي، وهو يقودها في السلالم الضيّقة الملتوية إلى الشقّة أسفلهم. تعثّر مرّتَين، وهو يلعن. طرق الباب.

انتظر وعدّ إلى العشرة، ثمّ طرق الباب مرّةً أُخرى، طرقةً أقوى.

ببطءٍ شديد انفتح الباب. مجرّد شقٍّ صغيرٍ، ثمّ انفتح كلّه. قالت رُوث فريدمان: «أوه، جوليَن. هذا أنت». كانت ترتدي معطفاً رجالياً فوق رداءٍ

طويل، تبرز منه قدماها الحافيتان؛ أمّا شعرُها، فكان في لفافات، تغطّيه بلفاع.

- هل رأيتِ المطويّة؟

همستْ: «وصلتني واحدة. هل الأمر حقيقي؟».

- لا أعرف. هناك حافلات في الخارج وشاحنات تهدر طوال اللّيل. إيزابيل كانت في إدارة الشرطة اللّيلة، وهُم يجمعون أسماء وعناوين كلّ اليهود المولودين في الخارج. لا بدّ من أن تحضري الأطفال إلى شقّتنا في الوقت الحالي. لدينا مخبأ.

- ولكن...زوجي أسير حرب. وقد وعدتنا حكومة فيشي بالحماية.

فقالت إيزابيل: «لا أظنّنا نستطيع الوثوق بحكومة فيشي يا مدام. من فضلك، اختبئوا حالياً.

وقفتْ روث لحظةً، وعيناها تتّسعان. كانت النجمة الصفراء على معطفها تذكيراً بالتغيير الذي حدث. أدركتْ إيزابيل اللحظةَ التي اتّخذت فيها المرأةُ قراراً. استدارت ودخلت شقّتها. وفي أقلّ من دقيقة، أتتْ بابنتيها إلى الباب. «ماذا نحضر معنا؟».

أجابتها إيزابيل: «لا شيء». قادت الأسرة صعوداً على السلالم. فلمّا وصلوا إلى الشقّة، قادهم والدها إلى الغرفة السرّية، وأغلق الباب عليهم.

قالت إيزابيل: «سأحضر أسرة ڤيزنياك. لا تضع الخزانة في مكانها».

- إنّهم في الطابق الثالث يا إيزابيل. لن تتمكّني أبداً—.

- اقفل باب الشقّة، ولا تفتح إلّا إن سمعتَ صوتي.

- لا يا إيزابيل—.

لكنّها ذهبت، تجري على السلالم، تكاد لا تلمس الدرابزين لفرط عجلتها. فلمّا اقتربتْ من الطابق الثالث سمعتْ أصواتاً في الأسفل.

كانوا يصعدون السلالم.

لقد تأخّرتْ كثيراً. فربضتْ في مكانها، مختبئة عند المصعد.

وصل شرطيّان فرنسيّان. طرق الأصغر منهما طرقتَين على باب ڤيزنياك، وانتظر ثانيةً، أو ثانيتَين، ثمّ كسر الباب بقدمه، فعَلا عويلُ امرأةٍ من الداخل.

زحفتْ إيزابيل، تحاول أن تسمع.

قال الشرطيّ الواقف إلى اليسار: «...أنتِ مدام ڤيزنياك؟ زوجك اسمه إميل وطفلاكِ أنطون وهيلين؟».

مدّت إيزابيل بصرها لتنظر.

كانت مدام ڤيزنياك امرأةً جميلةً، لها بشرة بلون القشدة، وشعرٌ معتنى به ببذخٍ لم يبدُ أشعث قطّ كما كان في تلك اللحظة. كانت ترتدي منامةً حريريّةً سوداء يبدو أنّها باهظة الثمن. كان طفلاها (ولد وبنت) ملتصقَين بها، مشدوهَين.

قال الشرطي الأكبر منهما، وهو يقلّب في قائمة الأسماء: «اجمعي أغراضك. الضروريّات فقط. سوف تُرحّلين».

- ولكن...زوجي أسير حرب قرب بيتيڤييه. كيف سيجدنا؟

- ستعودون بعد الحرب.

- «أوه». قطّبتْ مدام ڤيزنياك جبينها ومرّرت يدها على شعرها في توتّر.

- طفلاكِ مواطنان وُلدا في فرنسا. يمكنكِ أن تتركيهما هنا. ليسا في القائمة.

لم تستطع إيزابيل أن تظلّ مختبئة، فنهضت ونزلتْ من السلالم. قالت، وهي تحاول أن تبدو هادئة: «سآخذهما عندي يا ليلي».

صاح الطفلان بصوتٍ واحد، وهما يتعلّقان بأمّهما: «لا!».

فالتفت الشرطيّان إليها وسألها أحدهما: «ما اسمك؟».

تجمّدت. ترى أيّ اسمٍ ينبغي أن تقوله؟ قالت في النهاية «روسينيول»، على الرغم من كونه خياراً خطراً؛ فلم تكن أوراقها تثبت هذا الاسم. لكنّ اسم جيرفيز قد يجعلهما يتساءلان عن سبب وجودها في البناية في هذا الوقت، وتدخّلها في شؤون الجيران.

راجع الشرطيّ قائمته ثم لوّح بيديه. «اذهبي. لا شأن لنا بكِ اللّيلة».

فنظرتْ إيزابيل إلى ليلي فيزنياك. «سآخذ الطفلَين يا مدام».

بدتْ غير قادرةٍ على أن تستوعب ما يحدث. «تظنّين أنّي سأتركهما؟».

- أعتقد أنّ—.

فصاح الشرطيّ الأكبر سناً: «كفى!» ودقّ الأرض ببندقيّته، ثمّ قال لإيزابيل: «أنتِ. انصرفي. هذا الأمر لا يعنيكِ».

قالت إيزابيل في رجاء: «مدام، أرجوكِ. سأحرص على أن يكونا في أمان».

- أمان؟ لكنّنا في أمان مع الشرطة الفرنسيّة. لقد أكّدوا لنا ذلك. ولا يمكن لأمٍّ أن تترك طفلَيها. ستفهمين ذلك يوماً». ثمّ التفتتْ إلى الطفلَين: «اجمعا بعض الأغراض».

لمس الشرطيّ الواقف إلى جانب إيزابيل ذراعها برفق. فلمّا التفتت إليه قال: «اذهبي». رأتْ في عينيه تحذيراً، لكنّها لم تعرف ما إذا كان يريد إخافتها أم حمايتها: «الآن».

لم يكن لديها خيار. فلو بقيَت، وطرحت أسئلةً، لذهب اسمها إلى إدارة الشرطة عاجلاً أم آجلاً، بل ربّما إلى الألمان أنفسهم. لا ينبغي لها أن تلفت الانتباه إليها، وهي تعمل في مسار الهروب، ووالدها يزوّر الهويّات، ولا حتّى من أجل أن تعرف إلى أين تؤخذ جارتها.

هكذا، في صمت، وهي مطرقة إلى الأرض (فلم تكن تثق بردّ فعلها إن نظرتْ إليهم)، مشت من جانب الشرطيّين، وصعدت إلى شقتها.

الفصل الثاني والعشرون

عادت إيزابيل من شقّة ڤيزنياك، فأشعلتْ مصباحاً زيتيّاً ومشتْ إلى الصالة، حيث وجدت أباها نائماً على طاولة الطعام، رأسه على الخشب كما لو أنّه فقد وعيه. إلى جانبه زجاجة براندي نصف فارغة، وقد كانت ممتلئة قبل وقتٍ قصير. أخذتْ الزجاجة ووضعتْها في الدولاب، رجاةَ أن يكون البعيد عن العين صباحاً، بعيداً عن القلب كذلك.

كادت تمدّ يدها إليه، تمسّد شعره الرماديّ الذي يغطّي وجهه، فيكشف عن صلعةٍ صغيرة بيضويّة. كم تمنّت أن تستطيع لمسه على ذلك النحو من الراحة، والحبّ، والإحساس بالصحبة.

لكنّها ذهبت إلى المطبخ، وأعدّت إبريقاً من قهوة البلوّط المرّة الداكنة، ووجدت رغيفاً صغيراً من خبزٍ رماديٍّ عديم الطعم، كان الوحيد الذي يستطيع الباريسيّون الحصول عليه. كسرت قطعةً منه وأخذتْ تمضغها ببطء (تُرى ما الذي ستقوله مدام دوفور عن الأكل في أثناء المشي؟).

قال أبوها بعينَين عمشاوَين، وهو يرفع رأسه مع دخولها الصالة: «رائحةُ القهوة كالخراء».

ناولتْه كوبها. «وطعمها أسوأ».

صبّت لنفسها كوباً آخر، وجلست إلى جانبه. أبرز ضوء المصباح تقاطيع وجهه، فعمّق الحُفر والتجاعيد، وجعل ما دون عينَيه يبدو منتفخاً، وأقرب إلى الشمع.

انتظرتْ أن يقول شيئاً، لكنّه ظلّ يحدّق فيها صامتاً. فرغتْ من قهوتها تحت تحديقته (كانت في حاجةٍ إلى القهوة كي تبلع الخبز الجاف)، ثمّ أزاحت الكوب جانباً. بقيَت إيزابيل هناك إلى أن غفا مرّةً أُخرى، فذهبت إلى غرفتها. لم يكن بمقدورها أن تنام. استلقتْ ساعات، في قلقٍ وتفكير، وأخيراً لم تعد تحتمل. نهضت عن سريرها وذهبت إلى الصالة.

- سأخرج لأرى.

فقال، وهو ما يزال جالساً إلى الطاولة: «لا تذهبي».

- لن أرتكب أيّ حماقة.

عادت إلى غرفتها وارتدتْ تنّورةً زرقاء صيفيّة، وبلوزةً بيضاء قصيرة الكمَّين، ثمّ وضعتْ وشاحاً حريريّاً أزرق باهتاً على شعرها الأشعث، وربطتْ الوشاح تحت ذقنها، وخرجتْ.

فلمّا وصلتْ إلى الطابق الثالث رأتْ باب شقّة ڤيزنياك مفتوحاً. نظرتْ داخلها.

سُرقت الشقّة. لم يعد هناك سوى قطع الأثاث الكبيرة. جوارير الخزانة السوداء مفتوحة، والملابس والأغراض غير الثمينة مبعثرة على الأرض. ثمّة علامات سُود مستطيلة على الجدار، تشي بغياب لوحاتٍ كانت معلّقة.

أغلقت باب الشقّة خلفها. وفي ردهة العمارة توقّفت بما يكفي كي تتمالك نفسها، ثمّ فتحت الباب.

كانت هناك حافلات تسير في الشارع واحدةً وراء الأخرى. رأت عبر نوافذ الحافلات القذرة عشراتٍ من وجوه الأطفال، يدسّون أنوفهم في الزجاج، وأمّهاتهم إلى جانبهم؛ أمّا الأرصفة، فكانت خاليةً على نحو غريب.

رأتْ شرطيّاً فرنسيّاً واقفاً عند الزاوية فسارت إليه. «إلى أين يذهبون؟».

– ڤيلودوروم ديڤير.

– الاستاد الرياضي؟ لماذا؟

– لا شأن لك. اذهبي وإلّا وضعتكِ في إحدى الحافلات، فينتهي بكِ الأمر معهم.

– ربّما سأفعل. ربّما—.

مال الشرطيّ عليها وهمس: «اذهبي». أمسك ذراعها وجرّها إلى جانب الطريق: «لدينا أوامر بإطلاق النار على أيّ شخصٍ يحاول الهرب. مفهوم؟».

– تطلقون النار عليهم؟ النساء والأطفال؟

بدا الشرطيّ الشاب بائساً. «اذهبي».

أدركتْ إيزابيل أنّ عليها البقاء في مكانها. كان هذا هو التصرّف الحكيم. ولكنْ كان يمكنها أن تمشي إلى الاستاد بسرعةٍ توازي سرعة الحافلات تقريباً. فهو لا يبعد سوى بضع مئات من الأمتار. لعلّها تعرف هناك ما يحدث.

لأوّل مرّةٍ منذ أشهر لا يوجد حرَس على الحواجز في شوارع باريس. تملّصت من أحد الحواجز، وركضتْ في الشارع باتّجاه النهر، تعبر من

أمام المحالّ المغلقة، والمقاهي الخالية، ثمّ وصلتْ بعد مئات الأمتار وقد انقطعتْ أنفاسها إلى الشارع المقابل للاستاد. ثمّة تيّار لا ينتهي من الحافلات المكتظّة التي تقف عند الاستاد وتلفظ الركّاب. بعد ذلك تُغلق الأبواب، ويُكمل السائقون طريقهم، فيأتي آخرون محلّهم. هناك رأتْ بحراً من النجوم الصُفر.

آلاف الرجال، والنساء، والأطفال، يبدون مضطّربين يائسين، يُقادون إلى داخل الاستاد. معظمهم يرتدون عدّة طبقات من الملابس (لم تكن ثمّة حاجةٌ إلى ذلك في حرارة تموز/ يوليو). والشرطة تحرس المكان مثل رعاة البقر الأميركان الذين يرعون الماشية، يطلقون الصافرات، ويصدرون الأوامر، ويدفعون اليهود إلى الاستاد، أو إلى حافلاتٍ أُخرى.

أُسَر.

رأتْ شرطيّاً يدفع امرأةً بهراوته بقوّةٍ حتّى تعثّرت على ركبتَيها. ترنّحتْ واقفةً، تمدّ يدها تتحسّس ولدها الصغير، تحميه بجسدها، وهي تعرج نحو مدخل الاستاد.

ثمّ رأتْ شرطيّاً فرنسيّاً شابّاً، فشقّت طريقها بين الحشد كي تصل إليه.

سألتْه: «ما الذي يحدث؟».

- الأمر لا يخصّك يا مدموازيل. اذهبي.

نظرتْ إيزابيل إلى الاستاد الكبير. كلّ ما رأته أجسادٌ تُحشر، وأُسَرٌ تحاول أن تتمسّك بعضها ببعض في تلك الفوضى. كانت الشرطة تصيح بهم، وتدفعهم نحو الاستاد، أو تسحب الأطفال والأمّهات حين يسقطون. سمعتْ بكاء أطفال، ورأتْ امرأةً حبلى على ركبتَيها، تؤرجح رأسها نحو الأمام والخلف، وهي تقبض على بطنها المنفوخ.

قالت إيزابيل: «ولكنْ...عددهم هائل...».

- سيُرحّلون قريباً.

- إلى أين؟

هزّ كتفَيه. «لا أعرف شيئاً عن ذلك».

- لا بدّ من أنّك تعرف شيئاً.

تمتم: «معسكرات عمل. في ألمانيا. هذا كلّ ما أعرفه».

- ولكن...هؤلاء نساء وأطفال.

هزّ كتفَيه مرّةً أُخرى.

عجزتْ عن استيعاب الأمر. كيف للدرك الفرنسيّ أن يفعل هذا بأهل باريس؟ بالنساء والأطفال؟ «لا يمكن للأطفال أن يعملوا يا مسيو. وهناك آلاف الأطفال، والحوامل. كيف-».

- هل ترَين خيوط ضابطٍ على كتفي؟ هل أبدو لكِ المدبّر لهذا الأمر؟ إنّما أفعل ما أُمرتُ به. يقولون لي: اقبض على يهود باريس المولودين في الخارج، فأفعل. يريدون أن نعزلهم، فيذهب الرجال العازبون إلى درانسي، وتذهب العائلات إلى الاستاد. وانتهى! صوّب البندقيّة عليهم وكن مستعدّاً للإطلاق. تريد الحكومة أن ترسل جميع يهود فرنسا الأجانب إلى معسكرات العمل، فبدأنا العمل هنا.

كلّ فرنسا؟ أحسّتْ إيزابيل بالهواء ينفد من رئتَيها. تلك إذن عمليّة رياح الربيع. «أوَلا يحدث هذا في باريس فقط؟».

- كلّا. هذه مجرّد بداية.

*

وقفت ڤيان في الطوابير طوال النهار، تحت حرارة الصيف الطاغية. من أجل ماذا؟ نصف رطل من الجبن الجاف، ورغيف من الخبز السيّئ؟

– مامُن، هل يمكن أن نتناول اليوم قليلاً من مربّى الفراولة؟ يُخفي طعم الخبز.

أبقتْ ڤيان ابنتها قربها، وهما خارجتان من المحلّ، ملتصقة بخاصرتها كما لو أنّها طفلة صغيرة. «ربّما قليلاً فقط. لا ينبغي أن نتمادى. تذكرين كيف كان الشتاء قاسياً؟ سوف يأتي شتاءٌ غيره».

رأت ڤيان مجموعة جنودٍ قادمين باتّجاههما، تلتمع بنادقهم تحت ضوء الشمس. ساروا من أمامهما، تتبعهما دبّابات تهدر على الشارع المرصوف بالحجارة.

قالت صوفي: «هناك أشياء كثيرة تحدث هنا اليوم».

الخاطر نفسه راود ڤيان. فقد كان الشارع ممتلئاً بأفراد الشرطة الفرنسيّة، ورجال الدرك يدخلون البلدة زرافات.

كم ارتاحتْ حين دخلت فناء راشيل الهادئ المرتّب! كانت مشتاقةً إلى الوقت الذي تقضيه مع راشيل؛ إذْ هو الوقت الوحيد الذي تشعر فيه بأنّها على طبيعتها.

قرعَتْ ڤيان الباب، فأطلّتْ راشيل في توجّس. وحين رأتْها ابتسمتْ، وهي تفتح الباب، فسمحتْ لتيّار الشمس أن يدخل إلى بيتها العاري. «ڤيان، صوفي! ادخلا».

وصاحت سارة: «صوفي!».

عانقت كلّ منهما صديقتها كأنّهما افترقتا أسابيع، لا مجرّد أيّام. لقد

أتعبهما ذلك الفراق حين كانت صوفي مريضة. قادت سارة صديقتَها من يدها وخرجتا إلى الفناء الأمامي، فجلستا تحت شجرة تفّاح.

تركتْ راشيل الباب مفتوحاً لتسمعهما؛ أمّا ڤيان، ففكّت وشاحها المزهّر عن رأسها ووضعته في جيب تنّورتها. «أحضرتُ لكِ شيئاً».

- «لا يا ڤيان. تحدّثنا من قبل عن هذا». كانت ترتدي رداءً طويلاً خاطته من ستارة حمّامٍ قديمة؛ أمّا سترتها الصيفيّة البيضاء التي غدت رماديةً لفرط الغسيل والملبس، فكانت معلّقةً على ظهر الكرسي. لاحت لڤيان من مكانها نقطتان من النجمة الصفراء المخيطة على السترة.

سارتْ ڤيان إلى المطبخ، وفتحت درج الملاعق والسكاكين. لم يبق شيءٌ تقريباً. ما عادوا يذكرون كم مرّةً طرق الألمان أبواب البيوت يصادرون ما يحتاجون إليه، وكم مرّةً اقتحموا البيوت ليلاً لأخذ ما يريدون. وكلّ ذلك صار إلى قطاراتٍ تتجّه شرقاً.

لهذا السبب كانت معظم الأرفف والخزانات في البلدة فارغة. وكلّ ما تبقّى لراشيل بضع ملاعق وأشواك، وسكّين خبزٍ واحدة. أخذتْ ڤيان السكّين إلى الطاولة، وأخرجت الخبز والجبن من سلّتها، فقطعتْ كلّاً منهما بحرصٍ إلى نصفَين، وأعادتْ نصيبها إلى السلّة. فلمّا رفعتْ عينَيها مرّةً أُخرى، وجدتْ أدمعاً في عينَي راشيل. «أريد أن أقول لكِ: لا تعطينا هذا. فأنتما في حاجةٍ إليه».

- وأنتم في حاجةٍ إليه أيضاً.

- ينبغي لي أن أمزّق تلك النجمة اللّعينة. عندها على الأقل سيكون مسموحاً لي أن أقف في طوابير الطعام، حين يكون هناك شيء نحصل عليه أصلاً.

كانت هناك محظورات جديدة تُفرض باستمرار على اليهود: فلم يعد بمقدورهم امتلاك درّاجات هوائيّة، وحُظرت عليهم جميع الأماكن العامّة إلّا بين الساعة الثالثة والرابعة عصراً للتبضّع، وحينها يكون كلّ شيء قد نفد.

وقبل أن تجيبها ڤيان، سمعتْ صوت درّاجةٍ ناريّةٍ في الخارج. تعرّفتْ على الصوت فذهبت للوقوف عند الباب.

جاءت راشيل إلى جانبها. «لماذا جاء إلى هنا؟».

- سأعرف منه.

- سآتي معك.

سارت ڤيان في البستان من أمام طائرٍ مغرّدٍ يحوم حول الورود. فتحتْ البوابّة وخرجتْ إلى الشارع، تتقدّم راشيل. ومن خلفهما أصدرتْ البوّابة صوت طقطقة، مثل عظمٍ ينكسر.

قال بيك، وهو يخلع قبّعته ويضعها تحت إبطه: «مدام. أعتذر من إزعاجكما، لكنّي جئتُ كي أخبركِ بشيء، مدام موررياك». وشدّد على الضمير في أخبركِ. فبدا الأمر كما لو أنّ بينهما أسراراً.

- أوه، ماذا هناك يا هير نقيب؟

نظر يميناً وشمالاً، ثمّ مال قليلاً نحو ڤيان، وقال بصوتٍ خفيض: «لا ينبغي لمدام دو شامپلان أن تكون في البيت صباح الغد».

فخطر لڤيان أنّه ربّما أساء التعبير عمّا يريد. «عفواً؟».

- لا ينبغي لمدام دو شامپلان أن تكون في البيت غداً.

فقالت راشيل: «أنا وزوجي نملك هذا البيت. لماذا عليّ أن أرحل؟».

- لن تكون لملكيّة البيت أهميةٌ غداً.

فهمّت راشيل تقول: «وطفلاي—».

نظر بيك أخيراً إلى راشيل. «لسنا معنيِّين بطفليكِ. فهما من مواليد فرنسا. ليسا في القائمة».

القائمة.

لقد غدت تلك الكلمة تبعث الخوف. فقالت ڤيان بصوتٍ خفيض: «ما الذي تحاول أن تقوله لنا؟».

- أقول لكِ: إنّها إذا كانت هنا غداً، فلن تكون هنا بعد غد.

- ولكن—.

- لو كانت صديقتي، لوجدتُ طريقةً لإخفائها يوماً واحداً.

سألته ڤيان، وهي تتفرّس وجهه: «اليومِ واحد فقط؟».

- «هذا كلّ ما جئتُ لقوله لكما يا مدام، وما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك. سوف أتعرّض... للعقاب إن عَلم أحدٌ بالأمر. أرجوكِ، إنْ سُئلتِ عن هذا لاحقاً، فلا تذكري شيئاً عن زيارتي». ودقّ كعبَيه، ثمّ انطلق.

نظرتْ راشيل إلى ڤيان. كانت الإشاعات قد انتشرت عن حملات اعتقالاتٍ في باريس، وترحيل النساء والأطفال، إلّا أنّ أحداً لم يصدّقها. وكيف لهم أن يصدّقوها؟ كانت هذه الأخبار مجنونةً، مستحيلة؛ إذْ كيف يمكن أن يُعتقل عشرات الآلاف من منازلهم في منتصف اللّيل، على يد الشرطة الفرنسيّة. كلّهم في وقتٍ واحد؟ لا يمكن أن يصحّ هذا. «هل تثقين به؟».

تفكّرتْ ڤيان في السؤال، ثمّ فوجئت هي نفسها بالجواب: «نعم».

- ماذا أفعل إذن؟

- «خذي طفلَيك إلى المنطقة الحرّة. اللّيلة». لم تصدّق ڤيان أنّ الفكرة خطرت لها، ناهيك عن أن تقولها.

- في الأسبوع الماضي حاولتْ مدام دورانت أن تعبر الحدود فأطلقوا عليها النار ورحّلوا أطفالها.

لو كانت ڤيان مكان راشيل لقالت ذلك أيضاً. أن تهرب امرأةٌ بمفردها شيء، وأن تخاطر بحياة أطفالها شيءٌ آخر تماماً. ولكنْ ماذا لو كان البقاء في حدّ ذاته مخاطرة بحياتهم؟

- معكِ حقّ. الأمر خطرٌ جدّاً. لكنّي أرى أن تأخذي بنصيحة بيك. اختبئي. ليومٍ واحد فقط. وربّما بعد ذلك نعرف أكثر عمّا يحدث.

- أين؟

- تنهّدت، وهي تقول: «إيزابيل استعدّت لهذا الأمر، وكنتُ أظنّها حمقاء. لدينا قبو في الحظيرة».

- تعرفين أنّهم إن اكتشفوا أنّك تخبّئينني—.

فقالت ڤيان بحدّة: «وِي». لم تكن تريد أن تسمعها. عقوبتها الإعدام: «أعرف».

*

ألقتْ ڤيان بجرعةٍ منوّمةٍ في عصير صوفي، وأخذتْها إلى سريرها مبكّراً للنوم. (لم يكن ذلك مبعث فخر طبعاً، ولكنْ لم يكن بالإمكان أن تأخذ صوفي معها اللّيلة، أو تدعها تستيقظ ليلاً فلا تجد أحداً. خياران سيّئان. لم تعد هناك غير الخيارات السيّئة). أخذتْ تذرع الغرفة، وهي تنتظر أن تنام ابنتها. كانت تسمع كل جلجلةٍ للريح على النوافذ، وكلّ صرير في عوارض

البيت الخشبيّة. فلمّا جاءت الساعة السادسة، ارتدتْ رداء البستَنة ونزلت إلى الطابق السفلي.

وجدتْ بيك جالساً على أريكتها، ومصباحٌ زيتيٌّ مشتعلٌ إلى جانبه. كان يمسك بصورة صغيرة مبروزة لأسرته. زوجته (التي كانت ڤيان تعرف أنّ اسمها هيلدا) وطفلَيه: جيزيلا، وڤِلهلم.

حين وصلتْ عندَه رفع عينَيه، لكنّه لم ينهض.

لم تعرف ڤيان كيف تتصرّف. كانت تريد منه أن يختفي الآن، أن يكون في غرفته وراء بابٍ مغلق، أن يكون شخصاً لا تحسب له أيّ حساب. مع ذلك، فقد جازف بحياته المهنيّة من أجل أن يساعد راشيل. كيف لها أن تتجاهل ذلك؟

– ثمّة أشياء سيّئة تحدث يا مدام. أشياء صعبة للغاية. لقد عُلِّمتُ أن أكون جنديّاً، أن أقاتل من أجل وطني، وأن أكون فخراً لأسرتي. كان هذا خياراً مشرّفاً. تُرى كيف سيُنظر إلينا حين نعود؟ كيف سيُنظر إليّ؟

جلستْ إلى جانبه. «أنا أيضاً أفكّر في نظرة أنطوان إليّ. ما كان يجدر بي أن أعطيك قائمة الأسماء. وكان ينبغي أن أكون أكثر حرصاً في الإنفاق. وكان ينبغي لي أن أحرص أكثر على الحفاظ على وظيفتي. ربما كان عليّ أن أستمع أكثر إلى كلام إيزابيل».

– لا تلومي نفسك. أنا واثقٌ من أنّ زوجك سيقول هذا أيضاً. لعلّنا نحن الرجال سريعاً ما نستلّ مسدّساتنا.

التفت قليلاً، بنظرةٍ تتفحّص ملبسها.

كانت تلبس رداءً طويلاً، وسترةً سوداء، تغطّي شعرها بوشاحٍ أسْود. فبدت ربّة بيتٍ في شكلٍ يحاكي الجواسيس.

قال لها: «خطرٌ عليها أن تهرب».

- من الواضح أنّ البقاء خطرٌ أيضاً.

- هذه هي. معضلةٌ مريعة.

- ولكن يا تُرى أيّهما أكثر خطورة؟

لم تكن تنتظر جواباً، ففوجئت حين قال: «البقاء، أعتقد».

فهزّت رأسها.

- لا يجدر بكِ أن تذهبي.

- لا أستطيع أن أتركها تذهب بمفردها.

تفكّر بيك في ردّها، ثمّ أومأ أخيراً. «تعرفين أرض المسيو فريت حيث يربّون الأبقار؟».

- وِي. ولكن—.

- يوجد مسارٌ للماشية خلف الحظيرة. يقود إلى نقاط التفتيش الأقلّ حراسةً. هي مسافةٌ طويلة، ولكن لا بدّ من الوصول إلى نقطة التفتيش قبل حظر التجوال. هذا إن كان هناك من يسأل نفسه هذا السؤال. عن نفسي لا أعرف أحداً.

- أبي، جولِيَن روسينيول، يعيش في باريس، في 57 شارع دو لا بوردونيه. لو...لم أعد إلى البيت ذات يوم...

- سأحرص على أن تصل ابنتك إلى باريس.

نهض، وأخذ الصورة معه. «حان وقتُ نومي يا مدام».

وقفتْ إلى جانبه. «أخافُ أن أثق بك».

- لو كنتُ مكانكِ لخفتُ ألّا تثقي بي.

كانا أقرب إلى بعضهما الآن، يطوّقهما ضوءٌ شحيح.

- أتراكَ إنساناً خيّراً، هير نقيب؟

- هذا ما كنتُ أظنّه يا مدام.

- شكراً لك.

- لم يحن وقت الشكر بعد يا مدام.

تركها وحيدةً مع الضوء وعاد الى غرفته، فأغلق الباب خلفه.

جلستْ ڤيان مرّةً أُخرى، تنتظر. عند السابعة والنصف التقطتْ وشاحها الأسود الثقيل المعلّق عند باب المطبخ.

قالت في نفسها: تشجّعي. هذه المرّة فقط.

غطّت رأسها وكتفَيها بالوشاح، وخرجت.

كانت راشيل وطفلاها في انتظارها خلف الحظيرة. إلى جانبها عربةُ يد، فيها آري ملفوفاً بأغطية، نائماً. من حوله بعض الأغراض التي اختارت راشيل أن تأخذها معها. سألتْها ڤيان: «معك الوثائق المزوّرة؟».

أومأتْ راشيل. «لا أدري إلى أيّ حدّ هي مُتقَنة، وقد كلّفتْني خاتم زواجي». ثمّ نظرتْ إلى ڤيان. تقولان كلّ شيءٍ بدون كلام.

هل أنتِ واثقةٌ من أنّكِ تريدين المجيء معنا؟

نعم بالتأكيد.

قالت سارة، وقد بدا الخوف عليها: «لماذا علينا أن نرحل؟».

وضعتْ راشيل يدها على رأس سارة ونظرت إليها. «سارة، أريدكِ أن تكوني قويّة. تذكرين ما تحدّثنا عنه؟».

فأومأتْ سارة ببطء. «من أجل آري وبابا».

عبروا الشارع الترابيّ، وشقّوا طريقهم عبر حقل القشّ باتّجاه أيكةٍ بعيدة. وبمجرّد أن وصلوا إلى غابة أشجارٍ طويلةٍ، شعرت ڤيان بمزيدٍ من الأمان، كأنّ شيئاً بات يحميها. ولمّا وصلوا إلى أرض فريت كان الظلام قد حلّ. وجدوا مسار الماشية الذي يقود إلى أحراشٍ أعمق فيها جذورٌ سميكةٌ على الأرض الجافّة، فاضطُرّت راشيل إلى دفع العربة بقوّةٍ أكبر. ظلّت تخبط في الجذور مرّةً بعد مرّة؛ أمّا آري، فكان يئنّ في نومه ويمصّ إصبعه في نهم، في حين يتفصّد العرق جارياً على ظهر ڤيان.

قالت راشيل، وقد ثقُلت أنفاسها: «كم كنتُ أحتاجُ إلى الرياضة!».

- وأنا أيضاً أحبّ المشي في الغابة. ماذا عنك مدموازيل سارة، ما الذي أعجبك في مغامرتنا؟

- لن أرتدي هذه النجمة السخيفة. لماذا لم تأتِ صوفي معنا؟ فهي تحبّ الغابة. أتذكرين حين كنّا نلعب لعبة التفتيش عن الأشياء؟ كانت تجد كلّ شيءٍ قبل الجميع.

ثمّ رأتْ ڤيان من فجوةٍ في الأشجار ضوءاً لامعاً، ثمّ علامات الحدود السود والبيض.

كانت البوّابة مضاءةً بأضواءٍ برّاقةٍ جدّاً لا يجرؤ على استخدامها (أو يستطيع) إلّا العدوّ النازيّ. حارسٌ ألمانيٌّ يقف هناك، تلتمع بندقيّته تحت ذلك الضوء المصطنع. وثمّة طابورٌ صغيرٌ من أشخاصٍ ينتظرون العبور. لا تُمنح الموافقة إلّا إذا كانت الوثائق سليمة. فإنْ اكتُشف التزوير في أوراق راشيل، سيُلقى القبض عليها هي وطفلَيها.

أصبح الأمرُ فجأةً حقيقةً ماثلة. فتوقّفت ڤيان.

قالت لها راشيل: «سأراسلك إن استطعت».

أحسّت ڤيان بغصّة. ففي أحسن الأحوال، إن نجح الأمر، قد لا تسمع خبراً عن صديقتها لسنوات، أو ربّما إلى الأبد. في هذا العالم الجديد لم تكن هناك طريقة مؤكّدة يتواصل بها المرء مع أحبابه.

قالت راشيل: «لا تنظري إليّ هكذا. سيجتمع شملنا مرّةً أُخرى سريعاً، نشرب الشمبانيا، ونرقص على موسيقى الجاز التي تحبّينها».

مسحتْ ڤيان الدموع من عينَيها. «تعلمين جيّداً أنّنا لن نظهر معاً أمام الناس حين تبدئين في الرقص».

شدّت سارة كمَّها. «أ-أبلغي صوفي وداعي».

جثتْ ڤيان وحضنتْها. كان لذلك الحضن أن يستمرّ إلى الأبد، لكنّها تركتْها.

همّت باحتضان راشيل، لكنّ صديقتها تراجعت. «إن عانقتك سأبكي، ولا أريد أن أبكي».

فخرّت ذراعا ڤيان إلى جانبَيها.

أمسكتْ راشيل بالعربة، وخرجتْ هي وطفلاها من حِمى الأشجار فانضمّت إلى الطابور في نقطة التفتيش. كان هناك رجُلٌ على درّاجةٍ هوائيّة ظلّ يتقدّم، وامرأةٌ عجوزٌ تدفع عربة أزهار. فلمّا كادت راشيل تصل إلى مقدّمة الطابور انطلقتْ صفّارةٌ، وصاح أحدهم بالألمانية. صوّب الحارس بندقيّته على الحشد وأطلق النار.

وابلٌ من النقاط الحُمر الصغيرة.

را-تا-تا-تا-تات.

فصرختْ امرأةٌ حين خرّ الرجُل الذي إلى جانبها على الأرض، وتبعثر الطابور في غمضة عين؛ إذ جرى الناس في كلّ اتّجاه.

حدث الأمر سريعاً، فلم تستطع ڤيان أن تتصرّف. رأت راشيل وسارة تركضان نحوها، عائدتَين إلى الأشجار، سارة في الأمام، وراشيل في الخلف مع العربة.

صاحت ڤيان، وقد ضاع صوتُها بين طلقات النيران: «هنا هنا!».

خرّتْ سارة على ركبتَيها فوق العشب.

فصاحت راشيل: «سارة!». انقضّت ڤيان وشدّت سارة إلى ذراعَيها، ثمّ حملتْها إلى الغابة ووضعتْها على الأرض، وفتحت أزرار معطفها.

كان صدر الفتاة مخرّماً بثقوب الرصاص. فارَ الدمُ، وتصبّب.

خلعتْ ڤيان وشاحها وضغطتْ به على الجروح.

وصاحت راشيل، وقد وصلتْ مقطوعة الأنفاس إلى جانبها: «كيف هي؟ هل هذا دم؟». وانهارت على العشب إلى جانب ابنتها، في حين بدأ آري يصرخ في العربة.

التمع الضوء في نقطة التفتيش، وتجمّع الجنود، ثمّ بدأت الكلاب تنبح.

قالت ڤيان: «علينا الذهاب يا راشيل. الآن». نهضتْ على قدمَيها في العشب الملطّخ بالدم، وأخذتْ آري من العربة فدفعتْه إلى راشيل التي لم تستوعب ما يجري. ألقت ڤيان بكلّ شيءٍ من العربة في حرصٍ شديدٍ، ووضعتْ سارة في العربة، ثمّ لفّت رأسها بلحاف آري. أمسكتْ مقبضَي العربة بيدَيها المخضّلتَين بالدم، فرفعتْ العجلتَين الخلفيّتَين وبدأت تدفع: «هيّا. يمكننا أن ننقذها».

فأومأتْ راشيل في خدر.

دفعتْ ڤيان العربة إلى الأمام، فوق الجذور والتراب. كان قلبها يدقّ

بقوّة، وطعمُ الخوف حامضٌ في فمها، لكنّها لم تتوقّف، أو تنظر إلى الخلف. كانت تعرف أنّ راشيل خلفها، وأنّ آري يصرخ، ولكنْ إذا كان هناك أحد يتبعهم، فلا تريد أن تعرف.

حين اقتربوا من لو جاردان جاهدتْ ڤيان لدفع العربة الثقيلة في الوهد، ثمّ الصعود بها إلى الحظيرة. فلمّا توقّفتْ أخيراً، اصطدمت العربةُ بالأرض، وتأوّهتْ سارة من فرط الألم.

وضعتْ راشيل ابنها على الأرض، ثمّ رفعتْ سارة من العربة وأنزلتْها على العشب، وسط نواح آري الذي ظلّ يمدّ يدَيه كي يحمله أحد.

جثتْ راشيل إلى جانب سارة، ونظرت إلى حالة صدرها المريعة. ثمّ نظرتْ إلى ڤيان نظرةَ ألمٍ وفَقدٍ لم تستطع هذه أن تحتملها. ثمّ عادت راشيل بنظرها إلى سارة ووضعتْ يدها على خدّ ابنتها الشاحب.

رفعتْ سارة رأسها. «هل عبرنا الحدود؟». كان الدم يغرغر من شفتَيها الشاحبتَين ويسيل على ذقنها.

- نعم. عبرنا. كلّنا الآن في أمان.

- كنتُ شجاعةً. صحيح؟

فقالت راشيل بصوتٍ مكسور: «وِي. شجاعة جداً».

تمتمتْ سارة، وهي ترتعش: «أشعر بالبرد».

سحبتْ نفَساً مرتعشاً، وزفرتْه ببطء.

«سنذهب لتناول بعض الحلويات الآن. أحبّك يا سارة. وپاپا يحبّك. أنتِ نجمتنا». انكسر صوتُها، وأخذتْ تبكي: «أنتِ قلبنا. تعرفين ذلك، صح؟».

- «قولي لصوفي: إنّني...». وارتعش جفناها، ثمّ انطبقا. سحبتْ نَفَساً مرتعشاً أخيراً، ثم سكَنتْ. تفرّقت شفتاها، بدون أنفاسٍ تمرّ بينهما.

جثتْ ڤيان إلى جانب سارة. جسّتْ نبضَها، فلم تجد شيئاً. واستحالَ الصمتُ مذاقاً ثقيلاً، فاسداً. لم تستطع ڤيان أن تفكّر في شيءٍ غير ضحكة تلك الطفلة، وكيف سيصبح العالم خالياً من دونها. كانت تعرف الموت، وتعرف الحزن الذي يقطّع المرء ويتركه مكسوراً إلى الأبد. لم تستطع أن تستوعب كيف يمكن لراشيل أن تظلّ حيّةً حتّى الآن. لو كان الوقتُ غير هذا، لجلستْ ڤيان إلى جانب راشيل، وأمسكت يدها، وتركتْها تبكي، أو لعلّها تحتضنها، أو تتحدّث معها، أو تلزم الصمت. كانت ڤيان ستقلب الدنيا كلّها كي تمنح راشيل ما تحتاج إليه. لكنّها لم تستطع أن تفعل ذلك الآن. ضربةٌ أُخرى شديدة في هذا الوقت العسير. لم يكن الوضع يسمح لهما حتّى بالتوقّف قليلاً من أجل الحزن.

كان على ڤيان أن تتحلّى بالقوّة من أجل راشيل. قالت بهدوء قدر استطاعتها: «علينا أن ندفنها».

- لكنّها تكره الظلام.

- ستكون أمّي معها. وأمّك أيضاً. عليكِ الذهاب أنت وآري إلى القبو. اختبئا هناك. وأنا سأتصرّف.

- كيف؟

أدركتْ ڤيان أنّ راشيل لم تكن تسأل كيف يختبئان في القبو، بل كانت تسأل كيف يمكن للمرء أن يعيش بعد هذا الفقد، كيف يحمل طفلاً في يده ويترك الآخر، كيف يمضي في حياته بعد أن يقول: وداعاً. «لا أستطيع أن أتركها».

- «لا بدّ من أن تتركيها. من أجل آري». ونهضتْ ڤيان ببطءٍ، تنتظر.

سحبتْ راشيل نفساً مُجلجِلاً كالزجاج المكسور، ومالت تقبّل ابنتها على خدّها، ثمّ همستْ لها: «سأظلّ أحبّك دائماً».

وأخيراً نهضتْ. مدّت يدها إلى آري، وأخذتْه بين ذراعَيها، فضمّته بقوّةٍ حتّى بدأ يبكي مرّةً أُخرى.

مدّت ڤيان يدها إلى راشيل وقادتها إلى الحظيرة، ثمّ القبو. «سآتي لأخذكما فور أن يكون الوضع آمناً».

قالت راشيل في صوتٍ بليد: «آمناً». وهي تنظر إليها من داخل الحظيرة. حرّكتْ ڤيان السيّارة، وفتحت الباب السرّي: «ستجدين مصباحاً هناك، وطعاماً».

نزلتْ راشيل السلالم، وهي تحمل آري، ثمّ اختفيا في الظلام. أغلقتْ ڤيان الباب عليهما، وأعادت السيّارة إلى مكانها، ثمّ مضتْ إلى أشجار الليلك التي زرعتْها أمّها قبل ثلاثين عاماً. كانت قد نمت واتّسعت على رقعة الجدار. من تحتها ثلاثة صلبان بِيض صغيرة كادت تختفي تحت الشجيرات النامية. صليبان للطفلَين اللّذَين أجهضتهما، وصليب لابنها الذي مات قبل أسبوعه الأوّل.

كانت راشيل قد وقفتْ هنا إلى جانبها حين دُفن كلّ واحدٍ من أبنائها. والآن حان دور ڤيان كي تدفن ابنة صديقتها الأعزّ. صديقة ابنتها الأعزّ. أيُّ إلهٍ رؤوفٍ يسمح بهذا؟

الفصل الثالث والعشرون

عند لحظات اللّيل الأخيرة قبل الفجر، جلست ڤيان قرب كومة التراب. كانت تريد أن تصلّي، غير أنّ إيمانها بدا بعيداً جدّاً، بقايا من حياة امرأةٍ أُخرى.

نهضتْ على مهل.

فلمّا اكتست السماء لوناً أرجوانيّاً ورديّاً (جميلاً للمفارقة)، سارتْ إلى فنائها الخلفي، حيث الدجاجات تقاقي، وتصفّق بأجنحتها لرؤيتها في هذا الوقت. نزعتْ ملابسها المدمّاة، وتركتْها في كومةٍ على الأرض، واغتسلت عند المضخّة، ثمّ تناولت رداءً كتّانيّاً من على حبل الغسيل، فارتدتْه، ودخلت البيت.

كانت مُنهكة الجسد، مُرهقة الروح، بيد أنّه لم يكن هناك سبيل إلى الراحة. أشعلتْ مصباحاً زيتيّاً، وجلستْ في الصالة. أغمضتْ عينَيها وحاولتْ أن تتخيّل أنطوان إلى جانبها. ما الذي قد تقوله له الآن؟ لم أعد أعرف ما ينبغي فعله. أريد أن أحمي صوفي وأضمن لها الأمان، ولكنْ ما فائدة الأمان إن كانت تكبرُ في عالمٍ يختفي فيه الناس بدون أثر، لا لشيء إلّا لأنّهم يصلّون لربٍّ مختلف؟ لو أنّني اعتقلت...

فُتح باب غرفة الضيوف، وسمعتْ بيك يقترب منها. كان يرتدي زيّه الرسميّ، وقد حلق ذقنه، فأدركتْ بغريزتها أنّه كان ينتظر عودتها. كان قلقاً عليها.

- لقد عُدتِ.

كانت متأكّدةً من أنّه رأى قطرات الدم، أو التراب في مكانٍ ما عليها، على جبينها، أو في ظهر يدها. تمرُّ سكتةٌ تكاد لا تُدرك. كانت تعرف أنّه ينتظر أن تنظر إليه، أن تخبره بما حدث، لكنّها لم تحرّك ساكناً. قد تصرخُ إن هي فتحتْ فمها. قد تبكي إن هي نظرتْ إليه، قد تطالب بأن تعرف كيف يمكن أن يُطلَق الرصاصُ على الأطفال في الظلام، من دون سبب.

- «مامُ؟». تهادى صوتُ صوفي إذْ تدخل الغرفة: «استيقظتُ ولم أجدكِ في السرير، ففزعت».

شبكتْ ڤيان يدَيها على حِجرها. «آسفة يا صوفي».

فقال بيك: «حسنٌ، عليّ الذهاب. وداعاً».

وبمجرّد أن انغلق الباب خلفه، اقتربتْ صوفي أكثر. بَدَت عمشاء بعض الشيء، متعبة.

- بدأتُ أخاف يا مامْ، هل حدث شيء؟

فأغمضتْ ڤيان عينَيها. كان يتعيّن عليها أن تبلغ ابنتها بالخبر الأليم، ثمّ ماذا؟ تحتضن ابنتها، وتمسّد رأسها، وتراها تبكي، فيما تظلّ هي قويّة متماسكة. لكنّها لفرط تعبها لم تعد فيها قوّة. قالت، وهي تنهض: «تعالَي يا صوفي، ننام قليلاً إن استطعنا».

*

في عصر ذلك اليوم توقّعت ڤيان أن ترى في البلدة جنوداً يجتمعون، وبنادق تُستلّ، وعربات شرطة في ساحة البلدة، وكلاباً تصارع في لجامها، وضبّاط الشوتزستافل بزيّهم الأسود. كانت تتوقّع أن ترى شيئاً يوحي بمصيبةٍ وشيكة.

غير أنّها لم تر شيئاً غير المعتاد.

ظلّت هي وابنتها في البلدة طوال النهار، تقفان في الطوابير التي كانت ڤيان تعرف أنّها مضيعة وقت، ثم تمشيان في شارعٍ بعد آخر. في بادئ الأمر كانت صوفي تتحدّث بلا توقّف، بدون أن تنتبه ڤيان لذلك. فكيف يمكنها التركيز في الأحاديث العاديّة بينما راشيل وآري يختبآن في قبوها، وبعد أن ماتت سارة؟

عند قرابة الثالثة عصراً قالت صوفي: «ألّا نغادر الآن يا مامُن؟ لم يبق شيء يمكن أن نحصل عليه. نضيّع وقتنا».

لا بدّ من أنّ الأمر اختلط على بيك، أو لعلّه كان يبالغ في حرصه.

فهم بالتأكيد لن يقبضوا على اليهود ويعتقلوهم في هذا الوقت. يعرف الجميع أنّ الاعتقالات لا تحدث أبداً في أوقات الطعام. كان النازيّون منضبطين جداً، ومنظّمين فيما يتعلّق بهذا الأمر، وكانوا يحبّون طعام فرنسا ونبيذها.

- وِي صوفي. يمكننا أن نعود الآن.

وانطلقتا خارج البلدة. ظلّت ڤيان متحفّزة، لكنّ الشارع كان في واقع الأمر أقلّ ازدحاماً من المعتاد. حتّى المطار كان هادئاً.

قالت صوفي، وهي تفتح البوّابة المكسورة: «هل يمكن أن أحضر سارة إلى البيت؟».

سارة.

نظرت ڤيان إلى صوفي.

قالت صوفي: «تبدين حزينة».

فأجابت ڤيان بهدوء: «أنا فعلاً حزينة».

- تفكّرين في پاپا؟

سحبتْ ڤيان نفَساً عميقاً، ثمّ زفرتْه، وقالت بلطف: «تعالَي معي». وقادتْها إلى مكانٍ جلستا فيه تحت شجرة التفّاح.

- خوّفتِني، مامُن.

أدركتْ ڤيان أنّها لم تحسن التعامل مع الأمر، لكنّها لم تكن تعرف كيف تتصرّف. فابنتُها قد كبُرت على الأكاذيب، لكنّها صغيرةٌ على الحقيقة. كيف تقول لصوفي: إنّ سارة أصيبت بطلقٍ ناريّ، وهي تحاول أن تعبر الحدود؟ قد تقول ابنتُها معلومةً غير مناسبة، للشخص غير المناسب.

- مامُن؟

أحاطت ڤيان وجه صوفي النحيل براحتَيها. «سارة ماتت ليلة الأمس».

- ماتت؟ لكنّها لم تكن مريضة.

جاهدت ڤيان لتمالك نفسها. «يحدث هذا أحياناً. يأخذ الله أرواحنا فجأة. لقد ذهبتْ إلى الجنّة. كي تكون مع جدّتها، وجدّتك».

تملّصتْ صوفي، ونهضتْ على قدمَيها، وتراجعتْ. «أوتعتقدين أنّي غبيّة؟».

- م-ماذا تقصدين؟

- إنّها يهوديّة.

أبصرتْ ڤيان في عينَي ابنتها شيئاً كرهتْه. لم يكن ثمّة شيء من طفولةٍ، أو براءةٍ، أو سذاجةٍ، أو أمل. ولا حتّى الشعور بالحزن. كان غضباً صرفاً.

لو أنّها كانت أمّاً أفضل لحوّلتْ ذلك الغضب إلى شعورٍ بالفقد، ثمّ أخيراً إلى نوعٍ من ذكرى المحبّة التي يستطيع المرءُ تحمّلها. لكنّ الفراغ الذي تشعر به ڤيان كان أكبر من قدرتها على أن تكون أمّاً جيّدة. فلم يخطر في بالها أيّ شيء سوى الأكاذيب والكلام العقيم.

شقّت زركشة الدانتيل في طرف كمّها. «أترين الخيط الأحمر في غصن الشجرة فوقنا؟».

نظرتْ صوفي إلى الأعلى. كان الخيطُ قد فقد شيئاً من لونه، لكنّه ما يزال بارزاً على خلفيّة الأغصان البنّية، والأوراق الخضر، والتفّاح الذي لم ينضج بعد. أومأتْ.

– وضعتُه هناك كي يذكّرني بأبيك. ما رأيك أن تربطي واحداً لسارة، حتى يذكّرنا بها كلّما خرجنا إلى هنا؟

– فقالت صوفي: «لكنّ بابا لم يمت! هل تكذبين ع—».

– لا، لا. أولسنا نتذكّر من غاب عنّا كما نتذكّر الذي فقدناه؟

أخذتْ صوفي شريط الدانتيل في يدها، وربطتْ الخيط على الغصن نفسه، فيما هي تتمايل على قدمَيها.

كم أرادتْ ڤيان أن تعود ابنتُها، فتلتفت إليها، وتهمّ لكي تحضنها، لكنّ صوفي ظلّت واقفة هناك، تحدّق في خيط الدانتيل بعينين تلتمعان من الدموع. فما استطاعت ڤيان أن تفكّر في شيءٍ تقوله إلّا: «لن يكون الأمر دائماً هكذا».

– لا أصدّقك.

نظرتْ إليها صوفي أخيراً. «سأغفو قليلاً».

ولم يكن في وسع ڤيان إلّا أن تومئ. في الأوضاع العاديّة كان هذا التوتّر يخلخلها، فيغشاها حسٌّ بالإخفاق؛ أمّا الآن، فقد تنهّدتْ فقط، ثمّ نهضت. مسحتْ تنّورتها من العشب العالق فيها، واتّجهت صوب الحظيرة. حرّكتْ سيّارة الرينو إلى الأمام، وفتحتْ باب القبو. «راش؟ أنا ڤيان». فجاءها صوتٌ هامسٌ في الظلام: «حمداً لله». وتسلّقت راشيل السلّم القديم، حتّى ظهرت تحت الضوء المغبرّ، وهي تمسك بآري.

سألتْها راشيل في تعب: «ماذا حدث؟».

- لا شيء.

- لا شيء؟

- ذهبتُ إلى البلدة. كلّ شيءٍ يبدو عاديّاً. لعلّ بيك بالغ في الحذر. مع ذلك، أعتقد أنّ عليكِ قضاء ليلةٍ أخرى هنا.

كان وجه راشيل ممطوطاً، مُنهكاً. «سأحتاج إلى حفّاضات، وحمّامٍ سريع. رائحتنا أنا وآري كريهة». بدأ الطفلُ يبكي، فأشاحت خصلات شعرها الرطبة عن جبينها المتعرّق، وتمتمتْ له بصوتٍ منغّمٍ لطيف.

ثمّ غادروا الحظيرة إلى بيت راشيل.

فلمّا كادوا يصلون إلى باب البيت وقفتْ سيّارة شرطة فرنسيّة أمام المنزل. ترجّل پول من السيّارة وسار نحو الفناء حاملاً بندقيّته. «هل أنتِ راشيل دو شامپلان؟».

قطّبتْ راشيل جبينها وقالت: «أنت تعرف من أكون».

- سوف تُرحّلين. تعالَي معي.

شدّت راشيل آري إلى حضنها. «لا تأخذوا ابني —».

- ليس من ضمن القائمة.

فتمسّكتْ ڤيان بكمّه. «لا تفعل ذلك يا پول. إنّها فرنسيّة».

- «إنّها يهوديّة». ثمّ صوّب بندقيّته على راشيل: «تحرّكي».

همّت راشيل بقول شيء، لكنّ پول أخرسها. جرّها من ذراعها ودفعها نحو الشارع، ثم حشرها في المقعد الخلفي لسيّارته.

كانت ڤيان تريد أن تبقى في مكانها (آمنة). كانت تنوي ذلك فعلاً، لكنّها لم تشعر بنفسها إلّا وهي تركض بجانب السيّارة وتخبط على مقدّمتها، تتوسّل أن يدخلها. فضغط پول على الفرامل، وتركها تركب في المقعد الخلفي، ثمّ ضغط على البنزين.

قالت لها راشيل، وهُم يعبرون من أمام لو جاردان: «اذهبي. هذا الوضع ليس لك».

- هذه الأوضاع ليست لأحد.

لو أنّ هذا حدث قبل أسبوع، لربّما تركت راشيل تذهب بمفردها. لربّما ولّتها ظهرها، بندمٍ مُحتمل، وشعور بالذنب أكيد، لكنّها كانت ستقول في نفسها: إنّ حماية صوفي أهمّ من أيّ شيءٍ آخر.

بيد أنّ اللّيلة الماضية غيّرتها. ما تزال تشعر بالضعف والخوف، بل ربّما أكثر من قبل، لكنّها أصبحت تشعر بالغضب أيضاً.

حين وصلوا إلى البلدة كانت هناك حواجز على اثني عشر شارعاً. عربات الشرطة في كلّ مكان، تلفظ أشخاصاً يحملون نجوماً صُفراً على صدورهم، وتقودهم نحو محطّة القطار، حيث تنتظرهم عرباتُ الماشية. مئات كانوا هناك. لا بدّ من أنّهم أُحضروا من جميع أنحاء المنطقة.

أوقف پول سيّارته، وفتح أبوابها، فنزلت ڤيان، وراشيل، وآري ليختلطوا بحشد اليهود من النساء، والأطفال، والشيوخ، يشقّون طريقهم إلى رصيف المحطّة.

ثمّة قطار ينتظرهم، يزفر دخاناً أسود في الهواء الساخن أصلاً. وثمّة جنديّان ألمانيّان يقفان على الرصيف. أحد هذَين الجنديّين بيك. كان في يده سوط. سوط.

غير أنّ الشرطة الفرنسيّة هي المسؤولة عن جمعهم. كانوا يزجّون الأشخاص إلى طوابير ويدفعون بهم إلى عربتَي الماشية. أُدخل الرجال إلى عربةٍ، وأدُخلت النساء والأطفال إلى الأُخرى.

في مكانٍ ما هناك في الأمام، أمٌّ تحمل طفلاً، تحاول الهرب، فأطلق أحد أفراد الدرَك النار عليها في ظهرها. ارتمت على الأرض، وقد أسلمت الروح، في حين تقلّب الطفل حتى وصل إلى حذاء الدرَكيّ الذي يحمل مسدّساً ما يزال خيط الدخان ينبعث منه.

توقّفتْ راشيل واستدارتْ إلى ڤيان، ثمّ همستْ لها: «خذي ابني».

وتزاحم الناس عليهما.

توسّلتْ إليها: «خذيه. أنقذيه».

لم تتردّد ڤيان. وقد أدركت الآن أنّه لا يمكن لأحدٍ أن يبقى محايداً، وبقدر ما كانت خائفةً من تعريض حياة ابنتها للخطر، فقد أصبحتْ الآن تخاف أكثر من ترك ابنتها تنشأ في عالمٍ لا يفعل فيه الطيّبون شيئاً لإيقاف الشرّ، في عالمٍ يمكن للمرأة الطيّبة فيه أن تولّي ظهرها لصديقةٍ تحتاج إليها. هكذا مدّت يدها للطفل وأخذتْه بين ذراعَيها.

– «أنتِ!». كان واحداً من أفراد الدرك، طعن راشيل بظهر بندقيّته في كتفها، فتعثّرت: «تحرّكي!».

نظرت إلى ڤيان ومرّ شريط الصداقة بين عينَيها، الأسرار المشتركة بينهما، والوعود التي أبرمتاها وحافظتا عليها، والأحلام التي تعقدها أختان لأطفالهما.

فصاحت راشيل بصوتٍ أجشّ: «اخرجي من هنا. هيّا اذهبي».

تراجعت ڤيان، ولم تدرِ بنفسها إلّا وقد استدارت وبدأتْ تشقّ طريقها في الزحام بعيداً عن الرصيف والجنود والكلاب، بعيداً عن رائحة الخوف، والسياط، ونواح النساء، وبكاء الأطفال. لم تسمح لنفسها بأن تتباطأ حتّى وصلتْ إلى نهاية الرصيف. وهناك استدارت، وهي تضمّ آري بقوّة إلى حضنها.

راشيل واقفةٌ عند الباب الأسود المفتوح في عربة الماشية، بوجهها ويديها اللتَين ما تزالان ملطّختين بدم ابنتها. طافت عيناها في الزحام، فرأت ڤيان، ورفعتْ يدها الملطّخة بالدماء، ثمّ اختفتْ. دفعتْها النساء اللائي يتعثّرن من حولها، ثمّ انغلق باب العربة.

*

انهارت ڤيان فوق الأريكة. كان آري يبكي بدون توقّف، بحفّاضه المتّسخ ورائحة البول التي تنبعث منه. لا بدّ من أن تنهض لتعتني به، لأن تفعل شيئاً، لكنّها لم تستطع أن تتحرّك. كانت تشعر بأنّها ترزح تحت وطأة الفقد، تختنق من شدّته.

دخلتْ صوفي الصالة. قالت بصوتٍ هادئٍ خائف: «لماذا آري هنا؟ أين مدام دو شامپلان؟».

- «ذهبتْ». لم تكن لديها أدنى قوّةٍ لاجتراح كذبة. وما نفعُ الأكاذيب هنا على أيّ حال؟

فلا يوجد سبيلٌ لحماية ابنتها من كلّ الشرور التي تحيط بهم.

لا سبيل.

سوف تكبر صوفي، وقد عرفتْ أكثر ممّا ينبغي. سوف تعرف الخوف، والفقد، والكراهية ربّما.

قالت ڤيان في توّتر: «راشيل مولودة في رومانيا. هذه جريمتها، إلى جانب كونها يهوديّة. لا يهمّ حكومة فيشي أنّها عاشت في فرنسا خمساً وعشرين سنةً، وتزوّجت من فرنسيّ حارب من أجل فرنسا؛ لهذا رحّلوها».

- حكومتنا هي التي رحّلتها؟ كنتُ أظنّ أنّ النازيّين هُم من يفعلون ذلك.

تنهّدت ڤيان. «اليوم كانت الشرطة الفرنسيّة هي المسؤولة عن ذلك. لكنّ النازيّين كانوا هناك أيضاً».

- إلى أين يأخذونها؟

- لا أدري.

- هل ستعود بعد الحرب؟

نعم. لا. أرجو ذلك. أيُّ جوابٍ يجدر بالأمّ أن تقوله؟

- أرجو ذلك.

- وآري؟

- سيبقى معنا. ليس في القائمة. يبدو أنّ حكومتنا تعتقد أنّ الأطفال يمكن أن يربّوا أنفسهم.

- ولكنْ مامُن، ماذا—؟

- «نفعل؟ ماذا نفعل؟ لا أدري». تنهّدتْ: «في الوقت الحالي أريدكِ أن تجلسي مع الطفل. سأذهب إلى بيتهم وأحضر سريره وملابسه».

فلمّا أوشكت ڤيان أن تصل إلى الباب قالت صوفي: «وماذا عن النقيب بيك؟».

تجمّدتْ ڤيان في مكانها. تذكّرتْ أنّها رأته على الرصيف يحمل سوطاً، سوطاً يضرب به على الأرض كي يقود النساء والأطفال إلى عربة الماشية. قالت: «وِي. ماذا عن النقيب بيك؟».

*

غسلتْ ڤيان ملابسها الملطّخة بالدم، وعلّقتها كي تجفّ في الفناء الخلفي، تحاول أن تتجاهل احمرار الماء الذي رشّته على العشب. أعدّت عشاءً لصوفي وآري (ماذا أعدّت؟ لم تتذكّر)، وجهّزتْهما للنوم. لكنّها ما إن هدأ البيتُ وأظلم حتّى جاشت عواطفها. كانت غاضبةً، غضباً مدوّياً، ومحطّمة.

لم تستطع أن تحتمل سوداويّة أفكارها وقبحها، والمدى العميق لغضبها وحزنها. قطعتْ الدانتيل الجميل من ياقتها وخرجتْ، وهي تستعيد الذكريات حين أهدتْها راشيل تلك البلوزة. قبل ثلاث سنوات.

هذا ما يرتديه الجميع في باريس الآن.

نشرتْ أشجارُ التفّاح أذرعها فوقها. واستغرق منها الأمر محاولتَين كي تربط قطعة القماش في الغصن الخشبي ذي النتوءات الكثيرة، بين خيط أنطوان وسارة. فلمّا ربطتْه تراجعت إلى الوراء.

سارة.

راشيل.

أنطوان.

تغبّشتْ الخيوط الملوّنة في عينَيها. وعندها فقط أدركتْ أنّها تبكي.

- «يا الله». همّت بالدعاء، وهي ترفع نظرها إلى الخيط، والدانتيل، والقماش، الملفوف على الغصن، تتخلّله تفّاحات لم تنضج بعد. ما نفع الدعاء الآن وقد ذهب أحبابها؟

سمعتْ صوت درّاجةٍ ناريّةٍ تصعد الطريق وتقف عند لو جاردان.

بعد لحظات: «مدام؟».

التفّت سريعاً كي تواجهه. «أين سوطك يا هير نقيب؟».

- كنتِ هناك؟

- ما شعورك وأنت تضرب امرأةً فرنسيّةً بالسوط؟

- أوتظنّين أنّي أفعل ذلك يا مدام؟ هذا مقرف!

- لكنّكَ كنتَ هناك.

- وأنتِ كذلك. لقد وضعتْنا هذه الحرب كلّنا في أماكن لا نريد أن نكون فيها.

- قد يصحّ هذا للآخرين، وليس لكم أنتم الألمان.

- لقد حاولتُ أن أساعدها.

فلمّا قال ذلك شعرتْ ڤيان بالغضب ينسحب منها، فيعودُ الحزنُ إليها. لقد حاول فعلاً أن ينقذ راشيل. ليتهما استمعتا لنصيحته، وظلّت راشيل مختبئةً مدّةً أطول. مادَت الأرض من تحتها، فمدّ بيك يده وثبّتها.

- قلتَ لنا: عليها أن تختبئ في الصباح. وظلّتْ في ذلك القبو الشنيع طوال النهار. فلمّا جاء العصر قلتُ في نفسي... كان كلّ شيءٍ يبدو عادياً.

- ڤون رختر عدّل الجدول. كانت هناك مشكلة في القطارات.

القطارات.

تلويحةُ راشيل بالوداع.

نظرتْ ڤيان إليه. «إلى أين يأخذونها؟».

كان هذا أوّل سؤالٍ جوهريّ تطرحه عليه منذ عرفته.

- إلى معسكر عملٍ في ألمانيا.

- «لقد خبّأتها طوال النهار». كرّرتْ الجملة كما لو أنّها ستفيد في شيء.

- لم يعد الفيرماخت المتحكّم بزمام الأمور. الأمر الآن عند الغستابو والشوتزستافل. وهؤلاء أكثر... وحشيّة من الجنود.

- لماذا كنتَ هناك؟

- كنتُ أنفّذ الأوامر. أين طفلاها؟

- جنودكم الألمان أطلقوا النار على سارة في ظهرها عند نقطة التفتيش على الحدود.

- ماين غوت!

- ابنها معي. لماذا لم يضعوا آري في القائمة؟

- «لأنّه من مواليد فرنسا، وهو أقلّ من سنّ الرابعة عشرة. إنّهم لا يرحّلون اليهود الفرنسيّين». نظرَ إليها، ثمّ أضاف: «حتّى الآن».

حبستْ ڤيان أنفاسها. «وهل سيأخذون آري؟».

- أعتقد أنّهم عمّا قريبٍ سيرحّلون كلّ اليهود، بصرف النظر عن السنّ، أو محلّ الميلاد. وحين يحدث هذا سيكون من الخطر أن يوجد أيّ يهودي في منزلك.

- «أطفال. يُرحّلون. وحدَهم». رعبٌ لا يُصدّق، حتّى بعد كلّ الذي رأته: «لقد وعدتُ راشيل أن أحافظ عليه. هل ستُبلغ عنّي؟».

- لستُ وحشاً يا ڤيان.

أوّل مرّةٍ يناديها باسمها الأوّل.

اقترب منها. «أريد أن أحميك».

كان هذا أسوأ ما يمكن أن يقول؛ فقد ظلّت تشعر بالوحدة سنوات، لكنّها في تلك اللحظة كانت حقّاً وحدها.

لمسَ ذراعها، فيما يشبه التمسيدة، فشعرتْ بها في كلّ جزءٍ من جسدها، كتيّارٍ كهربيّ. نظرتْ إليه، وهي لا تستطيع أن تملك زمام نفسها.

كان قريباً منها، على مسافة قُبلة. كلّ ما تبقّى تشجيعٌ بسيط (نَفَسٌ، إيماءةٌ، لمسةٌ)، وعندها يردم الفجوة بينهما. للحظةٍ نسيتْ من تكون، وما حدث لها في ذلك اليوم. كانت تحنّ إلى طمأنةٍ، إلى سلوان. مالتْ شيئاً يسيراً، مَيلةً تكفي لأن تشتمّ أنفاسه، وتشعر بها على شفتَيها، ثم تذكّرتْ (فجأةً، في دفقةِ غضبٍ)، فدفعتْه عنها، وتعثّر.

فرَكَتْ شفتَيها، وكأنّهما مسّتا شفتَيه.

قالت: «لا يجوز لنا ذلك».

- «بالطبع لا». لكنّه حين نظر إليها (ونظرتْ إليه)، أدرك كلاهما أنّ هناك شيئاً أسوأ من تقبيل شخصٍ لا ينبغي تقبيله.

الرغبة في فعل ذلك.

الفصل الرابع والعشرون

انتهى الصيف، وانسحبتْ نهاراتُه الحارّة الذهبيّة، فحلّتْ محلّها السماوات المكفهرّة والأمطار المتساقطة. كانت إيزابيل غارقةً في ممرّ الهروب حتّى إنّها بالكاد لحظتْ ما تغيّر في الطقس.

وذات عصرٍ باردٍ من شهر تشرين الأول/ أكتوبر، ترجّلتْ عن عربة القطار بين زحامٍ شديد، تحمل باقةً من أزهار الخريف.

سارت في الشارع، فرأتْ السيّارات الألمانيّة تسدّ الطريق، وتُطلق أبواقها. يمشي الجنود في ثقةٍ بين أهل باريس الخاضعين ذوي الوجوه الكالحة. أعلام الصليب المعقوف ترفرف في ريح الشتاء. هرعتْ إيزابيل نزولاً على سلّم المترو.

كان النفق مزدحماً بالناس، تغطّي جدرانه ملصقات الدعاية النازيّة؛ إذْ تشيطن البريطانيّين واليهود، وتُبرز الفوهرر بوصفه الحلّ والجواب لكلّ سؤال.

وفجأةً، علتْ صفّارة الغارات الجويّة. انقطعتْ الكهرباء، فغرق الجميع في الظلام. تناهتْ إلى سمعها تمتمات الناس، وبكاء الأطفال،

وسعال الشيوخ. ومن بعيد تهادت دمدمات الانفجارات. لعلّها بولون-بيلانكور مرّةً أُخرى، ولمَ لا؟ فقد كانت «رينو» تصنع الشاحنات للألمان.

فلمّا أُعلن عن انتهاء الغارة، لم يتحرّك أحدٌ إلّا بعد لحظات، حين عادت الكهرباء والأضواء.

أوشكتْ إيزابيل أن تصل إلى القطار، فانطلقتْ صفّارة.

تسمّرت في مكانها. وتقدّم جنودٌ نازيّون يصحبهم متعاونون فرنسيّون، يسيرون في النفق ويتحدّث بعضهم إلى بعض، يشيرون إلى بعض الأشخاص، فيسحبونهم إلى منطقة مسيّجة، ويجبرونهم على الركوع.

ثمّ ظهرتْ بندقيّةٌ أمامها.

قال الألماني: «أوراقك».

قبضتْ إيزابيل على الأزهار بيد، وقلّبت في حقيبتها بتوتّرٍ باليد الأُخرى. كانت تحتفظ برسالةٍ لأنوك ملفوفةٍ داخل الباقة. لم يكن هذا التفتيش مستغرباً بالطبع؛ فمنذ أن بدأت نجاحات الحلفاء في شمال إفريقيا، شرع الألمان يوقفون الناس في كلّ وقتٍ، ويسألون عن هويّاتهم. في الشوارع، والمحالّ، ومحطّات القطار، والكنائس. لم يبقَ أمانٌ في أيّ مكان. سلّمته الكارت ديتانتيته المزوّرة. «أنا ذاهبةٌ لألتقي صديقة والدتي على الغداء».

اقترب الفرنسيّ من الألماني وراح يتفحّص الأوراق، ثمّ هزّ رأسه، فأعاد الألماني الأوراق لإيزابيل. «اذهبي».

تبسّمت إيزابيل بسرعة، وأومأتْ شاكرةً، وهرعت إلى القطار، فانسلّت إلى عربةٍ مفتوحة قبل أن تنغلق أبوابها.

وما إن خرجتْ إيزابيل في الدائرة السادسة عشرة حتّى استعادت هدوءها. كان هناك ضبابٌ رطيبٌ معلّقٌ في الهواء، يحجب المباني والبوارج التي تتحرّك ببطءٍ على نهر السين. تضخّمت الأصواتُ من أثر الضباب، وأصبحت غريبة. في مكانٍ ما كانت هناك كرةٌ تنطّ (لعلّهم صبية يلعبون في الشارع). وأطلقت بارجةٌ بوقها، فمكثَ الصوتُ في الأرجاء قليلاً.

عند الشارع انعطفت إيزابيل إلى الزاوية ودخلت حانةً، واحدةً من قلائل مضاءة. ريحٌ قويّة تهزّ المظلّة. عبرتْ من الطاولات الفارغة وذهبتْ إلى المنضدة الخارجيّة، فطلبت كافيه أو ليه (بدون قهوةٍ، أو حليبٍ، بالطبع).

– جولييت؟ هذه أنتِ؟

رأتْ إيزابيل أنوك وابتسمت. «غابرييل. تسعدني رؤيتك». وسلّمتْها الأزهار.

طلبتْ أنوك قهوة، وظلّتا واقفتَين تحتسيان القهوة في ذلك الطقس البارد. قالت أنوك: «كنتُ أتحدّث إلى عمّي هنري أمس. يشتاق إليك».

– هل هو مريض؟

– لا، لا. بالعكس. وهو يرتّب لحفلٍ مساء الثلاثاء القادم. وطلب منّي أن أدعوكِ نيابةً عنه.

– هل آخذ له هديّةً باسمك؟

– لا، ولكن سيكون جميلاً لو سلّمتِه رسالةً منّي. ها هي هنا جهّزتُها لك.

أخذتْ إيزابيل الرسالة فدسّتها في بطانة حقيبتها.

نظرتْ أنوك إليها. ثمّة دوائر من دخانٍ حول عينَيها. وخطوطٌ جديدة بدأت تنحفر على وجنتَيها وحاجبها. لقد بدأتْ تؤثّر عليها تلك الحياةُ السرّية.

سألتْها إيزابيل: «هل أنتِ على ما يرام يا صديقتي؟».

كانت ابتسامتُها مُتعبةً، لكنّها صادقة. «وِي». سكتتْ قليلاً ثمّ قالت: «رأيتُ غيتون البارحة. وسيكون حاضراً في اجتماع كاريڤو».

- ولماذا تخبرينني؟

- يا إيزابيل، لم أرَ في حياتي كتاباً مفتوحاً مثلك. كلُّ أفكارك ومشاعرك تكشف نفسها في عينَيك. ألا تعرفين كم تذكرينه عندي؟

- حقّاً؟ ظننتُ أنّي أخفيتُ الأمر.

- «شيءٌ جميل في الحقيقة. يذكّرني بما نقاتل من أجله. تلك الأشياء البسيطة: فتاة، وفتى، ومستقبلهما». قبّلتْها على وجنتَيها، ثمّ همستْ: «وهو يذكركِ عندي أيضاً».

*

لحسنِ حظّ إيزابيل أنّ المطر كان يتساقط في كاريڤو في ذلك اليوم من أواخر تشرين الأول/ أكتوبر.

فلم يكن أحد يعبأ بالناس في جوٍّ كهذا، ولا حتّى الألمان. غطّت رأسها بقبّعة السترة، ورفعتْ سحّاب سترتها إلى أقصى حدّ. لكنّ المطر كان يرشق وجهها، ويتسلّل في تيّارات باردة على رقبتها، وهي تجرّ درّاجتها خارج القطار، وتمشي بها على رصيف المحطّة.

وفي ضواحي البلدة ركبتْ درّاجتها باتّجاه كاريڤو عبر زقاقٍ غير شائعٍ،

فتخطّت المرور من أمام الميدان. في الأيّام الخريفيّة الماطرة يقلّ عدد الناس في الخارج، ولا يوجد غير النساء والأطفال الواقفين في طوابير الطعام، يتقاطر المطر من معاطفهم وقبّعاتهم؛ أمّا الألمان، فكانوا غالباً في داخل المحالّ والمباني.

فلمّا وصلتْ إلى فندق بيليڤو، كانت منهكة. ترجّلت عن درّاجتها، وأوثقتها بعمود إنارة، ثمّ دخلت.

رنّ جرسٌ فوق رأسها إيذاناً بدخولها أمام الألمان الذين كانوا جالسين في الردهة يشربون قهوة العصر.

– فقال أحد الضبّاط، وهو يتناول قطعة پا أُو شوكولا: «أنتِ مبتلّةٌ تماماً».

– هؤلاء الفرنسيّون لا يعرفون كيف يتجنّبون المطر.

فضحكوا على ذلك.

حافظتْ على ابتسامتها، وهي تمشي من أمامهم، ثمّ توقّفت أمام مكتب الاستقبال وقرعت الجرس.

جاء هنري من غرفةٍ خلفيّةٍ، يحمل فناجين قهوةٍ على صينيّة. رآها، فأومأ لها.

– «لحظة، مدام». قالها، وهو يمرّ حاملاً الصينيّة إلى الطاولة التي يجلس إليها عملاء الشوتزستافل، مثل عناكب تتّشح بالسواد.

فلمّا عاد إلى المكتب قال: «مدام جيرڤيز. أهلاً بك مرةً أُخرى. سعداء برؤيتك من جديد. غرفتك جاهزة بالطبع. اتبعيني من فضلك».

أومأتْ له، وسارت خلفه في الرواق الضيّق، ثمّ صعدت السلالم إلى

الطابق الثاني. وهناك، أدخل مفتاحاً في القفل وأداره، ففتح الباب على غرفة نومٍ صغيرةٍ بسريرٍ مفردٍ، وطاولةٍ جانبيّةٍ، ومصباح. أدخلها، ثمّ أغلق الباب بقدمه، وأخذها بين ذراعَيه.

قال، وهو يشدّها إليه: «إيزابيل. سعيد برؤيتك». ثمّ تركها وتراجع قليلاً: «أصابني القلق بعد... روماڤيل».

أزالت إيزابيل قبّعتها. «وي». كان النازيّون قد بدؤوا منذ شهرين في فرض إجراءات صارمة على من يسمّونهم المخرّبين والمقاومين. فقد أدركوا أخيراً الدور الذي تؤدّيه النساء في هذه الحرب، واعتقلوا أكثر من مئتي امرأةٍ فرنسيّةٍ في روماڤيل.

فكّت أزرار معطفها ونشرته على طرف السرير، ثمّ استخرجت المظروف من بطانة حقيبتها وسلّمته لهنري. «تفضّل». أعطته المال الذي أرسلته الـ«إم آي 9». كان فندقه واحداً من أهمّ البيوت الآمنة التي تديرها مجموعته، وكانت إيزابيل مفتونةً بحقيقة أنّهم يؤوون البريطانيّين، واليانكيّين، والمقاومين هنا، تحت أعين النازيّين. والليلة ستكون نزيلةً في هذه الغرفة الضئيلة.

سحبتْ كرسيّاً من خلف مكتبٍ قديم، وجلست. «الاجتماعُ الليلة؟».

– في الحادية عشرة مساء. في الحظيرة المهجورة بمزرعة أنجيلير.

– وما سبب الاجتماع؟

– «ليس لي علم». جلس على طرف السرير، وأدركتْ من نظرته أنّ ثمّة شيئاً خطراً.

– سمعتُ أنّ النازيّين مستميتون للقبض على العندليب. يُقال: إنّهم يحاولون اختراق ممرّ الهروب.

رفعتْ حاجبها. «أعرف هذا يا هنري. ولا تقل لي: إنّ الأمر خطر».

- لقد أكثرتِ جداً من رحلاتك يا إيزابيل. كم عددها؟

- أربعٌ وعشرون.

هزّ هنري رأسه. «لا عجب إذنْ من أنّهم مستميتون للعثور عليك. هناك أخبار عن ممرّ هروبٍ آخر عبر مرسيليا وبيربينيان، وهو ممرٌّ ناجحٌ أيضاً. ستبدأ المتاعب يا إيزابيل».

فوجئت بحجم تأثّرها من اهتمامه، وتأثّرها بسماع اسمها. كم جميلٌ أن تعود إيزابيل روسينيول مرّةً أخرى، وإنْ للحظات، وأن تجلس إلى شخصٍ يعرفها. فهي تقضي جزءاً كبيراً من حياتها في الاختباء والهروب، في بيوتٍ آمنةٍ مع غرباء.

غير أنّها لم تجد سبباً لمناقشة الأمر. ممرّ الهروب لا يُقدّر بثمن، ويستحقّ المخاطر. «تتابعون أخبار أختي، أليس كذلك؟».

- وِي.

- أما يزال النازيّ معها في البيت؟

فأشاح هنري ببصره.

- ما الأمر؟

- فُصلت ڤيان من وظيفتها.

- لكنّها معلّمة ممتازة، ومحبوبة بين الطلاب.

- يقال: إنّها اعترضت على ضابط غستابو.

- هذا ليس من طبع ڤيان. إذنْ فليس لها مصدر دخل. كيف تعيش إذن؟

بدا غير مرتاح. «هناك أقاويل».

- أقاويل؟

- عنها هي والنازيّ.

*

ظلّت ڤيان تخبّئ ابن راشيل في لو جاردان طوال الصيف. فقد حرصتْ على ألّا تخرج معه أبداً، حتى في الحديقة. لم تكن لديها أوراق تثبت أنّه شخصٌ آخر غير آرييل دو شامپلان. لذلك توجّب عليها أن تترك صوفي في البيت مع الطفل، فأصبح ذهابها إلى البلدة في كلّ مرّةٍ مشواراً متلفاً للأعصاب، لا ينتهي. قالت لكلّ من جاء في بالها (من أصحاب المحالّ، والراهبات، والقرويّين): إنّ راشيل رُحّلت مع طفلَيها.

هذا كلّ ما استطاعت أن تفكّر فيه.

أمّا اليوم فقد غادرت ڤيان البلدة مهزومةً، بعد نهارٍ طويلٍ شاقٍّ من الوقوف في الطوابير بدون أن تحصل على شيء. وقد انتشرتْ أقاويل عن مزيدٍ من الترحيلات والاعتقالات في شتّى أنحاء فرنسا. كان آلاف اليهود الفرنسيّين يُحتجزون في معسكرات الاعتقال.

وحين وصلتْ إلى بيتها، علّقت عباءتها المبتلّة على مشجبٍ خارجيٍّ عند الباب. لم يكن لديها أيّ أملٍ في أن تجفّ قبل اليوم التالي، لكنّها على الأقل لن تبلّل أرضيّة البيت. ثمّ خلعتْ حذاءها المطاطيّ الموحل عند الباب ودخلت. وكالعادة، وجدتْ صوفي واقفةً لدى الباب، في انتظارها.

قالت ڤيان: «أنا بخير».

فأومأتْ صوفي بنظرةٍ جادّة. «ونحن أيضاً».

- هلّا حمّمتِ آري ريثما أعدّ العشاء؟

أخذتْ صوفي الطفل بين ذراعَيها وخرجت من المطبخ.

خلعتْ ڤيان الوشاح عن رأسها وعلّقته، ثمّ وضعتْ سلّتها في المغسلة كي تجفّ، وسارت إلى المخزن فاختارت سجقاً، وبضع حبّات بطاطس صغيرةٍ ليّنة، وبصلاً.

ثمّ أشعلتْ الموقد، وسخّنت مقلاتها الحديديّة السوداء. أضافتْ قطرةً من الزيت الثمين، وحمّرتْ السجق.

حدّقت في اللّحم، وقطّعتْه بملعقةٍ خشبيّةٍ، وهي تشاهده يتحوّل من الورديّ إلى الرماديّ إلى البنّي المقرمش. وعندها أضافت مكعّبات البطاطس، وقِطع الثوم، والبصل. طقطقَ الثوم وتحمّر، ثم نشرَ رائحته في الهواء.

- الرائحة لذيذة.

قالت بهدوء: «هير نقيب. لم أسمع صوت درّاجتك».

- مدموازيل صوفي فتحت لي الباب.

خفّفت من قوّة النار في الموقد، وغطّت المقلاة، ثم استدارت إليه. كان ثمّة اتفاقٌ ضمنيٌّ بينهما بالتظاهر بأنّ تلك اللّيلة في الحديقة لم تحدث قطّ. لم يُشر أيّ منهما إلى ما حدث، لكنّه ظلّ معلّقاً دائماً في الهواء بينهما.

تغيّرت الأشياء في تلك اللّيلة. صار يتناول العشاء معهما في معظم اللّيالي، وغالباً ما يكون طعاماً أحضره معه. لم تكن مقادير كبيرة؛ لا أكثر من شرائح خنزير، أو كيس دقيق، أو سجق. كان يتحدّث علانيةً عن زوجته وطفلَيه، وهي تتحدّث عن أنطوان. كلُّ الكلام مقصودٌ لتمتين جدارٍ بينهما،

لولا أنّه اختُرق أصلاً. كان يعرض مرّةً تلو الأُخرى (بطيبةٍ غامرة) أن يرسل طرود ڤيان إلى أنطوان؛ إذْ كانت تملؤها بأيّ أغراضٍ صغيرةٍ تستطيع الاستغناء عنها. قفّازات شتويّة قديمة كبيرة، أو سجائر تركها بيك، أو جرّة مربّى ثمينة.

حرصتْ ڤيان ألّا تكون بمفردها أبداً مع بيك. كان هذا هو التغيير الأكبر. فقد توقّفت عن الخروج إلى فنائها ليلاً، أو السهر بعد أن تنام صوفي. لم تكن تثق بنفسها إن هي اختلت به.

قال: «أحضرتُ لك هديّة».

أخرج حزمة أوراق. شهادة ميلادٍ لطفلٍ مولود في حزيران/ يونيو من عام 1939م لإتْيِن وإمي موررياك. واسم الطفل دانييل أنطوان موررياك.

نظرتْ إلى بيك. أتراها أخبرتْه أنّها هي وأنطوان أرادا طفلاً يسمّيانه دانييل؟ لا بدّ من أنها أخبرته، لكنّها لا تذكر.

- لم يعد آمناً إبقاء الأطفال اليهود الآن. أو ربّما عمّا قريب.

- أقدمتَ على مخاطرةٍ كهذه من أجله. من أجلنا.

قال بهدوء: «من أجلك. هي أوراق مزوّرة يا مدام. تذكّري ذلك. كي تتماشى مع روايتك بأنّك تبنّيتِه من أحد أقاربكم».

- لن أخبر أحداً أبداً بأنّ الأوراق جاءت عن طريقك.

- «لستُ قلقاً على نفسي يا مدام. لا بدّ من أن يصبح آري دانييل على الفور. وتماماً. ولا بدّ من أن تكوني حريصةً للغاية. الغستابو والشوتزستافل...متوحّشون. الانتصارات التي يحقّقها الحلفاء في إفريقيا ثقيلة علينا. وهذا الحلّ النهائيّ لليهود...شرٌّ يستحيل استيعابه. وأنا...». توقّف لحظةً، ونظر إليها: «وأنا أريد أن أحميك».

قالت، وهي تنظر إليه: «لقد فعلت».

همّ إليها، وهمّت إليه، وهي تدرك أنّ هذا خطأ.

وجاءت صوفي تجري إلى المطبخ. «آري جائع، مامُن. لا يكفّ عن التذمّر».

توقّف بيك. مدّ يده من أمامها، فلمس ذراعها بيده، والتقط شوكةً من منضدة المطبخ. غرسها في قطعةٍ من السجق، ومكعّبٍ بنّيٍ مقرمش من البطاطس، وقطعٍ من البصل المحمّر.

ظلّ يحدّق فيها، وهو يأكل. وكانت لفرط قربه منها تحسّ بأنفاسه على خدّها. «يا لكِ من طبّاخة مدهشة يا مدام!».

فقالت بصوتٍ متوتّر: «ميرسي».

تراجع إلى الوراء. «مع الأسف، لا أستطيع البقاء للعشاء يا مدام. لا بدّ من أن أذهب».

أشاحت ڤيان ببصرها عنه، وابتسمت لصوفي. «جهّزي الطاولة لثلاثة أشخاص».

لاحقاً، حين كان العشاء يغلي على الموقد، جمعتْ ڤيان الطفلَين في سريرهما. «صوفيا، آري، تعالا. أريد أن أقول لكما شيئاً».

سألتْها صوفي بقلق: «ما الأمر، مامُن؟».

– «سوف يرحّلون اليهود المولودين في فرنسا». وتوقّفت: «حتّى الأطفال».

شهقت صوفي، ونظرتْ إلى آري ذي الثلاثة أعوام. كان ينطّ بسعادةٍ على السرير. بطبيعة الحال كان أصغر من أن يكتسب هُويّةً جديدةً، ولو

ظلّت تخبره بأنّ اسمه دانييل مورياك من الآن إلى ما لا نهاية، فلن يفهم السبب. ولو آمن بعودة والدته وانتظرها، فمن المحتّم أنّه سيرتكب خطأً يتسبّب في ترحيله، أو في مقتلهم جميعاً. لم يكن بمقدورها أن تخاطر. لذلك عليها أن تكسر قلبه، كي تحميهم جميعاً.

سامحيني راشيل.

تبادلت وصوفي نظرةً أليمة؛ فكلٌّ منهما تدرك ما ينبغي فعله، ولكنْ كيف يمكن لأمٍّ أن تفعل هذا بطفل امرأةٍ أُخرى؟

قالت بهدوءٍ، وهي تضمّ وجهه بيدَيها: «آري. مامُن مع الملائكة في الجنّة. ولن تعود».

توقّف عن النطّ. «ماذا؟».

فقالت مرّةً أُخرى، وهي تشعر بدموعها تصعد وتهبط: «لقد ذهبت ولن تعود». لا بدّ من أن تقولها مرّةً بعد مرّةٍ إلى أن يصدّقها: «أنا أمّك الآن. وسوف نسمّيك دانييل».

عبسَ الطفل، وهو يعضّ باطن خدّه، باسطاً أصابعه كما لو أنّه يعدّ. «لكنّكِ قلتِ إنّها ستعود».

كرهتْ ڤيان أن تقول ذلك. «لن تعود. لقد ذهبتْ. مثل الأرنب الصغير المريض الذي فقدناه الشهر الماضي، هل تذكر؟». كانوا قد دفنوه في الفناء في مراسم مهيبة.

– «ذهبت مثل الأرنب؟». وامتلأتْ عيناه البنّيتان بالدموع، وسقطت على وجهه. ارتعش فمه. أخذتْه ڤيان بين ذراعَيها وراحت تمسّد ظهره. لكنّها لم تستطع أن تهدّئه، ولا استطاعت أن تتركه. وأخيراً، تراجعت قليلاً كي تنظر إليه: «هل فهمتَ ما قلته...يا دانييل؟».

قالت صوفي بصوتٍ مرتعش: «استصبح أخي. حقيقةً».

شعرتْ ڤيان بقلبها ينفطر، لكنّها تعلم أنّها الطريقة الوحيدة لحماية ابن راشيل. حمدت ربّها على أنّه صغيرٌ جدّاً بما يكفي لينسى أنّه كان آري، لكنّ الحزن الساكن في ذلك الحمد كان أكبر من احتمالها. قالت بهدوء: «قلها. قل لي اسمك».

فقال، وهو حائر بالطبع، يحاول أن يرضيها: «دانييل».

طلبتْ منه أن يكرّره عشر مرّات في تلك اللّيلة، وهُم يتناولون السجق والبطاطس، ثمّ حين غسلوا الأطباق وتجهّزوا للنوم. دعتْ ربّها أن تكون تلك الحيلة كافيةً لإنقاذه، وألّا يُكشف التزوير في أوراقه. لن تناديه باسم آري أبداً بعد ذلك، أو حتّى تفكّر في هُويته السابقة. وغداً، ستقصّ شعره إلى أقصر حدٍّ ممكن، ثمّ تذهب إلى البلدة وتخبر الجميع (وأوّلهم النمّامة هيلين رويل) عن الطفل الذي تبنّته من قريبٍ ماتَ في نيس.

فليكن الله في عونهم جميعاً.

الفصل الخامس والعشرون

إيزابيل تدبّ في شوارع كاريڤو الفارغة، متّشحةً بالسواد، تغطّي شعرها الذهبيّ. كان هذا بعد حظر التجوال. ثمّة قمرٌ ضئيلٌ يُرسل نوره بين مدّةٍ وأُخرى على الشارع الحجريّ غير المتساوي، لكنّه في أغلب الأحيان يحتجب خلف السحب.

كانت تصيخ السمع للخطوات ومحركّات الشاحنات، تتجمّد حين تسمع شيئاً منها. وعند نهاية البلدة تسلّقت جداراً مغطّى بالورد، غير عابئةٍ بالأشواك، فهبطتْ في حقل قشٍّ أسودَ مبتلّ. كانت قد قطعت نصف المسافة إلى موقع اللقاء، تهدرُ فوقها ثلاث طائرات خفيضة جدّاً، حتّى ارتعشتْ لها الأشجار واهتزّت الأرض. بنادق آليّة تتراشق، في تدفّقاتٍ من الصوت والضوء.

انعطفتْ الطائرةُ الأصغر بينها، وانحرفتْ، فرأتْ إيزابيل علامة أميركا على جانب الجناح، وهي تميل إلى اليسار وتصعد. وما هي إلّا لحظات حتّى سمعتْ صفير قنبلة. ذاك العويل الحادّ القاسي. ثمّ انفجر شيء.

مهبط الطائرات. كانوا يفجّرونه.

هدرتْ الطائرات مرّةً أخرى، وانطلقتْ دورةٌ أُخرى من النيران، فأصيبت الطائرة الأميركيّة. تصاعد الدخان، وامتلأ اللّيل بصوت صراخ. سقطتْ الطائرة على الأرض، تدورُ فيما ينعكس نور القمر على جناحَيها.

اصطدمتْ بالأرض بقوّةٍ جلجلتْ عظام إيزابيل، وهزّت الأرض تحت قدمَيها. حديدٌ يدكّ التراب، ومساميرُ تتطاير من المعدن، وجذورٌ تتكسّر. زحفتْ الطائرة المصابة في الغابة، تكسّر الأشجار كما لو أنّها أعواد ثقاب. انتشرتْ رائحة الدخان في المكان، ثمّ اشتعلتْ الطائرةُ في أجيجٍ هائل.

وهناك في الأعلى، ظهر باراشوت يتأرجح هنا وهناك، تحته رجُلٌ معلّقٌ بدا صغيراً، كالفاصلة.

عبرتْ إيزابيل من أمام الأشجار المشتعلة، يحرقُ الدخان عينَيها.

– أينه؟

رصدتْ عيناها وميضاً أبيض، فركضت باتّجاهه

باراشوت مرتخٍ مفروشٌ على الأرض المعشوشبة، والطيّار معلّقٌ به.

سمعتْ إيزابيل أصواتاً (لم تكن بعيدة)، وقرقشة خطوات. رجتْ الله أن يكونوا زملاءها الذين أتوا للاجتماع، لكنّ هذا غير مضمون. صحيحٌ أنّ النازيّين مشغولين بالمطار، لكنّ انشغالهم لن يطول.

زحفتْ على ركبتَيها، وفكّت باراشوت الطيّار، وجمعَتْه، وركضتْ به إلى أبعد ما يمكن، فدفنتْه تحت كومة أوراقٍ ميّتة، ثمّ عادت جرياً إلى الطيّار وانتزعتْه من معصمَيه، فجرّته إلى أعماق الغابة.

– لا بدّ من أن تلزم الهدوء. هل تفهمني؟ سأعود، ولكن لا بدّ من أن تظلّ ساكناً بدون أيّ صوت.

- فقال في صوتٍ هامس: «على...أمرك».

غطّته إيزابيل بأوراقٍ وأغصان. لكنّها حين نهضتْ رأتْ آثار قدمَيه في الطين تنزُّ ماءً أسود، والحُفر التي خلّفتْها هي في الأرض حين جرّتْه معها. الدخان الأسود يدور من أمامها، يحيطها. النار تقترب، تزداد استعاراً. فتمتمتْ: «ميرد».

أصوات. أناسٌ يصيحون.

حاولتْ أن تنفض يدَيها لتنظيفهما، لكنّ الطين ظلّ يلطّخها ويطبع آثاره على يدَيها.

وظهرت ثلاثة أطيافٍ من الغابة تتّجه نحوها.

قال رجُل: «إيزابيل. هذه أنت؟».

واشتعل مصباحٌ يدويٌّ، كاشفاً عن هنري وديديه.. وغيتون.

سألها هنري: «وجدتِ الطيّار؟».

فأومأت. «إنّه مصاب».

كلابٌ تنبح من بعيد. النازيّون قادمون.

نظر ديديه إلى الخلف. «لم يعد لدينا وقت كثير».

- فقال هنري: «لن يكفينا الوقت للوصول للبلدة».

واتّخذت إيزابيل قرارها في جزءٍ من الثانية. «أعرف مكاناً قريباً نخفيه فيه».

*

قال غيتون: «لا أظنّها فكرة جيّدة».

فقالت إيزابيل بحدّة: «أسرعا». كانوا قد وصلوا إلى حظيرة لو جاردان

وأغلقوا الباب خلفهم. وضعوا الطيّار على الأرض الترابيّة، فاقد الوعي، وقد لطّختْ دماؤه معطف ديديه وقفّازَيه: «ادفعوا السيّارة إلى الأمام».

دفع هنري وديديه سيّارة الرينو إلى الأمام، ثمّ رفعا باب القبو. صرّ الباب في اعتراضٍ، وهوى على صدّام السيّارة.

أشعلتْ إيزابيل مصباحاً زيتيّاً. حملتْه، وهي تتحسّس طريقها على السلّم المهتزّ. بعض الأغراض التي كانت قد تركتْها هنا استُخدمت.

رفعتْ المصباح: «أنزلاه».

تبادل الرجُلان نظرةً قلقة.

فقال هنري: «لستُ مطمئناً إلى ذلك».

فقالت بعصبيّة: «هل لدينا خيارٌ آخر؟ والآن هيّا أنزلاه».

حمل الرجُلان الطيّار الغائب عن الوعي إلى الأسفل في القبو المظلم الرطب، ووضعاه على الفراش، فأصدر هذا حفيفاً.

نظر إليها هنري قلقاً، ثمّ صعد السلّم ووقف فوقهما. «هيّا يا غيتون».

فنظر هذا إلى إيزابيل. «علينا أن نعيد السيّارة إلى مكانها. ولن تستطيعي الخروج من هنا حتّى نعود إليك. لو حدث لنا شيء، فلن يعرف أحدٌ أنّك هنا». أدركتْ أنّه يودّ لمسها، وكانت تتحرّق للمسته. لكنّ كلّاً منهما ظلّ في مكانه: «لن يوفّر النازيّون جهداً في البحث عن هذا الطيّار. وإن أمسكوا بك...».

أمالت رأسها في محاولةٍ لإخفاء خوفها. «لا تجعلهم يمسكون بي».

- أوتظنّين أنّي لا أريد حمايتك؟

قالت بهدوء: «أعرف».

وقبل أن يجيب، قال هنري من فوق: «هيّا يا غيتون. علينا أن نجد طبيباً، ونتدبّر طريقةً لإخراجهما من هنا غداً».

تراجع غيتون. بدا العالم كلّه مجرّد كذبة في تلك المساحة الصغيرة بينهما. «حين نعود، سنطرق الباب ثلاثاً، ونصفّر. فلا تطلقي النار علينا».

- سأحاول ألّا أفعل.

سكت قليلاً، ثمّ قال: «إيزابيل...».

انتظرتْ، ولكنْ لم يكن لديه شيء يقوله، غير اسمها، ينطقه بشيءٍ من الندم الذي كثُر مؤخّراً. تنهّد، واستدار، وصعد السلّم.

بعد لحظات، انغلق باب القبو. وسمعتْ صوت الألواح تئنّ من فوقها حين أعادا سيّارة الرينو إلى مكانها.

ثمّ حلّ الصمت.

بدأتْ إيزابيل تصاب بالذعر. ها هي غرفة النوم المقفلة من جديد. مدام دُوم تصفق الباب، وتقفله بالمفتاح، وتأمرها أن تخرس وتكفّ عن طلباتها.

لا مخرج من هنا، ولا حتّى في حالة الطوارئ.

توقّفي. اهدئي. تعرفين ما ينبغي فعله. ذهبت إلى الأرفف، فأزاحتْ بندقيّة والدها جانباً، والتقطتْ علبة الأدوات الطبّية. وجدتْ هنالك مقصّاً، وإبرةً، وخيطاً، وكحولاً مطهّراً، وضمّادات، وكلوروفورم، وأقراص بنزدرين، وشريطاً لاصقاً.

جثتْ إلى جانب الطيّار، ووضعت المصباح على الأرض. كان صدر بذلته منقّعاً بالدم، فأخذ الأمرُ منها جهداً كبيراً لرفع القماش عن جلده.

فلمّا انتهت، رأت الفتحة الكبيرة في صدره، وأدركتْ أنّها لا تستطيع فعل شيء.

جلستْ إلى جانبه، تمسك يده، فسحَبَ نَفَساً أخيراً متحشرجاً، ثمّ توقّفت أنفاسه، وفغر فمه قليلاً.

أزالتْ قلادات الهُويّة عن رقبته. لا بدّ من إخفائها. نظرتْ إليها وقرأت: «الملازم كِيث جونسن».

ثمّ نفختْ في المصباح، وجلستْ في الظلام، رفقة رجُلٍ ميّت.

*

في صباح اليوم التالي ارتدت ڤيان رداءً طويلاً، وقميصاً من قمصان أنطوان كانت قد قصّتْه ليناسب مقاسها. لكنّ جسدها نَحَل في الآونة الأخيرة، وأصبح القميص فضفاضاً عليها، فلا بدّ من أن تصغّره أكثر. على منضدة المطبخ طردٌ جهّزتْه لأنطوان، ينتظر.

كانت صوفي قد قضت ليلةً مجهدةً، فتركتْها ڤيان تنام. نزلتْ لإعداد قهوةٍ وكادت تصطدم بالنقيب بيك الذي كان يذرع الصالة. «أوه، هير نقيب. آسفة».

لم يبدُ أنّه سمعها. لم تره مضطرباً هكذا من قبل. شعرُه الذي كان مدهوناً على الدوام غير مرتّب. كانت خصلةٌ من شعره تسقط مرّةً تلو المرّة على وجهه، فيرفعها، وهو يشتم. ولأوّل مرّةٍ، كان يتأبّط مسدّساً داخل البيت.

وقف أمامها، وقد كوّر قبضتَيه إلى جانبَيه. كان الغضب يلوي وجهه الوسيم، فتضيعُ ملامحه. قال، وهو يلتفت إليها أخيراً: «لقد سقطتْ

طائرةٌ في مكانٍ قريبٍ من هنا البارحة. طائرة أميركيّة. تلك التي يسمّونها المَستانغ».

- ظننتُ أنّ هذا يسعدكم. أولستم تطلقون النار عليها؟

- فتّشنا طوال اللّيل ولم نجد الطيّار. هناك من يخبّئه.

- يخبّئه؟ أشكّ في ذلك. الأرجح أنّه مات.

- الميّت له جثّة يا مدام. وجدنا الباراشوت، ولكن من دون جثّة.

- ولكنْ من الأحمق الذي قد يفعل ذلك؟ ألستم...تعدمون الناس إن فعلوا ذلك؟

- على الفور.

لم يسبق لڤيان أن سمعتْه يتحدّث هكذا. تراجعتْ إلى الوراء، وتذكّرت السوط الذي كان يمسك به في اليوم الذي رُحّلت فيه راشيل والآخرون.

- اعذريني يا مدام. لكنّنا عاملناكم أحسن معاملة، وهذا جزاؤنا من كثيرٍ منكم أيها الفرنسيّون. أكاذيب، وخيانة، وتخريب.

انفغر فمُها من هول الصدمة.

نظر إليها، ورأى كيف كانت تحدّق فيه، فحاول أن يبتسم. «اعذريني مرّةً أخرى. لا أعنيكِ أنتِ طبعاً. القيادة تلومني على الإخفاق في إيجاد الطيّار، والمطلوب منّي أن أحسّن أدائي اليوم». سار إلى الباب وفتحه: «إن لم أعد...».

رأتْ من خلال الباب المفتوح وميضاً رماديّاً-أخضر في فنائها. جنود. «طاب يومك، مدام».

تبعتْه ڤيان إلى الباب.

- أوصدي جميع الأبواب يا مدام. قد تنقطع بالطيّار السُبُل، فيقتحم بيتك.

أومأتْ ڤيان في خَدَر.

انضمّ بيك إلى جنوده، وتقدّمهم. كانت كلابهم تنبح عالياً، تشمشم الأرض على طول الجدار المكسور.

نظرتْ ڤيان إلى التلّة، فلحظتْ أنّ باب الحظيرة موارب. صاحت: «هير نقيب!».

توقّف النقيب، ورجاله أيضاً. فيما كلابهم تلهث في ألجمتها.

ثمّ خطرت لها راشيل. هذا هو المكان الذي ستذهب إليه راشيل لو هربت.

فصاحت: «ل-لا شيء هير نقيب».

أومأ بجلافةٍ، وقاد رجاله نحو الشارع.

أدخلتْ ڤيان قدمَيها في حذائها المتروك عند الباب، وبمجرّد أن اختفى الجنود عن الأنظار هرعت إلى التلّة باتّجاه الحظيرة. تعثّرت في تلك العجالة مرّتين على العشب الرطب، وكادت تسقط. وصلتْ أخيراً، وأخذتْ نفَساً عميقاً، ثمّ فتحتْ باب الحظيرة.

كان أوّل ما لحظتْه أنّ السيارة حُرِّكت من مكانها.

قالت: «أنا قادمة يا راشيل!». وضعتْ غيار السيّارة في وضع الحياد، وحرّكتْها إلى الأمام حتّى انكشف باب القبو. قرفصتْ، وأمسكت بالمقبض المعدنيّ، ورفعت الباب. فلمّا ارتفع، تركتْه يسقط على صدّام السيارة.

تناولتْ مصباحاً، أشعلتْه، ثمّ طلّت في القبو المظلم. «راش؟».

- اذهبي يا ڤيان، الآن.

نزلتْ ڤيان السلّم. «إيزابيل؟ إيزابيل ماذا تفع—». ثم هبطتْ على أرضيّة القبو واستدارت، فيما يتأرجح المصباحُ بضوئه في يدها.

تلاشت ابتسامتها. كان رداءُ إيزابيل مغطّى بالدم، وشعرُها أشعث، ممتلئاً بالأوراق والغصينات. على وجهها خدوش كثيرة حتّى بدت كأنّها قد عبرت من شجيرات العلّيق.

غير أنّ هذا لم يكن أسوأ ما في الأمر.

- «الطيّار!». همستْ ڤيان، وهي تحدّق في الرجُل المستلقي على الفراش المشوّه. أفزعها الأمر كثيراً حتّى إنّها تراجعت إلى الأرفف، وسقط شيءٌ رنّ في الأرض: «الذي يبحثون عنه».

- ما كان ينبغي أن تأتي إلى هنا.

- أنا التي لا ينبغي أن تكون هنا؟ يا غبيّة، أتدرين ما سيفعلونه بنا إنْ وجدوه هنا؟ كيف تأتين بخطرٍ كهذا إلى بيتي؟

- أنا آسفة. والآن أغلقي باب القبو وضعي السيّارة في مكانها. غداً حين تستيقظين لن نكون هنا.

- «آسفة». دبّ الغضب في ڤيان. كيف تجرؤ أختها على فعل شيءٍ كهذا، وتعرّض حياة صوفي وحياتها للخطر؟ وحياة آري أيضاً، الذي لم يفهم بعد ضرورة أن يصبح دانييل: «سوف تلقين بنا إلى الموت». تراجعت ڤيان، وأمسكتْ بالسلّم. كانت تريد أن تضع أكبر مسافة ممكنة بينها وبين هذا الطيّار...وأختها المتهوّرة الأنانيّة: «إيزابيل، اخرجي من هنا بحلول الصباح. ولا تعودي».

تجرّأتْ إيزابيل على أن تبدو مجروحة. «ولكن—».

فنَهَرتْها ڤيان: «كفى! لم تعد عندي أعذار لك. كنتُ شرّيرةً معك، وأنتِ صغيرة، ومامُن ماتت، وپاپا سكّير، ومدام دوما أساءت معاملتك؛ هذا كلّه صحيح، وكنتُ أنا أتحرّق إلى أن أصبح أختاً أفضل لك، لكنّ هذا ينبغي أن ينتهي الآن. لا جديد في تهوّرك واستهتارك، سوى أنّكِ الآن تتسبّبين في قتل الناس. لن أسمح لكِ بتعريض صوفي للخطر. لا تعودي. ليس لكِ مكان هنا. فإنْ عدتِ، سلّمتكِ بنفسي». قالتْها وصعدت السلالم، ثمّ صفقت باب القبو خلفها.

*

كان على ڤيان أن تشغل نفسها، وإلّا وقعتْ في حالةٍ من الذعر الشديد. أيقظتْ الطفلَين وأطعمتهما فطوراً خفيفاً، ثمّ بدأتْ مهامّها.

حصدت آخر خضروات الخريف، وخلّلت الخيار والكوسا، ثمّ علّبت مهروس اليقطين. وفي أثناء ذلك كلّه كانت تفكّر في إيزابيل والطيّار.

ما الذي ينبغي فعله؟ اجتاحها هذا السؤال طوال النهار، لحظةً بعد لحظة. كلّ الخيارات خطِرة. من الواضح أنّها لا بدّ من أن تصمت؛ فالصمتُ هو الخيار الآمن دائماً.

ولكنْ ماذا لو ذهب بيك، والغستابو، والشوتزستافل بكلابهم إلى الحظيرة؟ ستغضب القيادة إن وَجد بيك الطيّار في حظيرة البيت الذي يقيم فيه. وبيك نفسه سيشعر بالإهانة.

القيادة تلومني على الإخفاق في إيجاد الطيّار.

حذارِ ممّن يشعر بالإهانة.

ربّما ينبغي لها أن تُخبر بيك. فقد عاملها بطيبة. حاول أن ينقذ راشيل، ودبّر أوراقاً لآري، وكان يرسل طرودها إلى زوجها.

ربّما يمكنها أن تقنع بيك بأخذ الطيّار وإخراج إيزابيل من الأمر؛ أمّا الطيّار، فسوف يُرسل إلى معسكر أسرى، وهذا في حدّ ذاته ليس مصيبة.

ظلّت تشتبك مع هذه الأسئلة طويلاً بعد انتهاء العشاء وذهاب الطفلَين إلى السرير. لم تحاول حتّى أن تنام. وكيف لها أن تنام في ظلّ هذا الخطر المحدق بأسرتها؟ وتنامى غضبها مرّةً أُخرى من إيزابيل. عند العاشرة مساء، سمعتْ خطواتٍ في الخارج، وقرعاً على الباب.

وضعتْ عدّة الخياطة، ونهضتْ. أعادت شعرها إلى الخلف، وذهبتْ إلى الباب وفتحتْه. ترتعش يداها بقوّةٍ، حتّى إنّها كوّرتهما على جنبَيها.

«هير نقيب. تأخّرت اللّيلة. هل أعدّ لك شيئاً تأكله؟».

تمتم قائلاً: «لا، شكراً لك». ومضى من أمامها، في جلافةٍ لم تعهدها من قبل. دخل غرفته، وعاد بزجاجة براندي. صبّ لنفسه قدراً كبيراً في كأس مقهى مكسّرة، وعبّ البراندي دفعةً واحدةً، ثمّ صبّ كأساً أُخرى.

- هير نقيب؟

فقال، وهو يعبّ الكأس الثانية، ويصبّ ثالثة: «لم نجد الطيّار».

- أوه!

نظر إليها وقال بهدوء: «هؤلاء الغستابو. سيقتلونني».

- بالتأكيد لا.

- «لا يطيقون أن يُخذلوا». شرب الكأس الثالثة، ودقّها على الطاولة، فكاد يكسرها.

قال: «بحثتُ في كلّ مكان. في كلّ زاويةٍ وشقٍّ في هذه البلدة التعسة.

نقّبتُ في جميع الأقبية وأقنان الدجاج. في أحراش الأشواك، وتحت أكوام القمامة. فماذا وجدتُ من تعبي هذا كله؟ باراشوت عليه دمٌ، بدون طيّار».

قالت تواسيه: «ب-بالتأكيد لم تبحث في كلّ مكان. هل أحضر لك شيئاً تأكله؟ أبقيتُ لك شيئاً من العشاء».

توقّف فجأة. لحظتْ أنّه ضيّق عينَيه، وقال: «لا يُمكن، ولكن...». اختطف مصباحاً يدويّاً، وسار إلى خزانة المطبخ وفتح بابها.

- م-ماذا تفعل؟

- أفتّش بيتك.



- لا أظنّك تشكّ في...

تسمّرت في مكانها، وقلبها يخفق بقوّةٍ فيما يفتّش هو غرفةً وأُخرى، ويُخرج المعاطف من الخزانة، ويجرّ الأريكة من مكانها.

- هل ارتحتَ الآن؟

- ارتحت يا مدام؟ لقد فقدنا أربعة عشر طيّاراً هذا الأسبوع، ويعلم الله كم عدد المفقودين من طواقم الطيران. وقبل يومين فُجّر مصنعٌ للمرسيدس بنز فقُتل جميع من يعملون فيه. عمّي يعمل هناك، أو ربّما ينبغي القول بأنّه كان يعمل.

- خالص عزائي!

تنفّست الصعداء، ظنّت أنّ الأمر قد انتهى، ثمّ رأته يتوجّه إلى الخارج.

أتراها أصدرتْ صوتاً؟ خافت أن تكون قد ندّت منها صرخة. انطلقتْ خلفه، تريد أن تشدّه من قميصه، لكنّها تأخّرت. كان قد خرج، يتبع شعاع الضوء من مصباحه، وباب المطبخ مفتوحٌ خلفه.

ركضتْ خلفه.

وصل عند برج الحمام، وهمّ يفتح الباب.

- «هير نقيب». تباطأتْ، تحاول أن تهدّئ أنفاسها، وهي تمسح يدَيها المتعرّقتَين في ساقَي بنطالها: «لن تجد شيئاً، أو أحداً هنا يا هير نقيب. تأكّد من ذلك».

- «هل تكذبين عليّ يا مدام؟». لم يكن غاضباً. كان خائفاً.

- «لا. تعلمُ أنّي لا أكذب يا وولفغانغ». كانت هذه أوّل مرّةٍ تخاطبه فيها باسمه: «والأكيدُ أنّ رؤساءك لن يلوموك».

- «هذه مشكلتكم أيّها الفرنسيّون. تكون الحقيقةُ عند أقدامكم لكنّكم لا ترونها». مرّ من أمامها، وصعد التلّة باتّجاه الحظيرة.

سيجد إيزابيل والطيّار.

وإن وجدهما؟

سيُسجنون جميعاً. وربّما أكثر من ذلك.

لن يصدّق أبداً أنّها لم تكن تعرف. لقد كشفت نفسها، ولم يعد ثمّة مجال لادّعاء البراءة. وقد فات الأوان الآن على الاتّكال على شهامته كي ينقذ إيزابيل. لقد كذبت ڤيان عليه.

فتح باب الحظيرة، ووقف هنالك ينظر حوله فيما يداه على خاصرته. أنزل مصباحه اليدويّ وأشعل مصباحاً زيتيّاً. وضعه على الأرض وراح يفتّش كل شبر من الحظيرة، وكلّ إسطبل ومَتْبَنة.

قالت ڤيان: «أ-أرأيت؟ والآن هيّا إلى البيت. لعلّك ترغب في كأس براندي أُخرى».

نظر إلى الأسفل. ثمّة آثار باهتة لإطارات على التراب. «قلتِ مرّةً: إنّ مدام دو شامپلان اختبأت في القبو».

- «لا». كانت تودّ أن تقول شيئاً، لكنّها حين فتحت فمها لم يخرج أيّ صوت.

فتح باب السيّارة، ونقل الغيار إلى وضع الحياد، ثمّ حركها إلى الأمام، بما يكفي للكشف عن باب القبو.

- أيّها النقيب، أرجوك...

جثا أمامها، أصابعه تتحرّك في الأرض بحثاً عن حوافّ الباب.

إنْ فتح الباب، قُضي الأمر. سوف يُطلق النار على إيزابيل، أو يقبض عليها ويسجنها. وسوف يعتقل ڤيان والطفلَين. لم يعد ثمّة مجال للكلام، أو الإقناع.

استلّ بيك مسدّسه، وسحب الزناد.

دارتْ عينا ڤيان في المكان بحثاً عن أيّ سلاح، فرأتْ مجرفةً مُسندةً إلى الجدار.

رفع الباب، وصاح بشيء. فلمّا انفتح الباب، انتصب واقفاً وصوّب مسدّسه. أخذتْ ڤيان المجرفة وهوتْ بها عليه بكلّ ما تملك من قوّة، فأصدر الطرف المعدنيّ جلجلةً قويّةً حين ضربه في مؤخّرة رأسه وشقّ جمجمته. انفجر الدمُ، وسالَ على ظهر بذلته العسكريّة.

في الوقت نفسه، دوّت طلقتان. واحدة من مسدّس بيك، والأُخرى من القبو.

ترنّح بيك، واستدار. تتوسّط صدره فتحةٌ بحجم بصلة، يتدفّق منها

الدم. وخصلة شعرٍ مع جزءٍ من فروة رأسه معلّقة فوق عينه. قال، وهو يتكوّم على ركبتَيه: «مدام». رنّ مسدّسه على الأرض، وتدحرج المصباح اليدويّ على الألواح الخشبيّة.

ألقتْ ڤيان المجرفة جانباً وجثت إلى جانب بيك، وهو منبطحٌ بوجهه على بركة دمائه. قلبته على ظهره بكلّ قوتها. كان شاحباً كالطبشور. تخثّر الدم في شعره، وسال من منخرَيه، يتفجّر مع كلّ نَفسٍ من أنفاسه.

قالت ڤيان: «أنا آسفة».

رفرفتْ عيناه.

حاولتْ أن تمسح الدم عن وجهه، لكنّها لطّخته أكثر، ولطّخت يدَيها. قالت بهدوء: «كنتُ مضطّرةً إلى إيقافك».

– أبلغي أسرتي...

أدركتْ ڤيان أنّه فارق الحياة، فرأتْ صدره يتوقّف عن الصعود، وقلبه يتوقّف عن النبض.

ومن خلفها سمعتْ أختها تصعد السلّم. «ڤيان!».

سألتْها إيزابيل بصوتٍ مقطوع الأنفاس: «هل..أنتِ بخير؟».

– مات. لقد قتلتُه.

– كلّا، لم تقتليه. أنا أطلقتُ الرصاص عليه في صدره.

– ضربتُه بمجرفةٍ على رأسه. مجرفة.

اقتربت منها إيزابيل. « ڤيان—».

– فقالت بحدّة: «كفى! لا أريد أعذاراً منك. أتدركين ما فعلتِ؟ نازيٌّ، ميّت هنا في حظيرتي».

وقبل أن تجيب إيزابيل، دوّت صفّارة، ثمّ دخلتْ الحظيرة عربةٌ يقودها بغل.

مالت ڤيان تبحث عن سلاح بيك، ونهضت فوق الألواح الملطّخة بالدم، فصوّبت المسدّس على القادمين.

صاحت بها إيزابيل: «ڤيان، لا تطلقي النار. هؤلاء معي».

نظرتْ ڤيان إلى الرجال بملابسهم المهلهلة، ثمّ إلى أختها المتّشحة بالسواد، فرأتْ أنّها شاحبةٌ للغاية، بهالاتٍ حول عينَيها. «نعم، طبعاً معك». تحرّكت جانباً، لكنّها أبقتْ المسدّس مصوّباً عليهم. من خلفهم تابوتٌ موضوعٌ على ظهر العربة.

عرفتْ هنري، الرجُل الذي يدير الفندق في البلدة، الذي هربت إيزابيل معه إلى باريس. الشيوعيّ الذي ظنّت إيزابيل أنّها تحبّه قليلاً. «طبعاً. عشيقك».

قفز هنري من العربة وأغلق باب الحظيرة. «اللعنة، ما الذي حدث هنا؟».

– ضربتْه ڤيان بمجرفة، وأنا أطلقت النار عليه. هذا خلافٌ بين أختَين على من قتله، لكنّه ميّت. النقيب بيك. الضابط الذي يقيم هنا.

تبادل هنري نظرةً مع أحد الرجال الغرباء. كان شابّاً حادّ الملامح، بشعرٍ طويلٍ جدّاً. قال: «هذه مشكلة».

سألتْ إيزابيل: «هل تستطيعون التخلّص من الجثّة؟». كانت تضغط بيدها على صدرها، كأنّ قلبها يخفق بقوّة: «وجثّة الطيّار أيضاً. لقد مات».

قفز رجُلٌ ضخمٌ أشعث في معطفٍ وبنطالٍ مرقّعَين أصغر من حجمه. «التخلّص من الجثث أسهل ما في الأمر».

من هؤلاء؟

أومأتْ إيزابيل. «سيأتون بحثاً عن بيك. ولن تصمد أختي أمام التحقيق. لا بدّ من أن نخبّئها هي وصوفي».

طفح كيل ڤيان؛ فقد كانوا يتحدّثون عنها كما لو أنّها ليست موجودة. «لن يفيد الهرب في شيءٍ إلّا أن يؤكّد عليّ التهمة».

قالت إيزابيل: «لا يمكنكِ البقاء هنا. خطر عليك».

- شكراً يا إيزابيل، تقلقين عليّ \الآن، بعد أن وضعتِني والطفلَين في خطر، وأجبرتِني على قتل رجُلٍ طيّب.

- «ڤيان، أرجوكِ». شعرتْ ڤيان بشيءٍ في داخلها يتصلّب. بدا الأمر كأنّها في كلِّ مرّةٍ تظنّ أنّها وصلت إلى الدرك الأسفل من تلك الحرب، يستجدّ أمرٌ أسوأ. وها هي الآن قاتلة، بسبب إيزابيل. آخر ما تريد أن تفعله هو أن تسمع نصيحة أختها وتترك لو جاردان: «سأقول إنّ بيك خرج للبحث عن الطيّار ولم يعد. فما شأني أنا ربّة البيت الفرنسيّة العاديّة بهذه الأمور؟ كان هنا، ولم يعد. سي لا ڤي».

فقال هنري: «سواءً أقلتِ ذلك أم شيئاً آخر، لا فرق».

قالت إيزابيل، وهي تقترب من ڤيان: «هذا خطئي». لحظتْ شعور أختها بالذنب وندمها، لكنّها لم تأبه به. خوفها الشديد على الطفلَين كان أكبر من القلق على مشاعر أختها.

- أجلْ، لكنّكِ جعلتِه خطئي أيضاً. لقد قتلنا رجُلاً طيّباً يا إيزابيل.

ترنّحت إيزابيل قليلاً. «ڤي. سيأتون بحثاً عنكِ».

وهمّت ڤيان تقول: «بسبب من؟». لكنّها حين نظرتْ إلى إيزابيل توقّف الكلام في حلقها.

رأت الدم ينزّ من بين أصابع إيزابيل. ولجزءٍ من الثانية، تباطأ العالم، وأصبح مجرّد ضوضاء. رجال يتحدّثون خلفها، وبغلٌ يدقّ بحوافره على الأرض الخشبيّة، وأنفاسها الثقيلة. تكوّمت إيزابيل على الأرض، وفقدتْ الوعي.

في غمضة عين، وقبل أن تستطيع حتّى أن تصرخ، أغلقتْ يدٌ فمها، وسحبتها ذراعان من ظهرها، تجرّها بعيداً. صارعتْ كي تتخلّص من قبضة الرجُل الذي يمسكها، لكنّه كان قويّاً جداً.

رأت هنري يجثو على ركبتَيه إلى جانب إيزابيل، فيمزّق معطفها وقميصها كاشفاً عن ثقب رصاصةٍ تحت الترقوة. شقّ قميصَه، وضغط به على الجرح.

لكزتْ ڤيان الرجُل بقوّةٍ حتّى تأوّه، وتملّصتْ منه فركضت نحو إيزابيل، وكادت تسقط من أثر الدماء. «لدينا أدوات طبّية في القبو».

قفز الرجُل ذو الشعر الداكن (وقد بدا فجأةً مهزوزاً مثل ڤيان) على سلالم القبو، وعاد سريعاً يحمل الأدوات.

كانت يدا ڤيان ترتعشان، وهي تمسك قارورة المطهّر، وتغسل يديها بأفضل ما تستطيع.

أخذتْ نفَساً عميقاً، وتولّت الضغط بقميص هنري على الجرح، فأحسّت به ينبض.

اضطُرّت مرّتَين إلى أن تسحب القميص، وتعصر الدم منه، ثمّ تعيد الكرّة، لكنّ النزيف توقّف أخيراً. فقلبتْ إيزابيل بلطفٍ على ذراعيها، ورأت مكان خروج الرصاصة.

حمداً لله.

بحرصٍ بالغ، وضعتْ إيزابيل مرّةً أخرى على الأرض وهمست لها: «ستتألّمين. لكنّك قويّة، أليس كذلك يا إيزابيل؟».

غمرتْ الجرح بالمطهّر. ارتجفتْ إيزابيل، لكنّها لم تستيقظ، أو تصرخ. فقالت ڤيان: «هذا جيّد». هدأتْ حين سمعتْ نفسها؛ إذْ ذكّرها صوتُها أنّها أمٌّ، ومن شأن الأمّ أن تعتني بأسرتها: «فقدُ الوعي جيّد». التقطتْ الإبرة من علبة الأدوات، وشكّت بها خيطاً. غمست الإبرة في المطهّر، ومالت على الجرح، ثمّ أخذتْ تخيطه بحرصٍ شديد. لم يستغرقها الأمر وقتاً طويلاً، وعلى الرغم من أنّ ما فعلتْه لم يكن متقناً، إلّا أنّه أفضل ما في وسعها.

وفور أن خاطت مدخل الرصاصة، اكتسبت شيئاً من الثقة الكافية لكي تخيط مخرج الرصاصة، وتضمّده.

فلمّا انتهتْ، ارتاحت في جلستها، وهي تنظر إلى يدَيها وتنّورتها الملطّخة بالدم.

كان وجه إيزابيل شاحباً للغاية، مهزولاً، على غير عادته. شعرُها قذرٌ أشعث، وملابسها مبلّلةٌ بدمها (ودم الطيّار). تبدو صغيرة.

صغيرةً جدّاً.

شعرتْ ڤيان بالذنب، حدّ الغثيان. كيف قالت لأختها (أختها) أن تذهب ولا تعود؟

تُرى كم مرّةً سمعت إيزابيل تلك الجملة في حياتها، من أسرتها، من الناس الذين يُفترض أن يحبّوها؟

قال الرجُل ذو الشعر الداكن: «سآخذها إلى البيت الآمن في برانتوم».

فقالت ڤيان: «لن تأخذها». رفعت عينَيها فلحظتْ أنّ الرجال الثلاثة يقفون عند العربة يتّفقون على أمرٍ ما. نهضت: «لن تذهب معكم إلى أيّ مكان. أنتم السبب في وجودها هنا».

فقال صاحب الشعر الداكن: «هي السبب في وجودنا هنا. سآخذها. الآن».

اقتربت ڤيان من الشاب. كانت في نظرته حِدّةٌ كفيلةٌ بإثارة الخوف فيها، لكنّها تعدّت مرحلة الخوف، وتعدّت مرحلة الحذر: «أنا أعرفك. لقد وصفتكَ لي. أنت الذي التقتْه في تور، وتركها مع رسالةٍ على صدرها، كما لو أنّها كلبة شاردة. غاستون، أليس كذلك؟».

قال بصوتٍ خفيضٍ اضطُرّت أن تميل إلى الأمام كي تسمعه: «غيتون. وسأقول لكِ شيئاً: ألستِ أنتِ التي لم تأبهي بأن تكوني لها أختاً في الوقت الذي احتاجت فيه إلى أخت؟».

- إنْ حاولتَ أن تأخذها مني، سأقتلك.

فقال مبتسماً: «تقتلينني».

التفتتْ نحو بيك. «لقد قتلتُه بمجرفة، على الرغم ممّا كنتُ أحمله له من مودّة».

فقال هنري متدخّلاً بينهما: «كفى! لا يمكن أن تبقى هنا يا ڤيان. فكّري في الأمر. سيأتي الألمان بحثاً عن نقيبهم الميّت. ولا ينبغي أن يجدوا امرأةً مصابةً بطلقٍ ناريٍّ، مع أوراقٍ مزوّرة. هل تفهمين؟».

تقدّم الرجُل الضخم. «سوف ندفن النقيب والطيّار. ونتأكّد من إخفاء الدرّاجة. غيتون، خذها إلى بيتٍ آمن في المنطقة الحرّة».

نقّلتْ ڤيان نظرها من رجُلٍ إلى آخر. «لكنّ حظر التجوال بدأ، والحدود على بعد أربعة أميال، وهي مصابة. كيف....».

لكنّها اكتشفتْ الجواب قبل أن تكمل السؤال.

التابوت.

تراجعت إلى الوراء. كانت فكرةً شنيعةً.

فقال غيتون: «سأعتني بها».

لم تصدّقه، على الإطلاق. «سأذهب معكم. إلى الحدود، ثمّ أعود مشياً حين أرى أنكم عبرتم بها إلى المنطقة الحرّة».

فقال غيتون: «لا يمكنكِ فعل ذلك».

نظرت إليه. «ستندهش ممّا يمكنني فعله. والآن، هيّا نخرجها من هنا».

الفصل السادس والعشرون

6 أيار/مايو 1995م

ساحل أورِغن

تلك الدعوةُ اللّعينة، تلاحقني في كلّ وقت. أكاد أقسمُ أنّها من دم ولحم.

ظللتُ أيّاماً أتجاهلها، لكنّني في هذا الصباح الربيعي المشرق أجدُ نفسي عند المنضدة أحدّق فيها. غريب. لا أذكر أنّي مشيتُ إلى هنا.

لكأنّها يدُ امرأةٍ أُخرى تلك التي تمتدّ. لا يمكن أن تكون هذه اليد الضخمة المرتعشة ذات العروق النافرة يدي. ها هي تلتقط المظروف، تلك المرأة الأُخرى.

يداها ترتعشان أكثر من المعتاد.

يُسعدنا تشريفكم لنا في حفل لمّ شمل «أفيس» في السابع من أيار/ مايو 1995م في باريس.

الذكرى الخمسون لانتهاء الحرب.

لأوّل مرّةٍ يجتمع أسر وأصدقاء الياسير لتكريم الرائعة
«العندليب»، المعروفة باسم جولييت جيرفيز، في القاعة الكبرى
بفندق «إلْ دو فرانس» في باريس، في تمام السابعة مساء.

يرنّ الهاتف إلى جانبي. أمدّ يدي إليه، فتنفلتُ الدعوة من يدي وتسقط على المنضدة.

- ألو؟

شخصٌ يحدّثني بالفرنسيّة. أم إنّني أتخيّل ذلك؟

أسأله في حَيرة: «أهذه مكالمة مبيعات؟».

- لا، لا. أتّصل بكِ بخصوص دعوتنا.

أكادُ أُسقط السمّاعة من هول المفاجأة.

- عانينا كثيراً للوصول إليكِ، مدام. أتّصل بكِ بخصوص حفل لمّ شمل الياسير مساء الغد. سوف نجتمع للاحتفاء بأولئك الذين شاركوا في نجاح ممرّ هروب العندليب. هل وصلت إليكِ الدعوة؟

أقول، وأنا أقبض على السمّاعة: «وِي».

- الدعوةُ الأولى التي أرسلناها عادت إلينا، مع الأسف. نرجو أن تعذري تأخّر الدعوة. ولكن..هل ستحضرين؟

- لستُ أنا من يريد الناس رؤيتها. يريدون جولييت. وهذه لم تعد موجودة منذ زمن.

- أنت مخطئة يا مدام. كثيرٌ من الناس يهمّهم أن يروك.

أُغلق السمّاعة بقوّةٍ، كما لو أنّني أقتل حشرة.

لكنّ فكرة العودة (إلى الوطن) تسكن عقلي فجأة. ولا أستطيع التفكير في شيءٍ آخر.

ظللتُ سنوات أُبعد هذه الذكريات. أخفيتُها في علّية مغبرّة، بعيداً عن ناظري. قلتُ لزوجي، وأطفالي، ولنفسي: إنّه لم يعد لي شيء في فرنسا. خِلتُ أنّني يمكن أن آتي إلى أميركا وأعيش حياةً جديدةً وأنسى ما فعلتُه كي أنجو.

لكنّني الآن لا أستطيع أن أنسى.

هل أتّخذ قراراً؟ قراراً واعياً، من قبيل «لأفكّر في الأمر وأقرّر الخيار الأفضل»؟

لا. أتّصل بوكيل السفريّات وأحجز رحلةً إلى باريس مروراً بنيويورك، ثمّ أحزم حقيبة صغيرة، من ذلك النوع الذي قد تأخذه سيّدة أعمالٍ في رحلةٍ ليومين. أضع فيها جوارب طويلة، وبناطيل فضفاضة، وقمصاناً، وقرطَي اللؤلؤ اللذَين اشتراهما لي زوجي في ذكرى زواجنا الأربعين، وبعض الأغراض الضروريّة. لستُ أعرف ما الذي قد أحتاج إليه، ولستُ أفكّر جيّداً على أيّ حال. ثمّ أنتظر. بصبر نافد.

في الدقيقة الأخيرة، وبعد أن أتّصل بسيّارة أجرة، أتّصل بابني، فيردّ جهاز الردّ الآلي. كان ضرباً من الحظّ. فلا أدري ما إذا كانت لديّ الشجاعة كي أخبره بالحقيقة مباشرة.

أقول بنبرةٍ بشوشةٍ قدر الإمكان: «ألو، جوليَن. أنا ذاهبةٌ إلى باريس لقضاء إجازة الأسبوع. موعد رحلتي في الواحدة وعشر دقائق، وسوف أطمئنك عليّ حين أصل. أبلغ سلامي للبنات». أسكت قليلاً؛ إذْ أعرف شعوره حين يسمع الرسالة، وكيف ستزعجه. كلُّ هذا لأنّني أقنعتُه طوال هذه السنوات بأنّي ضعيفة. كان يراني أتوكّأ على أبيه، وأعتمد على قراراته. كثيراً ما كان يسمعني أقول: «لا بأس يا عزيزي إن كان هذا ما تراه». لقد

رآني أقف على هوامش حياته، بدلاً من أن أسمح له برؤية عالمي أنا. وهذا خطئي. لا عجب إذنْ من أنّه يحبّ نسختي المنقوصة: «كان لا بدّ من أن أخبرك بالحقيقة».

أغلق الخطّ، فأرى سيّارة الأجرة عند الباب، وأذهب.

الفصل السابع والعشرون

تشرين الأول / أكتوبر 1942م

فرنسا

جلست ڤيان إلى جانب غيتون في مقدّمة العربة، فيما يخبطُ التابوتُ على ظهر العربة الخشبيّ من خلفهما. لقد شقَّ عليهم العثورُ على مسار الغابة في الظلام، فظلّوا يتقدّمون، ويتوقّفون، ويعودون من حيث أتوا، ثمّ بدأ المطر يهطل. لم يقل الواحد منهما للآخر طوال الساعة ونصف الساعة شيئاً سوى تخمين الاتّجاهات.

فلمّا وصلا أخيراً إلى نهاية الغابة، قالت ڤيان: «هناك». إذْ ظهر ضوءٌ بين الأشجار، يحوّلها إلى شقوقٍ سودٍ على خلفيّةٍ بيضاء تغشي البصر.

الحدود.

قال غيتون، وهو يشدّ اللّجام: «وصلنا».

لم تستطع ڤيان أن تمنع نفسها من التفكير في آخر مرّةٍ كانت فيها هنا.

قالت، وهي تشبك يدَيها لتوقف ارتعاشهما: «كيف ستعبر؟ قد بدأ حظر التجوال».

- سأكون اليوم لورنس أوليفييه. رجُلٌ أفجعه موتُ شقيقته الحبيبة، وها هو يأخذها إلى مسقط رأسها كي تُدفن هناك.

- ماذا لو تفحّصوا أنفاسها؟

- فقال بهدوء: «عندها سيموتُ شخصٌ ما عند الحدود».

كان المُضمَرُ في كلامه واضحاً بالنسبة إليها وضوح المعلن. وقد أدهشها أنّها لم تستطع التفكير في شيءٍ تقوله. فما يُفهم من كلامه هو أنّه سوف يموت فداء لإيزابيل. استدار نحوها، وحدّق فيها. لم يكن ينظر، بل يحدّق. ومرّةً أُخرى رأتْ في عينَيه الرماديّتَين حِدّةَ مُفترس، لكنّها رأت شيئاً آخر كذلك. كان ينتظر (في صبرٍ) ما سوف تقوله. كان يهمّه ذلك، بشكلٍ أو بآخر.

قالت بهدوء: «تغيّر أبي كثيراً بعد عودته من الحرب الكبرى». فوجئتْ بهذا الاعتراف؛ إذْ لم يكن من عادتها أن تتحدّث عن هذا الموضوع: «أصبح غضوباً، سيّئ الطباع. بدأ يُسرف في الشراب. كان مختلفاً في وجود أمّي». هزّت كتفَيها، وتابعت: «ولكنْ بعد وفاتها، لم يعد مُضطرّاً إلى التمثيل. أرسلني أنا وإيزابيل للعيش مع امرأةٍ غريبة. كنّا مجرّد فتاتَين صغيرتَين، مفطورتَي القلب. الفرق بيني وبينها أنّني كنتُ أتقبّل الرفض. نفضتُ يديّ من والدي، ووجدتُ شخصاً آخر يحبّني؛ أمّا إيزابيل...فلا تعرف كيف تعترف بالهزيمة. هكذا ظلّت سنواتٍ تلقي بنفسها على جدار البرود الذي أقامه أبي بينه وبيننا، تحاول باستماتةٍ أن تظفر بحبّه».

- لماذا تقولين لي هذا؟

- إيزابيل تبدو في الظاهر شخصاً لا ينكسر. لها مظهر من فولاذ، ولكنْ

من خلف ذلك قلبٌ واهنٌ مثل غزل البنات. ما أريد قوله: لا تجرحها. إنْ لم تكن تحبّها—.

- أنا أحبّها.

تفرّستْ فيه. «وهل تَعرف؟».

- أرجو أنّها لا تعرف.

قبل سنةٍ من الآن لم تكن ڤيان لتفهم هذا الجواب. لم تكن لتستوعب كيف يمكن للحبّ أن يحمل جانباً قاتماً، وكيف أنّ إخفاءه قد يكون أحياناً أطيب شيءٍ تفعله. «لا أعرف لماذا يسهل عليّ أن أنسى كم أحبّها. أجد نفسي أتشاجر معها، ثم...».

- كعادة الأخوات.

تنهّدت ڤيان: «لعلّه ذلك، على الرغم من أنّني لم أكن أختاً حقيقيّةً لها».

- ستحصلين على فرصةٍ أُخرى.

- هل تعتقد؟

كان صمتُه جواباً كافياً. قال أخيراً: «اهتمّي بنفسك يا ڤيان. سوف تحتاجُ إيزابيل إلى مكانٍ تعود إليه حين ينقضي كلّ هذا».

- إذا انقضى.

- وِي.

ترجّلت ڤيان من العربة. غاص حذاؤها في العشب الموحل. «لا أدري ما إذا كانت ترى فيّ مكاناً آمناً تعود إليه».

قال غيتون: «تحلّي بالشجاعة. حين يأتي النازيّون بحثاً عن رجُلهم. أنتِ تعرفين أسماءنا الحقيقيّة، وهذا خطرٌ علينا جميعاً. وأنتِ معنا».

- لا تقلق. قل لأختي: يجدر بها أن تخاف.

تبسّم غيتون للمرّة الأولى، ففهمتُ كيف استطاع هذا المهزول بملامحه الحادّة وملابسه المهلهلة أن يوقع إيزابيل في هواه. كانت لديه ابتسامةٌ تحتلّ كلّ جزءٍ من وجهه. في عينَيه ووجنتَيه. ومعها غمّازةٌ أيضاً. كانت ابتسامتُه تقول: ها أنا أحمل قلبي على ذراعي، فلا يمكن لامرأةٍ ألّا تتأثّر بهذه المشاعر الشفافة. قال: «وِي. فمن السهل جدّاً قول شيءٍ لأختك».

*

نار.

نار مُشعَلة من حولها، تقفز، تتراقص. تراها في جدائل مرتعشة من اللون الأحمر تأتي وتذهب. شُعلةٌ تلعقُ وجهها، فتحرقها.

تنتشر في كلّ مكان، ثم... تختفي.

العالَم مغطّى بالثلج، أبيض، مائلٌ، متشقّق. ترتعشُ من البرد، وتنظر إلى أصابعها إذْ تتحوّل إلى اللون الأزرق، ثمّ تطقطق وتنكسر. تتساقط كالطباشير، فتغبرّ قدميَها المتجمّدتَين.

- إيزابيل.

تغريدُ طائر. عندليب. تسمعها تغنّي أغنيةً حزينة. العنادلُ ترمز إلى الفقد، أليس كذلك؟ حبٌ يرحل، أو لا يدوم، أو لا يوجد أصلاً. ثمّة قصيدةٌ عن ذلك. أنشودة.

لا، ليس طائراً.

رجُل. سيّد هذه النار ربّما. أميرٌ مختبئٌ في الغابة المتجمّدة. ذئب.

تبحث عن آثار أقدامٍ في الثلج.

- إيزابيل، استيقظي.

سمعتْ صوته في خيالها. غيتون.

لم يكن هناك فعلاً. كانت وحيدةً (كانت دائماً وحيدة)، وما تراه غريبٌ جدّاً على أن يكون شيئاً غير حلم. كانت تشعر بالحرارة، والبرودة، والألم، والإنهاك.

ثمّ تذكّرت شيئاً. صوتاً مدوّياً. صوت ڤيان. لا تعودي.

- أنا معك.

أحسّتْ به إلى جانبها. مال الفراشُ، وهو يتلقّى وزنَه المتخيَّل.

ثمّة شيءٌ باردٌ رطبٌ يضغط على جبينها، فكان إحساساً جميلاً جدّاً لدرجة أنّها فقدت تركيزها لحظة، ثمّ أحسّتْ بشفتَيه تمسّان شفتَيها برفقٍ، وتلبثان هناك. قال شيئاً لم تسمعْه، ثم تراجع. وأحسّتْ بنهاية القبلة إحساساً قويّاً مثلما أحسّت ببدايتها.

بدت تلك القبلةُ... حقيقيّةً جداً.

كانت تودّ أن تقول: «لا تتركني». لكنّها لم تستطع. لقد سئمتْ من استجداء الحبّ.

ناهيك عن أنّه لم يكن فعلاً هناك. فما نفع الكلام؟

أغمضتْ عينَيها، وولّتْ ظهرها للرجُل الذي لم يكن هناك.

*

جلستْ ڤيان على سرير بيك.

سخيفةٌ تلك الفكرة، لكنّ هذا ما حدث. ها هي تجلس في الغرفة التي

كانت قد أصبحتْ غرفته، على أمل ألّا تظلّ غرفته دائماً. وفي يدها صورة أسرته.

لو قابلتِ هيلدا ستحبّينها. تفضّلي، لقد أرسلتُ لكِ هذه الفطيرة يا مدام. مكافأةً لكِ على تحمّل رجُلٍ فظٍّ مثلي.

ازدردتْ ڤيان ريقها بقوّة. لم تبكِ عليه مرّةً أخرى. كانت ترفض ذلك، لكنّها أرادتْ أن تبكي على نفسها، على ما جنته يداها، على ما صارت إليه. أرادت أن تبكي على الرجُل الذي قتلتْه، والأخت التي قد لا تعيش. كان خياراً سهلاً أن تقتل بيك لإنقاذ إيزابيل. فلماذا إذن كانت سريعاً ما تنقلب على أختها؟ ليس لكِ مكانٌ هنا. كيف استطاعت أن تقول هذا لأختها؟ ماذا لو كانت تلك الكلمات من بين آخر ما يُقال بينهما؟

جلست تحدّق في الصورة (أبلغي أسرتي) فيما تنتظر قرعاً على الباب. لقد مضت ثماني وأربعون ساعة على مقتل بيك. سيصل النازيّون في أيّ لحظة.

لم يكن السؤال حول ما إذا أتوا، بل متى. سيدقّون الباب ويقتحمون البيت. أنفقتْ ساعات تحاول أن تقرّر ماذا ستفعل. هل ينبغي لها الذهاب إلى مكتب القيادة والإبلاغ عن غياب بيك؟

(كلّا، تلك حماقة. وهل يُبلغ الفرنسيّون عن شيءٍ كهذا؟)

أم يجدر بها الانتظار إلى أن يأتوا إليها؟

(ليس خياراً محبّذاً على الإطلاق).

أم تحاول الهرب؟

فلمّا خطر لها الهرب تذكّرت سارة، وتلك الليلة الظلماء التي سوف

تجعلها دائماً تستحضر خطوط الدم على وجه طفلةٍ، وعادت مرّةً أُخرى إلى حيث كانت.

قالت صوفي، وهي تقف عند الباب تحمل الطفل: «مامُن؟ يجب أن تأكلي شيئاً». كانت أطول قامةً، تكاد تصل إلى طول ڤيان. متى حدث ذلك؟ وكانت نحيلة. تذكّرت ڤيان حين كانت لابنتها وجنتان كالتفّاح، وعينان تلتمعان شيطنةً؛ أمّا الآن، فقد أصبحت مثلهم جميعاً، بوجهٍ ممدودٍ نحيلٍ كاللّحم المقدّد، ينبئ عن عمرٍ أكبر من عمرها.

قالت ڤيان: «سوف يأتون قريباً». لم تفاجَأ صوفي من تلك الجملة، فقد كرّرتها ڤيان كثيراً في اليومَين الماضيَين: «هل تذكرين ما ينبغي لك فعله؟».

أومأتْ صوفي. كانت تُدرك أهميّة الأمر، حتّى إن لم تكن تعرف ما حدث للنقيب. واللافت في الأمر أنّها لم تسأل.

- إنْ اعتقلوني—.

- لن يعتقلوكِ.

- ولكنْ إن اعتقلوني؟

- ننتظر عودتك ثلاثة أيّام، ثمّ نذهب إلى الأم ماري تيريزا في الدَير.

دقّ أحدهم على الباب. فنهضتْ ڤيان بسرعةٍ وترنّحت، فخبطت طرف الطاولة بردفها، فأسقطت الصورة. تصدّع الزجاج في بروازها. «فوق يا صوفي. على الفور».

اتّسعت عينا صوفي، لكنّها كانت تعرف أنّه لا ينبغي لها الكلام. ضمّت الطفل إليها أكثر، وركضتْ إلى الأعلى. فلمّا سمعتْ ڤيان باب غرفة النوم

يُغلق، رتّبت تنّورتها. كانت قد اختارت ملابسها بعناية، فارتدت سترةً صوفيّةً طويلةً، وتنوّرةً سوداء جرى تعديلها مرّةً تلو الأُخرى. منظرٌ مُحترم. لفّت شعرها، وصفّفته جيّداً في تموّجاتٍ لطّفتْ من وجهها النحيل.

دُقّ البابُ مرّةً أُخرى. أخذتْ نفَساً أخيراً يهدّئها، وهي تمشي إلى الباب، فلمّا فتحتْه كان تنفّسها مستقرّاً إلى حدٍّ ما.

وجدتْ عند الباب جنديّين ألمانيَّين مسلّحَين من الشوتزستافل. نحّى أقصرهما ڤيان عن طريقه ودخل البيت، فذرع المكان من غرفةٍ إلى أُخرى، يدفع الأشياء هنا وهناك، فيوقع ما تبقّى من ديكورات صغيرةٍ على الأرض. فلمّا وصل إلى غرفة بيك، توقّف واستدار. «هذه غرفة الهويتمان بيك؟».

أومأتْ له.

فغذّ الجنديّ الأطول منهما خطاه نحو ڤيان، يميل إلى الأمام كما لو أنّ ريحاً قويّةً تدكّ ظهره. نظر إليها من علٍ، وجبينه محجوبٌ بقبّعةٍ عسكريّةٍ لامعة. «أين هو؟».

– و-كيف لي أن أعرف؟

– من هناك في الطابق العلوي؟ أسمع شيئاً.

كانت أوّل مرّةٍ تُسأل فيها عن آري.

– «إنّهما...طفلاي». علقت الكذبةُ في صوتها، فخرج خفيضاً جدّاً. تنحنحتْ وحاولتْ مرّةً أخرى: «يمكنك الصعود، طبعاً، ولكن أرجو ألا توقظ الطفل. فهو...مصاب بالبرد، أو ربّما السلّ». لجأتْ إلى هذه الإضافة لمعرفتها بخوف النازيّين من الإصابة بالأمراض.

أومأ إلى زميله الذي سار بثقةٍ يصعد السلالم. سمعتْه يحرّك الأشياء

ويقلبها، ثمّ صرّ السقف. وبعد لحظات، عاد إلى الأسفل وقال شيئاً بالألمانيّة.

قال الأطول منهما: «تعالَي معنا. أنا واثقٌ من أنّه ليس لديكِ ما تخفينه».

أمسك ذراع ڤيان وجرّها إلى الخارج نحو سيّارة «سيتروين» سوداء عند البوّابة. دفعها في المقعد الخلفي، وأغلق الباب.

لم يكن لدى ڤيان أكثر من خمس دقائق كي تفكّر في وضعها، قبل أن يتوقّفوا مرّةً أخرى عند قاعة البلديّة. ثمّة أشخاصٌ يملؤون الميدان، جنودٌ وأهالٍ. تفرّق القرويّون بسرعةٍ حين توقّفتْ سيّارة السيتروين.

وسمعتْ امرأةً تقول: «هذه ڤيان مورياك».

كانت قبضة النازيّ على ذراعها مؤلمة، لكنّها لم تصدر أيّ صوتٍ، وهو يجرّها إلى مبنى البلديّة فوق درجاتٍ ضيّقة. وهناك دفع بها من بابٍ مفتوح وأغلقه.

مرّت لحظاتٌ حتّى تكيّفت عيناها مع الظلام. كانت في غرفةٍ صغيرةٍ بلا نوافذ، ذات جدرانٍ حجريّةٍ، وأرضيّةٍ خشبيّة. في منتصف الغرفة طاولةٌ عليها مصباحٌ أسْود يبعث قُمعاً من الضوء على الخشب المخدّش. خلف الطاولة مقعدٌ خشبيٌّ، ومثله أمامها.

سمعتْ الباب يُفتح خلفها، ثمّ يُغلق. وبعدها وقعُ خطوات. عرفتْ أنّ شخصاً جاء خلفها. كانت تصل إليها رائحة أنفاسه (مزيجٌ من السجق والسجائر)، ورائحة عرقه الممزوجة بالعطر.

- «مدام». قالها قريباً جدّاً من أذنها، فجفلتْ.

يدان تقبضان على خاصرتها، وتضغطان بقوّة. قال بفرنسيّةٍ شنيعةٍ لها

صَفير: «الديكِ سلاح؟». تحسّس جنبَيها، ومرّر أصابعه العنكبوتيّة على نهدَيها (بضغطاتٍ صغيرة)، ثم تحسّس ساقَيها.

- «لا أسلحة. جيّد». مشى أمامها وجلس على المقعد. عينان زرقاوان تلوحان من تحت قبّعته العسكريّة اللامعة: «اجلسي».

ففعلتْ ما أُمرت به، ووضعتْ يدَيها على حِجرها.

- أنا الشتومبانفوهرر ڤون رِختر. أنتِ مدام ڤيان موررياك؟

فأومأتْ.

قال، وهو يُخرج من جيبه سيجارةً، ثمّ يشعلها بعود ثقابٍ توهّج في الظلام: «تعرفين سبب وجودك هنا».

فقالت بصوتٍ مضطربٍ، ويدَين ترتعشان شيئاً قليلاً: «لا».

- الهوبتمان بيك مفقود.

- مفقود. هل أنت متأكّد؟

- متى رأيتِه آخر مرّةٍ يا مدام؟

قطّبت جبينها. «لا أتابع تحرّكاته، ولكنْ إن ضغطتُ على ذاكرتي... سأقول قبل ليلتَين.كان مضطرباً».

- مضطرباً؟

- بسبب الطيّار الذي أُسقط. كان منزعجاً جدّاً لأنه لم يُعثر عليه. هير نقيب كان يعتقد أنّ شخصاً ما يخبّئه.

- شخصاً ما؟

جاهدتْ ڤيان كي لا تشيح ببصرها، أو تخبط بقدمها على الأرض، أو تستجيب للحكّة التي كانت تشقّ طريقها في رقبتها. «بحث طوال النهار

عن الطيّار. وحين عاد إلى البيت، كان...مضطرباً هي الكلمة التي أستطيع وصفه بها. شرب زجاجةً كاملةً من البراندي، وحطّم بضعة أشياء في البيت من فرط غضبه، ثمّ...». سكتتْ قليلاً، وتعمّقتْ أخاديد جبينها.

– ثمّ ماذا؟

– ربمّا ليس لهذا أيّ معنى.

فهوى براحته على الطاولة حتّى ارتعش الضوء. «ثمّ ماذا؟».

قال هير نقيب: «عرفتُ أين يختبئ». والتقط مسدّسه وخرج، وصفق الباب خلفه. رأيتُه يمتطي درّاجته، ويمضي في الشارع بسرعةٍ خطِرة، ثمّ... لا شيء. لم يعد بعدها. افترضتُ أنّه انشغل في القيادة. وكما قلتُ: فإنّ حضوره وانصرافه ليس من شأني».

مجّ الرجُلُ من سيجارته طويلاً. توهّج طرفها، ثمّ أخذ ينطفئ إلى الأسْود. سقط الرماد على الطاولة. تفحّصها من خلف ستار الدخان. «الرجال لا يرغبون في ترك امرأةٍ جميلةٍ مثلك». لم تحرّك ڤيان ساكناً. قال أخيراً، وهو يلقي بعقب سيجارته على الأرض: «حسنٌ». وقف، وداس على السيجارة المشتعلة، فطحنها بكعب حذائه: «ظنّي أنّ الهويتمان الشاب لم يكن يُحسن استخدام السلاح». ثمّ قال، وهو يهزّ رأسه: «هؤلاء الفيرماخت. كثيراً ما يخيّبون الأمل. منضبطون ولكن...ينقصهم الحماس».

دار حول الطاولة ومشى نحو ڤيان. فلمّا اقترب، نهضت تأدّباً. «لكنّ مصيبة الهويتمان من حسن حظّي».

– هاه؟

حدّق فيها من حلقها إلى بشرتها البضّة فوق نهدَيها. «أحتاجُ إلى مكانٍ جديد أقيم فيه. فندق بيليڤو غير مريح. أعتقد أنّ بيتك سيكون جميلاً».

*

حين خرجت ڤيان من مبنى البلديّة شعرتْ كما لو أنّ الموج قذفها إلى الشاطئ. خطواتُها غير مستقرّة، ترتعش قليلاً، يداها متعرّقتان، وثمّة حكّة في جبينها. أينما ولّت وجهها في الميدان رأت جنوداً. وهذه الأيّام كان زيّ الشوتزستافل هو الطاغي. سمعتْ شخصاً يصيح: «توقّفي!». فاستدارت، ورأتْ امرأتَين في معطفَين مهلهلَين، ونجمتَين صفراوين على الصدر، يدفعهما جنديٌّ يحمل بندقيّةً كي تخرّا على الركب. أمسك الجنديّ واحدةً منهما وأنهضها على قدمَيها، فيما أخذت الأُخرى الأكبر منها تصرخ. كانت مدام فورنييه زوجة الجزّار. فصاح ابنها جيل: «لا تأخذوا مامْ!». واندفع إلى الشرطيَّين الفرنسيَّين الواقفَين على مقربة.

اختطف الدرَكيُّ الصبيَّ، انتزعه بقوّةٍ فأوقفه في مكانه. «لا تتصرّف بحماقة».

لم تفكّر ڤيان لحظة. رأتْ تلميذها السابق واقعاً في مشكلةٍ، فذهبتْ إليه. كان مجرّد صبيّ! في عمر صوفي. وكانت ڤيان معلّمتَه مذ كان صغيراً لا يعرف القراءة والكتابة. صاحت: «ماذا تفعل؟». ثمّ أدركتْ متأخّرةً أنّ صوتها كان أعلى ممّا ينبغي.

استدار الشرطيّ لينظر إليها. پول. كان قد زاد وزنه منذ آخر مرّةٍ رأته فيها، فقد انتفخ وجهُه، وضاقت عيناه كإبر الخياطة. قال لها: «لا تتدخّلي في الأمر يا مدام».

صاح جيل: «مدام موريناك. سيأخذون مامْ إلى القطار، وأريد الذهاب

معها!». فنظرتْ ڤيان إلى مدام فورنييه، والدته، زوجة الجزّار، وأبصرتْ الهزيمةَ في عينَيها.

قالت ڤيان بدون تفكير: «تعال معي يا جيل».

فهمستْ مدام فورنييه: «ميرسي».

انتزع پول الصبيّ مرّةً أُخرى. «كفى! هذا الصبيّ يصيح أمام الناس. سيأتي معنا».

فقالت له: «لا! پول أرجوك، كلّنا فرنسيّون». كانت ترجو من ذِكر اسمه أن يعود إلى رشده ويتذكّر أنّهم كانوا قبل كلّ هذا أفراد مجتمعٍ واحد، بل إنّها هي التي علّمت بناته: «الصبيُّ مواطنٌ فرنسيّ. وُلد هنا!».

- «لا يهمّنا أين وُلد يا مدام. إنّه في قائمتي. ولا بدّ من أن يذهب». ثمّ ضيّق عينَيه وقال: «هل تريدين التقدّم بشكوى؟».

كانت مدام فورنييه تبكي، تتشبّث بيد ابنها؛ أمّا الشرطيّ الآخر، فأطلق صافرته ودفع جيل بماسورة بندقيّته.

تعثّر جيل وأمّه في زحام الآخرين الذين يُقادون إلى محطّة القطار.

لا يهمّنا أين وُلد يا مدام.

كان بيك على حقّ. لم تعد الجنسيّة الفرنسيّة كافيةً لحماية آري.

تأبّطتْ حقيبتها ومشت إلى البيت. كان الطريق قد تحوّل كعادته إلى وحلٍ، فلم تصل إلى لو جاردان إلّا وقد تلف حذاؤها.

كان الطفلان في انتظارها في الصالة. ارتخى كتفاها لرؤيتهما، وابتسمت بتعبٍ، وهي تضع حقيبتها.

سألتْها صوفي: «هل أنتِ بخير؟».

أمّا آري، فقد انطلق على الفور إليها، مادّاً ذراعيه كي يحتضنها، وهو يقول: «مامْن». مبتسماً كي يثبت لها أنّه استوعب قواعد اللّعبة الجديدة.

ضمّت الطفل (ذا الثلاثة أعوام) إليها بقوّة، ثمّ قالت لصوفي: «استجوبوني، ثمّ أطلقوا سراحي. هذا الجيّد في الأمر».

- وما السيّئ؟

نظرت ڤيان إلى ابنتها، مهزومة. كانت صوفي تكبرُ في عالمٍ يوضع فيه أولاد صفّها في عربات القطار مثل الماشية، تحت تهديد السلاح، وقد لا يعودون أبداً: «ألمانيٌّ آخر سوف يقيم هنا».

- وهل سيكون مثل هير نقيب بيك؟

تفكّرتْ ڤيان في اللمعة البهيميّة في عينَي ڤون رختر الزرقاوين، والطريقة التي «فتّشها» بها. ثمّ قالت في هدوء: «لا. لا أظنّه سيكون مثله. لا تتحدّثي إليه إلّا إن اضطُررتِ. ولا تنظري إليه. ابقَيْ بعيداً عن نظره قدر الإمكان. وبالمناسبة يا صوفي، لقد بدؤوا يرحّلون اليهود المولودين في فرنسا، بما فيهم الأطفال. يرسلونهم بالقطارات إلى معسكرات العمل». شدّت ڤيان قبضتها على ابن راشيل: «هو الآن دانييل. أخوكِ. دائماً. حتى حين نكون وحدنا. سنقول: إنّنا تبنّيناه من أحد أقاربنا في نيس. لا مجال لأيّ خطإٍ وإلّا أخذوه، ونحن معه. مفهوم؟ لا أريد أن يفكّر أحدٌ حتّى في النظر في أوراقه».

- أنا خائفة، مامْن.

لم تجد ڤيان ما تقوله أكثر من: «وأنا أيضاً يا صوفي». لقد أصبحتا في هذا الأمر معاً، في هذه المجازفة الخطرة. وقبل أن تقول شيئاً آخر، قُرع الباب، ثمّ دخل الشتومبانفوهرر ڤون رختر. وقف مستقيماً كأنّه نصل

حَربة، بوجهٍ هادئٍ تحت قبّعته العسكريّة السوداء. تتدلّى من زيّه صلبانٌ حديديّةٌ فضيّةٌ (من ياقته، وصدره). وثمّة دبّوسٌ على شكل صليبٍ معقوفٍ يزيّن جيب صدره: «مدام موريلك. إذنْ فقد مشيتِ إلى هنا تحت المطر».

أجابتْ، وهي تُبعد شعرها المبتلّ عن وجهها: «وِي».

- كان عليكِ أن تطلبي من رجالي أن يوصلوكِ. لا ينبغي لامرأةٍ جميلةٍ مثلك أن تخوض في الطين كعِجلةٍ صغيرةٍ في حوض مياه.

- وِي ميرسي. سأتجرّأ في المرّة القادمة وأطلب منهم.

مشى بدون أن يخلع قبّعته. أخذ ينظر هنا وهناك، يتفحّص كلّ شيء. كانت متأكّدة من أنّه لحظ العلامات على الجدران، في الأماكن التي كانت فيها لوحاتٌ معلّقة ذات يوم، وإطار المدفأة الفارغ، وبُقع الأرضية في الأماكن التي كانت عليها سجاجيد لعقودٍ من الزمن. كلّها راحت. «نعم. جيّد». ثمّ نظر إلى الطفلَين، وسألها بفرنسيّته المكسّرة: «ومن هذان؟».

قالت، وهي تقف إلى جانبه، بما يكفي لكي تلمس الطفلَين معاً: «ابني». لم تقل: «دانييل»، خشية أن يصحّح لها آري اسمه: «وابنتي، صوفي».

- لا أذكر أنّ هويتمان بيك ذكر طفلَين.

- وما الذي يدعوه إلى ذلك يا هير شتومبانفوهرر؟ الأمر لا يستحقّ.

فقال، وهو يومئ لصوفي: «حسنٌ. يا فتاة، اذهبي وأحضري حقائبي». وقال لڤيان: «أريني الغرف. سأختار الغرفة التي أريد».

الفصل الثامن والعشرون

استيقظتْ إيزابيل في غرفةٍ حالكة السواد. متألّمة.

فقال صوتٌ إلى جانبها: «يبدو أنّكِ استيقظتِ».

تعرّفتْ على صوت غيتون. كثيراً ما تخيّلت في السنتَين الماضيتَين أن تستلقي على السرير معه. قالت: «غيتون». فأتتْها الذكريات حين نطقت اسمه.

الحظيرة. بيك.

جلستْ بسرعةٍ، فداختْ ودكّها الدوار. قالت: «ڤيان».

– «أختك بخير». أشعل مصباحاً زيتيّاً وتركه فوق صندوق التفّاح المقلوب عند السرير. أحاط بهما وهجٌ بلون الكراميل، وصنع عالماً بيضويّاً صغيراً في الظلام. تحسّستْ موضع الألم في كتفها، وجفلتْ.

– «ابن الحرام أطلق النار عليّ». قالتها، وهي مندهشةٌ كيف يمكن لها أن تنسى شيئاً كهذا. تذكّرتْ إخفاء الطيّار واكتشاف ڤيان الأمر...تذكّرت بقاءها في القبو مع الطيّار الميّت...

– وأنتِ أيضاً أطلقتِ النار عليه.

تذكّرتْ بيك، وهو يرفع باب القبو، ثمّ يصوّب مسدّسه إليها. تذكّرت الطلقتَين...وصعودها السلّم، مترنّحةً، دائخة. أتراها كانت تدرك أنّها أصيبت برصاصة؟

منظرُ ڤيان، وهي تمسك بمجرفةٍ ملطّخةٍ بالدم. إلى جانبها بيك في بركة دماء.

ڤيان شاحبةٌ كالطبشور، ترتعش. لقد قتلتْهُ.

بعد ذلك، اختلطت الذكرياتُ إلّا من غضب ڤيان. ليس لكِ مكان هنا. فإنْ عدتِ، سلّمتكِ بنفسي.

استلقتْ إيزابيل ببطء. الألمُ من تلك الذكرى كان أشدّ من إصابتها. كانت ڤيان على حقٍّ هذه المرّة في طردها لإيزابيل؛ فكيف تجرؤ على إخفاء الطيّار في حظيرة أختها، في حين يقيم نقيبٌ ألمانيٌّ في بيتها؟ لا عجبَ أنّ الناس لا يثقون بها. «منذ متى وأنا هنا؟».

– أربعة أيّام. تحسّن جُرحك كثيراً. أحسنتْ أختك في خياطته. والحمّى غادرتكِ البارحة.

– و...ڤيان؟ ليست بخير طبعاً. كيف هي؟

– فعلنا ما في وسعنا لحمايتها، لكنّها رفضت الاختباء. لذلك عمل هنري وديديه على دفن الجثّتين، وتنظيف الحظيرة، وتفكيك الدرّاجة إلى قطع.

– سوف يستجوبونها. وقتْلُها لذلك الرجُل سيظلّ يلاحقها. ليس سهلاً عليها تحمّل الكراهية.

– سيسهُل قبل أن تنتهي هذه الحرب.

أحسّت إيزابيل بانقباض معدتها في خزيٍ وندم. «أتدري، إنّني أحبّها، أو أريد أن أحبّها. لا أعرف كيف أنسى ذلك فور أن أتشاجر معها».

- وهي قالت شيئاً شبيهاً جدّاً بذلك عند الحدود.

تحرّكت إيزابيل كي تنقلب، فشهقتْ من الألم في كتفها. أخذتْ نفَساً عميقاً، واستجمعتْ قواها، وتحرّكتْ ببطءٍ على جنبها. لم تكن تدركْ أنّه قريبٌ هكذا منها، وأنّ الفراش صغيرٌ هكذا. كانا مستلقيَين كعشيقَين. هي على جنبها تنظر إليه، وهو على ظهره يحدّق في السقف. «ڤيان ذهبت إلى الحدود؟».

- «وضعناكِ في تابوتٍ على ظهر العربة. فأرادت أن تتأكّد من عبورنا بسلام». وسمعتْ ابتسامةً في صوته، أو تخيّلت ذلك: «هدّدتْ بقتلي إن لم أعتنِ بكِ جيّداً».

قالت غير مصدّقة: «أختي قالت ذلك؟». لكنّها لم تكن لتصدّق أيضاً أنّ غيتون من ذلك النوع الذي قد يكذب كي يصلح بين أختَين. كانت ملامحه من الجانب حادّة كالموسى، حتّى في ضوء المصباح. لم يكن ينظر إليها، وكان أقرب ما يكون إلى حافّة الفراش.

- كانت تخشى أن تموتي. كلانا كان خائفاً.

قالها بصوتٍ خفيضٍ جدّاً، بالكاد سمعتْه. فقالت بحذرٍ، خشية أن تسيء اختيار كلامها: «هذا يذكّرني بالأيّام الخوالي». لكنّها كانت تخشى أكثر من ألّا تقول شيئاً. فمن يدري كم فرصةً سوف تُتاح لها في هذه الأيّام المضطربة: «حين كنّا أنت وأنا وحدنا في الظلام. هل تذكر؟».

- أذكر.

- أشعر كما لو أنّ أحداث تور كانت قبل دهر. كنتُ مجرّد فتاةٍ حينها.

لم يقل شيئاً.

- انظر إليّ يا غيتون.

- نامي يا إيزابيل.

- أنتَ تعرفُ أنّي سأظلّ أطلب إلى أن تستسلم.

فتنهّد وانقلب على جنبه.

قالت: «أفكّرُ فيك».

- لا تفكّري.

- لقد قبّلتَني. لم يكن حُلماً.

- لا يمكن أن تتذكّري ذلك.

فشعرتْ إيزابيل بشيءٍ غريبٍ في كلامه، ورعشةٍ خفيفةٍ خاليةٍ من الأنفاس في صدره. «أنتَ تريدني بقدر ما أريدك».

هزّ رأسه في إنكار، لكنّها لم تسمع سوى الصمت. تسارعت أنفاسه.

- أنت تعتقد أنّي صغيرةٌ جدّاً، وبريئةٌ جدّاً، ومتهوّرةٌ جدّاً. كلّ شيءٍ فيّ زائدٌ عن الحدّ. أتفهّم ذلك. لطالما قال الناس ذلك عنّي؛ أنّي غير ناضجة.

- ليس هذا.

- «لكنّك مخطئ. لعلّك لم تكن مخطئاً قبل سنتَين. نعم، قلتُ أحبّك، وربما بدا ذلك جنوناً». سحبتْ نفَساً، ثمّ تابعت: «لكنّه ليس جنوناً الآن يا غيتون. لعلّه الشيء الوحيد العاقل في كلّ هذا. الحبّ أقصد. لقد رأينا عمارات تُدكّ أمام أعيننا، وأصدقاءَ لنا يُعتقلون ويُرحّلون. يعلم الله إنْ كنّا سنراهم مرّةً أُخرى. قد أموت يا غيتون». وبهدوء أضافت: «لا أقول هذا بطريقة تلميذةٍ تحاول أن تستجدي قبلةً من فتى. إنّها الحقيقة وأنت تعرف ذلك. قد يموت أيٌّ منّا غداً. وتعرف ما سوف أندم عليه؟».

- ماذا؟

- نحن.

- لا يمكن أن يكون هناك نحن يا إز. ليس الآن. هذا ما ظللتُ أحاول أن أخبركِ به منذ البداية.

- إنْ وعدتُك ألّا أفتح الموضوع ثانية، هل تجيب عن سؤالٍ واحدٍ بصدق؟

- سؤال واحد؟

- واحد. بعدها سأنام. أعدك.

أومأ موافقاً.

- لو لم نكن هنا، مختبئَين في بيتٍ آمن. لو لم يكن العالم يتمزّق هكذا، لو كان يوماً عادياً في عالمٍ عاديّ، أكنتَ تريد أن يكون هناك نحن يا غيتون؟

لحظتْ تغضّن وجهه، وانكشاف الحبّ عبر الألم.

- لم يعد الأمر يشكّل فرقاً، ألا تدركين ذلك؟

- «إنّه الشيء الوحيد الذي يشكّل فرقاً يا غيتون». لقد رأتْ الحبّ في عينَيه، فما عاد مهمّاً أيُّ كلام بعد ذلك.

غدت إيزابيل الآن أكثر حكمةً، وأدركتْ هشاشة الحياة والحبّ. لعلّها ستحبّه هذا اليوم فقط، أو الأسبوع القادم فقط، أو ربّما إلى أن تشيخ وتصبح امرأةً عجوزاً. ربّما يصبح حبّ حياتها...، أو حبّها في زمن الحرب...، أو ربّما مجرّد حبّها الأوّل. كلّ ما كانت تعرفه حقاً هو أنّها في هذا العالم المخيف صادفتْ شيئاً جاء على غفلةٍ منها.

ولن تتخلّى عنه مرّةً أخرى.

قالت لنفسها، وهي تبتسم: «كنتُ أعلم». كانت أنفاسه تمسح شفتَيها،

في حميميّةٍ لا تقلّ عن القبلة. مالت إليه، تحدّق فيه، في ثباتٍ، وصدق، ثمّ أطفأت المصباح.

رصّت نفسها به في الظلام تحت اللّحاف. كان في البدء متيبّساً، كما لو أنّه خائفٌ من لمسها، لكنّه بعد ذلك استرخى. انقلب على ظهره، وراح يشخر. في بعض الأحيان (لم تكن تعرف متى)، كانت تغمض عينَيها وتمدّ يدها، تضعها على فجوة بطنه، فتحسّ بها تصعد وتهبط مع أنفاسه. كأنّها تضع يدها في البحر صيفاً، في لحظةِ المدّ.

ثمّ نامتْ على ملامسته.

*

لم تكن تبارحها الكوابيس. وفي مكانٍ بعيدٍ من دماغها كانت تسمع تأوّهاتها، وتسمع صوفي تقول: «مامُن، أنتِ تسحبين البطّانيّات كلّها». لكنّ شيئاً لم يوقظها. رأت في كابوسها أنّها تجلس على كرسيّ، تُستجوب. ڤون رختر يقول، وهو يدفع بمسدّسه في وجهها: الطفل، دانييل. إنّه يهودي. أعطيني إيّاه... ثمّ تغيّر وجهه، ذاب قليلاً، وتحوّل إلى وجه بيك الذي كان يحمل صورةً لزوجته، وهو يهزّ رأسه، لكنّ جانب وجهه كان مفقوداً... ثمّ رأتْ إيزابيل مطروحةً على الأرض، تنزف وتقول: «أنا آسفة يا ڤيان». وهذه تصيح فيها: «ليس لكِ مكان هنا...».

استيقظت ڤيان جافلةً، تتسارع أنفاسها. منذ ستّة أيّامٍ تجتاحها الكوابيس نفسها. ظلّتْ هكذا تستيقظ، وهي تشعر بالإنهاك والقلق. كان شهر تشرين الثاني/ نوفمبر قد حلّ، ولا خبر عن إيزابيل على الإطلاق. انسلّت من تحت البطّانيّات. الأرضيةُ باردةٌ، لكنّها ليست باردةً كما ستصبح في غضون أسابيع قليلة. تناولت الوشاح الذي تركتْه عند طرف السرير، ولفّتْه على كتفَيها.

كان ڤون رختر قد استولى على الغرفة العلويّة، فتركت له ڤيان الطابق كلّه وانتقلت مع الطفلَين إلى الغرفة السفليّة الأصغر، فكانوا ينامون جميعاً على السرير المزدوج.

غرفة بيك. لا عجب أنّها تحلم به هنا. كانت رائحتُه عالقةً في الهواء، تذكّرها بأنّ ذلك الرجُل الذي عرفتْه لم يعد حيّاً، أنّها قتلتْه. كانت تودّ أن تكفّر عن خطيئتها، ولكنْ ما عساها تفعل؟ لقد قتلتْ رجُلاً، رجُلاً محترماً على الرغم من كلّ شيء. ليس مهمّاً بالنسبة إليها أن يكون عدوّاً، أو أنّها فعلتْ ما فعلتْه كي تنقذ أختها. كانت تدرك أنّها اتّخذت الخيار الصحيح، غير أنّ الصواب والخطأ لم يكن هو الذي يطارد تفكيرها، إنّما الفعل نفسه؛ القتل.

غادرت الغرفة، فأغلقتْ الباب بهدوءٍ شديد خلفها.

كان ڤون رختر يجلس على الأريكة، يقرأ في رواية، ويشرب كوباً من القهوة الحقيقيّة. تلك الرائحةُ تصيبها بالغثيان من فرط شوقها إليها. مضت ستّة أيّامٍ منذ انتقال هذا النازيّ إلى بيتها، في كلّ صباحٍ تشمّ القهوةَ الطازجة المحمّصة. يحرص ڤون رختر على أن تشمّها، وترغب فيها، لكنّه لا يسمح لها حتّى برشفة. كان حريصاً على ذلك أيضاً، بل إنّه في صباح أمس سكب إبريقاً كاملاً في الحوض، وهو يبتسم لها.

كان رجُلاً وصل بمحض المصادفة إلى شيءٍ من السُّلطة، فتمسّك بها بكلتا يدَيه. أدركتْ ذلك منذ الساعات الأولى لوصوله، حين اختار الغرفة الأفضل، وجمع أثقلَ البطّانيات لسريره، وأخذ كلّ الوسائد المتبقية في البيت، وكلّ الشموع، تاركاً لڤيان مصباحاً زيتيّاً واحداً.

قالت، وهي تسوّي فستانها الفضفاض وسترتها المهترئة: «هير شتومبانفوهرر».

لم يرفع عينَيه عن الجريدة الألمانيّة التي كان يقرأها باهتمام. «مزيداً من القهوة».

حملتْ كوبه الفارغ إلى المطبخ، وعادت بكوبٍ جديد بسرعة.

قال، وهو يأخذ الكوب ويضعه على الطاولة إلى جانبه: «الحلفاء يضيّعون وقتهم في شمال إفريقيا».

- وِي، هير شتومبانفوهرر.

تلوّت يدُه والتفّت حول خصرها بقوّةٍ مؤلمة. «سيزورني رجالٌ للعشاء اليوم. وستطبخين. وأبعدي ذلك الولد عنّي. صوتُه، وهو يبكي كخنزيرٍ يُحتضر».

ثمّ تركها.

- وِي، هير شتومبانفوهرر.

ابتعدتْ بسرعةٍ عن طريقه، وهرعت إلى الغرفة فأغلقت الباب خلفها. مالت على دانييل توقظه، وهي تحسّ بأنفاسه الخفيفة على رقبتها.

تمتم من خلف إبهامه الذي كان يمصّه بقوّة: «مامُن. صوفي تشخر بقوّة».

ابتسمت ڤيان، وشدّتْ شعر صوفي. من المدهش أن تستطيع فتاةٌ في عمرها النوم على الرغم من كلّ ما يحدث في زمن الحرب، والرعب، والجوع. داعبتْها ڤيان: «صوتكِ كجاموس الماء يا صوفي».

فتمتمتْ، وهي تنهض: «ظريفٌ جداً». ثمّ نظرتْ إلى الباب المغلق وقالت: «هل هير خنفساء البطاطس ما يزال هنا؟».

- «صوفي!». هكذا أنّبتْها، وهي تنظر إلى الباب.

- لا يمكنه أن يسمعنا.

- «لا يهمّ. لا أفهم لماذا تشبّهين ضيفنا بحشرةٍ تأكل البطاطس». وحاولتْ ألّا تبتسم.

احتضن دانييل ڤيان وأعطاها قبلةً ممزوجةً بلعابه.

أخذتْ تربّت على ظهره، وهي تحضنه، وتتلمّس خدّه الناعم، ثمّ سمعتْ محرّك سيّارة.

الحمد لله.

تمتمتْ للصبيّ، وهي تداعب خدّه: «ها هو يغادر. هيّا يا صوفي». حملتْ دانييل إلى الصالة التي ما تزال رائحتُها مزيجاً من القهوة المحمّصة الطازجة والكولونيا الرجاليّة، وبدأتْ يومها.

*

لا تذكرُ إيزابيل يوماً لم يصفها الناس فيه بأنّها مندفعة. بعد ذلك وصفوها بالرعونة، ومؤخّراً بالتهوّر. على أنّها في العام الماضي كبُرت بما يكفي لترى حقيقة ذلك كلّه. فحين تستحضر أولى ذكرياتها تجد أنّها كانت تتصرّف أوّلاً، ثمّ تفكّر في العواقب بعد ذلك. لعلّ السبب في ذلك أنّها كانت تشعر بالوحدة فترةً طويلة. فلم تكن لها قطّ صديقةٌ مقرّبةٌ، أو شخصٌ تستشعر من ردود فعله صحّة قراراتها. لم يكن لديها أحدٌ تخطط معه، أو تحلّ مشكلاتها معه.

وفوق ذلك، لم تكن لإيزابيل قطّ سيطرةٌ كبيرةٌ على اندفاعاتها. ربّما لأنّها لم يكن لديها قطّ ما تخسره.

أمّا الآن، فقد أدركتْ ما يعنيه أن يكون المرء خائفاً، أو أن يريد شيئاً (أو شخصاً) بقوّةٍ، إلى حدّ الشعور بوخزٍ في القلب.

كانت إيزابيل السابقة ستقول لغيتون في هذا الموقف: إنّها تحبّه، وتترك الأوراق تتداعى كما تشاء.

أمّا إيزابيل الجديدة، فأرادت أن تبتعد بدون أدنى محاولة. لم تكن واثقةً من أنّ لديها من القوّة ما يكفي لاحتمال الرفض مرّةً أُخرى.

ومع ذلك.

كان هذا زمنَ الحرب، والوقتُ هو الرفاهيّة الوحيدة التي لم يعد أحد يملكها. فالغدُ أضحى زائلاً، مثل قُبلةٍ في الظلام.

وقفتْ في الدولاب ذي السقف المائل الذي يستخدمونه دورةَ مياه في البيت الآمن. كان غيتون قد حمل دلاء الماء الساخن كي تستحمّ، فجلستْ ترتعُ في الحوض النحاسيّ إلى أن برد الماء. نظرتْ في المرآة على الجدار. كانت مشقوقةً، مائلةً، فصار انعكاس صورتها متفرّقاً، ينخفضُ جانبٌ من وجهها قليلاً عن الجانب الآخر.

قالت لصورتها: «كيف لكِ أن تخافي؟». كانت قد عبرت جبال البيرينيه تحت الثلج المتساقط، وسبحتْ في مياه نهر بيداسوا الباردة المندفعة، تحت أضواء الكشّافات الإسبانيّة، بل إنّها ذات مرّةٍ طلبت من عميل غستابو أن يحمل حقيبةً مملوءةً بالهُويّات المزوّرة ويعبر بها من نقطة تفتيشٍ ألمانيّة. «لأنّه بدا قويّاً جدّاً، وكانت هي منهكةً من طول السفر». لكنّها لم تكن متوتّرةً كما هي الآن. لقد أدركت فجأةً أنّ المرأة يمكن أن تغيّر حياتها، وتجتثّ وجودها كلّه باختيارٍ واحد.

أخذتْ نفَساً عميقاً، ولفّتْ نفسها بمنشفةٍ رثّةٍ، ثمّ عادت إلى الغرفة الرئيسة في البيت الآمن. توقّفتْ عند الباب لحظاتٍ، كي تهدّئ نبضها المتسارع (في محاولةٍ مخفقة)، ثمّ فتحتْ الباب.

كان غيتون واقفاً عند النافذة المعتّمة، بملابسه الممزّقة المهترئة، التي ما تزال تحمل آثار دمها. ابتسمتْ بتوتّرٍ ومدّت يدها إلى طرف المنشفة التي لفّتْها حول صدرها.

وقفَ ساكناً حتّى بدا أنّ أنفاسه انقطعت، على الرغم من تسارع أنفاسها. ضاقتْ عيناه وقال: «لا تفعلي ذلك يا إز». كانت ستقول فيما مضى: إنّ ذلك من أثر الغضب، لكنّها الآن كانت تدرك الحقيقة.

حلّتْ المنشفة وتركتْها تسقط على الأرض. لم تكن ترتدي شيئاً سوى الضمّادة حول جرحها.

- ما الذي تريدينه منّي؟

- أنت تعرف.

- أنتِ فتاةٌ بريئة. وهذه حرب. وأنا مجرم. كم سبباً تريدين حتّى تبتعدي عنّي؟

لعلّ تلك الحُجج تفيد في عالمٍ آخر. قالت، وهي تتقدّم خطوة: «لو كان الزمنُ غير الزمن، لجعلتُكَ تطاردني. لأذقتكَ المرّ حتى تراني عارية. ولكنْ ليس لدينا وقت».

فلمّا اعترفت بذلك شعرتْ بموجةٍ من الحزن. كانت هذه هي الحقيقة بينهما منذ البداية؛ لا وقت لديهما. لم يكن ثمّة وقتٌ للتودّد، والمغازلة، والحبّ، والزواج، والإنجاب. ربّما لا يكون لهما غدٌ حتّى. كَرهتْ إيزابيل أن تكون تجربتها الأولى مغموسةً في الحزن، منقوعةً في حسٍّ من فقدان شيءٍ وجداه لتوّهما، ولكنْ هكذا كان العالم الآن.

ثمّة شيء واحد كانت واثقةً منه، وهو أنّها تريده أن يكون أوّل رجُلٍ في

فراشها. كانت تريد أن تتذكّر الأمر إلى الأبد. «لطالما قالت الراهبات: إنّ المطاف سينتهي بي نهايةً سيّئة. ولا أظنّهنّ يقصدن سواك».

اقترب منها، واحتوى وجهها بيدَيه. «أنتِ تخيفينني يا إيزابيل».

- «قبّلني». هذا كلّ ما قالتْه.

ومع أوّل لمسةٍ من شفتَيه، تغيّر كلُّ شيء، أو تغيّرت إيزابيل. سرت فيها رعشةٌ من الرغبة، فأوقفتْ أنفاسها. شعرت بأنّها تضيع بين ذراعيه، وتجد نفسها، وتنكسر، ويُعاد تشكيلها. كانت كلمة «أحبّك» تحترق في داخلها، تتحرّقُ إلى أن تُمنح صوتاً. لكنّها كانت تريد أكثر من ذلك أن تسمعها، أن يُقال لها، لمرّةٍ واحدةٍ فقط: إنّها تُحَبّ.

- ستندمين على هذا.

كيف له أن يقول ذلك؟ «أبداً. هل ستندم أنت؟».

فقال بهدوء: «أنا نادمٌ من الآن أصلاً». وقبّلها مرّةً أُخرى.

الفصل التاسع والعشرون

كان الأسبوع التالي نعيماً لا يكاد يُحتمل بالنسبة إلى إيزابيل. كثيرٌ من المحادثات الطويلة على ضوء الشموع، واللمسات الحانية، والنهوض ليلاً على رغبةٍ مشتعلةٍ، فمطارحةُ الهوى، والعودة إلى النوم من جديد.

في هذا اليوم، كما في الأيّام الأُخرى، استيقظت إيزابيل، وهي ما تزال مُتعبةً، متألّمةً بعض الشيء. بدأ الجرح في كتفها يندمل، مع حكّةٍ وألمٍ قليل. أحسّتْ بغيتون إلى جانبها، بجسده الدافئ الصلب. كانت تعرف أنّه مستيقظ. ربّما من أنفاسه، أو الطريقة التي يفرك بها قدمه في قدمها بدون إنتباه، أو من الهدوء نفسه. لكنّها كانت تعرف. فقد أصبحت دارسةً دقيقةً لكلّ ما يتعلق به في الأيّام الفائتة. لا شيء ممّا يفعله يُفلت من ملاحظتها مهما كان صغيراً، أو تافهاً. كانت تقول في نفسها مرّةً بعد مرّةٍ على أصغر التفاصيل: تذكّري هذا!

كانت قد قرأتْ عدداً هائلاً من الروايات الرومنسيّة في حياتها، وطالما حلمت بالحب. لكنّها لم تكن تعرف أنّ فراشاً قديماً يمكن أن يصبح عالماً في حدّ ذاته، واحةً. انقلبتْ على جانبها، ومدّت يدها فوق غيتون لتشعل

المصباح، ثمّ استقرّت ملتصقةً به تحت ضوء المصباح الشاحب، تسدل ذراعها على صدره. ثمّة ندبةٌ فضّيةٌ صغيرةٌ على منبت شعره الأشعث. مدّت يدها، ومرّرت طرف إصبعها عليها.

- «أخي رماني بصخرةٍ، ولم أتحرّك بما يكفي من السرعة لتفاديها». ثمّ قال بشوق: «جورج». من نبرة صوته تذكّرت إيزابيل أنّ لغيتون أخاً أسيراً.

كانت لديه حياةٌ كاملةٌ تكاد لا تعلم شيئاً عنها. أمٌّ تعمل خيّاطةً، وأبٌ يربّي الخنازير...يعيشون في مكانٍ ما من الغابة، في بيتٍ لا ماء فيه، من غرفةٍ واحدةٍ فقط لهم جميعاً. كان يجيب عن جميع أسئلتها، لكنّه لا يتطوّع بشيءٍ من تلقاء نفسه. قال: إنّه يفضّل سماع مغامراتها التي تسبّبت في طردها من مدارس كثيرة. قال: ذلك أفضل من قصص الفقراء الذين يصارعون من أجل العيش.

غير أنّ القصص كانت تروح وتغدو بينهما، وشعرتْ بوقتهما يتآكل. لم يكن بمقدورهما أن يمكثا طويلاً هنا، بل إنّهما مكثا في البيت الآمن أكثر ممّا يجب. ها هي قد أصبحت قادرةً على السفر. ربّما لا تستطيع عبور البيرينيه، لكنّها بالتأكيد لم تكن في حاجةٍ إلى البقاء في السرير.

كيف لها أن تتركه؟ قد لا تراه مرّةً أُخرى.

كان هذا جوهر خوفها.

قال غيتون: «أفهم ما يدور في بالك».

لم تعرف ما يقصده، لكنّها سمعتْ الفراغ الكامن في صوته، ولم يكن مبشّراً بالخير. هكذا تمدّد الحزن (المساوي للفرح) الذي انبعث من مشاركته الفراش.

- «فهمتَ ماذا؟». سألتْه، لكنّها في الحقيقة لم تكن تريد أن تسمع.

- أنّنا في كلّ مرّةٍ نتبادل فيها القُبل، فهو الوداع.

أغمضتْ عينَيها.

- الحربُ ما زالت دائرةً يا إز. وينبغي أن أعود إليها.

كانت تعرف ذلك وتسلّم به، على الرغم ممّا يسبّبه من انقباضٍ في صدرها. قالت: «أعرف». وهي خائفةٌ من طرح أسئلةٍ أكثر قد تسبّب لها ألماً لا تستطيع احتماله.

قالت: «هناك أشخاصٌ سيجتمعون في أورونيا. وينبغي لي أن أكون هناك بحلول اللّيل يوم الأربعاء، إن كنّا محظوظَين».

- نحن لسنا محظوظَين. يُفترض أن تكوني قد أدركتِ ذلك.

- «غير صحيح يا غيتون. الآن وقد قابلتَني، فلن تستطيع أن تنساني أبداً. وهذا في حدّ ذاته شيءٌ مهمّ». ثمّ مالت إليه تقبّله.

قال شيئاً بصوتٍ خفيضٍ للغاية، على شفتَيها. لعلّه قال: «ليس كافياً». لكنّها لم تهتم. لم تكن تريد أن تسمع.

*

في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، بدأ أهل كاريڤو في العودة إلى وضع التجاة من الشتاء مرّةً أُخرى. كانوا الآن يعرفون ما لم يكونوا يعرفونه في الشتاء الماضي؛ وهو أنّ الحياة يمكن أن تسوء أكثر. كانت الحرب دائرةً في شتّى بقاع الأرض: في إفريقيا، والاتّحاد السوفييتي، واليابان، وجزيرةٍ تُسمى غوادالكانال؛ وإذْ أصبح الألمان يقاتلون في جبهاتٍ عديدةٍ، فقد ازداد شُحّ الطعام، شأنه شأن الخشب، والغاز، والكهرباء، والضرورات اليوميّة.

كان صباح الجمعة هذا تحديداً بارداً ملبّداً بالغيوم. لم يكن يوماً جيّداً

للخروج، لكنّ ڤيان كانت قد قرّرت أنّ اليوم هو اليوم الموعود. ظلّت مدّةً تستجمع شجاعتها كي تخرج من البيت مع دانييل، لكنّها كانت تعرف أنّه أمرٌ لا بدّ منه. قصّتْ شعره حتى كاد يصبح أصلع، وألبسته ملابس طويلةً كي يبدو أصغر من سنّه. فعلت كلّ شيءٍ وأيّ شيءٍ لإخفائه.

أجبرتْ نفسها على الوقوف جيّداً، وهي تمشي في البلدة، تمسك بطفلٍ في كلّ يد: صوفي ودانييل.

دانييل.

فلمّا وصلوا إلى البو لانجيري اتّخذت مكانها في نهاية الطابور. ظلّت تنتظر بلهفٍ أن يسأل أحد عن الصبيّ، لكنّ النساء لم يرفعن أعينهنّ للنظر من فرط التعب، والجوع، والإذلال. حين جاء دور ڤيان أخيراً، نظرت إيڤيت إليها. كانت قبل عامَين فقط امرأةً جميلةً. شعرُها نحاسيٌّ منسابٌ، وعيناها سوداوان كالفحم؛ أمّا الآن، وبعد مرور ثلاثة أعوامٍ في الحرب فقد شاخت وتعبت. «ڤيان مورياك، لم أركِ مع ابنتكِ منذ مدّة. بونجور صوفي، أصبحتِ طويلة جداً». ثم مدّت نظرها: «ومن هذا البطل الوسيم؟».

فقال باعتزاز: «دانييل».

وضعتْ ڤيان يداً مرتعشةً على رأسه الحليق. «تبنّيته من ابن عمّة أنطوان في نيس. لقد...تُوفيّت».

أزالت إيڤيت شعرها المجعّد عن عينَيها، وسحبتْ خصلةً منه في فمها، وهي تحدّق في الطفل. كان لديها ثلاثة أبناء، أحدهم أكبر من دانييل بقليل.

دقّ قلبُ ڤيان بقوّةٍ في صدرها.

تراجعت إيڤيت عن المنضدة، واتجهت صوب الباب الصغير الذي يفصل بين المحلّ والمخبز. «هير ملازم. هلّا أتيتَ هنا قليلاً؟».

شدّتْ ڤيان على مقبض سلّتها، وصارت تنقر عليه كما لو أنّه مفاتيح بيانو.

ظهر ألمانيٌّ بدينٌ يخبّ من الغرفة الخلفيّة، يحمل بين ذراعيَه أرغفة خبزٍ فرنسيّ طازج. رأى ڤيان وتوقّف، وخدّاه التفّاحيّان ينتفخان مع امتلاء فمه. «مدام».

بالكاد استطاعت ڤيان أن تومئ برأسها.

فقالت إيڤيت له: «لم يعد هناك المزيد من الخبز اليوم هير ملازم. لو صنعتُ المزيد سأحتفظ لك ولرجالك بأفضلها. هذه المرأة المسكينة لم تستطع أن تحصل حتّى على خبزة بائتة».

ضاقت عيناه في امتنان، ثمّ تحرّك نحو ڤيان، وقدماه المسطّحتان تدقّان الأرض الحجريّة. أسقط خبزةً نصف مأكولةٍ في سلّتها، بدون أن يقول شيئاً، ثمّ أومأ وغادر المحلّ، فرنّ جرسٌ صغيرٌ مع خروجه.

فلمّا خلا المكان اقتربتْ إيڤيت من ڤيان، اقتربت كثيراً، وهي تقاوم رغبتها في التراجع. «سمعتُ أنّ لديكِ ضابطاً من الشوتزستافل في بيتكِ الآن. ماذا حدث للنقيب الوسيم؟».

قالت ڤيان بهدوء: «اختفى. لا أحد يعرف».

- لا أحد؟ فلماذا استُدعيتِ للتحقيق إذن؟ الكلّ رآكِ حين أحضروكِ.

- لستُ إلّا ربّة بيت، فماذا عساني أعرف عن هذه الأمور؟

حدّقت إيڤيت فيها لحظةً أخرى، تتفحّصها في صمت، ثمّ تراجعت، وقالت بهدوء: «أنتِ صديقة رائعة يا ڤيان موررياك».

أومأتْ هذه، ثمّ قادت الطفلَين إلى الباب. لقد ولّت أيّام التوقّف

للحديث مع الأصدقاء في الشارع، وأصبح مجرّد النظر في الأعين خطراً. اختفت الحوارات بين الأصدقاء، كما اختفت الزبدة، والقهوة، ولحم الخنزير.

توقّفتْ ڤيان عند الدرجة الحجريّة المكسورة، والتي انبثقت منها حشائش متجمّدة. كانت ترتدي معطفاً شتويّاً صنعتْه من مفارش منجّدة. حاكت فيه تصميماً رأتْه في مجلّة. معطف طويل حتّى الركبة، ذو طيّةٍ واسعةٍ، بصفَّين من الأزرار التي أخذتها من أحد معاطف أمّها المفضّلة من ماركة «هاريس». كان الدفء كافياً لهذا اليوم، لكنّها عمّا قريب سوف تحتاج إلى طبقاتٍ من الجرائد بين سترتها والمعطف.

أعادتْ ڤيان ربط وشاحها حول رأسها، وعقدتْه بقوّةٍ تحت ذقنها حين ضربتْ الريحُ الثلجيّةُ وجهها. انزلقتْ أوراق الشجر فوق الممرّ الحجريّ، ثمّ تقلّبتْ فوق حذائها.

قبضتْ على يد دانييل المقفّزة، وخطتْ إلى الشارع، فأدركتْ على الفور أنّ هناك شيئاً غير عاديّ. جنودٌ ألمانٌ ورجال درَك فرنسيّون في كلّ مكان: في السيّارات، وعلى الدرّاجات الناريّة، ومشاةً على الشارع الجليدي، ومتحلّقين عند المقاهي.

أيّاً ما كان الأمر، فلا يمكن أن يكون خيراً. والأفضل دائماً الابتعاد عن الجنود، لا سيّما بعد انتصارات الحلفاء في شمال إفريقيا.

– صوفي، دانييل، تعالا. لنعد إلى البيت.

حاولتْ أن تنعطف يميناً عند الزاوية، لكنّها وجدتْ حاجزاً. كانت الأبواب والمصاريع مغلقةً على طول الشارع. ثمّة حسٌّ رهيبٌ بالخطر في الأجواء.

وجدتْ حاجزاً آخر في الشارع الذي يليه. جنديّان نازيّان يحرسانه، وكلّ منهما يحمل بندقيّةً يوجّهها صوبها. من خلفهما كان الجنود الألمان يمشون في الشارع مشية النازيّة العسكريّة.

أمسكت ڤيان يدَي الطفلَين وانطلقتْ بهما، لكنّها وجدت الشوارع مغلقة بالحواجز. من الواضح أنّ هنالك شيئاً يُدبّر. شاحنات وحافلات تدكّ الشوارع الحجريّة نحو ميدان البلدة.

فلمّا وصلت ڤيان إلى الميدان توقّفت لاهثةً تجرّ الطفلَين إلى جانبَيها.

ثمّة هرجٌ ومرج. حافلاتٌ مصفوفةٌ، تقذف الركّاب، وكلّهم من ذوي النجمة الصفراء. نساء وأطفال يُدفعون، يُساقون إلى الميدان. كان النازيّون يحيطون بالمكان، في دوريّةٍ مخيفة، فيما تسحب الشرطة الفرنسيّة الناس من الحافلات، وتخطف المجوهرات من أعناق النساء، وتدفعهنّ بتهديد السلاح.

صاح دَرَكيٌّ لشيخٍ غير بعيدٍ عن ڤيان: «أنت! قف!».

مال الرجُل ذو اللّحية الرماديّة بثقلٍ على عصاه، واستدار إلى الشرطيّ الذي كان يمشي بغضبٍ من أمام ڤيان.

أمسك الشرطيّ ببنطال الشيخ، فحاول هذا التشبّث ببنطاله، لكنّ الشرطيّ دفعه بقوّةٍ حتى وقع على نافذةٍ زجاجيّةٍ فانكسرت، ثمّ اختطف الشرطيّ بنطال الشيخ وسحبه إلى الأسفل، فانكشف قضيبُه المختون. عند ذلك، ضرب الشرطيُّ الشيخَ بكعب بندقيّته ضربةً طيّرتْه من مكانه.

صاحت صوفي: «مامُن!».

فسدّتْ ڤيان فم ابنتها بيدها.

إلى يسارها شابّةٌ تُدفع إلى الأرض، ثم تُحمل من شعرها وتُجرُّ عبر الحشود.

- ڤيان؟

التفتتْ بسرعة، فرأتْ هيلين رويل تحمل حقيبةً جلديّةً صغيرةً، وتمسك بيد صبيٍّ صغير. وثمّة صبيٌّ أكبر إلى جانبها. كانت النجمة الصفراء الرثّة واضحة عليهم.

فقالت هيلين باستماتة: «خذي ابنيَّ».

قالت ڤيان، وهي تتلفّت حولها: «هنا؟».

فاندفع الصبيّ الأكبر: «لا، مامُن. أوصاني پاپا أن أعتني بك. لن أتركك. لو تركتِ يدي سأتبعك. الأفضل أن نبقى معاً».

علتْ صافرةٌ من خلفهم.

فألقتْ هيلين بالولد الصغير نحو ڤيان، ودفعتْه بقوّةٍ إلى جانب دانييل. «اسمه جان جورج، مثل عمّه. سيُكمل عامه الرابع في حزيران/ يونيو. وأهل زوجي في برغونيه».

- لا أملك أوراقاً له... سوف يقتلونني لو أخذتُه.

صاح نازيٌّ في هيلين: «أنتِ!». جاء من خلفها، وجرّها من شعرها، فكاد يطيح بها. خبطتْ في ابنها الأكبر الذي جاهد كي يبقى منتصباً.

ثمّ غابت هيلين وولدها في الزحام. كان الصبيّ إلى جانبها ينتحب. «مامُن».

قالت ڤيان لصوفي: «علينا الذهاب. الآن». أمسكت بيد جان جورج بقوّةٍ، فبكى أكثر. وكلّما صاح: «مامُن» أغمضتْ عينَيها ودعت ربّها أن

يصمت. أسرعوا من شارعٍ إلى آخر، يتهرّبون من الحواجز، ويتجاوزون الجنود الذين يكسرون الأبواب، ويسوقون اليهود إلى الميدان. استوقفوهم مرّتَين، وسمحوا لهم بالعبور؛ لأنّ ملابسهم لم تكن تحوي نجمةً صفراء. اضطُرّتْ ڤيان إلى التباطؤ في الطريق الموحل، لكنّها لم تتوقّف حتى حين بدأ الصبيّان يبكيان.

ولم تقف ڤيان إلّا حين وصلت إلى لو جاردان.

كانت سيّارة ڤون رختر «الستروين» واقفةً هناك.

قالت صوفي: «أوه، لا».

نظرتْ ڤيان إلى ابنتها الخائفة، فرأتْ خوفها هي يتكرّر في تلكما العينَين الحبيبتَين، فأدركتْ على الفور ما ينبغي فعله. «علينا أن نحاول إنقاذه، وإلّا أصبحنا أشراراً مثلهم». هكذا حدث إذن. كانت تكره أن تقحم ابنتها في هذا الأمر، ولكنْ أيُّ خيارٍ تبقّى لها؟ «عليّ أن أنقذ هذا الصبيّ».

- كيف؟

- لا أعرف حتى الآن.

- لكنّ ڤون رختر—.

فظهر النازيّ عند الباب كأنّما استدعاه اسمُه، شديد الترتيب والدقّة في زيّه الرسمي. قال، ونظرتُه تضيق مع اقترابه: «أوه، مدام مورياك. أنتِ هنا».

حاولت ڤيان جاهدةً أن تبقى هادئة. «كنّا في البلدة نتسوّق».

- «ليس يوماً مناسباً للتسوّق. اليهودُ يُجمعون لترحيلهم». مشى ناحيتها، وحذاؤه يدكّ العشب المبتلّ. إلى جانبه شجرة التفّاح جرداء من الأوراق. قطعُ القماش ترفرف في الغصون العارية: الحمراء، والورديّة، والبيضاء. وواحدةٌ سوداء جديدة، من أجل بيك.

قال ڤون رختر، وهو يلمس بإصبعه المقفّز خدّ الصبيّ المخطّط بالدمع: «ومن هذا الصغير الوسيم؟».

– اب–ابنُ صديقتي. ماتت أمّه من السلّ هذا الأسبوع.

فتراجع ڤون رختر إلى الوراء، كأنّما ذكرتْ له الطاعون الدُّمّلي. «لا أريد هذا الطفل في البيت. مفهوم؟ خذيه على الفور إلى الميتم».

الميتم. الأم ماري تيريزا.

أومأتْ له. «حاضر، هير شتومبانفوهرر».

وأومأ بيده لها كأنّما يقول: اذهبي، الآن. وبدأ يبتعد، ثم توقّف، واستدار يواجه ڤيان: «أريدكِ أن تكوني في البيت هذا المساء من أجل العشاء».

– أنا دائماً في البيت هير شتومبانفوهرر.

– سنغادر غداً، وأريدكِ أن تعدّي لي ولرجالي وجبةً جيّدة قبل الذهاب.

سألتْه، وهي تشعر برَمَقٍ من أمل: «تغادرون؟».

– سنحتلّ بقيّة فرنسا غداً. لن تعود هناك منطقة حرّة. السماحُ لكم، أنتم الفرنسيّين، بحكم أنفسكم كان أضحوكة. طاب يومك، مدام.

لزمتْ ڤيان مكانها، ساكنةً، تمسك يد الصبيّ، ثمّ سمعتْ مع بكاء جان جورج صرير البوّابة؛ إذْ تُفتح ثمّ تُغلق، وبعدها صوت محرّك السيّارة.

فلمّا ذهب قالت صوفي: «هل ستخفيه الأم ماري تيريزا؟».

– أرجو ذلك. خذي دانييل إلى البيت واقفلي الباب. لا تفتحي لأحدٍ سواي. سأعود بأسرع ما يمكن.

فجأةً بدتْ صوفي أكبر من عمرها، وأكثر حكمةً من سنواتها. «أحسنتِ مامُن».

– «سنرى». كان هذا كلّ ما تبقّى لها من أمل.

حين دخل طفلاها المنزل وأغلقا الباب، قالت للصبيّ: «تعال يا جان جورج، سنمشي قليلاً».

- إلى مامْن؟

لم تقوَ على النظر إليه. «هيّا».

*

تساقط مطرٌ متقطّعٌ حين مشت ڤيان مع الصبيّ. كان جان جورج يبكي حيناً، ويتذمّر حيناً آخر، لكنّ ڤيان لفرط توتّرها لم تكد تسمعه.

كيف لها أن تطلب من الأمّ الرئيسة أن تقدم على هذه المخاطرة؟

وكيف لها ألّا تفعل؟

مشيا أمام الكنيسة إلى الدَير المخبوء خلفها. كانت جمعيّة أخوات القدّيس جوزيف قد تأسّست عام 1650م بستّ نساء يجمعهنّ شغفٌ واحدٌ، فقد أردنَ أن يخدمنَ الفقراء في المجتمع. ثمّ تنامت أعدادهنّ فأصبحن بالآلاف في فرنسا كلّها، إلى أن حظرتْ الدولةُ الجمعيّات الدينيّة إبان الثورة الفرنسيّة. وبعضٌ من الأخوات الستّ استُشهدن؛ إذْ أُعدمن بسبب معتقدهنّ.

سارت ڤيان إلى باب الدير، ورفعتْ مقرعته الحديديّة، ثمّ تركتْها تسقط على الباب الخشبيّ في قرقعةٍ قويّة.

قال جان جورج متبرّماً: «لماذا نحن هنا؟ هل مامْن هنا؟».

- اششش!

فتحتْ الباب راهبةٌ، بوجهها الدائريّ المحاط بالخمار الأبيض والقلنسوة السوداء في رداء الراهبات. قالت مبتسمة: «آه، ڤيان».

- أخت أغاثا، أودّ التحدّث إلى الأمّ الرئيسة إن أمكن.

تراجعت الراهبة، ورداؤها يحفحف على الأرض الحجريّة. «سأرى. هلا انتظرتما في الحديقة؟».

أومأتْ لها ڤيان. «ميرسي». سارت مع جان جورج عبر الأروقة الباردة، وعند نهاية ممرٍّ مُقنطَر، انعطفا يساراً نحو الحديقة. كانت فسيحةً إلى حدٍّ ما، مربّعة الشكل، وبها عشبٌ بنّي متجمّد، ونافورةٌ رخاميّةٌ على شكل رأس أسد، وعدّة مقاعد حجريّة هنا وهناك. اتّخذت ڤيان مقعداً بعيداً عن المطر، وسحبتْ الصبيّ إلى جانبها.

لم تنتظر طويلاً.

قالت الأم تيريزا، وهي تتقدّم، تجرّ رداءها فوق العشب، وأصابعها تحيط بصليب كبيرٍ يتدلّى من سلسلةٍ حول عنقها: «ڤيان. ما أسعدني برؤيتك. مضت فترةٌ طويلة. ومن هذا الصغير؟».

فنظر الصبيّ إليها: «هل مامُ هنا؟».

التقتْ تحديقة الأم الرئيسة بنظرةٍ من ڤيان. «اسمه جان جورج رويل. أودُّ الحديث معكِ على انفرادٍ بعد إذنك».

صفّقت بيدَيها فجاءت راهبةٌ شابّةٌ لتأخذ الصبيّ. فلمّا بقيتا وحدهما جلست الأم الرئيسة إلى جانب ڤيان.

غير أنّ ڤيان لم تستطع أن تستجمع أفكارها، فحلّ صمتٌ بينهما.

- يؤسفني ما حدث لصديقتك، راشيل.

- وكثيراتٍ غيرها.

أومأت الأم. «سمعنا شائعات مروّعة من إذاعة لندن عمّا يحدث في المعسكرات».

- لعلّ أبانا في السماوات—.

فقالت الأمّ بصوتٍ مثقلٍ بخيبة الأمل: «إنّه صامتٌ في هذا الأمر».

أخذتْ ڤيان نفَساً عميقاً. «رُحّلت هيلين رويل وابنها الأكبر اليوم. وجان جورج أصبح وحيداً. أمّه...تركته معي».

- «تركته معك؟». سكتت الأمّ قليلاً: «يا ڤيان، من الخطر الاحتفاظ بطفلٍ يهوديٍّ في بيتك».

فقالت بهدوء: «أريد أن أحميه».

فنظرتْ الأمّ إليها. طال صمتُها، حتّى بدأ الخوف يغرس جذوره في ڤيان، وينمو. ثمّ سألتْها في النهاية: «وكيف ستفعلين ذلك؟».

- أُخفيه.

- أين؟

نظرتْ ڤيان إلى الأمّ الرئيسة، بدون أن تنطق بكلمة.

فامتقع وجه الأمّ. «هنا؟».

- وهل هناك مكانٌ أفضل من الميتم؟

نهضتْ الأمّ الرئيسة، وجلست. ونهضتْ مرّةً أخرى، تحرّك يدَيها إلى الصليب، تمسك به. وفي بطءٍ، جلستْ مرّةً أخرى. سقط كتفاها، ثمّ استقاما حين اتّخذتْ قرارها. «الأطفال الذين نرعاهم لا بدّ من استخراج أوراقٍ لهم. شهادات تعميد..يمكنني تدبير هذه طبعاً؛ أمّا أوراق الهويّة...».

فقالت ڤيان: «أنا آتيكِ بها». على الرغم من أنّها لم تكن واثقةً من إمكانيّة ذلك.

- تعلمين يا ڤيان أنّه يحظُر إخفاء اليهود الآن. والعقاب هو الترحيل

إن كنتِ محظوظة. ولا أظنّ أن أحداً ما يزال محظوظاً في فرنسا في الفترة الأخيرة.

أومأت ڤيان.

- سآخذ الولد. و...يمكنني أن أتدبّر مكاناً لأكثر من طفلٍ يهودي واحد.

- أكثر؟

- هناك بالتأكيد أكثر يا ڤيان. سأتحدّث إلى رجُلٍ أعرفه في جيرو. يعمل في جمعيّة إنقاذ الأطفال. أتوقّع أنّه يعرف عدد الأسر والأطفال المختبئين. وسأخبره أن ينتظرك.

- أ-أنا؟

- «أنتِ قائدة هذا الأمر الآن، ولئن كنّا نخاطر بحيواتنا من أجل طفلٍ واحدٍ، فالأفضل أن نحاول إنقاذ المزيد». نهضتْ الأمّ الرئيسة بسرعة. شبكتْ ذراعها في ذراع ڤيان، وسارتا في الحديقة الصغيرة: «لا يعلمنّ أحدٌ هنا بالحقيقة. ينبغي تدريب الأطفال وتدبير أوراق هويّة لا تنكشف. وسوف تحتاجين إلى وظيفةٍ هنا..ربّما معلّمة، وي، معلّمة بدوام جزئي. هكذا نستطيع أن نصرف لكِ راتباً بسيطاً، ونجد سبباً لوجودك هنا مع الأطفال».

قالت ڤيان وهي تشعر برجفة: «وي».

- لا تخافي يا ڤيان. أنتِ على الطريق الصحيح.

لم تكن ڤيان تشكّ في هذا على الإطلاق، لكنّها مع ذلك كانت خائفة. «هذا ما فعلوه بنا. صرنا نخاف من ظلّنا». ثمّ نظرتْ إلى الأمّ الرئيسة:

«ولكن كيف أتصرّف؟ هل أذهب إلى النساء الخائفات الجائعات وأطلب منهنّ أن يسلّمنني أطفالهن؟».

- اسأليهنّ إن كنّ قد رأينَ صديقاتهنّ يُسَقن إلى القطارات ويُرحَّلن. اسأليهنّ عمّا هنّ مستعدّات للمخاطرة به لإبعاد أطفالهنّ عن ذلك المصير، ثمّ دعي كلّ أمٍّ تتّخذ قرارها.

- لكنّه خيارٌ صعبٌ جدّاً. لا أدري ما إذا كنتُ أنا أستطيع فعل ذلك، أن أسلّم صوفي ودانييل لامرأةٍ غريبة.

مالت الأمّ الرئيسة عليها. «سمعتُ أنّ واحداً من جنود العاصفة الكريهين يسكن في بيتك. وتُدركين أنّ هذا الأمر يضعك أنتِ وصوفي في خطرٍ شديد».

- طبعاً. ولكن كيف لي أن أربّيها على أنّه من المقبول ألّا نفعل شيئاً في أوقاتٍ كهذه؟

توقّفتْ الأمّ الرئيسة، وسحبتْ ذراعها، ثمّ وضعتْ راحتها الناعمة على خدّ ڤيان وابتسمت بلطف. «خذي حذرك يا ڤيان. لقد حضرتُ جنازة والدتك. ولا أريد أن أحضر جنازتك».

الفصل الثلاثون

في يومٍ قارس البرد من منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر، خرجت إيزابيل وغيتون من برانتوم، واستقلّا قطاراً إلى بايون. كانت العربة تفيض بجنودٍ ألمان متجهّمين (أكثر من المعتاد)، وحين ترجّلا وجدا مزيداً من الجنود يحتشدون في رصيف المحطّة.

أمسكتْ إيزابيل بيد غيتون، وهما يشقّان طريقهما عبر الجنود ببذلاتهم الخضر-الرماديّة. عاشقان في مقتبل العمر متّجهان إلى بلدة الشاطئ. سألتْه إيزابيل، وهما يمرّان من أمام ضابطَين من الشوتزستافل: «كانت مامُن تحبّ الذهاب إلى الشاطئ. هل ذكرتُ لك ذلك من قبل؟».

- أنتم أطفال الأغنياء ترون كلّ الأشياء الجميلة.

ابتسمتْ، ثمّ قالت له حين خرجا من المحطّة: «لم نكن أغنياء يا غيتون».

فقال: «لكنّكم لم تكونوا فقراء. أنا أعرف الفقراء». ثمّ سكتَ، وترك الجملة تختمر بينهما، وقال: «قد أصبح غنيّاً يوماً ما».

- «يوماً ما». قالها بتنهيدة، فأدركتْ ما كان يفكّر فيه. هو الأمر نفسه الذي يفكّران فيه دائماً. أترى ستكون هناك فرنسا في حياتنا؟ تباطأ غيتون.

ولحظتْ إيزابيل ما شدّ انتباهه.

قال لها: «تابعي المشي».

كان هناك حاجزٌ أمامهما في الشارع. جنودٌ في كلّ مكان، يحملون البنادق.

سألتْه إيزابيل: «ما الذي يحدث؟».

فقال: «لقد رأونا». شدّ قبضته على يدها، وسارا نحو الجنود الألمان.

كان هناك حارسٌ ضخم البنية مربّع الرأس يقف في طريقهما، وطلب الأوراق والتصاريح.

ناولتْه إيزابيل أوراق جولييت، فيما قدّم غيتون أوراقه المزوّرة، لكنّ الجنديّ كان مشغول البال بما يجري خلفه، فلم يكد ينظر إلى الوثائق حتّى أعادها.

رَسَمتْ إيزابيل ابتسامتها البريئة، وسألتْه: «ما الذي يجري اليوم؟».

فقال الجنديّ، وهو يلوّح لهما بالمرور: «لم تعد هناك منطقةٌ حرّة».

- لم تعد هناك منطقة حرّة؟ ولكن—.

فقال بغِلظة: «سنحتلّ فرنسا كلّها. لم تعد هناك حاجةٌ للتظاهر بأنّ حكومتكم، حكومة فيشي السخيفة تدير الأمور في أيّ مكان. هيّا اذهبا».

جرّها غيتون إلى الأمام عبر الجنود المتجمّعين.

ظلّا يمشيان ساعات، والشاحنات والسيّارات الألمانيّة تصدر أبواقها لهما في عجلةٍ للمرور.

لم يهربا من أنظار النازيّين إلّا حين وصلا إلى البلدة الساحلية، بلدة سان جان دولوز. وهناك سارا بمحاذاة السور البحريّ المنصوب عالياً فوق

الأمواج العاتية في المحيط الأطلسي. من تحتهما رملٌ أصفرُ قليلٌ يحفظ المسافة ما بين البرّ والمحيط الغاضب. من بعيد، ثمّة شبه جزيرة خضراء تتوزّع فيها منازل مبنيّة على طراز الباسكيّين، بجوانبها البِيض، وأبوابها الحُمر، وأسقفها المبنيّة من بلاطٍ أحمر فاتح؛ أمّا السماء من فوقهما، فكانت زرقاء شاحبة، وثمّة سحب تمتدّ مشدودةً كأنّها حبل غسيل. لم يكن هناك أشخاص آخرون اليوم، لا على الشاطئ، ولا قرب السور البحري.

ولأوّل مرّةٍ منذ ساعات تنفّستْ إيزابيل الصعداء. «ما الذي يعنيه أنّه لن تعود هناك منطقةٌ حرّة؟».

- ليس خيراً، بالتأكيد. سيزيد هذا من خطورة عملك.

- أنا أتنقّل بين المناطق المحتلّة أصلاً.

شدّت قبضتها على يده وقادتْه بعيداً عن السور البحري، ثمّ نزلا من سلالم غير متساوية، وسارا إلى الشارع.

قالت: «كنّا نقضي عطلاتنا هناك حين كنتُ طفلة. قبل وفاة مامُن. على الأقلّ هذا ما سمعته، فلا أكاد أذكر شيئاً».

كانت تريد أن تفتح حواراً معه، لكنّ صمتاً جديداً حلّ بينهما، بدون ردّ. في ذلك الهدوء شعرتْ إيزابيل بثقلٍ خانقٍ من الاشتياق له، على الرغم من أنّها كانت تمسك بيده. لماذا لم تسأله مزيداً من الأسئلة في الأيام التي قضياها معاً حتّى تعرف كلّ شيءٍ عنه؟ كلاهما يعرف الآن أنّه لم يعد لديهما وقت. هكذا سارا في صمتٍ ثقيل.

وفي أوائل المساء، أبصر غيتون لأوّل مرةٍ جبال البيرينيه تحت الضباب.

جبالٌ متعرّجةٌ مكسوّةٌ بالثلج تحت سماءٍ مكفهرّة، قممها الثلجيّة محاطة بالغيوم.

- ميرد. قلتِ لي كم مرّة عبرتِ هذه الجبال؟

- سبع وعشرون.



- أنتِ أعجوبة!

فقالت مبتسمة: «أجل».

هكذا استمرّا في الصعود عبر شوارع أورونيا المظلمة الفارغة، يصعدون في كلّ خطوة، يمرّون من أمام المحالّ المغلقة والحانات المترعة بكبار السنّ من الرجال. خلف البلدة ممرٌّ ترابيٌّ يقود إلى سفوح الجبال، فوصلا أخيراً إلى الكوخ في السفوح المظلمة، بمدخنته التي تنفث الدخان.

سألها، وقد لحظ أنّها بدأتْ تبطئ خطوتها: «أنتِ بخير؟».

فقالت بهدوء: «سأشتاق إليك. كم تستطيع البقاء هنا؟».

- لا بدّ من أن أغادر في الصباح.

أرادت أن تفلت يدها من يده، لكنّ الأمر لم يكن يسيراً. فقد تملّكها خوفٌ رهيبٌ لا أساس له بأنّها إن تركتْه فقد لا تلمسه مرّةً أُخرى، والفكرة في حدّ ذاتها كانت تشلّ أطرافها. بيد أنّ هناك عملاً في انتظارها. أفلتت يدها، وقرعت الباب ثلاث مرّات في تتابعٍ سريع.

فتحت المدام الباب. كانت ترتدي ملابس الرجال، وتدخّن سيجارة غولواز، فقالت: «جولييت! تعالَي، تعالي». تراجعت إلى الخلف مرحّبةً بإيزابيل وغيتون، فأدخلتهما إلى الغرفة الرئيسة حيث يقف أربعة طيّارين حول طاولة طعام. ثمّة نارٌ تحترق في الموقد، وفوق اللهب قِدرٌ حديديٌّ أسْود يقبق، ويهسهس، ويقرقع. شمّتْ إيزابيل رائحة اليخنة: لحم ماعز،

ونبيذ، ولحم مقدّد، وحساء ثخين، وفِطر، ومريميّة. كانت رائحةً فاتنة، ذكّرتْها بأنّها لم تأكل شيئاً طوال النهار.

جمعتْ المدام الرجال وعرّفتهم إليها. ثلاثة طيّارين من سلاح الطيران الملكي، وطيّار أميركي. كان الثلاثة قد وصلوا منذ أيام في انتظار الأميركي الذي وصل البارحة. وإدواردو سيقودهم عبر الجبال صباح الغد.

قال أحدهم، وهو يصافح إيزابيل بقوّةٍ كما لو أنّها مضخّة ماء: «يسعدني لقاؤك. لم يبالغ من أخبرونا عن جَمالكِ».

ثمّ بدؤوا جميعاً يتحدّثون في الوقت نفسه. تحرّك غيتون بسلاسةٍ وسطهم كما لو أنّه واحدٌ منهم. ووقفت إيزابيل إلى جانب مدام بابينو، وسلّمتْها مظروف المال الذي كان ينبغي توصيله قبل أسبوعين. «آسفة على التأخير».

- كان لديك عذر قوي. كيف حالك الآن؟

حرّكتْ إيزابيل كتفها، تتفحّصه. «أفضل. بعد أسبوعٍ سأكون جاهزةً للعبور مرّةً أُخرى».

ناولت المدام السيجارة لإيزابيل، فسحبتْ هذه نَفَساً طويلاً ونفثت الدخان، وهي تتفحّص الطيّارين الذين كانوا الآن تحت مسؤوليّتها. «كيف حالهم؟».

- هل ترين ذلك الطويل الرفيع، الذي له أنف كإمبراطورٍ رومانيّ؟

لم تستطع إيزابيل كبح ابتسامتها. «نعم».

- يزعم أنّه لورد، أو دوق، أو شيء كهذا. تقول سارة: إنّه مثيرٌ للمتاعب. ليس من الذين قد يطيعون أوامر فتاة.

سجّلتْ إيزابيل الملحوظة في عقلها. لم يكن هذا أمراً نادراً بالطبع، أن يرفض الطيّارون تلقّي الأوامر من النساء، لكنّ الأمر كان دائماً موضع تجربةٍ واختبار.

ثمّ ناولتْ إيزابيل رسالةً مكرمشة ملطّخة. «أعطاني أحدهم هذه الرسالة لك».

فتحتْها بسرعة، ومرّت على ما فيها. تعرّفتْ على خطّ هنري المرتبك:

ج- صديقتك أنهت عطلتها الألمانية، ولكنْ لديها ضيوف.
لا تزوريها. سوف نعتني بها.

ڤيان بخير إذن. أطلقوا سراحها بعد الاستجواب، لكنّ جنديّاً، أو جنوداً آخرين سكنوا في بيتها. كرمشتْ الورقة وألقت بها في النار. لم تدرِ ما إذا كان يجدر بها الشعور بالطمأنينة أم بالقلق. بحثتْ عيناها من تلقاء غريزتها عن غيتون الذي كان يراقبها، وهو يتحدّث إلى أحد الطيّارين.

- بالمناسبة، لحظتُ الطريقة التي تنظرين بها إليه.

- اللورد ذي الأنف الكبير؟

فأطلقتْ مدام بابينو ضحكةً عالية. «أنا عجوزٌ لكنّي لستُ عمياء. أعني الشاب الوسيم ذا العينَين الجائعتَين. هو أيضاً لا ينقّل عينَيه عنكِ».

- سيرحل صباح الغد.

- أوه!

استدارت إيزابيل إلى المرأة التي أصبحتْ صديقتها في العامَين الماضيَين. «أخاف أن أتركه يذهب، وهذا جنونٌ إن أخذنا في الاعتبار ما أقوم به من أعمالٍ خطرة».

كانت النظرة في عينَي المدام السوداوَين متفهّمةً، متعاطفة. «لو كنّا في الظروف العاديّة لقلتُ لكِ: احذري! لقلتُ لكِ: إنّه شابٌ صغيرٌ ويعمل في أمورٍ خطرة، والشباب الذين يعملون في الخطر متقلّبون». تنهّدت، ثمّ تابعت: «لكنّنا في هذه الأيّام نحذر من أشياء كثيرة جدّاً، فلماذا نضيف الحبّ إلى القائمة؟».

قالت إيزابيل بهدوء: «الحب».

– لكنّني سأقول شيئاً من واقع أمومتي وقلّة حيلتي: انكسار القلب يؤلمُ في زمن الحرب كما يؤلم في زمن السلم. أحسني وداعَه.

*

انتظرتْ إيزابيل أن يهدأ الكوخ، بمعنى الهدوء الذي قد يكون حين ينام رجالٌ على الأرض يشخرون ويتقلّبون. تحرّكت بحذرٍ، ومشت عبر الغرفة الرئيسة، وخرجتْ.

كانت النجوم تتلألأ، والسماء هائلةً في هذه الرقعة المظلمة. نورُ القمر يسقط على الماعز، فيحوّلها إلى نقاطٍ فضّيةٍ بِيض على جانب التلّ.

وقفتْ عند السور الخشبيّ، تحدّق. ولم يطل انتظارُها.

جاءها غيتون من خلفها، وطوّقها بذراعَيه. مالت إليه وقالت: «أشعر بالأمان في ذراعَيك».

لكنّه لم يردّ، فأدركت أنّ ثمة خطباً فيه. وقع قلبها، واستدارت قليلاً تنظر إليه. «ما الأمر؟».

– «إيزابيل». قالها على نحوٍ أخافها. فقالت في نفسها: «لا، لا تقل. أياً ما كان الأمر، لا تقله». في ذلك الصمت غدت كلّ الأصوات واضحةً: ثغاء الماعز، وقرع قلبها، وسقوط صخرةٍ في الجبل البعيد.

- تذكرين ذلك الاجتماع الذي كنّا ذاهبين إليه في كاريڤو، حين وجدتِ الطيّار؟

- «وِي؟». كانت قد درستْ ملامحه جيّداً في الأيّام القليلة الماضية وراقبت كل تفصيلةٍ من تعابير وجهه، فأدركتْ أنّ ما سوف يقوله الآن، أيّاً ما كان، لن يكون جيداً.

- سأترك مجموعة پول. سأقاتل...بطريقةٍ مختلفة.

- مختلفة؟ كيف؟

- «بالبنادق. والقنابل. بأيّ شيءٍ نستطيع الحصول عليه. سأنضمّ إلى مجموعةٍ من الفدائيّين الذي يعيشون في الغابة. ومهمّتي هي المتفجّرات». ابتسم، وأضاف: «وسرقة مكوّنات القنبلة».

فقالت لتغيظه: «لديك ماضٍ يساعدك في ذلك».

تلاشت ابتسامته. «لم أعد قادراً على الاكتفاء بإيصال الأوراق يا إز. أريد أن أفعل المزيد. و...أعتقد أنّي لن أراكِ فترةً».

أومأتْ له، لكنّها حتّى وهي تحرّك رأسها موافقةً، كانت تقول في نفسها: «كيف؟ كيف أمشي الآن وأتركه؟». فأدركتْ ما كان يخشاه منذ البداية.

نظر إليها نظرةً حميميّةً كالقبلة، رأتْ فيها انعكاس خوفها. قد لا يريان بعضهما مرّةً أُخرى، فقالت: «ضاجعني يا غيتون».

كما لو أنّها المرّة الأخيرة.

*

وقفتْ ڤيان عند فندق بيليڤو تحت المطر. نوافذ الفندق مضبّبة، لكنّها رأت عبر الضباب جمهرةً من الملابس الرماديّة-الخضر.

هيا يا ڤيان، لم يعد هناك مجال للتراجع.

سوّتْ كتفَيها، وفتحت الباب. رنّ جرسٌ فوقها، فتوقّف الرجال عمّا كانوا يفعلونه ونظروا إليها. أفرادٌ من الفيرماخت، والشوتزستافل، والغستابو. فشعرتْ كما لو أنّها حَمَلٌ يُساق إلى المسلخة.

في مكتب الاستقبال رفع هنري عينَيه، فلمّا رآها خرج من خلف المكتب وتوجّه إليها.

أخذها من ذراعها وهمس: «ابتسمي». حاولت أن تستجيب، ولم تدرِ ما إذا كانت قد نجحت.

قادها إلى المكتب، وهناك ترك ذراعها. قال شيئاً، وضحك كما لو أنّه يضحك على نكتة، وهو يعود إلى خلف مكتبه عند الهاتف الأسود وصندوق المحاسبة، ثمّ قال بصوتٍ عالٍ: «والدك، صحيح؟ غرفة لليلتَين؟».

أومأتْ في خَدَر.

قال أخيراً: «تفضّلي من هنا، أريكِ الغرفة المتوفّرة».

تبعتْه إلى ممرٍّ ضيّق. مرّا من طاولةٍ صغيرةٍ فوقها فواكه (لم يكن هذا الترف ممكناً إلّا للألمان)، وخزانة ماء فارغة. وعند نهاية الممرّ قادها عبر سلالم ضيّقة إلى غرفةٍ صغيرةٍ جدّاً، بها سريرٌ مفردٌ، ونافذةٌ مسدلة الستائر.

أغلق الباب خلفهما. «لا يجدر بكِ المجيء إلى هنا. أرسلتُ لك رسالةً تطمئنكِ على إيزابيل».

– «وِي، ميرسي». أخذتْ نفساً عميقاً، وقالت: «أحتاج إلى أوراق هويّة. أنت الوحيد الذي خطر ببالي أن يستطيع مساعدتي».

قطّب جبينه. «هذا طلبٌ خطِر يا مدام. لِمَن؟».

- لطفلٍ يهوديٍّ مختبئ.

- أين يختبئ؟

- لا أظنّك تريد أن تعرف، صحيح؟

- نعم، نعم. هل هو مكان آمن؟

هزّت كتفَيها، فكان جوابها واضحاً في ذلك الصمت. من عاد يعرفُ أيّ الأماكن آمنة؟

- سمعتُ أنّ الشتومبانفوهرر ڤون رختر يقيم معك. كان يسكن هنا قبل ذلك. رجُلٌ خطِرٌ، قاسٍ ومنتقم. لو أمسك بكِ—.

- ماذا نفعل إذن يا هنري؟ نقف ونتفرّج؟

- تذكّرينني بأختك.

- صدّقني لستُ شجاعة.

طال صمتُ هنري. ثمّ قال: «سأعمل على توفير الأوراق الفارغة لك. ولكنْ عليكِ أن تزوّريها بنفسك. أنا مشغولٌ جدّاً، ولا أستطيع إضافة هذا الأمر إلى أعبائي. تدرّبي بتمعّن أوراقك».

- «شكراً». سكتتْ، وهي تنظر إليه، تستذكر الورقة التي أوصلها إليها قبل شهور، والظنون التي افترضتْها ڤيان عن أختها آنذاك. الآن أدركتْ أنّ إيزابيل كانت تقوم بأعمالٍ خطرة منذ البداية. أعمالٍ مهمّة. لقد أخفت عن ڤيان هذا الأمر كي تحميها، على الرغم من أنّها بذلك كانت تظهر بمظهر الحمقاء. لقد اعتمدت إيزابيل على سوء ظنّ أختها بها.

كانت ڤيان تشعر بالخجل لأنّها صدّقت تلك الكذبة بسهولة. «لا تقل لإيزابيل شيئاً عن هذا. أريد أن أحميها».

أومأ لها هنري.

- أوروڤوار.

وفي طريقها للخروج سمعته يقول: «ستفتخر بك أختك». لكنّها لا أبطأتْ من خطوتها ولا ردّت. شقّت طريقها من أمام الجنود الألمان، تتجاهل تحرّشاتهم، فخرجتْ من الفندق باتّجاه البيت.

*

صارت فرنسا كلّها تحت الاحتلال الألمانيّ، لكنّ الأمر لم يشكّل فرقاً كبيراً في حياة ڤيان اليوميّة. ظلّت تقضي النهار كلّه في الطوابير. كانت مشكلتها الكبرى دانييل؛ فما زال يبدو من الحكمة أن تخفيه عن أعين أهل البلدة، على الرغم من أنّ أحداً لم يشكّك في كذبتها عن تبنّيه (وقد أخبرت كلّ من وجدته بتلك الكذبة، لكنّ الناس كانوا لفرط انشغالهم بمعيشتهم لا يأبهون، أو ربّما خمّنوا حقيقة الأمر وصفّقوا لها في سرّهم. من يدري).

تركتْ الطفلَين في المنزل، محجوبَين خلف أبوابٍ مغلقة. لكنّ هذا كان يعني أن تكون متوتّرة وعصبيّة طوال الوقت في البلدة. فلمّا حصلت على ما تبقّى من طعام، أعادت ربط وشاحها الصوفيّ حول رقبتها، وغادرت محلّ الجزارة.

سارت في مواجهة البرد في شارع فكتور هوغو، بائسةً مشتّتةً من أثر القلق، فلم تنتبه لحظةً إلى أنّ هنري كان يمشي إلى جانبها.

نظر حوله في الشارع، لكنّ المكان كان فارغاً تماماً بسبب البرد والريح. المصاريع تقرقع، والمظلّات تهتزّ، وطاولاتُ الحانات فارغة.

ناولها خبزةً فرنسيّة. «الحشوة غريبة. وصفةُ أمّي».

فهمتْ ما يرمي إليه. هناك أوراق في الداخل. فأومأتْ له.

– يصعب الحصول على خبزٍ بالحشوة الخاصّة هذه الأيّام. احرصي عليها.

– وماذا لو احتجتُ إلى مزيدٍ من... الخبز؟

– مزيد؟

– هناك أطفال كثيرون جوعى.

توقّف، والتفت إليها، ثمّ قبّلها قبلةً سريعةً على كلّ خدّ. «زوريني مرّةً أُخرى يا مدام».

همستْ في أذنه: «أبلغ أختي أنّي سألتُ عنها. لم نفترق على خير».

ابتسم. «أنا أتشاجر مع أخي طوال الوقت، حتّى في زمن الحرب. لكنّنا في النهاية شقيقان».

أومأتْ له، ترجو أن يكون محقّاً. وضعتْ الخبزة في السلّة، وغطّتْها بقطعة الكتّان، فدسّتْها مع ما حصلت عليه اليوم من مسحوق مهلّبيّة وشوفان. بدت لها السلّة كأنّما تزداد ثقلاً، وهي تنظر إلى هنري يبتعد. شدّت قبضتها وسارت في الطريق.

سمعت الصوت حين كانت على وشك أن تخرج من ميدان البلدة.

– مدام موريياك. يا لها من مفاجأة!

صوتُه مثل زيتٍ يتجمّع تحت قدمَيها، زلِقاً لزجاً. بلّلتْ شفتَيها، وسوّت كتفَيها، في محاولةٍ لأن تبدو واثقةً لا مبالية. كان قد عاد يوم أمس، منتصراً، يتبجّح عن سهولة احتلال فرنسا بأكملها. جهزّت العشاء له ولرجاله، وصبّت كؤوساً لا حصر لها من النبيذ. وفي نهاية العشاء ألقى بالبقايا للدجاج؛ أمّا ڤيان والطفلان، فقد ناموا جوعى.

كان يرتدي بذلته الرسميّة المزخرفة بكثيرٍ من الصلبان المعقوفة والحديديّة، يدخّن سيجارةً، وينفث الدخان إلى يسار وجهها. «انتهيتِ من التسوّق لهذا اليوم؟».

- هذا هو الحال يا هير شتومبانفوهرر. لم يكن بمقدوري الحصول على كثير هذا اليوم، حتّى مع بطاقاتنا التموينيّة.

- لولا أنّ رجالكم كانوا جبناء، لما تضوّرتْ نساؤكم جوعاً.

كزّتْ على أسنانها، وهي ترجو أن تبدو كابتسامة.

تفحّص وجهها الذي كانت تُدرك أنّه شاحبٌ كالطبشور. «أنتِ بخير، مدام؟».

- بخير، هير شتومبانفوهرر.

- اسمحي لي أن أحمل سلّتك. سأرافقك إلى البيت.

تمسّكتْ بالسلّة. «لا، حقيقةً لا داعي لذلك—».

فمدّ يده المقفّزة نحوها. ولم يكن لديها خيار سوى أن تضع مقبض السلّة في يده.

أخذ منها السلّة وبدأ يمشي، فتأخّرتْ خطوةً عنه، تشعر بالفضيحة من المشي مع ضابط شوتزستافل في شوارع كاريفو.

حاول فون رختر أن يحادثها، وهما يمشيان. تحدّث عن هزيمة الحلفاء الأكيدة في شمال إفريقيا، وتحدّث عن جبن الفرنسيّين وطمع اليهود، وتحدّث عن «الحلّ النهائي»(*) كما لو أنّه يتحدّث عن وصفةٍ يتناقلها الأصدقاء فيما بينهم.

(*) مصطلح وضعه النازيّون بوصفه إجابةً على «المسألة اليهوديّة»، ويتمثّل هذا الحلّ في إبادة اليهود تماماً. (م)

لم تكد تتبيّن ما يقوله من شدّة الصخب الذي يدور في رأسها. وحين تجرّأتْ على اختلاس نظرةٍ إلى السلّة، رأتْ الخبزة باديةً من تحت غطائها الكتّاني الأحمر والأبيض.

- مدام، تتنفّسين كخيل سباق. هل أنتِ متوعّكة؟

- نعم، هذا هو.

افتعلتْ سَعلةً، ووضعتْ يدها على فمها. «المعذرة هير شتومبانفوهرر. ما كنتُ أريد أن أزعجك بهذا الأمر، ولكن يبدو مع الأسف أنّني التقطتُ عدوى الإنفلونزا من ذلك الصبيّ».

توقّف. «أولم أطلب منكِ أن تبعدي جراثيمك عنّي؟». ودفع السلّة بقوّةٍ نحوها، حتّى ضربت صدرها. جاهدتْ كي تمسك بها، خشية أن تسقط وتنفتح الخبزة فتسقط منها أوراق التزوير عند قدمَيه.

- أ-أنا آسفةٌ جدّاً. هذا استهتارٌ منّي.

فقال، وهو يستدير عائداً: «لن آتي إلى العشاء اللّيلة».

وقفتْ ڤيان بضع لحظات (تأدّباً، في حال استدار ناحيتها)، ثمّ هرعت إلى البيت.

*

بعد منتصف اللّيل بمدّةٍ طويلةٍ، بعد أن مضت ساعات على نوم ڤون رختر، انسلّت ڤيان من غرفتها إلى المطبخ، فحملتْ كرسيّاً إلى غرفتها، وأغلقتْ الباب خلفها بهدوءٍ شديد. قرّبتْ الكرسيّ من طاولة السرير الجانبيّة، وجلستْ، ثمّ أخرجتْ أوراق الهويّة من حزامها، وبدأتْ العمل على ضوء شمعة.

أخرجتْ أوراق هُويّتها وتفحّصتها بكلّ تفاصيلها الدقيقة، ثمّ تناولت

الكتاب المقدّس وفتحتْه. وعلى كلّ مساحةٍ فارغةٍ وجدتْها شرعتْ تتدرّب على تزوير التواقيع. كانت في بادئ الأمر متوتّرةً، فظهر خطُّها متعرّجاً. لكنّها مع استمرار التدريب شعرت بالهدوء، فلمّا استقرّت يداها وأنفاسها، زوّرتْ شهادة ميلادٍ جديدةً لجان جورج، وأطلقتْ عليه اسم إميل دوڤال.

لكنّ هذا لم يكن كافياً. فماذا سيحدث حين تنتهي الحرب وتعود هيلين رويل؟ إن حدث شيءٌ لڤيان (وهذا غير مستبعدٍ في ظلّ المخاطرة التي تقدم عليها) فكيف ستعرف هيلين أين تبحث عن ابنها وبأيّ اسم؟

كان عليها إذن أن تصنع فِيش؛ أي: ملفّاً يحوي كلّ المعلومات التي تعرفها عنه: هُويته الحقيقيّة، واسم والده ووالدته، وأيّ أقارب معروفين. كلّ شيءٍ يمكن أن يفيد.

نزعت ثلاث صفحات من الكتاب المقدّس وكتبت قائمةً على كلّ صفحة. فعلى الصفحة الأولى كتبت بحبرٍ غامق فوق الصلوات:

آري دو شامپلان 1

جان جورج رويل 2

وعلى الصفحة الثانية كتبت:

1. دانييل مورياك

2. إميل دوڤال

وعلى الصفحة الثالثة:

1. كاريڤو، مورياك.

2. أبي دو لا ترينيتي

ثمّ لفّت كلّ صفحةٍ إلى لفافةٍ صغيرة. غداً سوف تخبّئها في ثلاثة أماكن

مختلفة: واحدة في جرّةٍ قذرةٍ في السقيفة ستملؤها بالمسامير، وواحدةٌ في علبة صبغٍ قديمة في الحظيرة، وواحدة ستدفنها في صندوقٍ في قنّ الدجاج؛ أمّا بطاقات الفيش، فسوف تتركها عند الأم الكبيرة في الكنيسة.

وهكذا، حين تُجمع البطاقات والقوائم يُمكن التعرّف على الأطفال بعد الحرب، فيُعادون إلى أسرهم. كان من الخطر طبعاً أن تدوّن هذه الأشياء، لكنّها إنْ لم توثّقها (وحدث لها ما لا يحمد عقباه) فكيف سيعود الأطفال المختبئون إلى ذويهم؟

ظلّتْ ڤيان مدّةً تحدّق في ما كتبتْه، حتّى إنّ الطفلَين النائمَين في سريرها بدآ يتقلّبان ويدمدمان، وبدأ لهب الشمعة يطقطق. مالت ووضعتْ يدها على ظهر دانييل الدافئ كي تهدّئه، ثمّ استلقتْ على السرير مع طفلَيها، وانقضى وقتٌ طويلٌ إلى أن تمكّنت من النوم.

الفصل الحادي والثلاثون

6 أيار/مايو 1995م

بورتلَند، أورِغن

أقول للشابّة الجالسة إلى جانبي: «أنا هاربةٌ من البلد». شعرها بلون حلوى القطن، وعلى جسمها وشومٌ أكثر ممّا قد يرسمه على جسمه سائق درّاجات «هِلز أنجل». لكنّها وحيدةٌ مثلي في هذا المطار الممتلئ بأشخاصٍ منشغلين. أخبرتني أنّ اسمها فيليسا، وقد أصبحنا رفيقتَي سفرٍ في الساعتَين الماضيتَين، منذ الإعلان عن تأخّر رحلتنا. كان اندماجنا طبيعيّاً. رأتني أغصب نفسي على أكل البطاطس المقليّة التي يعشقها الأميركان، ورأيتُها تراقبني. جائعةٌ، كان هذا واضحاً. على نحوٍ طبيعيٍّ إذن، دعوتُها لتناول وجبة. ما إن تصبح الواحدةُ أمّاً، حتى تبقى أمّاً على الدوام.

– أو لعلّي أعود أخيراً إلى الوطن بعد سنواتٍ من الهروب. في بعض الأحيان تصعب معرفة الحقيقة.

فقالت، وهي تتجرّع المشروب الغازي الضخم الذي اشتريتُه لها: «أمّا

أنا، فهاربة. وإنْ لم تكن باريس بعيدةً بما يكفي، فسوف تكون وجهتي التالية القطب الجنوبي».

أتأمّلها فأنفذُ إلى ما وراء الأسلحة التي تُظهرها على وجهها، والتحدّي الذي تبرزه من خلال وشومها، فأشعر بارتباطٍ غريب معها. أرى رفيقةً. نحن هاربتان معاً. قلتُ لها، وقد فوجئتُ بهذا الاعتراف منّي: «أنا مريضة».

- مريضةٌ، تقصدين مرضاً مثل الهربس النطاقي؟ أصيبت خالتي به. كان مقرفاً.

- لا، أقصد السرطان.

- «أوه!». شفطتْ وشفطتْ: «إذنْ لماذا تذهبين إلى باريس؟ أولستِ في حاجةٍ إلى الكيماوي؟».

أهمُّ بالإجابة (لا، لا أتعالج الآن، انتهيتُ من كلّ ذلك)، فيوقظني سؤالها: لماذا تذهبين إلى باريس؟ فألوذ بالصمت.

تهزُّ كوبها الكبير فيخشخشِ الثلجُ في داخله. «آه فهمتُ. ستموتين. مللتِ من المحاولات. فقدتِ الأمل وهذه الأشياء».

- ما هذا بحقّ الجحيم؟

كنتُ غارقةً في أفكاري، في تلك الصراحة الصارخة غير المتوقّعة (ستموتين)، حتّى إنّ الأمر استغرق منّي لحظةً كي أدرك أنّ جوليَن هو الذي قال الجملة الأخيرة. أرفع نظري إليه. يرتدي سترةً رياضيّةً حريريّةً بالأزرق الغامق أهديته إيّاها في أعياد الميلاد، مع بنطال جينز غامق على أحدث الموضات. شعره أشعث، ويمسك بحقيبةٍ جلديّةٍ صغيرةٍ سوداء يعلّقها على كتفه. لا يبدو سعيداً. «باريس يا ماما؟».

- تُعلن الخطوط الفرنسيّة، رحلة رقم 605 عن فتح بوّابتها لصعود الركّاب خلال خمس دقائق.

فقالت فيليسا: «هذه رحلتنا».

أعرف ما يدور في عقل ابني. كان قد توسّل إليّ في صباه أن آخذه إلى باريس. أراد أن يرى الأماكن التي ذكرتُها في حكايات ما قبل النوم. أراد أن يعرف شعور المشي على نهر السين ليلاً، أو شراء اللوحات الفنّية في پلاس دي ڤوج، أو الجلوس في حديقة تويلري، أو تناول كعك الفراشة من مخبز لادوريه. لكنّي رفضتُ كلّ مطالبه، وقلتُ ببساطة: «أنا الآن أميركية، ومكاني هنا».

- سنبدأ الصعود إلى الطائرة بمن يصطحب أطفالاً تحت سنّ الثانية، أو من يحتاج إلى وقتٍ إضافيّ، وركّاب الدرجة الأولى...

وقفتُ، أرفع مقبض حقيبتي القابل للتمديد. «حان دوري».

فيقف جوليَن أمامي كما لو أنّه يمنع مروري إلى البوّابة. «تذهبين إلى باريس، فجأةً هكذا، وحدك؟».

- «كان قراراً في آخر لحظة. من ذلك النوع الذي تقول عنه: ولمَ لا؟ وهذه الأشياء». أبتسم له أفضل ابتسامةٍ ممكنةٍ في تلك الظروف. لقد جرحتُ شعوره، على الرغم من أنّ هذا لم يكن قصدي قطّ.

- للأمر علاقة بتلك الدعوة. والحقيقة التي لم تخبريني بها قطّ.

لماذا قلتُ ذلك في الهاتف؟ أقول له، وأنا ألوّح بيدي المتغضّنة: «لا تهوّل الأمر. الأمر ليس كما تظنّ. والآن، لا بدّ من أن أصعد. سأتّصل بك—».

- لا داعي لذلك. أنا مسافرٌ معك.

فجأةً أرى فيه الجرّاح، الإنسان الذي اعتاد النظر إلى ما خلف الدم والعظم، كي يصل إلى مكمن الخلل.

ترفع فيليسا حقيبة ظهرها على كتفٍ واحد، وتلقي بكوبها الفارغ في سلّة المهملات. «ستفسد عليّ الهروب».

لا أدري أيّ شعورٍ أقوى عندي الآن، الراحة أم خيبة الأمل. «هل ستجلس إلى جانبي؟».

- بحجزٍ متأخّرٍ كهذا؟ لا.

أشدّ قبضتي على مقبض الحقيبة، وأمشي نحو الشابّة الجميلة ذات الزيّ الأزرق والأبيض. تأخذ منّي بطاقة الصعود، وترجو لي رحلةً سعيدةً، فأومئ بشرودٍ وأمضي.

يسحبني جسر الإركاب. فجأةً أشعر برهاب الأماكن المغلقة. بالكاد أستطيع التقاط أنفاسي، ولا أستطيع أن أدفع الحقيبة فوق الجسر المعدني.

يقول جوليَن بهدوءٍ، وهو يأخذ حقيبتي: «أنا هنا يا ماما». يرفعها بسهولةٍ فوق الجسر. صوتُه يذكّرني بأنّني أمّ، ولا يجوز للأمّهات الانهيارُ أمام أطفالهنّ، حتّى إنْ كُنّ خائفات، حتّى إنْ كان الأطفالُ كباراً.

مضيفةٌ تراني، فيرتسم على وجهها تعبير: ها هي ذي مسافرةٌ عجوزٌ تحتاج إلى مساعدة. لقد بتُّ أعرف هذه النظرة من المكان الذي أقيم فيه، في العلبة التي أسكن فيها مع أعواد الأذْن(*) كما يقال. في العادة تُزعجني تلك النظرة، فأشدّ ظهري وأنحّي الشاب، أو الشابّة التي لا ترى أنّني

(*) عود أذْنٍ قطني (Q-tip): تعبير أميركي طريف يشبّه كبير السنّ بعود الأذن القطنيّ، وذلك لبياض شعره من طرف، وحذاء المشي الأبيض من الطرف الآخر. (م)

أستطيع تدبير أمري بنفسي في هذا العالم، لكنّني الآن متعبة وخائفة، ولا ضير في شيء من المساعدة. هكذا أدعها تقودني إلى مقعدي عند النافذة في الصفّ الثاني من الطائرة. لقد دلّلتُ نفسي بتذكرة الدرجة الأولى. ولمَ لا؟ لم يعد هناك سببٌ لادّخار النقود.

أشكر المضيفة وأجلس. يدخل ابني بعدي، وما إنْ يبتسم للمضيفة حتّى أسمع تنهيدةً صغيرةً، فأقول في نفسي: طبعاً. لطالما دوّخ جولِيَن البنات، حتّى من قبل بلوغه.

تقول: «هل تسافران معاً؟». فأدركُ أنّها تُكبر فيه برّه بوالدته.

يعطيها جولِيَن واحدةً من ابتساماته التي تذوّب الجليد. «نعم، لكنّنا مع الأسف لم نستطع الحصول على مقعدَين متجاورَين. أنا أجلس خلفها بثلاثة صفوف». ويناولها بطاقة الصعود.

تقول له: «أوه! سأحلّ لكما هذه المشكلة». بينما يضع جولِيَن حقيبته وحقيبتي في الخزانة العلويّة فوق مقعدي.

أحدّقُ في النافذة، أتوقّع أن أرى ساحة المطار ممتلئةً برجالٍ ونساءٍ في صديريّاتهم البرتقاليّة، يلوّحون ويُنزلون الحقائب من الطائرات، لكنّي لا أرى سوى الماء يخربش سطح الزجاج، ثمّ انعكاس صورتي منسوجاً في خطوطٍ فضّية. عيناي تحدّقان فيّ.

أسمع جولِيَن يقول: «شكراً جزيلاً لك». ثمّ يجلس إلى جانبي، يربط حزامه ويشدّ وثاقه.

بعد صمتٍ طويل، وبعد أن مرّ الناس من أمامنا وقدمّت لنا المضيفة الجميلة الشمبانيا (إذْ سرّحتْ شَعرها ورتّبتْ مكياجها)، يقول: «إذن، ما أمر الدعوة؟».

أتنهّد. «الدعوة». نعم. تلك هي البداية، أو النهاية. يتوقّف هذا على وجهة النظر. «إنّه اجتماع شملٍ. في باريس».

– لم أفهم!

– لم يكن من المفترض أن تفهم.

يمدّ يده يمسك يدي. يا لها من لمسةٍ واثقةٍ مُطمْئِنة، لمسة المداوي.

في وجهه أرى حياتي كلّها. أرى رضيعاً جاءني بعد أن يئستُ بفترةٍ طويلةٍ...ولمحةً من جمالٍ كان لي ذات يوم. أرى...حياتي في عينَيه.

– أعرف أنّ هناك شيئاً تريدين أن تخبريني به، لكنّه صعبٌ عليك. فلتبدئي من البداية.

لا أستطيع أن أمنع ابتسامتي. يا له من أميركي، ابني هذا! يعتقد أنّ حياة المرء يمكن استخلاصها في قصةٍ لها بدايةٌ ونهاية. لا يعرف شيئاً عن تلكم التضحيات التي ما إنْ تقدّمها حتّى لا تستطيع نسيانها تماماً، أو احتمالها تماماً. وكيف له أن يعرف؟ كنتُ أحميه من كلّ هذا.

على الرغم من ذلك، فأنا هنا على طائرةٍ متّجهةٍ إلى الوطن، ولديّ فرصةٌ لاتخاذ خيارٍ مختلفٍ عن خياري الذي مضيتُ فيه حين كان الألم طريّاً، والمستقبل الذي يُبنى على الماضي مستحيلاً.

أقول له بصدقٍ هذه المرّة: «فيما بعد». سوف أحكي له قصّة حربي، وحرب أختي. لن أحكيها كلّها طبعاً، لن أحكي أسوأ ما فيها. سأحكي له ما يكفي ليعرف نسخةً أكثر صدقاً من حياتي: «ولكن ليس هنا. أنا منهكة». أسند ظهري إلى مقعد الدرجة الأولى الوثير، وأغمض عينيّ.

كيف لي أن أبدأ من البداية، وكلُّ ما يخطر في بالي هو النهاية؟

الفصل الثاني والثلاثون

«إن كنتَ ماضياً نحو الجحيم، فواصل طريقك»

-ونستن تشرتشل-

أيار/ مايو 1944م

فرنسا

مضت ثمانية شهور منذ احتلال النازيّين لجميع أرجاء فرنسا، ومنذ ذلك الوقت غدت الحياة أكثر خطورةً، إنْ كان هذا ممكناً أصلاً. وُضع المعتقلون السياسيّون الفرنسيّون في معسكر «درانسي»، ثمّ سُجنوا في سجن «فرين»، فيما رُحّل مئات الآلاف من اليهود الفرنسيّين إلى معسكرات الاعتقال في ألمانيا. أخلِيتْ المياتم في «نُويي سور سين» و«مونترايي»، وأُخذ أطفالها إلى المعسكرات؛ أمّا الأطفال الذين احتُجزوا في «ڤِلديڤ» (أكثر من أربعة آلاف) فقد أُرسلوا إلى معسكرات الاعتقال وحدهم دون ذويهم. كانت قوّات الحلفاء تقصف ليل نهار. اعتقالاتٌ لا تتوقّف. يُجرُّ الناس من بيوتهم ومحالّهم لأبسط مخالفة، ولمجرّد إشاعةٍ

عن فِعل مقاومة، فيُسجنون، أو يُرحّلون. أسرى أبرياء يُعدمون بالرصاص انتقاماً لأمورٍ لا يعلمون شيئاً عنها، فيما يُفترض بكلّ رجُلٍ بين الثامنة عشرة والخمسين أن يذهب قسراً إلى المعسكرات في ألمانيا. لم يكن أحدٌ يشعر بالأمان. ولم تعد هناك نجومٌ صُفر على الملابس. لا أحد يجرؤ على النظر في عين غريبٍ، أو أن يتحدّث إليه. والكهرباء قُطعت.

وقفتْ إيزابيل في زاوية شارعٍ مزدحمٍ في باريس، تستعدّ للعبور، ولكنْ قبل أن يلمس حذاؤها الرثُّ ذو النعل الخشبيّ الشارعَ، انطلقتْ صفّارة، فعادت إلى ظلّ شجرة كستناء مزهرة.

كانت باريس في هذه الأيّام أشبه بامرأةٍ تصرخ. ضوضاء، ضوضاء، ضوضاء. صفّارات، وبنادق، وشاحنات، وجنودٌ يصيحون. لقد تبدّلتْ كفّة الحرب؛ فقد نزلت قوّات الحلفاء في إيطاليا، وأخفق النازيّون في إيقاف تقدّمهم. كما أنّ الخسائر دفعتْ النازيّين إلى المزيد والمزيد من التعسّف. ففي شهر آذار/ مارس ذبحوا أكثر من ثلاثمئة إيطاليّ في روما، انتقاماً من تفجيرٍ فدائيٍّ قتل ثمانية وعشرين ألمانياً. هذا وقد سيطر شارل ديغول مؤخّراً على قوّات فرنسا الحرّة كلّها، وكان هناك شيءٌ يلوح في الأفق.

سار صفٌّ من الجنود الألمان في شارع سان جيرمان، في طريقهم إلى الشانزيلزيه، يقودهم ضابطٌ على حصانٍ أبيض.

وما إن مضوا، حتّى عبرتْ إيزابيل الشارع واختلطتْ بالجنود الألمان المجتمعين على الرصيف الآخر. أخفضتْ عينَيها، ولفّت يدَيها المقفّزتَين حول حقيبة يدها. كانت ملابسها مهلهلة، شأنها شأن بقية الباريسيّين، ونعلُها الخشبيّ يقرقع. لم تعد الجلود متوفّرة. مرّت من أمام الطوابير الطويلة لربّات البيوت والأطفال ذوي الوجوه الغائرة؛ إذْ يقفون عند

المخابز ومحالّ الجزارة. قُطعت بطاقات التموين مرّةً بعد مرّةٍ، بعد مرّةٍ، خلال العامين الماضيَين، وكان أهل باريس يعيشون على ثمانمئة سعرةٍ حراريّةٍ في اليوم. اختفت الكلاب، والقطط، والفئران من الشوارع. وفي هذا الأسبوع لم يكن يمكن لأحدٍ أن يشتري شيئاً غير نشا التابيوكا والفاصولياء. وفي شارع دو لا غار أكوامٌ من الأثاث، واللوحات الفنّية، والمجوهرات، بعد أن صودر كلّ شيءٍ قيّمٍ من الذين رُحّلوا. فُرزت أغراضهم، ووُضعت في صناديق، كي تُرسل إلى ألمانيا.

انسلّتْ إيزابيل إلى مقهى «لي دو ماغو» في سان جيرمان، واتّخذت مقعداً في الخلف. جلستْ هناك على مقعد الفراء الأحمر تنتظر بفارغ الصبر، على أعين تماثيل صينيّة مصغّرة. ثمّة امرأةٌ تجلس إلى طاولةٍ في الأمام، قد تكون سيمون دو بوفوار. كانت تميل على ورقةٍ، وتكتب بانفعال. غاصتْ إيزابيل في مقعدها المريح، فقد كانت مُنهكة. في الشهر الماضي وحده عبرت البيرينيه ثلاث مرّات، وزارت كلّ البيوت الآمنة، ودفعت المال لـ«الباسير». لقد أصبحتْ كلّ خطوةٍ خطرةً في هذه الأيّام بما أنّه لم تعد هناك منطقةٌ حرّة.

- جولييت.

رفعتْ رأسها ورأت والدها. شاخ في السنوات القليلة الماضية. كلّهم شاخوا. ترك الحرمان، والجوع، واليأس، والخوف آثارهم عليه؛ فصار جلده بلون الرمل وملمسه، عميق التجاعيد.

كان هزيلاً للغاية، حتّى إنّ رأسه بدا كبيراً بالنسبة إلى جسمه.

جلس في المقعد المقابل لها، ووضع يدَيه المجعّدتَين فوق طاولة المهوغني المنقّرة.

مالت إلى الأمام، فوضعتْ يدَيها على معصمَيه. فلمّا أعادت يدَيها كانت قد أخذتْ لفافةً بحجم قلم الرصاص يخفيها في كمّه. أوراق هويّات مزوّرة. وضعتْها بلمسة الخبيرة في حزامها، وابتسمت للنادل الذي جاء.

قال والدها بصوتٍ متعَب: «قهوة».

وهزّت هي رأسها.

عاد النادل ووضع كوباً من قهوة الشعير، ثمّ اختفى ثانية.

فقال والدها: «كان هناك اجتماعٌ اليوم لكبار المسؤولين النازيّين. والشوتزستافل كانوا هناك أيضاً. سمعتُ كلمة العندليب».

قالت بهدوء: «نحن حريصون. ومخاطرتك أنت أكبر من مخاطرتي، فأنت تسرق أوراق الهويّات الفارغة».

- أنا شيخٌ كبير. يكادون لا ينتبهون إلى وجودي. ربّما يجدر بكِ أن تأخذي استراحة. دعي شخصاً آخر يذهب في رحلات الجبل.

سدّدتْ إليه نظرةً حادّة. أتراهم يقولون أشياء كهذه للرجال؟ متى يفهم الرجال أنّ النساء جزءٌ لا يتجزّأ من عمل المقاومة؟

تنهّد، وهو يرى الجواب في نظرتها. «هل تحتاجين إلى مكان تبيتين فيه؟».

قدّرتْ له إيزابيل هذا العرض، فقد ذكّرها بمدى قربهما. صحيحٌ أنّهما ما يزالان غير مقرّبَين، لكنّهما يعملان معاً، وهذا في حدّ ذاته أمر مهمّ. لم يعد يبعدها عنه، والآن يدعوها للمبيت في شقته. لقد منحها هذا أملاً بأنّه ذات يوم، بعد أن تنتهي الحرب، يمكن أن يتحدّثا. «لا أستطيع. سيكون خطراً عليك». لم تذهب إلى الشقّة منذ أكثر من سنةٍ ونصف. ولم تذهب أيضاً إلى كاريفو، أو ترى ڤيان طوال تلك الفترة. نادراً ما كانت تقضي

ثلاث ليالٍ في المكان نفسه، وأصبحت حياتها سلسلةً من الغرف الخفيّة، والفُرُش المغبرّة، والغرباء المريبين.

- هل من أخبارٍ عن أختك؟

- «لديّ أصدقاء يتابعون أحوالها. سمعتُ أنّها لا تغامر، تطأطئ رأسها وتحمي ابنتها. ستكون بخير». قالت الجملة الأخيرة بصوتٍ ألطف، من أثر الأمل.

- افتقدتِها.

وجدتْ إيزابيل نفسها فجأةً تفكّر في الماضي، وتتمنّى لو تستطيع نسيانه. نعم، افتقدتْ أختها، لكنّها كانت تفتقدها سنوات طويلة، طوال عمرها.

قال، وهو ينهض: «طيّب إذن».

لحظتْ يدَيه. «يداك ترتعشان».

- أقلعتُ عن الشراب. يبدو أنّه ليس وقتاً مناسباً للسُّكْر.

فقالت، وهي تبتسم: «لا أدري. يبدو لي أنّ السُّكرَ مناسبٌ جدّاً لهذه الأيّام».

- انتبهي لنفسك يا جولييت.

تلاشت ابتسامتُها. فكلّما رأتْ شخصاً هذه الأيّام صعُب عليها وداعُه. فلم يعد أحدٌ يعرف ما إذا كان سيرى الآخر مرّةً أُخرى. «وأنتَ أيضاً».

*

منتصفُ اللّيل.

ربضتْ إيزابيل في الظلام خلف جدارٍ حجريٍّ متداعٍ. كانت في أعماق

الغابة، ترتدي ملابس الفلّاحين (رداءً طويلاً مهلهلاً، وحذاءً بنعلٍ خشبيّ، وسترةً خفيفةً مصنوعةً من ستارة حمّامٍ قديمة). تشمُّ رائحة دخانٍ، لكنّها لا تبصر حتّى بصيص نار.

انكسرَ غُصينٌ من خلفها.

فجثمتْ، وحبستْ أنفاسها.

سمعتْ صفيراً. صوتاً يحاكي العندليب، أو قريباً منه. فكرّرتْ الصفير.

ثمّ سمعتْ وقع أقدام، وأنفاس. ثمّ: «إز؟».

نهضتْ واستدارت. ثمّة شعاع رفيع من الضوء مرّ من أمامها، ثمّ اختفى. داست على لوحٍ، واندفعت في أحضان غيتون.

قبّلها، ثمّ تراجع في تردّدٍ أحسّتْ به. قال: «اشتقتُ إليكِ». لم يتقابلا منذ أكثر من ثمانية شهور. يساورها القلق كلّما سمعت عن قطارٍ خرج عن سكّته، أو تفجيرٍ في فندقٍ يسكنه الألمان، أو اشتباكٍ مع الفلّاحين.

قادها من يدها في غابةٍ حالكة الظلام، حتى إنّها لم تكن تراه، أو ترى آثار أقدامهما. لم يشعل غيتون مصباحه، فقد كان يعرف هذه الغابة جيّداً، بعد أن قضى فيها أكثر من سنة.

وفي نهاية الغابة وصلا إلى حقلٍ معشبٍ ضخمٍ، فيه أشخاصٌ يقفون في صفوف. كانوا يحرّكون مصابيح إلى الأمام والخلف كالمنارات، يضيئون الأرض بين الأشجار.

ثمّ سمعتْ محرّك طائرةٍ في الأعلى، وشعرتْ بلفحة هواءٍ على وجنتَيها، وشمّت رائحة العادم. طارت الطائرة على ارتفاعٍ منخفضٍ، فاهتزّت الأشجار. وبعدها سمعتْ صوتاً، ثمّ ضرْب معدنٍ على معدن، وظهر باراشوت في أسفله صندوق كبير يتأرجح في الهواء.

قال غيتون: «إنزال أسلحة». أخذها من يدها وقادها عبر الأشجار مرّةً أخرى، وصعد تلّةً إلى أن وصلا إلى المخيّم في أعماق الغابة. في وسط المخيّم نارٌ متوهّجةٌ بالبرتقالي، ضوءها مخبوءٌ بأوراق الشجر. مجموعة رجالٍ يقفون حول النار، يدخّنون السجائر ويتحدّثون. معظمهم جاء إلى هنا هرباً من الترحيل الإجباري إلى معسكرات العمل في ألمانيا. وبمجرّد أن جاؤوا إلى هنا حملوا السلاح وأصبحوا مقاتلين فدائيّين، يقاتلون في حرب عصابات ضدّ ألمانيا. سرّاً، تحت جنح اللّيل. الماكيسارد. كانوا يفجّرون القطارات، ومخازن الذخيرة، ويطمرون القنوات المائيّة، ويفعلون أيّ شيءٍ لمنع تدفّق البضائع والرجال من فرنسا إلى ألمانيا؛ أمّا الأسلحة والمعلومات، فيحصلون عليها من الحلفاء. كانت حياتهم دوماً في خطر؛ فحين يقبض العدوّ على فردٍ من الماكيسارد تكون العقوبة سريعةً، وغالباً وحشيّة. حرقٌ، وصعقٌ بالكهرباء، وسَملٌ للعيون؛ لذلك كان كلّ مقاتل يحمل في جيبه حبّة سيانيد.

كان الرجال متّسخين، جوعى، مهزولين. أغلبهم يرتدي بنطالاً مضلّعاً بنّي اللّون، وقبّعة بيريه سوداء، وكلّها باليةٌ رثّةٌ مرقّعة.

وعلى الرغم من أنّ إيزابيل كانت مؤمنةً بقضيّتهم، إلّا أنّها لم تكن تودّ البقاء هنا وحدها.

قال غيتون: «تعالي». قادها من أمام النار إلى خيمةٍ صغيرةٍ متّسخةٍ، بها باب قماشي مفتوح، يكشف عن حقيبة نومٍ، وملابس، وحذاء موحل. وكالعادة، كانت الخيمة تنضح برائحة العرق والجوارب القذرة.

أخفضتْ إيزابيل رأسها، وهي تدخل.

جلس غيتون إلى جانبها، وأغلق باب الخيمة. لم يشعل المصباح

(خشية أن يرى الرجال ظلَّيهما فيهمزوا ويلمزوا). قال: «إيزابيل. اشتقتُ إليك».

مالت إلى الأمام وتركت نفسها في حضنه كي يقبّلها. فلمّا انتهتْ القبلة (سريعاً)، أخذت نفساً عميقاً. «الديّ رسالةٌ لكم من لندن. تلقّاها پول في الخامسة مساء اليوم. تقول الرسالة: "نشيجٌ طويلٌ من كمنجات الخريف"».

سمعتْه يتنفّس. واضحٌ أنّ الكلمات التي تلقّوها عبر إذاعة البي بي سي كانت شفرة.

سألتْه: «هل الرسالة مهمّة؟».

مدّ يدَيه إلى وجهها، وأمسكه بلطف، ثمّ سحبها لقبلةٍ أُخرى. كانت هذه القبلة ممتلئة بالشجن. وداعٌ آخر.

- مهمّةٌ إلى الحدّ الذي يستدعي ذهابي الآن.

لم تملك إلّا أن تهزّ رأسها. همستْ له: «لا يوجد وقتٌ أبداً». فكلُّ لحظةٍ يقضيانها معاً تُسرق منهما، أو تُنتزع، بطريقةٍ، أو بأُخرى. كانا يلتقيان، ينسلّان إلى زاويةٍ، أو إلى خيمةٍ قذرةٍ، أو غرفةٍ خلفيّةٍ، يتطارحان الغرام في الظلام، لكنّ الوقتَ لا يسعفهما للاستلقاء بعد ذلك والحديث كما يفعل العشّاق. كان دائماً ما يرحل عنها، أو ترحل هي عنه. في كلّ مرّةٍ يمسك بها تقول في نفسها: حان الأوان. ستكون هذه آخر مرّةٍ أراه فيها. وكانت تنتظره أن يصرّح لها بحبّه.

تقول لنفسها: هكذا هي الحرب. إنّه يحبّها، لكنّه خائفٌ من هذا الحبّ، خائفٌ من فقدِها، وسوف يكون الأمر أشدّ إيلاماً لو صرّح لها بحبّه، بل إنّها في بعض الأيّام كانت تصدّق نفسها.

- إلى أيّ حدٍّ خطر، هذا الأمر الذي سوف تغادر من أجله؟

صمتٌ، مرّةً أُخرى.

قال بهدوء: «سأجدكِ. ربّما آتي إلى باريس أقضي ليلةً، وننسلّ إلى قاعة سينما لنطلق صيحات الاستهجان على شريط الأخبار، ثمّ نمشي في حدائق رودين».

قالت، وهي تحاول أن تبتسم: «كالعشّاق». كان هذا ما يقولانه لبعضهما دائماً. حلمٌ مشتركٌ بينهما لحياةٍ تبدو عصيّةً على الذكرى، ولا يُرجَّح أن تتكرّر.

لمس وجهها بلطفٍ سالتْ معه دموعها. «كالعشّاق».

*

عثرت ڤيان على ثلاثة عشر طفلاً، وأخفتْهم في الميتم، فيما يشتدُّ أوارُ الحرب، ويزداد عُنف النازيّين في السنة ونصف السنة الماضية. بدأتْ بالريف القريب، تتتبّع المعلومات التي قدّمتها لها جمعيّة إنقاذ الأطفال. وفي الوقت نفسه تواصلت الأمّ الرئيسة مع اللجنة الأميركيّة اليهوديّة المشتركة للتوزيع (وهي مظلّة للمؤسّسات الخيريّة اليهوديّة في الولايات المتحدة التي تموّل النضال لإنقاذ الأطفال اليهود)، فاستطاعوا أن يجمعوا بين ڤيان ومزيدٍ من الأطفال المحتاجين. في بعض الأحيان كانت الأمّهات يأتين إلى بيت ڤيان لفرط يأسهنّ، يستجدين مساعدتها. لم يحدث أن ردّت ڤيان أحداً، لكنّها كانت دائماً مرتعبة.

في هذا اليوم الدافئ من شهر حزيران/ يونيو عام 1944م؛ أي: بعد أسبوعٍ من إنزال الحلفاء لأكثر من مئةٍ وخمسين ألف جنديٍّ في نورماندي، وقفتْ ڤيان في صفّها في الميتم، تحدّق في الأطفال الجالسين بتعبٍ إلى طاولاتهم. بالطبع كانوا متعبين.

ففي العام الماضي كان القصف مستمرّاً يكاد لا يتوقّف، حتّى إنّ ڤيان لم تعد تأخذ طفلَيها إلى القبو حين تعلو صفّارة الإنذار ليلاً. كانت تكتفي بالجلوس معهما في السرير، تشدّهما إليها إلى أن تعلو صفّارة انتهاء الغارة، أو يتوقّف القصف.

لكنّ التوقّف لم يطُل قطّ.

صفّقتْ ڤيان بيدَيها كي ينتبه الأطفال لها. لعلّها ترفع معنويّاتهم بلعبة.

قال إميل: «هل هي غارةٌ أُخرى يا مدام؟». كان قد بلغ السادسة، ولم يعد يتحدّث عن أمّه. فحين يُسأل عنها يقول: إنّها «ماتت مريضة»، وهذا كلّ ما في الأمر. لم يعد يذكر شيئاً عن أنّه كان فيما مضى جان جورج رويل.

مثلما لم يعد دانييل (ذو السنوات الخمس) يذكر شيئاً عن هُويّته السابقة.

قالت: «لا، لا توجد غارة. في الواقع كنتُ أقول في نفسي: إنّ الجوّ حارٌّ جدّاً هنا». وأمسكتْ بياقتها المرتخية.

فقالت كلاودين (بيرناديت سابقاً): «هذا بسبب تعتيم النوافذ. تقول الأمّ الرئيسة: إنّها تشعر كما لو أنّها لحمٌ مدخّنٌ في ردائها الصوفيّ».

فضحك الأطفال على ذلك.

قالت صوفي: «لكنّ هذا أفضل من برد الشتاء». فوافقها الآخرون.

قالت ڤيان: «كنتُ أفكّر في أنّ اليوم مناسبٌ لـ—».

لكنّها قبل أن تُنهي كلامها سمعتْ صوت درّاجةٍ في الخارج. بعد لحظات، خطوات حذاءٍ عسكري تدكّ الممرّ الحجريّ.

لم يحرّك أحدٌ منهم ساكناً.

فُتح باب الصفّ.

دخل فون رختر، فلمّا اقترب من ڤيان خلع قبّعته وتأبّطها. «مدام. هلّا أتيتِ معي إلى الممرّ؟».

أومأتْ ڤيان. «لحظة واحدة يا أطفال. اقرؤوا بهدوء حتّى أعود».

أخذها فون رختر من ذراعها، بقبضةٍ موجعةٍ منتقِمة، وقادها إلى الفناء الحجريّ قرب صفّها. يتناهى إلى مسامعها خريرُ الماء من النافورة الممتلئة بالطحالب.

- جئتُ أسألكِ عن أحد معارفك. هنري ناڤار.

دعَتْ ڤيان ربَّها ألّا تكون قد جَفَلت من سؤاله. «مَن، هير شتومبانفوهرر؟».

- هنري ناڤار.

- «آه، وِي. صاحب الفندق». وكوّرتْ قبضتَيها كي تخفي ارتعاشهما.

- مِن أصدقائك؟

هزّت رأسها. «لا، هير شتومبانفوهرر. أعرفه وحسب. بلدتنا صغيرة».

نظر إليها يتفحّصها. «إن كنتِ تكذبين عليّ في أمرٍ بسيطٍ كهذا، فسوف تساورني الشكوك حول الأشياء الأُخرى التي تكذبين عليّ بشأنها».

- لا يا هير شتومبانفوهرر—.

- «لقد شوهدتِ معه». كانت رائحةُ أنفاسه من بيرةٍ ولحمٍ مقدّد، وقد ضيّق عينَيه.

قالت في نفسها لأوّل مرّة: «سوف يقتلني». كانت شديدة الحرص فترةً طويلة، تتجنّب إثارته، أو تحدّيه، بل تتجنّب مجرّد النظر في عينَيه. لكنّه

في الأسابيع القليلة الماضية أصبح سريع التقلّب، ويستحيل التنبّؤ بردود أفعاله.

- بلدتنا بلدةٌ صغيرة، ولكن—.

- لقد اعتُقل بتهمة مساعدة العدوّ يا مدام.

- أوه!

- سأتحدّث إليكِ عن هذا الأمر أكثر يا مدام. في غرفةٍ بلا نوافذ. وصدّقيني، سأُخرج الحقيقة منكِ. وسأعرف ما إذا كنتِ تعملين معه.

- أنا؟

شدّد قبضته عليها، حتّى خافت أن تتكسّر عظامها. «لو علمتُ أنّكِ تعرفين أيّ شيء عن هذا الموضوع، فسوف أستجوب طفلَيكِ...بشدّة... ثمّ أرسلكم جميعاً إلى سجن فرين».

- أرجوكَ لا تؤذِهما. أتوسّل إليك!

كانت هذه أوّل مرّةٍ تتوسّل فيها إليه، لذلك لم يحرّك ساكناً حين شعر بالحُرقة في صوتها. تسارعتْ أنفاسه. وهنا كان ما كان، واضحاً وضوح عينَيه الزرقاوَين: النشوة. منذ أكثر من سنةٍ ونصف السنة وهي تتصرّف بكلّ حرصٍ في حضوره، تلبس وتتصرّف كطائرٍ صغيرٍ؛ لا تشدّ انتباهه، ولا تقول أكثر من: نعم، أو لا يا هير شتومبانفوهرر؛ أمّا الآن، فقد تغيّر ذلك كلّه في لمحة عين. لقد كشفت عن ضعفها أمامه. لقد أدرك الآن كيف يمكنه أن يؤذيها.

بعد ساعات، كانت ڤيان في غرفةٍ بلا نوافذ في قاعة البلديّة. جلستْ مستقيمة الظهر على مقعدها، ويداها تقبضان على الذراعَين بقوّةٍ، حتّى شحبت مفاصل أصابعها.

مرّت فترةٌ طويلةٌ، وهي هنا وحيدةً، تحاول أن تخمّن أفضل الإجابات الممكنة. ما قدر ما كانوا يعرفونه؟ وما الذي يمكن أن يصدّقوه؟ هل ذكر لهم هنري اسمها؟

لا. لو أنّهم عرفوا أنّها تزوّر الوثائق وتُخفي الأطفال اليهود، لاعتقلوها مباشرة. فُتح الباب من خلفها فأصدر صريراً، ثم أغلق.

- مدام موريناك.

نهضت.

دار ڤون رختر حولها ببطء، يحدّق في جسدها. كانت ترتدي فستاناً شاحباً أُعيد إصلاحه كثيراً، من دون جوارب طويلة، وحذاء أكسفورد(*) بنَعلٍ خشبي؛ أمّا شعرها (الذي لم تغسله منذ يومين) فقد غطّته بلفافة رأسٍ قطنيّةٍ ذات عقدةٍ فوق الجبين. شفتاها شاحبتان، فقد نفد أحمر الشفاه منذ مدّة طويلة.

توقّف أمامها، قريباً جداً، وقد شبك يدَيه خلف ظهره.

استجمعت شجاعتها كي ترفع رأسها، فلمّا رفعتْه (ونظرتْ في عينَيه الزرقاوَين) أدركتْ أنّها في مأزق.

- «لقد شوهدتِ مع هنري ناڤار تمشيان في الميدان. وهو متّهمٌ بالعمل مع ماكيسارد ليموزين: أولئك الجبناء الذين يعيشون كالبهائم في الغابة، وقدّموا يد العون للعدوّ في نورماندي». ففي الوقت الذي نزلت فيه قوّات الحلفاء في نورماندي، عاث الماكيسارد في البلاد تخريباً، فقطعوا سكك الحديد، وفجّروا القنابل، وردموا القنوات المائيّة؛ لذلك استمات النازيّون للعثور على أولئك الفدائيّين ومعاقبتهم.

(*) حذاء أكسفورد (Oxford shoes): نوعٌ من الأحذية الجلديّة القصيرة ذات الخيوط. (م)

– أنا بالكاد أعرفه يا هير شتومبانفوهرر. ولا أعرف شيئاً عن الرجال الذين يساعدون العدو.

– هل تستخفّين بي يا مدام؟

هزّت رأسها.

كان يريد أن يضربها. رأتْ ذلك في عينَيه الزرقاوَين: رغبةٌ قميئةٌ مريضة. إنّما نشأتْ تلك الرغبة حين توسّلت إليه، ولا تعرف الآن كيف تقضي عليها.

مدّ يده ومرّر إصبعاً على فكّها. جفلَت. «هل أنتِ بريئةٌ حقاً؟».

– هير شتومبانفوهرر، لقد سكنتَ في بيتي سنةً ونصف. تراني كلّ يوم. أنا أطعم طفليّ وأعمل في الحديقة، وأدرّس في الميتم. ليس في ما أفعله أيّ مساعدة للحلفاء.

مسّد شفتَيها بأطراف أصابعه، ففرّق بينهما قليلاً. «إنْ عرفتُ أنّكِ تكذبين عليّ يا مدام، فسوف أؤذيكِ. وسأستمتع بذلك». أبعد يدَيه: «أمّا إذا قلتِ الحقيقة، الآن، فسوف أتركك، وأترك طفلَيكِ».

سرتْ فيها رجفةٌ من فكرة معرفته بأنّه كان يسكن طوال الوقت مع طفلٍ يهوديّ. سيصبح أضحوكة.

– لا أجرؤ على الكذب عليك أبداً هير شتومبانفوهرر. تأكّد من ذلك.

فقال، وهو يميل عليها، ويهمس في أذنها: «ما أنا متأكّدٌ منه يا مدام، هو أنّني أرجو أنّكِ تكذبين عليّ».

تراجع قليلاً.

ثمّ قال مبتسماً: «أنتِ خائفة».

فقالت بصوتٍ ضعيف: «ليس لديّ ما أخاف منه».

- سنرى إن كان هذا صحيحاً؛ أمّا الآن، فيمكنكِ العودة إلى البيت يا مدام. وادعي ربّكِ ألّا أكتشف أنّكِ كذبتِ عليّ.

*

في ذلك اليوم نفسه، مشتْ إيزابيل في الشارع الحجريّ في البلدة المرتفعة بأورونيا. كانت تسمع صدى خطواتٍ من خلفها. في رحلتها من باريس كان آخر «تغريداتها» (الرائد فولي والرقيب سمايث) قد اتّبعا تعليماتها بالحرف، فاستطاعا العبور من عدّة نقاط تفتيش. لم تنظر خلفها منذ مدّة، لكنّها كانت واثقةً من أنّهما هناك يمشيان وفقاً لتعليماتها، بحيث يترك الواحد منهما مئة متر تقريباً بينه وبين الآخر.

على قمّة التلّ رأتْ رجُلاً يجلس على دكّةٍ أمام المحلّ المغلق. يحمل لافتةً كُتب عليها: **أصمّ أبكم، في انتظار ماما كي تأخذني**. من المدهش أنّ النازيّين ما يزالون ينخدعون بهذه الحيلة البسيطة.

ذهبت إيزابيل إليه، وقالت بإنجليزيّتها الثقيلة: «لديّ مظلّة».

فقال: «يبدو أنّها ستمطر».

أومأتْ. «امشِ على بعد خمسين متراً على الأقلّ خلفي».

وواصلت صعودها في التل، بمفردها.

فلمّا وصلت إلى منزل مدام بابينو كان اللّيل قد أوشك. عند منعطف الطريق توقّفت، في انتظار أن يلحق بها الطيّارون.

وصل الرجُل الذي كان جالساً على الدكّة أوّلاً. فقال، وهو يخلع قبّعة البيريه: «مرحباً سيدّتي. أنا الرائد توم دود. أقدّم لكِ تحيّات سارة من پاو. كانت مضيافةً من الدرجة الأولى».

ابتسمتْ له بتعب. كان أولئك اليانكيّون...صارخين جدّاً بابتساماتهم وأصواتهم العالية. وبامتنانهم. ليسوا كالبريطانيّين أبداً؛ فهؤلاء يشكرونها بكلماتٍ مقتضبة، وأصواتٍ هادئة، ومصافحةٍ قويّة. لم تعد تذكر عدد المرّات التي عانقها فيها أميركيّ بقوّةٍ حتّى كادت تفقد توازنها. فقالت للرائد: «أنا جولييت».

بعد ذلك وصل الرائد جاك فولي. ابتسم لها ابتسامةً عريضة وقال: «يا لها من جبال».

قال دود، وهو يمدّ يده: «صدقتَ. دود. من شيكاغو».

- فولي. من بوسطن. سعيد برؤيتك.

وآخر من وصل الرقيب سمايث. وصل بعد عدّة دقائق. قال بتخشّب: «مرحباً يا رجال. كان مشواراً متعباً».

فقالت إيزابيل ضاحكة: «لم ترَ شيئاً بعد».

قادتهم إلى الكوخ، وقرعتْ الباب ثلاث مرّات.

فتحت مدام بابينو الباب قليلاً، ورأتْ إيزابيل من شقّ الباب، فابتسمت، ودعتْهم للدخول. وكالعادة، كان هناك قِدرٌ حديديٌّ على النار في الموقد المتسخّم. جُهّزتْ الطاولة انتظاراً لوصولهم، بكؤوسٍ من الحليب الدافئ، وطاساتٍ فارغةٍ للحساء.

نظرتْ إيزابيل حولها. «إدواردو؟».

- «في الحظيرة، مع طيّارَين. لدينا شحٌّ في الإمدادات. بسبب هذا القصف اللعين. نصف البلدة أصبح حُطاماً». ثمّ وضعتْ يدها على خدّ إيزابيل: «تبدين متعبةً يا إيزابيل. هل أنتِ بخير؟».

كانت لمستُها حانيةً جداً حتّى إنّ إيزابيل لم تقاوم رغبتها في الميل على يدها لحظة. كانت تريد أن تفضي لصديقتها عن مشكلاتها، وتريح صدرها قليلاً، لكنّ هذا من الرفاهيات التي لم تعد متاحةً في زمن الحرب. فكان على المرء أن يحمل متاعبه وَحده. لم تقل إيزابيل لمدام بابينو: إنّ الغستابو وسّعوا بحثهم عن العندليب، أو إنّها كانت قلقةً على والدها، وأختها، وابنة أختها. ما الفائدة؟ لكلِّ أحدٍ أسرةٌ يقلق عليها. كانت هذه مخاوف اعتياديّة، مواضع محدّدة على خريطة الحرب.

أمسكتْ إيزابيل بيدَي المرأة العجوز. ثمّة جوانب بشعة كثيرة في حياتهم الحاليّة، بيد أنّ هناك شيئاً آخر أيضاً: الصداقة المطروقة بالنار، شأنها في القوة شأن الحديد. فبعد سنواتٍ عديدة من العزلة قضتْها إيزابيل منسيّةً في الأديرة والمدارس الداخليّة، كان لا بدّ من أن تُكبر إيزابيل حقيقةَ أنّ لها الآن أصدقاء تهتمّ لأمرهم ويهتمّون لأمرها.

- أنا بخيرٍ يا صديقتي.

- ماذا عن صاحبكِ الوسيم؟

- ما يزال يفجّر الموانئ، ويحيّد القطارات. رأيته قُبيل غزو نورماندي. كنتُ أعرف أنّ شيئاً كبيراً سيحدث. وأعرف أنّه ضالعٌ في الأمر حتّى أخمص قدمَيه. أنا قلقة—.

سمعتْ إيزابيل خَرخرة محرّكٍ من بعيد. فالتفتتْ إلى المدام. «هل تنتظرين أحداً؟».

- لا أحد يأتي إلى هنا بالسيّارة أبداً.

سمعَ الطيارون الصوتَ أيضاً، فتوقّفوا عن الحديث. رفع سمايث رأسه، وأخرج فولي سكّيناً من حزامه.

في الخارج علا ثغاء الماعز. طيفٌ يتحرّك أمام النافذة. وقبل أن تصيح إيزابيل لتحذيرهم، كُسر الباب واندفع ضوءٌ إلى الغرفة، مع عدّة عملاء من الشوتزستافل. «ارفعوا أيديكم!». ضُربت إيزابيل بكعب بندقيّةٍ على رأسها، فشَهَقت واندفعتْ إلى الأمام. لم تحملها ساقاها، فسقطت بقوّةٍ، واصطدم رأسها بالأرضيّة الحجريّة. آخرُ ما سمعته قبل أن تفقد وعيها: «أنتم جميعاً مقبوضٌ عليكم».

الفصل الثالث والثلاثون

استيقظتْ إيزابيل فوجدتْ نفسها مقيّدةً بمقعدٍ خشبيٍّ من معصمَيها وكاحلَيها. تكاد الحبال تنغرسُ في لحمها من شدّة القَيد، حتّى إنّها لم تكن تستطيع الحركة. أصابعها تخدّرت. كان هناك قُمعٌ من الضوء يسقط من لمبةٍ معلّقةٍ في السقف، فيما تفوح الغرفة برائحة العفن، والبول، والماء المتقطّر عبر شقوق الحجر.

اشتعل عود ثقابٍ في مكانٍ أمامها.

سمعت الصوت، وشمَّتْ رائحة الكبريت، فحاولتْ أن ترفع رأسها، بيد أنّ مجرّد الحركة تؤلم ألماً شديداً، فندّت عنها آهة.

جاءها الصوت: «غُوت. تتألّمين».

الغستابو.

سحب كرسيّاً من الظلام وجلس قبالتها، ثمّ قال: «يوجد ألمٌ أم لا يوجد. الخيار لك».

- إن كان الأمر كذلك، فلا يوجد ألم.

ضربها بقوّة، فامتلأ فمها بالدم، بمذاقٍ معدنيٍّ لاذع. أحسّت به يتقطّر على ذقنها.

قالت في نفسها: يومان. يومان فقط.

كان عليها أن تحتمل التحقيق ثماني وأربعين ساعة من دون أن تذكر أسماء. فإن نجحتْ في ذلك، ستمنح والدها، وغيتون، وهنري، وديدييه، وپول، وأنوك، الوقت الكافي لحماية أنفسهم. سيعرفون عمّا قريبٍ أنّ الألمان قبضوا عليها، إنْ لم يكن الخبر قد بلغهم أصلاً. فإدواردو سيحرص على أن يوصل المعلومة إليهم، ثمّ يختبئ.

تلك خطّتهم.

قال، وهو يُخرج دفتراً صغيراً وقلم رصاصٍ من جيب صدره: «اسمك؟».

أحسّت بالدم يقطُر على ذقنها، ثمّ يسقط على حِجرها. «جولييت جيرفيز. لكنكم تعرفون هذا. أوراقي عندكم».

- صحيح، لدينا أوراق تقول: إنّك جولييت جيرفيز.

- لماذا تسألني إذن؟

- ما اسمك الحقيقي؟

- اسمي الحقيقي جولييت.

سألها بكسلٍ، وهو يتفحّص أظافره المرتّبة: «وأين وُلدتِ؟».

- في نِيس.

- وماذا كنتِ تفعلين في أورونيا؟

- أنا كنتُ في أورونيا؟

جوابُها شدّ انتباهه، فأعاد نظرته إليها باهتمام. «كم عمرك؟».

- اثنتان وعشرون سنة، أو نحو ذلك، كما أظنّ. لم تعد أعياد الميلاد تعني شيئاً.

- تبدين أصغر عمراً.

- أشعر أنّي أكبَر.

نهض ببطءٍ، ووقف عندها. «أنتِ تعملين مع العندليب. أريد اسمه».

لم يعرفوا من تكون.

- لا أعرف شيئاً عن الطيور.

جاءتها الضربةُ بدون إنذار، صاعقة. ترنّح رأسها، ودقّ بقوّةٍ في ظهر المقعد.

- حدّثيني عن العندليب.

- قلت لك—.

هذه المرّة ضربها بمسطرةٍ حديديّةٍ على خدّها، بقوّةٍ شعرتْ معها بأنّ الضربة شقّت جلدها، وأسالت دماءها.

- ابتسم وقال ثانية: «العندليب».

بصقت بأقوى ما تستطيع، لكنّ البصقة خرجتْ على شكل فقاعةٍ من الدم سقطتْ على حِجرها. هزّت رأسها كي تُبصر جيّداً، لكنّها ندمت فوراً على ذلك.

فقد كان يقترب منها من جديد، يضرب بالمسطرة التي تقطر الأحمرَ في راحة يده. «اسمي الِرتمايستر شمِت، كوماندان الغستابو في أمبواز. وأنتِ؟».

قالت في نفسها: «سوف يقتلني». حاولت أن تقاوم قيودها، تتنفّس بقوّة. ذاقت دمَها، وهمستْ له، راجيةً بكلّ ما لديها من أملٍ أن يصدّقها: «جولييت».

لا يمكنها أن تحتمل هذا يومَين.

هذا هو الخطر الذي حذّرها منه الجميع، الحقيقة المخيفة في ما كانت تقوم به. تُرى كيف كان الأمر يبدو مثل مجرّد مغامرة؟ سوف تتسبّب في مقتلها، ومقتل كلّ الذين تحبّهم.

– لقد قبضنا على جميع رفاقك. فلا معنى لأن تموتي كي تحمي أمواتاً.

هل هذا صحيح؟

لا. لو كان صحيحاً، لكانت هي أيضاً ميّتة.

قالت مرّةً أُخرى: «جولييت جيرفيز». صفعها بالمسطرة بقوّةٍ حتّى إنّ المقعد انقلب جانباً وسقط على الأرض. دقّ رأسُها الأرضيّة الحجريّة في الوقت نفسه الذي تلقّت فيه ركلةً في بطنها من مقدّمة حذائه. لم تعرف ألماً كهذا من قبل. سمعتْه يقول: «والآن يا مدموازيل، أخبريني باسم العندليب». لكنّها لم تقوَ على الإجابة، حتّى لو كانت تريد.

ركلها مرّةً أُخرى، بأقصى ما يستطيع من قوّة.

*

الوعيُ يصحبُه الألم.

كلُّ شيءٍ يؤلمها: رأسها، وجهها، جسدها. مجرّد رفع الرأس يحتاج إلى جهدٍ، وشجاعة. كانت ما تزال مقيّدةً من الكاحلَين والمعصمَين. تحتّك الحبالُ بجلدها المتشقّق، تنغرس في لحمها الموجوع.

أين أنا؟

يحيطُ الظلام بها، لكنّه ليس ظلاماً عاديّاً، ليس غرفةً بلا أضواء. كان هذا شيئاً آخر. سوادٌ مُحكمٌ يضغط على وجهها المحطّم. أحسّت بوجود جدارٍ لا يبعد أكثر من سنتيمترات قليلة عن وجهها. حاولت أن تحرّك قدمها قليلاً إلى الأمام، فدوّى الألم مرّةً أُخرى، يحرقها بشدّةٍ في جروح الحبلِ على كاحلَيها.

كانت في صندوق.

وكانت تشعر بالبرد. تحسُّ بأنفاسها، وتعرف أنّها لفرط البرد تُرى واضحة. شعرُ منخرَيها متجمّد. ترتعدُ بشدّة، ولا تملك أن توقف ارتعاشها.

صرخَتْ في فزع، فارتدّ صدى صرختها إليها، وضاع.

*

بردٌ قارس.

ترتعدُ إيزابيل من شدّة البرد، وتئنّ. تُحسّ بأنفاسها، تتجمّع أمام وجهها، وتستحيلُ إلى صقيعٍ على شفتَيها، حتّى أهدابها تجمّدت.

فكّري يا إيزابيل. لا تستسلمي.

حرّكت جسدها قليلاً، تصارع البرد والألم.

كانت مُقعَدةً، وما تزال مقيّدةً من المعصمَين والكاحلَين.

عارية.

أغمضتْ عينَيها، وقد اشمئزّتْ من تخيّله، وهو يعرّيها، ويتلمّسها حين فقدتْ الوعي.

في ذلك الظلام الزنخ تناهى إلى مسامعها صوت طنطنة. في البدء

ظنّت أنّه صوت دمها، ينبض في ألم، أو قلبها يدقّ في استماتةٍ كي يبقى حيّاً، لكنّه كان شيئاً آخر.

كان محرّكاً، قريباً منها، يهدر. لكن ما تراه يكون؟

ارتعدت مرّةً أُخرى، وهي تحاول أن تهزّ أصابع يدَيها وقدمَيها لمقاومة الموات الذي أصاب جوارحها. ابتدأ الأمرُ بألمٍ في قدمَيها، ثمّ وخزٍ، والآن...لا شيء. حرّكت الشيء الوحيد الذي تستطيع تحريكه؛ رأسها، فخبط في شيءٍ قاسٍ. كانت عاريةً، مقيّدةً بكرسيّ في داخل...

مكان متجمّد. مظلم. يهدر. صغير...

ثلّاجة.

أصابها الذعر، وحاولت باهتياجٍ شديدٍ أن تفكّ قيدها، أن تطيح بسجنها، لكنّ جهدها لم يفعل سوى أن يكسرها. يهزمها. لم تستطع أن تتحرّك. لم تستطع أن تحرّك شيئاً سوى أصابع يدَيها وقدمَيها، لكنّها كانت متجمّدة. لا، ليس هكذا!!

سوف تتجمّد حتى الموت، أو تختنق.

كان صدى أنفاسها يرتدّ إليها، يحيطها، برعشة. بدأت تبكي، فتتجمّد دموعُها، تستحيلُ رقاقات ثلجٍ على وجنتَيها. فكّرتْ في كلّ أحبابها: ڤيان، وصوفي، وغيتون، ووالدها. لماذا لم تصرّح لهم بحبّها كلّ يومٍ حين كانت لديها الفرصة؟ ستموت الآن بدون أن تقول شيئاً لڤيان.

ڤيان. هذا ما خطر لها. الاسم وحده. ثلثٌ منه دعاء، وثلثٌ منه ندم، وثلثٌ للوداع.

*

جثّةٌ معلّقةٌ من كلّ عمود إنارةٍ في ميدان البلدة.

توقّفتْ ڤيان، لا تصدّق ما ترى. وفي الطرف الآخر عجوزٌ تقف تحت واحدةٍ من تلك الجثث. كان الجوّ ممتلئاً بصرير الحبال المشدودة. تحرّكتْ ڤيان في الميدان بحذر، حريصةً على ألّا تقترب من أعمدة الإنارة—.

أجسادٌ راكدةٌ، منتفخةٌ، مزرقّة الوجوه.

لا يقلُّ عددهم عن عشرة رجال، من الواضح أنّهم فرنسيّون. ومن سيمائهم يبدو أنّهم من الماكيسارد. كانوا يرتدون بناطيل بنّية اللّون، وقبّعات بيريه سُوداً، وأربطة يدٍ ثلاثيّة الألوان.

سارتْ ڤيان إلى العجوز، وأخذتها من كتفَيها. «لا ينبغي لكِ الوقوف هنا».

فقالت المرأة في صوتٍ متحشرج: «ابني. لا يمكن أن يبقى هنا—».

قالت لها ڤيان بصوتٍ أكثر حسماً هذه المرّة: «تعالَي». وقادت العجوز إلى خارج الميدان. فلمّا وصلتا إلى شارع لا غرانده، تملّصتْ منها المرأةُ وابتعدت، تتمتم لنفسها، وتبكي.

مرّت ڤيان من ثلاث جثثٍ أُخرى في طريقها إلى محلّ الجزارة، وبدا أنّ كاريڤو بأكملها قد حبست أنفاسها. كان الحلفاء قد قصفوا البلدة باستمرارٍ في الأشهر القليلة الماضية، فتحوّل عددٌ من مباني البلدة إلى حطام. كان هناك دوماً ما هو آيل للسقوط، أو الانهيار.

أمّا الهواء، فكان يفوحُ برائحة الموت، والبلدة في صمت. يلوحُ الخطر في كلّ طيفٍ، وفي كلّ ركن.

سمعتْ ڤيان في الطابور نساءً يتحدّثن بصوتٍ خفيض.

- انتقام...

- الوضع أسوأ في تُوله...

- هل سمعتِ بما حدث في أورادور سور غلان؟

على الرغم من كلّ ما حدث، على الرغم من الاعتقالات، والإعدامات، والترحيل، لم تصدّق ڤيان الأقاويل التي سمعتها مؤخّراً. في صباح أمس دخل النازيّون قرية أورادور سور غلان (القريبة من كاريڤو) وقادت أهلها تحت تهديد السلاح إلى كنيسة البلدة، لفحص وثائقهم كما قالوا.

همست المرأة التي تحدّثت ڤيان إليها: «جميع أهل البلدة. رجالها، ونساؤها، وأطفالها. أطلق النازيّون النار عليهم جميعاً، ثمّ أغلقوا الأبواب عليهم، وأحرقوا الكنيسة. هذا ما حدث فعلاً». وسالت دموعها.

فقالت ڤيان: «غير معقول».

- ابنتي ديدي رأتهم يطلقون النار على امرأةٍ حُبلى في بطنها.

- رأتْ ذلك؟

فأومأت لها المرأة. «اختبأت ديدي ساعاتٍ خلف قفص أرانب، ورأتْ النار تأكل البلدة. قالت: إنّها لن تنسى أبداً الصرخات التي سمعتْها. فقد كان بعضهم ما يزالون أحياءً في الحريق».

ويُقال: إنّ هذا كان انتقاماً لوقوع شتومبانفوهرر في أسْرِ الماكيسارد.

أتُرى يحدث هذا هنا أيضاً؟ أفإن ساءت أحوالُ الحرب مرّةً أُخرى، يجمعُ الغستابو، أو الشوتزستافل، أهلَ كاريڤو، ويغلقون عليهم قاعة البلديّة ويحرقونهم؟

أخذتْ علبة الزيت الصغيرة التي استطاعتْ الحصول عليها ببطاقة التموين وخرجتْ من المحلّ، وأمالت غطاء رأسها كي تحجب وجهها.

أمسك بها شخصٌ من ذراعها، وجرّها بقوّةٍ إلى اليسار. تعثّرتْ، وكادت تسقط.

جرّها إلى زقاقٍ مظلم، وكشف عن وجهه.

قالت ڤيان، وقد كاد يُخرسها الذهول من منظره: «بابا!».

لقد رأتْ ما فعلتْه الحرب به، وكيف رسمتْ تجاعيد على جبينه، وكيسَين منفوخَين تحت عينَيه المتعبتَين. رأتْ كيف شحب وجهُه، وابيضّ شعرُه. كان هزيلاً للغاية، وبُقع الشيخوخة تغزو وجنتَيه الغائرتَين. ذكّرها هذا بعودته من الحرب العظمى، حين عاد في أسوأ حال.

- هل من مكانٍ هادئٍ نتحدّث فيه؟ لا أفضّل أن ألتقي صاحبك الألماني.

- ليس صاحبي، ولكنْ نعم.

كانت تتفهّم عدم رغبته في رؤية ڤون رختر. «البيت المجاور لبيتي لا أحد فيه. من ناحية الشرق. لم يأبه به الألمان لصِغَر مساحته. يمكننا أن نلتقي هناك».

- بعد عشرين دقيقة.

رفعتْ ڤيان غطاء رأسها مرّةً أخرى، وخرجت من الزقاق. فلمّا غادرت البلدة ومشت في الطريق الموحل إلى بيتها، حاولت أن تخمّن سبب مجيء أبيها. كانت تعرف (أو تفترض) أنّ إيزابيل تسكن معه في باريس، على الرغم من أنّ ذلك في حدّ ذاته مجرّد تخمين. فعلى حدّ علمها، كان كلٌّ منهما يعيش حياةً منفصلةً في المدينة نفسها. لم تسمع خبراً عن إيزابيل منذ تلك الليلة المشؤومة في الحظيرة، على الرغم من أنّ هنري طمأنها عليها.

مضت بسرعةٍ من أمام المطار، تكاد لا تلحظ الطيّارات التي تداعت، وهي تحترق من أثر غارةٍ جديدة.

توقّفت عند بوّابة بيت راشيل، ونظرتْ حولها. لم يتبعها أحد، ولا يبدو أنّ أحداً يراقبها. انسلّتْ إلى الفناء وهرعت إلى البيت المهجور. كان الباب قد كُسر منذ فترةٍ طويلة، فدخلتْ.

البيتُ مُظلمٌ، مغطّى بالتراب. صودر الأثاثُ كلُّه تقريباً، أو سُرق، فيما تركت اللوحات المسروقة آثارها على الجدران. لم تبق في الصالة سوى أريكةٍ صغيرةٍ، بوسائدَ متّسخةٍ، وقدَمٍ مكسورة. جلستْ ڤيان في توتّر، وهي تدقّ بقدمها الأرضيّة المفروشة بالأَسَل.

راحتْ تقضم أظفارها من فرط توتّرها، ثمّ سمعتْ وقع أقدام. سارتْ إلى النافذة، ورفعتْ الستارة.

كان والدُها لدى الباب. إلّا أنّه لم يكن والدها، هذا الهَرِم ذو الظهر المحنيّ.

أدخلته إلى البيت. فلمّا نظر إليها، تعمّقت تجاعيد وجهه، وبدتْ طيّات بشرته مثل أكياسٍ من الشمع المذاب. مرّر يده على ما تبقّى من شعر رأسه، فقفّتْ خصلات شعره البِيض في شكل سنبلات، وكأنّه قد تعرّض لصعقةٍ كهربائيّة.

اقترب منها ببطءٍ، وهو يعرج شيئاً قليلاً. فلمّا رأتْ تلك الحركة الغريبة عادت إليها حياتُها كلّها في لحظة. واسترجعت قول أمّها: سامحيه يا ڤيان، لم يعد كما كان، ولا يستطيع أن يغفر لنفسه...الأمر متروكٌ لنا كي نغفر له.

ناداها بصوتٍ لطيفٍ، وقد تعلّق صوتُه الأجشُّ باسمها. مرّةً أخرى

عادت إليها ذكريات «الما قبل»، حين كان هو. كان خاطراً نسيتْه منذ زمن. ففي سنوات «الما بعد» حبستْ كلّ أفكارها عنه في صندوقٍ مغلق. وبمرور الزمن، نسيَت. لكنّها الآن تذكّرتْ. شعرتْ بالخوف من هذا الشعور. فقد جرحها مرّاتٍ كثيرة.

- بابا.

سار إلى الأريكة وجلس. غارت الوسائد مُجهَدةً تحت ثقله. «كنتُ بئس الأب لكما».

كان اعترافُه مفاجئاً (وصادقاً)، حتّى إنّ ڤيان لم تجد ما تقوله.

تنهّد. «وقد فات الأوان على إصلاح الأمر».

جلستْ إلى جانبه، وقالت في حذر: «لا يفوتُ الأوان أبداً». أترى ما تقوله صحيحاً؟ هل تستطيع أن تغفر له؟

نعم. جاءها الجوابُ فوراً، مباغتاً كمجيء والدها.

التفتَ إليها. «لديّ الكثير لأقوله، ولا وقتَ لقوله».

- ابقَ هنا. سأعتني بك وبـ—.

- إيزابيل قُبض عليها بتهمة مساعدة العدو. وهي مسجونة في جيرو.

شهقتْ بحدّة. كان شعورها بالحسرة هائلاً، مثل شعورها بالذنب. ما آخرُ ما قالته لأختها؟ لا تعودي. «كيف نساعدها؟».

- نساعدها؟ سؤال جميل، لكنّه ليس سؤالاً يُطرح. ليس عليكِ أن تفعلي شيئاً. ابقي هنا في كاريڤو وابتعدي عن المتاعب، كما فعلتِ حتى الآن. احرصي على سلامة حفيدتي. وانتظري زوجك.

لم تملك ڤيان إلّا أن تمنع نفسها من قول: لقد تغيّرتُ يا بابا. أنا أساعد

في إخفاء الأطفال اليهود. كانت تريد أن ترى نفسها في نظرته، تريد أن تجعله مرّةً واحدةً يفخر بها.

هيّا. أخبريه.

كيف لها أن تخبره؟ كان يبدو هَرِماً للغاية، وهو جالسٌ إلى جانبها، هَرِماً، مُحطّماً، تائهاً. لم تبق فيه من علامات الماضي سوى لمحة بسيطة. لم يكن هناك من داعٍ لأن يعرف بأنّ ڤيان تخاطر بحياتها أيضاً. لا داعي لأنْ يقلق من فقدان كلا ابنتَيه. فليصدّق أنّها في أمان. فليصدّق أنّها جبانة.

- ستحتاجُ إيزابيل إليكِ، إلى بيتٍ تعود إليه حين ينتهي كلُّ هذا. أخبريها أنّها أحسنت صُنعاً. فسوف تسائل نفسها عن ذلك ذات يوم. ستعتقد أنّه كان ينبغي لها البقاء معك وحمايتك. سوف تتذكّر أنّها تركتكِ مع النازيّ، وخاطرتْ بحياتكِ وحياة ابنتك، وسوف يعذّبها هذا الخيار.

سمعتْ ڤيان اعترافه الكامن بين السطور. كان يحكي قصّته هو بالطريقة الوحيدة الممكنة، يغلّفها بقصّة إيزابيل. كان يعترف بأنّه تعذّب من خياره بالانضمام إلى الجيش في الحرب العظمى، وتحسّر على ما فعله القتالُ بأسرته. كان يعرف كم تغيّرَ حين عاد، وكيف فرّق الألمُ بينه وبين زوجته وطفلتَيه، عوضاً عن أن يقرّبه منهم. لقد شعر بالندم من إبعاد ابنتَيه، وتركهما مع المدام دوما طوال تلك السنوات.

ما أثقل هذا الخيار! ولأوّل مرّةٍ رأت طفولتها بعينَيها الآن، من بعيد، بالحكمة التي منحتْها إيّاها هذه الحرب. لقد كسرتْ الحربُ أباها. كانت تعرف ذلك، وقد قالتها أمّها مراراً وتكراراً، لكنّها الآن استوعبت.

لقد كسرتْه.

قال لها: «ستكونان جزءاً من الجيل الذي يمضي، ويتذكّر. وسيكون

من الصعب نسيان ما حدث. لا بدّ من أن تبقيا معاً. احرصي على أن تشعر إيزابيل بحبّك. وهذا ما لم أفعله أنا، مع الأسف. فات الأوان الآن».

- تتحدّث كما لو أنّك تودّعنا.

أبصرتْ ڤيان النظرة الحزينة الكئيبة في عينَيه، وأدركت سبب مجيئه، والكلام الذي جاء لكي يقوله. سوف يضحّي بنفسه من أجل إيزابيل. لم تعرف كيف، لكنّها عرفتْ. هذه طريقته لتعويضهما عن سنوات الخذلان. قالت: «بابا. ما الذي تنوي فعله؟».

وضع يده على خدّها، فكانت لمسته دافئة، ثابتة، حانية. لم تكن تدرك قبل ذلك قدر اشتياقها إليه (أو حتى تعترف لنفسها به). والآن، حين بدأت ترى لمحةً من مستقبلٍ مختلفٍ يُعوِّض عمّا فات، تبخّر أمام عينَيها. «ما الذي قد تفعلينه لتنقذي صوفي؟».

- أيّ شيء.

حدّقتْ ڤيان في هذا الرجُل الذي علّمها (قبل أن تغيّره الحربُ) حبّ الكتب والكتابة، والنظر إلى الغروب. كانت قد نسيت هذا الرجُل زمناً طويلاً.

قال، وهو يناولها مظروفاً: «لا بدّ من أن أذهب». كتب بخطّه المرتعش على المظروف: إيزابيل وڤيان: «اقرآها معاً».

ثمّ نهض واستدار للرحيل.

لم تكن مستعدّةً لفَقده، فمدّت يدها تتخطّفه، فإذا بشيءٍ من كمّه ينقطع. حدّقتْ في راحة يدها: قطعة من القطن المخطّط بالأبيض والبنّي. قماشةٌ مثل تلك المعلّقة في أغصان الشجرة. تذكاراتٌ للأحبّة المفقودين.

قالت بهدوء، وهي تُدرك صِدق كلامها الآن، ودائماً: «أحبّك بابا».

كان الحبُّ قد تحوّل إلى فقدٍ، تمكّنتْ من إبعاده عن حياتها، لكنّ شيئاً من ذلك الحبّ ما يزال في مكانه. حبّ الفتاة لأبيها. حبٌّ لا يتبدّل. لا يُحتمل، لكنّه لا ينكسر أبداً.

- كيف تستطيعين؟

بلعتْ ريقها بصعوبةٍ، ورأتْ عينَيه تغرورقان بالدمع. «وكيف لا أستطيع؟».

نظر إليها نظرةً أخيرةً متريّثةً، وقبلةً على كلّ خدّ، ثمّ تراجع. قال لها بصوتٍ خفيضٍ كادت لا تسمعه: «وأنا أحبتكِ أيضاً». ثمّ انصرف.

راقبتْه ڤيان وهو يبتعد، فلمّا اختفى عادت إلى بيتها. توقّفتْ هناك عند شجرة التفّاح الممتلئة بقطع القماش. كانت الشجرة قد ماتت في تلك السنوات التي ربطتْ فيها الخيوط. أشجار التفّاح الأُخرى سليمة؛ أمّا شجرة التذكارات هذه فكانت سوداء ملتوية، شأنها شأن البلدة المقصوفة من خلفها.

ربطت خيط أبيها إلى جانب خيط راشيل.

ثمّ دخلت البيت.

كانت هناك نارٌ مُشعلةٌ في الصالة، فأصبح البيتُ دافئاً مدخّناً. تبذير. عبَست، وأغلقت الباب خلفها. «يا أطفال!».

- إنّهما في غرفتي في الأعلى. أعطيتهما بعض الشوكولاتة، ولعبةً يلعبان بها.

ڤون رختر. ما الذي أتى به في منتصف النهار؟

هل علم شيئاً عن إيزابيل؟

أتراه رآها مع والدها؟

- شكرتْني ابنتُك على الشوكولاتة. يا لها من شيءٍ صغير جميل!

كانت ڤيان تدرك أنّه من الخطأ إظهار خوفها من كلامه، فظلّتْ صامتةً ساكنةً، تحاول أن تهدّئ من تسارع نبضها.

- «أمّا ابنُك». وشدّد قليلاً على تلك الكلمة: «فلا يشبهكِ في شيء».

- ز-زوجي، و—.

انقضّ بسرعةٍ، ولم تره يتحرّك، فأمسك بها من ذراعها واعتصرها بقوّة، يلوي جلدها الناعم. ندّتْ عنها صرخةٌ خفيفةٌ، وهو يدفعها عرض الحائط. «هل ستكذبين عليّ مرّةً أُخرى؟».

أخذ يدَيها ولواهما خلف رأسها، فثبّتهما إلى الجدار بيدٍ واحدة. قالت: «أرجوك، لا...».

لكنّها أدركتْ على الفور خطأ التوسّل في هذا الموقف.

- راجعتُ السجلّات. لا يوجد إلّا طفلةٌ واحدةٌ لكِ أنتِ وأنطوان. صوفي. وقد دفنتما الآخرين. فمن يكون الصبيّ؟

استبدّ بها الخوف فلم تستطع أن تفكّر جيّداً، وكلّ ما كانت متأكّدةً منه هو أنّه لا يمكنها قول الحقيقة، وإلّا رُحِّل دانييل. واللهُ وحدَه يعلم ما قد يفعلونه بها...وبصوفي. «ماتت ابنةُ عمّ أنطوان حين ولدتْ دانييل، فتبنّينا الطفل قُبيل اندلاع الحرب. وأنت تعرف صعوبة الإجراءات الرسميّة هذه الأيّام، لكنّني أملك شهادة ميلاده وشهادة تعميده. إنّه ابننا الآن».

- ابن أختكم إذن. من دمكم وليس من دمكم. من يثبت أنّ أباه ليس شيوعيّاً؟ أو يهوديّاً؟

ازدردتْ ڤيان لعابها، وهي ترتجف. لم يتأكّد من شيء. «نحن كاثوليكيون. وأنت تعرف ذلك».

- ما الذي قد تفعلينه للاحتفاظ بهذا الصبي؟

- أيّ شيء.

فكّ أزرار قميصها، ببطء، يعذّب كلّ زرّ، وهو يخرجه من فتحته. فلمّا انكشفت صدريّتها، أدخل يده داخلها، يمرّرها على نهدها، ويقرص حَلَمتها بقوّةٍ جعلتها تصرخ ألماً. سألها: «أيّ شيء؟».

ازدردت لعابها بصعوبة.

قالت: «في غرفة النوم أرجوك. طفلاي».

تراجع. «تفضّلي يا مدام».

- ستسمح لي بأن أبقي دانييل هنا؟

- هل تفاوضينني؟

- نعم.

أمسك بها من شعرها وجرّها بقوّة إلى غرفة النوم. ركل الباب بحذائه ليغلقه، ثمّ دفع بها إلى الحائط. ندّت عنها صرخةٌ، فثبّتها في مكانها ورفع تنّورتها، ثمّ مزّق سروالها الداخلي المخيط.

أشاحت بوجهها وأغمضتْ عينَيها، فيما كان يفكّ حزامه وأزراره.

- انظري إليّ.

لم تحرّك ساكناً، بلا أدنى نَفَس. ولم تفتح عينَيها.

فضربها مرّةً أُخرى، لكنّها ظلّت في مكانها، وعيناها مغمضتان بقوّة.

- إنْ نظرتِ إليّ، سيبقى دانييل.

أدارت رأسها، وفتحتْ عينَيها ببطء.

- نعم، هكذا.

كزّت على أسنانها، وهو يخلع بنطاله، ثمّ يفرّق بين ساقَيها، لينتهك جسدها وروحها في الوقت نفسه. لم تُصدر أيّ صوت.

ولم تُشِحْ بنظرها بعيداً.



الفصل الرابع والثلاثون

حاولتْ إيزابيل أن تزحف لتبتعد عن...ماذا؟ أتُراها رُكلت قبل قليلٍ أم أُحرقتْ؟ أم حُبست في ثلاجة؟ لم تعد تذكر. جرّت قدمَيها الداميتَين الموجوعتَين على الأرضيّة، سنتيمتراً مفعماً بالألم، فسنتيمتراً آخر. كلُّ شيءٍ يوجعها: رأسُها، ووجنتاها، وفكّها، ومعصماها، والكاحلان.

شدّها شخصٌ من شعرها، ودفع بها، ثمّ انغرستْ أصابعُ قذرةٌ إلى فمها تفتحه، وشيءٌ من البراندي يُسكب في فمها، حدّ الاختناق. بصقتْه.

كان شعرها يذوب؛ إذْ يسيلُ ماءُ الثلج على وجنتَيها.

فتحتْ عينَيها ببطء.

رجُلٌ يقف أمامها، يدخّن سيجارة. أصابتها الرائحة بالغثيان.

منذ متى وهي هنا؟

فكّري يا إيزابيل.

لقد نُقلت إلى هذه الزنزانة الرطبة المكتومة. ومضى عليها صباحان رأتْ فيهما الشمس، صحيح؟

صباحان؟ أم صباح واحد؟

هل منحتْ رفاقها ما يكفي من الوقت للاختباء؟ لم تستطع أن تفكّر.

كان الرجُل يتحدّث، يطرح أسئلةً عليها. انفتح فمه، وانغلق، ونفث دخاناً.

جفَلتْ بدون إرادةٍ منها، وتلوّت على نفسها، وقرفصت. ركلَها الرجُلُ الواقف خلفها في ظهرها، بقوّةٍ، فظلّتْ في مكانها.

إذنْ رجُلان: واحدٌ أمامها، وواحدٌ في الخلف. ركّزي على الرجُل الذي يتحدّث.

ماذا يقول؟

- اجلسي.

كانت تريد أن تتحدّاه فلا تطيع أوامره، لكنّ قواها لا تسعفها. نهضتْ وجلست على الكرسيّ. كان جلدُ معصمَيها متشقّقاً دامياً، ينزّ بالصديد. استخدمت يدَيها كي تستر عُريها، لكنّها أدركتْ أنّ ذلك لا يفيد، فسوف يفرّق بين ساقَيها ليقيّد كاحلَيها بالكرسي.

فلمّا جلستْ، ضربَها شيءٌ ناعمٌ في وجهها، ثمّ سقط على حِجرها. نظرتْ في برود.

فستان. لكنّه ليس فستانها.

ضمّتْه إلى نهدَيها العاريَين، ورفعتْ عينَيها.

- ارتديه.

كانت يداها ترتعشان، وهي تقف وترتدي ذلك الفستان الأزرق المجعّد الفضفاض. كان أكبر من مقاسها بثلاث مرّات على الأقل. جاهدتْ كي تزرّره عند الصدر.

قال، وهو يمجّ من سيجارته: «العندليب». توهّج طرف السيجارة، فانحسرتْ إيزابيل غريزيّاً إلى الكرسيّ.

شمِت؛ كان هذا هو اسمه. قالت: «لا أعرف شيئاً عن الطيور».

- اسمُك جوليت جيرفيز.

- قلتُ لكم ذلك مئة مرّة.

- ولا تعرفين شيئاً عن العندليب.

- هذا ما قلته.

أومأ برأسه، فسمعتْ إيزابيل وقع أقدامٍ على الفور، ثمّ فُتح الباب من خلفها.

قالت في نفسها: «ذلك لا يؤلمني.إنّه جسدي فحسب. لا يمكنهم أن يلمسوا روحي». لقد غدت هذه ترنيمتها.

- لم تعد لنا حاجةٌ بك.

كان يبتسم لها بطريقةٍ أفزعتْها.

- أدخِلوه.

وألقي برجُلٍ في الأصفاد إلى داخل الزنزانة.

بابا.

رأتْ الفزَع في عينَيه، فأدركتْ كيف يبدو منظرها: بشفتَيها المتشقّقتَين، وعينَيها المسودّتَين، وخدّها الممزّق...وحروق السجائر على ذراعَيها، والدم الذي يغطّي شعرها. لا بدّ من أن تبقى ساكنةً في مكانها، لكنّها لم تستطع. تحرّكتْ، وهي تعرُج، وتكزّ على أسنانها من شدّة الألم.

لا أثر لكدماتٍ على وجهه، ولا جروح في شفتَيه، ولا آلام على جسده يهدّئها بذراعه.

لم يضربوه، أو يعذّبوه، ما يعني أنّهم لم يستجوبوه. قال والدها للرجُل الذي عذّبها: «أنا العندليب. هل هذا ما كنت تريد أن تسمعه؟».

هزّتْ رأسها، وقالت: «لا». بصوتٍ خفيضٍ لم يسمعه أحد.

قالت، وهي تقف على قدمَيها المحروقتَين الداميتَين: «بل أنا العندليب». استدارت نحو جلّادها الألماني.

ضحك شمِت. «أنتِ؟ العندليب الشهير، فتاةٌ صغيرة؟».

قال والدها شيئاً بالإنجليزيّة للألمانيّ، لكنّه لم يفهمه.

أمّا إيزابيل ففهمت: يمكنهما الحديث بالإنجليزيّة.

كانت إيزابيل قريبةً من أبيها حدّ اللّمس، لكنّها لم تلمسه. توسّلت إليه: «لا تفعل ذلك».

- «قُضي الأمر». على مهلٍ تشكّلت بَسْمتُه، فلمّا تبدّتْ لها أحسّت بصدرها ينقبض. جاءتها الذكرياتُ كالأمواج، تتدفّق فوق كاسر الأمواج الذي صنعتْه في سنوات عزلتها. صورتُه، وهو يأخذها بين ذراعَيه، يدوّرها، يرفعها من عثرةٍ، يزيل ما علق بها من تراب، ويهمس لا: «لا تصرخي يا طفلتي الصغيرة، ستوقظين أمّك...».

سحبتْ أنفاساً قصيرةً، خفيفةً، ومسحتْ عينَيها. كان يحاول أن يعوّضها عمّا فات، ويطلب المغفرة والتكفير عن ذنبه دفعةً واحدةً؛ إذْ يضحّي بنفسه من أجلها. كانت تلك لمحةً مما كان عليه ذات يوم، الشاعر الذي وقعتْ أمّها في غرامه. لربّما استطاع ذلك الرجُل (الذي كان قبل الحرب) أن يجد طريقةً أُخرى، وكلمات مثلى لمداواة ماضيهم المحطّم، لكنّه لم يعد ذلك الرجُل. لقد فقد الكثير، وفي ذلك الفقد أبعد الكثيرين عنه. كانت تلك طريقته الوحيدة كي يقول لها: إنّه يحبّها. فهمستْ له: «ليس بهذه الطريقة».

- ما مِن طريقةٍ أخرى. سامحيني.

تدخّل ضابط الغستابو بينهما، وانتزع والدها من ذراعه، وجرّه نحو الباب.

فراحت تعرُج خلفهما، وهي تصيح: «أنا العندليب!».

صُفق الباب في وجهها، فسحبتْ نفسها إلى نافذة الزنزانة وقبضتْ على قضبانها الصدئة. صرخت: «أنا العندليب!».

في الخارج، وتحت شمسٍ صباحيّةٍ صفراء، جُرّ والدُها إلى الساحة، حيث كانت هناك فرقة إعدام في انتظاره، وقد رفعوا بنادقهم.

تثاقل والدُها في مشيته على أرضيّة الساحة المرصوفة بالحجارة، ومرّ من أمام نافورة. كان شعاع الشمس يضفي على كلّ شيءٍ وهجاً ذهبيّاً جميلاً.

همستْ إيزابيل، وهي تحسّ باندفاع دموعها: «كان يُفترض أن يكون لدينا وقت». كم تخيّلت بدايةً جديدةً لها ولأبيها، ولهم كلّهم. يجتمعون بعد الحرب، هي وفيان ووالدها، فيتعلّمون مرّةً أخرى كيف يضحكون، ويتحدّثون، ويتعاملون كأسرةٍ واحدة.

لكنّ هذا لن يحدث أبداً. لن يُتاح لها أن تعرف أباها، ولن تحسّ بدفء يده في يدها، ولن تغفو على الأريكة إلى جانبه، ولن تستطيع أن تقول كلّ ما كان ينبغي قوله بينهما. ضاع الكلام، واستحال أشباحاً تطير بعيداً، بدون أن تُقال. لن يصبحوا أبداً أسرةً كما وعدتْها أمّها. قالت: «بابا». فجأةً غدتْ كلمةً كبيرةً، حُلماً كاملاً.

استدار والدُها وواجه فرقة الإعدام. رأتْه يقف منتصب القامة، رافعاً

كتفَيه. أبعد خصلات شعره البِيض عن عينَيه الجافتَين. التقت أعينهما. شدّت قبضتَيها على القضبان، تستند بهما.

قرأتْ شفتَيه إذْ قال: «أحبّك».

وانطلق الرصاص.

*

توجّعتْ فيان من سائر جسمها.

استلقتْ على سريرها، يحيطُ بها طفلاها النائمان عن يمينها وعن شمالها، وهي تحاول ألّا تتذكّر اغتصاب البارحة بكلّ تفاصيله.

مشت ببطءٍ، فسارتْ إلى المضخّة واغتسلت بالماء البارد، تجفُلُ في كلّ مرّةٍ تلمس فيها بقعةً متألّمةً من جسدها.

اختارتْ شيئاً يسهل ارتداؤه؛ فستاناً مجعّداً من الكتّان بأزرارٍ عند الصدر وبه صدريّة مبطّنة وتنّورة.

ظلّت طوال اللّيل مستيقظةً على السرير، تضمّ طفلَيها إليها، تارةً تبكي على ما فعله بها (ما أخذه منها)، وتارةً تستشيط غضباً لأنّها لم تستطع أن تمنع ما حدث.

كانت تريد أن تقتله.

وكانت تريد أن تقتل نفسها.

ما عساه يقول أنطوان عنها الآن؟

في الحقيقة كان الجزء الأكبر منها يودّ لو تتكوّر في زاويةٍ مظلمة ولا تكشف عن وجهها أبداً.

غير أنّه حتّى الشعور بالخزي أضحى رفاهيةً في تلك الأيّام. فكيف

لها أن تفكّر في نفسها فيما إيزابيل ما تزال في السجن، ووالدها يحاول أن يخلّصها؟

قالت حين انتهوا من فطورهم (خبز محمّص، وبيض مسلوق): «صوفي. لديّ اليوم مشوار. ابقي في البيت مع دانييل. واقفلي الباب».

- فون رختر—.

- «لن يعود حتى الغد». شعرتْ بحرارةٍ تغزو وجهها. فقد كان هذا تقارباً لا ينبغي لها أن تعرفه. قالت وقد بُحّ صوتها عند الكلمة الأخيرة: «أخبرني بذلك...البارحة».

نهضتْ صوفي. «مامُن؟».

مسحتْ أدمعها. «أنا بخير. ولكنْ لا بدّ من أن أذهب الآن». قبّلت كلّ واحدٍ منهما وأسرعت بالخروج قبل أن تخطر لها أسبابٌ للبقاء في البيت.

مثل صوفي ودانييل.

وفون رختر. لقد قال: إنّه لن يعود الليلة، ولكن من يدري؟ بإمكانه أن يرسل أحداً لمراقبتها. لكنّها إذا ما بالغت في التفكير في الاحتمالات فلن تفعل شيئاً. لقد تعلّمت في أثناء عملها في إخفاء الأطفال اليهود أن تمضي في عملها على الرغم من الخوف.

كان عليها أن تساعد إيزابيل—.

- (لا تعودي).

- (سأسلّمك بنفسي).

وتساعد والدها إن أمكن.

استقلّت القطار وجلست على المقعد الخشبي في عربة الدرجة الثالثة.

كان هناك عدّة ركّاب (أغلبهم نساء) يجلس كلٌّ منهم مطأطئ الرأس، ويداه مشبوكتان على حِجره. على الباب هويشتو مفوهرر(*) يحرسه ببندقيّته. وثمّة فِرقة من الميليشيا (شرطة فيشي الوحشيّة) تجلس في مكانٍ آخر في العربة.

لم تنظر ڤيان إلى أيٍّ من المرأتين اللتَين كانتا معها في المقصورة. إحداهما تفوح رائحتها بالثوم والبصل، فشعرتْ ڤيان بالغثيان في تلك المقصورة الساخنة المكتومة. ولحُسن حظّها أنّ وجهتها لم تكن بعيدة، فقد ترجّلتْ عن القطار بُعيد العاشرة صباحاً، لتحلّ في محطّة القطار الصغيرة في ضواحي جيرو.

والآن ما العمل؟

كانت الشمسُ عاليةً في السماء، تسفع هذه البلدة الصغيرة حدّ الخَدَر. تمسّكتْ ڤيان بحقيبة يدها، وشعرتْ بحبّات العرق تنزل على ظهرها وتتفصّد من جبينها. كثيرٌ من المباني ذات اللون الرمليّ قد قُصفت، فكان الحطام في كلّ مكان. ثمّة مدرسةٌ مهجورةٌ رُسم على جانبَيها الحجريَّين صليبُ لورين أزرق(**).

لم تر أشخاصاً كثيرين على الشوارع الحجريّة المتعرّجة. بين الفينة والأخرى قد ترى فتاةً على درّاجة، أو صبيّاً يدفع عربةً يدويّةً، لكنّ الغالب هو الصمت، في أجواءٍ من الهجران.

ثمّ صرختْ امرأة.

(*) رتبة شبه عسكرية في الحزب النازي، توازي رتبة النقيب. (م)

(**) صليب اللورين (Lorraine Cross): صليبٌ ذو عارضتَين أفقيّتين، يُعدّ رمزاً لمنطقة لورين في شرق فرنسا، وقد استُخدم كذلك رمزاً لحكومة فرنسا الحرّة إبان الحرب العالمية الثانية. (م)

وصلت ڤيان إلى آخر زاويةٍ، ورأت ميدان البلدة. كانت هناك جثّةٌ معلّقةٌ بالنافورة، وقد اصطبغ الماءُ الذي وصل إلى كاحلَيها بالدم. قُيّد رأسُ الرجُل بحزامٍ عسكريٍّ حتى بدا كأنّه مرتاح في وقفته، بفمٍ مرتخٍ، وعينَين مفتوحتَين، بدون إبصار. حُفر الرصاصات تملأ صدره، والدم قد سوّدَ صدر سترته وبنطاله.

والدها.

*

كانت إيزابيل قد قضت ليلتها الماضية متكوّرةً على نفسها في زاويةٍ مظلمةٍ رطبة من زنزانتها. مشهد إعدام والدها يتكرّر في عقلها مرّةً بعد مرة.

عمّا قريبٍ ستُقتل. لا شكّ لديها في ذلك.

ومع انقضاء الساعات (وكان الوقتُ يُحسب بالأنفاس بين شهيقٍ وزفير، وبدقّات القلب)، ظلّت تكتب رسائل وداعٍ متخيّلة إلى أبيها، وغيتون، وڤيان. تنسج ذكرياتها في جملٍ تستذكرها، أو تحاول، لكنّها كلّها تنتهي بعبارة «أنا آسفة». فلمّا جاءها الجنود، وقرقعت المفاتيح الحديديّة في الأقفال القديمة، وصرَّ البابُ المتآكل فوق الأرضيّة، أرادتْ إيزابيل أن تصرخ وتقاوم، أن تقول: لا، غير أنّها لم تجد لصوتها من باقية.

أنهضوها على قدمَيها. كانت امرأةٌ ضخمةٌ كالدبّابة، ألقت بحذاء وجوربَين إليها، وقالت شيئاً بالألمانيّة. من الواضح أنّها لم تكن تتحدّث الفرنسيّة.

أعادت لإيزابيل هويّتها الشخصية التي باسم جولييت. كانت الأوراق مبقّعةً مكرمشة.

الحذاءُ صغيرٌ جدّاً يؤلم أصابعها، لكنّها فرحتْ به. أخرجتْها المرأةُ

من الزنزانة، وصعدتْ بها على درجاتٍ حجريّةٍ غير مستويةٍ، فخرجتْ إلى ضوء الشمس الساطع في الساحة. كان هناك عدّة جنود واقفين عند المبنى المقابل، يعلّقون بنادقهم على ظهورهم، ثمّ رأت جثّة أبيها الممزّقة بالرصاص، معلّقةً بالنافورة، وصرختْ.

رفع كلُّ من في الساحة عينَيه، وأخذ الجنود يشيرون إليها ويضحكون.

فهسهستْ الألمانيةُ الضخمة: «سكوت».

همّت إيزابيل بقول شيءٍ، لكنّها رأت ڤيان قادمةً نحوها.

كانت ڤيان تتخبّط في مشيتها كما لو أنّها لا تسيطر على جسمها، ترتدي فستاناً مهلهلاً ما تزال إيزابيل تتذكّره حين كان جميلاً. شعرُها الذهبي المحمرّ غدا باهتاً هزيلاً، مرفوعاً خلف أذنَيها؛ أمّا وجهها، فكان مجوّفاً مثل كوب شايٍ من الخزف. قالت في هدوء: «جئتُ لأساعدك».

كادت إيزابيل تبكي. لم تكن تريد من الدنيا أكثر من أن تجري إلى أختها الكبيرة، وتجثو عند قدمَيها تطلب الغفران، وتحتضنها فتُبدي عرفانها. كانت تودّ أن تقول: «سامحيني» و«أحبّك»، وكلّ ما بين ذلك من كلمات. لكنّها لم تستطع إلى أيٍّ من ذلك سبيلاً.

استجمعت صلابتها وقالت، وهي تشير برأسها إلى أبيها: «وهو أيضاً جاء ليساعدني. اذهبي. أرجوكِ. انسيني».

دفعتْ الألمانيةُ إيزابيل إلى الأمام، فتعثّرت، وقدماها تصرخان في ألم، لكنّها لم تسمح لنفسها بالنظر إلى الخلف. كانت تظنّ أنّها تُقاد إلى فرقة إعدام، لكنّها مضتْ من أمام جثة أبيها، وأُخرجت من الساحة إلى شارعٍ جانبيّ، حيث كانت هناك شاحنةٌ في انتظارها.

ألقت المرأةُ بإيزابيل في مؤخّرة الشاحنة، فقرفصتْ عند الزاوية

وجلستْ وحيدةً، ثم أُسدل غطاء الشاحنة، فحلّ الظلام. وما إنْ علا صوتُ المحرّك، حتّى أرخت ذقنها على الوهدِ الفارغ ما بين ركبتَيها، وأغمضتْ عينَيها.

حين استيقظتْ وجدتْ كلّ شيءٍ في سكون. كانت الشاحنة قد توقّفتْ، ثمّ علتْ صافرةٌ، من مكانٍ ما.

رُفع غطاء الشاحنة، فانهال الضوءُ إلى الداخل، ساطعاً للغاية حتى إنّ إيزابيل لم تستطع أن ترى شيئاً سوى أطيافٍ تتقدّم نحوها، وتصيح بها: «شْنيل، شْنيل!».

جُرّتْ إلى خارج الشاحنة، وأُلقي بها على الشارع الحجري مثل كيس قمامة. كانت هناك أربع عربات ماشيةٍ في رصيف المحطّة. أُغلقت الثلاث الأولى، فيما كانت الرابعة مفتوحة، وقد زُجّ الأطفال والنساء فيها. كانت الضوضاء شديدةً (صراخ، وبكاء، ونباح كلاب، وصياح جنود، وصفّارات، وهدير القطار المنتظر).

ساق النازيُّ إيزابيل إلى الحشد، يدفعها كلّما توقّفتْ، إلى أن ظهرت العربةُ الأخيرة أمامها.

ثمّ حملها وألقى بها في الداخل. تعثّرت بين الناس، وكادت تسقط لو لا أجساد الآخرين. كانوا ما يزالون يساقون إلى العربة، يبكون ويتمسّكون بأيدي أطفالهم، يحاولون أن يجدوا سنتيمترات قليلة يقفون فيها بين الأجساد.

قضبانٌ حديديّةٌ تغطّي النوافذ. ثمّ رأت إيزابيل في إحدى الزوايا برميلاً واحداً.

حمّامُهم.

أمّا الحقائب، فقد كُوِّمَت في زاويةٍ على صُررٍ من القش.

شقّت إيزابيل طريقها، تعرج وسط زحام الباكين والمتفجّعين وصراخ أطفالهم، تؤلمها قدماها مع كلّ خطوةٍ، حتّى وصلت إلى مؤخّرة العربة. هناك في الزاوية رأت امرأةً تقف بمفردها، تشبك ذراعَيها في تحدٍّ على صدرها، تغطّي شعرها الرماديّ الخشن بوشاحٍ أسْود.

تهلّل وجهُ مدام بابينو المكدوم، وانفرجت شفتاها عن أسنانٍ بنّيةٍ، فيما كادت إيزابيل تبكي من شدّة الفرح لرؤية صديقتها.

همستْ لها وهي تحضنها بقوة: «مدام بابينو».

– «أعتقد أنّه آن الأوان لكي تناديني باسم ميشلين». كانت ترتدي بنطالاً رجاليّاً أطول من مقاسها، وقميصاً من النوع المستخدم للعمل. وضعتْ يدها على وجه إيزابيل المكدوم النازف: «ماذا فعلوا بك؟».

قالت، وهي تحاول أن تبدو على طبيعتها: «أسوأ ما عندهم».

– «لا أظنّ ذلك». سكتَت ميشلين لحظةً، ثمّ أشارت برأسها نحو دلوٍ قرب قدمها. كان مملوءاً بماءٍ رماديٍّ يندلق كلّما اهتزّت الأرضيّة الخشبيّة تحت الأجساد الكثيرة التي تتحرّك. في الدلو مغرفةٌ خشبيّةٌ موضوعةٌ على جانبٍ منه. «اشربي ما دام موجوداً».

ملأتْ إيزابيل المغرفة بالماء الزنخ، وأجبرتْ نفسها على ابتلاعه على الرغم من أنّها كادت تتقيّأ من سوء مذاقه. نهضت، وقدّمتْ لميشلين غَرفةً أُخرى شربتها كلّها، ثمّ مسحت شفتَيها بظهر كمّها.

قالت ميشِلين: «سنواجه مصيراً سيّئاً».

– آسفة لأنّي ورّطتكِ في هذا الأمر.

- لم تورّطيني في أيّ شيءٍ يا جولييت. أنا أردتُ أن أشارك فيه.

عَلَت الصفّارة ثانيةً، فأُغلقت الأبواب، وغرق الجميع في ظلام. جَلجَلتْ الترابيس، فغلّقتْ أبواب العربة عليهم، وانطلق القطار. سقط الناس واحدُهم على الآخر، وعلا صياح الرضّع، وتأوّهات الأطفال. كان هناك شخصٌ يتبوّل في البرميل، فغطّت رائحة البول على نتانة العَرق والخوف.

وضعتْ ميشِلين ذراعها حول إيزابيل، وصعدتا فوق أكوام القشّ، فجلستا هناك.

- «اسمي إيزابيل روسينيول». قالتْها بهدوء، وهي تسمع اسمها؛ إذْ يبتلعهُ الظلام. كانت تريد أن يعرف أحدٌ هُويّتها الحقيقيّة إنْ حدث وقضتْ نحبها في هذا القطار.

تنهّدت ميشِلين. «ابنةُ جولِيَن ومادِلَين».

- هل كنتِ تعرفين ذلك منذ البداية؟

- وِي. لقد أخذتِ من أمّكِ عينَيها، ومن أبيكِ طباعه.

- لقد أُعدم. اعترف بأنّه هو العندليب.

أمسكتْ ميشِلين يدَها. «لا عجب. يوماً ما، حين تصبحين أمّاً، ستفهمين. أذكر أنّني فيما مضى قلتُ في نفسي: إنّهما لا يتواءمان. فلجولِيَن شخصيّة المثقّف الهادئ، ولأمّك شخصيةٌ حيويّةٌ وعزيمةٌ لا تلين. لم أر شيئاً مشتركاً بينهما، لكنّني الآن أعرف أنّ الحبّ كثيراً ما يسير على هذا النحو. الحربُ يا إيزابيل، الحربُ هي التي كسرتْه مثل سيجارةٍ، لا يمكن إصلاحها. حاولتْ أمّك أن تنقذه. حاولت بقوّة».

- حين ماتت...

- وِي. بدلاً من أن يُصلح نفسه، أخذ يشرب وازداد سوءاً على سوء، لكنّ ما صار إليه ليس ما كان عليه. بعض القصص لا تنتهي نهايةً سعيدةً، بما في ذلك قصص الحبّ، بل ربما قصص الحبّ تحديداً.

مرّت الساعات بطيئة. كثيراً ما كان القطار يتوقّف، إمّا ليأخذ مزيداً من النساء والأطفال، وإمّا ليتجنّب القصف. كانت النساء تتبادل الجلوس والوقوف، تحاول الواحدة أن تساعد الأخريات قدر الإمكان. اختفى الماءُ، وامتلأ برميل البول وفاض على الأرضيّة. كلّما أبطأ القطار هرعت إيزابيل إلى جانب العربة تنظر عبر الفتحات، كي تعرف مكانهم، لكنّها لم ترَ إلّا مزيداً من الجنود، والكلاب، والسياط...ومزيداً من النسوة اللائي يُسقنَ كالأنعام إلى عربات القطار. كان النساء يكتبن أسماءهنّ على أوراقٍ صغيرة، أو قماشٍ، ثمّ يدفعنَ بها عبر الشقوق في جدران العربة، تشبّثاً ببصيص أملٍ أن يُذكرنَ.

بحلول اليوم الثاني كان الإنهاك، والجوع، والعطش قد فتك بهنّ، فالتزمن الصمتَ، حفظاً لما تبقّى من لعابٍ في أفواههنّ؛ أمّا الحرارةُ والروائح الكريهة، فلم تكن تُحتمل.

خافي.

أليس هذا ما أوصاها به غيتون؟ قال: إنّ هذا التحذير من ڤيان في ليلة الحظيرة.

لم تفهمه إيزابيل آنذاك. لكنّها استوعبتْه الآن. كانت تظنّ نفسها شديدة البأس.

ولكن ما الذي كان يمكن أن تغيّره في أفعالها؟

همستْ لنفسها في الظلام: «لا شيء».

لو عاد بها الزمان لفعلتْ كلّ شيءٍ مرّةً أخرى.

وهذه ليست النهاية. كان عليها أن تتذكّر هذا؛ فكلُّ يوم تعيشه يحمل فرصةً للخلاص. لا يمكن أن تستسلم. لا يمكن أن تستسلم أبداً.

*

توقّف القطار. نهضتْ إيزابيل، بعينَين عمشاوَين، وجسدٍ متألّمٍ من أثر الضرب في المعتقل. سمعتْ أصواتاً حادّةً، وكلاباً تنبح، ثمّ علتْ صافرة.

قالت إيزابيل، وهي تهزّ رفيقتها برفق: «استيقظي يا ميشلين».

فنهضتْ ميشلين ببطء.

شيئاً فشيئاً قام السبعون شخصاً الآخرون (نساء وأطفال) من سُبات الرحلة. نهض الجالسون، وتراصّت النساء جنباً إلى جنب من تلقاء الغريزة.

جَفَلتْ إيزابيل من شدّة الألم، وهي تقف على قدمَين ممزقّتَين، في حذاءٍ شديد الضيق. أمسكت بيد ميشلين الباردة.

انفتحتْ أبواب العربة، فانصبّ ضوء الشمس وأعماهم جميعاً. رأتْ إيزابيل ضبّاط الشوتزستافل بملابسهم السود، وكلابهم التي تنبح وتجأر. كانوا يصيحون في النساء والأطفال، بكلماتٍ غير مفهومة، واضحة المعنى. انزلوا، تحرّكوا، اصطفّوا.

ساعدت كلّ امرأةٍ صاحبتها في النزول، وتمسّكت إيزابيل بيد ميشِلين، وهي تنزل إلى رصيف القطار.

ضربتْها هراوةٌ بقوّةٍ على رأسها، فتعثّرتْ وسقطتْ على ركبتَيها.

قالت لها امرأة: «انهضي. لا بدّ من أن تنهضي».

سمحتْ إيزابيل للمرأة بأن تساعدها في النهوض. مالت على المرأة وهي دائخة، ثمّ جاءت ميشِلين إلى جانبها الآخر ووضعتْ ذراعها على خصرها لتسندها.

إلى يسار إيزابيل سوطٌ يتلوّى في الهواء، ثمّ ينزل على خدّ المرأةِ الورديّ. صرخت المرأةُ ووضعتْ يدها على جلدها الممزّق. سال الدم من بين أصابعها، لكنّها استمرّت في المشي.

شكّلتْ النساء طوابير عشوائيّة، ومشَينَ على الأرض غير المستوية حتّى دخلنَ من بوّابةٍ تحيط بها أسلاك شائكة. ومن فوقهم برجُ مراقبة.

فلمّا دخلنَ رأتْ إيزابيل مئات، بل آلاف النساء كالأشباح، يتحرّكن في فضاءٍ رماديّ لا يبدو من هذا العالم، بأجسادٍ عجفاء، وأعينٍ غائرة، ومنظر الأموات في وجوهٍ رماديّة، ورؤوس حليقة. كنّ يرتدَين ملابس فضفاضةً، مقلّمةً، قذرةً، وبعضهنّ حافيات الأقدام. نساءٌ وأطفالٌ فقط. لا رجال.

ثمّ رأتْ خلف البوّابات وتحت برج المراقبة ثكنات تمتدّ في صفوف.

جثّةُ امرأةٍ ملقاة في الطين أمامهنّ. وطئتْ إيزابيل فوق الجثّة، لكنّها لفرط ما تشعر به من خَدَرٍ لم يخطر في بالها شيء سوى واصلي السير. فآخر امرأةٍ توقّفت عن السير ضُربت ضرباً مبرحاً، ولم تنهض مرّةً أُخرى.

اختطف الجنودُ الحقائب من أيديهنّ، واقتلعوا القلائد، والأقراط، وخواتم الزفاف. بعد ذلك اقتيدت النساءُ إلى غرفةٍ مكتظّة، كلّ واحدةٍ تتصبّب عرقاً، دائخةٌ من شدّة العطش. أمسكتْ امرأةٌ بذراعَي إيزابيل، وسحبتْها جانباً. وما هي إلّا لحظة حتى جُرّدت من ثيابها. هي وجميع من معها. يدان خشنتان تخدشان جسمها بأظافر قذرة. حُلق شعر جسمها كلّه، في إبطَيها، ورأسها، وعانتها، بوحشيّةٍ جرّحتْ جسدها.

- شنيل!

وقفتْ إيزابيل مع الأخريات العاريات، الحليقات، المتجمّدات برداً، تؤلمها قدماها، ورأسها ما يزال ينزّ من أثر الضرب، ثمّ قادوهنّ من جديد إلى مبنى آخر.

فجأةً تذكّرتْ الأخبار التي سمعتْها في مكتب المخابرات البريطانية وعلى إذاعة بي بي سي، عن اليهود الذين يُعدمون بالغاز في معسكرات الاعتقال.

وأحسّتْ بشيءٍ من الذعر، وهي تمشي مع الأخريات إلى غرفةٍ ضخمةٍ ممتلئةٍ برؤوس «الدُش».

وقفتْ إيزابيل تحت واحدٍ منها، عاريةً ترتعش. وعلى الرغم من ضوضاء الحرس، والمعتقلات، والكلاب، سمعتْ جَلجَلةً لنظام تهويةٍ قديم. كان هناك شيءٌ قادمٌ، يخشخش، وهو يمرّ في الأنابيب.

قُضي الأمر.

أُغلقت أبواب المبنى.

ثمّ اندفعت مياهٌ باردةٌ كالثلج نخرتْ عظام إيزابيل. وما هي إلّا لحظات حتى قادوهنّ مرّةً أخرى. تحرّكت إيزابيل مع الأخريات، وهي ترتعد، تحاول أن تغطّي عُريها بيدَيها المرتعشتَين. بعد ذلك فُتّشت رؤوسهنّ بحثاً عن البراغيث، وأُعطيتْ إيزابيل لباساً مقلّماً مع سروالٍ داخليّ رجاليّ قذر، وفردتَي حذاء يُسرَيَين من دون خيوط.

تمسّكتْ إيزابيل بأغراضها الجديدة عند صدرها المبتلّ، فإذا بها تُدفع إلى مبنى يشبه الحظيرة وُضعت عليه صفوف من الأسرّة الخشبيّة. صعدت على أحد الأسرّة، وجلست هناك رفقة تسع نساء أخريات. ارتدت ملابسها

ببطء، ثمّ استلقتْ، وهي تحدّق في باطن السرير الخشبيّ الذي يعلوها. همستْ: «ميشِلين؟».

فقالت صديقتها من السرير العلوي: «أنا هنا يا إيزابيل».

لفرط تعبها لم تستطع قول المزيد. وسمعتْ في الخارج صوت أحزمةٍ جلديّةٍ، وسِياط، وصراخ النساء اللاتي يمشين ببطء.

قالت المرأة التي إلى جانبها: «مرحباً بكِ في رافنسبروك».

وأحسّت إيزابيل بفخذ المرأة المهزول على ساقها.

أغمضتْ عينَيها، تحاول أن تصدّ الأصوات، والروائح، والخوف، والألم.

قالت لنفسها: ابقي حيةً.

ابقي. حيةً.

الفصل الخامس والثلاثون

آب/ أغسطس.

تنفّست ڤيان بأهدأ صوتٍ ممكن. ففي ظلمة الغرفة العلوية وحرارتها (غرفتها، هي وأنطوان)، كلّ صوتٍ يتضخّم. كانت تسمع زنبركات السرير تصيح في احتجاجٍ، بينما ينقلبُ ڤون رختر إلى جانبه. أخذتْ تنظر إلى زَفَراته، تقيسُ كلّ زفرة. فلمّا بدأ يشخر، زحفتْ جانباً ورفعت ملاءة السرير الرطبة عن جسدها العاري.

في الأشهر القليلة الماضية عرفت ڤيان معنى الألم، والخزي، والمهانة. وعرفتْ فنّ البقاء أيضاً؛ فكانت تقدّر مزاج ڤون رختر، وتعرف متى تبتعد عن طريقه، ومتى تلزم الصمت. فقد يحالفها النجاحُ في بعض الأحيان (حين تفعل الأشياء كما ينبغي) ولا يكاد ينتبه إلى وجودها. أمّا إنْ كان مزاجه متعكّراً وعاد إلى البيت غاضباً، فتلك مصيبتها. كما حدث البارحة.

فقد عاد إلى البيت في مزاجٍ عَكِرٍ، يغمغم بأشياء عن سير القتال في باريس. كان الماكيسارد قد بدؤوا القتال في الشوارع. هكذا أدركتْ ڤيان على الفور ما الذي سيريده في تلك اللّيلة.

أن يؤلِم.

أخرجتْ طفلَيها من الصالة بسرعة، وجهزّتهما للنوم في الغرفة السفليّة، ثمّ صعدتْ إلى الأعلى.

لعلّ هذا أسوأ ما في الأمر: أنّه يجبرها على المجيء إليه، وكانت تفعل. نزعتْ ملابسها كي لا يمزّقها.

الآن، وهي ترتدي ملابسها أدركتْ كم تتألّمُ حين ترفع ذراعَيها. توقفّتْ عند النافذة المعتّمة. من خلفها حقولٌ دمّرتْها القنابل الحارقة. أشجارٌ مكسورةٌ، وكثيرٌ منها ما تزال مشتعلة، وبوّاباتٌ ومداخنُ مدمّرة. منظرٌ من نهاية العالم؛ أمّا المطارُ، فكان كومةً من الحجارة والخشب المحاط بطائراتٍ محطّمةٍ، وشاحناتٍ مدمّرة. فالقصفُ لم يتوقّف في أوروبا منذ أن سيطر الجنرال ديغول على جيش فرنسا الحرّة، ونزلتْ قوّات الحلفاء في نورماندي.

أما يزال أنطوان هناك؟ هل كان في معتقلٍ في مكانٍ ما، ينظر من فُرجةٍ في جدار الثكنة، أو من نافذةٍ مغطّاةٍ بالألواح، ينظر إلى هذا القمر الذي كان ذات يومٍ يسطع على بيتٍ ممتلئٍ بالحبّ؟ وإيزابيل. مضى على غيابها شهران، لكنّهما في عداد الدهر. لم يتوقّف قلق ڤيان عليها، ولا شيء يعالج هذا القلق. لا بدّ من أن تحتمله.

أشعلتْ شمعة؛ فقد انقطعت الكهرباء منذ وقتٍ طويل. وضعتْ الشمعة في خزانة الماء عند المغسلة، وأخذتْ تحدّق في نفسها في المرآة البيضويّة. بدتْ شاحبةً عجفاء، حتّى في ضوء الشمعة. تراخى شعرُها الذهبي المحمرّ على جانبَي وجهها. وفي سنوات الحرمان التي قاستْها، بدا أنّ أنفها استطال، وبرزتْ عظام خدَّيها. على جبينها كدمة واضحة،

وكانت تعرف أنّ لونها سيسودُّ أكثر عمّا قريب. كانت تعرف أيضاً، وبدون أن تنظر، أنّ هناك آثاراً ليدَي فون رختر على ذراعَيها، وكدمةً قويّةً على نهدها الأيسر.

كان يزدادُ قسوةً، وغضباً. قوّات التحالف قد نزلتْ في جنوب فرنسا، وبدأتْ تحرّر البلدات، وكان الألمان يخسرون الحرب، فبدا فون رختر عازماً على أن يجعل ڤيان تدفع الثمن.

نزعتْ ثيابها واغتسلتْ بماءٍ فاتر. فركتْ جسدها إلى أنّ احمرّ وترقّش، لكنّها لم تشعر بعد أنّها تنظّفتْ. لم تشعر قطّ بأنّها تنظّفت.

حين لم تعد تحتمل الفرك، جفّفتْ نفسها، وارتدتْ رداء نومها مرّةً أخرى، وفوقه «روب». ربطتْه عند خصرها، وخرجتْ من الحمّام، تحمل شمعتها.

وجدتْ صوفي في الصالة، تنتظرها. لصقتْ ركبتَيها وشبكتْ يدَيها، وهي تجلس على الأريكة المتبقّية في الصالة؛ فبقيّة الأثاث إمّا صُودر، وإمّا أُحرق.

– لماذا ما زلتِ مستيقظةً حتى هذا الوقت؟

– يمكنني أن أسألكِ السؤال نفسه، ولكنْ لا داعي للسؤال، أليس كذلك؟

شدّت ڤيان حزام «الروب». كانت تلك عادةً عصبيّةً، شيئاً لا إرادياً تفعله بيدَيها. «هيا ننام».

نظرتْ صوفي إليها. كانت في الرابعة عشرة من عمرها، وقد بدأت علامات النضج ترتسم على وجهها. سوادُ العينَين على بياض البشرة، وطولُ الأجفان وكثافتها. صحيحٌ أنّ شعرها لم يعد كثيفاً بسبب سوء

التغذية، لكنّه ما يزال مرتّباً في جدائل. لوتْ صوفي شفتَيها. «مامْن؟ إلى متى يضحك بعضنا على الآخر؟». كان الحزنُ (والغضب) في تلكما العينَين الجميلتَين يفطر القلب. ومن الواضح أنّ ڤيان لم تكن تخفي شيئاً عن هذه الطفلة التي فقدت طفولتها في هذه الحرب.

ما الذي ينبغي لأمٍّ أن تقوله لابنتها التي بدأت تكبر عن قُبح هذا العالم؟ كيف لها أن تكون صادقة معها؟ وكيف تنتظر من ابنتها أن تنظر إليها نظرةً أفضل من نظرتها هي لنفسها؟

جلستْ إلى جانب صوفي. خطرتْ لها حياتهم السابقة. الضحك، والقبلات، والعشاءات العائليّة، وصباحات عيد الميلاد، والأسنان اللبنيّة التي تسقط، والكلمات الأولى.

قالت صوفي: «لستُ غبيّة».

- «لم أركِ هكذا أبداً. ولا لحظة». تنفّستْ بعمقٍ، وزفرتْ: «أردتُ أن أحميكِ، لا أكثر».

- من الحقيقة؟

- من كلّ شيء.

فقالت صوفي بمرارة: «لا يوجد شيءٌ كهذا. أولم تدركي هذا بعد؟ راشيل ذهبت، وسارة ماتت. وجدّي مات. وطنط إيزابيل...». فاضتْ عيناها: «وبابا...متى كانت آخر مرّةٍ سمعنا خبراً عنه؟ قبل سنة؟ ثمانية شهور؟ لعلّه مات أيضاً».

- «أبوكِ حيّ. وكذلك خالتك. كنتُ سأشعر لو حدث لهما مكروه». وضعتْ يدها على قلبها: «كنتُ سأعرف من هنا».

- قلبك؟ تشعرين بذلك في قلبك؟

كانت ڤيان تعرف أنّ صوفي قد كبُرت في هذه الحرب، وقد حوّلها الخوفُ واليأسُ إلى نسخةٍ أكثر قسوةً وتشاؤماً مّما كانت عليه، ومع ذلك فقد كان من الصعب أن ترى ذلك بعينَيها.

– كيف تستطيعين أن...تذهبي إليه؟ أرى الكدمات.

– «تلك حَربي أنا». قالتها ڤيان بهدوء، وخزيٍ ربّما أعظم ممّا تحتمل.

– طنط إيزابيل كانت ستشنقه، وهو نائم.

– دِي. إيزابيل قويّة. أنا لستُ كذلك. أنا مجرّد...أمٌ تحاول أن تحمي أطفالها.

– تعتقدين أننّا نريدكِ أن تحمينا بهذه الطريقة؟

فقالت، وقد هبط كتفاها في انهزام: «أنتِ ما زلتِ صغيرة. حين تصبحين أمّاً...».

– لن أصبح أمّاً.

– آسفة يا صوفي لأنّي خذلتك.

قالت صوفي بعد سكتة. «أريد أن أقتله».

– وأنا أيضاً.

– يمكننا أن نخنقه بوسادةٍ في أثناء نومه.

– وتظنّين أنّي لم أحلم بفعل ذلك؟ لكنّ الأمر خطر. بيك اختفى بينما كان يسكن هنا، فإنْ حدث الشيء نفسه لضابطٍ آخر، ستلتفت أنظارهم إلينا. وهذا ما لا نريده.

أومأتْ صوفي في كآبة.

– يمكنني تحمّل ما يفعله ڤون رختر بي يا صوفي. لكنّي لا أحتمل فقدكِ أنتِ، أو دانييل، أو أن يأخذوني بعيداً عنكما، أو أن أراهم يؤذونكما.

لم تشح صوفي ببصرها. «أكرهه».

فقالت ڤيان في هدوء: «وأنا كذلك يا صوفي. وأنا كذلك».

*

قالت ڤيان بابتسامة: «الجوّ حارٌّ اليوم. كنتُ أفكّر في أنّه سيكون يوماً جميلاً للسباحة».

فَعَلا الصخبُ على الفور، من الجميع.

قادت ڤيان الأطفال إلى خارج الفصل، وحافظتْ على أن يبقوا قريبَين بعضهم من بعض، وهم يمرّون في الأروقة. فلمّا وصلوا أمام مكتب الأمّ الرئيسة، فُتح الباب.

قالت الأم الرئيسة مبتسمة: «مدام موررياك، فريقكِ الصغير يكاد من سعادته أن يغنّي».

– «ليس في يوم بهذه الحرارة». شبكتْ ذراعها في ذراع الأمّ الرئيسة وقالت: «تعالَي معنا إلى البركة».

– فكرة رائعة للغاية في يومٍ من أيّام أيلول/ سبتمبر.

قالت ڤيان للصغار، وهُم يصلون إلى الشارع الرئيس: «في صفٍّ واحد». فالتزموا على الفور. وبدأتْ ڤيان تغنّي أغنيةً، فحذَوا حذوها، وأخذوا يغنّون، وهُم يصفّقون ويتقافزون.

أتراهم لحظوا المباني المقصوفة التي مرّوا بها؟ أم انتبهوا لأكوام الحطام المحترقة التي كانت ذات يومٍ بيوتاً؟ أمْ إنّ الدمار غدا منظراً عاديّاً في طفولتهم، غير ملحوظ؟

ظلّ دانييل مع ڤيان كعادته، يتمسّك بيدها. هكذا أصبح في الفترة

الأخيرة، يخشى أن يبتعد عنها طويلاً. كان ذلك يزعجها أحياناً، بل يفطر قلبها. كانت تتساءل ما إذا كان هناك شيءٌ في أعماقه ما يزال يذكر كلّ ما خسره. الأم، والأب، والشقيقة. كانت تخشى أنّه حين ينام، ويتكوّر إلى جانبها، يعود آري، الطفل الذي رحل أهلُه.

صفّقت ڤيان. «يا أطفال. عليكم عبور الشارع في نظام. صوفي، أنتِ القائدة».

عبر الأطفال الشارع بحرصٍ، ثمّ تسابقوا في صعود التلّ، كي يصلوا إلى البركة الموسميّة الواسعة التي تحبّها ڤيان كثيراً؛ فهناك تحديداً قبّلها أنطوان القبلة الأولى.

ما إنْ وصل الأطفال إلى حدّ البركة حتى بدؤوا ينزعون ثيابهم. وما هي إلا لحظات حتى كانوا يسبحون.

نظرتْ إلى دانييل. «ألا تريد أن تلعب في الماء مع أختك؟».

فقضم الصغيرُ شفته السفلى، وهو ينظر إلى الأطفال؛ إذْ يتراشقون بالماء الأزرق الراكد. «لا أدري...».

- لستَ مضطرّاً إلى السباحة إن لم ترغب. يمكنك أن تبلّل قدمَيك فقط.

قطب جبينه، وانتفخت وجنتاه في تفكير، ثمّ ترك يدها وسار بحذرٍ نحو صوفي.

قالت الأم الرئيسة: «ما يزال متشبّثاً بك».

- «ويصاب بكوابيس أيضاً». كانت على وشك أن تقول: يعلم الله أنّني أنا أيضاً أراها، إلّا أنّها شعرت بالغثيان. تمتمتْ: «المعذرة». وركضتْ عبر

العشب إلى أجَمَة من الأشجار، فانحنتْ عندها واستفرغت. لم يكن هناك شيءٌ تقريباً في معدتها، لكنّ معدتها ظلّت تجيش بدون توقّف، إلى أن شعرتْ بالضعف والإنهاك.

أحسّتْ بيد الأم الرئيسة على ظهرها، تمسّدها، تهدّئها.

انتصبتْ ڤيان واقفة. حاولت أن تبتسم. «آسفة. لا أدري—». وسكتَتْ حين اجتاحتْها الحقيقة. التفتت إلى الأم الرئيسة وقالت: «تقيّأتُ صباح أمس».

- لا يا ڤيان! طفل؟

لم تدرِ ڤيان ما إذا كان ينبغي لها أن تضحك، أم تبكي، أم تصرخ محتجّة على ربّها. لطالما دعت الله مراراً وتكراراً كي يرزقها بجنينٍ ينمو في رحمها.

ولكن ليس الآن.

وليس منه.

*

مرّ أسبوعٌ لم تذق فيه ڤيان طعم النوم. كانت تشعر بالضعف، والتعب، والخوف. كما أنّ غثيانها الصباحيّ ازداد سوءاً على سوء.

كانت تجلس الآن على حافّة السرير، تنظر إلى دانييل. بلغ الخامسة، وكبُر على مَنامته. كان معصماه وكاحلاه الهزيلون بارزين من خارج الكمَّين والبنطال. وعلى عكس صوفي، لم يشتكِ دانييل قطّ من الجوع، أو من القراءة على ضوء الشموع، أو من الخبز الرمادي البائس الذي كانوا يحصلون عليه. ولم يكن يتذكّر أيّ شيءٍ آخر.

قالت، وهي ترفع خصلات شعره السود الرطبة عن عينَيه: «هيي، كابتن دان». انقلب على ظهره، وابتسم لها فانكشفت أسنانه الأمامية الساقطة.

– مامُن. حلمتُ أنّ لدينا حلوى.

فُتح باب الغرفة بقوّة، وظهرتْ صوفي تحاول التقاط أنفاسها. «تعالي بسرعة مامُن».

– أوه صوفي، أنا—.

– \الآن.

– تعال يا دانييل. يبدو أنّ الأمر مهمّ.

اندفع إليها بقوّة. كان أكبر من أن تحمله، فاحتضنتْه بقوّة، ثمّ تركتْه. أخرجتْ الملابس الوحيدة التي كانت على مقاسه (بنطال من الخيش مصنوع من القماش الذي يستخدمه الرسّامون لحماية الأرض والأثاث، كانت قد وجدتْه في الحظيرة، مع سترةٍ حاكتْها بنفسها من صوفٍ أزرق). فلمّا ارتدى ملابسه، قادته من يده إلى الصالة. كان باب البيت مفتوحاً.

أجراسٌ ترنّ. أجراس الكنيسة. بدا الصوتُ كما لو أنّ أحداً يعزف موسيقى. النشيد الوطني؟ في يوم ثلاثاءٍ عند التاسعة صباحاً؟

في الخارج كانت صوفي تجلس تحت شجرة التفّاح. مرّ طابورٌ من النازيّين من أمام البيت. وبعد لحظات جاءت العربات. دبّابات، وشاحنات، وسيّارات مرّت من أمام لو جاردان، واحدةً تلو الأخرى، تخلّف الغبار وراءها.

ثمّ توقّفت سيّارة ستروين سوداء. خرج منها ڤون رختر وتقدّم نحو ڤيان بحذائه المتّسخ، وعينَيه المختبئتَين خلف نظّارةٍ سوداء، فيما شفتاه مزمومتان في خطٍ رفيع غاضب.

– مدام موررياك.

– هير شتومبانفوهرر.

– سنغادر بلدتكم السقيمة التافهة.

لم تنبس بكلمة. فلو أنّها تحدّثت لقالت شيئاً يودي بحياتها.

– «لم تنته الحرب بعد». ولم تدرِ ما إذا كان هذا الأمر في صالحه أم صالحها.

مرّت نظرته على صوفي، ثمّ توقّفت عند دانييل.

ظلّت ڤيان ساكنةً تماماً، بوجهٍ جامد.

التفت إليها. وتبسّم حين رأى الكدمة الجديدة على خدّها.

– «ڤون رختر!». صاح واحدٌ من حاشيته: «هيّا، اترك عاهرتك الفرنسيّة هنا».

فقال: «بالمناسبة، هذه حقيقتك فعلاً».

ضغطتْ على شفتَيها بقوّةٍ، كي تمنع نفسها من الكلام.

قال: «سوف أنساكِ». ثمّ مال إليها: «ولكن هل يا تُرى تستطيعين أن تقولي ذلك عنّي؟».

سار إلى داخل البيت، وخرج ثانيةً يحمل حقيبته الجلديّة. عاد إلى سيّارته بدون أن ينظر إليها، وأغلق الباب خلفه.

مدّتْ ڤيان يدها تستند إلى البوّابة.

قالت صوفي: «ها هم راحلون».

وانهارت ساقا ڤيان، فسقطتْ على ركبتَيها. «لقد رحل».

جثتْ صوفي إلى جانب أمّها واحتضنتها بقوّة.

أمّا دانيل، فأخذ يجري في التراب بينهما. وصاح: «أنا أيضاً أريد حضناً». قذف بنفسه إليهما بقوّة حتّى انقلب وسقط على العشب الجاف.

*

توالت الأخبار المفرحة عن انتصارات الحلفاء طوال شهرٍ منذ رحيل الألمان عن كاريفو، لكنّ الحرب لم تنته. لم تستلم ألمانيا. وخُفّف تعتيم النوافذ، فدخل الضوء منها. كانت هديّة مفاجئة. لكنّ ڤيان لم تجد للهدوء سبيلاً. إن لم تفكّر في ڤون رختر (لن تنطق باسمه أبداً، طوال حياتها، لكنّها لم تستطع طرده من أفكارها)، يجتاحها القلق على إيزابيل، وراشيل، وأنطوان. ظلّت تكتب رسائل لأنطوان كلّ يومٍ تقريباً، وتقف في الطابور لإرسالها، على الرغم من أنّ الصليب الأحمر أخبرهم بأنّ الرسائل لا تصل. لم تكن قد وصلتْ منه أيّ رسالةٍ لأكثر من سنة.

قالت صوفي: «مامُن، ها قد عدتِ لذرع الغرفة جيئة وذهاباً». كانت جالسة على الأريكة مع دانيل، بينهما كتابٌ مفتوح. على إطار الموقد بضع صور أحضرتْها ڤيان من قبو الحظيرة. كانت من بين أشياء قليلة خطرتْ لها لاستعادة الشعور بالبيت في لو جاردان.

- مامُن؟

تنبّهتْ ڤيان لنفسها.

قالت صوفي. «سيعود. وكذلك طنط إيزابيل».

- نعم، طبعاً.

- «ماذا سنقول لبابا؟». عرفتْ ڤيان من نظرة صوفي أنّ هذا السؤال كان يشغلها منذ مدّة.

وضعتْ ڤيان يدها على بطنها الذي لم ينتفخ بعد. لم تكن هناك أيّ

علامةٍ على الجنين، لكنّ ڤيان كانت تعرف جسدها جيّداً. ثمّة حياةٌ تنمو في داخلها. تركت الصالة وذهبت إلى باب البيت، وخرجتْ حافيةً. سارت على الدرجات الحجريّة المتشقّقة، تتحسّس الطحالب الملساء في باطن قدمَيها. خرجتْ بعد ذلك إلى الشارع، وهي تحرص على ألّا تدوس على صخرةٍ حادّة. واتجّهت نحو البلدة.

ظهرت المقبرة إلى يمينها. كانت قد تدمّرت بفعل قنبلةٍ قبل شهرَين. شواهد القبور الحجريّة ملقاة على الأرض، مكسّرة. الأرض متشقّقة، وبها حُفرٌ هنا وهناك. ثمّة هياكل عظميّة معلّقة على أغصان الشجر، وعظامٌ يدقّ بعضها في بعضٍ مع الريح.

من بعيدٍ رأت رجُلاً قادماً عند منعطف الشارع.

بعد سنوات ستسأل نفسها عمّا أخرجها من بيتها في ذلك اليوم الخريفي الحارّ، في تلك الساعة تحديداً. لكنّها كانت تعرف الجواب.

أنطوان.

بدأتْ تجري، غير عابئةٍ بقدمَيها الحافيتَين. فلمّا كادت تدخل بين ذراعَيه، توقّفتْ فجأةً، وانتصبتْ. لا يحتاج الأمرُ منه إلّا إلى نظرةٍ واحدة، وسوف يعرف أنّ رجُلاً آخرَ دمّرَها.

قال لها بصوتٍ بالكاد تعرّفت عليه: «ڤيان. لقد هربتُ».

تغيّر كثيراً. نحف وجهُه، وابيضّ شعرُه. شعرٌ خفيفٌ أبيض يغطّي وجنتَيه الغائرتَين، وكان مهزولاً إلى أبعد الحدود. تتعلّقُ ذراعه اليسرى على نحوٍ غريب، كما لو أنّها كُسرت، ثم عُولجتْ على نحوٍ سيّئ.

الخاطرُ نفسه كان يدور في باله عنها. رأتْ ذلك في عينَيه.

ثمّ جاء اسمُه في همسةٍ زافرة: «أنطوان». أحسّتْ بحرقةِ الدمع، ورأته

يبكي أيضاً. اقتربتْ منه، وقبّلتْه، لكنّه ما إن تراجع بعد القبلة حتى بدا كما لو أنّه رجُلٌ لم تره من قبل.

- سأصبح أفضل.

أمسكت بيده، فلم تكن تريد شيئاً أكثر من أن تشعر بقربها منه، بارتباطها به. غير أنّ الخزي الذي حملتْه قد بنى جداراً بينهما.

قال، وهما يمشيان إلى البيت: «لم أقضِ ليلةً بدون أن أفكّر فيكِ. كنت أتخيّلكِ في سريرنا، وأفكّر في صورتكِ بلباس النوم الأبيض...كنتُ أعرف أنّكِ وحيدةٌ مثلي».

اختفى صوتُها.

- كانت رسائلك والطرود هي التي تثبّتني.

وحين وصلا إلى البوّابة المكسورة أمام لو جاردان، توقّف.

رأتْ البيتَ بعينَيه. البوّابة المائلة، والجدار المتداعي، وشجرة التفّاح الميّتة التي تُثمر قطع قماشٍ مغبّرةً، لا تفّاحاً أحمر.

دفع البوّابة، فجلجلتْ قليلاً، لكنّ برغيّاً واحداً ما يزال يثبّتها بالعمود. صرّتْ في احتجاجٍ على لمسها.

قالت: «مهلاً».

كان عليها أن تخبره الآن قبل فوات الأوان. البلدةُ بأكملها تعرف أنّ النازيّين أقاموا معها. وسوف يسمع الأقاويل بالتأكيد. فإنْ وُلد طفلٌ بعد ثمانية أشهر، سيعرفون.

قالت، وهي تحاول أن تجد الكلمات المناسبة: «كان الأمر صعباً في غيابك. بيتنا قريبٌ جدّاً من المطار، ولم يكن ليغيب عن عين الألمان في طريقهم إلى البلدة. لقد أقام هنا ضابطان نازيّان—».

فُتح باب البيت وصاحت صوفي: «بابا!». ثمّ انطلقت نحوه في الفناء. سقط أنطوان على ركبةٍ واحدةٍ، وفتح ذراعَيه لصوفي.

فجأةً شعرت ڤيان بالألم ينفتح ويتوسّع. ها قد عاد، واستجاب ربُّها لدعائها، لكنّها تعرف الآن أنّ الأمر اختلف. لقد تغيّر أنطوان. وتغيّرتْ هي. وضعتْ يدها على بطنها.

قال أنطوان لابنته: «كبرتِ يا صوفي. تركتكِ طفلةً صغيرةً، وها أنتِ فتاة شابّة. لا بدّ من أن تخبريني عمّا فاتني من حياتك».

فنظرتْ صوفي إلى ڤيان. «لا أظنّ أنه يجدر بنا الحديث عن الحرب. عن أيّ شيءٍ فيها. أبداً. لقد انتهت».

كانت صوفي تريد من ڤيان أن تكذب.

ثمّ ظهر دانييل عند الباب، يرتدي بنطالاً قصيراً، وقميصاً مهلهلاً، بياقةٍ طويلةٍ، وجوربَين متراخيَين على حذائه المستخدم. كان يمسك بألبوم صور عند صدره، فقفز عن الدرجة الحجريّة وتقدّم نحوهم عابساً.

– من هذا البطل الوسيم؟

فقال: «أنا دانييل. من أنت؟».

– أنا والد صوفي.

فاتّسعتْ عيناه، وترك الألبوم يسقط، وألقى بنفسه على أنطوان صائحاً: «بابا! لقد عدت».

أخذ أنطوان الولدَ بين ذراعَيه ورفعه عالياً.

فقالت ڤيان: «سأشرح لك. ولكن دعونا ندخل الآن ونحتفل».

*

كانت ڤيان قد تخيّلتْ عودة زوجها آلاف المرّات. في البدء، كانت تتخيّله يلقي بحقيبته عند رؤياها، ويجرّها إلى ذراعَيه القويّتَين.

بعد ذلك انتقل بيك إلى الإقامة في بيتها، وأخرج منها مشاعرَ لرجُلٍ (عدوّ) ترفض حتّى الآن أن تسمّيه باسمه. فحَين أخبرها بسجن أنطوان، قلّلتْ من توقّعاتها. صارت تتخيّل زوجها وقد نحل جسمه وتخلخل، لكنّه يظلّ أنطوان.

أمّا الرجُل الذي كان جالساً إلى طاولة العشاء، فكان شخصاً غريباً. ينحني على طعامه ويلفّ ذراعَيه على صحنه، فيغرف من الحساء إلى فمه كما لو أنّ الوقت محسوبٌ عليه. فلمّا أدرك ما كان يفعله، احتقن وجهه وتمتم لهم باعتذار.

لم يتوقّف دانييل عن الكلام، فيما أخذت صوفي وڤيان تتفرّسان في تلك النسخة المعتمة من أنطوان. كان يجفل من كلّ صوتٍ ولمسةٍ، ولا تخطئ العين أبداً ذلك الألم الساكن في عينَيه.

بعد العشاء، جهّز الطفلَين للنوم، فيما راحت ڤيان تغسل الصحون وحدها. أسعدها أن يتركها وحدها، فزاد شعورها بالذنب. كان زوجها، وحبّ حياتها، لكنّه حين يلمسها لا تملك إلّا أن ترتاح بابتعاده، كي لا تبتعد هي. والآن، وهي واقفةٌ عند النافذة في غرفتها، شعرتْ بارتباكٍ وهي تنتظره.

لحق بها إلى الغرفة. وأحسّتْ بيدَيه القويّتَين على كتفَيها، ثمّ سمعتْ أنفاسه من خلفها. كانت تشتاق إلى أن تسند ظهرها إليه في حميميّة الأيّام الخوالي، لكنّها لم تستطع. مسّدَ كتفَيها، ثمّ نزل إلى ذراعَيها، حتّى استقرّتْ يداه على خاصرتها. وبلطفٍ، أدارها كي تواجهه.

أزاح ياقة «الروب» جانباً، وقبّلها في كتفها. قال: «أنتِ نحيلة جداً». بصوتٍ خشّنته الرغبةُ وشيءٌ آخر، شيءٌ جديدٌ حلَّ بينهما. لعلّه الفقد، أو اعترافٌ بحصول تغييرٍ في الغياب.

- لقد ازداد وزني منذ الشتاء الماضي.

- صحيح؟ وأنا أيضاً.

- كيف هربت؟

- حين بدؤوا يخسرون الحرب...ساء الوضع. أمعنوا في ضربي حتّى لم أعد أستطيع استخدام ذراعي اليسرى. قرّرتُ حينها أنّ الأفضل لي أن يقتلوني، وأن أهرب إليكِ بدلاً من تعذيبي حتّى الموت. ما إنْ تكوني مستعدّةً للموت، حتّى يسهل التخطيط له.

كان هذا هو الوقت المناسب لإخباره بالحقيقة. فقد يفهم أنّ الاغتصاب تعذيبٌ، وأنّها كانت أسيرةً أيضاً. لم يكن لها ذنبٌ فيما حدث لها. كانت تؤمن بذلك، لكنّها لا ترى أنّ الذنب يهمّ في مسألةٍ كهذه.

أخذ وجهها بين يدَيه، ورفعه.

كانت القبلةُ حزينةً، تكاد تكون اعتذاراً، أو تذكيراً بما كان بينهما ذات يوم. ارتعشتْ وهو ينزع عنها ثيابها. ورأتْ الآثار الحُمر على ظهره وصدره، والندوب المسنّنة المتغضّنة على طول ذراعه اليسرى.

كانت تعرف أنّ أنطوان لن يضربها، أو يؤذيها. ومع ذلك كانت خائفة.

قال وهو يتراجع قليلاً: «ما الأمر يا ڤيان؟».

ألقت نظرةً على الفراش، فراشهما، فلم تستطع التفكير إلا فيه. ڤون رختر. «حين كنتَ غائباً...».

- هل علينا أن نتحدّث عن الأمر؟

كانت تريد الاعتراف بكلّ شيء، تريد أن تبكي بين ذراعَيه كي يهدّئها ويطمئنها. ولكن ماذا عن أنطوان؟ لقد قاسى جحيماً هو الآخر. كانت ترى ذلك بوضوح. ثمّة ندوب حُمر بارزة في صدره تبدو آثار سياط.

كان يحبّها. رأتْ ذلك أيضاً، وشعرتْ به.

لكنّه رجُل. فلو أخبرته بأنّها اغتُصبت (أنّ طفلَ رجُلٍ آخر ينمو في أحشائها)، سينهش ذلك روحه. ومع الوقت سيسأل نفسه ما إذا كان بمقدور ڤيان أن توقف ڤون رختر، بل ربّما يتساءل ذات يومٍ ما إذا استمتعتْ بما حدث.

كان بمقدورها أن تحكي له عن بيك، بل حتّى عن قتلها إيّاه، لكنّها لا تستطيع إخبار أنطوان بأنّها اغتُصبت. سوف يولد طفلها في الشهر الثامن. يحدثُ كثيراً أن يولد الأطفال قبل شهر من موعدهم.

لكنّها ظلّت تسائل نفسها ما إذا كان هذا السرّ سيدمّر حياتهما.

قالت بهدوء: «يمكنني أن أخبرك بكلّ شيء». كان ما تذرفه دموعَ خزيٍ، وفقدٍ، وحبّ. لكنّها دموع الحبّ أكثر من أيّ شيءٍ آخر: «يمكنني أن أخبرك عن الضابطَين الألمانيّين اللذَين أقاما هنا وكيف كانت الحياة صعبة، وكيف استطعنا بالكاد أن نعيش، وكيف ماتت سارة أمامي، وكيف كانت راشيل قويّةً حين وضعوها في عربة الماشية، وكيف وعدتُها أن أحافظ على آري. يمكنني أن أخبرك كيف مات أبي، وكيف اعتُقلت إيزابيل ورُحّلت...ولكنْ ربما تعرف هذا كلّه». ربّ اغفر لي: «وربّما لا داعي لأن نتحدّث عن أيّ من ذلك. ربما...». مرّرتْ أصابعها على كدمةٍ

حمراء طويلة كشعاع البرق على ذراعه اليسرى: «ربّما الأفضل أن نترك الماضي ونمضي».

قبّلها. فلمّا تراجع ظلّتْ شفتاه على شفتَيها. «أحبّك يا ڤيان».

أغمضتْ عينَيها، وقبّلته، في انتظار عودة الحياة إلى جسدها من لمسته، لكنّها حين استلقتْ تحته، وأحسّتْ بجسدَيهما يتداخلان كما فعلا قبل ذلك مرّاتٍ عديدة، لم تشعر بشيءٍ على الإطلاق.

- «وأنا أحبّك يا أنطوان». حاولتْ أن تمنع نفسها من البكاء، وهي تقولها.

*

ليلةٌ باردةٌ من ليالي تشرين الثاني/ نوفمبر. كان قد مضى شهران على عودة أنطوان.

ولا خبر عن إيزابيل.

غاب عن ڤيان النوم. ظلّت في السرير إلى جانب زوجها، تنصت لشخيره الخفيف. لم يكن هذا يزعجها سابقاً، ولم يحرمها النوم، لكنّه الآن أزعجها.

لا.

ليس صحيحاً.

انقلبت على جنبها، وأخذت تحدّق فيه. في الظلام، وتحت نور البدر القادم عبر النافذة، بدا أنطوان غريباً: نحيل القوام، حادّاً، أبيض الشعر ولم يزد عمرُه عن الخامسة والثلاثين. زحفتْ إلى خارج السرير، وغطّتْ زوجها بلحافٍ ثقيل ورثته عن جدّتها.

ارتدتْ «الروب» ونزلتْ إلى الطابق السفلي. ظلّت تمشي من غرفةٍ

إلى أخرى، تبحث عن—ماذا؟ عن حياتها السابقة ربما، أو عن الحبّ الذي ضاع منها.

لم يعد شيءٌ في مكانه. كانا يبدوان كالغريبَين. وهو أيضاً شعر بذلك. كانت تعرف، فالحرب تلقي بظلالها بينهما كلّ ليلة.

أخذتْ بطّانيةً من صندوقٍ في الصالة، ولفّت نفسها به، وخرجتْ.

بدرٌ كاملٌ معلّق فوق الحقول المدمّرة. تساقط النورُ في رُقعٍ على الأرض تحت أشجار التفّاح. ذهبتْ إلى الشجرة الوسطى، ووقفتْ تحتها. كان الغصن الأسود الميّت مقوّساً فوقها، عارياً متغضّناً. رأتْ عليه كلّ ما وضعتْه من شرائط وخيوط.

فهي حين علّقت تلك التذكارات ظنّت بسذاجةٍ أنّ لا شيء يهمّ سوى البقاء على قيد الحياة. انفتح الباب من خلفها وانغلق بهدوء. وأحسّت كعادتها بحضور زوجها.

قال، وهو يقترب خلفها: «ڤيان». لفّها بذراعَيه. كانت تريد أن تستند إلى صدره، لكنّها لم تستطع. حدّقتْ في الشريطة الأولى التي علّقتْها على هذه الشجرة. شريطة أنطوان. تغيّر لونها وتفتّت، مثلهما.

آن الأوان. لم يعد بإمكانها أن تنتظر. كانت بطنها تكبر.

استدارتْ إليه. لم تستطع أن تقول شيئاً سوى: «أنطوان».

- أحبّك يا ڤيان.

سحبتْ نفَساً عميقاً، ثمّ قالت: «أنا حامل».

لم يحرّك ساكناً. مرّت لحظةٌ طويلةٌ قبل أن يقول: «ماذا؟ متى؟».

حدّقتْ فيه، تسترجع ذكرى تجارب الحمل السابقة، وكيف اشتركا في

الفقد والفرح. «أظنّني في الشهر الثاني. لا بدّ من أنّ الأمر حدث...في أوّل ليلةٍ بعد عودتك».

رأتْ كلّ شذرةٍ من عاطفةٍ في عينَيه. الدهشة، والقلق، والاهتمام، والتعجّب، ثمّ الفرح أخيراً. مسح على ذقنها، ورفع وجهها إليه. «أعرف لماذا تبدين خائفةً هكذا، ولكن لا تقلقي يا ڤي. لن نفقد هذا الطفل. ليس بعد هذا كلّه. إنّها معجزة».

أحرق الدمعُ عينَيها. حاولت أن تبتسم، لكنّ شعورها بالذنب كان خانقاً.

- لقد عانيتِ كثيراً.

- كلّنا عانينا.

- لذلك نختار أن نرى المعجزات.

أكانت هذه طريقته لإخبارها بأنّه كان يعرف الحقيقة؟ هل انزرع الشكّ في داخله؟ ماذا سيقول حين يولد الطفل قبل أوانه؟ «ماذا تقصد؟».

أبصرتْ الدمعَ في عينَيه. «أقصد فلننسَ الماضي يا ڤي. الآن هو المهمّ. سنظلّ دائماً نحبّ بعضنا. هذا هو الوعد الذي قطعتُه حين كنّا في الرابعة عشرة. عند البركة، حين قبّلتكِ أوّل مرّة. تذكرين؟».

- «أذكر». كانت محظوظةً جدّاً بهذا الرجُل. ولا عجب أنّها وقعت في غرامه. سوف تجد طريقها إليه مرّةً أخرى، كما وجد طريقه إليها.

- سيكون الطفل بدايتنا الجديدة.

همستْ له: «قبّلني، واجعلني أنسى».

فقال، وهو يميل عليها ليقبّلها: «ليس النسيان ما نحتاج إليه يا ڤيان، بل التذكّر».

الفصل السادس والثلاثون

في شباط/ فبراير من عام 1945م، غطّى الثلجُ الأجساد العارية التي تكوّمت عند المحرقة التي أقيمت حديثاً في المعسكر. وارتفعت سحب الدخان الأسود المتعفّن من مداخنها.

وقفتْ إيزابيل ترتعد في مكانها في طابور النداء الصباحيّ. كان البردُ من ذلك النوع الذي يؤلم الرئتَين، ويجمّد الأجفان، ويحرق أطراف الأصابع.

انتظرت أن ينتهي النداء، لكنّها لم تسمع الصافرة.

كان الثلج ما يزال يتساقط. وبدأت بعض النساء يسعلنَ في صفوف السجينات. وأخرى هَوَت على وجهها في الثلج الموحل ولم يُمكن رفعُها. وهبّتْ ريحٌ قارسةٌ في المعسكر.

في النهاية سار ضابطٌ من الشوتزستافل أمام النساء بحصانه، ينظر إليهنّ واحدةً بعد الأُخرى. بدا أنّه يلحظ كلّ شيء. الشعر المجزوز، وقرصات البراغيث، وأطراف الأصابع المزرقّة من أثر الصقيع، والرُقع التي كانت تميّز اليهود، أو المثليّين، أو المعتقلين السياسيّين. من بعيد تهادى صوت القنابل التي تتفجّر كأنّها هزيم رعد.

حين يشير الضابط إلى امرأةٍ بعينها، تُجرُّ على الفور إلى خارج الصفّ.

أشار إلى إيزابيل، فدُفعت بقوّة حتّى كادت تسقط، وجُرّت إلى خارج الصفّ.

أحاط ضبّاط الشوتزستافل بالنساء المختارات، وأجبروهنّ على الوقوف في صفَّين. ثم انطلقت صفّارة. «شنيل! آينتس! تسفاي! دراي!»(*).

سارت إيزابيل إلى الأمام، قدماها تؤلمانها من شدّة البرد، ورئتاها تحترقان. ومشتْ ميشِلين إلى جانبها في الصفّ الآخر.

مشَين قرابة الكيلومتر ونصف خارج البوّابة، فمرّتْ من أمامهنّ شاحنةٌ مملوءةٌ عن آخرها بالجثث العارية.

تعثّرتْ ميشِلين، فمدّت إيزابيل يدها إليها لتساعدها على الوقوف.

وظللنَ يمشين.

وصلنَ أخيراً إلى حقلٍ ثلجيّ يغطّيه الضباب.

فرّق الألمان النساء مرّةً أُخرى، فأُبعدت إيزابيل عن ميشِلين، ودُفع بها إلى مجموعةٍ من سجينات ناخت أُند نيبل الأخريات(**).

دفع الألمان بهنّ تجاه بعضهن، وأخذوا يصيحون بهنّ ويشيرون إلى أن فهمتْ إيزابيل.

صرخت المرأة التي بجانبها حين رأتْ المهمّة التي اختاروهنّ من أجلها. أن يصبحن عاملات الطريق.

(*) بالألمانية، وتعني بالترتيب: بسرعة، واحد، اثنان، ثلاثة. (م)

(**) تعني بالألمانيّة «الليل والضباب»، إشارةً إلى الاسم السرّي الذي عُرف به قانون التعامل مع الناشطين السياسيّين في الأراضي المحتلّة، وهو قانون أصدره أدولف هتلر عام 1941م يخوّل به السلطات العسكرية أن تعتقل المشتبه بهم وترحّلهم تحت جنح الظلام لمحاكمتهم صوريّاً والتخلّص منهم. (م)

صاحت إيزابيل بالمرأة: «لا». في الوقت نفسه الذي هوَتْ فيه هراوةٌ على المرأة بقوّةٍ بطَحَتْها أرضاً.

وقفتْ إيزابيل خَدِرةً كأنّها بغل حراثة، فيما راح النازيّون يلبسونها لجاماً جلديّاً خشناً فوق كتفَيها، ثمّ ربطوه عند خصرها. قُيّدت بإحدى عشرة امرأة أُخرى، مرفقاً بمرفق. من خلفهنّ عجلةٌ حجريّةٌ بحجم سيّارةٍ، متّصلةٌ باللّجام.

حاولتْ إيزابيل أن تخطو خطوةً، فلم تستطع.

هوى سوطٌ على ظهرها، فأحرق جلدها. تمسّكتْ بسِيُور اللّجام، وحاولتْ مرّةً أُخرى أن تتقدّم. كُنّ منهكات. لم تبقَ لديهنّ قوّة، أقدامهنّ تتجمّد فوق الثلج، ولكنْ لا مفرّ من الحركة وإلّا جُلِدن. مالت إيزابيل إلى الأمام تحاول بكلّ قوّتها أن تحرّك العجلة الحجريّة، فآلمتْها السيور في صدرها. تعثّرتْ إحدى النساء، وسقطت، فيما واصلت الأخريات السحب. صرّ اللّجام الجلديّ، وبدأت العجلةُ تدور.

سَحَبْنَ، وسحبنَ، وسحبنَ، فأنشأنَ طريقاً من الأرض المغطّاة بالثلج؛ أمّا الأخريات، فكنّ يستخدمن المجرفات والعربات اليدويّة لتنظيف الطريق.

في أثناء ذلك كان الحرس يجلسون في مجموعاتٍ حول نيرانٍ يتدفّؤون بها، يتحدّثون ويضحكون.

خطوة.



خطوة.

خطوة.

لم تستطع إيزابيل أن تفكّر في أيّ شيءٍ آخر. لا في البرد، ولا في الجوع

والعطش، ولا في قرصات البراغيث والقمل المنتشرة في جسمها، ولا في حياتها. وهذا أسوأها. هذا هو الشيء الذي سيجعلها تتأخّر خطوةً، فينتبه الحرّاس لها، فيجلدونها، أو يفعلون ما هو أسوأ.

خطوة.

فكّري في الحركة، لا غير.

ثمّ انهارت ساقها، وتهاوتْ على الثلج. مدّت إليها امرأةٌ يدها، فأمسكتْ إيزابيل اليد المرتعشة المزرقّة، بأصابعها الخدرة، ونهضتْ شيئاً فشيئاً. كزّت على أسنانها، وخطتْ خطوةً أخرى مترعةً بالألم، ثمّ خطوةً أُخرى.

*

انطلقت الصفّارة عند الثالثة والنصف صباحاً، كالعادة في كلّ صباح من أجل طابور النداء. كانت إيزابيل (مثل رفيقاتها التسع في المهجع) تنام بكامل ملابسها. بالحذاء الضيّق، والملابس الداخليّة الصغيرة، واللباس المقلّم الفضفاض الذي خِيط عليه رقمُها. لكنّها كلّها لا تجلب الدفء. حاولتْ أن تحثّ رفيقاتها على التحلّي بالقوّة، لكنّها هي نفسها كانت تضعف. كان شتاءً فظيعاً، والجميع في حالة احتضار. بعضهم يذهب سريعاً، من أثر التيفوس، أو قسوة المعاملة، وبعضهم الآخر يذهب بطيئاً، من شدّة الجوع والبرد. لكنّ الجميع يُحتضر.

كانت إيزابيل تعاني من حمّى منذ أسابيع، لكنّ حرارتها لم تكن مرتفعةً إلى الحدّ الذي يقرّرون معه إرسالها إلى المستشفى. وفي الأسبوع الماضي تعرّضت لضربٍ مبرحٍ أفقدها وعيها في أثناء العمل، فَضربت مرّةً أُخرى

لأنّها سقطت. كان جسدها (الذي لا يمكن أن يزن أكثر من ستة وثلاثين كيلوغراماً) قد تنمّلَ من كثرة القمل، وامتلأ بالتقرّحات المفتوحة.

كان معسكر رافنسبروك منذ البداية مكاناً خطراً، لكنّه ازداد خطورةً بحلول آذار/ مارس من عام 1945م. في الشهر الماضي وحده قُتلت مئات النساء بالرصاص، أو النار، أو الضرب. لم يوفّر النازيّون أحداً سوى الفيرفْبارن (المريضات، والضعيفات، والعجائز)، ومعتقلات ناخت أُند نيبل، مثل إيزابيل وميثِلين. المعتقلات السياسيّات، نساء المقاومة. وقد أشيع بأنّ النازيّين كانوا خائفين من قتلهنّ بالغاز في هذا الوقت الذي انقلبت فيه موازين الحرب ضدّهم.

- سوف تتخطّين هذا.

أدركتْ إيزابيل أنّها كانت تترنّح في مكانها، تكاد تسقط.

أعطتها ميثِلين بابينو ابتسامةً مُتعبةً مشجّعة. «لا تبكي».

- «لستُ أبكي». كانتا تدركان أنّ النساء اللائي يبكين ليلاً هن من يمتن في الصباح. كان الحزن والفقد يأتي مع كلّ نَفَسٍ، غير أنّهما لا يذهبان أبداً. لا مجال للاستسلام، ولو للحظةٍ واحدة.

كانت إيزابيل تعرف ذلك. ففي المعسكر كانت تقاوم بالطريقة الوحيدة التي تعرفها؛ برعاية السجينات الأخريات، والشدّ من أزرهنّ. لم يكن للسجينة في ذلك الجحيم سوى رفيقاتها. في المساءات يصعدن إلى المهاجع المظلمة، يتهامسن، ويغنّين بصوتٍ خافتٍ، ويحاولنَ أن يستبقين شيئاً من ذكريات الماضي. لقد وجدتْ إيزابيل في الأشهر التسعة التي قضتْها هنا صديقات كثيرات، وفقدتْ كذلك صديقات كثيرات.

لكنّها الآن متعبة، ومريضة.

كانت متأكّدةً من إصابتها بالتهابٍ رئويّ. وربّما التيفوس أيضاً. كانت تسعل في هدوء، وتنجز أعمالها، وتحرص على ألّا تلفت الانتباه. فآخر ما كانت تريده هو أن ينتهي بها المطاف إلى «الخيمة». ذلك المبنى الحجريّ الصغير بجدرانه المشمّعة، حيث يلقي النازيّون أيّ مصابةٍ بمرضٍ لا شفاء منه. هو المكان الذي تؤخذ إليه النساء كي يمتن.

قالت إيزابيل بصوت خافت: «ابقَي حيّة».

فأومأتْ لها ميثِلين تشجّعها.

لا بدّ من البقاء على قيد الحياة. الآن، أكثر من أيّ وقتٍ مضى. ففي الأسبوع الماضي جاءت السجينات الجديدات بالأخبار. كان الروس يتقدّمون في ألمانيا، يسحقون الجيش النازيّ. وقد حُرّر معسكر أوشفتز. كان يُشاع أيضاً بأنّ الحلفاء يكسبون معركةً تلو الأُخرى في الغرب.

يعلم الجميعُ أنّهم يتسابقون على النجاة. كانت الحرب تضع أوزارها، ولا بدّ لإيزابيل من أن تبقى حيّةً كي تشهد انتصار الحلفاء، وتحرُّرَ فرنسا.

علَت صفّارةٌ في مقدّمة الصف.

وخيّم الصمتُ على السجناء، أغلبهم نساء، مع بعض الأطفال. من أمامهم سار ثلاثة ضبّاطٍ من الشوتزستافل صحبة كلابهم.

ظهر قائد المعسكر أمامهم. توقّف، وشبك يدَيه خلف ظهره، ثمّ صاح بشيءٍ بالألمانيّة، فتقدّم الضبّاط. سمعتْ إيزابيل عبارة: ناخت أُند نيبل.

أشار أحد الضبّاط إليها، واندفع ضابطٌ آخر بين السجناء، يُطيح بالنساء أرضاً، ويدوس فوقهنّ. أمسك بذراع إيزابيل النحيلة وجرّها بقوّة، فتعثّرت إلى جانبه، وهي ترجو ألّا يسقط حذاؤها، فتلك مخالفةٌ تستوجب الجلد، كما أنّها ستقضي بقيّة الشتاء حافيةً.

على مقربةٍ منها رأتْ ضابطاً آخر يجرّ ميشِلين أيضاً.

وكلُّ ما كانت إيزابيل تفكّر فيه آنذاك هو ألّا تفقد حذاءها.

صاح ضابطٌ بكلمةٍ عرفتْها إيزابيل.

سوف يرسلونهنّ إلى معسكرٍ آخر.

شعرتْ بموجةٍ من الغضب العقيم؛ إذْ لا يمكنها أبداً أن تحتمل مسيراً آخر تحت الثلج إلى معسكرٍ جديد.

تمتمتْ: «لا». أصبح من عادتها أن تكلّم نفسها. فهي منذ أشهرٍ تهمس لنفسها حين تقوم بعملٍ تنفر منه، أو تخشاه. وكانت تهمس لنفسها حين تجلس فوق حفرةٍ في صفٍ من حفر الحمّامات، تحيط بها نساء أُخريات مصابات بالإسهال، تحدّق في النساء الجالسات قبالتها، في محاولةٍ لمنع نفسها من التقيّؤ. في بادئ الأمر كانت تحكي لنفسها حكايات عن المستقبل، أو ذكريات تقصّها لنفسها عن الماضي.

أمّا الآن، فكانت مجرّد كلمات. كلمات لا معنى لها في بعض الأحيان، لا لشيءٍ إلّا لتذكّر نفسها بأنّها ما تزال إنسانةً، وما تزال حيّة.

خبطَ إصبع قدمها بشيءٍ، فسقطتْ على وجهها في الثلج.

صاح أحدهم: «انهضي على قدمَيك. تحرّكي».

لم تستطع إيزابيل أن تتحرّك، لكنّها إن ظلّت في مكانها جَلَدوها، وربّما فعلوا أسوأ من ذلك.

قالت ميشِلين: «انهضي».

- لا أستطيع.

- «تستطيعين. الآن، هيّا قبل أن يروا أنّك سقطتِ». وساعدتْها في النهوض.

مشتْ إيزابيل وميشِلين في طابور السجينات، يمشين بتَعبٍ من أمام سور المعسكر، تحت عين الحارس في برج المراقبة.

استمرّ المسير يومَين، مسافة ستّةٍ وخمسين كيلومتراً، يتداعَين على الأرض الباردة ليلاً، يتحلّقنَ طلباً للدفء، ويرجونَ أن يطلع الفجر عليهنّ، ثمّ توقظهنّ الصافرات والأوامر بمواصلة المسير.

كم واحدةً قضت نحبها في الطريق؟ كانت إيزابيل تريد أن تتذكّر أسماءهنّ، لكنّ عقلها لم يكن يعمل من شدّة البرد، والجوع، والتعب.

وصلنَ أخيراً إلى محطّة القطار، حيث أُلقي بهنّ في عربات الماشية التي تفوح برائحة الموت والبراز. تتصاعد أعمدة الدخان الأسود في السماء التي يبيّضها الثلج. الأشجارُ عارية. لا أثر للطيور في السماء، والغابة تخلو من أيّ زقزقةٍ، أو نعيبٍ، أو صوت كائنٍ حيّ.

تسلّقت إيزابيل أكوام القشّ في العربة، وحاولت أن تكوّر نفسها قدر الإمكان. ضمّت ركبتَيها الداميتَين إلى صدرها، ولفّت ذراعيها حول كاحلَيها للاحتفاظ بما تبقّى من دفء.

ازدادت آلام صدرها. غطّت فمها حين هزّتها سَعلةٌ وأحنَتْها إلى الإمام.

قالت ميشِلين في الظلام: «أنتِ هنا». وصعدت فوق القشّ إلى جانب صديقتها.

تنهّدت إيزابيل في ارتياح، ثمّ انطلقتْ تسعلُ مرّةً أخرى. وضعتْ يدها على فمها، وشعرتْ بالدم يندفع في راحة يدها. منذ أسابيع، وهي تسعل الدم.

أحسّتْ بيدٍ جافّةٍ على جبينها، وسَعَلتْ مرّةً أُخرى.

- حرارتكِ عالية.

انغلقت الأبواب، واهتزّت العربة حين بدأت العجلات الحديديّة تدور. تمايلت العربة يمنةً ويسرةً، فاجتمعت النسوة في داخلها وجلسن على الأرضيّة. على الأقلّ في هذا الجوّ سيتجمّد البول في البرميل ولا يندلق عليهنّ.

استرختْ إيزابيل إلى جانب صديقتها، وأغمضتْ عينَيها.

سمعتْ من مكانٍ بعيد صفيراً حادّاً. قنبلةً تسقط. صرّت عجلاتُ القطار كي تتوقّف، وانفجرت القنبلة في مكانٍ قريب، فاهتزّت العربة. امتلأ الجوّ برائحة النار والدخان. يمكن للقنبلة التالية أن تسقط على القطار فتقتلهم جميعاً.

بعد أربعة أيّام، وحين وصل القطار أخيراً إلى توقّف نهائيّ (فقد أبطأ سرعته مرّاتٍ عديدة لتجنّب القصف)، فُتحت الأبواب وانكشف منظرٌ أبيضُ لا يعكّره سوى سواد المعاطف الطويلة التي كان يرتديها ضبّاط الشوتزستافل في الخارج.

وقفتْ إيزابيل، مصدومةً لأنّها لم تشعر بالبرد، بل كانت تشعر بالحرارة، حدّ التعرّق.

أدركتْ إيزابيل أنّ عدداً من صديقاتها قضين نحبهنّ في تلك اللّيلة، ولكنْ لم يكن هناك وقتٌ للحزن عليهنّ، ولا يوجد وقتٌ للدعاء لهنّ، أو مجرّد توديعهنّ. فالنازيّون كانوا يتقدّمون نحوهنّ بصافراتهم وصياحهم.

- شنيل! شنيل!

لكزتْ إيزابيل صديقتها فأيقظتْها. «امسكي يدي».

شبكت يدها بيد صديقتها ونزلتا عن أكوام القش. داست إيزابيل على جثّةٍ يبدو أنّ أحداً أخذ منها حذاءها.

كان هناك صفّ من السجينات يتشكّل على الجانب الآخر من رصيف المحطّة.

مشَتْ إيزابيل بعَرَجةٍ، في حين تعثّرت المرأةُ التي أمامها وسقطتْ على ركبتَيها.

جرَّها ضابطٌ من الشوتزستافل فأوقفها على قدمَيها، ثمّ أطلق النار على وجهها.

لم تُبطئ إيزابيل من سرعتها، يتأرجحُ إحساسُها ما بين البرد القارس والحرارة الحارقة. ظلّت تمشي بغير اتّزانٍ في الغابة الثلجيّة إلى أن ظهر معسكرٌ آخر.

- شنيل!

لحقتْ إيزابيل بمن أمامها، فدخلنَ من بوّاباتٍ مفتوحةٍ، ومررنَ بحشدٍ من رجالٍ ونساء كالهياكل العظميّة، يرتدون مناماتٍ رماديّةً مقلّمةً، وينظرون إليهنّ من خلف سورٍ من السلاسل.

- جولييت!

سمعتْ الاسم. في بادئ الأمر لم يعنِ الأمر شيئاً لها، مجرّد صوتٍ آخر. ثمّ تذكّرتْ.

لقد كانت جولييت. ومن قبلها كانت إيزابيل. والعندليب. ليست ف-5491 وحسب.

نظرتْ إلى السجناء المصطفّين خلف السلاسل.

كان هناك شخصٌ يلوّح لها. امرأةٌ، ببشرةٍ رماديّةٍ، وأنفٍ معقوفٍ، وعينَين غائرتَين.

عينان.

وتعرّفت على تلك النظرة العارفة المتعبة.

أنوك.

سارت إلى السور، إلى أنوك. تشابكتْ أصابعهما عبر المعدن البارد. قالت، وهي تسمع صوتها المكسور: «أنوك». سَعَلتْ قليلاً، وغطّتْ فمها.

كان الحزنُ في عينَي أنوك السوداوَين لا يُحتمل. انتقلتْ نظرةُ صديقتها إلى مبنى كانت مدخنته تزفر دخاناً آسناً أسود. «إنّهم يقتلوننا لكي يُخفوا ما فعلوه».

- هنري؟ بول؟...غيتون؟

- «اعتُقلوا جميعاً يا جولييت. شُنق هنري في ميدان البلدة؛ أمّا البقيّة...». وهزّت كتفَيها.

سمعتْ إيزابيل ضابطاً من الشوتزستافل يصيح بها، فتراجعت عن السور. كانت تريد أن تقول شيئاً حقيقياً لأنوك، شيئاً يبقى، لكنّها لم تملك سوى السعال. غطّتْ فمها، ومشت تترنّح كي تلتحق بصفّ السجينات.

ورأتْ صديقتَها تحرّك شفتَيها: «وداعاً». غير أنّها لم تستطع حتّى أن تردّ. كانت قد تعبت جداً من الوداع.

الفصل السابع والثلاثون

كانت الشقّة الواقعة في شارع دو لا بوردونيه تبدو أقرب إلى المدفن، حتّى في يومٍ ربيعيٍّ كهذا من شهر آذار/ مارس. الترابُ يغطّي كلّ شيء، يتراكم على الأرضيّة. سارت ڤيان إلى النوافذ ومزّقت التعتيم، فسمحت للضوء بالدخول إلى هذه الغرفة، للمرّة الأولى منذ أعوام.

يبدو أنّ الشقّة ظلّت فترةً مهجورة. ربّما منذ أن غادرها والدها لكي ينقذ إيزابيل.

اللّوحات ما تزال معلّقةً على الجدران، والأثاث في مكانه، على الرغم من أنّ بعضه المكوّم عند الزاوية قد كُسر لاستخدام أخشابه في التدفئة. ثمّة طاسة حساءٍ فارغة، وملعقة على طاولة الطعام، ودواوينه التي نشرها بنفسه مصفوفة على رفّ المدفأة. «لا يبدو أنّها كانت هنا. علينا أن نحاول البحث عنها في فندق لوتيسيا».

كانت ڤيان تعرف أنّ من واجبها جمعُ أغراض أسرتها، هذه البقايا من حياةٍ أُخرى، لكنّها لم تستطع في ذلك الوقت. لم تكن تريد. ستفعل ذلك لاحقاً.

غادرت الشقّة مع أنطوان وصوفي. هناك في الشارع كان كلّ شيء حولهم يبدو من علامات التعافي. كان الباريسيّون مثل حيوان الخلد الذي يخرج إلى ضوء الشمس بعد سنوات من الظلام. غير أنّ طوابير الطعام كانت منتشرةً في كلّ مكان، وما تزال بطاقات التموين مستمرّةً، وشحّ الطعام. لعلّ الحربَ كانت تنحسر (إذْ كان الألمان ينسحبون من كلّ مكان)، لكنّها لم تضع أوزارها بعد.

ذهبوا إلى فندق لوتيسيا الذي كان في وقت الاحتلال مقرّاً للاستخبارات العسكريّة الألمانيّة، ثمّ أصبح مركزاً لاستقبال العائدين من المعسكرات.

وقفتْ ڤيان في ردهة الفندق الأنيقة المزدحمة، يجتاحها غثيانٌ، وهي تنظر حولها، فشعرتْ بالامتنان لأنّها تركتْ دانييل مع الأم ماري تيريزا. منطقةُ الاستقبال يملؤها أشخاصٌ صُلْعٌ نحيلون كالقضبان، بأعينٍ فارغةٍ وأسمالٍ بالية. كانوا في منظرهم ذاك أقربَ إلى جِيفٍ تمشي على أقدامها، فيما يروح ويغدو بينهم الأطبّاء، وموظّفو الصليب الأحمر، والصحافيّون.

اقترب رجُلٌ من ڤيان، ودفع إلى وجهِها صورةً باهتةً بالأبيض والأسود. «هل رأيتِها؟ آخر ما بلغَنا أنّها كانت في أوشفتز».

في الصورة فتاةٌ جميلةٌ تقف إلى جانب درّاجة، بابتسامةٍ عريضة. لا يمكن أن يكون عمرها أكبر من خمس عشرة سنة.

- لا، مع الأسف.

لكنّ الرجُلَ كان قد سار مبتعداً، دائخاً شأنه شأن ڤيان.

أينما ولّت ڤيان وجهها رأتْ أُسراً محفوفةً بالقلق، يقبضون على صورٍ بأيادٍ مرتعشة، يتوسّلون أيّ أنباءٍ عن أحبابهم؛ أمّا الجدارُ الذي على يمينها، فكانت تغطّيه صورٌ، وملحوظاتٌ، وأسماءٌ، وعناوين. أحياءٌ يبحثون عن

المفقودين. اقترب أنطوان من ڤيان، ووضع يده على كتفها. «سنجدها يا ڤي».

قالت صوفي: «مامُن. هل أنتِ بخير؟».

نظرتْ إلى ابنتها. «ربّما كان الأفضل أن نترككِ في البيت».

- فات الأوانُ على حمايتي. لا بدّ من أن تدركي ذلك.

تُدركُ ڤيان تلك الحقيقة وتمقتها أشدّ المقت. أمسكتْ بيد ابنتها وسارت بها عبر الزحام، وأنطوان إلى جانبها، ثمّ رأتْ إلى يسارها مجموعة رجالٍ يرتدون مناماتٍ مقلّمةً قذرةً، يبدون كالهياكل العظمية. كيف كانوا ما يزالون أحياءً؟

لم تدرك ڤيان أنّها توقّفتْ مرّةً أُخرى حتّى جاءت امرأةٌ أمامها.

قالت المرأة (وهي موظّفةٌ في الصليب الأحمر) بلطف: «مدام؟».

قطعتْ ڤيان نظرتَها إلى الناجين الممزّقين. «أبحث عن بعض الأشخاص...أختي، إيزابيل روسينيول. كانت قد اعتُقلت بتهمة مساعدة العدو ورُحِّلت. وصديقتي المقرّبة راشيل دو شامپلان، رُحِّلت أيضاً. وزوجها مارك، أسير حرب. أنا...لا أعرف ما حدث لأيّ منهم، ولا كيف أبحث عنهم. و...لديّ أيضاً قائمة بأطفالٍ يهود في كاريڤو. عليّ أن أعيدهم إلى ذويهم».

أخرجتْ الموظّفةُ ذات الشعر الرماديّ ورقةً ودوّنتْ عليها الأسماء التي ذكرتْها ڤيان. «سأراجع السجلّات وأتأكّد؛ أمّا عن الأطفال، فتعالَي معي». ثمّ قادتْهم إلى غرفةٍ في آخر القاعة يجلس فيها رجُلٌ طويل اللّحية يبدو من عصرٍ غابرٍ وراء طاولةٍ مملوءةٍ بالأوراق.

قالت الموظّفة: «مسيو مونتان. هذه السيّدة لديها معلومات عن بعض الأطفال اليهود».

نظر إليها الشيخُ بعينَيه المحتقنتَين، ثمّ أومأ لها بأصابعه الطويلة المشعرة: «تفضّلي».

خرجتْ الموظّفة، وحلّ صمتٌ مفاجئٌ مُربكٌ بعد كثيرٍ من الضوضاء والهياج.

اقتربتْ ڤيان من الطاولة. يداها متعرّقتان، فجفّفتهما في جانبَي تنوّرتها. «اسمي ڤيان مورياك. من كاريڤو». ثمّ فتحتْ حقيبتها وأخرجتْ قائمةً دوّنتْها ليلة أمس من القوائم الثلاث التي كانت قد أخفتْها في أثناء الحرب. وضعتْ الورقة على طاولته: «هؤلاء بعض الأطفال اليهود المختبئين، مسيو. إنّهم في ميتم آبي دو لا ترينيتي، تحت رعاية الأم الرئيسة ماري تيريزا. لا أعرف كيفُ أعيدهم إلى ذويهم، ما عدا الاسم الأوّل. آري دو شامپلان، فهو معي. لكنّي أبحث عن والدَيه».

قال بهدوء: «تسعة عشر طفلاً».

– ليسوا كثيرين، أعرف. ولكن...

فنظرَ إليها كما لو أنّها بطلة، لا ناجية مفزوعة. «هؤلاء تسعة عشر طفلاً كانوا سيموتون في المعسكرات مع ذويهم يا مدام».

– هل بإمكانك إعادتهم إلى ذويهم؟

– «سأحاول يا مدام. ولكنْ مع الأسف، فإنّ معظم هؤلاء الأطفال غدوا أيتاماً. تتشابه القوائم التي تأتينا من المعسكرات. الأمّ ميّتة، الأب ميّت، لا أقارب أحياء في فرنسا. وقليل جداً من الأطفال بقوا على قيد

الحياة». مسح شعره الخفيف بيده، وأضاف: «سأرسل قائمتك إلى جمعيّة إنقاذ الأطفال في نيس، فهم يحاولون لمّ شمل الأسر. ميرسي مدام».

انتظرتْ ڤيان لحظةً، لكنّ الرجُل لم يضف شيئاً. عادت إلى زوجها وابنتها، وغادروا المكتب إلى زحام اللاجئين، والأسَر، والناجين من المعسكرات.

قالت صوفي لأمّها: «ما العمل الآن؟».

- ننتظر ردّاً من موظّفة الصليب الأحمر.

فأشار أنطوان إلى جدار الصُور وأسماء المفقودين. «علينا أن نبحث عنها هناك».

تبادل الجميع نظرةً، هي أشبه باعترافٍ منهم حول حجم الألم الذي سوف يعتريهم إذا ما وقفوا هنالك ينظرون في صور المفقودين. مع ذلك فقد ساروا إلى تلك الصور والملحوظات المتلاطمة، وبدؤوا يفتّشون فيها، صورةً صورة.

ساعتان انقضتا قبل أن تعود الموظّفة إليهم.

- مدام؟

فاستدارت ڤيان إليها.

- أنا آسفة يا مدام. راشيل ومارك دو شامپلان في قائمة الوفيات. ولا يوجد ذكرٌ لإيزابيل روسينيول في أيّ مكان.

ما إنْ سمعتْ ڤيان كلمة الوفيات حتى اجتاحها حزنٌ لا يُحتمل، لكنّها صمّمتْ على أن تزيح عواطفها جانباً. سوف تفكّر في راشيل لاحقاً، حين تكون بمفردها. ستشرب كأساً من الشمبانيا في الفناء تحت

شجرة الطقسوس، وتتحدّث إلى صديقتها. «ما معنى ذلك؟ لا يوجد ذكر لإيزابيل؟ لقد رأيتهم بنفسي وهُم يأخذونها».

- «عودي إلى بيتك وانتظري عودة أختك». وضعتْ الموظفةُ يدها بحنانٍ على ذراع ڤيان، وأضافت: «تمسّكي بالأمل. ما تزال هناك معسكرات لم تُحرَّر».

نظرتْ صوفي إليها. «لعلّها اختبأتْ كما كانت تفعل».

مدّت ڤيان يدها إلى وجه ابنتها، ودفعتْ نفسها إلى ابتسامةٍ صغيرةٍ حزينة. «لقد كبرتِ كثيراً. يُشعرني هذا بالفخر، ويفطرُ قلبي في الوقت نفسه».

فقالت صوفي، وهي تمسك بيد أمها: «تعالَي». تركتْ ڤيان ابنتها تقودها، فشعرتْ بأنّها في هذا الموقف طفلةٌ لا والدة، وهُم يشقّون طريقهم في الردهة المزدحمة إلى أضواء الشارع.

بعد ساعات، حين استقلّوا القطار العائد إلى كاريڤو، يجلسون على دكّةٍ خشبيّةٍ في عربة الدرجة الثالثة، أخذتْ ڤيان تحدّق في الريف المقصوف من النافذة؛ أمّا أنطوان فنام إلى جانبها، يسند رأسه إلى النافذة المتّسخة.

سألتْها صوفي: «كيف تشعرين الآن؟».

وضعتْ ڤيان يدها على بطنها المنتفخة، فأحسّتْ برجفةٍ (أو ركلةٍ) خفيفة. مدّت يدها إلى يد صوفي.

حاولت صوفي أن تسحب يدها، لكنّ ڤيان أصرّتْ بلطف. ثمّ وضعتْ يد ابنتها على بطنها.

أحسّتْ صوفي بالرجفة، فاتّسعت عيناها. نظرتْ إلى ڤيان. «كيف يمكنكِ...».

- الحربُ غيّرتْنا كلّنا يا صوف. دانييل أصبح أخاكِ الآن بعد...بعد رحيل راشيل. أخاكِ فعلاً. وهذا الطفلُ، ولداً كان أم بنتاً، بريءٌ من... أسباب خلقه.

قالت صوفي بهدوء: «النسيان صعب. وأنا لن أغفر أبداً».

- لكنّ الحبّ لا بدّ من أن يكون أقوى من الكراهية، وإلّا فلن يكون لنا مستقبل.

تنهّدت صوفي وقالت بنبرةٍ تبدو كبيرةً جداً على فتاةٍ في سنّها: «يبدو كذلك».

وضعتْ ڤيان يدها على يد ابنتها. «ستذكّر إحدانا الأخرى، وِي؟ في الأيام العصيبة. ستكون كلٌّ منا أقوى، من أجل الأخرى».

*

استمرّ طابور النداء ساعات، وسقطتْ إيزابيل على ركبتَيها. ما إنْ لمست الأرض حتى قالت لنفسها: «ابقَيْ حيةً»، فعادتْ إلى الوقوف.

كان الحرّاس يفتّشون المكان بكلابهم، يختارون النساء لأفران الغاز. وقد قيل: إنّ مسيراً آخر سيحدث قريباً، إلى ماوتهاوزن هذه المرّة، حيث قضى الآلاف ممّن نحبهم، وهُم يعملون. أسرى سوفييتيّون، ويهود، وطيّارون من قوّات الحلفاء، ومعتقلون سياسيّون. يُقال: إنّه لا أحد يدخل هذا المعكسر ويخرج منه.

سعلتْ إيزابيل، فنضحَ الدمُ على راحتها. مسحتْه على لباسها المتّسخ بسرعة، قبل أن يراه أحد الحرّاس.

كان حلقُها يحرقها، ورأسها ينبضُ من شدّة الألم. تركيزُها منصبٌّ على آلامها، حتى إنّها لم تنتبه إلى صوت المحرّكات إلّا بعد لحظة.

قالت ميشلين: «هل سمعتِ؟».

أحسّتْ إيزابيل بهرجٍ ومرجٍ بين السجناء، وصعُب عليها التركيزُ من فرط الألم. تتألّمُ رئتاها بقوّةٍ مع كلّ نَفَس.

سمعت صوتاً: «إنّهم يرحلون».

- إيزابيل. انظري!

لم ترَ في بادئ الأمر شيئاً سوى السماء الزرقاء الصافية، والأشجار، والسجناء. ثمّ لحظتْ.

قالت بصوتٍ أجشّ ممزّق: «ذهبَ الحرّاس».

فُتحتْ البوّابات واندفع تيّارٌ من الشاحنات الأميركيّة، يجلس الجنود على مقدّماتها، وقد فتحوا مؤخّراتها، وعلّقوا بنادقهم على صدورهم.

أميركان.

تهاوت ركبتا إيزابيل، وهمستْ بصوتٍ مكسورٍ مثل روحها: «ميش.. لين. لقد...نجونا».

*

في ذلك الربيع، بدأت الحربُ تخطو إلى نهايتها. أعلن الجنرال آيزنهاور مطالبته باستسلام ألمانيا، وعبر الأميركان نهر الراين ودخلوا ألمانيا، وانتصر الحلفاء في معركةٍ تلو الأُخرى، وشرعوا يحرّرون المعسكرات؛ أمّا هتلر فكان يعيش في خندق.

مع ذلك، لم تعد إيزابيل.

تركت ڤيان صندوق البريد ينغلق بقوّة. «وكأنّها اختفتْ».

لم يقل أنطوان شيئاً. ظلّوا أسابيع يبحثون عن إيزابيل. كانت ڤيان

تقف ساعاتٍ في الطوابير لإجراء اتّصالٍ هاتفي، وترسل مئات الرسائل إلى المؤسّسات والمستشفيات. في الأسبوع الفائت زاروا معسكرات النازحين، ولكن بدون فائدة. لم يجدوا أثراً لإيزابيل روسينيول في أيّ مكان. بدا كما لو أنّ الأرض انشقّت وابتلعتها، هي ومئات الآلاف غيرها.

ربّما نجتْ إيزابيل من عذاب المعسكرات، لكنّها أُعدمت قبل وصول الحلفاء بيومٍ واحد. ربّما في معسكرٍ يُسمّى بيرغن-بيلسن، حيث وجد الحلفاء أكواماً من الجثث ما تزال ساخنة.

لماذا؟

كي لا يحدّثوا بما رأوا.

قال أنطوان، وهو يأخذ بيدها: «تعالَي معي». لم تعد تجفل من لمسته، أو تتخشّب، لكنّها لم تكن تسترخي عند لمسته كذلك. في الأشهر التي انقضتْ منذ عودة أنطوان كان كلاهما يمثّل على الآخر، ويعرف أنّ الآخر يمثّل أيضاً. يقول: إنّه لا يطارحها الغرام خشيةً على الجنين، فتوافقه على ذلك، لكنّهما يعرفان الحقيقة.

قال، وهو يقودها إلى الفناء الخلفي: «لديّ مفاجأة لك».

السماءُ مشرقةٌ لازوَرديّة، من تحتها تطرحُ شجرة الطقسوس رقعةً من الظلّ البنّي البارد. في السقيفةِ تنقرُ الدجاجات الباقيات في التراب، تقاقي وترفرف.

شرشفٌ قديمٌ بُسِطَ بين غصن الشجرة ومشجب قبّعاتٍ حديديٍّ لا بدّ من أن أنطوان وجده في الحظيرة. قادها إلى واحدٍ من المقاعد الموضوعة في الفناء الحجريّ. كانت الطحالب والأعشاب في أثناء غيابه قد اجتاحتْ هذه البقعة، فلم يثبتْ مقعدها جيّداً على الأرض. جلستْ بحرص، وكانت

قد أصبحت صعبة المراس في هذه الأيّام. رسمَ لها زوجُها ابتسامةً برّاقةً في سعادتها، ومباغتةً في حميميّتها. «عملنا أنا والأطفال على هذا طوال النهار. من أجلك».

أنا والأطفال.

اتّخذ أنطوان مكانه أمام الشرشف المرتخي، ورفع ذراعه السليمة في حركةٍ مسرحيّة. «سيداتي سادتي، الأطفال، والأرانب المهزولة، والدجاجات التي تفوح منها رائحة الخراء—».

قهقه دانييل من خلف الستار، فأسكتَه صوفي.

- «مواصلةً لتقاليد السيّدة مادلين العريقة في باريس، والتي شهدت أوّل نجوميّةٍ للمدموازيل موريناك، أقدّم لكم مطربَي لو جاردان». وبتلويحةٍ منه، أزاح جانباً من الستار، فكشف عن منصّةٍ خشبيّةٍ وُضعت على العشب على زاويةٍ مائلةٍ، تقف عليها صوفي إلى جانب دانييل. كان كلاهما يرتدي بطّانيةً على هيئة معطف، مع غُصينٍ من أزهار التفّاح عند الحلق، وتاجٍ مصنوعٍ من معدنٍ لامعٍ ألصقا عليه صخوراً جميلةً، وقطعاً من الزجاج الملوّن.

قال دانييل، وهو يلوّح بحماس: «مرحباً مامْ!».

فقالت له صوفي: «اشش. هل نسيت؟».

فأومأ دانييل بجدّية.

ثم استدارا على مهلٍ، بينما تصرُّ المنصّة الخشبيّة من تحتهما، وشبكا يدَيهما في مواجهة ڤيان.

قرّب أنطوان آلة هارمونيكا فضّيةً من فمه، وأطلق لحناً حزيناً ظلّ عالقاً في الهواء طويلاً، بذبذباتٍ تُغري بما هو قادم، ثمّ بدأ يعزف.

غنّتْ صوفي بصوتٍ عذبٍ: «فريرو جاكِه، فريرو جاكِه...».

ثمّ قرفصتْ، وانطلق دانييل يغنيّ: «دورمي ڤو؟ دورمي ڤو؟».

وضعتْ ڤيان يدها على فمها، لكنّها لم تستطع أن تمنع ضحكتها.

وتواصلتْ الأغنيةُ على ذلك المسرح، فيما ترى ڤيان سعادة صوفي بهذا الفعل الذي كان عادياً ذات يوم، أن تؤدّي أغنيةً أمام أبويها، ودانييل يوجّه كلّ تركيزه لأداء دوره بإتقان.

كان الأمرُ ساحراً للغاية، وفي الوقت نفسه عاديّاً على نحوٍ جميل. تلك لحظةٌ من حياةٍ كانت لهم من قبل.

هكذا شعرتْ ڤيان بالسعادة تنبجسُ داخلها.

قالت في نفسها، وهي تنظر إلى أنطوان: سنكون بخير. هنالك رأتْ ڤيان نصفها الآخر، في الظلّ الذي طرحتْه الشجرة التي غرسها جدّها الأكبر، وعلى صوت طفلَيها في الهواء. حدّثتْ نفسها مرّةً أخرى: سنكون بخير.

- دِنغ دانغ دونغ.

فلمّا انتهت الأغنيةُ، صفّقت ڤيان بحرارة، وانحنى الطفلان كما يليق بفنّانَين؛ أمّا دانييل فتعثّر ببطّانيّته وسقط على العشب، ثمّ نهض ضاحكاً. تهادتْ ڤيان إلى المنصّة وأغدقتْ على طفلَيها بكثيرٍ من الإطراء والقبلات.

قالت لصوفي بعينَين تلتمعان حبّاً وفخراً: «يا لها من فكرةٍ رائعة!».

- وقال دانييل باعتزاز: «كنتُ مركّزاً جدّاً، مامْن».

غرقتْ ڤيان في ذلك الحضن ولم تستطع أن تتركهما، فقد ملأ ذلك المستقبلُ الذي أبصرتْه روحَها بالسعادة.

قالت صوفي: «رتّبتُ الأمر مع پاپا. كما كنّا نفعل في السابق، مامْ».

فأضاف دانيل، وهو ينفخ صدره الصغير: «وأنا رتّبت معهما أيضاً».

ضحكتْ ڤيان. «كم كنتما عظيمَين في الغناء. و—».

فقال أنطوان من خلفها: «ڤيان؟».

لم تستطع أن تحوّل عينَيها عن ابتسامة دانيل. «كم من الوقت أخذتَ لكي تحفظ دورك؟».

قالت صوفي بهدوء: «مامْ. يوجد شخصٌ هنا».

فاستدارت ڤيان لتنظر خلفها.

كان أنطوان واقفاً قرب الباب الخلفيّ مع رجلَين. كلاهما يرتدي بذلةً سوداء رثّة، وقبّعة بيريه سوداء، فيما يحمل واحدٌ منها حقيبةً مهترئة.

قال أنطوان: «صوفي، انتبهي لأخيكِ دقيقةً. لدينا أمرٌ نناقشه مع السيّدَين». اقترب من ڤيان ووضع يده على أسفل ظهرها، يساعدها على النهوض ويحثّها على المشي، ثمّ دخل الجميع صفّاً واحداً إلى البيت بدون أن ينبس أحدٌ بكلمة.

فلمّا أُغلق الباب خلفهم، استدار الرجُلان نحو ڤيان.

قال الأكبر منهما: «اسمي ناثانيَل ليرنر». كان شعرُه رماديّاً، وبشرته بلون الكتّان المبقّع بالشاي. على وجهه ندوب شيخوخة كبيرة.

وقال الثاني: «وأنا الحاخام هورويتز».

فسألتهما ڤيان: «وما سبب الزيارة؟».

قال الحاخام بصوتٍ لطيف: «جئنا من أجل آري دو شامپلان. لديه أقارب في أميركا، في بوسطن تحديداً. وقد تواصلوا معنا».

كادت ڤيان تنهار لولا أن أسندها أنطوان.

- علمنا أنّكِ أنقذتِ تسعة عشر طفلاً يهوديّاً بنفسك. على الرغم من وجود ضبّاط ألمان يقيمون في بيتك. أمرٌ يدعو للإعجاب يا مدام.

وأضاف ناثانيَل: «بل بطوليّ».

وضع أنطوان يده على كتفها، فأدركتْ حينها أنّها سكتتْ طويلاً. قالت بهدوء: «راشيل كانت أعزّ صديقة لي. حاولتُ أن أساعدها في التسلل إلى المنطقة الحرّة قبل ترحيلها، ولكن...».

قال ليرنر: «قُتِلت ابنتُها».

- كيف عرفتَ عن هذا؟

- عملُنا يقتضي اقتفاء الأحداث والأخبار من أجل لمّ شمل الأُسر. لقد تحدّثنا إلى عددٍ من النساء اللائي كُنّ في أوشفتز مع راشيل، وأبلغونا أنّها تُوفّيت بعد أقلّ من شهرٍ واحد على وصولها؛ أمّا زوجها مارك، فقد قُتل في معتقل شتالاك 13-أ. لم يحالفه الحظّ مثل زوجك.

لم تقل ڤيان شيئاً. كانت تُدرك أنّ الرجُلَين يمهلانها وقتاً لهضم ما قالاه، فقدّرتْ لهما ذلك في داخلها وكرهتْه أيضاً. ذلك أنّها لم تكن تريد أن تتقبّل شيئاً من كلامهما. «دانييل، أقصد آري، وُلد قبل أسبوعٍ من ذهاب مارك إلى الحرب. ولا يذكر شيئاً عن أبوَيه. كان هذا هو السبيل الأسلم.. أن يصدّق بأنّه ابني».

- «لكنّه ليس ابنك يا مدام». كانت نبرةُ ليرنر لطيفةً، غير أنّ كلامه كان أشبه بالسوط.

- وعدتُ راشيل بأن أحافظ على سلامته.

- وقد فعلتِ. لكنّ الوقت قد حان كي يعود آري إلى عائلته. إلى قومه.

- لكنّه لن يفهم.

- ربّما. ولكنْ بصرف النظر.

نظرتْ ڤيان إلى أنطوان تستجدي مساعدته. «نحن نحبّه، وهو جزءٌ من أسرتنا. ينبغي أن يظلّ معنا. أولا تريد أن يبقى معنا يا أنطوان؟».

فأومأ زوجها.

التفتتْ إلى الرجُلَين. «يمكننا أن نتبنّاه، ونربّيه كواحدٍ منّا. على أن يبقى يهوديّاً طبعاً. سوف نخبره بحقيقة من يكون، ونأخذه إلى المعبد، و—».

فقال ليرنر بتنهيدة: «مدام».

اقترب الحاخام من ڤيان، وأمسك بيدَيها. «نعلمُ أنّك تحبينه، وأنّه يحبّك. نعلمُ أنّ آري ما يزال صغيراً على أن يفهم، وأنّه سوف يبكي ويشتاق إليكِ...ربّما لسنوات».

- لكنّكم تريدون أن تأخذوه على الرغم من ذلك.

- «أنتِ تنظرين إلى كسر قلبِ طفلٍ واحد. وأنا أفكّر في كسر قلب قومي كلّهم. هل فهمتِني؟». سقط وجهُه، وتقوّست شفتاه إلى تكشيرةٍ خفيفة: «لقد قضى ملايين اليهود في هذه الحرب يا مدام. ملايين». أمهلَ الفكرةَ قليلاً، ثمّ أضاف: «جيلٌ بأكمله ذهب. وعلينا أن نتّحد الآن، نحن القلّة الذين بقينا. لا بدّ من أن نعيد بناء أمّتنا. قد يبدو لكِ الطفلُ الصغير الذي لا يذكرُ شيئاً عن هُويّته الحقيقيّة أمراً غير ذي بال، لكنّه بالنسبة إلينا هو المستقبل. لا يسعُنا أن ندعكِ تربّينه على دينٍ ليس دينك، وتأخذينه إلى المعبد متى ما تذكّرتِ. آري في حاجةٍ إلى أن يكون على هوّيته الحقيقيّة، أن يكون مع قومه. ولا بدّ من أنّ هذا ما تريده أمُّه له».

فكّرتْ ڤيان في الأشخاص الذين رأتهم في فندق لوتيسيا، أولئك الهياكل العظمية ذوي العيون المعذّبة، وجدار الصُور الذي يمتدّ بلا نهاية.

ملايين قُتلوا.

جيلٌ بأكمله ضاع.

فكيف لها أن تُبعد آري عن قومه، عن أهله؟ هي مستعدّةٌ لأن تقاتل من أجل طفلَيها، غير أنّه لا يوجد خصمٌ تقاتله، بل مجرّد خسارةٍ في الطرفَين.

قالت غير عابئةٍ بانكسار صوتها: «من الذي سيأخذه؟».

- ابنة عمّ والدته. لديها ابنةٌ في الحادية عشرة، وابنٌ في السادسة. سيحبّون آري ويحتضنونه.

لم تجد ڤيان في نفسها قوّةً حتى للإيماء، أو لمسح عبَراتها التي سالت. «لعلّهم يرسلون لي صوره، أليس كذلك؟».

حدّق الحاخام فيها. «آري في حاجةٍ إلى أن ينساكِ يا مدام. أن يبدأ حياةً جديدة».

كانت ڤيان تُدرك ذلك في داخلها. «ومتى تأخذونه؟».

قال ليرنر: «الآن».

الآن.

فسألهما أنطوان: «أما من طريقةٍ لتجنّب هذا الأمر؟».

فقال الحاخام: «لا، مسيو. خيرٌ لآري أن يعود إلى قومه. إنّه من المحظوظين؛ فما تزال له عائلةٌ على قيد الحياة».

أحسّتْ ڤيان بأنطوان يأخذ بيدها، ويقودها إلى السلّم، يحثّها مرّةً تلو الأخرى. صعدتْ على السلالم الخشبيّة، بساقَين جامدتَين كالرصاص.

في غرفة ابنها (لا، ليس ابنها) كانت تسير كالمسرنمين، تجمع أغراضه وملابسه القليلة؛ دميةً مهلهلةً على شكل قردٍ سقطتْ عيناه، وقطعةً من خشبٍ متحجّر وجده عند النهر في الصيف الماضي، واللحافَ الذي صنعتْه ڤيان من ملابس قديمةٍ كبُر عليها. كانت قد خاطت على ظهره: «إلى حبيبنا دانييل. مامُن، وپاپا، وصوفي».

تذكّرتْ حين قرأها أوّل مرّة وقال: «هل پاپا سيعود؟». فأومأتْ له وأخبرتْه بأنّ الأُسر منذورةٌ للعودة إلى مواطنها.

- لا أريد أن أتركه. لا أستطيع...

احتضنها أنطوان وتركها تبكي. فلمّا هدأتْ أخيراً، همس لها في أذنها: «أنتِ قويّة. ولا بدّ من أن نتحلّى بالقوّة. نعم نحن نحبّه، لكنّه ليس لنا».

لقد ثقُل كاهلها من القوّة. فكم فَقْداً تستطيع أن تحتمل؟

- تريدينني أن أخبره؟

كان هذا أحبَّ إليها من أيّ شيءٍ آخر في تلك اللحظة، لكنّه واجب الأمّ.

جمعتْ بيدَيها المرتعشتَين أغراض دانييل (آري) في حقيبةٍ قماشيّةٍ قديمةٍ، وخرجتْ من الغرفة، ثمّ أدركتْ متأخّرةً أنّها تركت أنطوان وراءها. كان التنفّسُ والحركةُ في حدّ ذاتهما يستنزفانها. فتحتْ باب غرفتها، وفتّشت في الخزانة إلى أن وجدتْ صورةً مبروزةً صغيرة لها مع راشيل قبل عشر سنوات، أو اثنتي عشرة سنة. كانت هذه هي الصورة الوحيدة التي تملكها لصديقتها. كتبتْ اسمَيهما على ظهر البرواز، ووضعتْه في جيب الحقيبة، وخرجتْ. لم تلقِ بالاً إلى الرجُلَين، وتوجّهتْ إلى الفناء الخلفي حيث كان كلّ من طفليها ما يزال بالبطّانية والتاج، يلعبان على المسرح.

وسار الرجالُ الثلاثة خلفها.

نظرتْ صوفي إليهم جميعاً. «مامُن ؟».

ضحك دانييل. تُرى إلى متى ستظلّ تذكر ذلك الصوت تحديداً؟ ليس طويلاً. كانت تُدرك ذلك. فالذكريات، حتّى الأفضل منها، تتلاشى.

- «دانييل». اضطُرّت إلى أن تتنحنح وتحاول مرّةً أخرى: «دانييل. تعال».

قالت صوفي: «ما الأمر، مامُن؟ يبدو كما لو أنّكِ كنتِ تبكين».

تقدّمتْ، وهي تقبض على الحقيبة القماشية. «دانييل؟».

تبسّم لها، ثمّ سألها، وهو يعدّل التاج على رأسه: «تريدين أن نغنّيها مرّةً أُخرى، مامُن؟».

- «تعال يا دانييل». قالتْها مرّتَين، للتأكّد لا أكثر. كانت تخشى كثيراً أن يكون كلّ ما يحدث في عقلها فقط.

سار نحوها، وهو يلقي ببطّانيّته كي لا يتعثّر بها.

جثمتْ ڤيان على العشب وأمسكت يدَيه. «لا توجد طريقةٌ تجعلك تستوعب ما سأقوله. كنتُ سأخبرك بكلّ شيءٍ بمرور الوقت. حين تكبر. كنّا سنذهب إلى بيتك القديم. ولكن لم يعد هناك وقتٌ يا كابتن دان».

عبسَ دانييل. «ماذا تقصدين؟».

- أنت تعرف كم نحبّك.

- وِي مامُن.

- نحبّك يا دانييل، منذ اللحظة التي دخلتَ بها حياتنا، لكنّك قبل ذلك كانت لك أسرةٌ أُخرى. كانت لك أمٌّ أُخرى، وأبٌ آخر، وكانا يحبّانك أيضاً.

عبَس مرّةً أخرى. «كانت لي أمٌّ أخرى؟».

من خلفها قالت صوفي: «أوه، لا...».

– «كان اسمها راشيل دو شامپلان، وكانت تحبّك من كلّ قلبها؛ أمّا أبوك، فكان رجُلاً شجاعاً اسمه مارك. كنتُ أرجو أن أكون أنا من يحدّثك عنهما، لكنّني لا أستطيع». انسكبتْ دموعُها، وأضافت: «لأنّ ابنة عمّ أمّك تحبّك أيضاً، وتريدك أن تذهب للعيش معهم في أميركا. للناس هناك طعامٌ وفير، وألعابٌ كثيرة».

فامتلأتْ عيناه بالدمع. «لكنّكِ أنتِ أمّي. لا أريد أن أذهب».

كانت تودّ أن تقول: «لا أريدك أن تذهب». لكنّ هذا سيضاعف من خوفه، فيما كان ينبغي لها في مهمّتها الأمومية الأخيرة أن تُشعره بالأمان: «أعرف، لكنّك سوف تستمتع كثيراً هناك يا كابتن دان، وأسرتك الجديدة ستحبّك وتعشقك. ومن يدري، فقد يكون لديهم جروٌ صغير كما كنت تريد دائماً».

وانطلق يبكي، فضمّته إلى حضنها. تطلّب الأمرُ منها أعظم شجاعةٍ في حياتها كلّها كي تتركه. نهضتْ، فجاء الرجُلان على الفور إلى جانبها.

قال الحاخام لدانييل بابتسامةٍ عريضة: «مرحباً يا بطل».

لكنّ دانييل انفجر باكياً.

أمسكتْ ڤيان يده وقادته عبر المنزل إلى الفناء الأمامي، من أمام شجرة التفّاح الميتة التي عُلقت عليها شرائط الذكرى، ثمّ إلى البوّابة المكسورة، وسيّارة الـ«بيجو» الزرقاء الواقفة عند الشارع.

صعد ليرنر إلى مقعد السائق، فيما انتظر الحاخام عند الباب الخلفيّ. اشتغل المحرّك، وانطلق الدخان من عادم السيّارة.

فتح الحاخام الباب الخلفي، موجّهاً إلى ڤيان نظرةً حزينةً أخيرةً، ثمّ دخل السيّارة وترك الباب مفتوحاً.

اقتربت صوفي وأنطوان منها، وانحنيا يحتضنان دانييل.

قالت صوفي: «سنظلّ نحبّك دائماً يا دانييل. أرجو أن تتذكّرنا».

تعلمُ ڤيان أنّها هي الوحيدة التي يمكنها أن تدخله إلى السيّارة. فلن يثق بغيرها.

لم يؤلمها شيءٌ أكثر من هذا، من بين كلّ الأحداث المفجعة التي وقعت في أثناء الحرب. أخذتْ دانييل من يده، وأدخلتْه السيّارة التي ستأخذه بعيداً. جلس في المقعد الخلفي.

حدّق فيها بعينَين حائرتَين دامعتَين. «مامُن؟».

فقالت صوفي: «دقيقة!». وركضتْ إلى البيت، ثمّ عادت بعد لحظةٍ تحمل الدمية «بيبي» وأعطتها لدانييل.

جثمتْ ڤيان كي تنظر في عينَيه. «لا بدّ من أن تذهب الآن يا دانييل. اسمع كلام مامُن».

اختلجتْ شفته السفلى، وتقبّض بالدمية عند صدره. «وِي، مامُن».

- كن ولداً شاطراً.

عندها مال الحاخام، وأغلق الباب.

اندفع دانييل إلى النافذة، يضغط على زجاجها براحتَيه. كان يبكي، ويصرخ: «مامُن! مامُن!». ظلّوا يسمعون صراخه عدّة دقائق بعد انطلاق السيّارة.

فقالت ڤيان في هدوء: «أرجو لكَ حياةً طيّبة، آري دو شامپلان».

الفصل الثامن والثلاثون

وقفتْ إيزابيل في انتباه. لا بدّ لها أن تقف منتصبةً لطابور النداء. فلو أنّها استسلمتْ لدُوارها وسقطت، لضربوها بالسوط، أو أكثر.

لا. لم يكن طابور النداء. كانت الآن في باريس، في المستشفى.

تنتظر شيئاً. شخصاً.

كانت ميشلين قد ذهبت تتحدّث إلى موظّفي الصليب الأحمر والصحافيّين، فيما إيزابيل تنتظر في مكانها.

فُتح الباب.

قالت ميشلين بصوتٍ موبّخ: «إيزابيل. لا ينبغي لكِ الوقوف».

فقالت: «أخشى إنْ استلقيتُ أنْ أموت». أو ربّما خطرت لها تلك الجملة في ذهنها.

كانت ميشلين مثل إيزابيل، نحيلةً كعود الثقاب، تبرزُ عظامِ ردفَيها من وراء فستانها الفضفاض. شبه صلعاء، إلّا من خصلاتٍ هنا وهناك، حليقة الحاجبَين. جِلدُها عند الذراعَين والعنق مملوء بالقروح المفتوحة. قالت ميشلين: «تعالَي». وقادتْها إلى خارج الغرفة من أمام حشدٍ غريبٍ من

العائدين الصامتين المهلهَلين، وعائلاتٍ صاخبةٍ دامعةٍ تبحث عن أحبابها، وصحافيّين لا ينفكّون عن طرح الأسئلة. قادتْها بلطفٍ إلى غرفةٍ أهدأ، يجلس فيها الناجون من المعسكرات متهاوين على المقاعد.

جلستْ إيزابيل على مقعدٍ ووضعتْ يدَيها على حِجرها على نحوٍ تلقائيّ مُطيع. كانت تتألّم من رئتَيها في كلّ نَفَس، فيما ينفجرُ الصداعُ في رأسها.

قالت ميشلين: «حان الوقتُ كي تعودي إلى بيتك».

نظرتْ إيزابيل إليها بعينَين فارغتَين عمشاوَين.

- هل تريدين أن أرافقك؟

طرفَتْ بعينَيها ببطء، تحاول أن تفكّر. كان الصداع لفرط شدّته يُعشي البصر. «إلى أين أذهب؟».

- كاريفو. تذهبين لرؤية أختك. إنّها في انتظارك.

- حقاً؟

- قطارِكِ سيتحرّك بعد أربعين دقيقة. وقطاري بعد ساعة.

تجرّأت إيزابيل على السؤال: «كيف نعود؟». كان صوتها بالكاد يزيد عن الهمس.

قالت ميشلين: «نحن المحظوظون». فهزّتْ إيزابيل رأسها.

ساعدتْها في النهوض.

سارت الاثنتان، تعرجان إلى باب المستشفى الخلفيّ، حيث تنتظر سيّارات الصليب الأحمر وشاحناته لنقل الناجين إلى محطة القطار. وقفتا هنالك في انتظار دورهما، جنباً إلى جنب كعهدهما في السنة الماضية، في طابور النداء، وفي عربات الماشية، وفي طوابير الطعام.

جاءتهما شابّةٌ صبوح الوجه من الصليب الأحمر تحمل أوراقاً. «روسينيول؟».

رفعتْ إيزابيل يدَيها الساختتَين المتعرّقتَين، وأمسكتْ وجه ميشلين المتجعّد. «أحببتُك جداً يا ميشلين». ثمّ قبّلتها على شفتَيها.

– لا تتحدّثي عن نفسك بصيغة الماضي.

– لكنّني في صيغة الماضي. الفتاةُ التي كنتُها...

– لم ترحل يا إيزابيل. إنّها مريضة عانت كثيراً، لكنّها لم ترحل بالتأكيد. فقد كان لها قلب أسد.

– «ها أنتِ تتحدّثين بصيغة الماضي». الحقُّ أنّ إيزابيل لم تكن تذكر تلك الفتاة على الإطلاق، الفتاة التي قذفت بنفسها في صفوف المقاومة بدون تفكير. الفتاة التي قادها تهوّرها إلى إحضار طيّارٍ إلى شقّة أبيها، ثمّ قادتها حماقتها إلى إحضار آخر إلى حظيرة أختها. الفتاة التي عبرت جبال البيرينيه، وعشقتْ شاباً في أثناء النزوح من باريس.

قالت ميشلين: «لقد نجونا».

كانت إيزابيل قد سمعت تلك الجملة كثيراً خلال الأسبوع الفائت. لقد نجونا. فحين جاء الأميركان لتحرير المعسكر كانت تلك الجملة على لسان كلّ سجينة. لكم شعرتْ إيزابيل بالراحة آنذاك، فقد نجت على الرغم من كلّ الضرب، والبرد، والمهانة، والمرض، والمسير الإجباري تحت الثلوج.

أمّا الآن، فكانت تتساءل كيف ستكون حياتها. لم يكن بمقدروها أن تعود إلى سابق عهدها، ولكن كيف لها أن تمضي إلى الأمام؟ لوّحت بالوداع لميشلين، وركبتْ سيّارة الصليب الأحمر.

فلمّا ركبت القطار تظاهرتْ بأنّها لم تلحظ كيف يحدّق الناس فيها. حاولتْ أن تستقيم في جلستها، لكنّها لم تستطع. كانت تميل ذات اليمين، وذات الشمال، وتُسند رأسها إلى النافذة.

أغمضتْ عينَيها، فأتاها النومُ سريعاً، فإذا هي تحلم بعربة الماشية المجلجلة، والرضّع الباكين، والنسوة اللائي يحاولن بكلّ ما يملكن أن يهدّؤوهم...ثمّ تنفتح الأبواب على الكلاب المنتظِرة—.

جَفَلتْ إيزابيل واستفاقت. ولفرطِ ما بها من ارتباكٍ وحَيرة، نَسِيَت لوهلةٍ أنّها كانت في أمان. جفّفتْ جبينها بكمّها، فقد عادت الحمّى.

بعد ساعتَين، دمدمَ القطار معلناً وصوله إلى كاريڤو.

لقد نجوت. فلماذا إذن لم تكن تشعر بأيّ شيء؟

نهضتْ وجرّتْ قدمَيها بألمٍ لتخرج من القطار. فلمّا ترجّلت في الرصيف، اجتاحتْها سَورةُ سعال. انحنتْ تسعل، فتذرف الدماء على يدَيها. وحين التقطتْ أنفاسها استقامت، وهي تشعر بأنّها مُستنفدة، مفرّغة، عجوز.

أختُها واقفةٌ في طرف الرصيف، منتفخة الجسم ترتدي ثوباً صيفيّاً باهتاً، مرقّعاً. طال شعرُها الأشقر، فوصل إلى ما بعد كتفَيها، وتموّج. مرّتْ بعينَيها على الخارجين من القطار، فاستقرّت إلى جانب إيزابيل.

رفعتْ إيزابيل يدها النحيلة ملوّحةً.

فرأتْ ڤيان تلويحتها، وشحَب وجهُها. صاحت، وهي تجري نحوها: «إيزابيل!». أمسكتْ وجه أختها المجوّف بين يدَيها.

– لا تقتربي كثيراً. أنفاسي مريعة.

لكنّ ڤيان قبّلت شفتَيها المتشققتَين، الجافتَين، المتنفختَين. همستْ لها: «عوداً حميداً إلى بيتكِ يا أختي».

- «بيتي». كرّرتْ إيزابيل تلك الكلمة التي لم تكن تتوقّعها. ولم تستطع أن تستحضر أيّ صورٍ تتماشى مع ذلك الوصف. كانت أفكارُها تختلط بعضها ببعض، والصداعُ يفتك برأسها.

وضعتْ ڤيان ذراعَيها حول إيزابيل وضمّتها إليها. فأحسّتْ هذه بجسم أختها الناعم، ورائحة شعرها الليمونيّة. كانت يد أختها تمسّد ظهرها، كما كانت تفعل، وهي صغيرة. فقالت إيزابيل في نفسها: لقد نجوت.

البيت.

*

قالت لها ڤيان حين وصلتا إلى البيت: «تشتعلين من الحرارة». كانت إيزابيل قد استحمّت وتجفّفت، واستلقت على سريرٍ دافئ.

- وِي. يبدو أنّ هذه الحمّى لا تفارقني.

قالت ڤيان، وهي تهمّ بالنهوض: «سأحضر لك قرص إسبرين».

- لا. لا تتركيني. أرجوكِ. استلقي بجانبي.

صعدتْ ڤيان على السرير الصغير، وقرّبتْ أختها منها بحذرٍ شديد، مخافة أن تسبّب لها كدمةً من أدنى لمسة.

قالت إيزابيل، وهي تسعل: «آسفة على ما حدث من أمر بيك. سامحيني...». لقد انتظرتْ طويلاً كي تقولها، وتخيّلت هذا الحوار مئات المرّات: «...سامحيني لأنني عرّضتكِ وصوفي للخطر...».

- «لا يا إيزابيل. أنتِ سامحيني. فقد خذلتكِ في كلّ مرة. منذ أن ترَكَنا بابا مع مدام دوما. وحين هربتِ إلى باريس. كيف صدّقتُ قصّتكِ

المضحكة عن العلاقة الغراميّة؟ لكمْ عذّبني هذا الأمر». ثمّ مالتْ على أختها: «هلّا فتحنا صفحةً جديدة؟ كي نكون شقيقتَين كما أرادتْ لنا مامُن؟».

جاهدتْ إيزابيل كي تبقى مستيقظة. «سيسعدني ذلك».

- أنا فخورةٌ جدّاً جدّاً بما فعلتِ في الحرب يا إيزابيل.

فاضتْ عينا إيزابيل بالدموع. «ماذا عنكِ يا ڤي؟».

أشاحت بنظرها بعيداً. «بعد بيك جاء نازيٌّ آخر يقيم هنا. واحدٌ سيّئ».

أتراها أدركتْ أنّها لمست بطنها، وهي تقول ذلك؟ هل أدركتْ أنّ الخزي لوّن وجنتَيها؟ عرفتْ إيزابيل بفطرتها ما عانتْه أختها، فقد سمعتْ مئات القصص عن نساءٍ اغتصبهنّ الجنود الذين أقاموا في بيوتهنّ. «أتدرين ما تعلّمتُه في المعسكرات؟».

نظرتْ ڤيان إليها. «ماذا؟».

- «أنّهم لم يستطيعوا المساس بروحي. لم يستطيعوا أن يغيّروني من الداخل. جسدي... كَسَروه منذ الأيّام الأولى، ولكنْ ليس قلبي يا ڤي. أيّاً ما كان الذي فعله، فقد فعله في جسدك، وسوف يتعافى». كانت تريد أن تقول المزيد، وربّما تضيف: «أحبّك». لولا نوبة السعال التي اجتاحتها. فلمّا انتهتْ، استلقتْ مرّةً أُخرى، مُستنفَدةً، بأنفاسٍ ضعيفةٍ متحشرجة.

مالت عليها ڤيان، ووضعتْ على جبينها خِرقةً باردةً مبتلّةً.

حدّقتْ إيزابيل في الدم الذي يلطّخ اللّحاف، وتذكّرت الأيّام الأخيرة من حياة أمّها؛ فقد تشابه الدم. ثمّ نظرتْ إلى ڤيان، وأدركتْ أنّ أختها كانت تستذكر تلك الأيّام أيضاً.

*

استيقظتْ إيزابيل، وهي على أرضيّةٍ خشبيّة. تتجمّد وتكتوي بالنار في الوقت نفسه، ترتعشُ وتتعرّق.

لم تسمع شيئاً. لا أثر لجرذان، أو صراصير تعدو على الأرض، ولا ماء ينزّ من شقوق الجدران، فيستحيلُ قطعاً سميكةً من الجليد، ولا سُعال، أو بكاء. جلستْ ببطء، تجفلُ من كلّ حركة، مهما صغرت. كلُّ شيءٍ يؤلمها: عظامها، وجلدها، ورأسها، وصدرها. لم تبق لديها عضلات كي تؤلمها، لكنّ مفاصلها وأربطتها كانت سخيّةً بالوجع.

سمعت صوتاً عالياً: را تا تا تات. إطلاق نار. غطّت رأسها وهرعت إلى الزاوية، فربضت هناك.

لا.

لم تكن في رافنسبروك، بل في لو جاردان.

وذلك الصوتُ إنّما كان صوت المطر؛ إذْ يسّاقط على السطح.

نهضتْ شيئاً فشيئاً، دائخة. كم مضى عليها هنا؟

أربعة أيّام؟ خمسة؟

أخذتْ تعرُج إلى طاولة السرير، حيث وُضع إبريق خزفيّ إلى جانب طاسةٍ من الماء الفاتر. غسلتْ يدَيها، ورشّت شيئاً من الماء على وجهها، ثمّ ارتدت الملابس التي جهّزتْها ڤيان لها. فستان صوفي حين كانت في العاشرة، لكنّه كان فضفاضاً على إيزابيل. وانطلقتْ في رحلةٍ طويلة بطيئة على السلالم.

كان باب البيت مفتوحاً. في الخارج مطرٌ يخبّش أشجار التفّاح. سارتْ إيزابيل إلى عتبة الباب، تتنفّس في الهواء العليل.

قالت ڤيان، وهي تقترب منها: «إيزابيل؟ سأحضر لكِ حساء العظام. يقول الطبيب: إنّ بمقدوركِ أن تشربيه».

فأومأتْ لها في شرود، تاركةً ڤيان تعتقدّ أنّ القليل الذي يمكن لمعدةِ إيزابيل أن تتحمّله من الحساء قد يأتي بفائدة.

خرجتْ إلى المطر. كان العالم متنعشاً بالأصوات، من نعيب الطيور، وأجراس الكنائس، وطقطقة الأمطار على السطح، ورشرشة الماء في البرك الصغيرة. زحامٌ يخنقُ الشارع الموحل الضيّق؛ من سيّارات، وشاحنات، ودرّاجات هوائيّة، يزمّرون ويلوّحون، يتصايحون فيما بينهم احتفالاً بعودة الناس إلى بيوتها. مرّت شاحنةٌ أميركيةٌ مملوءةٌ بجنودٍ ذوي وجوهٍ باسمةٍ نَضِرة، يلوّحون للمارّة.

فلمّا رأتْ إيزابيل ذلك تذكّرت ما قالتْه ڤيان عن انتحار هتلر، وتطويق برلين، واقتراب سقوطها.

هل كان ذلك صحيحاً؟ هل انتهت الحرب؟ لم تكن تعرف، ولم تتذكّر. فقد كان عقلها مشوّشاً للغاية في تلك الأيّام.

سارتْ إيزابيل إلى الشارع تعرُج، فأدركتْ متأخّرةً أنّها حافية القدمَين (وأنّها سوف تُجلد لأنّها فقدت حذاءها)، لكنّها واصلت. سارت بين ارتعاشٍ وسعالٍ، يكسوها المطر، إلى أن مشتْ من أمام المطار المقصوف الذي احتلّه الحلفاء.

– إيزابيل!

استدارت، وهي تسعل بشدّةٍ، تبصق الدم في يدها. كانت ترتعد من شدّة البرد، وفستانها مبتلٌّ تماماً.

قالت ڤيان: «ماذا تفعلين هنا؟ وأين حذاؤك؟ أنتِ مصابةٌ بالتيفوس والالتهاب الرئوي، وتخرجين في المطر». نزعتْ ڤيان معطفها ولفّت به أختها.

- هل انتهت الحرب؟

- لقد تحدّثنا عن ذلك البارحة. ألا تذكرين؟

المطرُ ضبابٌ في عينَي إيزابيل، ويسيلُ على ظهرها. سحبتْ نفَساً مرتعشاً، فأحسّت بالدمع يحرق عينَيها.

لا تبكي. تُدرك أنّ هذا مهمّ، لكنّها لم تعد تذكر السبب.

- إيزابيل. أنتِ مريضة.

همستْ: «وعدني غيتون بالبحث عنّي بعد انتهاء الحرب. لا بدّ من أن أذهب إلى باريس كي يجدني هناك».

- إن كان يبحث عنكِ، فسوف يأتي إلى البيت.

لم تفهم إيزابيل. وهزّت رأسها.

- لقد جاء إلى هنا، ألا تذكرين؟ بعد تُور. هو الذي أحضركِ إلى البيت.

عندليبتي، لقد أوصلتكِ إلى البيت.

- «أوه. لن يراني جميلةً كما كنت». حاولت إيزابيل أن تبتسم، لكنّها كانت تعرف أنّ الأمر ميؤوس منه.

أحاطت ڤيان أختها بذراعها، فأدارتْها بلطف. «سنكتب له رسالة».

فقالت إيزابيل، وهي تميل على أختها، ترتعد من البرد والحرارة: «لا أعرف إلى أين أرسلها».

كيف عادت إلى البيت؟ لم تكن تدري. تتذكّر على نحوٍ غير واضح

أنّ أنطوان حملها على السلالم، وقبّل جبينها، ثمّ أحضرتْ لها صوفي الحساء، لكنّها بالتأكيد نامت بعد ذلك، لأنّها لا تذكر شيئاً بعد ذلك إلّا حلول الظلام.

غفتْ ڤيان على مقعدٍ تحت النافذة.

وسعَلَت إيزابيل.

فقفزتْ ڤيان من فورها، ترتّب الوسائد لأختها، وتسندها. غمستْ خِرقةً في الماء، وعصرتْها، ثمّ وضعتْها على جبين إيزابيل. «هل تريدين حساء العظام؟».

- أعوذ بالله.

- أنتِ لا تأكلين شيئاً.

- لا أستطيع الاحتفاظ بالطعام.

مدّت ڤيان يدها وجرّت المقعد قريباً من السرير.

لمستْ خدّها الساخن، وأخذتْ تحدّق في عينَيها الغائرتَين. «لديّ شيءٌ لك». نهضتْ ڤيان وخرجت من الغرفة، ثمّ عادت بعد لحظات تحمل مظروفاً مصفرّاً. ناولتها إيّاه: «هذا لنا. من بابا. زارني قبل أن يذهب إليكِ في جيرو».

- حقاً؟ هل أخبرك أنّه ذاهبٌ لتسليم نفسه كي ينقذني؟

أومأتْ ڤيان وسلّمتها الرسالة.

كانت حروف اسمها تبهتُ وتستطيلُ على الصفحة؛ فقد أتلف سوءُ التغذية بصرَها. «هلّا قرأتِها لي؟».

مزّقت ڤيان المظروف، وأخرجت الرسالة، ثمّ شرعتْ تقرأ.

إيزابيل وڤيان:

ما أوشك على فعله، أفعلهُ بدون أن يخالجني أيّ شكّ. لستُ نادماً على الموت، بل على حياتي. سامحاني، لأنني لم أكن أباً لكما.

بوسعي أن أختلق الأعذار..حطّمتني الحربُ، وكنتُ أفرط في الشراب، ولم أستطع أن أواصل حياتي من دون أمّكما... لكنّ هذا كلّه لا يهمّ.

إيزابيل، أذكرُ المرّة الأولى التي هربتِ فيها كي تكوني معي. قطعتِ المسافة إلى باريس بمفردك. كان كلّ ما فيكِ يقول: أحِبَّني. لكنّي ما إن رأيتكِ على ذلك الرصيف وأنتِ في حاجةٍ إليّ، حتّى أدرتُ ظهري لك.

كيف لم أستوعب أنّكِ أنت وڤيان هديّة حقيقيّة، لو أنّي مددتُ يدي إليكما فقط؟

سامحاني يا ابنتيّ، على كلّ شيء، واعلما أنّي في وداعي هذا قد أحببتكما من كلّ قلبي المعطوب.

أغمضتْ إيزابيل عينَيها واستلقتْ على الوسائد. لقد انتظرت تلك الكلمات طوال حياتها (حُبَّه) لكنّها لم تشعر الآن سوى بالفقد. لم يحبّا بعضهما بما يكفي في الوقت الذي قُبّض لهما، ثمّ نفد الوقت. «تعلّقي بصوفي، وأنطوان، وطفلكِ الجديد يا ڤيان. الحبُّ شيءٌ مراوغ جداً».

- لا تفعلي ذلك.

- ماذا؟

- لا تودّعينا. سوف تستعيدين قوّتكِ وصحّتك، وتجدين غيتون وتتزوّجين، وتكونين هنا إلى جانبي حين يُولد طفلي.

تنهّدتْ إيزابيل وأغمضتْ عينَيها. «يا له من مستقبلٍ جميل!».

*

بعد أسبوع، كانت إيزابيل تجلس على مقعدٍ في الفناء الخلفي، تتدثّر ببطانيّتين ولفاعٍ تلفّه على رقبتها. كانت ترتعش من البرد، على الرغم من الشمس الحارقة في أوائل أيار/ مايو. عند قدمَيها تجلس صوفي على العشب، تقرأ لها قصّة. حاولتْ ابنة أختها أن تستخدم أصواتاً مختلفةً لكلّ شخصية، وعلى الرغم من كلّ ما كانت تعانيه إيزابيل، والوهن الذي أحسّت به في عظامها، إلّا أنّها وجدتْ نفسها تبتسم في بعض الأحيان، بل تضحك.

أمّا أنطوان، فكان في مكانٍ ما، يحاول أن يصنع مهداً من قطع الخشب التي لم تحرقها ڤيان في أثناء الحرب. كان من الواضح للجميع أنّ ڤيان ستضع مولودها قريباً. كانت تتحرّك ببطءٍ، محنيّة الظهر إلى الخلف دائماً.

بعينَيها المغمضتَين، تلذّذتْ إيزابيل بالشعور بعاديّة اليوم الجميلة، ثمّ تهادت إلى مسامعها أجراس الكنيسة من بعيد. كانت الأجراس تُقرع باستمرار طوال الأسبوع الماضي، إيذاناً بانتهاء الحرب.

توقّف صوت صوفي فجأةً في منتصف جملة.

وخُيّل لإيزابيل أنّها قالت: «واصلي القراءة». لكنّها لم تكن متأكّدة.

ثمّ سمعتْ أختها تقول: «إيزابيل». بنبرةٍ ذات معنى.

رفعتْ إيزابيل عينَيها، فوجدتْ ڤيان واقفةً، يلطّخ الدقيقُ وجهها

الشاحب ومريلتها، تربط شعرها المحمرّ بلفافة رأسٍ مهترئة. «الديكِ زوّار».

- أخبري الطبيب أنّي بخير.

- «ليس الطبيب». تبسّمتْ ڤيان وقالت: «غيتون هنا».

شعرتْ إيزابيل كما لو أنّ قلبها قد ينفجر ويخرج من جدران صدرها الواهنة. حاولتْ أن تقف، فتهاوتْ مرّةً أخرى على المقعد. ساعدتها ڤيان في النهوض، لكنّها ما إنْ نهضت حتى عجزتْ عن الحركة. كيف لها أن تنظر إليه؟ كانت عبارةً عن هيكلٍ عظميّ أصلع عديم الحاجبَين، وقد فقدتْ بعض أسنانها، ومعظم أظافرها. لمستْ رأسها، فأدركتْ في ارتباكٍ متأخّر أنّها لا تملك شعراً تعيده خلف أذنها.

قبّلتْها ڤيان في خدّها. «أنتِ جميلة».

استدارتْ إيزابيل ببطء، فوجدته هناك واقفاً عند الباب. رأتْ ما آل إليه حاله من سوء؛ إذْ فقد وزنه، وشعره، وحيويّته. لكنّ ذلك كلّه لا يهم. فقد جاء.

راح يعرُج إليها، فأخذها بين ذراعَيه.

رفعتْ يدَيها المرتعشتَين عالياً، ولفّت ذراعَيها حوله. ها هي تشعر للمرّة الأولى منذ أيام، أو أسابيع، أو سنة، بأنّ قلبها يمكن التعويل عليه، ينبض بالحياة. فلمّا عاد من حضنها، حدّق فيها، فأحرق العشقُ في عينَيه كلّ سوء. ها هما معاً مرّةً أُخرى، غيتون وإيزابيل، يقعُ الواحدُ منهما في غرام الآخر على نحوٍ ما، تحت أنواء الحرب. قال: «ما زلتِ جميلة كما أتذكّرك». فضحكتْ، ثمّ بكتْ. مسحتْ عينَيها، تستشعر حماقتها، لكنّ

الدموع ظلّت تنسكب على وجهها. كانت تبكي أخيراً على كلّ شيء: على الألم، والفقد، والخوف، والغضب. على الحرب وما فعلته بها وبهم جميعاً. على الشرّ الذي شهدته ولا تستطيع أبداً أن تنساه. على هَولِ المكان الذي كانت فيه، وما فعلته كي تنجو منه.

- لا تبكي.

كيف لها ألّا تبكي؟ كان ينبغي أن يقضيا حياةً كاملةً يتبادلان فيها الأسرار والحقائق، ويتعرّف واحدهما على الآخر. همستْ له: «أحبّك». وهي تسترجع المرّة التي قالتها فيها قبل وقتٍ طويل. كانت صغيرةً جداً، ومفعمةً بالضياء.

فقال بصوتٍ متقطّع: «وأنا أحبّك أيضاً. أحببتكُ منذ أن رأيتكِ أوّل مرّة، لكنّني ظننتُ أنّي أحميكِ حين لا أعترف بذلك. لو أنّي أعرف...».

يا لهشاشة الحياة، ويالهشاشتهما!

الحبّ.

بدايةُ كلّ شيءٍ ونهايته. الأساسُ، والسقفُ، والهواء بينهما. لا يهمّ أنّها محطّمةٌ، وقبيحةٌ، ومريضة. كان يحبّها، وهي تحبّه. لقد ظلّت طوال حياتها تنتظر حبَّ الآخرين وتشتاق إليه، لكنّها أدركت الآن ما يهمّ حقاً. لقد عرفت الحبَّ، وأُنعِمَت به.

بابا. مامُن. صوفي.

أنطوان. ميشلين. أنوك. هنري.

غيتون.

ڤيان.

نظرتْ من خلف غيتون إلى أختها، نصفها الآخر. تذكّرت أمّها حين قالت لهما: إنّهما ستصبحان ذات يوم صديقتَين مقرّبتَين، وإنّ الزمن كفيلٌ بربط حياة كلٍّ منهما بالأُخرى.

أومأتْ لها فيان، وهي تبكي كذلك، واضعةً يدها على بطنها.

قالت إيزابيل في نفسها: لا تنسيني. وودّتْ لو أنّها تملك من القوّة ما يجعلها تجهر بذلك.

الفصل التاسع والثلاثون

أيار/ مايو 1995م

في مكانٍ ما من الأراضي الفرنسيّة



اشتعلتْ الأضواءُ فجأةً في داخل الطيّارة.

أسمعُ رنّة الإشعارات من طاقم الطيّارة. يقولون: إنّنا سنبدأ الهبوط التدريجيّ إلى باريس.

يميلُ جوليَن عليّ لتعديل الحزام، ولكي يتأكّد من وضعيّة مقعدي استعداداً للهبوط.

لكي يتأكّد أنّي في أمان.

- كيف شعوركِ، وأنت تهبطين في باريس مرّةً أُخرى يا ماما؟

لا أملك جواباً.

*

بعد ساعات، يرنّ الهاتف في غرفتي.

أجيبُ، وأنا ما زلتُ نصف نائمة، أو أكثر. «ألو؟».

- أهلاً ماما. هل نمتِ؟

- نعم.

- الساعة الآن الثالثة. متى تريدين الذهاب إلى الحفل؟

- دعنا نمشي في شوارع باريس. سأكون جاهزة بعد ساعة.

- حسنٌ، سآتي إليكِ.

أنزل شيئاً فشيئاً عن السرير الذي يبدو بحجم ولاية نبراسكا، وأسير نحو دورة المياه المبنيّة من رخامٍ من أوّلها إلى آخرها. أستحمّ بماءٍ ساخنٍ يعيدني إلى نفسي ويوقظني، لكنّ الصدمة لا تأتيني إلّا بعد جلوسي عند مرآة الزينة البيضويّة التي تضخّم وجهي.

عدتُ إلى وطني.

لا يهمُّ أنّي مواطنة أميركيّة، وأنّي قضيتُ الشطر الأكبر من حياتي في الولايات المتحدة. الحقيقة هي أنّ هذا كلّه لا يهمّ؛ فقد عدتُ إلى وطني.

أضعُ زينتي على مهل، ثمّ أمشّط شعري الأبيض إلى الوراء، فأصنعُ عقصةً عند قفاي بيدَين لا تكفّان عن الارتعاش. أرى في المرآة امرأةً أنيقةً عجوزاً، لها بشرةٌ مخمليّةٌ مجعّدةٌ، وشفتان ورديّتان ملمّعتان، وقلقٌ في عينَيها.

هذا أقصى ما في الإمكان.

أبتعدُ عن المرآة، فأسير نحو الخزانة، وأُخرج بنطالاً شتويّاً أبيض فضفاضاً، وقميصاً أبيض ذا ياقةٍ مدوّرة. يخطرُ لي أنّه ربّما كان من الأفضل اختيار لونٍ آخر غير الأبيض. لكنّي لم أكن أفكّر، وأنا أجهّز أغراضي.

جاهزةٌ أنا مع وصول جولين.

يأخذني عبر الممر، يساعدني كما لو كنتُ ضريرةً عاجزةً، وأتركه يقودني إلى ردهة الفندق الأنيقة، ثمّ إلى ضوء باريس السحريّ في وقت الربيع.

غير أنّه حين يطلب من حارس الباب استدعاء سيّارة أجرة، أقول في إصرار: «سوف نمشي إلى مكان الحفل».

يقطّب جبينه. «لكنّه في إل دو لا سيتيه».

أجفلُ من طريقة نطقه، لكنّها في الواقع غلطتي.

أرى الحارس يبتسم.

أقول: «ابني يحبّ الخرائط. ولم يسبق له أن زار باريس».

فيومئ الرجُل.

يقول جوليَن، وهو يقترب للوقوف إلى جانبي: «الطريق طويل يا ماما. وأنتِ...».

- «عجوز؟». أبتسم رغماً عني: «لكنّي فرنسيّةٌ أيضاً».

- تلبسين كعباً عالياً.

- أنا فرنسيّة.

يلتفتُ جوليَن إلى الحارس الذي يرفع يدَيه المقفّزتَين ويقول: «سي لا ڤي، مسيو(*)».

فيقول جولين في النهاية. «حسنٌ. لنمشِ».

آخذه من ذراعه، ونخطو على الرصيف، فأشعر لوهلةٍ عظيمةٍ أنّي عُدت فتاةً مرّةً أخرى. تُسرع الأشياء من جانبنا، بين أبواق السيّارات

(*) تعني بالفرنسيّة ما يمكن أن يُقال بالعاميّة دلالةً على التسليم: «أمرنا للّه». (م)

وصرير العجلات. صِبيةٌ يتزلّجون على ألواح التزلّج فوق الرصيف، ينطلقون هنا وهناك بين زحام السيّاح والأهالي في هذا النهار البديع. تمتلئ الأجواء برائحة أزهار الكستناء، وروائح الخبز، والقرفة، والديزل، وعوادم السيّارات، والحجارة الساخنة. روائح تذكّرني بباريس ما حييت.

أرى إلى يميني واحداً من مخابز أمّي المفضّلة، فأتذكّر فجأةً مامُن وهي تناولني كعك الفراشة.

– ماما؟

أبتسمُ له وأقول بإلحاح: «تعال». فأقوده إلى المحلّ الصغير. طابورٌ طويل أقف في نهايته.

– كنتُ أظنّ أنّكِ لا تحبّين الكعك.

أتجاهله وأحدّق في الصندوق الزجاجي الممتلئ بكعك الماكرون ويا أو شوكولا.

حين يأتي دوري أشتري كعكتَي ماكرون، واحدة بجوز الهند، والأُخرى بالتوت. أُخرج الأولى من الكيس وأناولها لجوليَن.

نخرجُ مرّةً أُخرى إلى الشارع، نمشي، فيتناول قضمةً من الكعك ويتسمّر في مكانه. يقول بعد دقيقة: «واو». ثمّ يقول مرّةً أُخرى: «واو».

أبتسم. يتذكّر الجميعُ أوّل مذاقٍ لهم من باريس. وهذا المذاقُ هو الذي سيذكره جوليَن.

وحين ينتهي من لعق أصابعه ويلقي بالكيس، يشبك ذراعه بذراعي مرّةً أُخرى.

نصل عند حانةٍ صغيرةٍ تطلّ على نهر السين، فأقول: «لنشرب كأسَ نبيذ».

الساعة الآن بعد الخامسة عصراً. ساعةُ الكوكتيل الأنيق.

نتّخذ مقعدَين في الخارج تحت ظلّ أشجار الكستناء. هناك على الجهة المقابلة، على ضفاف النهر، باعةٌ في أكشاكٍ خُضر، يبيعون كلّ شيء، بدءاً من اللوحات الزيتيّة، والأغلفة القديمة من مجلة فوغ، وحتى سلاسل المفاتيح على شكل برج إيفل.

نحتسي النبيذ، ونتشارك في كيسٍ مزيّت من البطاطس المقليّة. تصبح الكأسُ كأسَين، ثمّ يتراجع النهارُ فيفسح المجال لغشاوة الغروب.

كنتُ قد نسيتُ كيف يمضي الوقتُ على مهلٍ في باريس. فعلى الرغم من أنّ المدينة مفعمةٌ بالحياة، إلّا أنّ ثمّة سكوناً يحلّ فيها، سلاماً يغويك بها. في باريس، وأنت تمسك بكأس نبيذٍ في يدك، لا يسعك إلّا أن تكون.

تشتعل أنوار الشوارع على طول السين، وتستحيل الشفقُ إلى اللّون الذهبيّ.

يقول جوليَن: «الساعة السابعة». فأدركُ أنّه كان يرقبُ الوقت، في انتظار. إنّه أميركيّ جداً. لا يعرف هذا الشابُ كيف يجلس في كسل، وينسى نفسه. كان يسمح لي بأن أهيّئ نفسي.

أومئ له، وأنظر إليه، وهو يدفع الفاتورة. وبينما نحن نقف، يأتي رجُلٌ وامرأةٌ متأنّقان، يدخّنان السجائر، ليجلسا في مقعدَينا.

نمشي أنا وجولين، ذراعي في ذراعه، إلى پُون نِف، أقدم جسرٍ على نهر السين. من بعده تأتي «إل دو لا سيتيه»، الجزيرة التي كانت ذات يوم قلب باريس. تبدو كاتدرائيّة نوتردام بجدرانها البِيض العالية مثل طيرٍ ضارٍ عملاق يحطّ على الأرض، يمدّ جناحَيه العظيمَين. تنعكسُ على ضفاف السين نقاطٌ من أضواء المصابيح، مثل أكاليل ذهبيّة تمدّدُها الأمواج.

يقول جوليَن: «منظر ساحر». وقد صدق.

نمشي على مهل، نعبر هذا الجسر الرشيق الذي بُني قبل أكثر من أربعة قرون. على الجانب الآخر نرى باعةً جائلين يطوون طاولاتهم.

يقف جوليَن، يلتقط تُحفةً، بلّورة ثلج. يميّلها فيطفر الثلجُ ويدورُ داخل البلّورة، ويغطّي برج إيفل المذهّب الصغير.

أنظر إلى نُدف الثلج الصغيرة، وأعرف أنّها مزيّفة، لكنّها تُعيدني إلى تلك الشتاءات الفظيعة، حين كانت أحذيتنا مثقوبةً، وأجسادنا ملفوفة بالجرائد وكلّ ما نجده من ثياب.

- ماما؟ ما بكِ ترتعشين؟

- «تأخّرنا». يضع جولين البلّورة، وننطلق من جديد، نتجاوز الجموع الواقفة في انتظار الدخول إلى نوتردام.

يقع الفندقُ في شارعٍ جانبي خلف الكاتدرائيّة. وإلى جانبه أوتيل ديو، أقدم مستشفى في باريس.

أقولُ: «أنا خائفة». يفاجئني اعترافي. لا أذكر أنّي اعترفتُ بشيءٍ كهذا منذ سنوات، على الرغم من أنّه كثيراً ما كان شعوراً حقيقيّاً. فقبل أربعة شهور، حين أخبروني بعودة السرطان، قادني الخوفُ إلى البكاء، وأنا أستحمّ، إلى أن نفد الماء الساخن.

- لسنا مضطرّين إلى الدخول.

- بلى.

أجرّ قدماً بعد الأُخرى إلى أن أصل إلى ردهة الفندق، فأجد لوحةً تشير إلى مكان القاعة في الطابق الرابع.

حين نخرجُ من المصعد، أسمع رجُلاً يتحدّث في ميكروفون يضخّم صوته ويشوّشه بالقدر نفسه. ثمّة طاولةٌ في الممرّ عليها بطاقات. يذكّرني منظر البطاقات ببرنامج المسابقات التلفزيونيّ القديم كونستريشن. معظم البطاقات غير موجودة، لكنّ بطاقتي باقية.

وهناك اسمٌ آخر أعرفه، في البطاقة التي تحت بطاقتي. أراه، فينقبض قلبي قليلاً. ألتقطُ بطاقتي، وأزيل الغلاف الخلفي فألصقُ البطاقة بصدري الغائر، لكنّي في أثناء ذلك أنظر إلى الاسم الآخر. آخذ البطاقة وأحدّق فيها.

– «مدام!». تخاطبني المرأة الجالسة خلف الطاولة. تنهض، وتبدو مرتبكة: «كنّا في انتظارك. يوجد مقعد—».

– لا داعي. سأقف في آخر القاعة.

– «لا يُمكن». تأخذني من ذراعي. أفكّر في مقاومتها، لكنّي لا أملك طاقةً لذلك الآن. تقودني عبر جمعٍ غفير يجلسون على امتداد القاعة، إلى منبرٍ تجلس خلفه ثلاث عجائز. عند المنصّة شابٌ يرتدي معطفاً مجعّداً أزرق اللّون مع بنطالٍ خاكيّ (من الواضح أنّه أميركيّ). يتوقّف عن الحديث بمجرّد دخولي.

يحلُّ الهدوءُ في القاعة، وأشعر بالجميع ينظرون إليّ.

أنسلُّ من أمام النساء الثلاث، وأتّخذ مكاني على المقعد الفارغ قرب المتحدّث.

ينظرُ إليّ الشابُ ويقول: «معنا الليلةَ إنسانةٌ مميّزة للغاية».

أرى جولِيَن في آخر القاعة، يستند إلى الجدار ويشبك ذراعَيه. يقطّب

جبينه. لا شكّ أنه يسائل نفسه عن السبب الذي يدعو أحداً لأنْ يضعني على المنبر.

- هل تودّين أن تقولي شيئاً؟

أعتقدُ أنّ الرجُل كرّر السؤال عليّ مرّتَين إلى أن استوعبتُ الأمر.

القاعةُ هادئةٌ تماماً، حتّى إنّي كنتُ أسمع صرير الكراسي، وطَرْق الأقدام على السجّاد، ومراوح النساء. أودّ أن أرفض، ولكنْ كيف لي أن أجبُن هكذا؟

أنهضُ على قدميّ، وأمشي إلى المنصّة. أستجمع أفكاري، وألقي نظرةً إلى اليمين، إلى الجالسات خلف المنبر، وأرى أسماءهنّ: ألمادورا، وإليان، وأنوك.

أقبض بأصابعي على أطراف المنصّة الخشبية، ثمّ أقول بهدوء: «كانت أختي، إيزابيل، امرأةً عظيمة الشغف. فقد كانت تفعل كلّ شيءٍ باندفاعٍ هائلٍ، وبدون كوابح. كنّا دائماً نقلق عليها وهي صغيرة. تهرب دائماً من المدارس الداخليّة ومدارس الراهبات، تنسلّ من النوافذ، وتستقلّ القطارات. كنتُ أراها متهوّرةً، مستهترةً، مفرطة الجمال على نحوٍ مقلق. وقد احتالت عليّ من هذا الباب في أثناء الحرب. قالت لي: إنّها ستهرب إلى باريس مع حبيبٍ لها، وصدّقتُها. نعم، صدّقتُها. وما زال هذا الأمر يوجع قلبي قليلاً بعد هذه السنوات. كان عليّ أن أعرف بأنّها لم تكن تجري وراء رجُل، بل وراء مبادئها، وبأنّها كانت تفعل شيئاً مهمّاً».

أغمضُ عينيّ لحظةً وأتذكّر: إيزابيل، واقفةً مع غيتون، تطوّقه بذراعَيها، وتنظر إليّ بعينَين تلتمعان دَمْعاً، وحبّاً، ثمّ أراها تغمض عينَيها، وتقول شيئاً لا يسمعه أيٌّ منّا، فتلفظ نَفَسها الأخير بين ذراعي الرجُل الذي أحبَّها. رأيتُ

المأساةَ لحظتها؛ أمّا الآن، فليس سوى الجمال. أتذكّر كل شيءٍ من تلك اللّحظة في الفناء الخلفي، حيث أغصان الطقسوس ممدودة فوق رؤوسنا، وشذى الياسمين يملأ الأجواء. أنظرُ إلى البطاقة الثانية في يدي. صوفي موررياك.

طفلتي الجميلة التي كبرت وأصبحت امرأةً رصينةً رزينةً، ظلّت إلى جانبي طوال حياتها، تقلق عليّ دائماً، ترفرف من حولي كدجاجةٍ ترعى فروخها. خائفة. كانت دائماً تخاف (وإنْ قليلاً) من هذا العالم بعد كلّ ما قاسيناه، وكان ذلك يزعجني. لكنّ صوفي كانت تعرف كيف تحبّ، وحين أصابها السرطان لم تكن خائفة. في النهاية كنتُ أمسك يدها، فأغمضتْ عينَيها وقالت: «طنط...ها أنتِ هنا».

والآن، أو عمّا قريب، ستكون أختي وابنتي في انتظاري.

أُشيح بصري عن البطاقة، وأنظرُ إلى الجمهور مرّةً أخرى. لا يهمّهم أنّ عينيّ دامعتان. «إيزابيل، وأبي جوليَن روسينيول، وأصدقاؤهما، هم الذين أشرفوا على ممرّ العندليب للهروب. واستطاعوا معاً أن ينقذوا أكثر من مئة وسبعة عشر رجُلاً».

أزدردُ لعابي. «لم نتحدّث كثيراً أنا وإيزابيل في أثناء الحرب. ظلّتْ بعيدةً عنّي كي تحميني من خطر ما تقوم به. لذلك لم أعرف كلّ ما فعلتْه إيزابيل إلى أن عادت من رافنسبروك».

أمسحُ عينيّ. لا صرير، ولا طرق أقدام في القاعة. الجمهور هادئ تماماً، يحدّق بي. أرى جوليَن في الخلف، وقد اصطبغ وجهُه الوسيم بحَيرةٍ كبيرة. فكلّ ما سمعه جديدٌ عليه. لأوّل مرّةٍ في حياته يستوعب أنّ ما يفصل بيننا خليجٌ كامل، لا مجرّد جسر. فلستُ الآن مجرّد أمٍ، أو امتدادٍ له.

أنا الآن امرأةٌ كاملةٌ، وهو لا يدري ماذا يفهم منيّ. «إيزابيل التي عادت من معسكر التعذيب لم تكن تلك التي نجت من القصف في تور، أو تلك التي عبرت جبال البيرينيه. إيزابيل التي عادت كانت محطّمةً، مريضة. كانت متشكّكةً في أشياء كثيرةٍ جداً، إلّا في ما فعلتْه». أنظرُ إلى الجالسين أمامي: «في اليوم الذي سبق وفاتها، جلستْ إلى جانبي تحت الظلّ وأمسكتْ بيدي، وقالت: «فِي، لقد اكتفيت». قلتُ لها: «اكتفيت من ماذا؟». فقالت: «من حياتي. اكتفيت».

- واكتفتْ فعلاً. أعلمُ أنّها أنقذت بعض الرجال في هذه القاعة، لكنّني أعرف أنكم أنقذتموها أيضاً. لقد ماتت إيزابيل روسينيول بطلةً، وعاشقةً في الوقت نفسه. لم يكن في وسعها أن تتّخذ خياراً مختلفاً. وكلُّ ما كانت تريده هو أن نظلّ نذكرها. لذلك، أشكركم جميعاً لأنكم أضفيتم معنى لحياتها، وأخرجتم أنبل ما فيها، ولأنكم تذكّرتموها بعد مرور هذه السنوات.

أتركُ المنصّة.

فينهض الحضورُ من فورهم، ويصفّقون بحرارة. أرى كثيراً من المسنّين يبكون، فأنتبه فجأةً للحقيقة. هؤلاء أُسر الذين أنقذتْهم إيزابيل. فكلُّ رجُلٍ منهم عاد إلى وطنه وأنشأ أسرةً، فزاد عدد الذين يدينون بحياتهم لفتاةٍ شجاعة، وأبيها، ورفاقهما.

بعد ذلك، تجتاحني عاصفةٌ من امتنانٍ، وذكرياتٍ، وصُور. كلُّ من في القاعة يريدُ أن يشكرني، ويخبرني بقدرِ ما يكنّونه لإيزابيل ووالدي. ثمّ يأتي جوليَن إلى جانبي، فيصبح أشبه بحارسي الشخصي. أسمعه يقول: «يبدو أنّ لدينا أشياء كثيرة نتحدّث عنها». أومئ له وأمشي، متشبّثةً بذراعه.

أفعل كلّ ما في وسعي كي أكون سفيرةً لشقيقتي، فأجمعُ ما تستحقّه من شكر.

نكاد ننتهي من ذلك الحشد، فقد توجّه كثيرون لتناول مشروب. أسمع شخصاً يناديني بصوتٍ مألوف: «مرحباً ڤيان».

على الرغم من السنوات التي انقضت، أعرف عينَيه. يبدو أقصرَ ممّا أذكر، محنيّ الكتفَين، ووجهه المسمرُّ قد غضّنْه الزمان والأجواء. شعره طويل، يكاد يصل إلى كتفَيه، أبيض مثل الغاردينيا، لكنّني لا أخطئه.

- «ڤيان. أعرّفكِ على ابنتي». ومدّ يده إلى شابّةٍ جميلةٍ ترتدي ثوباً أسود أنيقاً، ووشاحاً وردياً برّاقاً. تتقدّم نحوي، تبتسم كما لو أنّنا صديقتان.

تقول: «اسمي إيزابيل».

أميلُ بقوّةٍ على يد جولِيَن. وأتساءل ما إذا كان غيتون يعرف ما قد يعنيه هذا التذكار لإيزابيل.

بالتأكيد يعرف.

يميل عليّ ويقبّلني في وجنتيّ، هامساً: «أحببتُها طوال حياتي».

نتحدّث بضع دقائق أخرى، بكلامٍ لا موضوع فيه، ثمّ يغادر.

فجأةً أشعر بالتعب. بالإنهاك. أسحب يدي من قبضة ابني، وأتوجّه إلى الشرفة الهادئة. وهناك، أخطو إلى الليل. نوتردام مضاءة، بوهجٍ يلوّن الأمواج السود على نهر السين. أسمع النهر يتكسّر على الحجر، وحبالَ المراكب تصرّ.

يأتي جولِيَن إلى جانبي.

- إذن، أختكِ (أي خالتي) كانت في معسكر تعذيبٍ في ألمانيا لأنّها

ساعدت في إنشاء ممرّ هروبٍ لإنقاذ الطيّارين المسقطَين، وهذا الممرّ يعني أنّها كانت تعبر جبال البيرينيه؟

نعم، ما فعلتْه كان بطوليّاً هكذا بالضبط.

- لماذا لم أسمع قطّ شيئاً عن هذا، وليس منكِ فقط؟ حتّى صوفي لم تقل شيئاً. لم أكن أعرف حتى أنّ الناس كانوا يهربون عبر الجبال، أو أنّه كانت هناك معسكرات تعذيب مخصّصة للنساء اللائي قاومن النازيّين.

أجيبُه بأصدق جوابٍ وأبسطه. «الرجالُ هم الذين يروون القصص؛ أمّا النساء فيمضين مع الحياة. كانت بالنسبة إلينا حرباً على الهامش. لم تكن هناك مسيراتٌ لنا حين انتهت، ولا ميداليات، أو ذكرٌ في كتب التاريخ. فعلنا ما توجّب علينا فعله في أثناء الحرب، فلمّا انتهتْ الحربُ لملمنا ما تبعثر من حياتنا وبدأنا من جديد. كانت أختك مثلي، تستجدي النسيان بكلّ قواها. ولعلّ هذا خطأٌ من الأخطاء التي ارتكبتُها، حين جعلتُها تنسى. ربّما كان الأجدر أن نتحدّث عن الأمر».

- «إذن كانت إيزابيل تنقذ الطيّارين، وأبي كان أسير حرب، وبقيتِ وحدكِ مع صوفي؟». أعرف أنّ نظرته إليّ بدأتْ تتغيّر، وصار يسأل نفسه عن حجم ما يجهله: «ما الذي فعلتِه يا ماما في أثناء الحرب؟».

أقول بهدوء: «نجوت». عندها، أشتاق إلى ابنتي شوقاً لا أطيقه، فالحقيقةُ أنّنا نجونا. معاً. على الرغم من كلّ الظروف.

- لم يكن هذا سهلاً بالتأكيد.

- «لم يكن سهلاً». هكذا يخرج اعترافي، يفاجئني.

فجأةً ينظر واحدنا إلى الآخر، أمٌّ وولدها. ينظر إليّ بعين الجرّاح التي

لا تفوّت شيئاً، ولا حتى تجاعيدي الجديدة، أو تسارع دقّات قلبي، أو النبض في تجويف حلقي.

يلمس وجنتي، ويبتسم. ولدي. «أوتظنّين أنّ الماضي سيغيّر شعوري تجاهك؟ حقاً ماما؟».

– سيدة موررياك؟

يُسعدني أنّ أحدهم قطع حديثنا؛ فذاك سؤالٌ لا أريد الإجابة عليه.

ألتفتُ فأرى شاباً وسيماً ينتظر أن يتحدّث إليّ. أميركيّ، لكنّه لا يبدو كذلك. لعلّه من نيويورك، بشعره القصير الذي غزاه شيءٌ من الشيب، ونظّارته الأنيقة. يرتدي معطفاً رقيقاً أسود اللّون، وقميصاً أبيض باهظ الثمن، مع بنطال جينز باهت. أتقدّم نحوه، وأمدّ يدي. يفعل الشيء نفسه، في الوقت نفسه، وعندها تلتقي أعيننا، فتتعثّر خطوتي. مجرّد عَثرةٍ، واحدة من بين عثراتٍ كثيرة في سنّي هذه، لكنّ جولين يمسك بي. «ماما؟».

أحدّق في الرجُل الواقف أمامي. أرى فيه الولد الذي أحببتُه من كلّ قلبي، والمرأة التي كانت أعزّ صديقاتي. أقول في همسٍ، أو دعاء: «آرييل دو شامپلان».

يأخذني بين ذراعَيه بقوّةٍ، فتعودُ الذكريات. وما إن أفلتَني حتّى كان كلٌّ منّا يبكي.

– لم أنسكِ قطّ ولم أنسَ صوفي. طلبوا منّي أن أنسى، وحاولتُ، لكنّي لم أستطع. منذ سنواتٍ وأنا أبحث عنكما.

أشعر بذلك الانقباض في قلبي مرّةً أخرى. «صوفي تُوفّيت قبل خمس عشرة سنة».

يُشيح آري ببصره، ثمّ يقول بهدوء: «ظللتُ سنوات أنام مع دميتها».

أقولُ إذْ تعود الذكرى: «بيبي».

يمدُّ آري يده في جيبه، فيُخرج البرواز الذي يحتوي على صورتي مع راشيل. «أعطتني إيّاها أمّي حين تخرّجت».

أحدّقُ فيها من وراء الدموع.

يقول آري ببساطة الحقيقة: «لقد أنقذتما حياتي».

فأسمع شهيق جولين، وأعرف معناه. لديه أسئلة.

- آري هو ابن صديقتي العزيزة. حين رُحّلت راشيل إلى أوشفتز، خبّأته في بيتنا، على الرغم من وجود نازيٍّ يقيم في البيت. كان الأمر...مخيفاً.

- والدتكَ متواضعة. الحقيقةُ أنّها أنقذت تسعة عشر طفلاً يهوديّاً في أثناء الحرب.

أرى الدهشة في عينَي ابني، فأبتسم. أطفالُنا لا يرون منّا حقيقتنا الكاملة.

أقول بهدوء: «أنا من روسينيول. عندليبٌ على طريقتي».

يضيف آري: «ناجية».

يسألني جوليَن: «هل كان بابا يعرف؟».

- «أبوك...». أسكت قليلاً، وأسحب نفَساً: «أبوك. هذا هو، السرّ الذي جعلني أدفن كلّ شيء».

لقد قضيتُ حياتي كلّها أهرب منه، أحاول أن أنساه، لكنّي أكتشفُ الآنَ أنّ ذلك لا طائل منه.

كان أنطوان والد جوليَن من كلّ النواحي المهمّة. لا تُعرف الأبوّةُ بالنطفة، بل بالحبّ.

ألمس خدّه، وأنظر في عينَيه. «لقد أعدتَني إلى الحياة يا جوليَن. فحين أمسكتُ بك، بعد كلّ ما مرّ من قبحٍ، تنفّستُ مرةً أخرى. واستطعتُ أن أحبّ أباك مرّةً أُخرى».

لم أدرك هذه الحقيقة من قبل. فجوليَن أعادني إلى الحياة فعلاً. كان ميلاده معجزةً، وسط اليأس. لقد جعل منّا أسرةً من جديد. سمّيته على اسم والدي الذي تعلّمتُ أن أحبّه في وقتٍ متأخّر، بعد رحيله. وصوفي أصبحتْ الأخت الكبرى، كما كانت دوماً تريد.

أخيراً سأقصّ على ابني حكايتي. ستأتي الذكرى بالألم، لكنّها ستأتي بالفرح أيضاً.

- ستخبرينني بكلّ شيء؟

أقول بابتسامة: «تقريباً. لا بدّ للمرأة الفرنسيّة من أسرار». وأنا... سأحتفظ بسرٍّ واحد.

أبتسم لهما، ولديَّ اللذَين كان من المفترض أن يكسراني، لكنّهما أنقذاني على نحوٍ ما، كلٌّ على طريقته. بسببهما أعرفُ الآن ما يهمّ. ليس ما فقدتُه، بل ذكرياتي. تلتئمُ الجروح. ويدومُ الحبّ.

ونبقى.

كرِسْتِن هانا:

كاتبةٌ وروائيّةٌ أمريكيّة، وُلدت في غاردين غروفي، كاليفورنيا (25 سبتمبر 1960) ودرست في جامعة واشنطن. تلقّت العديد من الجوائز، وكتبت ما يربو على عشرين روايةً، تصدّر الكثير منها قوائم المبيعات، من بينها: رواية «العندليب» الّتي لاقت نجاحاً عالميّاً كبيراً، واختيرت كأفضل روايةٍ تاريخيّةٍ لعام 2015 على موقع غودريدز، وفازت بجائزة خيار الشّعب المرموقة عن فئة أفضل عملٍ روائيٍّ في العام نفسه. إضافةً إلى ذلك، اختيرت كأفضل كتابٍ للعام من قِبل أمازون، وآي تيونز، وباز فيد، ووول ستريت جورنال، ومجلّة بيست، ومجلّة ذا ويك.

أحمد حسن المعيني:

مترجمٌ من عُمان، يحمل شهادة الماجستير في دراسات الترجمة من جامعة مانشستر، ويعمل مُحاضراً في جامعة التقنيّة والعلوم التطبيقيّة في عُمان. حاصل على جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي عام 2015م. نشر عدداً من الترجمات الأدبية، مثل: «يوميات طائر الزنبرك» لهاروكي موراكامي، و «لينكون في الباردو» لجورج سوندرز، و«عودة الروح» ليا جسي، و«حديقة الضباب» لتان توان إنغ، إضافةً إلى ترجماتٍ لكتبٍ تاريخيّةٍ وسياسيّةٍ، مثل: «ظفار: ثورة الرياح الموسمية» لعبد

الرزاق التكريتي، و«ملوك النفط» لأندرو سكوت كوبر، و«الفرس» لهوما كاتوزيان، و«علي شريعتي: سيرة سياسيّة» لعلي رهنما.



يحدثُ أن تنسلّ إلى أعماقك قصّةٌ، فتهزّك بعنفٍ وتتحدّاك أن تُعرض عنها. هذا بالضبط ما حدث لي مع قصّة العندليب. والحقيقةُ أنّي فعلتُ كلّ ما في وسعي كي لا أكتب هذه الرواية، غير أنّ بحثي في موضوع الحرب العالميّة الثانية قادني إلى حكاية الشابّة التي صنعتْ طريق الهروب من فرنسا المحتلّة، فلم أستطع الفكاك منها. هكذا أصبحتْ قصّتها نقطةَ البداية، وهي في حقيقتها قصّةُ بطولةٍ، ومخاطرةٍ، وشجاعةٍ جامحة. لم أستطع صرفَ نفسي عنها؛ فظللتُ أنقّب، وأستكشف، وأقرأ، حتّى هَدَتْني هذه القصّة إلى قصصٍ أُخرى لا تقلّ عنها إدهاشاً.

كان من المستحيل أنْ أتجاهل تلك القصص. هكذا ألفيتُ نفسي تحت وطأة سؤال واحدٍ يسكنني، سؤال يظلّ اليومَ قائماً كما كان قبل سبعين عاماً: تحتَ أيِّ ظرف يمكن أنْ أخاطر بحياتي زوجةً وأمّاً؟ والأهمّ من ذلك، تحت أيِّ ظرف يمكن أن أخاطر بحياة طفلي لأنقذ شخصاً غريباً؟

يحتلّ هذا السؤال موضعاً رئيساً في رواية العندليب. ففي الحبّ نكتشف من نريد أن نكون؛ أمّا في الحرب، فنكتشف من نكون. ولعلّنا في بعض الأحيان لا نريد أن نعرف ما يمكن أنْ نفعله كي ننجو بحياتنا.

في الحرب، كانت قصص النساء دوماً عرضةً للتجاهل والنسيان. فعادةً ما تعود النساء من ساحات المعارك إلى بيوتهنّ ولا يقلنَ شيئاً، ثمّ يمضينَ في حياتهنّ. العندليبُ إذن روايةٌ عن أولئك النساء، والخيارات الجريئة التي اتخذْنَها كي ينقذنَ أطفالهنّ، ويحافظنَ على نمط الحياة الذي اعتدْنه.

كرِسْتِن هانا


منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق




دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع


ISBN 978-9933-641-98-6
9 789933 641986 >